

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المتوفى بصنعاء ١٢٥٠هـ

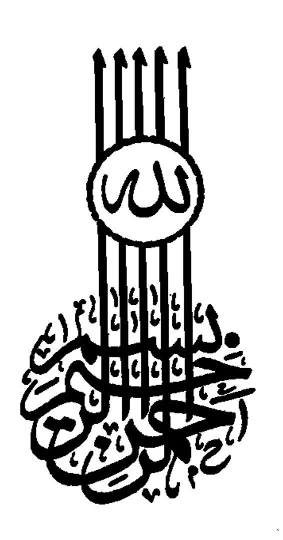
حققه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه

لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء

الجزء الخامس


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

تفسير سورة الجاثية

هى سبع وثلاثون آية . وقيل : ست وثلاثون . وهى مكية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا آية منها ، وهى قوله : ﴿للذين آمنوا﴾ إلى ﴿أيام الله﴾ فإنها نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب كما سيأتى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

قوله : ﴿ حم ﴾ قد تقدم الكلام فى هذه الفاتحة ، وفى إعرابها ، فى فاتحة سورة « غافر » وما بعدها ، فإن جعل اسماً للسورة فمحله الرفع ، على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ ، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، وقوله : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ على الوجه الأول خبر ثان ، وعلى الوجه الثانى خبر المبتدأ ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف ، أو

مبتدأ وخبره ﴿ **من الله العزيز الحكيم** ﴾ ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة فقال: ﴿ **إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾ أى فيها نفسها فإنها من فنون الآيات أو فى خلقها . قال الزجاج : ويدل على أن المعنى : فى خلق السموات والأرض قوله : ﴿ **وفى خلقكم** ﴾ أى فى خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة . قال مقاتل : من تراب ثم من نطفة إلى أن يصير إنسانا ﴿ **وما يبث من دابة آيات** ﴾ أى وفى خلق ما يبث من دابة ، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر ، وخبره الظرف قبله ، وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة والكسائى : « آيات » بالنصب عطفاً على اسم إن ، والخبر قوله : ﴿ **وفى خلقكم** ﴾ كأنه قيل : وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آيات ، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى ، وقرأ الجمهور أيضا : ﴿ **آيات لقوم يعقلون** ﴾ بالرفع ، وقرأ حمزة والكسائى بنصبها مع اتفاقهم على الجر فى « اختلاف » ،أما جر اختلاف فهو على تقدير حرف الجر ، أى فى ﴿ **اختلاف الليل والنهار** ﴾ آيات ، فمن رفع آيات فعلى أنها مبتدأ ، وخبرها : فى اختلاف ، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين . قال الفراء : الرفع على الاستئناف بعد إنّ ، تقول العرب : إن لى عليك مالاً وعلى أخيك مال ، ينصبون الثانى ويرفعونه ، وللنحاة فى هذا الموضع كلام طويل ، والبحث فى مسألة العطف على معمولى عاملين مختلفين ،وحجج المجوزين له،وجوابات المانعين له مقرر فى علم النحو مبسوط فى مطولاته ، ومعنى ﴿ **ما يبث من دابة** ﴾: ما يفرقه وينشره .

﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ تعاقبهما ، أو تفاوتهما فى الطول والقصر ، وقوله : ﴿ **وما أنزل الله من السماء من رزق** ﴾ معطوف على اختلاف ، والرزق : المطر ؛ لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ، وإحياء الأرض : إخراج نباتها ، و ﴿ **موتها** ﴾ : خلوها من النبات ، و معنى ﴿ **تصريف الرياح** ﴾ : أنها تهب تارة من جهة ، وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارة ، وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة ، وتارة ضارة . ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك** ﴾ أى هذه الآيات المذكورة هى حجج الله وبراهينه ، ومحل : ﴿ **نتلوها عليك** ﴾ النصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة ، وآيات الله بيان له أو بدل منه، وقوله : ﴿**بالحق** ﴾ حال من فاعل نتلو ، أو من مفعوله ، أى محقين ، أو ملتبسة بالحق ، ويجوز أن تكون الباء للسببية ، فتتعلق بنفس الفعل ﴿ **فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾ أى بعد حديث الله وبعد آياته . وقيل: إن المقصود : فبأى حديث بعد آيات الله ، وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات ، فيكون من باب : أعجبنى زيد وكرمه . وقيل: المراد: بعد حديث الله ، وهو القرآن كما فى قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ [الزمر : ٢٣] . وهو المراد بالآيات، والعطف لمجرد التغاير العنوانى . قرأ الجمهور : « **تؤمنون** » بالفوقية . وقرأ حمزة والكسائى بالتحتية ، والمعنى : يؤمنون بأى حديث ، وإنما قدم عليه ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ **ويل لكل أفاك أثيم** ﴾ أى لكل كذاب كثير الإثم ، مرتكب لما يوجبه ، والويل : واد فى جهنم ، ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى فقال : ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه** ﴾ وقيل : إن يسمع فى محل نصب على الحال. وقيل : استئناف ، والأول أولى، وقوله: ﴿ **تتلى عليه**﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **ثم يصرّ** ﴾ على كفره ويقيم على ما كان عليه حال كونه ﴿**مستكبراً**﴾ أى يتمادى على كفره ، متعظماً فى نفسه عن الانقياد للحقّ، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة [(١)] وهو أن ينحنى عليها صارا أذنيه [(٢)] . قال مقاتل : إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتخذها هزوا ، وجملة : ﴿ **كأن لم يسمعها** ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنفة، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ﴿ **فبشره بعذاب أليم** ﴾ هذا من باب التهكم ، أى فبشره على إصراره واستكباره ، وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم ﴿ **وإذا علم من آياتنا شيئا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **علم** ﴾ بفتح العين وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل . وقرأ قتادة ومطر الوراق على البناء للمفعول ، والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شىء من آيات الله ﴿ **اتخذها** ﴾ أى الآيات ﴿ **هزوا** ﴾ وقيل : الضمير فى اتخذها عائد إلى ﴿**شيئا** ﴾ ؛ لأنه عبارة عن الآيات ، والأول أولى ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى كل أفاك متصف بتلك الصفات ﴿ **لهم عذاب مهين** ﴾ بسبب ما فعلوا من الإصرار والاستكبار عن سماع آيات الله واتخاذها هزوا ، والعذاب المهين : هو المشتمل على الإذلال والفضيحة ﴿ **من ورائهم جهنم** ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحق جهنم ، فإنها من قدامهم ؛ لأنهم متوجهون إليها ، وعبر بالوراء عن القدّام ،كقوله: ﴿ من ورائه جهنم ﴾ [الرعد:١٦]، وقول الشاعر :

وليس ورائى إن تراخت منيتى

وقيل : جعلها باعتبار إعراضهم عنها كأنها خلفهم ﴿ **ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا** ﴾ أى لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ **ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾ معطوف على ما كسبوا ، أى ولا يغنى عنهم ما اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام ، و « ما » فى الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا فى الجملة الثانية للتأكيد ، ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ فى جهنم التى هى من ورائهم ﴿**هذا هدى** ﴾ جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر، يعنى هذا القرآن هدى للمهتدين به ﴿ **والذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ القرآنية ﴿ **لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ الرجز : أشدّ العذاب . قرأ الجمهور :« أليم » بالجر صفة للرّجز . وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب ﴿ **الله الذى سخر لكم البحر** ﴾ أى جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه ﴿**لتجرى الفلك فيه بأمره**﴾ أى بإذنه وإقداره لكم ﴿**ولتبتغوا من فضله** ﴾ بالتجارة تارة ،

---

(١) العانة : الأتانُ ، والقطيع من حُمُرِ الوَحْشِ . اللسان ١٣/ ٣٠٠ .

(٢) صار أذنه :سواها ونصبها للاستماع ، يقال : صرّ الفرس أُذنيه : ضمهما إلى رأسه . اللسان ٤/ ٤٥٢ .

والغوص للدر ، والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى لكى تشكروا النعم التى تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه**﴾ أى سخر لعباده جميع ما خلقه فى سماواته وأرضه مما تتعلق به مصالحهم وتقوم به معايشهم ، ومما سخره لهم من مخلوقات السموات : الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، وانتصاب ﴿ **جميعاً** ﴾ على الحال من ﴿ **ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ أو تأكيد له ، وقوله : ﴿ **منه** ﴾ يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لـ﴿**جميعا** ﴾ أى كائنة منه ، ويجوز أن يتعلق بسخر ، ويجوز أن يكون حالاً من ما فى السموات ، أو خبراً لمبتدأ محذوف ، والمعنى : أن كل ذلك رحمة منه لعباده ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور من التسخير ﴿**لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وخصّ المتفكرين ؛ لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد .

﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا** ﴾ أى قل لهم : اغفروا يغفروا ﴿ **للذين لا يرجون أيام الله** ﴾ وقيل : هو على حذف اللام ، والتقدير : قل لهم ليغفروا ، والمعنى : قل لهم : يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه ، أى لا يتوقعونها ، ومعنى الرجاء هنا : الخوف . وقيل : هو على معناه الحقيقى ، والمعنى : لا يرجون ثوابه فى الأوقات التى وقتها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى ، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدم فى تفسير قوله : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : ٥] قال مقاتل : لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به فلا يخافون عقابه ، وقيل: المعنى: لا يأملون نصر الله لأوليائه ، وإيقاعه بأعدائه . وقيل : لا يخافون البعث . قيل : والآية منسوخة بآية السيف ﴿ **ليجزى قوما بما كانوا يكسبون** ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى : « لنجزى» بالنون ، أى لنجزى نحن ، وقرأ باقى السبعة بالتحتية مبنيا للفاعل ، أى ليجزى الله . وقرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم بالتحتية مبنيا للمفعول مع نصب قوماً ، فقيل : النائب عن الفاعل مصدر الفعل ، أى ليجزى الجزاء قوماً . وقيل : إن النائب الجار والمجرور ، كما قال الشاعر :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب   لسبّ بذلك الجرو الكلابا

وقد أجاز ذلك الأخفش والكوفيون ، ومنعه البصريون ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم : المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه . وقيل : المعنى : ليجزى الكفار بما عملوا من السيئات ، كأنه قال : لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحنْ ، والأول أولى . ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركين وأعمالهم فقال : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾ والمعنى : أن عمل كل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لا يتجاوزه إلى غيره وفيه ترغيب وتهديد ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ فيجازى كلا بعمله إن كان خيراً فخير، وإن كان شرّاً فشر .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ جميعاً منه ﴾ قال : منه النور والشمس والقمر . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : كل شىء هو من الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ممّ خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدرى ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير، فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس فسأله ممّ خلق الخلق ؟ فقال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال : فممّ خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ فقال الرجل :أما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبىّ ﷺ (١). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية :قال:كان نبى الله ﷺ يعرض عن المشركين إذا آذوه، وكانوا يستهزئون به ويكذبونه ، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة ، فكان هذا من المنسوخ (٢) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٢ ووافقه الذهبى وقال : « سمعه ابن راهويه منه » . (قلت) : « عمر هذا فتشت عنه فلم أعرفه والخبر منكر » والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) ابن جرير ٢٥/ ٨٦ ، ٨٧ .

النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، وبالحكم: الفهم والفقه الذى يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم ، وبالنبوّة : من بعثه الله من الأنبياء فيهم ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات التى أحلها الله لهم ، ومن ذلك المن والسلوى ﴿ **وفضلناهم على العالمين** ﴾ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر ونحوه ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة الدخان ﴿ **وآتيناهم بينات من الأمر** ﴾ أى شرائع واضحات فى الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات . وقيل : العلم بمبعث النبى ﷺ ، وشواهد نبوته ، وتعيين مهاجره : ﴿**فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم**﴾ أى فما وقع الاختلاف بينهم فى ذلك الأمر إلا بعد مجىء العلم إليهم ببيانه وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوته . وقيل : المراد بالعلم : يوشع بن نون ، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم . وقيل : نبوة محمد ﷺ[1] ، فاختلفوا فيها حسدا، وبغيا . وقيل : ﴿ **بغيا** ﴾ من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة ﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ من أمر الدين ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ الشريعة فى اللغة : المذهب ، والملة ، والمنهاج ، ويقال : لمشرعة الماء وهى مورد شاربيه : شريعة ، ومنه الشارع ؛ لأنه طريق إلى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا : ما شرعه الله لعباده من الدين ، والجمع شرائع ، أى جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق ﴿ **فاتبعها** ﴾ : فاعمل بأحكامها فى أمتك ﴿**ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ توحيد الله وشرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم ﴿**إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا** ﴾ أى لا يدفعون عنك شيئاً مما أراده الله بك إن اتبعت أهواءهم ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى أنصار ينصر بعضهم بعضا. قال ابن زيد : إن المنافقين أولياء اليهود ﴿**والله ولى المتقين** ﴾ أى ناصرهم ، والمراد بالمتقين : الذين اتقوا الشرك والمعاصى ، والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بصائر للناس** ﴾ أى براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين ، جعل ذلك بمنزلة البصائر فى القلوب ، وقرئ : « هذه بصائر » أى هذه الآيات ؛ لأن القرآن بمعناها، كما قال الشاعر :

سائل بنى أسد ما هذه الصوت

لأن الصوت بمعنى الصيحة ﴿ **وهدى** ﴾ أى رشد وطريق يؤدى إلى الجنة لمن عمل به ﴿ **ورحمة** ﴾ من الله فى الآخرة ﴿**لقوم يوقنون** ﴾ أى من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشُّبه . ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات** ﴾ أم هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة وما فيها من

---

(١) القرطبى ٩/ ٥٩٨٣ .

معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى ، والهمزة لإنكار الحسبان ، والاجتراح : الاكتساب ومنه الجوارح ، وقد تقدم فى المائدة ، والجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين ، وهو معنى قوله : ﴿ **أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى نسوّى بينهم مع اجتراحهم السيئات ، وبين أهل الحسنات ﴿ **سواء محياهم ومماتهم** ﴾ فى دار الدنيا وفى الآخرة، كلا لا يستوون، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة . وقيل : المراد : إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة ، قرأ الجمهور : ﴿ **سواء** ﴾ بالرفع على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم ، والمعنى : إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص: ﴿ **سواء** ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور فى قوله : ﴿ **كالذين آمنوا** ﴾ أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيد ، وقال : معناه : نجعلهم سواء ، وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر : « مماتهم » بالنصب على معنى : سواء فى محياهم ومماتهم ، فلما سقط الخافض انتصب ، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى ساء حكمهم هذا الذى حكموا به .

﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحقّ** ﴾ أى بالحقّ المقتضى للعدل بين العباد ، ومحل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل ، أو من المفعول ، أو الباء للسببية ، وقوله : ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت** ﴾ يجوز أن يكون على الحق ؛ لأن كلا منهما سبب ، فعطف السبب على السبب ، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف ، والتقدير : خلق الله السموات والأرض ليدلّ بهما على قدرته ولتجزى ، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال الحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئا إلا ركبه . وقال عكرمة : يعبد ما يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً وهواه اتخذه إلهاً . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾ أى على علم قد علمه . وقيل : المعنى : أضله عن الثواب ، على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر. قال الزجاج: على سوء فى علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، ومحل ﴿ **على علم** ﴾ النصب على الحال من الفاعل أو المفعول ﴿**وختم على سمعه وقلبه** ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى ﴿**وجعل على بصره غشاوة** ﴾ أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . قرأ الجمهور : ﴿ **غشاوة** ﴾ بالألف مع كسر الغين ، وقرأ حمزة والكسائى : « غشوة » بغير ألف مع فتح الغين ، ومنه قول الشاعر :

لئن كنت ألبستنى غشوة ... لقد كنت أصفيتك الودّ حينا

وقرأ ابن مسعود والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهى لغة ربيعة ، وقرأ الحسن وعكرمة بضمها وهى لغة عكل ﴿**فمن يهديه من بعد الله** ﴾ أى من بعد إضلال الله له ﴿ **أفلا**

تذكرون ﴾ تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال ؟ ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال: ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أى ما الحياة إلا الحياة التى نحن فيها ﴿ **نموت ونحيا**﴾ أى يصيبنا الموت والحياة فيها ،وليس وراء ذلك حياة .وقيل : نموت نحن ويحيا فيها أولادنا . وقيل :نكون نطفاً ميتة ثم نصير أحياء . وقيل : فى الآية تقديم وتأخير ، أى نحيا ونموت ، وكذا قرأ ابن مسعود ، وعلى كل تقدير فمرادهم بهـذه المقالة : إنكـار البعث وتكذيب الآخرة ﴿ **وما يـهلكنا إلا الدهر** ﴾ أى إلا مرور الأيام والليالى . قال مجاهد : يعنى السنين والأيام ، وقال قتادة : إلا العمر ، والمعنى واحد . وقال قطرب : المعنى : وما يهلكنا إلا الموت . وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله ﴿ **وما لهم بذلك من علم**﴾ أى ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة ، ثم بين كون ذلك صادرا منهم لا عن علم فقال : ﴿ **إن هم إلا يظنون**﴾ أى ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن فما يتكلمون إلا به ، ولا يستندون إلا إليه .

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ أى إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى والدلالة على البعث ﴿ **ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾ أنا نبعث بعد الموت ! أى ما كان لهم حجة ولا متمسك إلا هذا القول الباطل الذى ليس من الحجة فى شىء ، وإنما سماه حجة تهكما بهم .

قرأ الجمهور بنصب ﴿ **حجتهم** ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ وقرأ زيد ابن علىّ وعمرو بن عبيد وعبيد بن عمرو برفع ﴿**حجتهم** ﴾ على أنها اسم كان . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال :﴿**قـل الله يحييكم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ **ثم يجمعكم إلى يوم القيامة** ﴾ بالبعث والنشور ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أى فى جمعكم ؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ بذلك فلهذا حصل معهم الشك فى البعث ، وجاؤوا فى دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ يقول: على هدى من أمر دينه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **سواء محياهم ومماتهم** ﴾ قال : المؤمن فى الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر فى الدنيا والآخرة كافر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان ﴿**وأضله الله على علم** ﴾ يقول : أضله فى سابق علمه [١] . وأخرج النسائى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر ، فإذا

---

(١) ابن جرير ٢٥/ ٩٠ والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٠٥ .

وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر ، فأنزل الله : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (١) .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله فى كتابه : ﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال الله : « يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » (٢) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عزّ وجلّ : يؤذينى ابن آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » (٣) .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾ .

لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون ، وما أجاب به عليهم ، ذكر اختصاصه بالملك فقال: ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ أى هو المتصرف فيهما وحده لا يشاركه أحد من عباده. ثم توعد أهل الباطل فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ أى المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم ؛ لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل فى ﴿ يوم ﴾ هو ﴿ يخسر ﴾ و ﴿ يومئذ ﴾ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: ويوم تقوم الساعة، يوم تقوم الساعة ،

(١) النسائى فى التفسير (٥٠٥) وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ووافقه الذهبى ، وابن جرير ٢٥/ ٩١ عن سعيد بن جبير.

(٢) ابن جرير ٢٥/ ٩٢ ورفعه إلى النبى ﷺ ، وقال ابن كثير ٦/ ٢٦٩ : « وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا » .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٢٦) وفى الأدب (٦١٨١) وفى التوحيد (٧٤٩١) ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ١) وأبو داود فى الأدب (٥٢٧٤) والبيهقى ٣/ ٣٦٥ .

فيكون بدلاً توكيدياً ، والأولى أن يكون العامل فى يوم هو ملك ، أى ولله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولا لـ ﴿ يخسر ﴾ . ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ الخطاب لكل من يصلح له ، أو للنبى ﷺ ، والأمة : الملة ، ومعنى ﴿ جاثية ﴾ : مستوفزة ، والمستوفز : الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله، وذلك عند الحساب ، وقيل : معنى جاثية : مجتمعة ، قال الفراء : المعنى : وترى أهل كلّ ذى دين مجتمعين ، وقال عكرمة : متميزة عن غيرها ، وقال مؤرج : معناه بلغة قريش : خاضعة . وقال الحسن : باركة على الركب . والجثو: الجلوس على الركب. تقول : جثا يجثو ويجثى جثوا وجثيا : إذا جلس على ركبتيه ، والأول أولى ، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب ، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شىء فى لغة العرب ، ومنه قول طرفة يصف قبرين :

ترى جثوتين من تراب عليهما   صفائح صم من صفيح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل وغيرهم من أهل الشرك . وقال يحيى بن سلام : هو خاص بالكفار ، والأول أولى ويؤيده قوله : ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ ، ولقوله فيما سيأتى : ﴿فأما الذين آمنوا ﴾ . ومعنى ﴿ إلى كتابها ﴾ : إلى الكتاب المنزل عليها . وقيل: إلى صحيفة أعمالها . وقيل : إلى حسابها . وقيل : اللوح المحفوظ ، والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ كل أمة ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره :﴿ تدعى﴾ ، وقرأ يعقوب الحضرمى بالنصب على البدل من ﴿ كل أمة ﴾ . ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أى يقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير وشر . ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ هذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة . وقيل: هو من قول الله سبحانه،أى يشهد عليكم ، وهو استعارة . يقال : نطق الكتاب بكذا ، أى بين . وقيل : إنهم يقرؤونه فيذكرون ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لا زيادة فيه ولا نقصان ، ومحل ﴿ ينطق ﴾ النصب على الحال ، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة ، وجملة : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للنطق بالحق ، أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أى بكتبها وتثبيتها عليكم . قال الواحدى : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه قالوا : لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل : المعنى : نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون . وقيل : إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد ، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات وتركوا المباحات . وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ﴾ أى الجنة ، وهذا

تفصيل لحال الفريقين ، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ﴿ **ذلك** ﴾ أى الإدخال فى رحمته ﴿ **هو الفوز المبين** ﴾ أى الظاهر الواضح ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم** ﴾ أى فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ ؛ لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله ، فكذبوها ولم يعملوا بها ﴿ **فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين** ﴾ أى تكبرتم عن قبولها وعن الإيمان بها ، وكنتم من أهل الإجرام ، وهى الآثام ، والاجترام : الاكتساب . يقال : فلان جريمة أهله : إذا كان كاسبهم ، فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصى . ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق** ﴾ أى وعده بالبعث والحساب أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة واقع لا محالة ﴿ **والساعة** ﴾ أى القيامة ﴿ **لا ريب فيها** ﴾ أى فى وقوعها . قرأ الجمهور : ﴿ **والساعة** ﴾ بالرفع على الابتداء ، أو العطف على موضع اسم إن ، وقرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن ﴿ **قلتم ما ندرى ما الساعة** ﴾ أىْ أىّ شىء هى ؟ ﴿ **إن نظن إلا ظنا** ﴾ أى نحدس حدساً ونتوهم توهماً . قال المبرد: تقديره : إن نحن إلا نظنّ ظنا . وقيل : التقدير : إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا . وقيل : إن نظنّ مضمن معنى : نعتقد ، أى ما نعتقد إلا ظنا لا علما . وقيل : إن ظنا له صفة مقدرة ، أى إلا ظنا بينا . وقيل : إن الظن يكون بمعنى العلم والشك ، فكأنهم قالوا : ما لنا اعتقاد إلا الشك ﴿ **وما نحن بمستيقنين** ﴾ أى لم يكن لنا يقين بذلك ، ولم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية .

﴿ **وبدا لهم سيئات ما عملوا** ﴾ أى ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التى هى عليها ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار. ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعا ؛ لأنه أضاف إلى الشىء ما هو واقع فيه ﴿ **ومأواكم النار** ﴾ أى مسكنكم ومستقركم الذى تأوون إليه ﴿ **وما لكم من ناصرين** ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب . ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا** ﴾ أى ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا ولعبا ﴿ **وغرتكم الحياة الدنيا** ﴾ أى خدعتكم بزخارفها وأباطيلها ، فظننتم أنه لا دار غيرها ولا بعث ولا نشور ﴿ **فاليوم لا يخرجون منها** ﴾ أى من النار . قرأ الجمهور : ﴿ **يخرجون** ﴾ بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ أى لا يسترضون ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة . ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين** ﴾ لا يستحق الحمد سواه ، قرأ الجمهور : ﴿ **رب** ﴾ فى المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف ، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن بالرفع فى الثلاثة على تقدير مبتدأ، أى هو رب السموات إلخ ﴿ **وله الكبرياء فى السموات والأرض** ﴾ أى الجلال والعظمة والسلطان ، وخصّ السموات والأرض ؛ لظهور ذلك فيهما ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى العزيز فى سلطانه ، فلا

يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل أفعاله وأقواله وجميع أقضيته .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن باباه قال : قال رسول الله ﷺ : « كأنى أراكم بالكوم دون جهنم جاثين » ثم قرأ سفيان : ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر فى قوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ قال : كل أمة مع نبيها حتى يجىء رسول الله ﷺ على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ قال : هو أم الكتاب فيه أعمال بنى آدم ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ قال : هم الملائكة يستنسخون أعمال بنى آدم [١] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه بمعناه مطولا ، فقام رجل فقال : يا ابن عباس ، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة فى كل يوم وليلة ، فقال ابن عباس : إنكم لستم قوماً عرباً ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ هل يستنسخ الشىء إلا من كتاب ؟ . وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا [٢] . وأخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : إن لله ملائكة ينزلون فى كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم [٣] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما روى عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب وأخرج نحوه الحاكم وصححه [٤] . وأخرج الطبرانى عنه أيضا فى الآية قال : إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقا لما فى كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان [٥] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ قال : نترككم . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار » [٦] .

---

(١) ابن جرير ٢٥/ ٩٤ ، ٩٥ .

(٢، ٣) ابن جرير ٢٥/ ٩٥ .

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٤ ووافقه الذهبى .

(٥) الطبرانى (١٠٥٩٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٩٣ : « وفيه الضحاك ضعفه جماعة ، ووثقه ابن حبان وقال : لم يسمع من ابن عباس ، وبقية رجاله وثقوا » .

(٦) ابن أبى شيبة فى الأدب (٦٦٣٠) ومسلم فى البر (٢٦٢٠ / ١٣٦) وأبو داود فى اللباس (٤٠٩٠) وابن ماجة فى الزهد (٤١٧٤) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٢٨ .

تفسير سورة الأحقاف

هى أربع وثلاثون آية . وقيل : خمس وثلاثون وهى مكية . قال القرطبى : فى قول جميعهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : نزلت سورة ﴿ حم ﴾ الأحقاف بمكة . وأخرج ابن الضريس ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : أقرأنى رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر فخالف قراءته ، فقلت : من أقرأكها ؟ قال : رسول الله ﷺ ، فقلت : والله لقد أقرأنى رسول الله ﷺ غير ذا ، فأتينا رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ، ألم تقرئنى كذا وكذا؟ قال : « بلى » ، وقال الآخر : ألم تقرئنى كذا وكذا ؟ قال : «بلى » فتمعر وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « ليقرأ كل واحد منكما ما سمع ، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف » [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ قد تقدم الكلام على هذا فى سورة غافر وما بعدها مستوفى، وذكرنا وجه الإعراب ، وبيان ما هو الحق من أن فواتح السور من المتشابه الذى يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله. ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿ إلا بالحق ﴾ هو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذى تقتضيه المشيئة الإلهية ، وقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على الحق ، أى إلا

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٢٣ ، ٢٢٤ ووافقه الذهبى .

بالحق ، وبأجل مسمى ، على تقدير مضاف محذوف ، أى وبتقدير أجل مسمى ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهى فيه السموات والأرض وما بينهما ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات . وقيل : المراد بالأجل المسمى : هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات ، والأول أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير شىء ، بل خلقه للثواب والعقاب ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ أى عما أنذروا وخوفوا به فى القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به ، و « ما » فى قوله : ﴿ **ما أنذروا** ﴾ يجوز أن تكون الموصولة ، ويجوز أن تكون المصدرية .

﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله** ﴾ أى أخبرونى ما تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿**أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ أى أىّ شىء خلقوا منها ، وقوله : ﴿ **أرونى** ﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله ﴿ **أرأيتم** ﴾ ، أى أخبرونى أرونى والمفعول الثانى لأرأيتم ﴿ **ماذا خلقوا** ﴾ ، ويحتمل ألا يكون تأكيداً ، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأن أرأيتم يطلب مفعولاً ثانيا ، وأرونى كذلك ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أم هذه هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، والمعنى: بل ألهم شركة مع الله فيها ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا** ﴾ هذا تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك ،والإشارة بقوله: ﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن ، فإنه قد صرح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن الساعة حق لا ريب فيها ، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب ، أو حجة تنافى هـذه الحجة ؟ ﴿**أو أثارة من علم**﴾ قال فى الصحاح : ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ : بقية منه ، وكذا الأثرة بالتحريك . قال ابن قتيبة : أى بقية من علم الأولين ،وقال الفراء والمبرد :يعنى ما يؤثر عن كتب الأولين. قال الواحدى : وهو معنى قول المفسرين ، قال عطاء : أو شىء تأثرونه عن نبى كان قبل محمد ﷺ ؟ قال مقاتل : أو رواية من علم عن الأنبياء ، وقال الزجاج : ﴿ **أو أثارة** ﴾ أى علامة ، والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهى الرواية ، يقال: أثرت الحديث أثره أثرة وأثارة وأثرا : إذا ذكرته عن غيرك . قرأ الجمهور : ﴿**أثارة** ﴾ على المصدر كالسماحة والغواية ، وقرأ ابن عباس وزيد بن على وعكرمة والسلمى وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ، وقرأ الكسائى : « أثرة » بضم الهمزة وسكون الثاء ﴿**إن كنتم صادقين** ﴾ فى دعواكم التى تدعونها ، وهى قولكم : إن لله شريكاً ، ولم تأتوا بشىء من ذلك ، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى والنقلى على خلافه .

﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له** ﴾ أى لا أحد أضل منه ولا أجهل،فإنه دعا من لا يسمع ، فكيف يطمع فى الإجابة فضلا عن جلب نفع أو دفع ضر ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضل الضالين ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقوله : ﴿ **إلى يوم القيامة**﴾ غاية لعدم الاستجابة ﴿ **وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ الضمير الأول للأصنام،

والثانى لعابديها ، والمعنى : والأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع بين الضميرين باعتبار معنى « من » وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء ؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل. ﴿ **وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء** ﴾ أى إذا حشر الناس العابدون للأصنام كانت الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وقد قيل : إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم . وقيل : المراد : أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال . وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] ﴿ **وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين ، أى جاحدين مكذبين . وقيل : الضمير فى ﴿ **كانوا** ﴾ للعابدين كما فى قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] والأول أولى .

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى آيات القرآن حال كونها ﴿ **بينات** ﴾ واضحات المعانى ظاهرات الدلالات ﴿ **قال الذين كفروا للحق** ﴾ أى لأجله وفى شأنه ، وهو عبارة عن الآيات ﴿**لما جاءهم** ﴾ أى وقت أن جاءهم ﴿ **هذا سحر مبين**﴾ أى ظاهر السحرية .﴿ **أم يقولون افتراه**﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل أيقولون افتراه ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من صنيعهم ، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم : إن رسول الله افترى ما جاء به ، وفى ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا يخفى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا** ﴾ أى قل إن افتريته على سبيل الفرض والتقدير ، كما تدّعون ، فلا تقدرون على أن تردّوا عنى عقاب الله ، فكيف أفترى على الله لأجلكم ،وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عنى ؟ ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه** ﴾ أى تخوضون فيه من التكذيب ؛ والإفاضة فى الشىء: الخوض فيه والاندفاع فيه ، يقال: أفاضوا فى الحديث ، أى اندفعوا فيه ، وأفاض البعير: إذا دفع جرته من كرشه، والمعنى : الله أعلم بما تقولون فى القرآن وتخوضون فيه من التكذيب له ، والقول بأنه سحر وكهانة ﴿ **كفى به شهيدا بينى وبينكم** ﴾ فإنه يشهد لى بأن القرآن من عنده وأنى قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود ، وفى هذا وعيد شديد ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ لمن تاب وآمن وصدق بالقرآن وعمل بما فيه ، أى كثير المغفرة والرحمة بليغهما.

﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ البدع من كل شىء المبدأ ، أى ما أنا بأول رسول ، قد بعث الله قبلى كثيراً من الرسل ، قيل : البدع بمعنى : البديع ، كالخف والخفيف ، والبديع : ما لم ير له مثل ، من الابتداع وهو الاختراع، وشىء بدع بالكسر ، أى مبتدع ، وفلان بدع فى هذا الأمر ، أى بديع ،كذا قال الأخفش ، وأنشد قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعترى   رجالا غدت من بعد بؤسى وأسعدا

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبى عبلة : « بدعا » بفتح الدال على تقدير حذف المضاف ،

أى ما كنت ذا بدع ، وقرأ مجاهد بفتح الباء وكسر الدال على الوصف ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ أى ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ وهذا إنما هو فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فقد علم أنه وأمته فى الجنة ، وأن الكافرين فى النار . وقيل : إن المعنى : ما أدرى ما يفعل بى ولابكم يوم القيامة، وأنها لما نزلت فرح المشركون وقالوا : كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا ، وإنه لا فضل له علينا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ [الفتح : ٢] والأول أولى ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**يوحى** ﴾ مبنيًا للمفعول ، أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع من عندى شيئا ، والمعنى : قصر أفعاله ﷺ على الوحى لا قصر اتباعه على الوحى ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين**﴾ أى أنذركم عقاب الله وأخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح .

وقد أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن ابن عباس: ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ قال : الخط . قال سفيان : لا أعلم إلا عن النبى ﷺ ، يعنى : أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كان نبى من الأنبياء يخط ، فمن صادف مثل خطه علم » [٢] . ومعنى هذا ثابت فى الصحيح ، ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة ، ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط ؟ وأين السند الصحيح إلى ذلك النبىّ ؟ أو إلى نبينا ﷺ أن هذا الخط هو على صورة كذا، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ قال : « حسن الخط » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس : ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ قال : خط كان يخطه العرب فى الأرض [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ يقول: بينة من الأمر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ يقول : لست بأول الرسل ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ فأنزل الله

---

(١) أحمد ١/ ٢٢٦ والطبرانى (١٠٧٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، إلا أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الخط فقال : « هو أثارة من علم » ورجال أحمد رجال الصحيح » ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٤ ووافقه الذهبى .

(٢) كشف الأستار فى العلم (١٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « رواه البزار عن شيخه أبى الصباح محمد بن الليث ، وأبو الصباح محمد بن الليث ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يخطئ ويخالف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ١٠٨/٧ : « رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس موقوفا ، قال : فى قوله عز وجل: ﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال: «جودة الخط »، والحاكم فى التفسير ٢/ ٤٥٤ وسكت عنه ووافقه الذهبى .

بعد هذا : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح : ٢] ، وقوله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية [الفتح : ٥] ، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعا [١] . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ ليغفر لك الله﴾ . وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء قالت : لما مات عثمان بن مظعون قلت : رحمك الله أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ولا بكم»، قالت أمّ العلاء: فو الله لا أزكى بعده أحداً [٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ .

قوله : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ إن كان من عند الله ﴾ يعنى : ما يوحى إليه من القرآن . وقيل : المراد: محمد ﷺ ، والمعنى : إن كان مرسلاً من عند الله [٣] ، وقوله : ﴿وكفرتم به ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، وكذلك قوله : ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ﴾ ، والمعنى : أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل الله فى التوراة على مثله ، أى القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة ، المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث ، والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى وإن اختلفت الألفاظ ، وقال الجرجانى : مثل صلة ، والمعنى : وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدى ، ﴿فآمن﴾

(١) ابن جرير ٢٦/ ٥ .
(٢) البخارى فى الجنائز (١٢٤٣) وفى مناقب الأنصار (٣٩٢٩) وفى التعبير (٧٠٠٣) .
(٣) فى المخطوطة : « من عند غير الله » والصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله ، وهذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد الله بن سلام،كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ، وفى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع ، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد : رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة وصدقه ، واختار هذا ابن جرير ، وسيأتى فى آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام ، وأن هذه الآية مدنية لا مكية ، وروى عن مسروق أن المراد بالرجل : موسى عليه السلام ، وقوله : ﴿ واستكبرتم ﴾ معطوف على شهد ، أى آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان ، ومن فقد هداية الله له ضل. وقد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجاج : محذوف ، تقديره : أتؤمنون . وقيل : قوله : ﴿ فآمن واستكبرتم ﴾ وقيل : محذوف ، تقديره : فقد ظلمتم لدلالة ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ عليه . وقيل تقديره : فمن أضل منكم ، كما فى قوله:﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ﴾ الآية [فصلت : ٥٢] ، وقال أبو على الفارسى تقديره : أتأمنون عقوبة الله ؟ وقيل : التقدير : ألستم ظالمين ؟

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ أى لأجلهم ، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ أى لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إليه ؛ لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختصّ برحمته من يشاء ، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء ، ويصطفى لدينه من يشاء ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بمحمد ﷺ . وقيل: بالإيمان ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ فجاوزوا نفى خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم كما قالوا : أساطير الأوّلين ، والعامل فى « إذ » مقدّر ، أى ظهر عنادهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ فسيقولون ﴾ لتضاد الزمانين، أعنى : المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضا . وقيل : إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور ، أى لم يهتدوا به ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون ﴿ ومن قبله كتاب موسى﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من « من » على أنها حرف جرّ وهى مع مجرورها خبر مقدّم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو هى مستأنفة ، والكلام مسوق لردّ قولهم : ﴿هذا إفك قديم﴾ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى ، وهو التوراة ، وتوافقا فى أصول الشرائع يدل على أنه حقّ وأنه من عند الله ، ويقتضى بطلان قولهم ، وقرئ بفتح ميم « من » على أنها موصولة ونصب كتاب ، أى وآتينا من قبله كتاب موسى . ورويت هذه القراءة عن الكلبى ﴿ إماما ورحمة ﴾ أى يقتدى به فى الدين ورحمة من الله لمن آمن به ، وهما منتصبان على الحال ، قاله الزجاج وغيره ، وقال الأخفش : على القطع ، وقال أبو عبيدة : أى جعلناه إماما ورحمة ﴿ وهذا كتاب مصدق ﴾ يعنى : القرآن فإنه مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ، ولغيره من كتب الله . وقيل: مصدق للنبى ﷺ ، وانتصاب ﴿ لسانا عربيا ﴾ على الحال الموطئة وصاحبها الضمير فى مصدّق العائد إلى كتاب ، وجوّز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدّق ، والأول أولى . وقيل : هو على

حذف مضاف ، أى ذا لسان عربى ، وهو النبى ﷺ ﴿**لينذر الذين ظلموا**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**لينذر**﴾ بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب ، أى لينذر الكتاب الذين ظلموا. وقيل : الضمير راجع إلى الله . وقيل : إلى الرسول ، والأول أولى ، وقرأ نافع وابن عامر والبزى بالفوقية على أن فاعله النبى ﷺ ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ،وقوله : ﴿**وبشرى للمحسنين**﴾ فى محل نصب عطفا على محل ﴿**لينذر**﴾ وقال الزجاج : الأجود أن يكون فى محل رفع ، أى وهو بشرى . وقيل : على المصدرية لفعل محذوف ، أى وتبشر بشرى ، وقوله : ﴿**للمحسنين**﴾ متعلق ببشرى .

﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**﴾ أى جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة ﴿**فلا خوف عليهم**﴾ الفاء زائدة فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ المعنى : أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم ، ولا يحزنون من فوات محبوب ، وأن ذلك مستمر دائم . ﴿**أولئك أصحاب الجنة**﴾ أى أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم ﴿**خالدين فيها**﴾ ، وفى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نفى الخوف والحزن على الدوام ، والاستقرار فى الجنة على الأبد ، مما لا تطلب الأنفس سواه ، ولا تتشوف إلى ما عداه ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾ أى يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات لله وترك معاصيه .

﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حسنا**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**حسنا**﴾ بضم الحاء وسكون السين ، وقرأ علىّ والسلمى بفتحهما ، وقرأ ابن عباس والكوفيون : « إحسانا » ، وقد تقدّم فى سورة العنكبوت :﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ [العنكبوت : ٨] من غير اختلاف بين القراء ، وتقدّم فى سورة الأنعام ، وسورة بنى إسرائيل : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، [الإسراء : ٢٣] فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء فى هذه الآية ، وعلى جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية ، أى وصيناه أن يحسن إليهما حسنا ، أو إحسانا . وقيل : على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى: ألزمنا . وقيل : على أنه مفعول له ﴿**حملته أمه كرها ووضعته كرها**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**كرهاً**﴾ فى الموضعين بضم الكاف ، وقرأ أبو عمرو وأهل الحجاز بفتحها . قال الكسائى : وهما لغتان بمعنى واحد . قال أبو حاتم : الكره بالفتح لا يحسن ؛ لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبو عبيدة قراءة الفتح قال : لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح إلا التى فى سورة البقرة : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ [البقرة : ٢١٦]، وقيل : إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره ، وإنما ذكر سبحانه حمل الأمّ ووضعها ؛ تأكيدا لوجوب الإحسان إليها الذى وصى به،والمعنى:أنها حملته ذات كره ووضعته ذات كره .ثم بين سبحانه مدّة حمله وفصاله فقال : ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهرا**﴾ أى مدتهما هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع ، أى يفطم عنه .

وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ؛ لأن مدة الرضاع سنتان ، أى مدة

الرضاع الكامل كما فى قوله : ﴿ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة ﴾ [البقرة : ٢٣٣] فذكر سبحانه فى هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب ؛ لأنها حملته بمشقة ، ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ، ولم يشاركها الأب فى شىء من ذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ وفصاله ﴾ بالألف ، وقرأ الحسن ويعقوب وقتادة والجحدرى: « وفصله» بفتح الفاء وسكون الصاد بغير ألف ، والفصل والفصال بمعنى ، كالفطم والفطام والقطف والقطاف ﴿ حتى إذا بلغ أشدّه ﴾ أى بلغ استحكام قوّته وعقله ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ، ولابد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها ، أى عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده ، قيل : بلغ ثمانى عشرة سنة . وقيل : الأشد : الحلم قاله الشعبى وابن زيد . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين ، والأول أولى لقوله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شىء وراء بلوغ الأشد . قال المفسرون : لم يبعث الله نبيا قط إلا بعد أربعين سنة ﴿ قال رب أوزعنى ﴾ أى ألهمنى . قال الجوهرى : استوزعت الله فأوزعنى ، أى استلهمته فألهمنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ﴾ أى ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية ، وعلى والدىّ من التحنن علىّ منهما حين ربيانى صغيراً . وقيل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية ، وعلى والدىّ بالغنى والثروة، والأولى عدم تقييد النعمة عليه وعلى أبويه بنعمة مخصوصة ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى وألهمنى أن أعمل عملا صالحا ترضاه منى ﴿وأصلح لى فى ذريتى ﴾ أى اجعل ذريتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكنين منه . وفى هذه الآية دليل على أنه ينبغى لمن بلغ أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ، وقد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث ﴿ إنى تبت إليك ﴾ من ذنوبى ﴿وإنى من المسلمين ﴾ أى المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الإنسان المذكور ، والجمع لأنه يراد به الجنس وهو مبتدأ، وخبره : ﴿ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ من أعمال الخير فى الدنيا ، والمراد بالأحسن : الحسن كقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ﴾ [الزمر : ٥٥] وقيل : إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به : ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن وليس بأحسن ﴿ ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ فلا نعاقبهم عليها . قرأ الجمهور : « يتقبل ويتجاوز » على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز : الغفران ،وأصله من جزت الشىء: إذا لم تقف عليه ، ومعنى ﴿ فى أصحاب الجنة ﴾:أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلكهم ، فالجارّ والمجرور فى محل النصب على الحال كقولك : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى كائناً فى جملتهم . وقيل: إن « فى » بمعنى « مع » ، أى مع أصحاب الجنة . وقيل : إنهما خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى أصحاب الجنة ﴿ وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ وعد الصدق مصدر مؤكد

لمضمون الجملة السابقة ؛ لأن قوله : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم ﴾ إلخ فى معنى الوعد بالتقبل والتجاوز، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف ، أى وعدهم الله وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا.

وقد أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبرانى ، والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعى قال : انطلق النبى ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «يامعشر اليهود ، أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يحطّ الله تعالى عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه » ، فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال : « أبيتم ، فوالله لأنا الحاشر،وأنا العاقب ،وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم » ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال:كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، قال : فإنى أشهد بالله أنه النبىّ الذى تجدونه مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، قالوا : كذبت ، ثم ردّوا عليه وقالوا شرا، فقال رسول الله ﷺ : « كذبتم لن يقبل منكم قولكم » ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام ، فأنزل الله : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾إلى قوله : ﴿ لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وصححه السيوطى [١] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : « إنه من أهل الجنة » إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت:﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ﴾ [٢] . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل ﴾ ، ونزل فىّ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : ٤٣] [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل ﴾ قال : عبد الله بن سلام [٤] . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية ، فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين نحن أعزّ ونحن ونحن ، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ [٥] . وأخرج ابن المنذر عن عون ابن أبى شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله : يقال لها : زنيرة ، وكان عمر

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٨ ، ٩ والطبرانى ١٨/ ٤٦ ، ٤٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨ ، ١٠٩ : « ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٣/ ٤١٥ ، ٤١٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٨١٢) ومسلم فى الفضائل (٢٤٨٣/ ١٤٧) والنسائى فى الكبرى فى المناقب (٨٢٥٢) .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٦) وفى المناقب (٣٨٠٣) وقال : « حديث غريب » وابن جرير ٢٦/ ٧ .

(٤) ابن جرير ٢٦/ ٨ . (٥) ابن جرير ٢٦/ ٩ .

يضربها على الإسلام ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة ، فأنزل الله فى شأنها : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ الآية . وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة ، يقولون : لو كان خيراً ما جعلهم الله أوّل الناس فيه»[1] .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل قوله : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه** ﴾ الآية إلى قوله :﴿ **وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ فى أبى بكر الصديق . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إنى لصاحب المرأة التى أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك ، فقلت لعمر : لم تظلم ؟ قال : كيف ؟ قلت اقرأ : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ [البقرة: ٢٣٣] كم الحول ؟ قال : سنة ، قلت : كم السنة ؟ قال : اثنا عشر شهراً ، قلت: فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملان ؛ويؤخر الله من الحمل ما شاء ، ويقدم ما شاء ، فاستراح عمر إلى قولى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان ، لأن الله يقول : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : أنزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعنى** ﴾ الآية ، فاستجاب الله له فأسلم والداه جميعا ، وإخوته ، وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضا ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ [الليل : ٥] إلى آخر السورة .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه ، ذكر من قال لهما قولا يدلّ على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان فقال : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما** ﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ، ولهذا أخبر عنه بالجمع ، و ﴿ **أف** ﴾ كلمة

---

(١) الطبرانى (٧٠٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤٩ : « رواه الطبرانى والبزار وفيه من لم أعرفهم » .

تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه . قرأ نافع وحفص : ﴿أفٍ﴾ بكسر الفاء مع التنوين ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بكسرمن غير تنوين وهي لغات ، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة بني إسرائيل . واللام في قوله :﴿ لكما ﴾ لبيان التأفيف ، أي التأفيف لكما كما في قوله : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] ، قرأ الجمهور : ﴿أتعدانني﴾ بنونين مخففتين ، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة وأسكنها الباقون ، وقرأ أبوحيوة والمغيرة وهشام بإدغام إحدى النونين في الأخرى ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى كأنهم فروا من توالي مثلين مكسورين . وقرأ الجمهور : ﴿ أن أخرج ﴾ بضم الهمزة وفتح الراء مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء ،مبنيا للفاعل ، والمعنى : أتعدانني أن أبعث بعد الموت ، وجملة : ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ في محل نصب على الحال ، أي والحال أن قد مضت القرون من قبلي فماتوا ولم يبعث منهم أحد ، وهكذا جملة : ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ في محل نصب على الحال ، أي والحال أنهما يستغيثان الله له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان ، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال : استغاث الله واستغاث به ، وقال الرازي : معناه : يستغيثان بالله من كفره ، فلما حذف الجار وصل الفعل . وقيل : الاستغاثة : الدعاء فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : يقال: أجاب الله دعاءه وغواثه، وقوله: ﴿ ويلك ﴾ هو بتقدير القول ،أي يقولان له: ويلك ، وليس المراد به: الدعاء عليه ، بل الحث له على الإيمان ، ولهذا قالا له : ﴿ آمن إن وعد الله حق ﴾ أي آمن بالبعث إن وعد الله حقّ لا خلف فيه ﴿ فيقول ﴾ عند ذلك مكذبا لما قالاه : ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم التي سطروها (١) في الكتب . قرأ الجمهور : ﴿ إن وعد الله ﴾ بكسر إن على الاستئناف أو التعليل ، وقرأ عمر بن فايد والأعرج بفتحها ، على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء ، أي آمن بأن وعد الله بالبعث حق ﴿أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ أي أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول ، أي وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[ص :٨٥] كما يفيده قوله:﴿ في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ ، وجملة : ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لما قبله ، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر ، وأنه الذي قال لوالديه ما قال ، فإنه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وسيأتي بيان سبب النزول في آخر البحث إن شاء الله .

﴿ ولكلّ درجات مما عملوا ﴾ أي لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار في هذه الآية

(١) في المخطوطة : « سطرونها » والصحيح ما أثبتناه .

تذهب سفلا ، ودرجات أهل الجنة تذهب علوّاً ﴿وليوفيهم أعمالهم﴾ أى جزاء أعمالهم . قرأ الجمهور : « لنوفيهم » بالنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار الثانية أبو حاتم ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى لا يزاد مسىء ولا ينقص محسن ، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير وشرّ ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها . ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار ويقربون منها . وقيل : معنى ﴿ يعرضون ﴾ : يعذبون ، من قولهم : عرضه على السيف . وقيل : فى الكلام قلب . والمعنى: تعرض النار عليهم ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ أى يقال لهم ذلك ، قيل: وهذا القدر هو الناصب للظرف ، والأوّل أولى. قرأ الجمهور: ﴿ أذهبتم ﴾ بهمزة واحدة ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهمزتين مخففتين ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ . قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بالاستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين . قال الكلبى : المراد بالطيبات : اللذات وما كانوا فيه من المعايش ﴿ واستمتعتم بها ﴾ أى بالطيبات ، والمعنى : أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التى فى معاصى الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيباً منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى العذاب الذى فيه ذلّ لكم وخزى عليكم . قال مجاهد وقتادة : الهون : الهوان بلغة قريش ﴿ بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ أى بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده ﴿ وبما كنتم تفسقون﴾ أى تخرجون عن طاعة الله وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب فى عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصى الله سبحانه وتعالى، وهذا شأن الكفرة فإنهم قد جمعوا بينهما .

وقد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية ابن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه . فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا ، فقال: خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أفّ لكما ﴾ فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عُذرى [(١)]. وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر، والحاكم وصححه ،وابن مردويه عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان: سنة أبى بكر وعمر، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه : ﴿والذى قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية .فبلغ ذلك عائشة فقالت:كذب مروان والله ما هو بـه ، ولو شئت أنْ أسمى الذى نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان فى صلبه ، فمروان من لعنة الله [(٢)] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هذا ابن

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٢٧) .

(٢) النسائى فى التفسير (٥١١) وصححه الحاكم٤/ ٤٨١ على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى إلا أنه =

لأبى بكر (١) . وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدى ، ولا يصح هذا كما قدمنا .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ أى واذكر يا محمد لقومك أخا عاد ، وهو هود بن عبد الله ابن رباح ، كان أخاهم فى النسب ،لا فى الدين ،وقوله: ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ بدل اشتمال منه ، أى وقت إنذاره إياهم ﴿بالأحقاف ﴾ وهى ديار عاد، جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره ، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم ، والمعنى : أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا ويخافوا . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصتهم مع هود ليقتدى به ويهون عليه تكذيب قومه . قال عطاء: الأحقاف :رمال بلاد الشحر ، وقال مقاتل : هى باليمن فى حضرموت ، وقال ابن زيد : هى رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ أى وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده ،كذا قال الفراء وغيره ، وفى قراءة ابن مسعود : « من بين يديه ومن بعده » والجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود وبين قوله لقومه: ﴿ إنى أخاف عليكم ﴾ والأوّل أولى ، والمعنى : أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ، ثم رجع إلى كلام هود لقومه ، فقال حاكياً عنه :

= قال : « فيه انقطاع ، محمد لم يسمع من عائشة » ، وقال ابن كثير ٦/ ٢٨٤ : « وهذا عام فى كل من قال هذا ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه » ولفظ النسائى والحاكم « فمروانُ فَضَضٌ مِنْ لعنة الله » ، ومعنى فَضَضٌ :قطعة وطائفة منها . النهاية ٣/ ٤٥٤ .

(١) ابن جرير ٢٦/ ١٣ .

﴿إنّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وقيل : إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام وأوفق بالمعنى . ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أى لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل : لتزيلنا. وقيل : لتمنعنا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول عروة بن أذينة [(١)] :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفو كا ففى آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك . ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى وعدك لنا به . ﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ أى إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندى ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، فأما العلم بوقت مجيء العذاب فما أوحاه إلى ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ حيث بقيتم مصرّين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ما ليس من وظائف الرسل . ﴿ فلما رأوه عارضا ﴾ الضمير يرجع إلى « ما » فى قوله : ﴿ بما تعدنا﴾ . وقال المبرد والزجاج : الضمير فى ﴿ رأوه ﴾ يعود إلى غير مذكور وبينه قوله : ﴿ عارضا ﴾ فالضمير يعود إلى السحاب ، أى فلما رأوا السحاب عارضا ، فـ﴿عارضا﴾ نصب على التكرير، يعنى : التفسير ، وسمى السحاب عارضا ؛ لأنه يبدو فى عرض السماء ، قال الجوهرى : العارض : السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله: ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ وانتصاب ﴿ عارضاً ﴾ على الحال أو التمييز ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أى متوجها نحو أوديتهم . قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم ، يقال له : المعتب ، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا ، و ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ أى غيم فيه مطر ، وقوله : ﴿مستقبل أوديتهم ﴾ صفة لعارض ؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية ، فصح وصف النكرة به ، وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود ، فقال : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ يعنى : من العذاب حيث قالوا : ﴿فأتنا بما تعدنا ﴾ ، وقوله : ﴿ ريح ﴾ بدل من ما ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وجملة : ﴿فيها عذاب أليم﴾ صفة لريح ، والريح التى عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه .

﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح ، أى تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير : الإهلاك ، وكذا الدمار. وقرئ : « يدمر » بالتحتية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ورفع كل على الفاعلية من دمر دمارا ، ومعنى ﴿ بأمر ربها ﴾ : أن ذلك بقضائه وقدره ﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ أى لا ترى أنت يامحمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم . قرأ الجمهور : ﴿ لا ترى ﴾ بالفوقية على الخطاب ، ونصب مساكنهم . وقرأ حمزة وعاصم بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع

---

(١) هو : عروة بن يحيى ـ ولقبه أُذَيْنَة ـ بن مالك بن الحارث الليثى ، شاعر غزل مقدم .من أهل المدينة وهو معدود من الفقهاء والمحدثين ، سمع ابن عمر، وروى عنه مالك فى الموطأ ، والشعر أغلب عليه ، وتوفى فى حدود الثلاثين ومائة . الأعلام ٤/ ٢٢٧ ، فوات الوفيات ٢/ ٤٥١ .

مساكنهم . قال سيبويه : معناه : لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية . قال الكسائى والزجاج : معناها : لا يرى شىء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى كما تقول : ما قام إلا هند ، والمعنى : ما قام أحد إلا هند ، وفى الكلام حذف، والتقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم **﴿كذلك نجزى القوم المجرمين﴾** أى مثل ذلك الجزاء نجزى هؤلاء ، وقد مرّ بيان هذه القصة فى سورة الأعراف . **﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾** قال المبرد : ما فى قوله : **﴿ فيما ﴾** بمنزلة « الذى » ، و« إن » بمنزلة « ما » ، يعنى النافية ، وتقديره : ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان. وقيل: « إن » زائدة ، وتقديره: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه ، وبه قال (١) القتيبى، ومثله قول الشاعر :

فما إن طبنا (٢) جبن ولكن   منايانا ودولة آخرينا (٣)

والأوّل أولى ؛ لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش وأمثالهم **﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾** أى إنهم أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التى بها تدرك الأدلة ، ولهذا قال : **﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ﴾** أى فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد ، وصحة الوعد والوعيد ، وقد قدمنا من الكلام على وجه إفراد السمع وجمع البصر ما يغنى عن الإعادة ، و« من » فى: **﴿ من شىء﴾** زائدة ، والتقدير : فما أغنى عنهم شىء من الإغناء ، ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع **﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾** الظرف متعلق بـ **﴿ أغنى ﴾** ، وفيها معنى التعليل ، أى لأنهم كانوا يجحدون **﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾** أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا : **﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾** الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى: قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوهما مما كان مجاورا لبلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم **﴿ وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾** أى بينا الحجج ونوعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا .

ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال: **﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾** أى فهلا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : **﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾** [يونس : ١٨] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم. قال الكسائى : القربان : كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة ، والجمع قرابين كالرهبان

(١) فى المطبوعة : « وبه قال قال القتيبى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، ومن القرطبى ٩/ ٦٠٢٨ .
(٢) الطب هنا : الشأن والعادة ، والشهوة والإرادة . القاموس المحيط ١٣٩ .
(٣) البيت لفروة بن مُسَيْك بن الحارث بن سلمة الغطيفى المرادى ، قال البخارى :« له صحبة ، روى عنه أبو سبرة ، يعد فى الكوفيين ، وأصله من اليمن ، ووفد على النبى ﷺ سنة تسع واستعمله على مراد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد فكان معه فى بلاده حتى توفى النبى ﷺ وقاتل أهل الردة ، وكان منهم عمرو بن معدى كرب . الإصابة ٣/ ٢٠٥ والأعلام ٥/ ١٤٣ .

والرهابين ، وأحد مفعولى ﴿ **اتخذوا** ﴾ ضمير راجع إلى الموصول ، والثانى آلهة ،و﴿ **قربانا** ﴾ حال ، ولا يصح أن يكون ﴿ **قربانا** ﴾ مفعولا ثانيا ، و﴿ **آلهة** ﴾ بدلا منه لفساد المعنى،وقيل : يصح ذلك ولا يفسد المعنى ، ورجحه ابن عطية وأبو البقاء وأبو حيان ، وأنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى غابوا عن نصرهم ولم يحضروا عند الحاجة إليهم . وقيل : بل هلكوا . وقيل : الضمير فى ضلوا راجع إلى الكفار ، أى تركوا الأصنام وتبرؤوا منها ، والأول أولى . والإشارة بقوله : ﴿ **وذلك** ﴾ إلى ضلال آلهتهم ، والمعنى : وذلك الضلال والضياع أثر ﴿ **إفكهم** ﴾ الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقربهم إلى الله . قرأ الجمهور : ﴿ **إفكهم** ﴾ بكسر الهمزة وسكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكا ، أى كذبهم ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل ، أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد ، وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء ،أى صيرهم آفكين . قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ وكسر الفاء بمعنى : صارفهم ، ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ معطوف على ﴿ **إفكهم** ﴾ أى وأثر افترائهم أو أثر الذى كانوا يفترونه ، والمعنى : وذلك إفكهم، أى كذبهم الذى كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى يكذبون أنها آلهة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأحقاف : جبل بالشام . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته [(١)] ، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية . قال : « يا عائشة ، وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا : ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ » [(٢)] . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فسألته فقال : « لا أدرى ، لعله كما قال قوم عاد :﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ » [(٣)] . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم** ﴾ قالوا :غيم فيه مطر ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا

---

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ، والجمع: لهوات . القاموس المحيط ٨ / ١٧ . والنهاية ٤/ ٢٨٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٨٩٩/ ١٦) والبيهقى ٣/ ٣٦٠ .

(٣) مسلم فى صلاة الاستسقاء (٨٩٩/ ١٤ ، ١٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٧) وقال : « حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٥١٢) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٩١) .

من رجالهم ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما لهم أنين ،ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم فى البحر، فهو [1] قوله : ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ .وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمى هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه** ﴾ يقول : لم نمكنكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : عاد مكنوا فى الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأطول أعماراً .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

لما بين سبحانه أن فى الإنس من آمن ، وفيهم من كفر . بين أيضا فى الجن كذلك ، فقال : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن** ﴾ العامل فى الظرف مقدر ، أى واذكر إذ صرفنا ، أى وجهنا إليك نفرا من الجن ، وبعثناهم إليك ، وقوله : ﴿ **يستمعون القرآن** ﴾ فى محل نصب صفة ثانية لـ ﴿ **نفرا** ﴾ أو حال ؛ لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى ﴿ **فلما حضروه** ﴾ أى حضروا القرآن عند تلاوته . وقيل : حضروا النبىّ ﷺ ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأول أولى ﴿ **قالوا أنصتوا** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : اسكتوا ، أمروا بعضهم بعضا بذلك لأجل أن يسمعوا ﴿ **فلما قضى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **قضى** ﴾ مبنيا للمفعول، أى فرغ من تلاوته، وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير ولاحق بن حميد وأبو مجلز على البناء للفاعل ، أى فرغ النبى ﷺ من تلاوته ، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير فى

---

(١) فى المطبوعة : « فقهوا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ **حضروه** ﴾ للقرآن ، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبى ﷺ ﴿ **ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ أى انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ومحذرين لهم ، وانتصاب ﴿ **منذرين** ﴾ على الحال المقدّرة ، أى مقدّرين الإنذار ، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبى ﷺ ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ذلك . ﴿ **قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى** ﴾ يعنون القرآن ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فوصلوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا. قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ﴿**مصدقا لما بين يديه** ﴾ أى لما قبله من الكتب المنزلة ﴿ **يهدى إلى الحق** ﴾ أى إلى الدين الحق ﴿ **وإلى طريق مستقيم** ﴾ أى إلى طريق الله القويم. قال مقاتل: لم يبعث الله نبيا إلى الجنّ والإنس قبل محمد ﷺ .

﴿ **يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به** ﴾ يعنون : محمدا ﷺ أو القرآن ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أى بعضها ،وهوماعدا حقّ العباد .وقيل : إن « من » هنا لابتداء الغاية ، والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهى إلى غفران ترك ماهو الأولى ، وقيل : هى زائدة ﴿ **ويجركم من عذاب أليم** ﴾ وهو عذاب النار ، وفى هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى ، وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة ، والأول أولى . وبه قال مالك والشافعى وابن أبى ليلى . وعلى القول الأوّل ، فقال القائلون به : إنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم : كونوا ترابا ، كما يقال للبهائم، والثانى أرجح.وقد قال الله سبحانه فى مخاطبة الجن والإنس:﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] فامتّن سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، ولاينافى هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازى محسنهم بالجنة وهو مقام فضل ؟ ومما يؤيد هذا أيضاً ما فى القرآن الكريم فى غير موضع أن جزاء المؤمن الجنة،وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال : لا إله إلا الله الجنة، وغير ذلك مما هو كثير فى الكتاب والسنة .

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم أم لا ؟ وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما فى قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ [يوسف : ١٠٩] وقال : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ [الفرقان : ٢٠] وقال سبحانه فى إبراهيم الخليل : ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : ٢٧] فكل نبىّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته ، وأما قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فقيل : المراد من مجموع الجنسين وصدق على أحدهما وهم الإنس كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : ٢٢] أى من أحدهما .

﴿ **ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض** ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ، ولا

يقدر على الهرب منه ؛ لأنه وإن هرب كل مهرب فهو فى الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، وفى هذا ترهيب شديد ، ﴿ **وليس له من دونه أولياء** ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله ، بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه ، استحالة نجاته بواسطة غيره ، والإشارة بقوله : ﴿**أولئك**﴾ إلى من لا يجب داعى الله ، وأخبر أنهم ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى ظاهر واضح . ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث ، فقال : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض**﴾ الرؤية هنا هى القلبية التى بمعنى العلم ،والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدّر ، أى ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذى خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداء ﴿ **ولم يعى بخلقهن** ﴾ أى لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال : عىّ بالأمر وعيى : إذا لم يهتد لوجهه ، ومنه قول الشاعر :

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضها الحمامة (١)

قرأ الجمهور :﴿ **ولم يعى** ﴾ بسكون العين وفتح الياء مضارع عيى . وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء . ﴿**بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد ،كما فى قوله: ﴿ وكفى بالله شهيدا﴾ [النساء: ١٦٦] قال الكسائى والفراء والزجاج : العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام ، فتقول : ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور فى محل رفع على أنها خبر لأن ، وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر والأعرج والجحدرى وابن أبى إسحاق ويعقوب وزيد بن علىّ : « يقدر » على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال : لأن دخول الباء فى خبر أن قبيح ﴿ **بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء . ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار** ﴾ الظرف متعلق بقول مقدّر ، أى يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ وهذه الجملة هى المحكية بالقول، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفى الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم ؛ لأن المشاهدة هى حق اليقين الذى لا يمكن جحده ولا إنكاره ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ أى بسبب كفركم بهذا فى الدنيا وإنكاركم له ، وفى هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتهكم عظيم .

لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ والفاء جواب شرط محذوف ، أى إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجع فى الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم ، أى أرباب الثبات والحزم فإنك منهم . قال مجاهد : أولو العزم من الرسل خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد

(١) البيت للشاعر عبيد بن الأبرص .

ﷺ ، وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : هم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم . وقال السدىّ : هم ستة : إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد ﷺ . وقيل : نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس . وقال الشعبى والكلبى : هم الذين أمروا بالقتال ، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة. وقيل: هم نجباء الرّسل المذكورون فى سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط . واختار هذا الحسين ابن الفضل لقوله بعد ذكرهم :﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠] . وقيل: إن الرسل كلهم أولو عزم ، وقيل : هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل . وقال الحسن : هم أربعة : إبراهيم وموسى وداود وعيسى ﴿ **ولا تستعجل لهم** ﴾ أى لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون**﴾ من العذاب ﴿**لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ أى كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم . قرأ الجمهور: ﴿ **بلاغ** ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى هذا الذى وعظتهم به بلاغ ، أو تلك الساعة بلاغ ، أو هذا القرآن بلاغ ، أو هو مبتدأ ، والخبر لهم الواقع بعد قوله : ﴿ **ولا تستعجل** ﴾ أى لهم بلاغ ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وزيد بن علىّ «بلاغاً » بالنصب على المصدر ، أى بلغ بلاغا ، وقرأ أبو مجلز :«بلغ » بصيغة الأمر ، وقرئ :« بلغ » بصيغة الماضى ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **فهل يهلك** ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل ، والمعنى : أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى الله . قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك . قيل : وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء . قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن منيع ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن مسعود قال : هبطوا ، يعنى : الجن ، على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، قالوا : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ضلال مبين** ﴾ (١) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن الزبير ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن** ﴾ . قال : بنخلة ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ [الجن : ١٧] (٢) . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه [عن ابن عباس] (٣) :﴿ **واذ**

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٦ ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الدلائل ص ٣٠٤ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٢٨ .
(٢) أحمد ١/ ١٦٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٢ : « ورجاله رجال الصحيح » وابن جرير ٢٦/ ٢٢ عن عكرمة عن ابن عباس .
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج ، والدر المنثور ٦/ ٤٤ .

صرفنا إليك نفرا من الجن ﴾ الآية . قال : كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم عنه نحوه وقال : أتوه ببطن نخلة (٢) . وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : صرفت الجنّ إلى رسول الله ﷺ مرّتين وكانوا أشراف الجن بنصيبين (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ قال: آذنته بهم شجرة (٤) . وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسولَ الله ﷺ منكم أحدٌ ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه منا أحد . ولكنا فقدناه ذات ليلة ، فقلنا: اغتيل ، استطير (٥) ما فعل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قبل حراء فأخبرناه فقال: « إنه أتانى داعى الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » (٦) . وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ ، وقد روى نحو هذا من طرق . والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه ﷺ مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود ، ولم يحضر فى الأخرى . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذوا عنه الشرائع .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : أولو العزم من الرسل : النبى ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وأخرج ابن مردويه عنه قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن عائشة قالت : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ، قال : « يا عائشة ، إن الدين لا ينبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال : ﴿ **اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله » (٧) .

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٢٠ والطبرانى (١١٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٠٩ : « فأما إسناد الطبرانى فى الكبير ففيه النضر أبو عمر ، وهو متروك » .

(٢) ابن جرير ٢٦/ ٢٠ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٣٠٨ .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٩: « وأحد إسنادى الأوسط فيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، والإسناد الآخر فيه عفير بن معدان ، وهو متروك».

(٤) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم فى الصلاة (٤٥٠/ ١٥٣) .

(٥) اغتيل : قتل سرا ، والغيلة ، بالكسر : الخديعة والاغتيال ، وقتل فلان غيلة ، أى خدعة . اللسان ١١/ ٥١٢، ٥١٣ . استطير : طارت به الجن . اللسان ٤/ ٥١٢ ، ٥١٣ .

(٦) أحمد ١/ ٤٣٦ ومسلم فى الصلاة (٤٥٠/ ١٥٠) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٨) وقال:«حسن صحيح» .

(٧) الديلمى (٨٦٢٨) .

تفسير سورة محمد ﷺ

وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا . وهى تسع وثلاثون آية . وقيل : ثمان وثلاثون . وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع ، إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه . فنزل قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك** ﴾ . وقال الثعلبى : إنها مكية ، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير وهو غلط من القول ، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه قال : نزلت سورة محمد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، عن ابن عمر أن النبىّ ﷺ كان يقرأ بهم فى المغرب :﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ⑥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ⑧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ⑨ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ⑩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ⑪ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

---

(١) الطبرانى (١٣٣٨٠) وفى الصغير ١/ ٤٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ : « رواه الطبرانى فى الثلاثة ، ورجاله رجال الصحيح » .

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ هم كفار قريش كفروا بالله وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ، كذا قال مجاهد والسدّى . وقال الضحاك :معنى ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ :عن بيت الله بمنع قاصديه . وقيل : هم أهل الكتاب ، والموصول مبتدأ وخبره ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أى أبطلها وجعلها ضائعة . قال الضحاك : معنى ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبى ﷺ ، وجعل الدائرة عليهم فى كفرهم . وقيل : أبطل ما عملوه فى الكفر مما يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام ، وفكّ الأسارى ، وقرى الأضياف ، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها ،لكن المعنى : أنه سبحانه حكم ببطلانها . ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين فقال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ ظاهر هذا العموم فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ولا يمنع من ذلك خصوص سببها ، فقد قيل : إنها نزلت فى الأنصار . وقيل : فى ناس من قريش . وقيل : فى مؤمنى أهل الكتاب ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله ؛ تنبيها على شرفه وعلوّ مكانه ، وجملة ﴿**وهو الحق من ربهم** ﴾ معترضة بين المبتدأ وهو قوله: ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ وبين خبره وهو قوله : ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ ومعنى كونه الحقّ : أنه الناسخ لما قبله ، وقوله : ﴿ **من ربهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ومعنى ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى السيئات التى عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ أى شأنهم وحالهم . قال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة : حالهم . وقيل : أمرهم ، والمعانى متقاربة . قال المبرد : البال : الحال هاهنا . قيل : والمعنى : أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم ، وأرشدهم إلى أعمال الخير ، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال ، ونحو ذلك ، وقال النقاش : إن المعنى : أصلح نياتهم ، ومنه قول الشاعر :

فإن تقبلى بالودّ أقبل بمثله وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ووعد به المؤمنين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده . وقيل : إنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فالباطل : الشرك ، والحق : التوحيد والإيمان ، والمعنى : أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات ، ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم ، أى أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة .

قال الزجاج : ﴿ **كذلك يضرب** ﴾ :يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال الكافرين ، يعنى : أن من كان كافراً أضلّ الله عمله، ومن كان مؤمنا كفر الله سيئاته .

﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، والمراد بالذين كفروا : المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، وانتصاب ﴿ **ضرب** ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف . قال الزجاج : أى فاضربوا الرقاب ضرباً ، وخص الرقاب بالذكر ؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها . وقيل : هو منصوب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولهم : يا نفس صبراً . وقيل : التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب . وقيل : إنما خصّ ضرب الرقاب ؛ لأن فى التعبير عنه من الغلظة والشدة ما ليس فى نفس القتل ، وهى حزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن ، وعلوّه وأحسن أعضائه ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم**﴾ أى بالغتم فى قتلهم وأكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل ، وهو مأخوذ من الشىء الثخين ، أى الغليظ ، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ الوثاق بالفتح ويجىء بالكسر : اسم الشىء الذى يوثق به كالرباط . قال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق ، أى شده . قال : والوثاق بكسر الواو لغة فيه . قرأ الجمهور : ﴿ **فشدوا** ﴾ بضم الشين ، وقرأ السلمى بكسرها ، وأنما أمرسبحانه بشدّ الوثاق لئلا ينفلتوا ، والمعنى : إذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم وأحيطوهم بالوثاق ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ أى فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا ، أو تفدوا فداء . والمنّ : الإطلاق بغير عوض ، والفداء : ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم . قرأ الجمهور: ﴿ **فداءً**﴾ بالمد ، وقرأ ابن كثير : « فدى » بالقصر ، وإنما قدّم المنّ على الفداء ؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به ، كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أوزار الحرب التى لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز ، والمعنى : أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية هى ألا تكون حرب مع الكفار . قال مجاهد : المعنى: حتى لا يكون دين غير دين الإسلام وبه قال الحسن والكلبى ، قال الكسائى: حتى يسلم الخلق . قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقيل : المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . وروى عن الحسن وعطاء أنهما قالا : فى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق .

وقد اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل : إنها منسوخة فى أهل الأوثان ، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم ، والناسخ لها قوله:﴿ فاقتلوا المشركين

حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] وقوله : ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم ﴾ [الأنفال : ٥٧] وقوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] وبهذا قال قتادة والضحاك والسدّى وابن جريج وكثير من الكوفيين ، قالوا : والمائدة آخر ما نزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة . وقيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] روى ذلك عن عطاء وغيره ، وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة ، والإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المنّ والفداء ، وبه قال مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبو عبيد وغيرهم ، وهذا هو الراجح ؛ لأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك ، وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ [الأنفال: ٦٧] فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

﴿ **ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلك . وقيل: فى محل نصب على المفعولية بتقدير فعل ، أى افعلوا ذلك ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف يدلّ عليه ما تقدّم ، أى ذلك حكم الكفار ، ومعنى ﴿ **لو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ ، أى قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ﴿ **ولكن** ﴾ أمركم بحربهم ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين فى سبيله ، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ، ويعذب الكفار بأيديهم .
﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **قاتلوا** ﴾ مبنيا للفاعل . وقرأ أبو عمرو وحفص : ﴿ **قتلوا** ﴾ مبنيا للمفعول،وقرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا ، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وأبو حيوة : « قتلوا » على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى والرابعة : أن المجاهدين فى سبيل الله ثوابهم غير ضائع ، وعلى القراءة الثانية والثالثة : أن المقتولين فى سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد . ثم ذكر سبحانه مالهم عنده من جزيل الثواب فقال : ﴿**سيهديهم** ﴾ أى سيهديهم الله سبحانه إلى الرشد فى الدنيا ويعطيهم الثواب فى الآخرة ﴿**ويصلح بالهم** ﴾ أى حالهم وشأنهم وأمرهم . قال أبو العالية : قد ترد الهداية ، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المفضية إليها ، وقال ابن زياد : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير ﴿**ويدخلهم الجنة عرّفها لهم**﴾ أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا تفرقوا إلى منازلهم . قال الواحدى: هذا قول عامة المفسرين، وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف، أى عرفوا طرقها ومساكنها وبيوتها . وقيل : هذا التعريف بدليل يدلهم عليها ، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله ، كذا قال مقاتل . وقيل : معنى ﴿ **عرفها لهم**﴾: طيبها بأنواع الملاذّ ، مأخوذ من العرف ، وهو الرائحة .

ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ويفتح لكم ، ومثله قوله : ﴿ ولينصرنّ الله من ينصره ﴾ [الحج : ٤٠] قال قطرب :إن تنصروا نبى الله ينصركم ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ أى عند القتال،وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى مواطن الحرب،وقيل : على الإسلام . وقيل : على الصراط ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم** ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف تقديره : فتعسوا بدليل ما بعده ، ودخلت الفاء تشبيهاً للمبتدأ بالشرط ، وانتصاب ﴿ **تعساً** ﴾ على المصدر للفعل المقدر خبراً، قال الفراء : مثل سقياً لهم ورعياً، وأصل التعس : الانحطاط والعثار ، قال ابن السكيت : التعس : أن يجر على وجهه ، والنكس : أن يجر على رأسه ، قال: والتعس أيضا : الهلاك ، قال الجوهرى:وأصله الكبّ وهو ضد الانتعاش ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستنى يا مجمع [(١)]

قال المبرّد : أى فمكروها لهم ، وقال ابن جريج : بعدا لهم. وقال السدّى: خزياً لهم ، وقال ابن زيد : شقاء لهم ، وقال الحسن : شتماً لهم ، وقال ثعلب : هلاكاً لهم ، وقال الضحاك : خيبةً لهم . وقيل : قبحاً لهم ، حكاه النقاش . وقال الضحاك : رغماً لهم ، وقال ثعلب أيضا : شرا لهم ، وقال أبو العالية : شقوة لهم ، واللام فى : ﴿**لهم** ﴾ للبيان كما فى قوله : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] وقوله : ﴿ **وأضل أعمالهم** ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه فى خبرية الموصول . والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى ماتقدّم مما ذكره الله من التعس والإضلال ، أى الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر ﴿ **بأنهم كرهوا ما أنزل الله** ﴾ على رسوله من القرآن ، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما فى القرآن من التوحيد والبعث ﴿ **فأحبط** ﴾ الله ﴿ **أعمالهم** ﴾ بذلك السبب ، والمراد بالأعمال : ما كانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة وإن كانت باطلة من الأصل ؛ لأن عمل الكافر لايقبل قبل إسلامه.

ثم خوّف الله سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ أى ألم يسيروا فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أى آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية . ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال : ﴿ **دمّر الله عليهم** ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والتدمير: الإهلاك ، أى أهلكهم واستأصلهم ، يقال : دمّره ودمر عليه بمعنى ، ثم توعد مشركى مكة فقال : ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ أى لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة . قال الزجاج وابن جرير : الضمير فى ﴿ **أمثالها** ﴾ يرجع إلى ﴿ **عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ وإنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدّد الأمم المعذبة .وقيل : أمثال العقوبة.

(١) الشاعر : مجمع بن هلال بن خالد ، من بنى تيم . شاعر فارسى جاهلى ، أغار على بعض بنى مجاشع ، فقتل وأسر وغنم وله فى ذلك شعر ، وهو من المعمرين . الأعلام ٥/ ٢٨٠ .

وقيل :الهلكة . وقيل : التدميرة ، والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿ **بأن الله مولى الذين آمنوا** ﴾ أى بسبب أن الله ناصرهم ، ﴿ **وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ أى لا ناصر يدفع عنهم . وقرأ ابن مسعود: « ذلك بأن الله وليّ الذين آمنوا » قال قتادة : نزلت يوم أحد . ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قد تقدّم تفسير الآية فى غير موضع ، وتقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات ، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام** ﴾ أى يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عن العاقبة لاهون بما هم فيه ﴿ **والنار مثوى لهم** ﴾ أى مقام يقيمون به ، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه ، والجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله** ﴾ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿ **وأصلح بالهم** ﴾ قال : أمرهم [١] . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **أضلّ أعمالهم** ﴾ قال : كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملا .

وأخرج النحاس عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ قال : فجعل الله النبى والمؤمنين بالخيار فى الأسار، إن شاؤوا قتلوهم ، وإن شاؤوا استعبدوهم ، وإن شاؤوا فادوهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً فى الآية قال : هذا منسوخ نسختها : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] [٢] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله ، فقال ابن عمر ، ليس بهذا أمرنا إنما قال الله : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن المنذر وابن مردويه عن ليث قال : قلت لمجاهد : بلغنى أن ابن عباس قال : لا يحلّ قتل الأسارى ؛ لأن الله قال : ﴿ **فإما منا بعدوإما فداء** ﴾ فقال مجاهد : لا تعبأ بهذا شيئا أدركت أصحاب رسول الله ﷺ وكلهم ينكر هذا ، ويقول هذه منسوخة إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبى ﷺ وبين المشركين ، فأما اليوم فلا ، يقول الله : ﴿ فاقتلوا [٣] المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] ويقول : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ فإن كان من مشركى العرب لم يقبل شىء منهم إلا الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار ، إن شاؤوا

(١) ابن جرير ٢٦/ ٢٥ وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٧ ووافقه الذهبى .
(٢) ابن جرير ٢٦/ ٢٦ .
(٣) فى المخطوطة بدون الفاء .

قتلوهم، وإن شاؤوا استحيوهم ، وإن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا (١) ، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفانى (٢) .
وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهدياً ،وحكما عدلاً ،فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » (٣).وأخرج ابن سعد وأحمد والنسائى والبغوى والطبرانى وابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبى ﷺ من حديث قال:« لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج » (٤).وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال:لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾ .

خوّف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشد منهم فقال : ﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم** ﴾ قد قدّمنا أن « كأين » مركبة من الكاف وأىّ ، وأنها بمعنى كم الخبرية ، أى وكم من قرية ، وأنشد الأخفش قول لبيد (٥) :

(١) عبد الرزاق فى الجهاد (٩٤٠٤) .
(٢) ورد فى معناه عن النبى ﷺ الحديث الذى رواه أبو داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانيا ، ولا طفلا ، ولاصغيرا ، ولا امرأة ، ولا تَغُلُّوا . . . » أبو داود فى الجهاد (٢٦١٤) .
(٣) الحديث رواه بألفاظ مختلفة : أحمد ٢/ ٢٤٠ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٤٨) وفى البيوع (٢٢٢٢) وفى المظالم (٢٤٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٥٥/ ٢٤٢) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٤) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٧٨) والبيهقى فى الغصب ٦/ ١٠١ .
(٤) ابن سعد ٧ / ٤٢٧ ، ٨٢٤ وأحمد ٤ / ١٠٤ والنسائى فى الكبرى فى السير كما فى تحفة الأشراف للمزى ٤/ ٥٤ والطبرانى (٦٣٦٠).
(٥) فى المطبوعة : « الوليد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وكأين رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للأسير المكبل

ومعنى الآية : وكم من قرية هى أشد قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها أهلكناهم ﴿**فلا ناصر لهم**﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم ، وهم قريش الذين هم أهل قرية النبى ﷺ وهى مكة ، فالكلام على حذف المضاف كما فى قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] قال مقاتل : أى أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر فقال : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وهو مبتدأ ،والخبر ﴿ **كمن زين له سوء عمله** ﴾ وأفرد فى هذا باعتبار « لفظ » من ، وجمع فى قوله : ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ باعتبار معناها ، والمعنى : أنه لا يستوى من كان على يقين من ربه، ولا يكون كمن زين له سوء عمله ، وهو عبادة الأوثان والإشراك بالله والعمل بمعاصى الله ، واتبعوا أهواءهم فى عبادتها ، وانهمكوا فى أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلا عن حجة نيرة ، ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال بين الفرق فى مرجعهما ومآلهما فقال: ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان ما فيها ، ومعنى ﴿ **مثل الجنة** ﴾ : وصفها العجيب الشأن ، وهو مبتدأ وخبره محذوف ، قال النضر بن شميل :تقديره :ما يسمعون . وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، قال : والمثل هو الوصف ومعناه : وصف الجنة ، وجملة :﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ إلخ مفسرة للمثل . وقيل : إن ﴿ **مثل** ﴾ زائدة . وقيل : إن ﴿ **مثل الجنة** ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ **فيها أنهار** ﴾ . وقيل :خبره ﴿**كمن هو خالد** ﴾ ، والآسن : المتغير، يقال : أسن الماء يأسن أسونا : إذا تغيرت رائحته ، ومثله الآجن ، ومنه قول زهير :

قد أترك القرن مصفراً أنامله يميد فى الرمح ميد المائح الأسن

قرأ الجمهور : ﴿ **آسن** ﴾ بالمدّ ،وقرأ حميد وابن كثير بالقصر،وهما لغتان كحاذر وحذر . وقال الأخفش : إن الممدود يراد به الاستقبال ، والمقصور يراد به الحال ، ﴿ **وأنهار من لبن لم يتغير طعمه** ﴾ أى لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا ؛ لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ أى لذيذة لهم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون ، يقال : شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى ، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ [الصافات : ٤٦] قرأ الجمهور : ﴿ **لذة** ﴾ بالجر صفة لـ ﴿ **خمر** ﴾ ، وقرئ بالنصب على أنه مصدر ، أو مفعول له ، وقرئ بالرفع صفة لـ ﴿ **أنهار** ﴾ ﴿ **وأنهار من عسل مصفى** ﴾ أى مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكدر ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات** ﴾ أى لأهل الجنة فى الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات،أى من كل صنف من أصنافها ،و« من» زائدة للتوكيد ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾ لذنوبهم ، وتنكير مغفرة للتعظيم ، أى ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿ **كمن هو خالد فى النار** ﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: أم من هو فى نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمن هو خالد فى النار ، أو خبر لقوله: ﴿ **مثل الجنة** ﴾

كما تقدّم . ورجح الأول الفراء فقال : أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار؟ قال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء ، كم زين له سوء عمله وهو خالد فى النار ؟ فقوله : « كمن » بدل من قوله : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله** ﴾ وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة فى النعيم كمثل أهل النار فى العذاب الأليم ، وقوله : ﴿**وسقوا ماء حميما** ﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية ، لكنه راعى فى الأول لفظ « من »،وفى الثانية معناها . والحميم : الماء الحار الشديد الغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهى معنى قوله : ﴿ **فقطع أمعاءهم** ﴾ لفرط حرارته ، والأمعاء جمع معى، وهى : ما فى البطون من الحوايا .

﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ أى من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظ « من » ، وجمع فى قوله : ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك** ﴾ باعتبار معناها، والمعنى : أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ ومواطن خطبه التى يمليها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿ **قالوا للذين أوتوا العلم** ﴾ وهم علماء الصحابة . وقيل : عبد الله بن عباس . وقيل : عبد الله بن مسعود . وقيل: أبو الدرداء ، والأول أولى ، أى سألوا أهل العلم فقالوا لهم : ﴿ **ماذا قال آنفا** ﴾ أى ماذا قال النبى الساعة على طريقة الاستهزاء ، والمعنى : أنا لم نلتفت إلى قوله ، و﴿ **آنفا** ﴾ يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات ، ومنه : أمر آنف ، أى مستأنف، وروضة أنف ، أى لم يرعها أحد ، وانتصابه على الظرفية ، أى وقتا مؤتنفا ، أو حال من الضمير فى « قال » . قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء ، إذا ابتدأته ، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، مستعار من الجارحة ، ومنه قول الشاعر:

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع [(١)]

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين من المنافقين ﴿ **الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾ فلم يؤمنوا ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾ فى الكفر والعناد . ثم ذكر حال أضدادهم فقال ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أى والذين اهتدوا إلى طريق الخير ، فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق . وقيل : زادهم النبى ﷺ . وقيل : زادهم القرآن . وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى ، وعلى كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة فى الدين ، ﴿**وآتاهم تقواهم** ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم عليها . والتقوى قال الربيع: هى الخشية ، وقال السدّى : هى ثواب الآخرة ، وقال مقاتل : هى التوفيق للعمل الذى يرضاه. وقيل : العمل بالناسخ وترك المنسوخ . وقيل : ترك الرخص والأخذ بالعزائم ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة** ﴾ أى القيامة

(١) البيت للحطيئة .

﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أى فجأة ، وفى هذا وعيد للكفار شديد ، وقوله : **﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾** بدل من **﴿ الساعة ﴾** بدل اشتمال ، وقرأ أبو جعفر الرواسى : « إن تأتهم » بإن الشرطية **﴿ فقد جاء أشراطها ﴾** أى أماراتها وعلاماتها وكانوا قد قرؤوا فى كتبهم أن النبىّ ﷺ آخر الأنبياء ، فبعثته من أشراطها ، قاله الحسن والضحاك . والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها . وقيل : المراد بأشراطها هنا : أسبابها التى هى دون معظمها . وقيل : أراد بعلامات الساعة : انشقاق القمر والدخان ، كذا قال الحسن . وقال الكلبى : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ، ومنه قول أبى زيد الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا ... فـقد جعلت أشـراط أولـه تـبدو

﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ ﴿ ذكراهم ﴾ مبتدأ وخبره **﴿ فأنى لهم ﴾** ، أى أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله: **﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾** [الفجر : ٢٣] و **﴿ إذا جاءتهم ﴾** اعتراض بين المبتدأ والخبر. **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾** أى إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشرّ هو الشرك والعمل بمعاصى الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا ربّ سواه ، والمعنى : اثبت على ذلك واستمر عليه ؛ لأنه ﷺ قد كان عالما بأنه لا إله إلا الله قبل هذا . وقيل : ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. وقيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم **﴿ واستغفر لذنبك﴾** أى استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك ، أواستغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى . وقيل : الخطاب له، والمراد الأمة ، ويأبى هذا قوله : **﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾** فإن المراد به : استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم**﴿والله يعلم متقلبكم﴾** فى أعمالكم **﴿ ومثواكم ﴾** فى الدار الآخرة . وقيل : متقلبكم فى أعمالكم نهاراً ، ومثواكم فى ليلكم نياما . وقيل : متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم فى الأرض ، أى مقامكم فيها ، قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا ، ومثواكم فى القبور .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنت أحبّ بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج ، فأعتى الأعداء من عتا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية » فأنزل الله: **﴿وكأين من قرية ﴾** الآية [(١)] .
وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس**﴿ أنهار من ماء غير آسن ﴾** قال : متغير. وأخرج أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر

---

(١) أبو يعلى (٢٦٦٢) وابن جرير ٢٦/ ٣١ وأورده ابن كثير ٦/ ٣١٤ ولم يعلق عليه .

العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها» [١] .وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، والبيهقى عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل فى الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن فى الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر فى الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة [٢] .

وأخرج ابن جرير ،والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا** ﴾ قال :كنت فيمن يُسأل [٣]. وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال : أنا منهم . وفى هذا منقبة لابن عباس جليلة ؛ لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ ، فإن النبى ﷺ مات وهو فى سنّ البلوغ ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبى ﷺ ، ووصفُ الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم ، وهو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه ، ومزيد فقهه فى كتاب الله وسنة رسوله ، مع كون أترابه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس ، ماذا قال آنفا ؟ فيقول :كذا وكذا . وكان ابن عباس أصغر القوم ، فأنزل الله الآية ، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال : هو عبد الله بن مسعود [٤] . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : هو عبد الله بن مسعود . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ قال : لما أنزل القرآن آمنوا به ، فكان هدى ، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى .

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ قال : أوّل الساعات ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالوسطى والسبابة [٥] . ومثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد [٦] ، وفى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة وبيان ما قد وقع منها وما لم يكن قد وقع وهى تأتى فى مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والديلمى عن عبد الله ابن عمر [٧] عن النبى ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الاستغفار »

---

(١) أحمد ٥/ ٥ والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٧١) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) الخطيب فى تاريخ بغداد ١/ ٥٥ وابن حجر فى المطالب العالية (٤٦٨٩) وقال البوصيرى : « رواه الحارث مرسلا ، ورواته ثقات » .

(٣) ابن جرير ٢٦/ ٣٢ و صححه الحاكم ٢/ ٤٥٧ ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبة (١٢٢٨٩) .

(٥) البخارى فى الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم فى الفتن (٢٩٥٠/ ١٣٢ ، ١٣٥) والترمذى فى الفتن (٢٢١٤) والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣١٣.

(٦) البخارى فى التفسير (٤٩٣٦) وفى الطلاق (٥٣٠١) وفى الرقاق (٦٥٠٣) .

(٧) فى المخطوطة : « عبد الله بن عمرو » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

ثم قرأ : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ [(١)] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ قال رسول الله ﷺ: « إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » [(٢)]. وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت النبى ﷺ ، فأكلت معه من طعام ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، قال : « ولك » ، فقيل : أنستغفر لك يا رسول الله ﷺ ؟ قال : « نعم ولكم » ، وقرأ: ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ [(٣)] . وقد وردت أحاديث فى استغفاره ﷺ لنفسه ولأمته وترغيبه فى الاستغفار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **والله يعلم متقلبكم** ﴾ فى الدنيا ﴿ **ومثواكم** ﴾ فى الآخرة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ .

سأل المؤمنون ربهم عزّ وجل أن ينزل على رسوله ﷺ سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد ، ونيل ما أعدّ الله للمجاهدين من جزيل الثواب ، فحكى الله عنهم

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١٠ / ٨٧: « رواه الطبرانى ، وفيه الإفريقى وغيره من الضعفاء » ، والديلمى (١٤١٢) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٩) وقال : « حسن صحيح » والبيهقى فى الشعب (٦٢٩) .

(٣) أحمد ٥/ ٨٢ ومسلم فى الفضائل (٢٣٤٦/ ١١٢) وعزاه المزى إلى الترمذى فى الشمائل (٢ / ٨) ، والنسائى فى التفسير (٥١٦) وابن جرير ٢٧/ ٤ .

ذلك بقوله: ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة**﴾ أى هلا نزلت ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة**﴾ أى غير منسوخة ﴿ **وذكر فيها القتال** ﴾ أى فرض الجهاد . قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشدّ القرآن على المنافقين ، وفى قراءة ابن مسعود : « فإذا أنزلت سورة محدثة » أى محدثة النزول . قرأ الجمهور: ﴿ **فإذا أنزلت** ﴾ و﴿ **ذكر**﴾ على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ زيد بن علىّ وابن عمير : « نزلت » و« ذكر» على بناء الفعلين للفاعل ونصب القتال ﴿ **رأيت الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شك ، وهم المنافقون ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت** ﴾ أى ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال وميلهم إلى الكفار . قال ابن قتيبة والزجاج: يريد : أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم ، وينظرون إليك نظرا شديدا كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿ **فأولى لهم** ﴾ قال الجوهرى: وقولهم : « أولى » لك تهديد ووعيد ، وكذا قال مقاتل والكلبى وقتادة . قال الأصمعى: معنى قولهم فى التهديد : أولى لك ، أى وليك وقاربك ما تكره ، وأنشد قول الشاعر :

فعادى بين هاذيتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل فى أولى أحسن مما قاله الأصمعى ، وقال المبرد : يقال لمن همّ بالغضب ثم أفلت : أولى لك، أى قاربت الغضب ، وقال الجرجانى : هو مأخوذ من الويل ، أى فويل لهم ، وكذا قال فى الكشاف [1]. قال قتادة أيضا :كأنه قال : العقاب أولى لهم . وقوله : ﴿ **طاعة وقول معروف** ﴾ كلام مستأنف ، أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم . قال الخليل وسيبويه :إن التقدير: طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما . وقيل : إن ﴿ **طاعة** ﴾ خبر ﴿ **أولى** ﴾. وقيل :إن ﴿ **طاعة** ﴾ صفة لـ﴿ **سورة** ﴾ . وقيل : إن ﴿ **لهم** ﴾ خبر مقدّم و﴿ **طاعة** ﴾ مبتدأ مؤخر، والأول أولى ﴿**فإذا عزم الأمر** ﴾ عزم الأمر : جدّ الأمر ، أى جدّ القتال ووجب وفرض ، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا ، وجواب « إذا » قيل هو :﴿ **فلو صدقوا الله** ﴾ فى إظهار الإيمان والطاعة ﴿ **لكان خيرا لهم**﴾ من المعصية والمخالفة . ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ هذا خطاب للذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع . قال الكلبى : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم ، وقال كعب : ﴿ **أن تفسدوا فى الأرض** ﴾ أى يقتل بعضكم بعضا . وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء وتقطعوا أرحامكم . وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة . وقيل : أعرضتم عن القتال وفارقتم أحكامه . قرأ الجمهور : ﴿ **توليتم** ﴾ مبنيا للفاعل ،وقرأ على بن أبى طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيا للمفعول،

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٢٤ .

وبها قرأ ابن أبى إسحاق وورش عن يعقوب ، ومعناها : فهل عسيتم إن ولى عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم فى الفتنة وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغى والظلم والقتل ؟ وقرأ الجمهور : ﴿ **وتقطعوا** ﴾ بالتشديد على التكثير ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه وسلام وعيسى ويعقوب بالتخفيف من القطع ، يقال : عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهرى وغيره ، وخبر ﴿**عسيتم**﴾ هو ﴿ **أن تفسدوا** ﴾ والجملة الشرطية بينهما اعتراض .

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **الذين لعنهم الله** ﴾ ، أى أبعدهم من رحمته وطردهم عنها ﴿ **فأصمهم** ﴾ عن استماع الحق ﴿ **وأعمى أبصارهم** ﴾ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ للإنكار ، والمعنى : أفلا يتفهمونه فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التى تكفى من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل أعلى قلوب أقفالها؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون ؟ . قال مقاتل :يعنى : الطبع على القلوب والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال إلى القلوب ؛ للتنبيه على أن المراد بها : ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية : أنه لا يدخل فى قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك ؛ لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب : قلوب هؤلاء المخاطبين . قرأ الجمهور : ﴿ **أقفالها** ﴾ بالجمع ، وقرئ : «إقفالها » بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال . ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ أى رجعوا كفارا كما كانوا .قال قتادة :هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبى ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم ، وبه قال ابن جرير ، وقال الضحاك والسدّى : هم المنافقون قعدوا عن القتال ، وهذا أولى ؛ لأن السياق فى المنافقين : ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى** ﴾ بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة ﴿ **الشيطان سوّل لهم**﴾ أى زين لهم خطاياهم وسهل لهم الوقوع فيها ، وهذه الجملة خبر « إن » ، ومعنى ﴿ **وأملى لهم** ﴾ : أن الشيطان مد لهم فى الأمل ووعدهم طول العمر . وقيل : إن الذى أملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة . قرأ الجمهور : ﴿ **أملى** ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة على البناء للمفعول . قيل :وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان كالقراءة الأولى ، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفرّاء والمفضل ، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريبا .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من ارتدادهم ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله** ﴾ أى بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ، وهم المشركون ﴿ **سنطيعكم فى بعض الأمر** ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله ﷺ ومخالفة ما جاء به . وقيل : المعنى : إن المنافقين قالوا لليهود :

سنطيعكم فى بعض الأمر . وقيل : إن القائلين اليهود ، والذين كرهوا ما أنزل الله من المنافقين . وقيل : إن الإشـارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الإملاء . وقيل : إلى التسويل ، والأول أولى ، ويؤيد كون القائلين : المنافقين ، والكارهين : اليهود قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ [الحشر : ١١] . ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السر بينهم قال الله سبحانه : ﴿ **والله يعلم أسرارهم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ الكوفيون وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم وابن وثاب والأعمش بكسر الهمزة على المصدر ، أى إخفاءهم . ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، و﴿**كيف** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر مقدّم ، والتقدير : فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، أو فى محل نصب بفعل محذوف ، أى فكيف يصنعون ؟ أو خبر لكان مقدّرة ، أى فكيف يكونون ؟ ، والظرف معمول للمقدّر ، قرأ الجمهور : ﴿ **توفتهم** ﴾ وقرأ الأعمش: «توفاهم » ، وجملة : ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **توفتهم** ﴾ أو من مفعوله ، أى ضاربين وجوههم وأدبارهم ، وفى الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا ، وهو تصوير لتوفيهم على أقبح حال وأشنعه ، وقيل: ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ ، وقيل : ذلك يوم القيامة ، والأول أولى .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **بأنهم اتبعوا ما أسخط الله** ﴾ ، أى بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصى. وقيل : كتمانهم ما فى التوراة من نعت نبينا ﷺ ، والأول أولى لما فى الصيغة من العموم ﴿ **وكرهوا رضوانه** ﴾ أى كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿ **فأحبط** ﴾ الله ﴿ **أعمالهم** ﴾ بهذا السبب ، والمراد بأعمالهم : الأعمال التى صورتها صورة الطاعة ، وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة . ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ يعنى : المنافقين المذكورين سابقا، و« أم » هى المنقطعة ، أى بل أحسب المنافقون ﴿ **أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ الإخراج بمعنى : الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو :ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ، فقيل :هو الغشّ . وقيل : الحسد . وقيل : الحقد . قال الجوهرى : الضغن والضغينة: الحقد ، وقال قطرب : هو فى الآية العداوة ، و« أن » هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدّر. ﴿**ولو نشاء لأريناكهم** ﴾ أى لأعلمناكهم وعرفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية ، تقول العرب : سأريك ما أصنع ، أى سأعلمك ﴿ **فلتعرفنهم بسيماهم**﴾ أى بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها ، قال الزجاج : المعنى : لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة ، وهى السيما فلعرفتهم بتلك العلامة ، والفاء لترتيب المعرفة على

الإراءة ، وما بعدها معطوف على جواب « لو » وكررت فى المعطوف للتأكيد ، وأما اللام فى قوله : ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ فهى جواب قسم محذوف . قال المفسرون : لحن القول : فحواه ومقصده ومغزاه وما يعرّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه ، قال أبو زيد : لحنت له اللحن : إذا قلت له قولا يفقهه عنك ويخفى على غيره ، ومنه قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الكلام ما كان لحنا

أى أحسنه ما كان تعريضا يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه ،وأصل اللحن : إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيد شديد ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ أى لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاقة ما كلف به ، قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها ، ومعنى ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ : نظهرها ونكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ، ومن لم يمتثل ، وقرأ الجمهور: ﴿ **ونبلو** ﴾ بنصب الواو عطفا على قوله : ﴿ **حتى نعلم** ﴾ وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم بحقو الرحمن ، فقال : مه ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم، أترضى أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك » . ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ » (١) . والأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم** ﴾ قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم** ﴾ قال: أعمالهم:خبثهم ، والحسد الذى فى قلوبهم، ثم دل الله تعالى النبى ﷺ بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ قال : ببغضهم علىّ بن أبى طالب .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ**

(١) أحمد ٢/ ٣٣٠ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٠) وفى الأدب (٥٩٨٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٤/ ١٦) والنسائى فى التفسير (٥١٧) .

لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله** ﴾ المراد بهؤلاء : هم المنافقون . وقيل : أهل الكتاب . وقيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، ومعنى صدهم عن سبيل الله : منعهم للناس عن الإسلام واتباع الرسول ﷺ . ومعنى ﴿**شاقوا الرسول** ﴾ : عادوه وخالفوه ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى** ﴾ أى علموا أنه ﷺ نبىّ من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة والحجج القاطعة ﴿ **لن يضروا الله شيئا** ﴾ بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر وما ضروا إلا أنفسهم ﴿ **وسيحبط أعمالهم** ﴾ أى يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال : ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير وإن كانت باطلة من الأصل ؛ لأن الكفر مانع . وقيل : المراد بالأعمال :المكائد التى نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التى كانوا يبغونها برسول الله ﷺ . ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب الله وسنة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرارعلى الكفر فقال : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال الحسن : أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى ، وقال الزهرى : بالكبائر ، وقال الكلبى وابن جريج : بالرياء والسمعة ، وقال مقاتل : بالمنّ، والظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال كائنا ماكان من غير تخصيص بنوع معين .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا ، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصا . ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف فقال : ﴿ **فلا تهنوا** ﴾ أى تضعفوا عن القتال ، والوهن : الضعف ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم ، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف . قال الزجاج : منع الله

المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي :« وتدعوا » بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا . قال قتادة: معنى الآية : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها . واختلف أهل العلم في هذه الآية : هل هي محكمة أو منسوخة ؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ [الأنفال : ٦١] وقيل : منسوخة بهذه الآية ، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء ، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص ، وجملة : ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهي ، أي وأنتم الغالبون بالسيف والحجة . قال الكلبي : أي آخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات ، وكذا جملة قوله : ﴿ **والله معكم** ﴾ في محل نصب على الحال ، أي معكم بالنصر والمعونة عليهم﴿**ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم ، يقال : وتره يتره وترا : إذا نقصه حقه. وأصله من وترت الرجل : إذا قتلت له قريباً أو نهبت له مالا ، ويقال : فلان مأتور: إذا قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه . قال الجوهري : أي لن ينقصكم في أعمالكم ، كما تقول : دخلت البيت ، وأنت تريد في البيت . قال الفراء : هو مشتق من الوتر وهو الدخل . وقيل : مشتق من الوتر وهو الفرد ، فكأن المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب .

﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ أي باطل وغرور لا أصل لشيء منها ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم** ﴾ أي إن تؤمنوا بالله وتتقوا الكفر والمعاصي يؤتكم جزاء ذلك في الآخرة ، والأجر : الثواب على الطاعة ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ أي لا يأمركم بإخراجها جميعا في الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها وهو الزكاة . وقيل : المعنى : لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها . وقيل : لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما في قوله : ﴿ وما أسألكم [1] عليه من أجر﴾ [الشعراء :١٠٩] والأول أولى .﴿ **إن يسألكموها** ﴾ أي أموالكم كلها ﴿ **فيحفكم** ﴾ قال المفسرون : يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها ، يقال : أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد ، والمحفي :المستقصي في السؤال ، والإحفاء:الاستقصاء في الكلام ، ومنه إحفاء الشارب ، أي استئصاله، وجواب الشرط قوله : ﴿ **تبخلوا** ﴾ أي إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها وتمتنعوا من الامتثال ﴿ **ويخرج أضغانكم** ﴾ معطوف على جواب الشرط ، ولهذا قرأ الجمهور : ﴿ **يخرج** ﴾ بالجزم ، وروى عن يعقوب الحضرمي أنه قرأ بالنون ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء، وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، أو إلى

---

(١) في المطبوعة : « ما أسألكم » والصحيح ما أثبتناه .

البخل المدلول عليه بتبخلوا . والأضغان : الأحقاد ، والمعنى : أنها تظهر عند ذلك . قال قتادة: قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان .

﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله** ﴾ أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد وفى طريق الخير ﴿ **فمنكم من يبخل** ﴾ بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق فى سبيل الله ، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال ؟ ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال :﴿ **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** ﴾ أى يمنعها الأجر والثواب ببخله ، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى . وقيل : إن أصله أن يتعدى بعلى ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك ﴿ **والله الغنى** ﴾ المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم﴿ **وأنتم الفقراء** ﴾ إلى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة، وجملة : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم** ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدمة وهى : ﴿ **وإن تؤمنوا**﴾ والمعنى:وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم ، هم أطوع لله منكم ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فى التولى عن الإيمان والتقوى . قال عكرمة : هم فارس والروم . وقال الحسن : هم العجم . وقال شريح بن عبيد : هم أهل اليمن.وقيل : الأنصار . وقيل : الملائكة . وقيل : التابعون . وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس . قال ابن جرير:والمعنى: ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله .

وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت: ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى ﷺ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت :﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا : قد هلك ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء : ٤٨] فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئا رجوناه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يتركم** ﴾ قال : يظلمكم . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه [عن أبى هريرة] [1] قال : لما نزلت : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم**﴾ . قالوا : من هؤلاء ؟ وسلمان إلى جانب النبى

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة ،وقد أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ٦٧ ومن ابن جرير .

ﷺ ، فقال : هم الفرس ، هذا وقومه . وفى إسناده مسلم بن خالد الزنجى وقد تفرّد به ، وفيه مقال معروف [١] . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم** ﴾ فقالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال : « هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس » [٢] . وفى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه .

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٤٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير فى روايتين : الأولى : (٣٢٦٠) وقال : « غريب فى إسناده مقال » والثانية : (٣٢٦١) وقال : « وعبد الله بن جعفر بن نجيح هو والد على بن المدينى » وابن جرير٢٦/ ٤٢ ، وابن كثير ٦/ ٣٢٥ وقال : « تفرد به مسلم بن خالد الزنجى ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم » . وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٦٧ : « رواه أحمد وفيه شهر، وثقه أحمد وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وذكر روايتين : إحداهما : عن قيس بن سعد وقال عنها : « رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح »، والثانية : عن ابن مسعود ، وقال عنها : « رواه الطبرانى وفيه محمد بن الحجاج اللخمى ، وهو كذاب » والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٣٤ .

تفسير سـورة الفتـح

هى تسع وعشرون آية . وهى مدنية .قال القرطبى : بالإجماع . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الفتح بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن إسحاق ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها (١) ، وهذا لا ينافى الإجماع على كونها مدنية ؛ لأن المراد بالسور المدنية : النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها (٢) . وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه رسول الله ﷺ ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب : هلكت أمّ عمرنزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك ، فقال عمر: فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بى . فقلت : لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقال : « لقد أنزلت على سورة لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ » (٣) . وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ الآية إلى ﴿ **فوزا عظيما** ﴾ مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة . وقد نحروا الهدى بالحديبية فقال : « لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعها » (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ

---

(١) ابن إسحاق ٣/ ٣٦٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) أحمد ٥/ ٥٤ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٥) وفى فضائل القرآن (٥٠٣٤) وفى التوحيد (٧٥٤٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٤/ ٢٣٧) والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٥٥) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٣٣) ، وفى المغازى (٤١٧٧) وفى فضائل القرآن (٥٠١٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٢) وليست هذه الرواية فى مسلم ولم يذكرها المزّى فى التحفة ولا الدر المنثور للسيوطى فى سورة الفتح .

(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٦/ ٩٧) .

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ اختلف فى تعيين هذا الفتح ، فقال الأكثر : هو صلح الحديبية ، والصلح قد يسمى فتحاً . قال الفراء : والفتح قد يكون صلحا ، ومعنى الفتح فى اللغة : فتح المنغلق ، والصلح الذى كان مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذراً حتى فتحه الله . قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام فى قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . قال الشعبى : لقد أصاب رسول الله ﷺ فى الحديبية مالم يصب فى غزوة ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرّضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وقال قوم : إنه فتح مكة ، وقال آخرون : إنه فتح خيبر ، والأول أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت فى شأن الحديبية . وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح . وقيل : هو ما فتح له من النبوة والدعوة إلى الإسلام. وقيل : فتح الروم. وقيل : المراد بالفتح فى هذه الآية كما فى قوله: ﴿ افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] فكأنه قال : إنا قضينا لك قضاء مبينا ، أى ظاهراً واضحا مكشوفا .

﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ اللام متعلقة بـ﴿ **فتحنا** ﴾ وهى لام العلة . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس ، يعنى: المبرد ، عن اللام فى قوله: ﴿ **ليغفر لك الله** ﴾ فقال : هى لام كى معناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح ، فلما انضمّ إلى المغفرة شىء حادث واقع حسن معنى كى . وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة ، وقال صاحب الكشاف : إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ماعدّد من الأمور الأربعة وهى المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين ، وأعراض العاجل والآجل [١] . وهذا كلام غير جيد ، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح ، فكيف يصح أن تكون معللة ؟ وقال الرازى فى توجيه التعليل : إن المراد بقوله : ﴿ **ليغفر لك الله** ﴾ التعريف بالمغفرة تقديره : إنا فتحنا لك لتعرف أنك مغفور لك معصوم ، وقال ابن عطية : المراد : أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة ، وقال أبو حاتم : هى لام القسم وهو خطأ ، فإن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها .

(١) الكشاف ٤/ ٣٣٢ .

واختلف فى معنى قوله : ﴿ **ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ فقيل : ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة ، وما تأخر بعدها . قاله مجاهد وسفيان الثورى وابن جرير والواحدى وغيرهم . وقال عطاء: ما تقدم من ذنبك ، يعنى: ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر من ذنوب أمتك ، وما أبعد هذا عن معنى القرآن . وقيل : ما تقدم من ذنب أبيك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده . وهذا كالذى قبله . وقيل : ما تقدم من ذنب يوم بدر ، وما تأخر من ذنب يوم حنين ، وهذا كالقولين الأولين فى البعد . وقيل : لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك. وقيل : غير ذلك مما لا وجه له ، والأول أولى ، ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة : ترك ماهو الأولى ، وسمى ذنباً فى حقه ؛ لجلالة قدره ، وإن لم يكن ذنباً فى حق غيره .

﴿ **ويتمّ نعمته عليك** ﴾ بإظهار دينك على الدين كله . وقيل : بالجنة . وقيل : بالنبوة والحكمة . وقيل : بفتح مكة والطائف وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى : ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الإسلام ، ومعنى ﴿ **يهديك** ﴾ : يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿ **وينصرك الله نصرا عزيزا** ﴾ أى غالباً منيعاً لا يتبعه ذلّ . ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ أى السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ أى ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضما إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل ، قال الكلبى : كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم. وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ يعنى : الملائكة والإنس والجن والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ، ويحوط بعضهم ببعض ﴿ **وكان الله عليما** ﴾ كثير العلم بليغه ﴿**حكيما** ﴾ فى أفعاله وأقواله . ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله ، تقديره : يبتلى بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله ، والشرّ ممن قضى له به ليدخل ويعذب. وقيل : متعلقة بقوله : ﴿ **إنا فتحنا** ﴾ كأنه قال : إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل ويعذب . وقيل : متعلقة بـ﴿**ينصرك** ﴾ ، أى نصرك الله بالمؤمنين ليدخل ويعذب . وقيل : متعلقة بـ﴿ **يزدادوا** ﴾ أى يزدادوا ليدخل ويعذب ، والأوّل أولى ﴿**ويكفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى يسترها ولا يظهرها ولا يعذبهم بها ، وقدم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس ؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ،والمقصد الأسنى ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزا عظيما** ﴾ أى وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله وفى حكمه فوزاً عظيما ، أى ظفراً بكل مطلوب ونجاة من كل غمّ وجلبا لكل نفع ودفعاً لكل ضرّ ، وقوله : ﴿ **عند الله** ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ **فوزا** ﴾ لأنه صفة فى الأصل ، فلما قدم صار حالاً ، أى كائنا عند الله ، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين والمشركين .

ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عباده ذكر ما يستحقه غيرهم فقال : ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ وهو معطوف على يدخل ، أى يعذبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام ، وقهر المخالفين له ، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، وفى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً ،وأحق منهم بما وعدهم الله به. ثم وصف الفريقين ، فقال : ﴿ **الظانين بالله ظن السوء** ﴾ وهو ظنهم أن النبى ﷺ يغلب وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام . ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا** ﴾، ﴿**عليهم دائرة السوء**﴾ أى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم، والمعنى : أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم . قال الخليل وسيبويه : السوء هنا: الفساد ، قرأ الجمهور : ﴿ **السوء** ﴾ بفتح السين . وقرأ ابن كثير وأبو عمر بضمها ﴿ **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾ . لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا ، بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم ﴿**ولله جنود السموات والأرض**﴾ من الملائكة والإنس والجن والشياطين ﴿ **وكان الله عليما حكيما** ﴾ كرّر هذه الآية لقصد التأكيد . وقيل : المراد بالجنود هنا : جنود العذاب ، كما يفيده التعبير بالعزة هنا ، مكان العلم هنالك .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن مجمع بن جارية [(١)] الأنصارى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم [(٢)] فاجتمع الناس، إذ الناس يوجفون [(٣)] الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحى إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ فقال رجل: إى رسول الله،أو فتح هو ؟ قال:« إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح » فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية. فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة ، منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما [(٤)] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو داود والنسائى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فبينا نحن

---

(١) فى المطبوعة : « ابن حارثة » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ومن الإصابة ٣/ ٣٦٦ ومن مراجع التخريج .
(٢) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . معجم البلدان ٤/ ٤٤٣ .
(٣) الإيجاف : سرعة السير ، وقد أوجف دابته يوجفها إيجافا : إذا حثها . النهاية ٥/ ١٥٧ .
(٤) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٦٩٢) وأحمد ٣/ ٤٢٠ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٣٦) وابن جرير ٢٦/ ٤٥ ، وصححه الحاكم ٢/ ١٣١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٢٣٩ .

نسير إذ أتاه الوحى ، وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فسرّى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ (١) . وأخرج البخاريّ وغيره عن أنس فى قوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ قال: الحديبية (٢) . وأخرج البخاريّ وغيره عن البراء قال : تعدوّن أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً. ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية (٣) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ قال :« فتح مكة» .

وأخرج البخاريّ ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : كان النبى ﷺ يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر . قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » (٤) . وفى الباب أحاديث(٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ قال : السكينة : هى الرحمة ، وفى قوله : ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ قال : إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة : ٣] فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله (٦) .وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود :﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ قال : تصديقاً مع تصديقهم . وأخرج البخارى ، ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما أنزل على النبى ﷺ : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ مرجعه من الحديبية. قال:«لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ مما على الأرض»،ثم قرأها عليهم. فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فوزا عظيما** ﴾ (٧) .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٧٠٩) وأحمد ١/ ٣٩١ والبخارى فى تاريخه ٥/ ٢٥١ والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٨٥٣) وابن جرير ٢٦/ ٤٣ والطبرانى (١٠٥٤٨) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٢٧٥ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤١٧٢) والتفسير (٤٨٣٤) والنسائى فى التفسير (٥١٨) .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٥٠) .

(٤) البخارى فى التهجد (١١٣٠) وفى التفسير (٤٨٣٦) وفى الرقاق (٦٤٧١) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٩ / ٧٩ ، ٨٠) والترمذى فى الصلاة (٤١٢)وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير(٥٢١) .

(٥) منها : حديث عائشة الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما : أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال:« أفلا أكون عبداً شكوراً . . . » البخارى فى التفسير(٤٨٣٧) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨٢٠/ ٨١) .

(٦) ابن جرير ٢٦/ ٤٥ والطبرانى (١٣٠٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « وفيه عبد الله بن صالح قيل فيه : ثقة مأمون وقد ضعف » والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٦٨ .

(٧) البخارى فى المغازى (٤١٧٢) وفى التفسير (٤٨٣٤) مختصراً ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٦/ ٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٣) وقال : « حسن صحيح » .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥)﴾ .

قوله : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ﴾ أى على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿ ومبشرا ﴾ بالجنة للمطيعين ﴿ونذيرا﴾ لأهل المعصية ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ لتؤمنوا﴾ بالفوقية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية ، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته ، وعلى القراءة الثانية المراد : المبشرين والمنذرين ، وانتصاب ﴿ شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ على الحال المقدّرة ﴿ وتعزروه وتوقروه وتسبحوه ﴾ الخلاف بين القراء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى : ﴿ لتؤمنوا ﴾ كما سلف ، ومعنى ﴿ تعزروه ﴾ : تعظموه وتفخموه . قاله الحسن والكلبى . والتعزير : التعظيم والتوقير ، وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . وقال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، ومعنى توقروه : تعظموه . وقال السدّى : تسوّدوه . قيل : والضميران فى الفعلين للنبى ﷺ وهنا وقف تام ، ثم يبتدئ : وتسبحوه ، أى تسبحوا الله عز وجل ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ أى غدوة وعشية . وقيل : الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة لله عز وجل . فيكون معنى ﴿ تعزروه وتوقروه ﴾ : تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء . وقيل : تنصروا دينه ، وتجاهدوا مع رسوله ، وفى التسبيح وجهان: أحدهما: التنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثانى : الصلاة .

﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ يعنى : بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله ﷺ هى بيعة له كما قال :

﴿ من يطع [١] الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، وجملة :﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل ، فى محل نصب على الحال ، والمعنى : أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت، وقال الكلبى : المعنى : أن نعمة الله عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة . وقيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، وقال ابن كيسان : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ أى فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه ؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره ﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله** ﴾ أى ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه فى البيعة لرسوله .قرأ الجمهور : ﴿ **عليه** ﴾ بكسر الهاء،وقرأ حفص والزهرى بضمها ﴿ **فسيؤتيه أجرا عظيما** ﴾ وهو الجنة. قرأ الجمهور : ﴿ **فسيؤتيه** ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالنون ، واختار القراءة الأولى أبوعبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء .

﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب** ﴾ هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية . قال مجاهد وغيره : يعنى أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والديل وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقيل : تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، والمخلف : المتروك ﴿**شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ أى منعنا عن الخروج معك مالنا من الأموال والنساء والذرارى ، وليس لنا من يقوم بهم ، ويخلفنا عليهم ﴿ **فاستغفر لنا** ﴾ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب. ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ وهذا هو صنيع المنافقين ، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم ، ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال :﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئا** ﴾ أى فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشر ، ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ **إن أراد بكم ضرا** ﴾ أى إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل . قرأ الجمهور : ﴿**ضرا**﴾ بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضرا ، وقرأ حمزة والكسائى بضمها وهو اسم ما يضرّ . وقيل: هما لغتان ﴿ **أو أراد بكم نفعا** ﴾ أى نصراً وغنيمة ، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنه الضرّ ويجلب لهم النفع .

ثم أضرب سبحانه عن ذلك وقال :﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيرا** ﴾ أى إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق ، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى**

(١) فى المخطوطة : « ومن يطع » .

أهليهم أبدا ﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله: **﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا﴾** لما فيها من الإبهام ، أى بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة **﴿ وزين ذلك فى قلوبكم ﴾** أى وزين الشيطان ذلك الظن فى قلوبكم فقبلتموه ، قرأ الجمهور : **﴿ وزين ﴾** مبنيا للمفعول ، وقرئ مبنيا للفاعل **﴿ وظننتم ظن السوء ﴾** أن الله لا ينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظنّ الأوّل ، والتكرير للتأكيد والتوبيخ ، والمراد به : ما هو أعمّ من الأول ، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولا أوّليا **﴿ وكنتم قوما بورا ﴾** أى هلكى . قال الزجاج : هالكين عند الله ، وكذا قال مجاهد : قال الجوهرى : البور: الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه. قال أبو عبيد: **﴿ قوما بورا ﴾**: هلكى ، وهو جمع بائر مثل حائل وحول ، وقد بار فلان ، أى هلك ، وأباره الله : أهلكه . **﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا ﴾** هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله ، أى ومن لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير .

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن ويعاقب من أساء ، ولهذا قال :**﴿ يغفر لمن يشاء ﴾** أن يغفر له **﴿ ويعذب من يشاء ﴾** أن يعذبه **﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾** [الأنبياء : ٢٣] **﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾** أى كثير المغفرة والرحمة، بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده . **﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾** المخلفون هؤلاء المذكورون سابقاً ، والظرف متعلق بقوله : **﴿ سيقول ﴾** والمعنى : سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون **﴿ إلى مغانم ﴾** يعنى : مغانم خيبر **﴿لتأخذوها ﴾** لتحوزوها **﴿ ذرونا نتبعكم ﴾** أى اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر ، وأصل القصة أنه لما انصرف النبى ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر ، وخص بغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال الله سبحانه :**﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾** أى يغيروا كلام الله ، والمراد بهذا الكلام الذى أرادوا أن يبدلوه : هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر ، وقال مقاتل : يعنى : أمر الله لرسوله ألا يسير معه أحد منهم ، وقال ابن زيد : هو قوله تعالى : ﴿ فإذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوّا ﴾ [التوبة : ٨٤] واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة ، والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة ، ورجحه ابن جرير وغيره . قرأ الجمهور : **﴿كلام الله ﴾** وقرأ حمزة والكسائى : « كلم الله» قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات ؛ لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمنعهم من الخروج معه فقال: **﴿ قل لن تتبعونا ﴾** هذا النفى هو فى معنى النهى ، والمعنى: لا تتبعونا **﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾** أى من قبل

رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب **﴿فسيقولون﴾** يعنى : المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله : **﴿ لن تتبعونا ﴾** بل **﴿تحسدوننا ﴾** أى بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة ، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون .ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : **﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾** أى لا يعلمون إلا علماً قليلا ، وهو علمهم بأمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : **﴿ وتعزروه ﴾** يعنى : الإجلال **﴿وتوقروه﴾** يعنى : التعظيم ، يعنى : محمداً ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه فى قوله : **﴿ وتعزروه ﴾** قال : تضربوا بين يديه بالسيف . وأخرج ابن عدى وابن مردويه والخطيب ، وابن عساكر فى تاريخه عن جابر ابن عبد الله قال: لما أنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية **﴿ وتعزروه﴾** قال لأصحابه: «ما ذاك»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « لتنصروه » [(١)] . وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فمن وَفّى وَفّى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه [(٢)] . وفى الصحيحين من حديث جابر : أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة . وفيهما عنه أنهم كانوا أربع عشرة مائة [(٣)] ، وفى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب : أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، فقال له: إن جابراً قال: كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله: وهم ، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة [(٤)] .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا

(١) ابن عدى ١/ ٩٩ .

(٢) أحمد ٥/ ٣٢٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ : « رواه أحمد بطوله ، ولم يقل عن إسماعيل عن أبيه ، ورواه عبد الله فزاد عن أبيه ، وكذلك الطبرانى ، ورجالهما ثقات إلا أن إسماعيل بن عياش رواه عن الحجازيين وروايته عنهم ضعيفة » .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٥٢) ومسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٦٩ ، ٧٣) .

(٤) البخارى فى المغازى (٤١٥٣) .

قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب** ﴾ هم المذكورون سابقاً ﴿ **ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد** ﴾ قال عطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى: هم فارس . وقال كعب والحسن : هم الروم ، وروى عن الحسن أيضاً أنه قال: هم فارس والروم . وقال سعيد بن جبير : هم هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . وحكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين ﴿ **تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية ، قال الزجاج : التقدير : أو هم يسلمون ، وفى قراءة أبى :« أو يسلموا » أى حتى يسلموا ﴿**فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرًا حسنا** ﴾ وهو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ﴿ **وإن تتولوا** ﴾ أى تعرضوا ﴿**كما توليتم من قبل** ﴾ وذلك عام الحديبية ﴿ **يعذبكم عذابا أليما** ﴾ بالقتل والأسر والقهر فى الدنيا . وبعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم . ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ أى ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم . قال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية. والحرج : الإثم ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ فيما أمره به ونهاه عنه ﴿**يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يدخله** ﴾ بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون:﴿**ومن يتول يعذبه عذابا أليما** ﴾ أى من يعرض عن الطاعة ؛ يعذبه الله عذاباً شديد الألم .

ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم وشهدوا بيعة الرضوان ، فقال : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ أى رضى الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهى بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، والعامل فى ﴿ **تحت** ﴾ إما يبايعونك ، أو محذوف على أنه حال من المفعول ، وهذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت بالحديبية . وقيل : سدرة ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفرّوا . وروى أنه بايعهم على الموت ، وقد تقدم ذكر عدد أهل

هذه البيعة قريبا . والقصة مبسوطة فى كتب الحديث والسير . ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم** ﴾ معطوف على يبايعونك . قال الفراء : أى علم ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء ، وقال قتادة وابن جريج :من الرضى بأمر البيعة على ألا يفرّوا .وقال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ معطوف على رضى ، والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس كما تقدّم. وقيل : الصبر ﴿ **وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية . قاله قتادة وابن أبى ليلى وغيرهما . وقيل : فتح مكة ، والأول أولى . ﴿**ومغانم كثيرة يأخذونها** ﴾ أى وأثابكم مغانم كثيرة ، أو وآتاكم ، وهى غنائم خيبر ، والالتفات لتشريفهم بالخطاب ﴿ **وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ أى غالبا مصدرا أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة .

﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدّر وقوعها فيها ﴿**فعجل لكم هذه**﴾ أى غنائم خيبر ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : صلح الحديبية ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ أى وكفّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح . وقيل : كفّ أيدى أهل خيبر وأنصارهم عن قتالكم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبى ﷺ إلى الحديبية وخيبر ، ورجح هذا ابن جرير . قال : لأن كفّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم** ﴾ . وقيل : كفّ أيدى الناس عنكم ، يعنى: عيينة بن حصن الفزارى ،وعوف بن مالك النضرى ، ومن كان معهما ، إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبى ﷺ لهم ، ﴿ **ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدّر بعده ، أى فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون آية ، أو على علة محذوفة تقديرها : وعد فعجل وكف لتنتفعوا بذلك ولتكون آية . وقيل : إن الواو مزيدة واللام لتعليل ما قبله ، أى وكف لتكون ، والمعنى : ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول الله ﷺ فى جميع ما يعدكم به ، ويهديكم صراطاً مستقيماً ، أى يزيدكم بتلك الآية هدى ، أويثبتكم على الهداية إلى طريق الحق . ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ معطوف على هذه ، أى فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى لم تقدروا عليها، وهى الفتوح التى فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوهما ، كذا قال الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وقال الضحاك وابن زيد وابن أبى إسحاق : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة : فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ، والأول أولى. ﴿ **قد أحاط الله بها** ﴾ صفة ثانية لأخرى. قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى : أنه أعدّها لهم وجعلها كالشيء الذى قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت منه شىء، فهم وإن لم يقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم. وقيل: معنى ﴿**أحاط**﴾: علم أنها ستكون لهم ﴿ **وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ لايعجزه شىء ولا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض .

﴿ **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار** ﴾ قال قتادة : يعنى :كفار قريش بالحديبية . وقيل : أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ، والأول أولى . ﴿ **ثم لا يجدون وليا** ﴾ يواليهم على قتالكم ﴿ **ولا نصيرا** ﴾ ينصرهم عليكم . ﴿**سنة الله التى قد خلت من قبل**﴾ أى طريقته وعادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه ، وانتصاب ﴿**سنة**﴾ على المصدرية بفعل محذوف ، أى بيّن الله سنة الله ، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ أى لن تجد لها تغييراً ، بل هى مستمرة ثابتة ﴿ **وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ أى كفّ أيدى المشركين عن المسلمين وأيدى المسلمين عن المشركين لما جاؤوا يصدون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهى المراد ببطن مكة . وقيل : إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبى ﷺ من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبى ﷺ فأخذهم المسلمون ثم تركوهم ، وفى الرواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء الله ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولى بأس شديد**﴾ يقول: فارس.وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنهم الأكراد . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : فارس والروم . وأخرج الفريابى وابن مردويه عنه قال : هوازن وبنى حنيفة . وأخرج الطبرانى ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، وإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : كيف لى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾ الآية [(١)] . قال : هذا فى الجهاد ، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس: هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ها هنا . فقال رسول الله ﷺ : « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » [(٢)] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التى بويع تحتها فأمر بها فقطعت . وأخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء كنتم تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت [(٣)] . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : بايعناه على ألا نفرّ ولم نبايعه على الموت [(٤)] . وأخرج أحمد وأبو داود

(١) الطبرانى (٤٩٢٦) . (٢) ابن جرير ٢٦/ ٥٤ .
(٣) البخارى فى المغازى (٤١٦٩) .
(٤) مسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٦٧ ، ٦٨)والنسائى فى الكبرى فى البيعة (٢٧٧٩) والدارمى فى السير ٢/ ٢٢٠ .

والترمذى عن جابر عن النبى ﷺ قال: « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »[١]، وأخرج مسلم من حديثه مثله [٢] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى : الفتح . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى : خيبر ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ يعنى: أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ويستحل بكم وأنتم حرم ﴿**ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ قال : سنة لمن بعدكم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ قال : هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها**﴾ قال:هى خيبر.وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرة رسول الله ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ [٣] . وفى صحيح مسلم وغيره : أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية [٤] . وأخرج أحمد والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل فى سبب نزول الآية : أن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين فى السلاح فثاروا فى وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم : بأبصارهم ـ فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «هل جئتم فى عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، فنزلت هذه الآية[٥] .

﴿ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ** ...

---

(١) أحمد ٣/ ٣٥ وأبو داود فى السنة (٤٦٥٣) والترمذى فى المناقب (٣٨٦٠) وقال : « حسن صحيح » .
(٢) مسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٧١) .
(٣) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٧٦٢) وأحمد ٣/ ١٢٢ ومسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٨/ ١٣٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٨٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٣٠) وابن جرير ٢٦/ ٥٩ والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٤١ .
(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٧/ ١٣٢) ، وهو جزء من حديث طويل .
(٥) أحمد ٤/ ٨٦ ، ٨٧ والنسائى فى التفسير (٥٣١) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، كلهم عن عبد الله بن مغفل .

كفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام** ﴾ يعنى : كفار مكة ، ومعنى صدهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم ﴿ **والهدى معكوفا** ﴾ قرأ الجمهور بنصب : ﴿ **الهدى** ﴾ عطفا على الضمير المنصوب فى ﴿ **صدُّوكم** ﴾ . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على المسجد ، ولابدّ من تقدير مضاف ، أى عن نحر الهدى ، وقرئ بالرفع على تقدير : وصدّ الهدى . وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال ، وروى عن أبى عمرو وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء ، وانتصاب ﴿ **معكوفاً** ﴾ على الحال من الهدى ، أى محبوساً . قال الجوهرى: عكفه، أى حبسه ووقفه ، ومنه : ﴿ **والهدى معكوفا** ﴾ ومنه : الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . وقال أبو عمرو بن العلاء : معكوفاً : مجموعا ، وقوله : ﴿ **أن يبلغ محله**﴾ أى عن أن يبلغ محله ، أو هو مفعول لأجله ، والمعنى : صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله ، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال ، ومحله: منحره ، وهو حيث يحل نحره من الحرم، وكان الهدى سبعين بدنة ، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذى وصلوا إليه وهو الحديبية محلا للنحر . وللعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم** ﴾ يعنى : المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ومعنى ﴿ **لم تعلموهم** ﴾ : لم تعرفوهم . وقيل : لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿ **أن تطؤوهم** ﴾ يجوز أن يكون بدلا من رجال ونساء ولكنه غلب الذكور ، وأن يكون بدلا من مفعول ﴿**تعلموهم** ﴾ ، والمعنى : أن تطؤوهم بالقتل والإيقاع بهم ، يقال : وطئت القوم ، أى أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كسبوا مكة وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم

فيها من الكفار ، وعند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله : ﴿ **فتصيبكم منهم** ﴾ أى من جهتهم ، و ﴿ **معرّة** ﴾ أى مشقة بما يلزمهم فى قتلهم من كفارة وعيب . وأصل المعرّة : العيب ، مأخوذة من العرّ ، وهو الجرب ، وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم . قال الزجاج : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرّة ، أى إثم ، وكذا قال الجوهرى وبه قال ابن زيد. وقال الكلبى ومقاتل وغيرهما : المعرّة :كفارة قتل الخطأ ، كما فى قوله : ﴿ فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : ٩٢] . وقال ابن إسحاق : المعرّة : غرم الدية .وقال قطرب: المعرّة: الشدة .وقيل : الغمّ ، و ﴿ **بغير علم** ﴾ متعلق بأن تطؤوهم ، أى غير عالمين ، وجواب «لولا» محذوف ، والتقدير: لأذن الله لكم أو لما كفّ أيديكم عنهم . واللام فى : ﴿ **ليدخل الله فى رحمته من يشاء** ﴾ متعلقة بما يدلّ عليه الجواب المقدّر ، أى ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا فى فتح مكة ، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار ويفكّ أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب . وقيل : اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر ، وتقديره: لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ،والأوّل أولى.وقيل: إن ﴿ **من يشاء**﴾ : عباده ممن رغب فى الإسلام من المشركين ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما**﴾ التزيل : التميز ، أى لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا . وقيل : التزيل : التفرق ، أى لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهرهم ، والمعانى متقاربة ، والعذاب الأليم : هو القتل والأسر والقهر ، والظرف فى قوله :﴿ **إذ جعل الذين كفروا** ﴾ منصوب بفعل مقدّر ، أى اذكر وقت جعل الذين كفروا ﴿ **فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ . وقيل : متعلق بعذبنا . والحمية : الأنفة ، يقال : فلان ذو حمية ، أى ذو أنفة وغضب ، أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ، وحمية الجاهلية بدل من الحمية . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا فى منازلنا ، فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزّى لا يدخلونها علينا ، فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم ، وقال الزهرى : حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة . قرأ الجمهور : ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ ، وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة وابن عون : « لو تزايلوا » . والتزايل : التباين ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أى أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ وهى : « لا إله إلا الله » كذا قال الجمهور ، وزاد بعضهم : « محمد رسول الله » وزاد بعضهم:« وحده لا شريك له ».وقال الزهرى هى: « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها ، وامتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الذى كان بينهم وبين

رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك فى كتب الحديث والسير (١) ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها ، والأول أولى ؛ لأن كلمة التوحيد هى التى تبقى بها الشرك بالله . وقيل : كلمة التقوى : هى الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ أى وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم ؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه ، وصحبة رسوله ﷺ .

﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن الرؤيا كانت بالحديبية ، وقوله : ﴿ **بالحق** ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى صدقا متلبسا بالحقّ ، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله : ﴿**لتدخلنّ المسجد الحرام** ﴾ أى فى العام القابل ، وقوله : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله : ﴿ ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غداً . إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، وقيل : كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديبية ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى . قاله الحسن بن الفضل . وقيل : معنى ﴿ **إن شاء الله** ﴾ :كما شاء الله ، وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ ، يعنى : إذ شاء الله حتى أرى رسوله ذلك ، وانتصاب ﴿**آمنين** ﴾ على الحال من فاعل لتدخلن . وكذا ﴿ **محلقين رؤوسكم ومقصرين** ﴾ أى آمنين من العدوّ ، ومحلقا بعضكم ومقصرا بعضكم ، والحلق والتقصير خاصّ بالرجال ، والحلق أفضل من التقصير كما يدل على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره ﷺ للمحلقين فى المرة الأولى والثانية ، والقائل يقول له: وللمقصرين . فقال فى الثالثة وللمقصرين ، وقوله : ﴿ **لا تخافون** ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فُهم من قوله : ﴿**آمنين** ﴾ ، ﴿ **فعلم ما لم تعلموا** ﴾ أى ما لم تعلموا من المصلحة فى الصلح لما فى دخولكم فى عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين ، وهو معطوف على صدق ، أى صدق رسوله الرؤيا ، فعلم ما لم تعلموا به ﴿ **فجعل من دون ذلك فتحا قريبا** ﴾ أى فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله فتحا قريبا، قال أكثر المفسرين : هو صلح الحديبية ، وقال ابن زيد والضحاك: فتح خيبر،وقال الزهرى: لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر،فإن المسلمين كانوا فى سنة ستّ ، وهى سنة الحديبية ألفا وأربعمائة وكانوا فى سنة ثمان عشرة آلاف.

---

(١) من ذلك ما رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أى إرسالا متلبسا بالهدى ﴿ **ودين الحق** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ أى يعليه على كل الأديان كما يفيده تأكيد الجنس. وقيل : ليظهر رسوله ، والأوّل أولى . وقد كان ذلك بحمد الله . فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان ، وانقهر له كل أهل الملل ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ الباء زائدة كما تقدّم فى غير موضع ، أى كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذى وعد المسلمين به وعلى صحة نبوّة نبيه ﷺ. ﴿**محمد رسول الله** ﴾ محمد مبتدأ ورسول الله خبره ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ورسول الله بدل منه . وقيل : محمد مبتدأ ورسول الله نعت له ﴿ **والذين معه** ﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر ، والأول أولى . والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به ﴿ **والذين معه** ﴾ قيل : هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم ﴿ **أشداء على الكفار** ﴾ أى غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ أى متوادّون متعاطفون ، وهو جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشـدة والصلابة ، ولمن وافقه الرحمة والرأفة . قرأ الجمهور برفع :﴿ **أشداء** ﴾ و﴿ **رحماء** ﴾ على أنه خبر للموصول ، أو خبر لمحمد وما عطف عليه كما تقدم ، وقرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿ **تراهم ركعا سجداً** ﴾ أى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين ، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف : أعنى قوله : ﴿ **تراهم** ﴾ .

﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ أى يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور أو فى محل نصب على الحال من ضمير تراهم،وهكذا ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود**﴾ السيما : العلامة ، وفيها لغتان المدّ والقصر ، أى تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة وكثرة التعبد بالليل والنهار ، وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفرا ، فجعل هذا هو السيما ، وقال الزهرى: مواضع السجود أشد وجوههم بياضا يوم القيامة ، وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، وبالأوّل ــ أعنى : كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود ــ قاله سعيد بن جبير ومالك ، وقال ابن جريج (١) : هو الوقار ، وقال الحسن : إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل: هو البهاء فى الوجه وظهور الأنوار عليه ، وبه قال سفيان الثورى : والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة،وهو مبتدأ وخبره قوله: ﴿ **مثلهم فى التوراة** ﴾ أى وصفهم الذى وصفوا به فى التوراة ، ووصفهم الذى وصفوا به ﴿ **فى الإنجيل** ﴾ وتكرير ذكر المثل ؛ لزيادة تقديره وللتنبيه على غرابته ، وأنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة ﴿ **كزرع أخرج شطأه**﴾ إلخ ،كلام مستأنف ، أى هم كزرع إلخ.وقيل : هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف .

---

(١) فى المطبوعة : « ابن جرير » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وقيل : هو خبر لقوله : ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ أى ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قال الفراء: فيه وجهان : إن شئت قلت : ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، يعنى : كمثلهم فى القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ، وإن شئت قلت : ذلك مثلهم فى التوراة ، ثم تبتدأ : ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قرأ الجمهور : ﴿**شطأه** ﴾ بسكون الطاء ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتحها ، وقرأ أنس ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب : «شطاه » كعصاه . وقرأه الجحدرى وابن أبى إسحاق : « شطه » بغير همزة ، وكلها لغات ، قال الأخفش والكسائى : ﴿ **شطأه** ﴾ أى طرفه . قال الفراء : شطأ الزرع فهو مشطئ : إذا خرج . قال الزجاج : ﴿**أخرج شطأه**﴾ أى نباته ، وقال قطرب : الشطأ : ســوى السنبل ، وروى عن الفراء أيضا أنه قال : هو السنبل ، وقال الجوهرى : شطأ الزرع والنبات والجمـع أشطاء. وقــد أشطأ الزرع : خــرج شطـؤه ﴿ **فآزره** ﴾ أى قواه وأعانه وشده . قيل : المعنى : إن الشطأ قوى الزرع . وقيل : إن الزرع قوّى الشطأ ، ومما يدلّ على أن الشطأ خروج النبات . قول الشاعر :

أخرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

قرأ الجمهور: ﴿ **فآزره** ﴾ بالمد ، وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس بالقصر ، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

بمحنية قد آزر الضالّ نبتها مجرّ جيوش غانمين وخيب

قال الفراء : آزرت فلانا آزره أزرًا : إذا قوّيته ﴿ **فاستغلظ** ﴾ أى صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا ﴿**فاستوى على سوقه** ﴾ أى فاستقام على أعواده ، والسوق جمع ساق ، وقرأ قنبل : « سؤقه » بالهمزة الساكنة ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ أى يعجب هذا الزرع زارعه لقوّته وحسن منظره ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبى ﷺ وأنهم يكونون فى الابتداء قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع ، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا ، ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه ، قال قتادة : مثل أصحاب محمد ﷺ فى الإنجيل ، أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ وتقويته لهم فقال: ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ أى كثرهم وقواهم ليكونوا غيظا للكافرين ، واللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليغيظ ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ أى وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التى هى أكبر نعمة ، وأعظم منة .

وقد أخرج أحمد ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة، فلما صدّت عن البيت؛ حنت كما تحنّ إلى أولادها . وأخرج الحسن بن سفيان وأبو

يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن قانع والباوردى والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند جيد ، عن أبى جمعة حنيذ بن سبع [١] قال: قاتلت[٢] رسول الله ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ ، وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان ، وفى رواية عند ابن أبى حاتم : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم** ﴾ قال حين ردّوا النبى ﷺ ﴿ **أن تطؤوهم** ﴾ بقتلكم إياهم ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلكم إياهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال : يوم صفين اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية : يعنى الصلح الذى كان بين النبى ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : « بلى » . قال : ففيم نعطى الدنية [٤] فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : « يابن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً » ، فرجع متغيظا ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال: يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا ، فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يا رسول الله أفتح هو ؟ قال : « نعم »[٥].

وأخرج الترمذى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : « لا إله إلا الله » وفى إسناده الحسن بن قزعة ، قال الترمذى بعد إخراجه : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وكذا قال أبو زرعة [٦] . وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن

---

(١) اختلف فى اسمه ، فقيل : حبيب بن سباع ، وقيل : جنيد ، وقيل : حبيب بن وهب ، ويعد فى الشاميين ، أدرك النبى ﷺ عام الأحزاب ،وذكر ابن الأثير أن الأول أصح ، وأورد حديثه . أسد الغابة ١ / ٣٧٠ ، ٣٧١، ٥ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، وقال ابن كثير ٦ / ٣٤٦ : « والصواب أبو جعفر بن سباع » .

(٢) فى المطبوعة : « قابلت » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج وابن كثير .

(٣) أبو يعلى (١٥٦٠) والطبرانى (٢٢٠٤ ، ٣٥٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « رواه الطبرانى بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات » .

(٤) الدنية : النقيصة والحالة الناقصة .

(٥) أحمد ٤/ ٣٣٠ والبخارى فى الجزية والموادعة (٣١٨٢) وفى التفسير (٤٨٤٤) وفى الاعتصام (٧٣٠٨) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٥/ ٩٤ ـ ٩٦) والنسائى فى التفسير (٥٢٤) .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ١٨١ .

عليّ بن أبى طالب مثله من قوله . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد عن المسور بن مخرمة ومروان نحوه ، وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ قال : هو دخول محمد البيت والمؤمنين محلقين ومقصرين . وقد ورد فى الدعاء للمحلقين والمقصرين فى الصحيحين وغيرهما أحاديث منها ماقدمنا الإشارة إليه ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عمر [١] وفيهما من حديث أبى هريرة أيضا [٢] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم** ﴾ قال : أما إنه ليس الذى يرونه ، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه . وأخرج محمد بن نصر فى كتاب الصلاة ،وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هو السمت الحسن . وأخرج الطبرانى فى الأوسط [٣] ، والصغير[٤] وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند حسن ،عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال : «النور يوم القيامة » . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن نصر عن ابن عباس فى الآية قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ يعنى : نعتهم مكتوب فى التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض [٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس: ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ قال : نباته: فروخه .

---

(١) البخارى فى الحج (١٧٢٧) ومسلم فى الحج (١٣٠١/ ٣١٦ ــ ٣١٩) .
(٢) البخارى فى الحج (١٧٢٨) ومسلم فى الحج (١٣٠٢/ ٣٢٠) .
(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه رواد بن الجراح ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه الدارقطنى وغيره» .
(٤) الطبرانى فى الصغير ١/ ٢٢٢ ، وقال : « لا يروى عن أبى إلا بهذا الإسناد تفرد به أبو جعفر الرازى » .
(٥) ابن جرير ٢٦/ ٧١ .

تفسير سورة الحجرات

هى ثمانى عشرة آية . وهى مدنية . قال القرطبى : بالإجماع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس وابن الزبير ؛ أنها نزلت بالمدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾ .

قوله : **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾** قرأ الجمهور : **﴿ تقدّموا ﴾** بضم المثناة الفوقية ، وتشديد الدال مكسورة ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه متعدّ ، وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل ، كقولهم : هو يعطى ويمنع ، والثانى : أنه لازم ، نحو : وجه وتوجه ، ويعضده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب : «تقدموا » بفتح التاء والقاف والدال . قال الواحدى : قدم هاهنا بمعنى تقدم ، وهو لازم . قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدّم بين يدى الإمام وبين يدى الأب ، أى لا تعجل بالأمر دونه والنهى ؛ لأن المعنى : لا تقدّموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدى الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدى الإنسان ، ومعنى الآية: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ولا تعجلوا به . وقيل : المراد معنى بين يدى فلان : بحضرته ؛ لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه **﴿ واتقوا الله ﴾** فى كل أموركم ، ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدى الله ورسوله دخولا أوّليا . ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله : **﴿ إن الله سميع ﴾** لكل مسموع **﴿ عليم ﴾** بكل معلوم .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع

الصوت ؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير ، ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط ، والأول أولى ، والمعنى : لا ترفعوا أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبى ﷺ . قال المفسرون : المراد من الآية : تعظيم النبى ﷺ وتوقيره وألا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾ أى لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا ، قال الزجاج : أمرهم الله بتجليل نبيه ، وأن يغضوا أصواتهم ويخاطبوه بالسكينة والوقار . وقيل : المراد بقوله :﴿ **ولا تجهروا له بالقول** ﴾ لا تقولوا: يا محمد ويا أحمد ، ولكن يا نبى الله ، ويا رسول الله ، توقيراً له ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف ، أى جهراً مثل جهر بعضكم لبعض ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر فى القول : هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فإن ذلك كفر ، وإنما المراد: أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره ، والحاصل أن النهى هنا وقع عن أمور : الأول : عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام ، والثانى : عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره ، والثالث : ترك الجفاء فى مخاطبته ولزوم الأدب فى مجاورته ؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره. ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله : ﴿ **أن تحبط أعمالكم** ﴾ قال الزجاج : أن تحبط أعمالكم ، التقدير : لأن تحبط أعمالكم ، أى فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال ، وهذه العلة يصح أن تكون للنهى ، أى نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط ، أو كراهة أن تحبط ، أو علة للمنهى، أى لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدى إلى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأول،وجملة: ﴿**وأنتم لا تشعرون**﴾ فى محل نصب على الحال،وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم، قال الزجاج: وليس المراد: وأنتم لا تشعرون يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم،فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

ثم رغب سبحانه فى امتثال ما أمر به فقال : ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله**﴾ أصل الغض: النقص من كل شىء ، ومنه نقص الصوت ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال الفراء : أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده عن رديئه ويسقط خبيثه . وبه قال مقاتل ومجاهد وقتادة، وقال الأخفش : اختصها للتقوى . وقيل : طهرها من كل قبيح . وقيل : وسعها وسرّحها ، من محنت الأديم : إذا وسعته ، وقال أبو عمرو : كل شىء جهدته فقد محنته ، واللام فى ﴿ **للتقوى** ﴾ متعلقة بمحذوف ، أى صالحة للتقوى، كقولك : أنت صالح لكذا ، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب ، كقولك: جئتك لأداء الواجب ، أى ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب ﴿ **لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ أى أولئك لهم ، فهو خبر آخر لاسم الإشارة ، ويجوز أن يكون مستأنفا لبيان ما أعدّ

الله لهم فى الآخرة . ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ هم جفاة بنى تميم كما سيأتى بيانه ، و ﴿ **وراء الحجرات** ﴾ :خارجها وخلفها ، والحجرات جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة . وقيل : الحجرات :جمع حجر، والحجر جمع حجرة ، فهو جمع الجمع ، والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . قرأ الجمهور : ﴿ **الحجرات** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة بفتحها تخفيفا ، وقرأ ابن أبى عبلة بإسكانها ، وهى لغات و « من » فى : ﴿**من وراء** ﴾ لابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى ﴿ **أكثرهم لا يعقلون** ﴾ لغلبة الجهل عليهم ، وكثرة الجفاء فى طباعهم .

﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم** ﴾ أى لو انتظروا خروجك ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، لما فى ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ، ورعاية جانبه الشريف ، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل . وقيل : إنهم جاؤوا شفعاء فى أسارى ، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ذكر معناه مقاتل ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ كثير المغفرة والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب . ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **فتبينوا** ﴾ من التبين ، وقرأ حمزة والكسائى :« فتثبتوا » من التثبت ، والمراد من التبين : التعرف والتفحص ، ومن التثبت : الأناة وعدم العجلة ، والتبصر فى الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر . قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، وقوله:﴿ **أن تصيبوا قوما بجهالة** ﴾ مفعول له، أى كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا ؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ؛ لأنه لم يصدر عن علم ، والمعنى : ملتبسين بجهالة بحالهم ﴿ **فتصبحوا على ما فعلتم**﴾ بهم من إصابتهم بالخطأ ﴿ **نادمين** ﴾ على ذلك مغتمين له مهتمين به .

ثم وعظهم الله سبحانه فقال : ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ فلا تقولوا قولا باطلا ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين ، و« أن » وما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى اعلموا ، وجملة : ﴿ **لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير « فيكم » أو مستأنفة ، والمعنى : لو يطيعكم فى كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التى ليست بصواب لوقعتم فى العنت وهو التعب والجهد ، والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم فى غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان**﴾ أى جعله أحبّ الأشياء إليكم ، أو محبوبا لديكم فلا يقع منكم إلا ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار وعدم التثبت فيها . قيل : والمراد بهؤلاء : من عدا الأوّلين لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان وتوجبه محبته التى جعلها الله فى قلوبهم ﴿ **وزينه**

في قلوبكم ﴾ أي حسنه بتوفيقه ، حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال ﴿ **وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾ أي جعل كل ما هو من جنس الفسوق ، ومن جنس العصيان مكروهاً عندكم ، وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة ، والعصيان : جنس ما يعصى الله به . وقيل : أراد بذلك الكذب خاصة ، والأول أولى ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ أي الموصوفون بما ذكرهم الراشدون ، والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب من الرشادة ، وهي الصخرة ﴿ **فضلا من الله ونعمة** ﴾ أي لأجل فضله وإنعامه ، والمعنى : أنه حبب إليكم ما حبّب وكرّه ماكرّه لأجل فضله وإنعامه ، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك . وقيل : النصب بتقدير فعل ، أي تبتغون فضلا نعمة ﴿ **والله عليم** ﴾ بكل معلوم ﴿ **حكيم** ﴾ في كل ما يقضي به بين عباده ويقدرّه لهم .

وقد أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن الزبير قال :قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية[١] . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ قال : نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية: قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت : كان أناس يتقدمون بين يدى رمضان بصيام يعني : يوماً أو يومين. فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنها أيضاً أن ناسا كانوا يتقدّمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ **الآية** .

وأخرج البزار وابن عدى والحاكم وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال : أنزلت هذه الآية :﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار ، وفي إسناده حصين بن عمر وهو ضعيف ، ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : لما نزلت: ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله** ﴾ قال أبو بكر: والذى أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأُخي السرار حتى ألقى الله [٢] . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال:لما نزلت: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وأنتم لا تشعرون** ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، حبط عملي، أنا من أهل النار وجلس في بيته حزينا، ففقده رسول الله ﷺ ،فانطلق بعض القوم إليه فقالوا: فقدك رسول الله ﷺ ،مالك ؟قال : أنا الذى أرفع

---

(١) البخاري في المغازي (٤٣٦٧) وفي التفسير (٤٨٤٥ ، ٤٨٤٧) والنسائي في التفسير (٥٣٤) .

(٢) ابن عدى في الكامل ٢/ ٣٩٦ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

صوتى فوق صوت النبىّ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بذلك ، فقال : « لا ، بل هو من أهل الجنة » ، فلما كان يوم اليمامة قتل. وفى الباب أحاديث بمعناه [١] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله : ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾قال :قال رسول الله ﷺ «منهم ثابت بن قيس بن شماس».

وأخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوى والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند صحيح ، من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس ؛ أنه أتى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، اخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد ، إن حمدى زين، وإن ذمى شين ، فقال :« ذاك الله » ، فأنزل الله :﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ [٢] قال ابن منيع : لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا . وأخرج الترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ قال : جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدى زين وإن ذمى شين ، فقال النبى ﷺ: « ذاك الله » [٣] . وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بإسناد حسن ، عن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبىّ ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد فأنزل الله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى وجعل يقول : « لقد صدّق الله قولك يا زيد، لقد صدّق الله قولك يا زيد » [٤] . وفى الباب أحاديث .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند جيد ، عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله ، أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب إلى جمعت زكاته وترسل إلىّ يارسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت ، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٤٦) ومسلم فى الإيمان (١٨٧/ ١١٩) والنسائى فى التفسير (٥٣٣) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٨٨ ، ٦/ ٣٩٣ وابن جرير ٢٦/ ٧٧ والطبرانى (٨٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨ : «وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع وإلا فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر » .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢٦/ ٧٧ .

(٤) ابن جرير ٢٦/ ٧٧ والطبرانى ٢٣/ ٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١١ : « فيه داود بن راشد الطفاوى ، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين ، وبقية رجاله ثقات » .

كان وقت لى وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأتى رسول الله ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ (١) فرجع ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله ، قال : لا والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ » قال : لا والذى بعثك بالحقّ ما رأيته ولا رآنى . وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل :﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ إلى قوله:﴿ **حكيم** ﴾ قال ابن كثير : هذا من أحسن ما روى فى سبب نزول الآية. وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص (٢) .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ .

قوله :﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ قرأ الجمهور :﴿ **اقتتلوا** ﴾ باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله : ﴿ **هذان خصمان اختصموا** ﴾ [الحج : ١٩] والضمير فى قوله : ﴿**بينهما** ﴾ عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ ، وقرأ ابن أبى عبلة : « اقتتلتا » اعتبارا بلفظ طائفتان ، وقرأ زيد بن علىّ وعبيد بن عمير : « اقتتلا » وتذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار

(١) فرق : خاف .

(٢) أحمد ٤/ ٢٧٩ والطبرانى (٣٣٩٥) وابن كثير ٦/ ٣٧٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٢ : « ورجال أحمد ثقات » .

الفريقين أو الرهطين . والبغى : التعدّى بغير حق والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والفيء : الرجوع . والمعنى : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ، ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدّى ما يجب عليها للأخرى ، ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال : ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى واعدلوا إن الله يحب العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء ، قال الحسن وقتادة والسدّى : ﴿**فأصلحوا بينهما** ﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما ﴿ **فإن بغت إحداهما** ﴾ وطلبت ما ليس لها ولم ترجع إلى الصلح ﴿ **فقاتلوا التى تبغى** ﴾ حتى ترجع إلى طاعة الله والصلح الذى أمر الله به .

وجملة : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم راجعون إلى أصل واحد وهو الإيمان . قال الزجاج : الدين يجمعهم ، فهم إخوة إذا كانوا متفقين فى دينهم فرجعوا بالاتفاق فى الدين إلى أصل النسب لأنهم لآدم وحواء ﴿**فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ يعنى : كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى . قرأ الجمهور : ﴿ **بين أخويكم** ﴾ على التثنية ، وقرأ زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود والحسن وحماد بن سلمة وابن سيرين : «إخوانكم » بالجمع . وروى عن أبى عمرو ونصر بن عاصم وأبى العالية والجحدرى ويعقوب أنهم قرؤوا : « بين إخوتكم » بالفوقية على الجمع أيضا . قال أبو علىّ الفارسى فى توجيه قراءة الجمهور : أراد بالأخوين : الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى كل أموركم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ بسبب التقوى ، والترجى باعتبار المخاطبين ، أى راجين أن ترحموا ، وفى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلا بقوله ﷺ : « قتال المسلم كفر » [(١)] فإن المراد بهذا الحديث وما ورد فى معناه قتال المسلم الذى لم يبغ . قال ابن جرير : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حقّ ، ولا أبطل باطل ولوجدَ أهل النفاق والفجور سببا إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم

---

(١) البخارى فى الإيمان (٤٨) وفى الأدب (٦٠٤٤) وفى الفتن (٧٠٧٦) ومسلم فى الإيمان (٦٤/ ١١٦) والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » عن عبد الله بن مسعود .

وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله ﷺ: « خذوا على أيدى سفهائكم » [١] . قال ابن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، وعمدة فى حرب المتأوّلين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله: « تقتل عماراً الفئة الباغية » [٢] وقوله ﷺ فى شأن الخوارج : « يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ » .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ السخرية : الاستهزاء . وحكى أبو زيد : سخرت به وضحكت به وهزأت به ، وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه ، وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، كل ذلك يقال ، والاسم السخرية والسخرى،وقرئ بهما فى:﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [الزخرف: ٣٢] ومعنى الآية : النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض ، وعلل هذا النهى بقوله : ﴿ **عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ أى أن يكون المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم ، ولما كان لفظ قوم مختصا بالرجال ؛ لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال : ﴿ **ولا نساء من نساء** ﴾ أى ولا يسخر نساء من نساء ﴿ **عسى أن يكنّ**﴾ المسخور بهن ﴿ **خيرا منهن** ﴾ يعنى: خيراً من الساخرات منهنّ .وقيل: أفرد النساء بالذكر ؛لأن السخرية منهنّ أكثر ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ اللمز : العيب ، وقد مضى تحقيقه فى سورة براءة عند قوله :﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ [التوبة : ٥٨] قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان . ومعنى ﴿ **لا تلمزوا أنفسكم** ﴾ : لا يلمز بعضكم بعضا كما فى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : ٢٩] وقوله : ﴿ فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : ٦١] قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : لا يطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضا ﴿**ولاتنابزوا بالألقاب** ﴾ التنابز : التفاعل من النبز بالتسكين وهو المصدر ، والنبز بالتحريك اللقب ، والجمع أنباز ، والألقاب جمع لقب ، وهو اسم غير الذى سمى به الإنسان ، والمراد هنا: لقب السوء ، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضا، قال الواحدى : قال المفسرون :هو أن يقول لأخيه المسلم :يا فاسق يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ، يا نصرانى ، قال عطاء : هو كل شىء أخرجت به أخاك من الإسلام ، كقولك : يا كلب ، يا حمار ، يا خنزير . قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بكفره ، فيقال له : يا يهودى ، يا نصرانى ، فنزلت ، وبه قال قتادة وأبو العالية وعكرمة ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أى بئس الاسم الذى يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان ، والاسم هنا بمعنى الذكر ، قال ابن زيد : أى بئس أن يسمى الرجل كافراً أوزانياً بعد إسلامه وتوبته . وقيل : المعنى : أن من

---

(١) البيهقى فى الشعب (٧٥٧٧) عن النعمان بن بشير. ط : دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ١٦٤ عن عبد الله بن عمرو، ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٦/ ٧٢) عن أبى هريرة والترمذى فى المناقب(٣٨٠٠) عن أبى هريرة وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، قال القرطبى : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوزته الأئمة ، واتفق على قوله أهل اللغة . ا .هـ **﴿ومن لم يتب﴾** عما نهى الله عنه **﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾** لارتكابهم ما نهى الله عنه وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم .

﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ ﴾ الظنّ هنا : هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتهم غيره بشىء من الفواحش ، ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه ؛ لأن من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ ، كالقياس، وخبر الواحد ، ودلالة العموم ، ولكن هذا الظنّ الذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به ، فارتفع عن الشك والتهمة ، قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءًا ، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذى ظهر منهم . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءًا ، ولا بأس به مالم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم ، وحكى القرطبى عن أكثر العلماء : أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح. وجملة: **﴿ إن بعض الظنّ إثم ﴾** تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير ، والإثم هو : ما يستحقه الظانّ من العقوبة ، ومما يدل على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: ﴿ وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوما بورا ﴾ [الفتح : ١٢] فلا يدخل فى الظن المأمور باجتنابه شىء من الظنّ المأمور باتباعه فى مسائل الدين، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كيادًا للدين وشذوذا عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظن فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها .

ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال : **﴿ ولا تجسسوا ﴾** التجسس : البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معايب الناس ومثالبهم . قرأ الجمهور: **﴿ تجسسوا ﴾** بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا . وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء . قال الأخفش : ليس ببعد أحدهما من الآخر ؛ لأن التجسس بالجيم : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس بالحاء : طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل : رجل جاسوس : إذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء : ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقيل : إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ،قاله ثعلب **﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾** أى لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوؤه ، والغيبة : أن تذكر الرجل بما يكرهه ، كما جاء فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة؟»

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » فقيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[1]. ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا**﴾ مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحىّ لا يعلم بغيبة من اغتابه ، ذكر معناه الزجاج . وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة فى عرضه ، وفى هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية ، فضلا عن كونه محرّما شرعا ﴿ **فكرهتموه** ﴾ قال الفراء : تقديره : فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا ، قال الرّازى : الفاء فى تقدير جواب كلام . كأنه قال : لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذن . وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره: عرض عليكم ذلك فكرهتموه ﴿ **واتقوا الله** ﴾ بترك ما أمركم باجتنابه ﴿ **إن الله تواب رحيم** ﴾ لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل للنبىّ ﷺ : لو أتيت عبد الله ابن أبى ، فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما انطلق إليه قال : إليك عنى ، فو الله لقد آذانى ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدى والنعال ، فنزلت فيهم : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية [2] . وقد روى نحو هذا من وجوه أخر . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن عمر ، قال : ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله أمر النبىّ ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيؤوا إلى أمر الله ويقرّوا بحكم الله . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية. قال: كان قتال بالنعال والعصىّ فأمرهم أن يصلحوا بينهما . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم** ﴾

---

(١) أحمد ٢/ ٣٨٤ ، ٣٨٦ وأبو داود فى الأدب (٤٨٧٤) والترمذى فى البر والصلة (١٩٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والدارمى ٢/ ٢٩٩ .

(٢) أحمد ٣/ ١٥٧ ، ٢١٩ والبخارى فى الصلح (٢٦٩١) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٩/ ١١٧) .

قال : نزلت فى قوم من بنى تميم استهزؤوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبى حذيفة . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب ،وابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة ، وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ قال : لا يطعن بعضكم على بعض . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب ، وأهل السنن الأربع وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان ، والشيرازى فى الألقاب ، والطبرانى ، وابن السنى فى عمل يوم وليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت فى بنى سلمة : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدًا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يكرهه ، فنزلت : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ [١]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب : أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى الآية قال : إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول : يا يهودىّ ، يا نصرانىّ ، يا مجوسىّ ، ويقول للرجل المسلم : يا فاسق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن** ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءًا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :« إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك » [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه . وقد وردت أحاديث فى النهى عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عن عيوبهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ الآية . قال :

---

(١) أحمد ٤/ ٦٩ ، ٢٦٠ وأبو داود فى الأدب (٤٩٦٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٣٦) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٤١) وأبو يعلى (٦٨٥٣) وابن جرير ٢٦ / ٨٤ وابن حبان فى الموارد (١٧٦١) والطبرانى (٩٦٨) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٣ وقال : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٧٤٦) . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٣١٢ ، ٤٦٥ والبخارى فى الأدب (٦٠٦٤) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٦٣/ ٢٨) والترمذى فى البر (١٩٨٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرّم الميتة ، والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ هما آدم وحواء ، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد وكونه يجمعهم أب واحد وأمّ واحدة ، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب . وقيل : المعنى : إن كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء ﴿ **وجعلناكم شعوبا وقبائل** ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين ، وهي الحيّ العظيم ، مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها كبني بكر من ربيعة ، وبني تميم من مضر . قال الواحدي : هذا قول جماعة من المفسرين ، سموا شعباً ؛ لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة ، والشعب من أسماء الأضداد. يقال : شعبته : إذا جمعته ، وشعبته : إذا فرقته ، ومنه سميت المنية شعوباً ؛ لأنها مفرقة ، فأما الشعب بالكسر: فهو الطريق في الجبل ، قال الجوهري : الشعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب ، وقال مجاهد : الشعوب : البعيد من النسب ، والقبائل دون ذلك . وقال قتادة : الشعوب : النسب الأقرب . وقيل : إن الشعوب : عرب اليمن من قحطان ، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : الشعوب : بطون العجم والقبائل : بطون العرب .وحكى أبو عبيد أن الشعب : أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ومما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم ... كريم قد يعد ولا نجيب

قرأ الجمهور :﴿ **لتعارفوا** ﴾ بتخفيف التاء ، وأصله : لتتعارفوا فحذفت إحدى التاءين . وقرأ البزّي بتشديدها على الإدغام ، وقرأ الأعمش بتاءين واللام متعلقة بخلقناكم ، أي خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا ، وقرأ ابن عباس : « لتعرفوا » مضارع عرف .

والفائدة فى التعارف : أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره . والمقصود من هذا : أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب ، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة ، وهذا البطن أشرف من هذا البطن، ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ أى إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل ، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب ، فإن ذلك لا يوجب كرما ، ولا يثبت شرفا ، ولا يقتضى فضلا ، قرأ الجمهور : ﴿ **إن أكرمكم** ﴾ بكسر إن . وقرأ ابن عباس بفتحها ، أى لأن أكرمكم ﴿ **إن الله عليم** ﴾ بكل معلوم ، ومن ذلك أعمالكم ﴿ **خبير** ﴾ بما تسرون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال : ﴿ **قالت الأعراب آمنا**﴾ وهم بنو أسد أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم فقال : ﴿ **قل لم تؤمنوا** ﴾ أى لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ أى استسلمنا خوف القتل والسبى أو للطمع فى الصدقة ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ أى لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة ، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها ، أو فى محل نصب على الحال . وفى « لما » معنى التوقع . قال الزجاج : الإسلام : إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبىّ ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن ، وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله : ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ أى لم تصدّقوا وإنما أسلمتم تعوذًا من القتل، ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله** ﴾ طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿ **لا يلتكم من أعمالكم شيئا**﴾ يقال :لات يلت : إذا نقص ، ولاته يليته ويلوته : إذا نقصه ، والمعنى: لا ينقصكم من أعمالكم شيئا . قرأ الجمهور: ﴿ **يلتكم** ﴾ من لاته يليته كباع يبيعه ، وقرأ أبو عمرو : « لا يألتكم » بالهمز من يألته بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع ، واختار قراءة أبى عمرو أبوحاتم لقوله : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ [الطور : ٢١] وعليها قول الشاعر :

أبلغ بنى أسد عنى مغلغلة جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور ، وعليها قول رؤبة بن العجاج :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتنى عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان ﴿ **إن الله غفور** ﴾ أى بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب ﴿ **رحيم** ﴾ بليغ الرحمة لهم ، ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ولا دخل الإيمان فى قلوبهم ، بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله** ﴾ يعنى : إيمانا صحيحا خالصا عن مواطأة القلب واللسان ﴿ **ثم لم يرتابوا** ﴾ أى لم يدخل قلوبهم شىء من الريب ولا خالطهم شكّ من الشكوك ﴿**وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ أى فى طاعته وابتغاء مرضاته ، ويدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤدّيه كما أمر الله سبحانه ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ **هم الصادقون** ﴾ أى الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان والدخول فى عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه،وادعى أنه مؤمن ،ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، ولا وصل إليه معناه ، ولا عمل بأعمال أهله ، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم وسائر أهل النفاق . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما ادعوا أنهم مؤمنون فقال : ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم** ﴾ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام ، ولهذا دخلت الباء فى بدينكم ، أى أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا ﴿ **والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعونه من الإيمان ، والجملة فى محل النصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، وقد علم ما تبطنونه من الكفر وتظهرونه من الإسلام لخوف الضراء ورجاء النفع .

ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المن عليه منهم بما يدعونه من الإسلام فقال: ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ أى يعدّون إسلامهم منة عليك حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿ **قل لا تمنوا على إسلامكم** ﴾ أى لا تعدوّه منة على ، فإن الإسلام هو المنة التى لا يطلب موليها ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ولهذا قال : ﴿ **بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾ أى أرشدكم إليه وأراكم طريقه سواء وصلتم إلى المطلوب أو لم تصلوا إليه ، وانتصاب ﴿ **إسلامكم** ﴾ إما على أنه مفعول به على تضمين يمنون معنى يعدّون ، أو بنزع الخافض ، أى لأن أسلموا ، وهكذا قوله : ﴿ **أن هداكم للإيمان** ﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تدعونه ، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله ، أى إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم، قرأ الجمهور : ﴿ **أن هداكم** ﴾ بفتح « أن » ، وقرأ عاصم بكسرها . ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض** ﴾ أى ما غاب فيهما ﴿ **والله بصير بما تعملون**﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء ، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شرا . قرأ الجمهور: ﴿ **تعملون** ﴾ على الخطاب ، وقرأ ابن كثير على الغيبة.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن أبى مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على

ظهر الكعبة ، وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره فنزلت : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو داود فى مراسيله ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن الزهرى قال : أمر رسول الله ﷺ بنى بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم . فقالوا : يا رسول الله، أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت هذه الآية [١] . وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ هى مكية ، وهى للعرب خاصة الموالى ، أى قبيلة لهم ، وأى شعاب ، وقوله : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فقال : أتقاكم للشرك . وأخرج البخارى وابن جرير عن ابن عباس قال : الشعوب : القبائل العظام ، والقبائل : البطون . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : القبائل : الأفخاذ ، والشعوب : الجمهور مثل مضر . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم ؟ قال: « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال :« فعن معادن العرب تسألونى » ؟ قالوا : نعم . قال : « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [٢]. وقد وردت أحاديث فى الصحيح وغيره أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قالت الأعراب آمنا**﴾ قال : أعراب بنى أسد وخزيمة ، وفى قوله : ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ مخافة القتل والسبى . وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت فى بنى أسد . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن عبد الله بن أبى أوفى : أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله ، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأنزل الله : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ [٣] . وأخرج النسائى والبزار وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد[٤] .

---

(١) أبو داود فى المراسيل ص ١٩٥ (٢٣٠) والبيهقى فى النكاح ٧/ ١٣٦ .
(٢) أحمد ٢/ ٤٣١ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٥٤، ٣٣٧٤) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٨/ ١٦٨) .
(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٥ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه الحجاج بن أرطأة وهو ثقة ولكنه مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٤) النسائى فى التفسير (٥٣٩) .

تفسير سورة « ق »

هى خمس وأربعون آية . وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا آية ، وهى قوله : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ وهى أول المفصل على الصحيح . وقيل : من الحجرات . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة ق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد أخرج مسلم وغيره عن قطبة بن مالك قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر فى الركعة الأولى ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ (١) . وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد بقاف واقتربت (٢). وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن ماجة والبيهقى عن أم هشام ابنة حارثة قالت : ما أخذت ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ إلا من فىّ رسول الله ﷺ كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس ، وهو فى صحيح مسلم (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)** ﴾ .

---

(١) مسلم فى الصلاة (٤٥٧/ ١٦٣) وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨١٦) .

(٢) أحمد ٥/ ٢١٨ ومسلم فى صلاة العيدين (٨٩١/ ١٤) والترمذى فى أبواب الصلاة (٥٣٣) والنسائى فى التفسير (٥٧٠) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٢٨٢) .

(٣) ابن أبى شيبة (٢ / ١١٥) ومسلم فى الجمعة (٨٧٣ / ٥١) وأبو داود فى الصلاة (١١٠٠) والنسائى فى التفسير (٥٤٠) والبيهقى ٣ / ٢١١ .

قوله : ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ الكلام فى إعراب هذا كالكلام الذى قدمنا فى قوله : ﴿ص والقرآن ذى الذكر ﴾ [ص : ١] وفى قوله:﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ [الدخان : ١ ، ٢] واختلف فى معنى ﴿ **ق** ﴾ فقال الواحدى : قال المفسرون : هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد والسماء مقبية عليه . وهو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة . قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى ﴿ **ق** ﴾ لأنه اسم ، وليس بهجاء. قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل :

قلت لها قفى فقالت قاف

أى أنا واقفة ، وحكى الفراء والزجاج : أن قوما قالوا : معنى ﴿ **ق** ﴾ : قفى الأمر وقفى ما هو كائن ، كما قيل فى ﴿ حم ﴾ :حم الأمر . وقيل : هو اسم من أسماء الله أقسم به ، وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن ، وقال الشعبى : فاتحة السورة ، وقال أبو بكر الوراق : معناه : قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما . وقيل : غير ذلك مما هو أضعف منه . والحق أنه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه كما حققنا ذلك فى فاتحة سورة البقرة ، ومعنى ﴿**المجيد** ﴾ : أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة ، وقال الحسن : الكريم . وقيل : الرفيع القدر . وقيل : الكبير القدر ، وجواب القسم قال الكوفيون : هو قوله : ﴿ **بل عجبوا** ﴾ وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : ق والقرآن المجيد لتبعثن ، يدل عليه : ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا** ﴾ وقال ابن كيسان :جوابه ﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾. وقيل : هو ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ بتقدير اللام ، أى لقد علمنا . وقيل : هو محذوف ، وتقديره : أنزلنا إليك لتنذر ،كأنه قيل: ق والقرآن المجيد، أنزلناه إليك لتنذر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم بكسر الفاء . وقرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء ، وقرأ هارون ومحمد بن السميفع بالضم . ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم** ﴾ «بل » للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال . « وأن » فى موضع نصب على تقدير : لأن جاءهم ، والمعنى : بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم وهو محمد ﷺ ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة ﴿ ص ﴾ . ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله : ﴿ **فقال الكافرون هذا شىء عجيب** ﴾ وفيه زيادة تصريح وإيضاح . قال قتادة : عجبهم أن دعوا إلى إله واحد ، وقيل : تعجبهم من البعث ، فيكون لفظ ﴿ **هذا** ﴾ إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله :﴿ **أئذا متنا** ﴾ إلخ . والأول أولى . قال الرازى: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجىء المنذر .

ثم قالوا : ﴿ **أئذا متنا** ﴾ وأيضا قد وُجد هاهنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدى معنى التعجب ، وهو قولهم : ﴿ **ذلك رجع بعيد** ﴾ فإنه استبعاد وهو كالتعجب ، فلو كان التعجب بقولهم : ﴿ **هذا شىء عجيب** ﴾ عائدا إلى قولهم : ﴿ **أئذا** ﴾ ؛ لكان كالتكرار . فإن قيل :

التكرار الصريح يلزم من قولك : هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيء المنذر ، فإن تعجبهم منه علم من قولهم : وعجبوا أن جاءهم فقوله : ﴿ **هذا شيء عجيب** ﴾ يكون تكرارا ، فنقول : ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير لأنه لما قال : ﴿ **بل عجبوا** ﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجبا كقوله : ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ [هود : ٧٣] ويقال في العرف :لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب ، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم : لا معنى لتعجبكم، فقالوا : ﴿ **هذا شيء عجيب** ﴾ فكيف لا نعجب منه ، ويدل على ذلك قوله ها هنا: ﴿ **فقال الكافرون** ﴾ بالفاء ، فإنها تدل على أنه مترتب على ما تقدم، قرأ الجمهور : ﴿ **أئذا متنا** ﴾ بالاستفهام ، وقرأ ابن عامر في رواية عنه وأبو جعفر والأعمش والأعرج بهمزة واحدة ، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور وهمزة الاستفهام مقدرة ، ويحتمل أن معناه الإخبار ، والعامل في الظرف مقدر ، أي أيبعثنا ، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فجواب « إذا » محذوف ، أي رجعنا . وقيل : ذلك رجع ، والمعنى : استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم ترابا ،ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا: ﴿ **ذلك** ﴾ أي البعث ﴿ **رجع بعيد** ﴾ أي بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان ، يقال : رجعته أرجعه رجعا، ورجع هو يرجع رجوعا .

ثم رد سبحانه ما قالوه فقال : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء من ذلك ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث ولا يستبعد منه ، وقال السدى : النقص هنا الموت ، يقول : قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى ؛ لأن من مات دفن ، فكأن الأرض تنقص من الأموات . وقيل : المعنى : من يدخل في الإسلام من المشركين . والأول أولى . ﴿ **وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ أي حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء ، وهو اللوح المحفوظ . وقيل: المراد بالكتاب هنا العلم والإحصاء ، والأول أولى . وقيل : ﴿**حفيظ**﴾ بمعنى : محفوظ ، أي محفوظ من الشياطين أو : محفوظ فيه كل شيء . ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال : ﴿**بل كذبوا بالحق** ﴾ فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدم عنهم من الاستبعاد ، والمراد بالحق هنا : القرآن ، قال الماوردى : في قول الجميع . وقيل : هو الإسلام . وقيل : محمد . وقيل : النبوة الثابتة بالمعجزات ﴿ **لما جاءهم**﴾ أي وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ، قرأ الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم ، وقرأ الجحدرى بكسر اللام وتخفيف الميم . ﴿ **فهم في أمر مريج** ﴾ أي مختلط مضطرب، يقولون مرة :ساحر ، ومرة :شاعر ، ومرة :كاهن ، قاله الزجاج وغيره . وقال قتادة : مختلف . وقال الحسن : ملتبس ، والمعنى متقارب . وقيل : فاسد والمعاني متقاربة ، ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، أي فسدت ، ومرج الدين والأمر : اختلط .

﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أي كيف غفلوا

عن النظر إلى السماء فوقهم ﴿ **كيف بنيناها** ﴾ وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه ﴿ **وزيناها** ﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح ﴿ **ومالها من فروج** ﴾ أى فتوق وشقوق وصدوع ، وهو جمع فرج ، ومنه قول امرئ القيس :

ويسد به فرجا من دبر

قال الكسائى : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق ﴿**والأرض مددناها** ﴾ أى بسطناها ﴿**وألقينا فيها رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة الرعد . ﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾ أى من كل صنف حسن وقد تقدم تفسير هذا فى سورة الحج . ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ هما علتان لما تقدم منتصبتان بالفعل الأخير منها ، أو بمقدر ، أى فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير قاله الزجاج ، وقال أبو حاتم : انتصبا على المصدرية ، أى جعلنا ذلك تبصرة وذكرى ، والمنيب : الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر فى بديع صنعه وعجائب مخلوقاته ، وفى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة ، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه ، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه ، وهكذا قوله: ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركا** ﴾ أى نزلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم ﴿ **فأنبتنا به جنات** ﴾ أى أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة ﴿ **وحب الحصيد** ﴾ أى ما يقتات ويحصد من الحبوب ؛والمعنى : وحب الزرع الحصيد ، وخص الحب لأنه المقصود ، كذا قال البصريون . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشىء إلى نفسه، كمسجد الجامع ، حكاه الفراء ، قال الضحاك : ﴿ **حب الحصيد** ﴾ : البر والشعير . وقيل : كل حب يحصد ويدخر ويقتات . ﴿ **والنخل باسقات لها طلع نضيد** ﴾ هو معطوف على ﴿ **جنات** ﴾ ، أى وأنبتنا به النخل ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها فى الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار ، وانتصاب ﴿ **باسقات** ﴾ على الحال ، وهى حال مقدرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة ، قال مجاهد وعكرمة وقتادة : الباسقات : الطوال ، وقال سعيد بن جبير : مستويات، وقال الحسن وعكرمة والفراء : مواقير حوامل ، يقال : للشاة إذا بسقت : ولدت ، والأشهر فى لغة العرب الأول ، يقال : بسقت النخلة بسوقا : إذا طالت ، ومنه قول الشاعر :

لنا خمر وليست خمر كرم ... ولكن من نتاج الباسقات

كرام فى السماء ذهبن طولا ... وفات ثمارها أيدى الجناة

وجملة : ﴿ **لها طلع نضيد**﴾ فى محل نصب على الحال من ﴿ **النخل** ﴾ ، الطلع : هو أول ما يخرج من ثمر النخل،يقال : طلع الطلع طلوعا ، والنضيد : المتراكب الذى نضد بعضه على بعض،وذلك قبل أن ينفتح فهو نضيد فى أكمامه فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿**رزقا للعباد** ﴾ انتصابه على المصدرية ، أى رزقناهم رزقا ، أو على العلة ، أى أنبتنا هذه الأشياء للرزق ﴿ **وأحيينا به بلدة ميتا** ﴾ أى أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع ،وجملة:

﴿ كذلك الخروج ﴾ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذى أحيا الله به الأرض الميتة ، قرأ الجمهور : ﴿ ميتا ﴾ على التخفيف ، وقرأ أبو جعفر وخالد بالتثقيل .

ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس ﴾ هم قوم شعيب كما تقدم بيانه . وقيل : هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى ، وهم من قوم عيسى . وقيل هم أصحاب الأخدود ، والرس : إما موضع نسبوا إليه ، أو فعل ، وهو حفر البئر ، يقال : رس : إذا حفر بئرا ﴿ وثمود . وعاد وفرعون ﴾ أى فرعون وقومه ﴿ وإخوان لوط ﴾ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره . وقيل : هم من قوم إبراهيم وكانوا من معارف لوط ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ تقدم الكلام على الأيكة واختلاف القراء فيها فى سورة الشعراء مستوفى ، ونبيهم الذى بعثه الله إليهم شعيب ﴿ وقوم تبع ﴾ هو تبع الحميرى الذى تقدم ذكره فى قوله:﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾[الدخان : ٣٧] واسمه سعد أبو كرب . وقيل : أسعد . قال قتادة : ذم الله قوم تبع ، ولم يذمه ﴿ كل كذب الرسل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه ، أى كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذى أرسله الله إليه، وكذب ما جاء به من الشرع . واللام فى ﴿ الرسل ﴾ تكون للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ، أى كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل ، وإفراد الضمير فى ﴿ كذب ﴾ باعتبار لفظ ﴿ كل ﴾، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ كأنه قيل له: لا تحزن ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء ، فإن قومهم كذبوهم ولم يصدقهم إلا القليل منهم ﴿ فحق وعيد ﴾ أى وجب عليهم وعيدى وحقت عليهم كلمة العذاب ، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف والمسخ والإهلاك بالأنواع التى أنزلها الله بهم من عذابه .

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذى أنكرته الأمم، أى أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولا ولم يكونوا شيئا ، فكيف نعجز عن بعثهم ؟ يقال : عييت بالأمر : إذا عجزت عنه ولم أعرف وجهه . قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة ، وقرأ ابن أبى عبلة بتشديد الياء من غير إشباع ، ثم ذكر أنهم فى شك من البعث ، فقال : ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ أى فى شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف ، وهو بعث الأموات ، ومعنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله :﴿ ق ﴾ قال : هو اسم من أسماء الله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال :خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا ، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له: قاف السماء الدنيا مرفوعة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها ، ثم خلق وراء

ذلك جبلا يقال له : قاف، السماء الثانية مرفوعة عليه ،حتى عد سبع أرضين ، وسبعة أبحر ، وسبعة أجبل ، وسبع سموات ، قال : وذلك قوله : ﴿ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ﴾ [لقمان : ٢٧] . قال ابن كثير : لا يصح سنده عن ابن عباس وقال أيضا : وفيه انقطاع [١] . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضا قال : هو جبل وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك ذلك العرق الذى يلى تلك القرية فيزلزلها ويحركها ، فمن ثم يحرك القرية دون القرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **والقرآن المجيد** ﴾ قال : الكريم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : القرآن المجيد ليس شىء أحسن منه ولا أفضل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا :﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم** ﴾ قال : أجسادهم وما يذهب منها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : ما تأكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا . قال: المريج : الشىء المتغير . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن قطبة قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى الصبح : ﴿ **ق** ﴾ ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **والنخل باسقات** ﴾ فجعلت أقول :ما بسوقها ؟ قال : « طولها » [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والنخل باسقات** ﴾ قال : الطول . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **لها طلع نضيد** ﴾ قال : متراكم بعضه على بعض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ يقول : لم يعينا الخلق الأول . وفى قوله : ﴿ **بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ فى شك من البعث .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ

---

(١) ابن كثير ٦/٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٤٦٤ على شرط مسلم وافقه الذهبى .

لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية ، والمراد بالإنسان الجنس . وقيل : آدم . والوسوسة هى فى الأصل الصوت الخفى ، والمراد بها هنا : ما يختلج فى سره وقلبه وضميره ، أى نعلم ما يخفى ويكن فى نفسه ، ومن استعمال الوسوسة فى الصوت الخفى قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت

فاستعمل لما خفى من حديث النفس ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ هو حبل العاتق ،وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان من عن يمين وشمال.وقال الحسن : الوريد : الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب ، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان ، أى نحن أقرب إليه من حبل وريده ، والإضافة بيانية، أى حبل هو الوريد . وقيل : الحبل هو نفس الوريد ، فهو من باب مسجد الجامع . ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ الظرف منتصب بما فى ﴿ **أقرب** ﴾ من معنى الفعل ، ويجوز أن يكون منصوبا بمقدر هو اذكر ، والمعنى : أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى ﴿ **المتلقيان** ﴾ ، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به وما يعمل به ، أى يأخذان ذلك ويثبتانه ، والتلقى : الأخذ ، أى نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكلين به ، وإنما جعلنا ذلك إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر، قال الحسن وقتادة ومجاهد : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك ، وقال مجاهد أيضا : وكل الله بالإنسان ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ إنما قال : ﴿ **قعيد** ﴾ ولم يقل : قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كذا قال سيبويه كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقال الفرزدق :

وأتى وكان وكنت غير عذور

أى وكان غير عذور وكنت غير عذور . وقال الأخفش والفراء : إن لفظ ﴿ **قعيد** ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير فى الأول . قال الجوهرى وغيره من أئمة اللغة

والنحو: فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع . والقعيد : المقاعد كالجليس بمعنى المجالس . ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ أى ما يتكلم من كلام ، فيلفظه ويرميه من فيه إلا لديه ، أى لدى ذلك اللافظ رقيب ، أى ملك يرقب قوله ويكتبه . والرقيب : الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذى يكتب ما يقوله من خير وشر. فكاتب الخير هو ملك اليمين ، وكاتب الشر ملك الشمال ، والعتيد : الحاضر المهيأ . قال الجوهرى : العتيد الحاضر المهيأ ، يقال : عتده تعتيدا وأعتده اعتدادا ، أى أعده ، ومنه: ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ [يوسف: ٣١] والمراد هنا : أنه معد للكتابة مهيأ لها . ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾ لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت ، والمراد بسكرة الموت شدته وغمرته التى تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، ومعنى ﴿ **بالحق** ﴾ : أنه عند الموت يتضح له الحق ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد. وقيل : الحق هو الموت . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذا قرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود ، والسكرة : هى الحق ، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : الباء للملابسة كالتى فى قوله: ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : ٢٠] أى متلبسة بالحق ، أى بحقيقة الحال . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الموت ، والحيد : الميل ، أى ذلك الموت الذى كنت تميل عنه وتفر منه . يقال : حاد عن الشىء يحيد حيودا وحيدة وحيدودة : مال عنه وعدل ، ومنه قول طرفة :

أبو منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

وقال الحسن : تحيد : تهرب ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ، وهذه هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ **ذلك يوم الوعيد** ﴾ أى ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ فى الصور يوم الوعيد الذى أوعد الله به الكفار قال مقاتل : يعنى بالوعيد : العذاب فى الآخرة ، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعا لتهويله . ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ أى جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها ومن يشهد لها أو عليها. واختلف فى السائق والشهيد . فقال الضحاك : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم ، يعنى : الأيدى والأرجل ، وقال الحسن وقتادة : سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم : السائق : قرينها من الشياطين . سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وقيل : السائق : الملك والشهيد : العمل . وقيل : السائق : كاتب السيئات ، والشهيد : كاتب الحسنات ، ومحل الجملة النصب على الحال . ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا** ﴾ أى يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا ، والجملة فى محل نصب على الحال من ﴿ **نفس** ﴾ أو مستأنفة كأنه قيل : ما يقال له . قال الضحاك : المراد بها : المشركون ؛ لأنهم كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم . وقال ابن زيد : الخطاب للنبى ﷺ ، أى لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة ، وقال أكثر المفسرين : المراد به جميع الخلق برهم

وفاجرهم ، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من ﴿ كنت ﴾ وفتح الكاف فى ﴿غطاءك ﴾ و ﴿ بصرك ﴾ حملا على ما فى لفظ ﴿ كل ﴾ من التذكير . وقرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف بالكسر فى الجميع على أن المراد النفس ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ الذى كان فى الدنيا ، يعنى : رفعنا الحجاب الذى كان بينك وبين أمور الآخرة ، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿ فبصرك اليوم حديد﴾ أى نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك فى الدنيا . قال السدى : المراد بالغطاء : أنه كان فى بطن أمه فولد . وقيل : إنه كان فى القبر فنشر ، والأول أولى ، والبصر ، قيل : هو بصر القلب ، وقيل : بصر العين . وقال مجاهد : بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك ، وبه قال الضحاك .

﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ﴾ أى قال الملك الموكل به : هذا ما عندى من كتاب عملك ﴿ عتيد ﴾ حاضر قد هيأته ، كذا قال الحسن وقتادة والضحاك ، وقال مجاهد : إن الملك يقول للرب سبحانه : هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، وروى عنه أنه قال : إن قرينه من الشياطين ، يقول ذلك : أى هذا ما قد هيأته لك بإغوائى وإضلالى . وقال ابن زيد : إن المراد هنا قرينه من الإنس ، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة ، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف . ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ﴾ هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد . قال الزجاج : هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق والشهيد :كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان ﴿ مناع للخير﴾ لا يبذل خيرا ﴿ معتد ﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿ مريب ﴾ شاك فى الحق ، من قولهم : أراب الرجل : اذا صار ذا ريب وقيل : هو خطاب للملكين من خزنة النار . وقيل : هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره ، قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون : ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد ، قال الفراء : العرب تقول : للواحد قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر خليلى كما قال امرؤ القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب ... نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول الآخر :

فإن تزجرانى يابن عفان أنزجر ... وإن تدعوانى أحم عرضا ممنعا

قال المازنى : قوله : ﴿ ألقيا ﴾ يدل على ألق ألق . قال المبرد : هى تثنية على التوكيد فناب ألقيا مناب ألق ألق . قال مجاهد وعكرمة : العنيد : المعاند للحق . وقيل : المعرض عن

الحق . يقال : عند يعند بالكسر عنودا : إذا خالف الحق . ﴿ **الذى جعل مع الله إلها آخر**﴾ يجوز أن يكون بدلا من ﴿ **كل** ﴾ أو منصوبا على الذم ، أو بدلا من ﴿ **كفار** ﴾ أو مرفوعا بالابتداء أو الخبر ﴿ **فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ تأكيد للأمر الأول أو بدل منه ﴿ **قال قرينه ربنا ما أطغيته** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين ، والمراد بالقرين هنا : الشيطان الذى قيض لهذا الكافر ، أنكر أن يكون أطغاه ، ثم قال : ﴿ **ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ أى عن الحق فدعوته فاستجاب لى ، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه . وقيل : إن قرينه الملك الذى كان يكتب سيئاته وإن الكافر يقول : رب إنه أعجلنى فيجيبه بهذا ، كذا قال مقاتل وسعيد بن جبير . والأول أولى . وبه قال الجمهور .

﴿ **قال لا تختصموا لدى** ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ، فماذا قال الله ؟ فقيل : ﴿ **قال لا تختصموا لدى** ﴾ يعنى : الكافرين وقرناءهم ، نهاهم سبحانه عن الاختصام فى موقف الحساب ، وجملة : ﴿ **وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قد قدمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، والباء فى ﴿**بالوعيد** ﴾ مزيدة للتأكيد أو على تضمين قدم معنى تقدم ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ أى لا خلف لوعدى ، بل هو كائن لا محالة ، وقد قضيت عليكم بالعذاب فلا تبديل له . وقيل : هذا القول هو قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] وقيل : هو قوله : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة : ١٣] وقال الفراء وابن قتيبة : معنى الآية : أنه ما يكذب عندى بزيادة فى القول ولا بنقص منه لعلمى بالغيب ، وهو قول الكلبى ، واختاره الواحدى لأنه قال : ﴿ **لدى** ﴾ ولم يقل : وما يبدل قولى ، والأول أولى . وقيل: إن مفعول ﴿ **قدمت إليكم** ﴾ هو ﴿ **ما يبدل** ﴾ ، أى وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد ، وهذا بعيد جدا ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ أى لا أعذبهم ظلما بغير جرم اجترموه ولا ذنب أذنبوه ، ولما كان نفى الظلام لا يستلزم نفى مجرد الظلم قيل : إنه هنا بمعنى : الظالم ، كالتمار بمعنى : التامر . وقيل : إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم .وقيل : صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم: فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده . وقيل غير ذلك ، وقد تقدم الكلام على هذا فى سورة آل عمران وفى سورة الحج .

﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نقول** ﴾ بالنون . وقرأ نافع وأبو بكر بالياء ، وقرأ الحسن : « أقول » وقرأ الأعمش: « يقال » والعامل فى الظرف ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ أو محذوف أى أذكر أو أنذرهم ، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل ، والأولى أنه على طريقة التحقيق ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع : قال الواحدى . قال المفسرون : أراها الله تصديق قوله :﴿لأملأن

جهنم ﴾ [ص : ٨٥] فلما امتلأت قال لها : ﴿ **هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ أى قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلئ ، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان . وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة ، أى إنها تطلب الزيادة على من صار فيها . وقيل : إن المعنى : أنها طلبت أن يزاد فى سعتها لتضايقها بأهلها ، والمزيد إما مصدر كالمحيد أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى : هل من زيادة ؟ والثانى بمعنى : هل من شيء تزيدونيه ؟

ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع فى بيان حال المؤمنين فقال : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ أى قربت للمتقين تقريبا غير بعيد، أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها فى الموقف ، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويجوز أن يكون انتصاب ﴿ **غير بعيد** ﴾ على الحال . وقيل : المعنى : أنها زينت قلوبهم فى الدنيا بالترغيب والترهيب ، فصارت قريبة من قلوبهم ، والأول أولى . والإشارة بقوله : ﴿ **هذا ما توعدون** ﴾ إلى الجنة التى أزلفت لهم على معنى : هذا الذى ترونه من فنون نعيمها ما توعدون ، والجملة بتقدير القول ، أى ويقال لهم : هذا ما توعدون ، قرأ الجمهور: ﴿ **توعدون** ﴾ بالفوقية ،وقرأ ابن كثير بالتحتية ﴿ **لكل أواب حفيظ** ﴾ هو بدل من ﴿**للمتقين** ﴾ بإعادة الخافض أو متعلق بقول محذوف هو حال ، أى مقولا لهم لكل أواب ، والأواب : الرجاع إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية . وقيل : هو المسبح . وقيل : هو الذاكر لله فى الخلوة .قال الشعبى ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها، وقال عبيد بن عمير:هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله فيه ، والحفيظ : هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها . وقال قتادة : هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، قاله مجاهد . وقيل : هو الحافظ لأمر الله ، وقال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله له بالقبول .

﴿ **من خشى الرحمن بالغيب** ﴾ الموصول فى محل جر بدلا أو بيانا ﴿ **لكل أواب** ﴾ قيل : يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين ، وفيه نظر لأنه لا يتكرر البدل والمبدل منه واحد ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على الاستئناف والخبر ﴿ **ادخلوها** ﴾ بتقدير : يقال لهم : ادخلوها ، والخشية بالغيب : أن يخاف الله ولم يكن رآه ، وقال الضحاك والسدى : يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد ، قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب ، و﴿ **بالغيب** ﴾ متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر ﴿ **خشى** ﴾ ﴿ **وجاء بقلب منيب** ﴾ أى راجع إلى الله مخلص لطاعته . وقيل : المنيب : المقبل على الطاعة. وقيل : السليم ﴿ **ادخلوها** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقال لهم : ادخلوها ، والجمع باعتبار معنى « من » ، أى ادخلوا الجنة ﴿ **بسلام** ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته . وقيل : بسلامة من زوال النعم ، وهو متعلق بمحذوف هو حال ، أى ملتبسين بسلام ، والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء ،وخبره ﴿ **يوم الخلود** ﴾ وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له ، بل هو دائم أبدا ﴿ **لهم ما يشاؤون فيها** ﴾ أى فى الجنة ما تشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ من النعم التى لم تخطر لهم على بال ولا مرت لهم فى خيال.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « نزل الله من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد ،وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا» . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **من حبل الوريد** ﴾ قال : عروق العنق . وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، وشربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان من خيرأوشر وألقى سائره فذلك قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ [الرعد : ٣٩] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : إنما يكتب الخير والشر ، لا يكتب يا غلام أسرج الفرس . يا غلام اسقني الماء ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم »[١] . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي وأبو نعيم والبيهقي في الشعب عن عمرو بن ذر قال:قال رسول الله ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله عبد ولينظر ما يقول »[٢]. وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعا مثله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث وابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد**﴾ قال : سائق يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال : السائق الملك ، والشهيد : العمل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا** ﴾ قال:هو الكافر ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا : ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك** ﴾ قال: الحياة بعد الموت . وأخرج ابن جرير عنه أيضا: ﴿ **وقال قرينه** ﴾ قال : شيطانه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ **لا تختصموا لدي** ﴾ قال : إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله حجتهم ورد عليهم قولهم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا . في قوله : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا ، في قوله: ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قال: وهل فيّ من مكان يزاد فيّ ؟. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى

---

(١) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤) والطلاق (٦٩٥٢) ومسلم في الإيمان (١٢٧/ ٢٠١) وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٩) والترمذي في الطلاق (١١٨٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والعمل على هذا عند أهل العلم :« أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيء حتى يتكلم به » .

(٢) ابن أبي شيبة في الزهد (١٦٢٠١) وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٥٢ والبيهقي في الشعب (٤٦٧٨) .

فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وعزتك وكرمك ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة » [(١)]. وأخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه [(٢)]. وفى الباب أحاديث .

وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لكل أواب حفيظ** ﴾ قال : حفظ ذنوبه حتى رجع عنها . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور عن أنس ، فى قوله : ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ قال : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى فى كل جمعة . وأخرج البيهقى فى الرؤية والديلمى عن على فى الآية قال : يتجلى لهم الرب عز وجل ، وفى الباب أحاديث .

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)** ﴾ .

خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية ﴿ **قبلهم** ﴾ أى قبل قريش ومن وافقهم ﴿ **من قرن** ﴾ أى من أمة ﴿ **هم أشد منهم بطشا** ﴾ أى قوة كعاد وثمود وغيرهما ﴿ **فنقبوا فى البلاد** ﴾ أى ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها وأصله من النقب ، وهو الطريق . قال مجاهد : ضربوا وطافوا ، وقال النضر بن شميل : دوروا . وقال المؤرج : تباعدوا ، والأول أولى . ومنه قول امرئ القيس :

وقد نقبت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

ومثله قول الحارث بن حلزة :

نقبوا فى البلاد من حذر المو ... ت وجالوا فى الأرض كل مجال

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو العالية وأبو عمرو فى رواية : « نقبوا » بفتح القاف مخففة ،

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٤٨) ومسلم فى الجنة ونعيمها (٢٨٤٨/ ٣٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٤٩) ومسلم فى الجنة ونعيمها (٢٨٤٦ / ٣٥ ، ٣٦) والنسائى فى التفسير (٤٥٢) .

والنقب هو : الخرق والطريق فى الجبل ، وكذا المنقب والمنقبة ، كذا قال ابن السكيت ، وجمع النقب : نقوب ، وقرأ السلمى ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد ، أى طوّفوا فيها وساروا فى جوانبها ، وقرأ الباقون بفتح القاف مشددة على الماضى ﴿ **هل من محيص**﴾ أى هل لهم من مهرب يهربون إليه ، أو مخلص يتخلصون به من العذاب ؟ قال الزجاج : لم يروا محيصا من الموت ، والمحيص : مصدر حاص عنه يحيص حيصا وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا ، أى عدل وحاد ، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم ، وفى هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت والعذاب مفرا ﴿ **إن فى ذلك لذكرى** ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم تذكرة وموعظة ﴿ **لمن كان له قلب** ﴾ أى عقل . قال الفراء : وهذا جائز فى العربية، تقول : مالك قلب وما قلبك معك ، أى مالك عقل ، وما عقلك معك . وقيل : المراد : القلب نفسه ؛ لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغى . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة ؛ فعبر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها ، ومنه قول امرئ القيس :

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى النفس تفعل

﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ أى استمع ما يقال له ، يقال : ألق سمعك إلى أى استمع منى ، والمعنى : أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحى الحاكى لما جرى على تلك الأمم ، قرأ الجمهور:﴿ **ألقى** ﴾ مبنيا للفاعل وقرأ السلمى وطلحة والسدى على البناء للمفعول ورفع «السمع» ﴿ **وهو شهيد** ﴾ أى حاضر الفهم أو حاضر القلب لأن من لا يفهم فى حكم الغائب ، وإن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه . قال الزجاج : أى وقلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان : أى لا يكون حاضرا وقلبه غائب، قال مجاهد وقتادة :هذه الآية فى أهل الكتاب وكذا قال الحسن، وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها فى أهل القرآن خاصة.﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام** ﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف وغيرها . ﴿ **وما مسنا من لغوب** ﴾ اللغوب : التعب والإعياء ، تقول : لغب يلغب بالضم لغوبا ، قال الواحدى : قال جماعة المفسرين : إن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى بقوله:﴿ **وما مسنا من لغوب** ﴾ .﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ هذه تسلية للنبى ﷺ وأمر له بالصبر على ما يقوله المشركون ، أى هون عليك ولا تحزن لقولهم وتلق ما يرد عليك منه بالصبر ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ أى نزه الله عما لا يليق بجنابه العالى متلبسا بحمده وقت الفجر ووقت العصر. وقيل: المراد:صلاة الفجر وصلاة العصر. وقيل : الصلوات الخمس . وقيل : صل ركعتين . قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها . والأول أولى.

﴿ **ومن الليل فسبحه** ﴾ « من » للتبعيض ، أى سبحه بعض الليل . وقيل : هذه صلاة الليل . وقيل : ركعتا الفجر . وقيل : صلاة العشاء ، والأول أولى ﴿ **وإدبار السجود** ﴾ أى

وسبحه أعقاب الصلوات . قرأ الجمهور : ﴿ أدبار ﴾ بفتح الهمزة جمع دبر . وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسرها على المصدر ، من أدبر الشيء إدبارا : إذا ولى . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود : الركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الفجر ، وقد اتفق القراء السبعة فى ﴿ إدبار النجوم ﴾ [الطور : ٤٩] أنه بكسر الهمزة كما سيأتى . ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ أى استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة يوم ينادى المناد ، وهو إسرافيل أو جبريل . وقيل: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، وهى صيحة القيامة ، أعنى :النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل . وقيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى أهل المحشر ، ويقول : هلموا للحساب ، فالنداء على هذا فى المحشر ، قال مقاتل : هو إسرافيل ينادى بالحشر فيقول : يأيها الناس هلموا للحساب ﴿ من مكان قريب﴾ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر . قال قتادة : كنا نحدث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس ، قال الكلبى : وهى أقرب الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا. ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ هو بدل من ﴿ يوم يناد ﴾ يعنى: صيحة البعث ، و﴿ بالحق ﴾ متعلق بالصيحة ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أى يوم الخروج من القبور ، قال الكلبى : معنى ﴿ بالحق ﴾ :بالبعث ، وقال مقاتل يعنى: أنها كائنة حقا .

﴿ إنا نحن نحيي ونميت ﴾ أى نحيى فى الآخرة ونميت فى الدنيا لا يشاركنا فى ذلك مشارك ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث ﴿ وإلينا المصير ﴾ فنجازى كل عامل بعمله ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم ﴾ قرأ الجمهور بإدغام التاء فى الشين ، وقرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ زيد بن على :« تتشقق » بإثبات التاءين على الأصل ، وقرئ على البناء للمفعول ، وانتصاب :﴿ سراعا ﴾ على أنه حال من الضمير فى عنهم، والعامل فى الحال ﴿ تشقق ﴾ . وقيل :العامل فى الحال هو العامل فى ﴿ يوم ﴾ ، أى مسرعين إلى المنادى الذى ناداهم ﴿ ذلك حشر ﴾ أى بعث وجمع ﴿ علينا يسير ﴾ هين . ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ فقال : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ يعنى : من تكذيبك فيما جئت به ومن إنكار البعث والتوحيد ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان ، والآية منسوخة بآية السيف ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أى من يخاف وعيدى لعصاتى بالعذاب، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم، ثم أمره سبحانه بعد ذلك بالقتال .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ ومامسنا من لغوب ﴾ قال : من نصب . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾ :« صلاة الصبح » ﴿ وقبل الغروب ﴾ : « صلاة العصر » [1]. وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه داود بن الزبرقان وهو متروك » .

ابن عباس ، قال :بت عند رسول الله ﷺ ، فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال : « يا ابن عباس ، ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود »[1] . وأخرج مسدد فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن على بن أبى طالب قال : سألت رسول الله ﷺ عن إدبار النجوم وإدبار السجود . فقال : « إدبار السجود : ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الغداة » . وأخرج محمد بن نصر فى الصلاة، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : إدبار السجود : ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم :ركعتان قبل الفجر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة مثله . وأخرج البخارى وغيره عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها . وأخرج ابن جرير عنه : **﴿واستمع يوم يناد المناد﴾** قال : هى الصيحة . وأخرج الواسطى عنه أيضا **﴿ من مكان قريب﴾** قال : من صخرة بيت المقدس . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عنه أيضا : **﴿ ذلك يوم الخروج ﴾** قال : يوم يخرجون إلى البعث من القبور . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : قالوا: يا رسول الله ، لو خوفتنا فنزلت : **﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾**[2] .

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٧٥) وقال : « غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رشدين بن كريب » ، وابن جرير ٢٦/١١٣ ، وصححه الحاكم ١/ ٣٢٠ وقال الذهبى : « رشدين ضعفه أبو زرعة والدارقطنى » .

(٢) ابن جرير ٢٦/١١٥ .

تفسير سـورة الذاريـات

هى ستون آية ، وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الذاريات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **والذاريات ذروا** ﴾ يقال : ذرت الريح التراب تذروه ذروا ، وأذرته تذريه ذريا ، أقسم سبحانه بالرياح التى تذرى التراب ، وانتصاب ﴿ **ذروا** ﴾ على المصدرية ، والعامل فيها اسم الفاعل والمفعول محذوف ، قرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام تاء الذاريات فى ذال ذروا ، وقرأ الباقون بدون إدغام . وقيل : المقسم به مقدر وهو رب الذاريات وما بعدها ، والأول أولى ﴿**فالحاملات وقرا** ﴾ هى السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ، وانتصاب ﴿ **وقرا** ﴾ على أنه مفعول به كما يقال : حمل فلان عدلا ثقيلا . قرأ الجمهور : ﴿ **وقرا** ﴾ بكسر الواو اسم ما يوقر ، أى يحمل ، وقرئ بفتحها على أنه مصدر والعامل فيه اسم الفاعل أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة ﴿ **فالجاريات يسرا** ﴾ هى السفن الجارية فى البحر بالرياح جريا سهلا ، وانتصاب ﴿ **يسرا** ﴾ على المصدرية ، أو صفة لمصدر محذوف ، أو على الحال ، أى جريا ذا يسر . وقيل : هى الرياح . وقيل : السحاب ، والأول أولى، واليسر: السهل فى كل شىء . ﴿ **فالمقسمات أمرا** ﴾ هى الملائكة التى تقسم الأمور ، قال الفراء: تأتى بأمر مختلف : جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتى بالموت . وقيل : تأتى بأمر

مختلف من الجدب والخصب والمطر والموت والحوادث . وقيل : هى السحب التى يقسم الله بها أمر العباد . وقيل : إن المراد بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات : الرياح ، فإنها توصف بجميع ذلك ؛ لأنها تذرو التراب . وتحمل السحاب . وتجرى فى الهواء وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جدا ، وانتصاب ﴿ أمرا ﴾ على المفعول به . وقيل : على الحال ، أى مأمورة ، والأول أولى ﴿إنما توعدون لصادق ﴾ هذا جواب القسم ، أى إنما توعدون من الثواب والعقاب لكائن لا محالة . و« ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية . ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها ؛ كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به .

﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الحبك ﴾ بضم الحاء والباء ، وقرئ بضم الحاء وسكون الباء وبكسر الحاء وفتح الباء ، وبكسر الحاء وضم الباء. قال ابن عطية : هى لغات ، والمراد بالسماء هنا : هى المعروفة. وقيل : المراد بها: السحاب ، والأول أولى . واختلف المفسرون فى تفسير ﴿ الحبك ﴾ ، فقال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم : المعنى ذات الخلق المستوى الحسن . قال ابن الأعرابى : كل شىء أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته واحتبكته ، وقال الحسن وسعيد بن جبير : ذات الزينة ، وروى عن الحسن أيضا أنه قال : ذات النجوم ، وقال الضحاك : ذات الطرائق ،وبه قال الفراء،يقال لما تراه من الماء والرمل إذا أصابته الريح : حبك ، قال الفراء : الحبك بكسر: كل شىء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة والماء إذا مرت به الريح ، ويقال لدرع الحديد : حبك ، ومنه قول الشاعر :

كأنما جـلـلها الحـواك ... طنفسـة فى وشيها حباك

أى طرق . وقيل الحبك : الشدة ، والمعنى : والسماء ذات الشدة ، والمحبوك: الشديد الخلق من فرس أو غيره ، ومنه قول الشاعر :

قد غدا يحملنى فى أنفه ... لاحق الأطلين محبوك ممرّ

وقال الآخر :

مـرج الديـن فأعددت له ... مشرف الحارك محبوك الكتد

قال الواحدى بعد حكاية القول الأول : هذا قول الأكثرين ﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك ، أى إنكم يا أهل مكة لفى قول مختلف متناقض فى محمد ﷺ . بعضكم يقول :إنه شاعر، وبعضكم يقول : إنه ساحر ، وبعضكم يقول: إنه مجنون . ووجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة ، تشبيه أقوالهم فى اختلافها باختلاف طرائق السماء ، واستعمال الحبك فى الطرائق هو الذى عليه أهل اللغة وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه ، على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال فى تفسير الحبك إلى هذا ، وذلك بأن يقال : إن ما فى السماء من الطرائق يصح أن يكون سببا لمزيد حسنها واستواء خلقها

وحصول الزينة فيها ومزيد القوة لها. وقيل : إن المراد بكونهم فى قول مختلف : أن بعضهم ينفى الحشر وبعضهم يشك فيه . وقيل : كونهم يقرون أن الله خالقهم ويعبدون الأصنام ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أى يصرف عن الإيمان برسول الله ﷺ وبما جاء به، أو عن الحق ، وهو البعث والتوحيد من صرف. وقيل : يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق ، يقال : أفكه يأفكه إفكا ، أى قلبه عن الشىء وصرفه عنه ، ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا ﴾ [الأحقاف : ٢٢] وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، والأفن : فساد العقل . وقيل : يحرمه من حرم ، وقال قطرب : يجدع عنه من جدع. وقال اليزيدى : يدفع عنه من دفع .

﴿ قتل الخراصون ﴾ هذا دعاء عليهم ، وحكى الواحدى عن المفسرين جميعا أن المعنى : لعن الكذابون ، قال ابن الأنبارى : والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن ؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك ، قال الفراء : معنى ﴿ قتل ﴾ : لعن ، والخراصون : الكذابون الذين يتخرصون فيما لا يعلمون فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب شاعر ساحر . قال الزجاج : الخراصون : هم الكذابون ، والخرص : حزر ما على النخل من الرطب تمرا ، والخراص : الذى يخرصها ، وليس هو المراد هنا ثم قال : ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ أى فى غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة ، ومعنى ﴿ ساهون ﴾ : لاهون غافلون ، والسهو : الغفلة عن الشىء وذهابه عن القلب ، وأصل الغمرة : ما ستر الشىء وغطاه ، ومنها غمرات الموت ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ أى يقولون متى يوم الجزاء تكذيبا منهم واستهزاء . ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أى يحرقون ويعذبون ، يقال : فتنت الذهب : إذا أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة : الاختبار ، قال عكرمة : ألم ترأن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن ، وانتصاب ﴿ يوم ﴾ بمضمر ، أى الجزاء يوم هم على النار ، ويجوز أن يكون بدلا من ﴿ يوم الدين ﴾ والفتح للبناء لكونه مضافا إلى الجملة . وقيل : هو منصوب بتقدير: أعنى ، وقرأ ابن أبى عبلة برفع : ﴿ يوم ﴾ على البدل من يوم الدين ، وجملة : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ هى بتقدير القول ، أى يقال لهم : ذوقوا عذابكم قاله ابن زيد . وقال مجاهد : حريقكم ، ورجح الأول الفراء ، وجملة : ﴿ هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ من جملة ما هو محكى بالقول ، أى هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم . وقيل : هى بدل من فتنتكم.

﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة ، أى هم فى بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون . ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة ، وجملة : ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ تعليل لما قبلها ، أى لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين فى أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به وترك ما نهوا عنه . ثم بين إحسانهم الذى وصفهم به فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾

الهجوع : النوم بالليل دون النهار ، والمعنى: كانوا قليلا ما ينامون من الليل ، و« ما » زائدة ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة ، أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ، ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسى　　　فما أطعم نوما غير تهجاع

والتهجاع : القليل من النوم ، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب :

أمن ريحانة الداعى السميع　　　يهيجنى وأصحابى هجوع

وقيل :« ما » نافية ، أى كانوا ينامون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير منه ، وهذا ضعيف جدا ، وهذا قول من قال : إن المعنى : كان عددهم قليلا ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ **ما يهجعون** ﴾ وبه قال ابن الأنبارى وهو أضعف مما قبله، وقال قتادة فى تفسير هذه الآية : كانوا يصلون بين العشاءين ، وبه قال أبو العالية وابن وهب . ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ أى يطلبون فى أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم . قال الحسن : مدوا الصلاة إلى الأسحار ، ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. وقال الكلبى ومقاتل ومجاهد :هم بالأسحار يصلون ، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة . وقال الضحاك : هى صلاة الفجر . ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ أى يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل والمحروم تقربا إلى الله عز وجل.وقال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا : الزكاة المفروضة ، والأول أولى . فيحمل على صدقة النفل وصلة الرحم وقرى الضيف ؛ لأن السورة مكية ، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة ، وسيأتى فى سورة ﴿ سأل سائل﴾:﴿والذين فى[1] أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾ [المعارج :٢٤ ، ٢٥] بزيادة معلوم ، والسائل هو : الذى يسأل الناس لفاقته . واختلف فى تفسير المحروم ، فقيل : هو الذى يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا، فلا يتصدقون عليه ، وبه قال قتادة والزهرى . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : هو الذى لا سهم له فى الغنيمة ، ولا يجرى عليه من الفىء شىء ، وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته ، قال القرطبى : هو الذى أصابته الجائحة . وقيل : الذى لا يكتسب . وقيل : هو الذى لا يجد غنى يغنيه . وقيل : هو الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه . وقيل : هو المملوك . وقيل : الكلب . وقيل غير ذلك . قال الشعبى : لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم ، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ ، والذى ينبغى التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوى ، والمحروم فى اللغة : الممنوع من الحرمان وهو المنع ، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل ، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته ، ومن حرم العطاء ، ومن حرم الصدقة لتعففه .

ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده وصدق وعده ووعيده فقال :

---

(١) فى المخطوطة : « وفى أموالهم » .

﴿وفى الأرض آيات للموقنين﴾ أى دلائل واضحة وعلامات ظاهرة من الجبال والبر والبحر والأشجار والأنهار والثمار ، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة ، المكذبة لما جاءت به رسل الله ، ودعتهم إليه ، وخص الموقنين بالله ؛ لأنهم الذين يعترفون بذلك ، ويتدبرون فيه ، فينتفعون به . ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ أى وفى أنفسكم آيات تدل على توحيد الله ، وصدق ما جاءت به الرسل ، فإنه خلقهم نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما إلى أن ينفخ فيه الروح ثم تختلف بعد ذلك صورهم ، وألوانهم، وطبائعهم ، وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس ، ومعنى ﴿أفلا تبصرون﴾: أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأن وعده الحق ، وقوله الحق ، وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة تعتريه . وقيل :المراد بالأنفس : الأرواح ، أى وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات ﴿وفى السماء رزقكم﴾ أى سبب رزقكم ، وهو المطر فإنه سبب الأرزاق . قال سعيد بن جبير والضحاك: الرزق هنا: ما ينزل من السماء من مطر وثلج . وقيل : المراد بالسماء السحاب ، أى وفى السحاب رزقكم. وقيل : المراد بالسماء : المطر ، وسماه سماء ؛ لأنه ينزل من جهتها ، ومنه قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعنى : وعلى رب السمـاء رزقكم . قال :ونظيره :﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود : ٦] وهو بعيد . وقال سفيان الثورى : أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل : المعنى : وفى السماء تقدير رزقكم . قرأ الجمهور : ﴿رزقكم﴾ بالإفراد ، وقرأ يعقوب وابن محيصن ومجاهد : «أرزاقكم» بالجمع ﴿وما توعدون﴾ من الجنة والنار ، قاله مجاهد ، قال عطاء : من الثواب والعقاب ، وقال الكلبى : من الخير والشر ، قال ابن سيرين : ما توعدون من أمر الساعة ، وبه قال الربيع ، والأولى الحمل على ما هو أعم من هذه الأقوال ، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء ، والقضاء والقدر ينزل منها ، والجنة والنار فيها . ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال : ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ أى ما أخبركم به فى هذه الآيات . قال الزجاج : هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات . قال الكلبى : يعنى ما قص فى الكتاب ، وقال مقاتل :يعنى من أمر الساعة . وقيل : إن «ما» فى قوله : ﴿ما توعدون﴾ مبتدأ وخبره : ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ فيكون الضمير لما، ثم قال سبحانه: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿مثل﴾ على تقدير :كمثل نطقكم . و« ما » زائدة . كذا قال بعض الكوفيين : إنه منصوب بنزع الخافض ، وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ،أى لحق حقا مثل نطقكم ،وقال المازنى: إن « مثل » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح ، وقال سيبويه : هو مبنى لإضافته إلى غير متمكن ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم ، وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر والأعمش : « مثل » بالرفع

على أنه صفة لحق ؛ لأن مثل نكرة وإن أضيفت فهى لا تتعرف بالإضافة كغير . ورجح قول المازنى أبو على الفارسى ، قال : ومثله قول حميد :

وويحا لمن لم يدر ما هن ويحما

فبنى ويح مع ما ولم يلحقه التنوين . ومعنى الآية : تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمى ووجوده ، وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك هاهنا ، وإنه لحق كما أنك تتكلم ، والمعنى : أنه فى صدقه ووجوده كالذى تعرفه ضرورة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى ، والدارقطنى فى الأفراد، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿والذاريات ذروا ﴾ قال : الرياح ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ قال : السحاب ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ قال : السفن ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ قال : الملائكة . وأخرج البزار ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه وابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله ورفعه إلى رسول الله ﷺ . وفى إسناده أبو بكر بن سبرة وهو لين الحديث ، وسعيد بن سلام وليس من أصحاب الحديث ، كذا قال البزار ، قال ابن كثير [(١)] :فهذا الحديث ضعيف رفعه ، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر . وأخرج الفريابى وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول على . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قال :حسنها واستواؤها. وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه فى الآية قال : ذات البهاء والجمال وإن بنيانها كالبرد المسلسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ذات الخلق الحسن . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن منيع عن على قال :هى السماء السابعة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ قال : يضل عنه من ضل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا :﴿ قتل الخراصون ﴾ قال : لعن المرتابون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : هم الكهنة ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ قال : فى غفلة لاهون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الغمرة : الكفر والشك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال: فى ضلالتهم يتمادون . وفى قوله : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ قال : يعذبون .

وأخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ قال : الفرائض ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ قال : قبل أن تنزل الفرائض يعملون . وأخرج هؤلاء أيضا ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا ﴿ كانوا قليلا من

---

(١) ابن كثير ٦/٤١٤ .

الليل ما يهجعون ﴾ قال : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا ألا يصلوا فيها . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى الآية يقول : قليلا ما كانوا ينامون. وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أنس فى الآية قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر﴿**وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ قال: يصلون. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **فى أموالهم حق** ﴾ قال: سوى الزكاة يصل بها رحما أو يقرى بها ضيفا أو يعين بها محروما . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : السائل الذى يسأل الناس ، والمحروم الذى ليس له سهم من فىء المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: المحروم هو المحارف الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس ، فأمر الله المؤمنين برفده . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية : قالت :هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه . وأخرج الترمذى ، والبيهقى فى سننه عن فاطمة بنت قيس ؛ أنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : « إن فى المال حقا سوى الزكاة » ، وتلا هذه الآية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى قوله : ﴿وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ [البقرة : ١٧٧] [١] . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ قال : سبيل الغائط والبول .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك . وفى الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله ﷺ ، وأنه إنما علمه بطريق الوحى. وقيل : إن « هل » بمعنى « قد » كما فى قوله

---

(١) الترمذى فى الزكاة (٦٥٩ ، ٦٦٠) وقال : « هذا حديث إسناده ليس بذاك ، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف» والبيهقى ٤/ ٨٤.

تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ [الإنسان : ١] والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة . وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم فى سورة هود وسورة الحجر ، والمراد بكونهم مكرمين : أنهم مكرمون عند الله سبحانه ؛ لأنهم ملائكة جاؤوا إليه فى صورة بنى آدم ، كما قال تعالى فى وصفهم فى آية أخرى: ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء: ٢٦] . وقيل : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مقاتل ومجاهد : أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم ، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف ، وأمر امرأته أن تخدمهم. وقال الكلبى : أكرمهم بالعجل ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ العامل فى الظرف : ﴿ حديث ﴾ أى هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه ، أو العامل فيه : ﴿ ضيف ﴾ لأنه مصدر ، أو العامل فيه : ﴿ المكرمين ﴾ أو العامل فيه : فعل مضمر ، أى اذكر ﴿ فقالوا سلاما ﴾ أى نسلم عليك سلاما ﴿ قال سلام ﴾ أى قال إبراهيم: سلام : قرأ الجمهور بنصب ﴿سلاما﴾ الأول ورفع الثانى ، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا ، والمراد به : التحية، ويحتمل أن يكون المعنى : فقالوا كلاما حسنا ؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ، فيكون على هذا مفعولا به ، وأما الثانى فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أى عليكم سلام ، وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الإسمية للدوام والثبات ، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدوث ، ولهذا قال أهل المعانى : إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة ، وقرئ بالرفع فى الموضعين ، وقرئ بالنصب فيهما . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر السين ، وقرئ : «سلم » فيهما . ﴿ قوم منكرون ﴾ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا فى نفسه ولم يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم لكونهم ابتدؤوا بالسلام ولم يكن ذلك معهودا عند قومه. وقيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم . وقيل غير ذلك .

﴿ فراغ إلى أهله ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقيل : ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه ، والمعنى متقارب ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الصافات . يقال : راغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا يريغ ، أى يريد ويطلب ، وأراغ إلى كذا : مال إليه سرا وحاد ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أى فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى سورة هود: ﴿ بعجل حنيذ ﴾ [هود :٦٩] وفى الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة ، أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به ﴿ فقربه إليهم ﴾ أى قرب العجل إليهم ووضعه بين أيديهم فقال : ﴿ ألا تأكلون ﴾ الاستفهام للإنكار ، وذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه . قال فى الصحاح : العجل : ولد البقر، والعجول مثله والجمع العجاجيل ، والأنثى عجلة . وقيل : العجل فى بعض اللغات الشاة ﴿فأوجس منهم خيفة ﴾ أى أحس فى نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا مما قربه إليهم. وقيل : معنى ﴿ أوجس ﴾: أضمر ، وإنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه ، ومن أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمنا منه ، فظن إبراهيم أنهم جاؤوا للشر ولم يأتوا للخير . وقيل : إنه وقع فى قلبه أنهم

ملائكة . فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف قالوا . ﴿ **لا تخف** ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه ﴿ **وبشروه بغلام عليم** ﴾ أى بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال. والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق. وقال مجاهد وحده :إنه إسماعيل، وهو مردود بقوله: ﴿ **وبشرناه بإسحاق** ﴾ [الصافات : ١١٢] وقد قدمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ **فأقبلت امرأته فى صرة** ﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان ، وإنما هوكقولك : أقبل يشتمنى ، أى أخذ فى شتمى ، كذا قال الفراء وغيره ، والصرة : الصيحة والضجة . وقيل : الجماعة من الناس ، قال الجوهرى : الصرة : الضجة والصيحة ، والصرة : الجماعة، والصرة : الشدة من كرب أو غيره ، والمعنى: أنها أقبلت فى صيحة ، أو فى ضجة ، أو فى جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة ، ومن هذا قول امرئ القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه جراجرها فى صرة لم تزيل

وقوله : ﴿ **فى صرة** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **فصكت وجهها** ﴾ أى ضربت بيدها على وجهها كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب . قال مقاتل والكلبى : جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجبا ، ومعنى الصك : ضرب الشىء بالشىء العريض ، يقال : صكه ، أى ضربه ﴿ **وقالت عجوز عقيم** ﴾ أى كيف ألد وأنا عجوز عقيم ؟ استبعدت ذلك لكبر سنها ولكونها عقيما لا تلد ﴿ **قالوا كذلك قال ربك** ﴾ أى كما قلنا لك وأخبرناك قال ربك فلا تشكى فى ذلك ولا تعجبى منه ، فإن ما أراده الله كائن لا محالة ، ولم نقل ذلك من جهة أنفسنا ، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة ، وقد سبق بيان هذا مستوفى . وجملة : ﴿ **إنه هو الحكيم العليم** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى حكيم فى أفعاله وأقواله ، عليم بكل شىء .

وجملة : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون** ﴾ مستأنفة جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة ؟ والخطب : الشأن والقصة . والمعنى : فما شأنكم وما قصتكم أيها المرسلون من جهة الله ، وما ذاك الأمر الذى لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة . ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ يريدون : قوم لوط . ﴿ **لنرسل عليهم حجارة من طين** ﴾ أى لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ،وانتصاب ﴿ **مسومة** ﴾ على الصفة لحجارة ، أو على الحال فى الضمير المستكن فى الجار والمجرور ، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار والمجرور ، ومعنى ﴿ **مسومة** ﴾ : معلمة بعلامات تعرف بها . قيل : كانت مخططة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحمرة .وقيل : معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: مكتوب على كل حجر من يهلك بها ، وقوله : ﴿ **عند ربك** ﴾ ظرف لمسومة ، أى معلمة عنده ﴿ **للمسرفين** ﴾ المتمادين فى الضلالة المجاوزين الحد فى الفجور ، وقال مقاتل : للمشركين ، والشرك أسرف

الذنوب وأعظمها .

﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين** ﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه ، أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به ﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ أى غير أهل بيت ، يقال : بيت شريف ويراد به أهله . قيل : وهم أهل بيت لوط .والإسلام : الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات : ١٤] وقد أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام والإيمان فى الحديث فى الصحيحين وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان » وسئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ،والقدر خيره وشره » [(١)] فالمرجع فى الفرق بينهما هو هذا الذى قاله الصادق المصدوق، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم فى رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلة متناقضة . وأما ما فى الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعانى اللغوية والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية ، والحقيقة الشرعية هى هذه التى أخبرنا بها رسول الله ﷺ ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها .﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ أى وتركنا فى تلك القرى علامة ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب كل من يخاف عذاب الله ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم ،وهذه الآية هى آثار العذاب فى تلك القرى ، فإنها ظاهرة بينة.وقيل:هى الحجارة التى رجموا بها،وإنما خص الذين يخافون العذاب الأليم؛لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ ويتفكرون فى الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث والوعد والوعيد .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فى صرة ﴾ قال : فى صيحة ﴿**فصكت وجهها** ﴾ قال :لطمت. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ قال : لوط وابنتيه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر .

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن

(١) البخارى فى الإيمان (٥٠) ومسلم فى الإيمان (١/ ٨) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح قد روى من غير وجه نحو هذا عن عمر » والنسائى فى الإيمان ٨/ ٩٦، ١٠١ .

قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ وفى موسى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فيها ﴾ بإعادة الخافض ، والتقدير : وتركنا فى قصة موسى آية أو معطوف على ﴿ وفى الأرض ﴾ والتقدير : وفى الأرض وفى موسى آيات ، قاله الفراء وابن عطية والزمخشرى . قال أبو حيان : وهو بعيد جدا ينزه القرآن عن مثله ، ويجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدرا لدلالة وتركنا عليه . قيل : ويجوز أن يعطف على وتركنا على طريقة قول القائل :

علفتها تبنا وماء باردا

والتقدير : وتركنا فيها آية ، وجعلنا فى موسى آية . قال أبو حيان : ولا حاجة إلى إضمار ، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل فى المجرور وتركنا .والوجه الأول هو الأولى ، وما عداه متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة ولا دعت إليه ضرورة ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية،أى كائنة وقت أرسلناه ،أو بآية نفسها ، والأول أولى . والسلطان المبين : الحجة الظاهرة الواضحة ، وهى العصى وما معها من الآيات ﴿ فتولى بركنه ﴾ التولى : الإعراض ، والركن : الجانب ، قاله الأخفش ، والمعنى : أعرض بجانبه كما فى قوله :﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : ٨٣].قال الجوهرى : ركن الشىء :جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد ، أى عز ومنعة، وقال ابن زيد ومجاهد وغيرهما : الركن :جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ [هود : ٨٠] أى عشيرة ومنعة . وقيل : الركن : نفس القوة ، وبه قال قتادة وغيره ، ومنه قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركنى ... ولكن ما تقادم من زمانى

﴿ **وقال ساحر أو مجنون** ﴾ أى قال فرعون فى حق موسى : هو ساحر أو مجنون فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا ، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه ، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر ولا يفعله من به جنون . وقيل : إن « أو » بمعنى الواو؛ لأنه قد قال ذلك جميعا ولم يتردد ، قاله المؤرج والفراء كقوله : ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ [الإنسان : ٢٤] . ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم** ﴾ أى طرحناهم فى البحر ، وجملة : ﴿ **وهو مليم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى آت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية وكفر بالله وطغى فى عصيانه ﴿ **وفى عاد** ﴾ أى وتركنا فى قصة عاد آية ﴿ **إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾ وهى التى لا خير فيها ولا بركة ، لا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا ، إنما هى ريح الإهلاك والعذاب . ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال : ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ أى ما تذر من شىء مرت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا جعلته كالشىء الهالك البالى . قال الشاعر :

تركتنى حين كف الدهر من بصرى　　　وإذ بقيت كعظم الرمة البالى

وقال قتادة : إنه الذى ديس من يابس النبات ، وقال السدى وأبو العالية : إنه التراب المدقوق ، وقال قطرب : إنه الرماد ، وأصل الكلمة من رم العظم: إذا بلى فهو رميم. والرمة : العظام البالية . ﴿ **وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين** ﴾ أى وتركنا فى قصة ثمود آية وقت قلنا لهم : عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك ، وهو ثلاثة أيام كما فى قوله : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ [هود : ٦٥] . ﴿ **فعتوا عن أمر ربهم** ﴾ أى تكبروا عن امتثال أمر الله ﴿ **فأخذتهم الصاعقة** ﴾ وهى كل عذاب مهلك . قرأ الجمهور : ﴿ **الصاعقة** ﴾ . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن محيصن ومجاهد والكسائى: « الصعقة » وقد مر الكلام على الصاعقة فى البقرة ، وفى مواضع . ﴿ **وهم ينظرون** ﴾ أى يرونها عيانا ، والجملة فى محل نصب على الحال . وقيل : إن المعنى: ينتظرون ما وعدوه من العذاب ، والأول أولى . ﴿ **فما استطاعوا من قيام** ﴾ أى لم يقدروا على القيام . قال قتادة : من نهوض ، يعنى: لم ينهضوا من تلك الصرعة ، والمعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب ،ومثله قوله: ﴿فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : ٧٨] ﴿ **وما كانوا منتصرين** ﴾ أى ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ﴿ **وقوم نوح من قبل** ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ، فإن زمانهم متقدم على زمن فرعون وعاد وثمود ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو بخفض « قوم » أى وفى قوم نوح آية، وقرأ الباقون بالنصب ، أى وأهلكنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة ، أو على مفعول نبذناهم ، أى نبذناهم ونبذنا قوم نوح ، أو يكون العامل فيه اذكر .

﴿ **والسماء بنيناها بأيد** ﴾ أى بقوة وقدرة . قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال ، والتقدير : وبنينا السماء بنيناها . وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها على الابتداء ﴿ **وإنا**

لموسعون ﴾ الموسع : ذو الوسع والسعة ، والمعنى : إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك . وقيل : لقادرون ، من الوسع بمعنى : الطاقة والقدرة . وقيل : إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهرى : وأوسع الرجل :صار ذا سعة وغنى **﴿ والأرض فرشناها ﴾** قرأ الجمهور بنصب **﴿ الأرض ﴾** على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها كما تقدم فى قوله : **﴿والسماء بنيناها ﴾** ومعنى **﴿ فرشناها ﴾**: بسطناها كالفراش **﴿ فنعم الماهدون ﴾** أى نحن ، يقال: مهدت الفراش: بسطته ووطأته، وتمهيد الأمور:تسويتها وإصلاحها **﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾** أى صنفين ونوعين من ذكر وأنثى وبر وبحر وشمس وقمر وحلو ومر وسماء وأرض وليل ونهار ونور وظلمة وجن وإنس وخير وشر **﴿لعلكم تذكرون ﴾** أى خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شىء وتستدلوا بذلك على توحيده وصدق وعده ووعيده .

﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾ أى قل لهم يا محمد : ففروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصى ، وجملة :**﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾** تعليل للأمر بالفرار . وقيل : معنى **﴿ ففروا إلى الله ﴾**: اخرجوا من مكة . وقال الحسن بن الفضل : احترزوا من كل شىء غير الله ، من فر إلى غيره لم يمتنع منه . وقيل : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقيل : فروا من الجهل إلى العلم ، ومعنى **﴿ إنى لكم منه ﴾** :أى من جهته منذر بين الإنذار . **﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر﴾** نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله. وجملة :**﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾** تعليل للنهى . **﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾** فى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة ، وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم ، و**﴿ كذلك ﴾** فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمركذلك . ثم فسر ما أجمله بقوله : **﴿ ما أتى﴾** إلخ .أو فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف ، أى أنذركم إنذارًا كإنذار من تقدمنى من الرسل الذين أنذروا قومهم ، والأول أولى **﴿ أتواصوا به ﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم ، أى هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤوا عليه ؟**﴿ بل هل قوم طاغون ﴾** إضراب عن التواصى إلى ما جمعهم من الطغيان ، أى لم يتواصوا بذلك ، بل جمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحد فى الكفر .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالإعراض عنهم فقال : **﴿ فتول عنهم ﴾** أى أعرض عنهم وكف عن جدالهم ودعائهم إلى الحق ، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته **﴿ فما أنت بملوم ﴾** عند الله بعد هذا ؛ لأنك قد أديت ما عليك . وهذا منسوخ بآية السيف . ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتى هى أحسن فقال :**﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾** قال الكلبى : المعنى : عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم ، وقال مقاتل : عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان فى علم الله أنه يؤمن.وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله ، وخص المؤمنين بالتذكير ؛ لأنهم المتفعون به .

وجملة : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة . قيل :هذا خاص فى من سبق فى علم الله سبحانه أنه يعبده ، فهو عموم مراد به الخصوص . قال الواحدى : قال المفسرون : هذا خاص لأهل طاعته ، يعنى من أهل من الفريقين . قال : وهذا قول الكلبى والضحاك واختيار الفراء وابن قتيبة . قال القشيرى : والآية دخلها التخصيص بالقطع ؛ لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة ولا أرادها منهم ، وقد قال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب : « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون » وقال مجاهد : إن المعنى : إلا ليعرفونى . قال الثعلبى : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده ، وروى عن مجاهد أنه قال : المعنى : إلا لآمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ [التوبة : ٣١] واختار هذا الزجاج ، وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ، فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء للمعصية. وقال الكلبى :المعنى : إلا ليوحدون . أما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدة دون النعمة كما فى قوله :﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [لقمان : ٣٢] وقال جماعة : إلا ليخضعوا لى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة : الذل والخضوع والانقياد ، وكل مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته منقاد لما قدره عليه ، خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا ، ووجه تقديم الجن على الإنس هاهنا تقدم وجودهم .

﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده ، وأنه لا يريد منهم منفعة كما تريده السادة من عبيدهم ، بل هو الغنى المطلق الرازق المعطى . وقيل : المعنى : ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقى ولا أن يرزقوا أنفسهم ، ولا يطعموا أحدا من خلقى ولا يطعموا أنفسهم ، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه ؛ لأن الخلق عيال الله ، فمن أطعم عيال الله فهو كمن أطعمه ، وهذا كما ورد فى قوله ﷺ : « يقول الله عبدى استطعمتك فلم تطعمنى » [(١)] أى لم تطعم عبادى ، و« من » فى قوله : ﴿ **من رزق**﴾ زائدة لتأكيد العموم . ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره ، فقال : ﴿ **إن الله هو الرزاق** ﴾ لا رزاق سواه ولا معطى غيره ، فهو الذى يرزق مخلوقاته ويقوم بما يصلحهم فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة . ﴿ **ذو القوة المتين** ﴾ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق ، أو لذو ، أو خبر مبتدأ محذوف ،أو خبر بعد خبر، قرأ الجمهور:﴿ **الرزاق** ﴾ وقرأ ابن محيصن:«الرازق» وقرأ الجمهور:﴿ **المتين** ﴾ بالرفع ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش بالجر صفة للقوة ، والتذكير

---

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٥٦٩/ ٤٣) .

لكون تأنيثها غير حقيقى . قال الفراء : كان حقه المتينة ، فذكرها ؛ لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل ، يقال : حبل متين ، أى محكم الفتل ، ومعنى ﴿ المتين ﴾ : الشديد القوة هنا ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، فإن لهم ذنوبا ، أى نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة . قال ابن الأعرابى : يقال : يوم ذنوب ، أى طويل الشر لا ينقضى ، وأصل الذنوب فى اللغة : الدلو العظيمة ، ومن استعمال الذنوب فى النصيب من الشيء قول الشاعر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها ذنوب

وما فى الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير ، فهى تمثيل ، جعل الذنوب مكان الحظ والنصيب ، قاله ابن قتيبة ﴿ فلا يستعجلون ﴾ أى لا تطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب كما فى قولهم :﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ [الأعراف: ٧٠] ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ﴾ قيل : هو يوم القيامة . وقيل : يوم بدر ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر فى قوله : ﴿ فتولى بركنه ﴾ عن ابن عباس قال : بقومه. وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،والحاكم وصححه عنه فى قوله: ﴿الريح العقيم ﴾ قال : الشديدة التى لا تلقح شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب ، وفى قوله : ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ قال : كالشيء الهالك . وأخرج الفريابى وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : الريح العقيم : النكباء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿والسماء بنيناها بأيد ﴾ قال : بقوة . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم ، وعذر محمدا ﷺ ، ثم قال : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فنسختها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله :﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قال: ليقروا بالعبودية طوعا أو كرها . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : على ما خلقتهم عليه من طاعتى ومعصيتى وشقوتى وسعادتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا فى قوله : ﴿ المتين ﴾ يقول : الشديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ذنوبا ﴾ : دلوا .

تفسير سورة الطور

هى تسع وأربعون آية . وقيل : ثمان وأربعون . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت الطور بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور [١] . وأخرج البخارى وغيره عن أم سلمة ؛ أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت بـ ﴿ **الطور . وكتاب مسطور** ﴾ [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ ﴾ .

قوله : ﴿ **والطور** ﴾ قال الجوهرى : هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى. قال مجاهد والسدى : الطور بالسريانية الجبل والمراد به : طور سيناء ، قال مقاتل بن حيان: هما طوران : يقال لأحدهما : طور سيناء ، وللآخر: طور زيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل مدين . وقيل : إن الطور كل جبل ينبت ، وما لا ينبت فليس بطور ، أقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفا له وتكريما . ﴿ **وكتاب مسطور** ﴾ المسطور : المكتوب ، والمراد بالكتاب: القرآن . وقيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : جميع الكتب المنزلة . وقيل : ألواح موسى.

---

(١) البخارى فى الأذان (٧٦٥) ومسلم فى الصلاة (٤٦٣/ ١٧٤) والترمذى فى الصلاة (٣٠٨) وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٣٢) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٥٣) وفى الحج (١٦١٩) ومسلم فى الحج (١٢٧٦/ ٢٥٨) وأبو داود فى الحج (١٨٨٢) والنسائى فى التفسير (٥٤٨).

وقيل : ما تكتبه الحفظة ، قاله الفراء وغيره ، ومثله: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ [الإسراء : ١٣] وقوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ [التكوير : ١٠] ﴿**فى رق منشور**﴾ متعلق بمسطور ، أى مكتوب فى رق . قرأ الجمهور : ﴿ **فى رق** ﴾ بفتح الراء ، وقرأ أبوالسماك بكسرها . قال الجوهرى : الرق بالفتح ما يكتب فيه ، وهو جلد رقيق ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فى رق منشور** ﴾ قال المبرد: الرق ما رق من الجلد ليكتب فيه ، والمنشور: المبسوط . قال أبو عبيدة : وجمعه رقوق ، ومن هذا قول المتلمس :

فكأنما هى من تقادم عهدها رق أتيح كتابها مسطور

وأما الرق بالكسر فهو المملوك ، يقال : عبد رق وعبد مرقوق . ﴿ **والبيت المعمور** ﴾ فى السماء السابعة . وقيل : فى سماء الدنيا . وقيل : هو الكعبة ، فعلى القولين الأولين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة ويعبد الله فيه ، وعلى القول الثالث ، يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازا باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بنى آدم ﴿ **والسقف المرفوع** ﴾ يعني : السماء ، سماها سقفا ؛ لكونها كالسقف للأرض . ومنه قوله : ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ [الأنبياء : ٣٢] وقيل : هو العرش ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ أى الموقد ، من السجر ، وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ [التكوير : ٦] وقد روى أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا. وقيل: المسجور: المملوء. قيل: إنه من أسماء الأضداد يقال: بحر مسجور ، أى مملوء ، وبحر مسجور ، أى فارغ . وقيل : المسجور: الممسوك ،ومنه ساجور الكلب؛ لأنه يمسكه. وقال أبو العالية: المسجور : الذى ذهب ماؤه . وقيل: المسجور: المفجور ، ومنه: ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ [الانفطار: ٣] وقال الربيع بن أنس: هو الذى يختلط فيه العذب بالمالح . والأول أولى . وبه قال مجاهد والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش وغيرهم .

﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾ هذا جواب القسم ، أى كائن لا محالة لمن يستحقه . ﴿ **ما له من دافع** ﴾ يدفعه ويرده عن أهل النار ، وهذه الجملة خبر ثان لإن ، أو صفة لواقع ، و« من » مزيدة للتأكيد ، ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها ، أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية . ﴿ **يوم تمور السماء مورا** ﴾ العامل فى الظرف ﴿**لواقع** ﴾ أى إنه لواقع فى هذا اليوم ، ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿ **دافع** ﴾ والمور : الاضطراب والحركة . قال أهل اللغة : مار الشيء يمور مورا: إذا تحرك وجاء وذهب ، قاله الأخفش وأبو عبيدة ، وأنشدا بيت الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مشى السحابة لا ريث ولا عجل

وليس فى البيت ما يدل على ما قالاه إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة فى البيت يطلق المور عليها لغة ، وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض ، وقال مجاهد : تدور دورا . وقيل : تجرى جريا ، ومنه قول الشاعر :

وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ويطلق المور على الموج ، ومنه : ناقة موارة اليد ، أى سريعة تموج فى مشيها موجا ، ومعنى الآية : أن العذاب يقع بالعصاة ولا يدفعه عنهم دافع فى هذا اليوم الذى تكون فيه السماء هكذا ، وهو يوم القيامة .وقيل : إن السماء هاهنا : الفلك، وموره : اضطراب نظمه واختلاف سيره . ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ أى تزول عن أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب وتكون هباء منبثا ، قيل : ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود ، وقد تقدم تفسير مثل هذا فى سورة الكهف . ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ ويل : كلمة تقال للهالك ، واسم واد فى جهنم ، وإنما دخلت الفاء ؛ لأن فى الكلام معنى المجازاة ، أى إذا وقع ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فويل لهم . ثم وصف المكذبين بقوله :﴿ الذين هم فى خوض يلعبون ﴾ أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه، يلهون لا يذكرون حسابا ولا يخافون عقابا. والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء ، وقيل : يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة .

﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ الدع : الدفع بعنف وجفوة ، يقال: دععته أدعه دعا ، أى دفعته ، والمعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا . قال مقاتل: تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم . قرأ الجمهور بفتح الدال وتشديد العين . وقرأ على والسلمى وأبو رجاء وزيد بن على وابن السميفع بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة ، أى يدعون إلى النار من الدعاء ، ويوم إما بدل من ﴿يوم تمور﴾ ، أو متعلق بالقول المقدر فى الجملة التى بعد هذه ، وهى ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أى يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، أى هذه النار التى تشاهدونها هى النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار . ثم وبخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم ، فقال : ﴿ أفسحر هذا ﴾ الذى ترون وتشاهدون ، كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ولكتبه المنزلة ، وقدم الخبر هنا على المبتدأ ؛لأنه الذى وقع الاستفهام عنه وتوجه التوبيخ إليه ﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ أى أم أنتم عمى عن هذا كما كنتم عميا عن الحق فى الدنيا ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ أى إذا لم يمكنكم إنكارها وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ولم يكن فى أبصاركم خلل ، فالآن ادخلوها وقاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا وافعلوا ما شئتم .فالأمران ﴿ سواء عليكم ﴾ فى عدم النفع، قيل أيضا : تقول لهم الملائكة هذا القول، وسواء خبر مبتدأ محذوف، أى الأمران سواء ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، أى سواء عليكم الصبر وعدمه ، وجملة:﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ تعليل للاستواء ، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء.

﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ، ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة فى غمهم وحسرتهم ، والتنوين فى ﴿ جنات ونعيم ﴾ للتفخيم ﴿ فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ يقال : رجل

فاكه ، أى ذو فاكهة ، كما قيل : لابن وتامر. والمعنى : أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة . وقيل : ذوو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد تقدم بيان معنى هذا . قرأ الجمهور : ﴿ **فاكهين** ﴾ بالألف والنصب على الحال .وقرأ خالد : «فاكهون» بالرفع على أنه خبر بعد خبر ، وقرأ ابن عباس : « فكهين » بغير ألف ، والفكه : طيب النفس ، كما تقدم فى الدخان ، ويقال للأشر والبطر ، ولا يناسب التفسير به هنا ﴿ **ووقاهم ربهم عذاب الجحيم** ﴾ معطوف على آتاهم ، أو على خبر إن ، أو الجملة فى محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ **كلوا واشربوا هنيئا** ﴾ أى يقال لهم ذلك ، والهنيء : ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه هناء ، والمعنى: كلوا طعاما هنيئا ، واشربوا شرابا هنيئا ، وقد تقدم تفسير هنيئا فى سورة النساء ، وقيل: معنى ﴿ **هنيئا** ﴾: أنكم لا تموتون. ﴿ **متكئين على سرر مصفوفة** ﴾ انتصابه على الحال من فاعل كلوا ، أو من مفعول آتاهم ،أو من مفعول وقاهم ، أو من الضمير المستكن فى الظرف ، أو من الضمير فى ﴿**فاكهين** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿**على سرر** ﴾ بضم الراء الأولى ، وقرأ أبو السماك بفتحها ، والسرر جمع سرير ، والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفا ﴿ **وزوجناهم بحور عين** ﴾ أى قرناهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجته امرأة ، وتزوجت بامرأة ، وليس من كلام العرب زوجته بامرأة . قال: وقول الله تعالى:﴿ **وزوجناهم بحور عين** ﴾ أى قرناهم بهن.وقال الفراء: زوجته بامرأة ، لغة أزد شنوءة ،وقد تقدم تفسير الحور العين فى سورة الدخان.قرأ الجمهور : ﴿ **بحور عين** ﴾ من غير إضافة. وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **والطور** ﴾ قال :جبل . وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « الطور جبل من جبال الجنة » وكثير ضعيف جدا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس:﴿ **فى رق منشور** ﴾ قال: فى الكتاب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت المعمور فى السماء السابعة ،يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ،لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة » (١).وفى الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : «ثم رفع إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » (٢). وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل عليا عن البيت المعمور فقال : ذلك الضراح ، بيت فوق سبع

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١١ وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٧٠٥) وإسناده ضعيف لأجل القاضى عبد الرحمن .

(٢) أحمد ٣/ ١٥٣ والبخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٤/ ٢٦٤) .

ستموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو رفعه قال: إن البيت المعمور، لبحيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها . يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا ،ثم لا يعودون إليه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وضعف إسناده السيوطى .

وأخرج ابن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **والسقف المرفوع**﴾ قال : السماء . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ قال : بحر فى السماء تحت العرش . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المسجور : المحبوس . وأخرج ابن المنذر عنه قال : المسجور : المرسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **يوم تمور السماء مورا** ﴾ قال : تحرك ، وفى قوله : ﴿ **يوم يدعون** ﴾ قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعا** ﴾ قال : يدفع فى أعناقهم حتى يردوا النار . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا** ﴾ أى لا تموتون فيها . فعندها قالوا : ﴿ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : ٥٨ ، ٥٩] .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص فقال: ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم** ﴾ والموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿**ألحقنا بهم** ﴾ ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدر ، أى وأكرمنا الذين آمنوا ، ويكون ألحقنا مفسرا لهذا الفعل المقدر . قرأ الجمهور : ﴿**واتبعتهم**﴾ بإسناد الفعل إلى الذرية ، وقرأ أبو عمرو :

«أتبعناهم» بإسناد الفعل إلى المتكلم . كقوله : ﴿ألحقنا﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ ذريتهم ﴾ بالإفراد ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بالجمع ، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ : « وأتبعناهم » ، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع ، والمشهور عنه كقراءة الجمهور ، وقرأ الجمهور : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ بالإفراد ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب على الجمع . وجملة : ﴿ واتبعتهم ذريتهم ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ أو معترضة ، و﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع ، ومعنى هذه الآية : أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه وإن كانوا دونه فى العمل لتقر عينه وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين ، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار ، فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم فبدليل آخر غير هذه الآية . وقيل : إن الذرية تطلق على الكبار والصغار كما هو المعنى اللغوى ، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذريتهم وكبارهم ، ويكون قوله : ﴿ بإيمان ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى بإيمان من الآباء . وقيل : إن الضمير فى ﴿ بهم ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولا ، أى ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم . وقيل : المراد بالذين آمنوا : المهاجرون والأنصار فقط ، وظاهر الآية العموم ، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار، كونهم السبب فى نزولها إن صح ذلك ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام من : ﴿ ألتنا ﴾ وقرأ ابن كثير بكسرها ، أى وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئا ، فضمير المفعول عائد الى الذين آمنوا. وقيل : المعنى : وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئا لقصر أعمارهم ، والأول أولى . وقد قدمنا تحقيق معنى لاته وألاته فى سورة الحجرات . وقرأ ابن هرمز : «آلتناهم» بالمد ، وهو لغة. قال فى الصحاح : يقال : ما آلته من عمله شيئا ، أى ما نقصه شيئا ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ رهين بمعنى : مرهون ، والظاهر أنه عام ، وأن كل إنسان مرتهن بعمله ، فإن قام به على الوجه الذى أمره الله به فكه وإلا أهلكه . وقيل : هو بمعنى راهن ، والمعنى : كل امرئ بما كسب دائم ثابت . وقيل : هذا خاص بالكفار لقوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين ﴾ [المدثر : ٣٨ ، ٣٩] .

ثم ذكر سبحانه ما أمدهم به من الخير فقال : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ أى زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوعة ، ولحم من أنواع اللحمان مما تشتهيه أنفسهم ويستطيبونه ﴿ يتنازعون فيها كأسا ﴾ أى يتعاطون ويتناولون كأسا . والكأس : إناء الخمر ، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر أو غيره ، فإذا فرغ لم يسم كأسا ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ قال الزجاج : لا يجرى بينهم ما يلغى ولا ما فيه إثم كما يجرى بين من يشرب الخمر فى الدنيا ، والتأثيم تفعيل من الإثم ، والضمير فى : ﴿ فيها ﴾ راجع إلى الكأس . وقيل : لا لغو فيها ، أى فى الجنة ولا يجرى فيها ما فيه إثم، والأول أولى . قال ابن قتيبة : لا تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا ، ولا يكون منهم ما يؤثمهم . وقال الضحاك : لا

تأثيم : أى لا كذب . قرأ الجمهور : ﴿**لالغو فيها ولا تأثيم**﴾ بالرفع والتنوين فيهما ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين . قال قتادة : اللغو : الباطل ، وقال مقاتل بن حيان : لا فضول فيها . وقال سعيد بن المسيب : لارفث فيها . وقال ابن زيد : لا سباب ولا تخاصم فيها . والجملة فى محل نصب على الحال صفة لـ ﴿**كأسا**﴾ ﴿ **ويطوف عليهم غلمان لهم**﴾ أى يطوف عليهم بالكأس والفواكه والطعام وغير ذلك مماليك لهم . وقيل : أولادهم ﴿**كأنهم**﴾ فى الحسن والبهاء ﴿ **لؤلؤ مكنون** ﴾ أى مستور مصون فى الصدف لم تمسه الأيدى . قال الكسائى : كننت الشيء : سترته وصنته من الشمس ، وأكننته : جعلته فى الكن ، ومنه كننت الجارية ، وأكننتها فهى مكنونة .

﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ أى يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله ، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، فيحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن والخوف والهم ، وما كانوا فيه من الكد والنكد بطلب المعاش وتحصيل ما لابد منه من الرزق . وقيل : يقول بعضهم لبعض : بم صرتم فى هذه المنزلة الرفيعة ؟ وقيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور ، والأول أولى لدلالة السياق على أنهم صاروا فى الجنة ، وجملة : ﴿ **قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل ؟ فقيل : قالوا : إنا كنا قبل ، أى قبل الآخرة ، وذلك فى الدنيا فى أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله ، أو كنا خائفين من عصيان الله . ﴿ **فمن الله علينا**﴾ بالمغفرة والرحمة أو بالتوفيق لطاعته ﴿ **ووقانا عذاب السموم**﴾ يعنى : عذاب جهنم ، والسموم من أسماء جهنم كذا قال الحسن ومقاتل ، وقال الكلبى وأبو عبيدة : هو عذاب النار . وقال الزجاج : سموم جهنم : ما يوجد من حرها . قال أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم فى لفح البرد ، وفى لفح الشمس والحر أكثر . ومنه قول الشاعر :

اليوم يوم بارد سمومه   من جزع اليوم فلا ألومه

وقيل : سميت الريح سموما ؛ لأنها تدخل المسام ﴿ **إنا كنا من قبل ندعوه** ﴾ أى نوحد الله ونعبده ، أو نسأله أن يمن علينا بالمغفرة والرحمة ﴿ **إنه هو البر الرحيم** ﴾ قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ نافع والكسائى بفتحها ، أى لأنه . والبر : كثير الإحسان . وقيل : اللطيف ، والرحيم : كثير الرحمة لعباده ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ أى اثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير والباء متعلقة بمحذوف هو حال ، أى ما أنت ـ متلبسا بنعمة ربك التى أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوة ـ بكاهن ولا مجنون. وقيل: متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى ما أنت فى حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . وقيل : الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية ، والمعنى : انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله . وقيل : الباء للقسم

متوسطة بين اسم «ما» وخبرها والتقدير : ما أنت ــ ونعمة الله ــ بكاهن ولا مجنون ، والكاهن : هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي ، أي ليس ما تقوله كهانة ، فإنك إنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه ، والمقصود من الآية رد ما كان يقوله المشركون : إنه كاهن أو مجنون . ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ « أم » هي المنقطعة ، وقد تقدم الخلاف هل هي مقدرة ببل والهمزة ، أو ببل وحدها ؟ قال الخليل : هي هنا للاستفهام . قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى في كلامهم . قال النحاس : يريد سيبويه أن « أم » في كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث ، ونتربص في محل رفع صفة لشاعر ، وريب المنون : صروف الدهر ، والمعنى : ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره أو يهلك كما هلك من قبله ، والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى المنية . قال الأخفش : المعنى : نتربص إلى ريب المنون ، فحذف حرف الجر كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد ، ومن هذا قول الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها   تطلق يوما أو يموت خليلها

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعي : المنون واحد لا جمع له . قال الفراء : يكون واحدا وجمعا . وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له ، ثم أمره سبحانه أن يجيب عنهم . فقال : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ أي انتظروا موتي أو هلاكي . فإني معكم من المتربصين لموتكم أو هلاككم . قرأ الجمهور : ﴿ نتربص ﴾ بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين . وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول . ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ أي بل أتأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض ؟ فإن الكاهن : هو المفرط في الفطنة والذكاء ، والمجنون : هو ذاهب العقل فضلا عن أن يكون له فطنة وذكاء . قال الواحدي : قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول فأزرأ الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ أي بل أطغوا وجاوزوا الحد في العناد ، فقالوا ما قالوا ؟ وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام كما هو مدلول « أم » المنقطعة ، تدل على أن ما تعقبها أشنع مما تقدمها ، وأكثر جرأة وعنادا . ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ أي اختلق القرآن من جهة نفسه وافتعله ، والتقول لا يستعمل إلا في الكذب في الغالب ، وإن كان أصله تكلف القول ، ومنه اقتال عليه ، ويقال : اقتال عليه : بمعنى تحكم عليه ، ومنه قول الشاعر :

ومنزلة في دار صدق وغبطة   وما اقتال في حكم على طبيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم ﴿ تقوله ﴾ وانتقل إلى ما هو أشد شناعة عليهم فقال : ﴿بل لا يؤمنون ﴾ أي بسبب صدور هذه الأقوال المتناقضة عنهم كونهم كفارا لا يؤمنون بالله ولا

يصدقون ما جاء به رسوله ﷺ . ثم تحداهم سبحانه وألزمهم الحجة فقال : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله** ﴾ أى مثل القرآن فى نظمه وحسن بيانه وبديع أسلوبه ﴿ **إن كانوا صادقين** ﴾ فيما زعموا من قولهم : إن محمدا ﷺ تقوله وجاء به من جهة نفسه، مع أنه كلام عربى ، وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر .

وقد أخرج سعيد بن منصور وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقر به عينه . ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم** ﴾ الآية [١] . وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضا : أن النبى ﷺ قال: « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول : يا رب قد عملت لى ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به » ، وقرأ ابن عباس : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم** ﴾ الآية[٢] . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ: « إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة وإن المشركين وأولادهم فى النار » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ الآية ، وإسناده هكذا : قال عبد الله بن أحمد : حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا محمد بن فضيل ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان ، عن على بن أبى طالب قال : سألت خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « هما فى النار » فلما رأى الكراهة فى وجهها قال : «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : يا رسول الله ، فولدى منك . قال : « فى الجنة » ، قال : ثم قال رسول الله ﷺ : «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة ، وإن المشركين وأولادهم فى النار » ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ الآية [٣] . وقال الإمام أحمد في المسند : حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النجود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة . فيقول : يا رب من أين لى هذا ، فيقول: باستغفار ولدك لك » وإسناده صحيح [٤] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس : ﴿ **وما ألتناهم** ﴾ قال : ما نقصناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **لا لغو فيها** ﴾ يقول : باطل ﴿ **ولا تأثيم** ﴾ يقول : كذب . وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا ، فيتحدثان فيتكئ ذا ويتكئ ذا

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٥ وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٨ وسكت عنه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٧ : « رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثورى ، وفيه ضعف ».

(٢) الطبرانى (١٢٢٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٧ :«فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢٠ : « رواه عبد الله بن أحمد وفيه محمد بن عثمان ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) أحمد ٢/ ٥٠٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢١٣ : « رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وقد وثق » .

فيتحدثان بما كانوا فى الدنيا ، فيقول أحدهما : يا فلان ، تدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا ، فدعونا الله فغفر لنا » [١] . وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنه هو البر ﴾ قال : اللطيف . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عنه أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار الندوة فى أمر النبى ﷺ قال قائل منهم :احبسوه فى وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ ريب المنون﴾ قال : الموت .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾ .

قوله : ﴿ أم خلقوا من غير شىء ﴾ « أم » هذه هى المنقطعة كما تقدم فيما قبلها . وكما سيأتى فيما بعدها ، أى بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة ، والصنعة العجيبة من غير خالق لهم ؟ قال الزجاج : أى أخلقوا باطلا لغير شىء لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ؟ وجعل « من » بمعنى اللام . قال ابن كيسان : أم خلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون ؟ وقيل : المعنى : أم خلقوا من غير أب ولا أم ، فهم كالجماد لا يفهمون ولا تقوم عليهم حجة؟ ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أى بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم

---

(١) قال ابن كثير ٦/ ٤٣٥ : « رواه البزار وقال : لا نعرفه يروى إلا بهذا الإسناد قلت : وسعيد بن دينار الدمشقى قال أبو حاتم : هو مجهول وشيخه الربيع بن صبيح ، وقد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه ، وهو رجل صالح ثقة فى نفسه » .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٢٥ وابن جرير ٢٧/ ١٩ .

يقرون أن الله خالقهم ؟ وإذا أقروا لزمتهم الحجة ﴿ **أم خلقوا السموات والأرض** ﴾ وهم لا يدعون ذلك فلزمتهم الحجة ، ولهذا أضرب عن هذا وقال : ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ أى ليسوا على يقين من الأمر ، بل يخبطون فى ظلمات الشك فى وعد الله ووعيده ﴿ **أم عندهم خزائن ربك**﴾ أى خزائن أرزاق العباد ، وقيل : مفاتيح الرحمة . قال مقاتل : يقول : أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ؟ وكذا قال عكرمة ، وقال الكلبى : خزائن المطر والرزق ﴿ **أم هم المصيطرون** ﴾ أى المسلطون الجبارون . قال فى الصحاح: المسيطر : المسلط على الشىء ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله ، وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر ، وقال أبو عبيدة : سطرت على : اتخذتنى خولا لك . قرأ الجمهور : ﴿ **المصيطرون** ﴾ بالصاد الخالصة ، وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد وقنبل وهشام بالسين الخالصة ، ورويت هذه القراءة عن حفص ، وقرأ خلاد بصاد مشمة زايًا .

﴿ **أم لهم سلم يستمعون فيه** ﴾ أى بل أيقولون : إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به ويستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم ويصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحى . وقوله : ﴿ **فيه** ﴾ صفة لسلم ، وهى للظرفية على بابها . وقيل : هى بمعنى على ، أى يستمعون عليه كقوله : ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ [طه: ٧١] قاله الأخفش ، وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : المعنى : أنهم كجبريل الذى يأتى النبى ﷺ بالوحى ، وقيل : هى فى محل نصب على الحال ، أى صاعدين فيه ﴿**فليأت مستمعهم** ﴾ إن ادعى ذلك ﴿ **بسلطان مبين**﴾ أى بحجة واضحة ظاهرة ﴿ **أم له البنات ولكم البنون**﴾ أى بل أتقولون لله البنات ولكم البنون ؟ سفه سبحانه أحلامهم ، وضلل عقولهم ووبخهم ، أى أيضيفون إلى الله البنات وهى أضعف الصنفين ؟ ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما ، وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحل سافل فى الفهم والعقل ، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله ﷺ فقال : ﴿ **أم تسألهم أجرا** ﴾ أى بل أتسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة ﴿ **فهم من مغرم مثقلون** ﴾ أى من التزام غرامة تطلبها فهم مثقلون ، أى مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل . قال قتادة : يقول : هل سألت هؤلاء القوم أجرا فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام ؟ ﴿ **أم عندهم الغيب فهم يكتبون** ﴾ أى بل أيدعون أن عندهم علم الغيب ، وهو ما فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب؟ . قال قتادة : هذا جواب لقولهم : ﴿ **نتربص به ريب المنون** ﴾ يقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا يموت قبلهم فهم يكتبون؟ قال ابن قتيبة : معنى ﴿ **يكتبون** ﴾ : يحكمون بما يقولون ﴿ **أم يريدون كيدا** ﴾ أى مكرا برسول الله ﷺ فيهلكونه بذلك المكر ﴿**فالذين كفروا هم المكيدون** ﴾ أى الممكور بهم المجزيون بكيدهم ، فضرر كيدهم يعود عليهم ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلابأهله ﴾ [فاطر : ٤٣] وقد قتلهم الله فى يوم بدر وأذلهم فى غير

موطن ، ومكر سبحانه بهم ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران : ٥٤] ﴿أم لهم إله غير الله ﴾ أى بل أيدعون أن لهم إلها غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم ؟ ! ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى عن شركهم به ، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له .

ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم فقال : ﴿ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ﴾ الكسف جمع كسفة : وهى القطعة من الشىء ، وانتصاب ﴿ ساقطا ﴾ على الحال ، أو على أنه المفعول الثانى ، والمركوم : المجعول بعضه على بعض . والمعنى : أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون : هو سحاب متراكم بعضه على بعض ، وقد تقدم اختلاف القراء فى ﴿ كسفا ﴾ . قال الأخفش : من قرأ : ﴿ كسفا ﴾ يعنى : بكسر الكاف وسكون السين جعله واحدا ، ومن قرأ : « كسفا » يعنى بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعا . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتركهم ، فقال : ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ أى اتركهم وخل عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم ببدر ، أو يوم القيامة . قرأ الجمهور : ﴿ يلاقوا ﴾ وقرأ أبو حيوة : «يلقوا » وقرأ الجمهور: « يصعقون » على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عامر وعاصم على البناء للمفعول ، والصعقة : الهلاك على ما تقدم بيانه . ﴿يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ﴾ هو بدل من يومهم ، أى لا ينفعهم فى ذلك اليوم كيدهم الذى كادوا به رسول الله ﷺ فى الدنيا ﴿ولاهم ينصرون ﴾ أى ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع ، بل هو واقع بهم لا محالة ﴿وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ﴾ أى لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذابا فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة، أى قبله ، وهو قتلهم يوم بدر ، وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا ، وذهاب الأموال والأولاد، وقال مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين . وقيل : عذاب القبر ، وقيل : المراد بالعذاب هو القحط ، وبالعذاب الذى يأتى بعده هو قتلهم يوم بدر ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذى وعدناهم به ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ أى بمرأى ومنظر منا ، وفى حفظنا وحمايتنا فلا تبال بهم . قال الزجاج : إنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك فلا يصلون إليك ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى نزه ربك عما لا يليق به متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك . قال عطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ، عند قيامه من كل مجلس يجلسه ، وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع بن أنس : حين تقوم إلى الصلاة ، قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وفيه نظر ؛ لأن التكبير يكون بعد القيام لا

حيال القيام ، ويكون التسبيح بعد التكبير ، وهذا غير معنى الآية ، فالأول أولى . وقيل : المعنى : صل لله حين تقوم من منامك ، وبه قال أبو الجوزاء وحسان بن عطية . وقال الكلبى: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وهى صلاة الفجر . ﴿ **ومن الليل فسبحه** ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبحه فى بعض الليل ، قال مقاتل : أى صل المغرب والعشاء . وقيل : ركعتى الفجر ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل . وقيل : صلاة الفجر ، واختاره ابن جرير . وقيل : هو التسبيح فى إدبار الصلوات . قرأ الجمهور : ﴿**إدبار** ﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر ، وقرأ سالم بن أبى الجعد ومحمد بن السميفع ويعقوب والمنهال بن عمرو بفتحها على الجمع ، أى أعقاب النجوم وأدبارها : إذا غربت ، ودبر الأمر: آخره ، وقد تقدم الكلام على هذا فى سورة « ق » .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أم هم المصيطرون** ﴾ قال : المسلطون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أم هم المنزلون . وأخرجا عنه أيضا : ﴿ **عذابا دون ذلك** ﴾ قال : عذاب القبر قبل يوم القيامة . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى والحاكم وابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ بآخرة إذا قام من المجلس يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » ، فقال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ، قال: « كفارة لما يكون فى المجلس » [١] . وأخرجه النسائى والحاكم من حديث الربيع ابن أنس عن أبى العالية عن رافع بن خديج عن النبى ﷺ[٢] . وأخرج الترمذى وابن جرير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » قال الترمذى : حسن صحيح . وفى الباب أحاديث مسندة ومرسلة [٣] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ قال : تقوم من فراشك إلى أن تدخل فى الصلاة . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **ومن الليل فسبحه** ﴾ قال : « الركعتان قبل صلاة الصبح » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإدبار النجوم**﴾ قال : ركعتى الفجر .

---

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٣٧٤) وأبوداود فى الأدب (٤٨٥٩) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٢٥٩) والحاكم ٢/ ٥٣٧ وسكت عنه الحاكم وكذا الذهبى .

(٢) النسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٢٦٠) و الحاكم ١/ ٥٣٧ وسكت عنه وقال الذهبى : « رواه رافع بن حديج مرفوعا نحوه » .

(٣) الترمذى فى الدعوات (٣٤٣٣) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٢٣٠) .

تفسير سورة النجم

هى إحدى وستون آية . وقيل : ثنتان وستون آية . وهى مكية جميعها فى قول الجمهور، وروى عن ابن عباس وعكرمة ، أنها مكية إلا آية منها وهى قوله : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة النجم بمكة . وأخرج أيضا عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلمٌ وغيرهما ، عن ابن مسعود قال : أوّل سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ **والنجم** ﴾. فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم،إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف[(١)]. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة استعلن بها النبىّ ﷺ يقرؤها: ﴿ **والنجم**﴾. وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ : النجم فسجد بنا فأطال السجود [(٢)]. وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة أن النبى ﷺ قرأ النجم فلما بلغ السجدة سجد فيها. وأخرج الطيالسى وابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والطبرانى وابن مردويه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قرأت النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها [(٣)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يسجد فى النجم ، فلما هاجر إلى المدينة تركها . وأخرج أيضا عنه أن رسول الله ﷺ لم يسجد فى شىء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة [(٤)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٦٣) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٦/ ١٠٥) وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٦) .

(٢) البيهقى ٢/ ٣١٤ .

(٣) ابن أبى شيبة فى الصلوات ٢/ ٦ وأحمد ٥/ ١٨٣ والبخارى فى سجود القرآن (١٠٧٢) ومسلم فى المساجد (٥٧٧/ ١٠٦) وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٤) ، الترمذى فى الصلاة (٥٧٦) والنسائى فى الافتتاح ٢/ ١٦٠ والطبرانى (٤٨٢٩) .

(٤) أبو داود فى الصلاة (١٤٠٣) .

(١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾ .

قوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ التعريف للجنس ، والمراد به جنس النجوم ، وبه قال جماعة من المفسرين . ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

أحسن النجم فى السماء الثريا ... والثريا فى الأرض زين النساء

وقيل : المراد به: الثريا ، وهو اسم غلب فيها ، تقول العرب : النجم ، وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد وغيره، وقال السدّى : النجم هنا :هو الزهرة ؛ لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : النجم هنا : النبت الذى لا ساق له ، كما فى قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : ٦] قاله الأخفش . وقيل : النجم محمد ﷺ . وقيل : النجم القرآن؛ وسمى نجما لكونه نزل منجما مفرّقا ، والعرب تسمى التفريق تنجيما ، والمفرّق : المنجم ، وبه قال مجاهد والفراء وغيرهما . والأول أولى . قال الحسن : المراد بالنجم : النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقيل : المراد بها : النجوم التى ترجم بها الشياطين ، ومعنى هويه : سقوطه من علو ، يقال : هوى النجم يهوى هويا : إذا سقط من علو إلى سفل ، وقيل : غروبه ، وقيل: طلوعه . والأول أولى . وبه قال الأصمعى وغيره ، ومنه قول زهير :

تسيح بها الأباعر وهى تهوى ... هوِىّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرشَاءُ (١)

ويقال : هوى فى السير : إذا مضى ، ومنه قول الشاعر :

بَيْنَما نَحْـــنُ بالبِلاكـــثِ فـالقَـ ... ـــاعِ سِراعاً والعِيسُ تَهْوِى هُوِيا

خَطَرَتْ خَطْرة على القلْب مِن ذِكْـــ ... ـــرَاكِ وَهناً فما استعطت مُضِـيا

ومعنى الهوَى على قول من فسّر النجم بالقرآن : أنه نزل من أعلى إلى أسفل ، وأما على قول من قال : إنه الشجر الذى لا ساق له ، أو أنه محمد ﷺ فلا يظهر للهوىّ معنى صحيح، والعامل فى الظرف فعل القسم المقدّر، وجواب القسم قوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ أى ما ضل محمد ﷺ عن الحق والهدى ولا عدل عنه ، والغىّ : ضد الرشد ، أى ما صار غاويا ، ولا تكلم بالباطل . وقيل : ما خاب فيما طلب ،والغىّ : الخيبة ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الرشاء : الحبل ، وجمعه : أرشية .

فمن يلْقَ خيراً يحْمِد النَّاسُ أَمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يعدم على الغَيِّ لائما

وفى قوله : ﴿ صاحبكم ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله ، والخطاب لقريش ﴿وما ينطق عن الهوى ﴾ أى ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره ، فعن على بابها. وقال أبو عبيدة : إنّ عن بمعنى الباء ، أى بالهوى . قال قتادة : أى ما ينطق بالقراءة عن هواه ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ أى ما هو الذى ينطق به إلا وحى من اللّه يوحيه إليه ، وقوله : ﴿يوحى ﴾ صفة لوحى تفيد الاستمرار التجددى ، وتفيد نفى المجاز : أى هو وحى حقيقية لا لمجرد التسمية ﴿ علمه شديد القوى ﴾ القوى جمع قوة ، والمعنى : أنه علمه جبريل الذى هو شديد قواه ، هكذا قال أكثر المفسرين : إن المراد : جبريل . وقال الحسن : هو اللّه عزّ وجلّ . والأول أولى . وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ ذو مرة فاستوى ﴾ المرّة : القوّة والشدة فى الخلق. وقيل : ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ،ومنه قول النبى ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرّة سوى »[1] . وقيل : ذو حصافة عقل ومتانة رأى . قال قطرب: العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأى ، حصيف العقل : ذو مرّة ، ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبلَ لِقائكُمُ ذا مِرّةٍ عندى لِكل مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

والتفسير للمرّة بهذا أولى ؛ لأن القوة والشدة قد أفادها قوله : ﴿ شديد القوى ﴾ قال الجوهرى : المرّة إحدى الطبائع الأربع ، والمرّة : القوة وشدة العقل ، والفاء فى قوله : ﴿فاستوى ﴾ للعطف على علّمه يعنى جبريل ، أى ارتفع وعاد إلى مكانه فى السماء بعد أن علم محمداً ﷺ ، قاله سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير. وقيل : معنى استوى قام فى صورته التى خلقه اللّه عليها لأنه كان يأتى النبى ﷺ فى صورة الآدميين . وقيل : المعنى : فاستوى القرآن فى صدره ﷺ . وقال الحسن : ــ فاستوى يعنى اللّه عزّ وجلّ ــ على العرش ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى . والمراد بالأفق الأعلى : جانب المشرق ، وهو فوق جانب المغرب . وقيل : المعنى : فاستوى عالياً . والأفق : ناحية السماء ، وجمعه آفاق. قال قتادة ومجاهد : هو الموضع الذى تطلع منه الشمس . وقيل : هو يعنى جبريل والنبى ﷺ بالأفق الأعلى ليلة المعراج ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة .

﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أى دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى ، أى قرب من الأرض ، فتدلى فتنزل على النبى ﷺ بالوحى . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ثم تدلى فدنى . قاله ابن الأنبارى وغيره ، قال الزجاج: معنى دنا فتدلى واحد ، أى قرب وزاد فى القرب كما تقول : فدنا منى فلان وقرب ، ولو قلت : قرب منى ودنا جاز. قال الفراء : الفاء فى فتدلى بمعنى الواو ، والتقدير : ثم تدلى جبريل ودنا ، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين

(١) أبو داود فى الزكاة (١٦٣٤) والترمذى فى الزكاة (٦٥٢) وقال : « حديث حسن » .

واحدا أن تقدم أيهما شئت. قال الجمهور : والذى دنا فتدلى هو جبريل . وقيل : هو النبى ﷺ . والمعنى : دنا منه أمره وحكمه . والأول أولى. قيل: ومن قال : إن الذى استوى هو جبريل ومحمد ، فالمعنى عنده: ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلى ، أى هوى للسجود ، وبه قال الضحاك ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أى فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين ، أى قدر قوسين عربيين، والقاب والقيب ، والقاد والقيد : المقدار ، ذكر معناه فى الصحاح ، قال الزجاج : أى فيما تقدّرون أنتم ، والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا . وقيل : « أو» بمعنى الواو ، أى وأدنى . وقيل : بمعنى بل ، أى بل أدنى ، وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهمدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة ﴿ فكان قاب قوسين ﴾: قدر ذراعين ، والقوس : الذّراع يقاس بها كل شىء ، وهى لغة بعض الحجازيين ،وقيل : هى لغة أزد شنوءة ، وقال الكسائى : فكان قاب قوسين أراد قوسا واحدة .

﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ أى فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى ، وفيه تفخيم للوحى الذى أوحى إليه، والوحى : إلقاء الشىء بسرعة ، ومنه الوحا وهو السرعة ، والضمير فى : ﴿ عبده ﴾ يرجع إلى الله كما فى قوله: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ [فاطر : ٤٥] وقيل : المعنى : فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى ، وبالأوّل قال الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . وقيل : فأوحى الله إلى عبده محمد . قيل : وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد ، أوما أوحاه الله إلى عبده جبريل أو إلى محمد ولم يبينه لنا ، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره ، وقال سعيد بن جبير : الذى أوحى إليه هو : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : ١] إلخ ،و﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾[الضحى : ٦] إلخ .وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها ،وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.وقيل:إن «ما »للعموم لا للإبهام ، والمراد : كل ما أوحى به إليه ، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم .

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره ليلة المعراج ، يقال: كذبه : إذا قال له الكذب ولم يصدقه ، قال المبرد : معنى الآية : أنه رأى شيئا فصدق فيه . قرأ الجمهور : ﴿ ما كذب ﴾ مخففا ، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد ، و « ما » فى : ﴿ ما رأى ﴾ موصولة أو مصدرية فى محل نصب بكذب مخففا ومشددا ﴿أفتمارونه على ما يرى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ أفتمارونه ﴾ بالألف من المماراة وهى المجادلة والملاحاة ، وقرأ حمزة والكسائى: « أفتمرونه » بفتح التاء وسكون الميم ، أى أفتجدونه ، واختار أبو عبيد القراءة الثانية . قال : لأنهم لم يماروه وإنما جحدوه ، يقال : مراه حقه ، أى جحده ، ومريته أنا : جحدته ، قال : ومنه قول الشاعر :

لأن هَجَوْتَ أخَا صِدْقٍ ومكْرُمَةٍ ... لَقَدْ مَرَيْتَ أخا ما كان يَمْرِيكا

أى جحدته ، قال المبرد : يقال : أمرأه عن حقه وعلى حقه : إذا منعه منه ودفعه . وقيل: على بمعنى عن ، وقرأ ابن مسعود والشعبى ومجاهد والأعرج : « أفتمرونه » بضم التاء من أمريت ، أى أتريبونه وتشكون فيه ، قال جماعة من المفسرين : المعنى على قراءة الجمهور: أفتجادلونه ؛ وذلك أنهم جادلوه حين أسرى به فقالوا : صف لنا مسجد بيت المقدس، أى فتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه ، واللام فى قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لقد رآه نزلة أخرى ، والنزلة : المرة من النزول ، فانتصابها على الظرفية أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال ، أى رأى جبريل نازلا نزلة أخرى ، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف ، أى رآه رؤية أخرى . قال جمهور المفسرين : المعنى : أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى . وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ الظرف منتصب بـ﴿ رآه ﴾ ، والسدر : هو شجرة النبق ، وهذه السدرة هى فى السماء السادسة كما فى الصحيح ، وروى أنها فى السماء السابعة ، والمنتهى : مكان الانتهاء ، أو هو مصدر ميمى ، والمراد به: الانتهاء نفسه ، قيل : إليها ينتهى علم الخلائق ولا يعلم أحد منهم ما وراءها . وقيل : ينتهى إليها ما يعرج به من الأرض . وقيل : تنتهى إليها أرواح الشهداء . وقيل : غير ذلك ، وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشىء إلى مكانه ﴿عندها جنة المأوى﴾ أى عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى ، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم . وقيل : إن أرواح المؤمنين تأوى إليها . قرأ الجمهور : ﴿جنة ﴾ برفع جنة على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدم . وقرأ علىّ وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس، وزر بن حبيش ، ومحمد بن كعب ومجاهد وأبو سبرة الجهنى : « جنه» فعلا ماضيا من جنّ يجنّ ، أى ضمه المبيت، أو ستره إيواء الله له . قال الأخفش : أدركه كما تقول: جنه الليل ، أى ستره وأدركه ، والجملة فى محل نصب على الحال .

﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ العامل فى الظرف ﴿ رآه ﴾ أيضا وهو ظرف زمان ، والذى قبله ظرف مكان ، والغشيان بمعنى : التغطية والستر ، وبمعنى الإتيان ، يقال : فلان يغشانى كل حين ، أى يأتينى ، وفى الإبهام فى قوله : ﴿ ما يغشى ﴾ من التفخيم ما لا يخفى . وقيل: يغشاها جراد من ذهب . وقيل : طوائف من الملائكة ، وقال مجاهد : رفرف أخضر . وقيل : رفرف من طيور خضر . وقيل : غشيها أمر الله ، والمجىء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً للصورة البديعة ، و للدلالة على الاستمرار التجددى .﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما مال بصر النبى ﷺ عما رآه ﴿ وما طغى﴾ أى ما جاوز ما رأى . وفى هذا وصف أدب النبى ﷺ فى ذلك المقام حيث لم يلتفت ولم يمل بصره ، ولم يمده إلى غير ما رأى . وقيل : ما جاوز ما أمر به . ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أى والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف ، قيل : رأى رفرفا سدّ الأفق . وقيل : رأى جبريل فى حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح ، كذا فى صحيح مسلم وغيره ،

وقال الضحاك : رأى سدرة المنتهى . وقيل : هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه وعوده ، و«من» للتبعيض ومفعول رأى : الكبرى ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا ، أى رأى شيئا عظيما من آيات ربه ، ويجوز أن تكون « من » زائدة .

﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما قصّ اللّه سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين ، موبخا لهم ومقرّعا : ﴿ أفرأيتم ﴾ أى أخبرونى عن الآلهة التى تعبدونها من دون اللّه هل لها قدرة توصف بها ؟ وهل أوحت إليكم شيئا كما أوحى اللّه إلى محمد ؟ أم هى جمادات لا تعقل ولا تنفع ؟ ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب وعظم اعتقادهم فيها ، قال الواحدى وغيره : وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء اللّه تعالى ، فقالوا: من اللّه اللات ، ومن العزيز العزّى وهى تأنيث الأعز بمعنى : العزيزة ، ومناة من منى اللّه الشيء : إذا قدّره . قرأ الجمهور : ﴿ اللات ﴾ بتخفيف التاء ، فقيل : هو مأخوذ من اسم اللّه سبحانه كما تقدّم . وقيل : أصله : لات يليت ، فالتاء أصلية . وقيل : هى زائدة وأصله: لوى يلوى ، لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها أو يلتون عليها ويطوفون بها . واختلف القراء هل يوقف بالتاء أو بالهاء ؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء ، ووقف عليها الكسائى بالهاء واختار الزجاج والفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف ، فإنها تكتب بالتاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو الجوزاء وأبو صالح وحميد : «اللاتّ » بتشديد التاء ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، فقيل : هو اسم رجل كان يلتّ السويق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، فهو اسم فاعل فى الأصل غلب على هذا الرجل ، قال مجاهد: كان رجلا فى رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيسا ويطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه . وقال الكلبى : كان رجلا من ثقيف له صرمة غنم . وقيل : إنه عامر بن الظرب العدوانى ، وكان هذا الصنم لثقيف ، وفيه يقول الشاعر :

لا تنصُروا اللاتَ إنَّ اللّه مُهْلِكُها وكَيْفَ يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليسَ يَنْتَصِرُ

قال فى الصحاح : و﴿ اللات ﴾ اسم صنم لثقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ﴿ والعزّى ﴾ : صنم قريش وبنى كنانة ، قال مجاهد : هى شجرة كانت بغطفان ، وكانوا يعبدونها ، فبعث إليها النبى ﷺ خالد بن الوليد فقطعها ، وقيل : كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة، وقال سعيد بن جبير: العزى : حجر أبيض كانوا يعبدونه ، وقال قتادة : هى بيت كان ببطن نخلة ، ﴿ ومناة ﴾ : صنم بنى هلال، وقال ابن هشام : صنم هذيل وخزاعة ، وقال قتادة : كانت للأنصار . قرأ الجمهور : ﴿ مناة﴾ بألف من دون همزة ،وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد والسلمى بالمد والهمزة، فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى يمنى ، أى صب ؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها

يتقرّبون بذلك إليها ، وأما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء ، وهو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء. وقيل : هما لغتان للعرب ، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعد يا بن تيم تأمل أين تاه بك الوعيد

ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي :

أَلا هَلْ أتى التَّيْم بن عبد مناءة على السر فيما بيننا ابْن تَمِيمِ

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف ، ووقف ابن كثير وابن محيصن عليها بالهاء . قال فى الصحاح : ومناة : اسم صنم كان بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكن عليها بالتاء ، وهى لغة . قوله : ﴿ **الثالثة الأخرى** ﴾ هذا وصف لمناة ، وصفها بأنها ثالثة وبأنها أخرى ، والثالثة لا تكون إلا أخرى .

قال أبو البقاء : فالوصف بالأخرى للتأكيد ، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى ، والعرب إنما تصف به الثانية . فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآى كقوله : ﴿مآرب أخرى ﴾ [طه : ١٨] وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أفرأيتم اللات والعزّى الأخرى ومناة الثالثة ، وقيل : إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة ، وقيل : إن ذلك للتحقير والذم ، وإن المراد المتأخرة الوضيعة كما فى قوله : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ [الأعراف : ٣٨] أى وضعاؤهم لرؤسائهم ، ثم كرر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى** ﴾ أى كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور ، قيل وذلك قولهم: إن الملائكة بنات الله . وقيل : المراد : كيف تجعلون اللات ، والعزّى ، ومناة ، وهى إناث فى زعمكم ، شركاء لله ، ومن شأنهم أن يحتقروا الإناث . ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية والقسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة فقال : ﴿ **تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ضيزى ﴾ بياء ساكنة بغير همزة ، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة ، والمعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق ، قال الأخفش ، يقال :ضاز فى الحكم ، أى جار ، وضازه حقه يضيزه ضيزا ، أى نقصه وبخسه ، قال : وقد يهمز . وأنشد :

فإن تَنْأ عنّا نَنْتقِصْكَ وإنَ تَغِبْ فحقك مضؤوز وَأَنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائى : ضاز يضيز ضيزا ، وضاز يضوز ضوزا : إذا تعدى وظلم وبخس وانتقص . ومنه قول الشاعر :

ضَازَتْ بنو أسدٍ بِحكمِهِم إِذْ يَجْعَلُون الرأسَ كالذَّنَبِ

قال الفراء : وبعض العرب يقول : « ضئزى » بالهمز ، وحكى أبو حاتم عن أبى زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزى . قال البغوى : ليس فى كلام العرب فعلى بكسر الفاء فى

النعوت إنما تكون فى الأسماء مثل ذكرى . قال المؤرج : كرهوا ضم الضاد فى ضيزى . وخافوا انقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة كما قالوا فى جمع أبيض : بيض، وكذا قال الزجاج . وقيل : هى مصدر كذكرى ، فيكون المعنى : قسمة ذات جور وظلم .

ثم رد سبحانه عليهم بقوله : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أى ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة ، ليس فيها شىء من معنى الألوهية التى تدعونها ؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل ولا تفهم ولا تضر ولا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلد الآخر فيها الأول . وتبع فى ذلك الأبناء الآباء ، وفى هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى ، كما تقول فى تحقير رجل : ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ [يوسف: ٤٠] يقال : سميته زيداً وسميته بزيد ، فقوله : ﴿ سميتموها ﴾ صفة لأصنام ، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام ، أى جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء . وقيل : إن قوله : ﴿هى﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة . والأول أولى ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى ما أنزل بها من حجة ولا برهان ، قال مقاتل : لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون: إنها آلهة ، ثم أخبر عنهم بقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظنّ ﴾ أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إلا الظنّ الذى لا يغنى من الحق شيئا ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم وتحقيراً لشأنهم فقال : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أى تميل إليه وتشتهيه من غير التفات إلى ما هو الحق الذى يجب الاتباع له . قرأ الجمهور : ﴿يتبعون ﴾ بالتحتية على الغيبة . وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السميفع بالفوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود وابن عباس وطلحة وابن وثاب ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أى البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة . والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يتبعون ، ويجوز أن يكون اعتراضاً ، والأول أولى . والمعنى : كيف يتبعون ذلك والحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذى بعثه الله بين ظهرانيهم وجعله من أنفسهم .

﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ «أم » هى المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة التى للإنكار ، فأضرب عن اتباعهم الظن الذى هو مجرّد التوهم ، ومن اتباعهم هوى الأنفس وما تميل إليه ، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم ، ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أى أن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله ــ عزّ وجلّ ــ فليس لهم معه أمر من الأمور ، ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة وأطماعهم الفارغة . ثم أكد ذلك وزاد فى إبطال ما يتمنونه فقال : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا ﴾ وكم هنا هى الخبرية المفيدة للتكثير ، ومحلها الرفع على الابتداء ، والجملة بعدها

خبرها، ولما فى ﴿ كم ﴾ من معنى التكثير ، جمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك ، والمعنى التوبيخ لهم بما يتمنون ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على اللّه لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم وهو معنى قوله : ﴿ إلا من بعد أن يأذن اللّه ﴾ لهم بالشفاعة ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يشفعوا له ﴿ويرضى ﴾ بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد ، وليس للمشركين فى ذلك حظّ ولا يأذن اللّه بالشفاعة لهم ولا يرضاها لكونهم ليسوا من المستحقين لها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : إذا انصبّ . وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو الثريا إذا تدلت . وأخرج عنه أيضا قال : أقسم اللّه أن ما ضلّ محمد ولا غوى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ ذو مرة ﴾ قال: ذو خلق حسن . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود ؛ أن رسول اللّه ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما واحدة: فإنه سأله أن يراه فى صورته فأراه صورته فسدّ الأفق ، وأما الثانية : فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله : ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ . ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : خلق جبريل [(١)] . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أن النبىّ ﷺ قال : « رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح »وأخرجه أحمد عنه أيضا [(٢)]. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ قال: مطلع الشمس . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال: رأى النبى ﷺ جبريل له ستمائة جناح[(٣)] . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عنه فى قوله: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال : رأى رسول اللّه ﷺ جبريل عليه حلة رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض [(٤)]. وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ قال : هو محمد ﷺ دنا فتدلى إلى ربه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : دنا ربه فتدلى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله :﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين . وأخرج الطبرانى ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : القاب: القيد ، والقوسين: الذراعين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أسرى بالنبىّ

---

(١) أحمد ٤٠٧/١ والطبرانى (١٠٥٤٧). (٢) أحمد ٣٩٨/١ وابن جرير ٢٧/٢٧.

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٥٦، ٤٨٥٧) وفى بدء الخلق (٣٢٣٢) ومسلم فى الإيمان (١٧٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٧) والنسائى فى التفسير (٥٥٤).

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٢٨٣) وقال : « حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٥١) وابن جرير ٢٧/ ٣٠ والطبرانى (٩٠٥٠) وصححه الحاكم ٤٦٨/٢ ، ٤٦٩ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

ﷺ اقترب من ربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر.

وأخرج النسائى وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ قال : عبده محمد ﷺ. وأخرج مسلم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عنه فى قوله : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ . ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى محمد ربه بقلبه مرتين [١].وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه [٢]. وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : رأى محمد ربه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ رأى ربه بعينه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه قال : رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره ومرّة بفؤاده. وأخرج الترمذى وحسنه ، والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عنه أيضا قال: لقد رأى النبى ﷺ ربه ـ عزّ وجلّ [٣]. وأخرج النسائى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضا قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ،والرؤية لمحمد ؟ وقد روى نحو هذا عنه من طرق [٤].

وأخرج مسلم والترمذى وابن مردويه عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال: « نور أنى أراه ؟» [٥] . وأخرج مسلم وابن مردويه عنه أنه سأل رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « رأيت نوراً » [٦] . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره[٧] .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : جبريل [٨]. وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة ينتهى ما يعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها وينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب [٩] . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال : الجنة فى السماء السابعة العليا ، والنار فى الأرض السابعة السفلى . وأخرج البخارى

---

(١) مسلم فى الإيمان (١٧٦/ ٢٨٥، ٢٨٦) والطبرانى (١٢٩٤١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١٨٣ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٧٨) وقال: « هذا حديث حسن » وابن جرير ٢٧/ ٣١ والطبرانى (١٢٩٤١) .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٨٠) وقال : «هذا حديث حسن » والطبرانى (١٢٤٠٠) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١٨٩/٢ .

(٤) النسائى فى التفسير (٥٥٩) وإسناده حسن وصححه الحاكم ١/ ٦٥ ، ٢/ ٤٦٩ على شرط البخارى ، ووافقه الذهبى.

(٥) مسلم فى الإيمان (١٧٨/ ٢٩١) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٢) وقال : «حديث حسن » .

(٦) مسلم فى الإيمان (١٧٨/ ٢٩٢) .

(٧) النسائى فى التفسير (٥٥٦) . (٨) مسلم فى الإيمان (١٧٥/ ٢٨٣) .

(٩) مسلم فى الإيمان (١٧٣/ ٢٧٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٦) والنسائى ١/ ٢٢٤ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٤٧٤.

وغيره عن ابن عباس قال : كان اللات رجلا يلفّ السويق للحاج . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه ، أن العزى كانت ببطن نخلة ، وأن اللات كانت بالطائف ، وأن مناة كانت بقديد. وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ ضيزى ﴾ قال : جائرة لا حقّ لها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ أى أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من الدار الآخرة وهم الكفار يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء ، وهى أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى . وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله فجعلوهم إناثا وسموهم بنات ﴿وما لهم به من علم ﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى يسمونهم هذه التسمية والحال أنهم غير عالمين بما يقولون ، فإنهم لم يعرفوهم ، ولا شاهدوهم ، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التى يخبر المخبرون عنها. بل قالوا ذلك جهلاً وضلالة وجرأة ، وقرئ : « ما لهم بها » أى بالملائكة أو التسمية ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أى ما يتبعون فى هذه المقالة إلا مجرّد الظن والتوهم . ثم أخبر سبحانه عن الظنّ وحكمه فقال : ﴿ وإن الظنّ لا يغنى من الحق شيئا ﴾ أى إن جنس الظن لا يغنى من الحق شيئا من الإغناء ، والحقّ هنا : العلم ، وفيه دليل على أن مجردّ الظن لا يقوم مقام العلم وأن الظانّ غير عالم ،وهذا فى الأمور التى يحتاج فيها إلى العلم وهى المسائل العلمية لا فيما يكتفى فيه بالظنّ . وهى المسائل العملية ، وقد قدمنا تحقيق هذا ، ولا بدّ من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم ، والقياس، وخبر الواحد ، ونحو ذلك ظنية ، فالعمل بها عمل بالظن . وقد وجب علينا العمل به فى مثل هذه الأمور ، فكانت أدلة وجوبه العمل به فيها

مخصصة لهذا العموم ، وما ورد فى معناه من الذمّ لمن عمل بالظنّ والنهى عن اتباعه .

﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ أى أعرض عمَن أعرض عن ذكرنا ، والمراد بالذكر هنا : القرآن ، أو ذكر الآخرة، أو ذكر اللّه على العموم ، وقيل : المراد بالذكر هنا : الإيمان ، والمعنى : اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به ، وليس عليك إلا البلاغ ، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ التى لم يرد سواها ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها ، فإنه غير متأهل للخير ، ولا مستحق للاعتناء بشأنه .ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم فقال : ﴿ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أى إن ذلك التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ، ليس لهم غيره ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين . قال الفرّاء : أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ ذلك﴾ إلى جعلهم للملائكة بنات اللّه وتسميتهم لهم تسمية الأنثى ، والأول أولى . والمراد بالعلم هنا: مطلق الإدراك الذى يندرج تحته الظنّ الفاسد ، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم واتباعهم مجرد الظن.وقيل : معترضة بين المعلل والعلة وهى قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق وأعرض عنه ولم يهتد إليه ، وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق وأقبل إليه وعمل به ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشرّ . وفيه تسلية لرسول اللّه ﷺ وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه فى دعوة من أصرّ على الضلالة وسبقت له الشقاوة ، فإن اللّه قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد .

ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته وعظيم ملكه فقال : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى هو المالك لذلك ، والمتصرف فيه لا يشاركه فيه أحد ، واللام فى ﴿ ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ﴾ متعلقة بما دلّ عليه الكلام ، كأنه قال هو مالك ذلك يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء ليجزى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه . وقيل : إن قوله : ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ معترضة ، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى . وقيل : هى لام العاقبة ، أى وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسىء أن يجزى اللّه كلا منهما بعمله ، وقال مكى : إن اللام متعلقة بقوله : ﴿ لا تغنى شفاعتهم ﴾ وهو بعيد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى . قرأ الجمهور : ﴿ ليجزى ﴾ بالتحتية ، وقرأ زيد بن على بالنون ، ومعنى ﴿ بالحسنى ﴾ أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ، أو بسبب أعمالهم الحسنى .

ثم وصف هؤلاء المحسنين فقال : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ فهذا الموصول فى محل نصب على أنه نعت للموصول الأوّل فى قوله : ﴿ الذين أحسنوا ﴾ وقيل: بدل منه . وقيل : بيان له . وقيل : منصوب على المدح بإضمار أعنى ، أو فى محل رفع على أنه خبر

مبتدأ محذوف ، أى هم الذين يجتنبون كبائر الإثم . قرأ الجمهور : ﴿كبائر﴾ على الجمع ، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب: « كبير » على الإفراد ، والكبائر : كل ذنب توعد اللّه عليه بالنار ، أو ذمّ فاعله ذما شديدا . ولأهل العلم فى تحقيق الكبائر كلام طويل ، وكما اختلفوا فى تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا فى عددها . والفواحش جمع فاحشة : وهى ما فحش من كبائر الذنوب كالزنا ونحوه ، وقال مقاتل : كبائر الإثم : كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش : كل ذنب فيه الحد . وقيل : الكبائر : الشرك ، والفواحش : الزنا ، وقد قدمنا فى سورة النساء ما هو أبسط من هذا وأكثر فائدة ، والاستثناء بقوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ منقطع ، وأصل اللمم فى اللغة: ما قلّ وصغر ، ومنه ألمّ بالمكان : قلّ لبثه فيه ، وألمّ بالطعام : قل أكله منه ، قال المبرد : أصل اللمم أن تلمّ بالشىء من غير أن تركبه . يقال : ألم بكذا : إذا قاربه ولم يخالطه ، قال الأزهرى : العرب تستعمل الإلمام فى معنى الدنو والقرب ، ومنه قول جرير :

بنفسى من تجنبه عزيز ... علىّ ومن زيارته لمام

وقول الآخر :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا ... تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

قال الزجاج : أصل اللمم والإلمام : ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ، يقال : ألممت به : إذا زرته وانصرفت عنه ، ويقال : ما فعلته إلا لماما وإلماما ، أى الحين بعد الحين ، ومنه إلمام الخيال . قال الأعشى:

ألمّ خيال من قبيلة بعدما ... وهى حبلها من حبلنا فتصرما

قال فى الصحاح : ألمّ الرجل من اللَّمم وهو صغار الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة وأنشد غيره :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب ... وقلّ أن تملينا فما ملك القلب

وقد اختلفت أقوال أهل العلم فى تفسير هذا اللَّمم المذكور فى الآية . فالجمهور على أنه صغائر الذنوب . وقيل : هو ما كان دون الزنا من القبلة والغمزة والنظرة ، وبه قال مجاهد والحسن والزهرى وغيرهم ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا ... وأىّ عبد لك لا ألمّا

اختار هذا القول الزجاج والنحاس . وقيل : هو ذنوب الجاهلية ، فإن اللّه لا يؤاخذ بها فى الإسلام ، وقال نفطويه : هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة ، قال :والعرب تقول : ما تأتنا إلا إلماما ، أى فى الحين بعد الحين ، قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ؛ لأن العرب لا

تقول : ألمّ بنا ، إلا إذا فعل ، لا إذا همّ ولم يفعل ، والراجح الأول . وجملة : ﴿ **إن ربك واسع المغفرة** ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء ، أى إن ذلك وإن خرج عن حكم المؤاخذة فليس يخلو من كونه ذنبا يفتقر إلى مغفرة اللّه ، ويحتاج إلى رحمته . وقيل : إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه . ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض** ﴾ أى خلقكم منها فى ضمن خلق أبيكم آدم .وقيل : المراد آدم فإنه خلقه من طين ﴿ **وإذ أنتم أجنة** ﴾ أى هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنة ، والأجنة جمع جنين وهو الولد ما دام فى البطن سمى بذلك لاجتنانه ، أى استتاره ولهذا قال : ﴿ **فى بطون أمهاتكم** ﴾ فلا يسمى من خرج عن البطن جنينا ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ أى لا تمدحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها ، فإن ترك تزكية النفس أبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الخشوع ، وجملة : ﴿ **هو أعلم بمن اتقى** ﴾ مستأنفة مقررة للنهى ، أى هو أعلم بمن اتقى عقوبة اللّه وأخلص العمل له . قال الحسن : وقد علم سبحانه من كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة .

ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على العموم خصّ بالذمّ بعضهم فقال : ﴿ **أفرأيت الذى تولى** ﴾ أى تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق ﴿ **وأعطى قليلا وأكدى** ﴾ أى أعطى عطاء قليلا ، وأعطى شيئا قليلا وقطع ذلك وأمسك عنه، وأصل أكدى من الكدية وهى الصلابة ، يقال لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر: قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتمّ ، ولمن طلب شيئا فلم يبلغ آخره ، ومنه قول الحطيئة :

فأَعْطى قليلاً ثم أكْدَى عطاؤه ومن يَبْذُلِ المعروفَ فى الناس يحمد

قال الكسائى وأبو زيد : ويقال : كديت أصابعه : إذا محلت من الحفر ، وكدت يده : إذا كلت فلم تعمل شيئا ، وكدت الأرض : إذا قل نباتها ، وأكديت الرجل عن الشيء رددته ، وأكدى الرجل : إذا قلّ خيره . قال الفراء : معنى الآية : أمسك من العطية وقطع . وقال المبرد : منع منعا شديدا ، قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول اللّه ﷺ على دينه ، فعيره بعض المشركين فترك ورجع إلى شركه ، قال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ، ثم أمسك عنه فأعطى قليلا من لسانه من الخير ثم قطعه . وقال الضحاك : نزلت فى النضر بن الحارث . وقال محمد بن كعب القرظى : نزلت فى أبى جهل [١] . ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أعند هذا المكدى علم ما غاب عنه من أمر العذاب ، فهو يعلم ذلك . ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى.وإبراهيم الذى وفّى** ﴾ أى لم يخبر ولم يحدث بما فى صحف موسى ، يعنى : أسفاره، وهى التوراة ، وبما فى صحف إبراهيم الذى وفى ، أى تمم وأكمل ما أمر به .قال المفسرون : أى بلغ قومه ما أمر به وأداه إليهم . وقيل : بالغ فى الوفاء بما عاهد اللّه عليه.

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٧.

ثم بين سبحانه ما فى صحفهما فقال : ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى ، ومعناه : لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، وأن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدّر ، وخبرها الجملة بعدها ومحل الجملة الجرّ على أنها بدل من صحف موسى وصحف إبراهيم ، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وقد مضى تفسير هذه الآية فى سورة الأنعام ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **ألا تزر** ﴾ وهذا أيضا مما فى صحف موسى ، والمعنى : ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ولا ينفع أحدا عمل أحد، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه : ﴿ **ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ [الطور : ٢١] وبمثل ما ورد فى شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ونحو ذلك ، ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام ، بل يخصصه ، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم : ﴿ **وأن سعيه سوف يرى** ﴾ أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة . ﴿**ثم يجزاه** ﴾ أى يجزى الإنسان سعيه ، يقال : جزاه اللّه بعمله وجزاه على عمله ، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان ، والمنصوب إلى سعيه . وقيل : إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله : ﴿ **الجزاء الأوفى** ﴾ فيكون الضمير راجعا إلى متأخر عنه هو مفسر له، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعا إلى الجزاء الذى هو مصدر يجزاه ، ويجعل الجزاء الأوفى تفسيرا للجزاء المدلول عليه بالفعل كما فى قوله : ﴿ **اعدلوا هو أقرب** ﴾ [المائدة : ٨] قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما . ﴿**وأنّ إلى ربك المنتهى** ﴾ أى المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره فيجازيهم بأعمالهم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ قال : الكبائر : ما سمى اللّه فيه النار ، والفواحش : ما كان فيه حدّ الدنيا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن اللّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق ،والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ،والبيهقى فى الشعب ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **إلا اللمم** ﴾ قال : زنا العينين : النظر ،وزنا الشفتين: التقبيل ، وزنا اليدين : البطش ، وزنا الرجلين: المشى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللمم . وأخرج مسدد وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه سئل عن قوله : ﴿ **إلا اللمم** ﴾ قال: هى النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وأخرج سعيد بن منصور والترمذى وصححه ،

---

(١) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٣) وفى القدر (٦٦١٢) معلقا ومسلم فى القدر (٢٦٥٧/ ٢٠) وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢) والنسائى فى التفسير (٥٦٤).

والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،والبيهقى فى الشعب ، عن ابن عباس قال فى قوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها قال : وقال رسول الله ﷺ :

« إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما » (١)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ يقول : إلا ما قد سلف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ إلا اللمم﴾ قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، فذلك الإلمام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ، قال: اللمم كل شيء بين الحدّين حدّ الدنيا وحدّ الآخرة يكفره الصلاة ، وهو دون كل موجب، فأما حدّ الدنيا فكل حدّ فرض الله عقوبته فى الدنيا ،وأما حدّ الآخرة فكلّ شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصارى قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا : هو صدّيق. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: « كذبت يهود ما من نسمة يخلقها فى بطن أمها إلا أنه شقى وسعيد » ، فأنزل الله عند ذلك ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ الآية كلها (٢) .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برّة فقال رسول الله ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البرّ منكم ، سموها زينب » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأعطى قليلا وأكدى ﴾ قال : قطع. نزلت فى العاص بن وائل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : أطاع قليلا ثم انقطع .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والشيرازى فى الألقاب ، والديلمى قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : « أتدرون ما قوله : ﴿وإبراهيم الذى وفى ﴾ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « وفّى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهنّ وزعم أنها صلاة الضحى » وفى إسناده جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف (٤) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : سهام

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٨٤) وقال:« هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق» وابن جرير ٣٩/٢٧ وصححه الحاكم ٤٦٩/٢ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٠٥٥، ٧٠٥٦) .ط . دار الكتب العلمية .

وقد نسب هذا البيت لأمية بن أبى الصلت فى اللسان ، وفى القرطبى : قاله عند احتضاره وقيل : القائل هو أبو خراش الهذلى ، قاله وهو يطوف بالبيت ، والواضح أن رسول الله ﷺ قد تمثل به .

(٢) الطبرانى (١٣٦٨).

(٣) مسلم فى الآداب (١٩/٢١٤٢) وأبو داود فى الأدب (٤٩٥٣).

(٤) ابن جرير ٤٣/٢٧ والديلمى فى الفردوس (٧١٦٩) .

الإسلام ثلاثون سهما لم يتممها أحد قبل إبراهيم عليه السلام ، قال الله : ﴿وإبراهيم الذى وفى ﴾ (١). وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : يقول إبراهيم الذى استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا ،والذى فى صحف موسى: ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى آخر الآية(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ » إلى آخر الآية [الروم : ١٧]. وفى إسناده ابن لهيعة (٣) . وأخرج عبد بن حميد ،والحاكم وصححه ،وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ والنجم ﴾ فبلغ : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ قال : وفّى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى قوله : ﴿ من النذر الأولى ﴾ (٤) .

وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما فى الناسخ ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فأنزل الله بعد ذلك:﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [الطور:٢١] فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء (٥).وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع واستكان. وأخرج الدارقطنى فى الأفراد ، والبغوى فى تفسيره عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ قال : « لا فكرة فى الرب»(٦).

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أى هو الخالق لذلك والقاضى بسببه . قال الحسن

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٠ ووافقه الذهبى . (٢) ابن جرير ٢٧/ ٤٣.
(٣) الرواية فى ابن جرير ٢٧/ ٤٣ والديلمى فى الفردوس (٧١٧٠).
(٤) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٠ ووافقه الذهبى . (٥) الأثر عن ابن جرير ٢٧/ ٤٤.
(٦) البغوى فى التفسير ٤/ ٢٥٥.

والكلبى : أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار . وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر . وقيل : أضحك من شاء بأن سره ، وأبكى من شاء بأن غمه. وقال سهل بن عبد الله :أضحك المطيعين بالرحمة ، وأبكى العاصين بالسخط ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره . وقيل :خلق نفس الموت والحياة كما فى قوله : ﴿ خلق الموت والحياة ﴾ [الملك : ٢] وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . وقيل : المراد بهما : النوم واليقظة . وقال عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقيل : أمات الكافر وأحيا المؤمن كما فى قوله : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ [الأنعام : ٢٢] .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى ﴾ المراد بالزوجين : الذكر والأنثى من كل حيوان ، ولا يدخل فى ذلك آدم وحواء فإنهما لم يخلقا من النطفة ، والنطفة : الماء القليل ، ومعنى ﴿ إذا تمنى ﴾ : إذ تصبّ فى الرحم وتدفق فيه كذا قال الكلبى والضحاك وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ، يقال : منى الرجل وأمنى ، أى صب المنى . وقال أبو عبيدة : ﴿ إذا تمنى ﴾ : إذا تقدرّ : يقال : منيت الشىء : إذا قدرته، ومنى له ، أى قدر له ،ومنه قول الشاعر :

حتَّى تلاقى ما يمْنى لَكَ المانى

والمعنى : أنه يقدّر منها للولد . ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أى إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده . قرأ الجمهور : ﴿ النشأة ﴾ بالقصر بوزن الضربة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة ، وهما على القراءتين مصدران . ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ومثله قوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الرعد : ٢٦] ،وقوله :﴿ يقبض ويبسط ﴾ [البقرة : ٢٤٥] قاله ابن زيد ، واختاره ابن جرير ، وقال مجاهد وقتاده والحسن : أغنى : موّل ، وأقنى : أخدم . وقيل : معنى أقنى : أعطى القنية ، وهى ما يتأثل من الأموال . وقيل : معنى أقنى: أرضى بما أعطى ، أى أغناه ، ثم رضاه بما أعطاه . قال الجوهرى : قنى الرجل قنى ، مثل غنى غنى ، أى أعطاه ما يقتنى، وأقناه : أرضاه ، والقنى : الرضى . قال أبو زيد : تقول العرب : من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى ، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى ، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى . قال الأخفش وابن كيسان : أقنى : أفقر. وهو يؤيد القول الأوّل .﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها ،والمراد بها:الشعرى التى يقال لها : العبور ، وهى أشد ضياء من الشعرى التى يقال لها :الغميصاء . وإنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعرى مع كونه ربّا لكل الأشياء للردّ على من كان يعبدها ، وأول من عبدها أبو كبشة ، وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ : ابن أبى كبشة ، تشبيها له

به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، ومن ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح : لقد أمر أمْر ابن أبى كبشة .

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وصف عادا بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود . قال ابن زيد : قيل لها : عادا الأولى ، لأنهم أول أمة أهلكت بعد نوح . وقال ابن إسحاق : هما عادان ، فالأولى أهلكت بالصرصر ، والأخرى أهلكت بالصيحة. وقيل : عاد الأولى : قوم هود وعاد الأخرى :إرم . قرأ الجمهور : ﴿ عادا الأولى ﴾ بالتنوين والهمز، وقرأ نافع وابن كثير وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام وإدغام التنوين فيها . ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ أى وأهلك ثمود كما أهلك عادا فما أبقى أحدا من الفريقين ، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة ، وقد تقدّم الكلام على عاد وثمود فى غير موضع . ﴿وقوم نوح من قبل ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أى أظلم من عاد وثمود وأطغى منهم ، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية ، أو أظلم وأطغى من مشركى العرب، وإنما كانوا كذلك ؛ لأنهم عتوا على الله بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم ، كما فى قوله : ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ [العنكبوت : ١٤] ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ الائتفاك : الانقلاب ، والمؤتفكة : مدائن قوم لوط ، وسميت المؤتفكة؛لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها ، تقول: أفكته : إذا قلبته ، ومعنى ﴿ أهوى ﴾:أسقط ، أى أهواها جبريل بعد أن رفعها . قال المبرد : جعلها تهوى . ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها ، كما فى قوله :﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ [الحجر : ٧٤] وفى هذه العبارة تهويل للأمر الذى غشاها به وتعظيم له . وقيل : إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة ، أى فغشاها من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه .

﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ هذا خطاب للإنسان المكذب ، أى فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمترى . وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره . وقيل : لكلّ من يصلح له ، وإسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء ، أى نعما مع كون بعضها نقما لا نعما ؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ ، ولكون فيها انتقام من العصاة ،وفى ذلك نصرة للأنبياء والصالحين ، قرأ الجمهور : ﴿ تتمارى ﴾ من غير إدغام ،وقرأ يعقوب وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى. ﴿هذا نذير من النذر الأولى ﴾ أى هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدمين قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم . كذا قال ابن جريج ومحمد بن كعب وغيرهما ،وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى . وقيل : هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك ، كما قال أبو مالك .وقال أبو صالح : إن الإشارة

بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى ما فى صحف موسى وإبراهيم ، والأوّل أولى . ﴿ **أزفت الآزفة** ﴾ أى قربت الساعة ودنت ، سماها آزفة لقرب قيامها ، وقيل : لدنوّها من الناس كما فى قوله : ﴿اقتربت الساعة ﴾ [القمر : ١] أخبرهم بذلك ليستعدوا لها. قال فى الصحاح: أزفت الآزفة، يعنى : القيامة وأزف الرجل عجل ، ومنه قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

﴿ **ليس لها من دون اللّه كاشفة** ﴾ أى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا اللّه سبحانه .وقيل :كاشفة بمعنى انكشاف ، والهاء فيها كالهاء فى العاقبة والداهية . وقيل :كاشفة بمعنى كاشف ، والهاء للمبالغة كراوية ، والأول أولى ، وكاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا ، والمعنى : أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير اللّه . كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . ثم وبخهم سبحانه فقال : ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون** ﴾ المراد بالحديث : القرآن ، أى كيف تعجبون منه تكذيبا ﴿ **وتضحكون**﴾ منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب ولا موضع للاستهزاء ﴿ **ولا تبكون** ﴾ خوفا وانزجارا لما فيه من الوعيد الشديد ، وجملة : ﴿**وأنتم سامدون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها ، والسمود : الغفلة والسهو عن الشىء ، وقال فى الصحاح : سمد سموداً : رفع رأسه تكبرا ، فهو سامد . قال الشاعر :

سوامد الليل خفاف الأزواد (١)

وقال ابن الأعرابى : السمود : اللهو ، والسامد : اللاهى ، يقال للقينة : أسمدينا ، أى ألهينا بالغناء ، وقال المبرد : سامدون : خامدون ، قال الشاعر :

رمى الحدثان نسوة آل عمرو ... بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهنّ السود بيضا ... وردّ وجوههنّ البيض سودا

﴿ **فاسجدوا للّه واعبدوا** ﴾ لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية به وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره أمر عباده المؤمنين بالسجود للّه والعبادة له ، والفاء جواب شرط محذوف ، أى إذا كان الأمر من الكفار كذلك ، فاسجدوا للّه واعبدوا ، فإنه المستحق لذلك منكم ، وقد تقدم فى فاتحة السورة أن النبى ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه الكفار ، فيكون المراد بها : سجود التلاوة ، وقيل : سجود الفرض .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾ قال : أعطى وأرضى . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **وأنه هو ربّ الشعرى** ﴾ قال : هو الكوكب

---

(١) خفاف الأزواد : أى ليس فى بطونها علف ، وقيل : ليس على ظهورها زاد للراكب .

الذى يدعى الشعرى . وأخرج الفاكهى عنه أيضا قال : نزلت هذه الآية فى خزاعة ، وكانوا يعبدون الشعرى ، وهو الكوكب الذى يتبع الجوزاء . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى** ﴾ قال : محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الآزفة من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن صالح أبى الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون** ﴾ فما ضحك النبى ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم. ولفظ عبد بن حميد : فما رأى النبىّ ﷺ ضاحكا ولا متبسما حتى ذهب من الدنيا (١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سامدون** ﴾ قال : لاهون معرضون عنه . وأخرج الفريابى ، وأبو عبيد فى فضائله، وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه: ﴿ **وأنتم سامدون** ﴾ قال: الغناء باليمانية ، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا . وأخرج الفريابى ، وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **سامدون** ﴾ قال : كانوا يمرون على النبىّ ﷺ شامخين ، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخا (٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أبى خالد الوالبى قال: خرج على بن أبى طالب علينا وقد أقيمت الصلاة ونحن قيام ننتظره ليتقدّم فقال : ما لكم سامدون ، لا أنتم فى صلاة ولا أنتم فى جلوس تنتظرون ؟

---

(١) ابن أبى شيبة (١٦٢٠٣).

(٢) أبو يعلى (٢٦٨٥) وابن جرير ٤٩/٢٧ وقال الهيثمى فى المجمع ١١٩/٧: « فيه الضحاك بن مزاحم ، وقد وثق، وفيه ضعف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٥٨) وسكت عنه البوصيرى .

تفسير سورة القمر

ويقال : سورة اقتربت ، وهى خمس وخمسون آية . وهى مكية كلها فى قول الجمهور . وقال مقاتل: هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ إلى قوله : ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ قال القرطبى: ولا يصح[1]. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: اقتربت تدعى فى التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه . قال البيهقى: منكر[2]. وأخرج ابن الضريس عن إسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة رفعه: « من قرأ اقتربت الساعة فى كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ». وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، وقد تقدم أن النبى ﷺ كان يقرأ بـ﴿ ق ﴾ و﴿ اقتربت الساعة ﴾ فى الأضحى والفطر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ⑨ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ⑩ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ⑪ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ⑫ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ⑬ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ⑭ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑮ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ⑯ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑰ ﴾ .

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ أى قربت ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقى بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة . ويمكن أن يقال : إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل آت قريب ﴿ وانشق القمر﴾ أى وقد انشق القمر وكذا قرأ حذيفة بزيادة« قد »، والمراد : الانشقاق الواقع فى أيام النبوّة معجزة لرسول الله ﷺ ،

(١) القرطبى ٩ / ٦٢٩٥ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٦٦) تفرد به محمد بن عبد الرحمن عن سليمان وهو منكر ، وإسناده ضعيف .

وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف . قال الواحدى : وجماعة المفسرين على هذا ، إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال : المعنى: سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه ، قال : وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر ؛لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة ، قال ابن كيسان : فى الكلام تقديم وتأخير، أى انشق القمر واقتربت الساعة ، وحكى القرطبى عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة . وقيل : معنى ﴿ انشق القمر ﴾ : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح . وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه وطلوعه فى أثنائها كما يسمى الصبح فلقا لانفلاق الظلمة عنه . قال ابن كثير : قد كان الانشقاق فى زمان رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات (١). قال الزجاج: زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة. والأمر بين فى اللفظ وإجماع أهل العلم ؛لأن قول : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ ﴾ يدلّ على أن هذا كان فى الدنيا لا فى القيامة . انتهى . ولم يأت من خالف الجمهور وقال: إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد ، فقال : لأنه لو انشق فى زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس فى الآيات سواء ، ويجاب بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلا ولا شرعا ولا عادة ، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر ، وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ، ويضرب به وجه قائله .

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشقّ ،ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت فى الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذّ واستبعاد من استبعد ، وسيأتى ذكر بعض ما ورد فى ذلك إن شاء الله.

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : لما انشق القمر قال المشركون سحرنا محمد ، فقال الله : ﴿ وإن يروا آية ﴾ يعنى انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها ، ويقولوا: سحر قوىّ شديد يعلو كل سحر ، من قولهم : استمرّ الشيء إذا قوى واستحكم ، وقد قال بأن معنى ﴿ مستمرّ ﴾ : قوى شديد جماعة من أهل العلم . قال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل ، وهو شدة فتله ، وبه قال أبو العالية والضحاك ، واختاره النحاس ، ومنه قول لقيط :

حتَّى استمرّت على شَر لا يزنه صِدْقُ العزيمة لا رثا ولا ضَرَعا

وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : ﴿ سحر مستمرّ ﴾ أى ذاهب ، من قولهم : مرّ الشيء واستمرّ إذا ذهب،وبه قال قتادة ومجاهد وغيرهما ،واختاره النحاس ،وقيل: معنى ﴿مستمرّ﴾: دائم مطرد ، ومنه قول الشاعر :

(١) ابن كثير ٤٦٩/٦ .

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر وليس على شيء قديم بمستمر

أى بدائم باق . وقيل : ﴿ مستمرّ ﴾ : باطل ، روى هذا عن أبى عبيدة أيضًا . وقيل: يشبه بعضه بعضا . وقيل : قد مرّ من الأرض إلى السماء . وقيل : هو من المرارة ، يقال : مرّ الشىء صار مرّا ، أى مستبشع عندهم . وفى هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان كما قررناه سابقا . ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال : ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أى وكذبوا رسول الله ، وما عاينوا من قدرة الله ، واتبعوا أهواءهم وما زينه لهم الشيطان الرجيم،وجملة : ﴿ وكل أمر مستقرّ﴾ مستأنفة لتقدير بطلان ما قالوه من التكذيب واتباع الأهواء ، أى وكل أمر من الأمور منته إلى غاية ، فالخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر ، قال الفراء : يقول : يستقر قرار تكذيبهم ، وقرار قول المصدّقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب . قال الكلبى : المعنى : لكل أمر حقيقة ما كان منه فى الدنيا فسيظهر، وما كان منه فى الآخرة فسيعرف ، قرأ الجمهور: ﴿ مستقرّ ﴾ بكسر القاف،وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ وهو« كلّ »، وقرأ أبو جعفر وزيد بن على بجر «مستقر » على أنه صفة لـ﴿ أمر﴾ ، وقرأ شيبة بفتح القاف ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، قال أبو حاتم : ولا وجه لها . وقيل : لها وجه بتقدير مضاف محذوف ، أى وكل أمر ذو استقرار ، أو زمان استقرار ، أو مكان استقرار ، على أنه مصدر أوظرف زمان ، أو ظرف مكان .

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أى ولقد جاء كفار مكة ، أو الكفار على العموم من الأنباء ، ومن أخبار الأمم المكذبة المقصوصة علينا فى القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أى ازدجار على أنه مصدر ميمىّ ، يقال : زجرته : إذا نهيته عن السوء ووعظته ، ويجوز أن يكون اسم مكان ، والمعنى : جاءهم ما فيه موضع ازدجار ، أى أنه فى نفسه موضع لذلك ، وأصله: مزتجر ، « وتاء » الافتعال تقلب دالا مع الزاى والدال والذال كما تقرّر فى موضعه ، وقرأ زيد بن علىّ : « مزّجر » بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاى فى الزاى ، و « من » فى قوله : ﴿ من الأنباء ﴾ للتبعيض ، وهى وما دخلت عليه فى محل نصب على الحال ، وارتفاع ﴿ حكمة بالغة ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف أو بدل من « ما » بدل كل من كل ، أوبدل اشتمال، والمعنى :أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل ، وقرئ بالنصب على أنها حال من «ما» ، أى حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة ﴿ فما تغن النذر ﴾ « ما » يجوز أن تكون استفهامية ، وأن تكون نافية ، أى أىّ شىء تغنى النذر أو لم تغن النذر شيئا ، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجىء الحكمة البالغة ، والنذر جمع نذير بمعنى : النذر ، أو معنى : الإنذار على أنه مصدر .

ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم فقال : ﴿ فتولّ عنهم ﴾ أى أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار ، وهى منسوخة بآية السيف . ﴿ يوم يدع الداع إلى شىء نكر ﴾ انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر ، أى اذكر ، وإما بـ ﴿يخرجون ﴾ المذكور بعده ، وإما

بقوله : ﴿ **فما تغن** ﴾ ، ويكون قوله :﴿ **فتولّ عنهم** ﴾ اعتراض ، أو بقوله :﴿ **يقول الكافرون**﴾ أو بقوله : ﴿ **خشعا** ﴾ وسقطت الواو من ﴿ **يدع** ﴾ اتباعا للفظ ، وقد وقعت فى الرسم هكذا وحذفت الياء من الداع للتخفيف واكتفاء بالكسرة ، والداع : هو إسرافيل ، والشيء النكر : الأمر الفظيع الذى ينكرونه استعظاما له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله . قرأ الجمهور بضم الكاف ، وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفا . وقرأ مجاهد وقتادة بكسر الكاف وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول . ﴿ **خشعا أبصارهم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **خشعا** ﴾ جمع خاشع ، وقرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو : « خاشعًا » على الإفراد ، ومنه قول الشاعر :

وَشَبَّاب حَسَن أَوْجُهُهُمْ من إياد بن نِزارِ بن مَعَد

وقرأ ابن مسعود : « خاشعة » قال الفراء : الصفة إذا تقدمت على الجماعة جاز فيها التذكير والتأنيث والجمع ، يعنى : جمع التكسير لا جمع السلامة ، لأنه يكون من الجمع بين فاعلين ، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وانتصاب ﴿ **خشعا** ﴾ على الحال من فاعل يخرجون ، أو من الضمير فى﴿ **عنهم** ﴾ . والخشوع فى البصر : الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العزّ والذل يتبين فيها ﴿ **يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾ أى يخرجون من القبور ، وواحد الأجداث : جدث وهو القبر ، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر . أى منبث فى الأقطار مختلط بعضه ببعض . ﴿ **مهطعين إلى الداع** ﴾ الإهطاع : الإسراع ، أى قال كونهم مسرعين إلى الداع ، وهو إسرافيل ، ومنه قول الشاعر :

بِدجْلَةَ دَارهُم وَلَقد أَرَاهُمْ بِدجْلَةَ مُهْطِعين إلى السَّماعِ

أى مسرعين إليه ، وقال الضحاك : مقبلين ، وقال قتادة : عامدين ، وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة وغيره ، وجملة : ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ﴿ **مهطعين** ﴾ ، والرابط مقدر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا يكون حينئذ ، والعسر: الصعب الشديد ، وفى إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين . ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدّم من الأنباء المجملة فقال : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح** ﴾ أى كذبوا نبيهم ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وقوله:﴿**فكذبوا عبدنا** ﴾ تفسير لما قبله من التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتأكيد ، أى فكذبوا عبدنا نوحا . وقيل : المعنى : كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل فإنه منهم . ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرّد التكذيب فقال : ﴿ **وقالوا مجنون** ﴾ أى نسبوا نوحا إلى الجنون وقوله : ﴿ **وازدجر** ﴾ معطوف على قالوا ، أى وزجر عن دعوى النبوة وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، والدال بدل من

تاء الافتعال كما تقدّم قريبا . وقيل : إنه معطوف على ﴿مجنون﴾ أى وقالوا : إنه ازدجر. أى ازدجرته الجن وذهبت بلبه، والأول أولى .قال مجاهد: هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهز وزجر بالسب وأنواع الأذى . قال الرازى: وهذا أصح ، لأن المقصود: تقوية قلب النبىّ ﷺ بذكر من تقدّمه .

﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ أى دعا نوح ربه على قومه بأنى مغلوب من جهة قومى لتمردهم على الطاعة وزجرهم لى عن تبليغ الرسالة ، فانتصر لى ، أى انتقم لى منهم ، طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما أيس من إجابتهم وعلم تمرّدهم وعتوّهم وإصرارهم على ضلالتهم ، قرأ الجمهور: ﴿ أنى ﴾ بفتح الهمزة . أى بأنى . وقرأ ابن أبى إسحاق والأعمش بكسر الهمزة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول ، أى فقال . ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال . ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ أى منصبّ انصبابا شديدا ، والهمر الصبّ بكثرة ، يقال : همر الماء والدمع يهمر همرا وهمورا : إذا كثر ، ومنه قول الشاعر :

أعينىّ جُودا بالدُّموعِ الهَوَامِرِ ... على خيرِ بَادٍ من مَعَـدٍّ وحَاضِـرِ

ومنه قول امرئ القيس يصف عينا :

رَاحَ تَمرِ به الصبَّا ثم انْتَحَـى ... فيه بشُؤْبُوب (١) جَنُوبٍ مُنْهَمِرِ

قرأ الجمهور : ﴿ ففتحنا ﴾ مخففا ، وقرأ عامر ويعقوب بالتشديد . ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ أى جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة ، والأصل: فجرنا عيون الأرض ، قرأ الجمهور : ﴿ فجرنا ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف ، قال عبيد ابن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون . ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ أى التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم ، أى كائنًا على حال قدّرها الله وقضى بها ، وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء . قال قتادة : قدّر لهم إذ كفروا أن يغرقوا ، وقرأ الجحدرى : « فالتقى الماءان » وقرأ الحسن : « فالتقى الماوان » ورويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب ومحمد بن كعب: ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أى وحملنا نوحا على سفينة ذات ألواح ، وهى الأخشاب العريضة ﴿ ودسر ﴾ قال الزجاج : هى المسامير التى تشدّ بها الألواح واحدها: دسار ،وكل شىء أدخل فى شىء يشدّه فهو الدسر ، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب وابن زيد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : الدسر : ظهر السفينة التى يضربها الموج ، سميت بذلك لأنها تدسر الماء ، أى تدفعه ، والدسر: الدفع . وقال الليث : الدسار : خيط تشدّ به ألواح السفينة . قال فى

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

الصحاح : الدسار : واحد الدسر وهى خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال : هى المسامير . ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى بمنظر ومرأى منا وحفظ لها كما فى قوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ [هود: ٣٧] وقيل : بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بالأعين النابعة من الأرض . وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ قال الفراء : فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثوابا لمن كفر به وجحد أمره وهو نوح عليه السلام ، فإنه كان لهم نعمة كفروها فانتصاب ﴿ جزاء ﴾ على العلة ، وقيل: على المصدرية بفعل مقدّر ، أى جازيناهم جزاء . قرأ الجمهور : ﴿كفر﴾ مبنيا للمفعول ، والمراد به : نوح . وقيل : هو الله سبحانه ، فإنهم كفروا به وجحدوا نعمته ، وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد وعيسى : « كفر » بفتح الكاف والفاء مبنيا للفاعل ، أى جزاء وعقابا لمن كفر بالله .

﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أى السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين . وقيل : المعنى : ولقد تركنا هذه الفعلة التى فعلناها بهم عبرة وموعظة . ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أصله : مذتكر ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما وأدغمت الدال فى الذال والمعنى : هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها . ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ أى إنذارى. قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران ، والاستفهام للتهويل والتعجيب ، أى كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف . وقيل : نذر جمع نذير ، ونذير بمعنى الإنذار ، كنكير : بمعنى الإنكار . ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ أى سهلناه للحفظ . وأعنا عليه من أراد حفظه . وقيل : هيأناه للتذكر والاتعاظ ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أى متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره ، وفى الآية الحث على درس القرآن والاستكثار من تلاوته والمسارعة فى تعلمه ، ومدكر أصله : مذتكر كما تقدّم قريبا .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما . وروى عنه من طريق أخرى عند مسلم والترمذى وغيرهم وقال : فنزلت : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [١] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » [٢] .

وأخرج عبد بن حميد ،والحاكم وصححه ،وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه قال : رأيت القمر منشقا شقتين مرّتين : مرة بمكة قبل أن يخرج النبىّ ﷺ :شقة على أبى قبيس ،

---

(١) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٦٨) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٢ / ٤٦) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٦) والنسائى فى التفسير (٥٧٤) .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٦٣٦) وفى مناقب الأنصار (٣٨٦٩ ، ٣٨٧١) وفى التفسير (٤٨٦٤ ، ٤٨٦٥) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٠ / ٤٣ ـ ٤٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٥ ، ٣٢٨٧) والنسائى فى التفسير (٥٧٢ ، ٥٧٣) .

وشقة على السويداء ، وذكر أن هذا سبب نزول الآية [١]. وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم عنه أيضا قال : رأيت القمر وقد انشق ، وأبصرت الجبل بين فرجتى القمر ، وله طرق عنه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : انشق القمر فى زمن النبىّ ﷺ وله طرق عنه . وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ قال : كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين : فرقة من دون الجبل ، وفرقة خلفه، فقال النبىّ ﷺ :« اللهم اشهد » [٢] . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم عن أبيه فى قوله : ﴿ **وانشق القمر** ﴾ قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل . فقال الناس : سحرنا محمد فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم[٣] .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن مردويه وأبونعيم عن عبد الرحمن السلمى قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ ،ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، اليوم المضمار ، وغدا السباق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **مهطعين** ﴾ قال : ناظرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر** ﴾ قال : كثير : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماءان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا: ﴿ **على ذات ألواح ودسر** ﴾ قال : الألواح: ألواح السفينة ، والدسر : معاريضها التى تشد بها السفينة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ودسر** ﴾ قال : المسامير . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : الدسر كلكل السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر** ﴾ قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله. وأخرج الديلمى عن أنس مرفوعًا مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **فهل من مدّكر** ﴾ قال: هل من متذكر.

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٧١ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى وقال : « أصله فى الكتابين » والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٦٥ .

(٢) مسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠١ / ٤٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٨٨) وابن جرير ٢٧ / ٥٠ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٢٣٤ .

(٣) أحمد ٤ / ٨٢ والترمذى فى التفسير (٣٢٨٩) وابن جرير ٢٧ / ٥١ وصححه الحاكم ٢ / ٤٧٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « كلها صحاح » ، والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٦٨ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **كذبت عاد** ﴾ هم قوم عاد ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ أى فاسمعوا كيف كان عذابى لهم وإنذارى إياهم ، ونذر مصدر بمعنى إنذار كما تقدم تحقيقه ، والاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا** ﴾ هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقا من العذاب . والصرصر : شدة البرد ، أى ريح شديدة البرد . وقيل : الصرصر : شدة الصوت ، وقد تقدم بيانه فى سورة حم السجدة ﴿ **فى يوم نحس مستمر** ﴾ أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم ، قال الزجاج : قيل : فى يوم الأربعاء فى آخر الشهر . قرأ الجمهور : ﴿ **فى يوم نحس** ﴾ بإضافة ﴿**يوم**﴾ إلى ﴿**نحس**﴾ مع سكون الحاء وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو على تقدير مضاف ، أى فى يوم عذاب نحس . وقرأ الحسن بتنوين «يوم » على أن ﴿**نحس**﴾ صفة له ، وقرأ هارون بكسر الحاء ، قال الضحاك : كان ذلك اليوم مرا عليهم، وكذا حكى الكسائى عن قوم أنهم قالوا : هو من المرارة ، وقيل : هو من المرّة بمعنى : القوة ؛ أى فى يوم قوىّ الشؤم مستحكمه ، كالشىء المحكم الفتل الذى لا يطاق نقضه، والظاهر أنه من الاستمرار لا من المرارة ولا من المرّة، أى دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم ، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم .

وجملة : ﴿ **تنزع الناس** ﴾ فى محل نصب على أنها صفة لـ ﴿ **ريحا** ﴾ أو حال منها ، ويجوز أن تكون استئنافا ، أى تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها . قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض فترمى بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم وتبين رؤوسهم من أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقيل : من قبورهم لأنهم حفروا حفائر ودخلوها ﴿ **كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ الأعجاز :جمع عجز ، وهو مؤخر الشىء ، والمنقعر : المنقطع المنقلع من أصله ، يقال : قعرت النخلة : إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط ، شبههم فى طول قاماتهم حين صرعتهم الريح ، وطرحتهم على وجوههم ، بالنخل الساقط على الأرض التى ليست لها رؤوس ، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولا ثم كبتهم (١) على وجوههم وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهى مؤنثة اعتبارا باللفظ ويجوز تأنيثه اعتبارًا بالمعنى ، كما قال : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : ٧] قال المبرد : كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا . وقيل : إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ قد تقدم تفسيره قريبا ، وكذلك قوله: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ .

ثم لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود ، فقال : ﴿ **كذبت ثمود بالنذر** ﴾ يجوز أن يكون جمع نذير ، أى كذبت بالرسل المرسلين إليهم ، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار ، أى كذبت بالإنذار الذى أنذروا به ، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيبا للرسل ، لأن من كذب واحدًا من الأنبياء فقد كذب سائرهم ، لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع ﴿ **فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه ؟ قرأ الجمهور : بنصب ﴿ **بشرًا** ﴾ على الاشتغال ، أى أنتبع بشرا واحدا . وقرأ أبو السماك والدانى وأبو الأشهب وابن السميفع بالرفع على الابتداء ، و ﴿ **واحدًا** ﴾ صفته، و ﴿**نتبعه**﴾ خبره ، وروى عن أبى السماك أنه قرأ برفع ﴿ **بشرًا** ﴾ ونصب ﴿ **واحدًا** ﴾ على الحال ﴿ **إنا إذا لفى ضلال** ﴾ أى إنا إذا اتبعناه لفى خطأ وذهاب عن الحق ﴿**وسعر**﴾ أى عذاب وعناء وشدة كذا قال الفراء وغيره ، وقال أبو عبيدة : هو جمع سعير ، وهو لهب النار ، والسعر : الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدّة . وقال مجاهد:﴿ **وسعر**﴾ وبُعد عن الحقّ. وقال السدىّ : فى احتراق . وقيل : المراد به هنا : الجنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ومنه قول الشاعر يصف ناقة :

تَخَالُ بها سُعْرًا إذَا السَّعْرُ هَزَّهَـا ... ذَمِيـلٌ (٢) وإيقـاعٌ من السَّيْر مُتْعِبُ

ثم كرروا الإنكار والاستبعاد فقالوا : ﴿ **أألقى الذكر عليه من بيننا** ﴾ أى كيف خصّ من

(١) فى المطبوعة : « كتبتهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) الذميل : ضرب من سير الإبل السريع .

بيننا بالوحى والنبوّة وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟ ثم أضربوا عن الاستنكار وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا ، فقالوا : ﴿ **بل هو كذاب أشر** ﴾ . والأشر : المرح والنشاط ، أو البطر والتكبر ، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، ومنه قول الشاعر :

أشِرتُمْ بِلبْس الخَزِّ لما لَبِسْتُمُ ومن قبلُ لا تدْرون مَنْ فَتَحَ القُرى

قرأ الجمهور : ﴿ **أشر** ﴾ كفرح ، وقرأ أبو قلابة وأبو جعفر بفتح الشين وتشديد الراء على أنه أفعل تفضيل . ونقل الكسائى عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة . ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **سيعلمون غدا من الكذاب الأشر** ﴾ والمراد بقوله: ﴿ **غدا** ﴾ : وقت نزول العذاب بهم فى الدنيا ، أو فى يوم القيامة جريًا على عادة الناس فى التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد ، كما فى قولهم : إن مع اليوم غدا ، وكما فى قول الحطيئة :

للموت فيها سِهامٌ غَيْر مُخْطِئَةٍ مَنْ لم يكن مَيِّتاً فى اليوم ماتَ غَدَا

ومنه قول أبى الطماح :

ألا عَللانِى قَبْلَ نَوْحِ النَّوائِحِ وَقَبْلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَين الجَوانِحِ

وقبلَ غَدٍ يالَهْفَ نَفْسِى على غَدِ إذَا رَاحَ أصْحَابِى ولستُ برائح

قرأ الجمهور : ﴿ **سيعلمون** ﴾ بالتحتية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة ، وقرأ أبوعمرو وابن عامر وحمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه. وجملة : ﴿ **إنا مرسلو الناقة** ﴾ مستأنفة لبيان ما تقدّم إجماله من الوعيد ، أى إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ﴿ **فتنة لهم** ﴾ أى ابتلاء وامتحانا ، وانتصاب ﴿**فتنة**﴾ على العلة ﴿**فارتقبهم**﴾ أى انتظر ما يصنعون ﴿ **واصطبر**﴾ على ما يصيبك من الأذى منهم .﴿**ونبئهم أن الماء قسمة بينهم** ﴾ أى بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما فى قوله:﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ [الشعراء : ١٥٥] وقال : ﴿ **نبئهم** ﴾ بضمير العقلاء تغليبا . ﴿ **كل شرب محتضر** ﴾ الشرب بكسر الشين : الحظ من الماء ، ومعنى ﴿**محتضر**﴾ : أنه يحضره من هوله ، فالناقة تحضره يومًا وهم يحضرونه يوما ، قال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم ، فيشربون ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون . قرأ الجمهور:﴿**قسمة** ﴾ بكسر القاف بمعنى: مقسوم ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها ، ﴿ **فنادوا صاحبهم** ﴾ أى نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها ﴿**فتعاطى فعقر** ﴾ أى تناول الناقة بالعقر فعقرها ، أو اجترأ على تعاطى أسباب العقر فعقر . قال محمد بن إسحاق: كمن لها فى أصل شجرة على طريقها ، فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها ، والتعاطى : تناول الشىء

بتكلف ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة . ثم بين ما أجمله من العذاب فقال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة** ﴾ قال عطاء : يريد صيحة جبريل ، وقد مضى بيان هذا فى سورة هود وفى الأعراف ﴿ **فكانوا كهشيم المحتظر**﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم : حطام الشجر ويابسه ، والمحتظر: صاحب الحظيرة ، وهو الذى يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال : احتظر على غنمه : إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض . قال فى الصحاح : والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة ، وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية بفتح الظاء ، أى كهشيم الحظيرة ، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار ، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة ، ومعنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يبس فى الحظيرة وداسته الغنم بعد سقوطه ، ومنه قول الشاعر:

أثـرن عجـاجـة كـدخـان نـار تشب بغرقـد بـال هشيـم

وقال قتادة : هو العظام النخرة المحترقة ، وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح ، وقال سفيان الثورى : هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى ، قال ابن زيد : العرب تسمى كلّ شىء كان رطبا فيبس هشيما ، ومنه قول الشاعر :

تـرى جيف المطـىّ بجانبيـه كأن عظامها خشب الهشيم

﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة . ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله كما كذبهم غيرهم ، فقال : ﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾ وقد تقدّم تفسير النذر قريبًا . ثم بين سبحانه ما عذبهم به فقال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصبًا** ﴾ أى ريحا ترميهم بالحصباء ، وهى الحصى. قال أبو عبيدة والنضر بن شميل : الحاصب : الحجارة فى الريح . قال فى الصحاح : الحاصب : الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ **إلا آل لوط نجيناهم بسحر** ﴾ يعنى : لوطا ومن تبعه ، والسحر : آخر الليل . وقيل : هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار ، وانصرف ﴿**سحر**﴾ لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة ، ولو قصد معينا لامتنع ، كذا قال الزجاج والأخفش وغيرهما ، وانتصاب ﴿ **نعمة من عندنا** ﴾ على العلة ، أو على المصدرية ، أى إنعاما منا على لوط ومن تبعه. ﴿ **كذلك نجزى من شكر** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزى من شكر نعمتنا ولم يكفرها . ﴿**ولقد أنذرهم بطشتنا**﴾ أى أنذر لوط قومه بطشة الله بهم ، وهى عذابه الشديـد وعقوبتـه البالغـة ، ﴿ **فتماروا بالنذر** ﴾ أى شكوا فى الإنذار ولم يصدّقوه ، وهو تفاعلوا من المرية وهى الشك . ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه** ﴾ أى أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم ، يقال : راودته عن كذا مراودة ورِوادا ، أى أردته ، وراد الكلام يروده رودا ،

أى : طلبه ، وقد تقدم تفسير المراودة ، مستوفى فى سورة يوسف ﴿ **فطمسنا أعينهم** ﴾ أى صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب، وقيل :أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا ﴿ **فذوقوا عذابى ونذر** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة . ﴿**ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقرّ** ﴾ أى أتاهم صباحا عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم . قال مُقاتل : استقر بهم العذاب بكرة ، وانصراف ﴿ **بكرة** ﴾ لكونه لم يرد بها وقتا بعينه كما سبق فى ﴿ **بسحر** ﴾. ﴿ **فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة ، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغى لأحد أن يغفل عن شكرها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا** ﴾ قال: باردة ﴿ **فى يوم نحس** ﴾ قال : أيام شداد . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » (١) . وأخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . وأخرجه ابن مردويه عن علىّ مرفوعا (٢) . وأخرج ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا ، وفيه قيل : وكيف ذاك يارسول الله ؟ قال : « أغرق الله فيه فرعون وقومه ، وأهلك فيه عادًا وثمود » (٣) . وأخرج ابن مردويه والخطيب بسند ، قال السيوطى : ضعيف ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمرّ»(٤) .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **كأنهم أعجاز نخل** ﴾ قال : أصول النخل ﴿ **منقعر** ﴾ قال : منقلع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : أعجاز سواد النخل . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **وسعر** ﴾ قال : شقاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : ﴿**كهشيم المحتظر** ﴾ قال : كحظائر من الشجر محترقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : كالعظام المحترقة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : كالحشيش تأكله الغنم .

﴿ **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾**

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى ٢ / ٧٤ وفيه : «فلم يروه إلا إبراهيم بن أبى حية . قال الدارقطنى : وهو متروك » . وقال الشوكانى فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٤٣٨ : « موضوع » .

(٢) كشف الخفاء للعجلونى (٣٢٥٥) وقال : « أخرجه ابن مردويه فى التفسير بأسانيد واهية عن على وأنس » .

(٣) انظر سابقه .

(٤) الموضوعات لابن الجوزى ٢ / ٧٣ « وفى سنده مسلمة بن الصلت . قال أبو حاتم الرازى : هو متروك الحديث » .

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ **النذر** ﴾ يجوز أن يكون جمع نذير ، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى : الإنذاركما تقدم. وهى الآيات التى أنذرهم بها موسى ، وهذا أولى لقوله : ﴿ **كذبوا بآياتنا كلها** ﴾ فإنه بيان لذلك ، والمراد بها: الآيات التسع التى تقدّم ذكرها ﴿**فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ أى أخذناهم بالعذاب أخذ غالب فى انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه شىء . ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال : ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم** ﴾ والاستفهام للإنكار ، والمعنى النفى ، أى ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب خير من كفار من تقدّمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم . فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب وأنتم شر منهم . ثم أضرب سبحانه عن ذلك وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيت بالوجه الأوّل فقال: ﴿ **أم لكم براءة فى الزبر** ﴾ والزبر هى الكتب المنزلة على الأنبياء . والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله فى شىء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبكيت وانتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر فقال : ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر**﴾ أى جماعة لا تطاق لكثرة عددنا وقوتنا ، أو أمرنا مجتمع لا نغلب . وأفرد منتصرا اعتبارا بلفظ جميع . قال الكلبى : المعنى : نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **سيهزم الجمع** ﴾ أى جمع كفار مكة ، أو كفار العرب على العموم ، قرأ الجمهور : ﴿ **سيهزم** ﴾ بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ ورش عن يعقوب : « سنهزم» بالنون وكسر الزاى ونصب الجمع ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالتحتية مبنيا للفاعل ، وقرئ بالفوقية مبنيا للفاعل ﴿**ويولون الدبر** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **يولون** ﴾ بالتحتية ، وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب ، والمراد بالدبر : الجنس ، وهو فى معنى الإدبار ، وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار ، وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر ، فلله الحمد .

﴿ **بل الساعة موعدهم** ﴾ أى موعد عذابهم الأخروى ، وليس هذا العذاب الكائن فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب ، وإنما هو مقدّمة من مقدّماته وطليعة من طلائعه ، ولهذا قال : ﴿ **والساعة أدهى وأمرّ** ﴾ أى وعذاب الساعة أعظم فى الضر وأفظع ، مأخوذ من الدهاء ، وهو النكر والفظاعة ، ومعنى أمرّ : أشد مرارة من عذاب الدنيا ، يقال: دهاه أمر كذا ،أى أصابه دهوًا ودهيا . ﴿ **إن المجرمين فى ضلال وسعر** ﴾ أى فى ذهاب عن

الحق وبعد عنه ، وقد تقدّم فى هذه السورة تفسير ﴿**وسعر**﴾ فلا نعيده . ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم** ﴾ والظرف منتصب بما قبله ، أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يسحبون ، أو بقول مقدّر بعده ، أى يوم يسحبون يقال لهم :﴿ **ذوقوا مس سقر** ﴾ أى قاسوا حرّها وشدة عذابها ، وسقر علم لجهنم ، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه إدغام سين ﴿ **مس** ﴾ فى سين ﴿**سقر**﴾ ﴿ **إنا كلَّ شىء خلقناه بقدر** ﴾ قرأ الجمهور بنصب « كل » على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع ، والمعنى : أن كل شىء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبسا بقدر قدره وقضاء قضاه سبق فى علمه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه . والقدر: التقدير، وقد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى . ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ أى إلا مرة واحدة أو كلمة واحدة كلمح بالبصر فى سرعته ، واللمح : النظر على العجلة والسرعة . وفى الصحاح : لمحه وألمحه : إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة . قال الكلبى : وما أمرنا بمجىء الساعة فى السرعة إلا كطرف البصر .

﴿ **ولقد أهلكنا أشياعكم** ﴾ أى أشباهكم ونظراءكم فى الكفر من الأمم . وقيل : أتباعكم وأعوانكم ﴿ **فهل من مدكر**﴾ يتذكر ويتعظ بالمواعظ ويعلم أن ذلك حق ، فيخاف العقوبة وأن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة ﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر** ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة ﴿ **وكل صغير وكبير مستطر** ﴾ أى كل شىء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور فى اللوح المحفوظ صغيره وكبيره وجليله وحقيره، يقال : سطر يسطر سطرا كتب ، وأسطر مثله . ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونهر** ﴾ أى فى بساتين مختلفة وجنان متنوعة وأنهار متدفقة . قرأ الجمهور: ﴿ **ونهر** ﴾ بفتح الهاء على الإفراد ، وهو جنس يشمل أنهار الجنة . وقرأ مجاهد والأعرج وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان ، وقرأ أبو مجلز وأبو نهشل والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة : « نهر » بضم النون والهاء على الجمع ﴿ **فى مقعد صدق** ﴾ أى فى مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة ﴿ **عند مليك مقتدر** ﴾ أى قادر على ما يشاء لا يعجزه شىء ، و﴿**عند**﴾ هاهنا، كناية عن الكرامة وشرف المنزلة ، وقرأ عثمان البستى : « فى مقاعد صدق » .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم** ﴾ يقول : ليس كفاركم خير من قوم نوح وقوم لوط . وأخرج ابن أبى شيبة وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ قال : كان ذلك يوم بدر قالوا : ﴿ **نحن جميع منتصر** ﴾ فنزلت هذه الآية [١] .وفى البخارى وغيره عنه أيضا أن النبى ﷺ قال

---

(١) ابن أبى شيبة (١٨٥٠٩) وابن جرير ٢٧ / ٦٤ وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٦١) ونسبه لابن منيع، وفيه على بن عاصم وهو ضعيف ، قاله البوصيرى .

وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا » ، فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع ويقول : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ** ﴾ [١] .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن ماجة وغيرهم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر . فنزلت : ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم** ﴾ [٢] ، وأخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » [٣] . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **وكل صغير وكبير مستطر** ﴾ قال : مسطور فى الكتاب .

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩١٥) وفى المغازى (٣٩٥٣) وفى التفسير (٤٨٧٥ـ ٤٨٧٧) والنسائى فى التفسير (٥٧٧) . والدرع : هو قميص من حلقات من الحديد متشابكة يلبس فى الحروب .

(٢) أحمد ٢ / ٤٤٤ ، ٤٧٦ ومسلم فى القدر (٢٦٥٦ / ١٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٠) وابن ماجة فى المقدمة (٨٣) .

(٣) مسلم فى القدر (٢٦٥٥ / ١٨) .

تفسير سورة الرحمن

هى ست وسبعون آية . وهى مكية . قال القرطبى : كلها ، فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وجابر، قال : قال ابن عباس : إلا آية منها . وهى قوله : ﴿ **يسأله من فى السموات والأرض** ﴾ الآية . وقال ابن مسعود ومقاتل :هى مدنية كلها والأول أصح ، ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بمكة .وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبيرقال : أنزل بمكة سورة الرحمن . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة الرحمن . علم القرآن بمكة.وأخرج أحمد وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن أسماء بنت أبى بكرقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون:﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾[1].ويؤيد القول الثانى ما أخرجه ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بالمدينة ، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة .

وأخرج الترمذى وابن المنذر، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوّلها إلى آخرها فسكتوا ، فقال: « مالى أراكم سكوتا لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ ، فكانوا أحسن مردودا منكم ،كلما أتيت على قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قالوا : لا شىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . وحكى عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير . وقال البزار : لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه[2] . وأخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه من حديث ابن عمر ، وصحح السيوطى إسناده ، وقال البزار : لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد [3] ، وأخرج البيهقى فى الشعب عن علىّ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لكل شىء عروس ، وعروس القرآن الرحمن » [4] .

---

(١) أحمد ٦ / ٣٤٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ : « وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٩١) وصححه الحاكم ٢ / ٢٧٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى . والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٣٢ وفى الشعب (٢٢٦٤) ورجاله ثقات .

(٣) ابن جرير ٢٧ / ٧٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ : « رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبى وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » والخطيب فى تاريخه ٤ / ٣٠١ .

(٤) البيهقى فى الشعب (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف لضعف على بن الحسين بن جعفر ، وأحمد بن الحسن بن على ابن الحسين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ ﴾ .

قوله: ﴿ **الرحمن . علم القرآن** ﴾ ارتفاع الرحمن على أنه مبتدأ وما بعده من الأفعال أخبار له ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى الله الرحمن . قال الزجاج : معنى ﴿ **علم القرآن** ﴾ يسره . قال الكلبى : علم القرآن محمدًا وعلمه محمد أمته . وقيل : جعله علامة لما يعبد الناس به ، قيل : نزلت هذه الآية جوابًا لأهل مكة حين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : ١٠٣] . وقيل : جوابا لقولهم : وما الرحمن ؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التى أنعم بها على عباده قدم النعمة التى هى أجلها قدرا ، وأكثرها نفعا ، وأتمها فائدة ، وأعظمها عائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن ؛ فإنها مدار سعادة الدارين ، وقطب رحى الخيرين ، وعماد الأمرين . ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال : ﴿ **خلق الإنسان** ﴾ ثم امتنّ ثالثا بتعليمه البيان الذى يكون به التفاهم ويدور عليه التخاطب ، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد ، لأنه لا يمكن إبراز ما فى الضمائر ولا إظهار ما يدور فى الخلد إلا به . قال قتادة والحسن : المراد بالإنسان آدم ، والمراد بالبيان : أسماء كلّ شىء . وقيل المراد به : اللغات . وقال ابن كيسان : المراد بالإنسان ها هنا : محمد ﷺ ، وبالبيان : بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال ، وهو بعيد . وقال الضحاك : البيان: الخير والشرّ . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره . وقيل البيان : الكتابة بالقلم . والأولى حمل الإنسان على الجنس ، وحمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم الذى يتكلمون به . ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ أى يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها ، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين . قال قتادة وأبو مالك : يجريان بحسبان فى منازل لا يعدوانها

ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب ، لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا . وقال الضحاك : معنى ﴿ **بحسبان** ﴾ : بقدر ، وقال مجاهد : بحسبان كحسبان الرحى ، يعنى : قطبهما الذى يدوران عليه . قال الأخفش : الحسبان جماعة الحساب، مثل شهب وشهبان ، وأما الحسبان بالضمّ فهو العذاب كما مضى فى سورة الكهف . ﴿**والنجم والشجر يسجدان** ﴾ النجم: ما لا ساق له من النبات ، والشجر ماله ساق ، قال الشاعر :

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه وتمّ بـه حيـا تميـم ووائـل

وقال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحى ما به حبك

والمراد بسجودهما : انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حين ينكسر الفىء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما فى قوله: ﴿يتفيؤ ظلاله ﴾ [النحل: ٤٨] وقال الحسن ومجاهد : المراد بالنجم : نجم السماء ، وسجوده : طلوعه ، ورجح هذا ابن جرير . وقيل : سجوده : أفوله ، وسجود الشجر : تمكينها من الاجتناء لثمارها . قال النحاس : أصل السجود الاستسلام والانقياد لله ، وهذه الجملة والتى قبلها خبران آخران للرحمن ، وترك الرابط فيهما لظهوره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له . ﴿**والسماء رفعها** ﴾ قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء ، والمعنى : أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض ﴿ **ووضع الميزان** ﴾ المراد بالميزان : العدل ، أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به ، كذا قال مجاهد وقتادة والسدّى وغيرهم . قال الزجاج : المعنى: أنه أمرنا بالعدل ويدل عليه قوله: ﴿ **ألا تطغوا فى الميزان** ﴾ أى لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن والضحاك: المراد به: آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف. وقيل: الميزان : القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وبه قال الحسين بن الفضل ، والأوّل أولى .

ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم فقال : ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط** ﴾ أى قوّموا وزنكم بالعدل . وقيل : المعنى : أقيموا لسان الميزان بالعدل . وقيل : المعنى : أنه وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال . و « أن » فى قوله : ﴿ **ألا تطغوا** ﴾ مصدرية ، أى لئلا تطغوا ، و « لا » نافية ، أى وضع الميزان لئلا تطغوا ، وقيل : هى مفسرة؛ لأن فى الوضع معنى القول ، والطغيان : مجاوزة الحد ، فمن قال : الميزان : العدل ، قال : طغيانه الجور ، ومن قال : الميزان : الآلة التى يوزن بها ، قال : طغيانه: البخس ﴿ **ولا تخسروا الميزان** ﴾ أى لا تنقصوه ، أمر سبحانه أوّلا بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو المجاوزة للحد بالزيادة ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس . قرأ الجمهور :

﴿**تخسروا** ﴾ بضم التاء وكسر السين من أخسر ، وقرأ بلال بن أبى برزة وأبان بن عثمان وزيد ابن على بفتح التاء والسين من خسر ، وهما لغتان : يقال : أخسرت الميزان وخسرته .

ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال : ﴿ **والأرض وضعها للأنام**﴾ أى بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة ، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ. قرأ الجمهور بنصب ﴿**الأرض**﴾ على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة : ﴿ **فيها فاكهة** ﴾ فى محل نصب على أنها حال من الأرض مقدّرة . وقيل : مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التى قبلها ، والمراد بها كل ما يتفكه به من أنواع الثمار . ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال : ﴿ **والنخل ذات الأكمام** ﴾ الأكمام جمع كم بالكسر ، وهو وعاء التمر . قال الجوهرى : والكم بالكسر ، والكمامة : وعاء الطلع وغطاء التنور ، والجمع كمام وأكمة وأكمام. قال الحسن :﴿ **ذات الأكمام** ﴾: أى ذات الليف ، فإن النخلة تكم بالليف وكمامها ليفها ،وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق ، وقال عكرمة : ذات الأحمال . ﴿ **والحبّ ذو العصف والريحان** ﴾ الحبّ : هو جميع مايقتات من الحبوب والعصف . قال السدّى والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أوّل ما ينبت به. قال ابن كيسان : يبدو أولاً ورقا ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكماما ، ثم يحدث فى الأكمام الحب . قال الفراء : والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال فى الصحاح . وقال الحسن : العَصْفُ : التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع . وقيل : هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله : ﴿ **كعصف مأكول**﴾ [الفيل : ٥] وقيل : هو الزرع الكثير ، يقال : قد أعصف الزرع ومكان معصف ، أى كثير الزرع ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

إذا جمادى منعت قطرها زان جنابى عطن معصف

والريحان : الورق فى قول الأكثر . وقال الحسن وقتادة والضحاك وابن زيد : إنه الريحان الذى يشم ، وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق ، وقال الكلبى : إن العصف : هو الورق الذى لا يؤكل ، والريحان : هو الحب المأكول ، وقال الفراء أيضا : العصف : المأكول من الزرع ، والريحان : ما لا يؤكل ، وقيل : الريحان : كل بقلة طيبة الريح . قال ابن الأعرابى ؛ يقال: شىء ريحانى وروحانى ، أى له روح : وقال فى الصحاح : الريحان : نبت معروف ، والريحان : الرزق، تقول : خرجت أبتغى ريحان الله . قال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

وقيل العصف : رزق البهائم ، والريحان : رزق الناس ، قرأ الجمهور : ﴿ **والحبّ ذو العصف والريحان** ﴾ برفع الثلاثة عطفا على فاكهة . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة بنصبهما عطفا على إضمار الأرض أو على فعل ، أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان وقرأ حمزة

والكسائى والريحان بالجرّ عطفا على العصف . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ الخطاب للجنّ والإنس ؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما ، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل ، وبهذا قال الجمهور من المفسرين : ويدلّ عليه قوله فيما سيأتى ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ ويدلّ على هذا ما قدّمنا فى فاتحة هذه السورة أن النبى ﷺ قرأها على الجنّ والإنس . وقيل : الخطاب للإنس ، وثناه على قاعدة العرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدّمنا فى قوله : ﴿ ألقيا فى جهنم ﴾ [ق : ٢٤] والآلاء : النعم. قال القرطبى : وهو قول جميع المفسرين، واحدها « إلى » مثل معى وعصى ، وقال ابن زيد : إنها القدرة ، أى فبأى قدرة ربكما تكذبان ، وبه قال الكلبى ، وكررّ سبحانه هذه الآية فى هذه السورة تقريرًا للنعمة وتأكيدًا للتذكير بها على عادة العرب فى الاتساع . قال القتيبى : إن الله عدّد فى هذه السورة نعماءه ،وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررّهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك ، وهو يكفره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلا فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن فى مثل هذا ، ومنه قول الشاعر :

لا تقتلى رجلا إن كنت مسلمة ... إيـاك من دمه إيـاك إياك

قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار** ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير ، وهو السماء والأرض وما فيهما ، ذكر خلق العالم الصغير ، والمراد بالإنسان هنا : آدم . قال القرطبى : باتفاق من أهل التأويل ، ولا يبعد أن يراد الجنس لأن بنى آدم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم ، والصلصال : الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة . وقيل : هو طين خلط برمل . وقيل : هو الطين المنتن ، يقال: صلّ اللحم وأصلّ إذا أنتن ، وقد تقدم بيانه فى سورة الحجر، والفخار : الخزف الذى طبخ بالنار ، والمعنى : أنه خلق الإنسان من طين يشبه فى يبسه الخزف .﴿ **وخلق الجانّ من مارج من نار** ﴾ يعنى :خلق أبا الجنّ أو جنس الجنّ من مارج من نار ، والمارج : اللهب الصافى من النار . وقيل : الخالص منها . وقيل : لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت ، وقال الليث : المارج : الشعلة الصادعة ذات اللهب الشديد . قال المبرد : المارج : النار المرسلة التى لا تمنع ، وقال أبو عبيدة : المارج : خلط النار ، من مرج إذا اختلط واضطرب . قال الجوهرى : مارج من نار: نار لا دخان لها خلق منها الجانّ ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنه أنعم عليكما فى تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى .

﴿ **رب المشرقين وربّ المغربين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ ربّ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو ربّ المشرقين والمغربين . وقيل : مبتدأ وخبره : ﴿ **مرج البحرين** ﴾ وما بينهما اعتراض ، والأول أولى ، والمراد بالمشرقين: مشرقا الشتاء والصيف ، وبالمغربين مغرباهما . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن فى ذلك من النعم ما لا يحصى ولا يتيسر لمن

أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده . ﴿ **مرج البحرين يلتقيان** ﴾ المرج : التخلية والإرسال، يقال : مرجت الدابة : إذا أرسلتها ، وأصله الإهمال كما تمرج الدابة فى المرعى ، والمعنى: أنه أرسل كل واحد منهما ﴿ **يلتقيان** ﴾ أى يتجاوران لا فصل بينهما فى مرأى العين ، ومع ذلك فلم يختلطا ، ولهذا قال : ﴿**بينهما برزخ** ﴾ أى حاجز يحجز بينهما ﴿ **لا يبغيان** ﴾ أى لا يبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به . قال الحسن وقتادة : هما بحر فارس والروم ، وقال ابن جريج : هما البحر المالح والأنهار العذبة ، وقيل : بحر المشرق والمغرب . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . وقيل : بحر السماء وبحر الأرض . قال سعيد بن جبير : يلتقيان فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما ، وقوله : ﴿ **يلتقيان** ﴾ فى محلّ نصب على الحال من البحرين ، وجملة : ﴿ **بينهما برزخ** ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة ، وأن تكون حالا. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ قرأ الجمهور:﴿ **يخرج** ﴾ بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل ، وقرأ نافع وأبو عمرو بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، واللؤلؤ: الدّر ، والمرجان : الخرز الأحمر المعروف . وقال الفراء : اللؤلؤ العظام ، والمرجان : ما صغر . قال الواحدى : وهو قول جميع أهل اللغة . وقال مقاتل والسدّى ومجاهد : اللؤلؤ: صغاره ، والمرجان :كباره ، وقال : ﴿ **يخرج منهما** ﴾ وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب ؛ لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، كذا قال الزجاج وغيره ، وقال أبو على الفارسى : هو من باب حذف المضاف ، أى من أحدهما لقوله : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] وقال الأخفش : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب ، وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان. وقيل : هما بحر السماء وبحر الأرض ، فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما . ﴿**فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ فإن فى ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه ولا يقدر على إنكاره .

﴿ **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام** ﴾ المراد بالجوار : السفن الجارية فى البحر ، والمنشآت : المرفوعات التى رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت وطالت حتى صارت فى البحر كالأعلام وهى الجبال ، والعلم: الجبل الطويل. وقال قتادة: المنشآت: المخلوقات للجرى ، وقال الأخفش: المنشآت: المجريات ، وقد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة الشورى. قرأ الجمهور : ﴿ **الجوار** ﴾ بكسر الراء وحذف الياء ، لالتقاء الساكنين ، وقرأ ابن مسعود والحسن وأبو عمرو فى رواية عنه برفع الراء تناسيا للحذف ، وقرأ يعقوب بإثبات الياء ، وقرأ الجمهور: ﴿ **المنشآت** ﴾ بفتح الشين ، وقرأ حمزة وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الشين . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ولا إنكاره .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله :﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ قال : بحساب ومنازل يرسلان . وأخرج

الفريابى وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **والأرض وضعها للأنام** ﴾ قال : للناس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : للخلق . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كل شىء فيه روح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿**والنخل ذات الأكمام** ﴾ قال: أوعية الطلع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **والحب ذو العصف** ﴾ قال : التبن ﴿ **والريحان** ﴾ قال : خضرة الزرع . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: ﴿ **العصف** ﴾ ورق الزرع إذا يبس ﴿ **والريحان** ﴾ ما أنبتت الأرض من الريحان الذى يشمّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ﴿ **العصف** ﴾ الزرع أوّل ما يخرج بقلا ﴿**والرّيحان** ﴾ حين يستوى على سوقه ولم يسنبل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كلّ ريحان فى القرآن فهو رزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قال : يعنى : بأىّ نعمة الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : يعنى : الجنّ والإنس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **من مارج من نار** ﴾ قال : من لهب النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : خالص النار .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **ربّ المشرقين وربّ المغربين** ﴾ قال:للشمس مطلع فى الشتاء ،ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف ، ومغرب فى الصيف ، غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : مشرق الفجر ومشرق الشفق . ومغرب الشمس ومغرب الشفق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ قال : أرسل البحرين ﴿ **بينهما برزخ** ﴾ قال حاجز ﴿ **لا يبغيان** ﴾ لا يختلطان . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال: بحر السماء وبحر الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿**بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ قال : بينهما من البعد مالا يبغى كل واحد منهما على صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ قال : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فى البحر أفواهها فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال : المرجان : عظيم اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ : ما عظم منه ، والمرجان : اللؤلؤ الصغار . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن ابن مسعود قال : المرجان : الخرز الأحمر .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ

وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ أى كل من على الأرض من الحيوانات هالك ، وغلب العقلاء على غيرهم فعبر عن الجميع بلفظ من. وقيل : أراد من عليها من الجنّ والإنس ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقد تقدّم فى سورة البقرة بيان معنى هذا . وقيل : معنى ﴿ **يبقى وجه ربك** ﴾ تبقى حجته التى يتقرّب بها إليه ، والجلال : العظمة والكبرياء ، واستحقاق صفات المدح . يقال : جلّ الشأن ، أى عظم، وأجللته ، أى أعظمته ، وهو اسم من جلّ . ومعنى : ذو الإكرام : أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به . وقيل : إنه ذو الإكرام لأوليائه ، والخطاب فى قوله : ﴿ **ربك** ﴾ للنبى ﷺ، أو لكل من يصلح له . قرأ الجمهور : ﴿ **ذو الجلال** ﴾ على أنه صفة لوجه ، وقرأ أبى وابن مسعود : « ذى الجلال » على أنه صفة لربّ . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ وجه النعمة فى فناء الخلق، أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب . وقال مقاتل: وجه النعمة فى فناء الخلق ، التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام .

﴿ **يسأله من فى السموات والأرض** ﴾ أى يسألونه جميعًا ، لأنهم محتاجون إليه لا يستغنى عنه أحد منهم. قال أبوصالح : يسأله أهل السموات المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعًا ، وقال مقاتل : يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة ، وتسأل لهم الملائكة أيضا الرزق والمغفرة ، وكذا قال ابن جريج . وقيل : يسألونه الرحمة . قال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السماء ولا أهل الأرض ، والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال ، أو لسان الحال ، ما يطلبونه من خيرى الدارين ، أو من خيرى إحداهما ﴿ **كل يوم هو فى شأن** ﴾ انتصاب كل بالاستقرار الذى تضمنه الخبر ، والتقدير : استقر سبحانه فى شأن كل وقت من الأوقات، واليوم عبارة عن الوقت ، والشأن هو الأمر ، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم وتباين أغراضهم ، قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى ويميت ، ويرزق ويفقر ، ويعز ويذلّ ، ويمرض ويشفى ،

ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى ، وقيل : المراد باليوم المذكور : هو يوم الدنيا ويوم الآخرة ، قال ابن بحر: الدّهر كله يومان: أحدهما: مدّة أيام الدنيا ، والآخر : يوم القيامة . وقيل : المراد : كل يوم من أيام الدنيا ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها ، ولا يتيسر لمكذّب تكذيبها .﴿ **سنفرغ لكم أيه الثقلان**﴾ هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجنّ والإنس . قال الزجاج والكسائى وابن الأعرابى وأبو على الفارسى: إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل ،ولكن تأويله القصد ، أى سنقصد لحسابكم . قال الواحدى حاكيا عن المفسرين : إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده ، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده : إذن أتفرغ لك ، أى أقصد قصدك ، وفرغ يجىء بمعنى قصد ، وأنشد ابن الأنبارى قول الشاعر [١] :

الان وَقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيرٍ فهذا حينَ كُنْتُ له عَذَابا

يريد : وقد قصدت . وأنشد النحاس قول الشاعر [٢] :

فرغت إلى العبد المقيد فى الحجل

أى قصدت . وقيل : إن الله سبحانه وعد على التقوى وأوعد على المعصية ، ثم قال : سنفرغ لكم مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه ، وبه قال الحسن ومقاتل وابن زيد ، ويكون الكلام على طريق التمثيل . قرأ الجمهور : ﴿**سنفرغ** ﴾ بالنون وضم الراء ، وقرأ حمزة والكسائى بالتحتية مفتوحة مع ضم الرّاء ، أى سيفرغ الله. وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء . قال الكسائى : هى لغة تميم ، وقرأ عيسى الثقفى بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ الأعمش وإبراهيم بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول ، وسمى الجن والإنس ثقلين ، لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض . وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا كما فى قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وجمع فى قوله: ﴿ **لكم** ﴾ ثم قال : ﴿**أيه الثقلان** ﴾ لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع ،قرأ الجمهور: ﴿ **أيه الثقلان** ﴾ بفتح الهاء . وقرأ أهل الشام بضمها . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد من النعم ، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته ، ويزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الذى هو النعيم فى الحقيقة .

﴿ **يا معشر الجنّ والإنس** ﴾ قدّم الجن هنا لكون خلق أبيهم متقدما على خلق آدم ، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس ﴿ **إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض** ﴾ أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض ونواحيها هربا من قضاء الله وقدره ﴿ **فانفذوا**﴾

(١ ، ٢) الشاعر : هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى .

منها وخلصوا أنفسكم ، يقال : نفذ الشيء من الشيء : إذا خلص منه كما يخلص السهم **﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾** أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ، ولا قوّة لكم على ذلك ولا قدرة، والسلطان : القوّة التي يتسلط بها صاحبها على الأمر . والأمر بالنفوذ : أمر تعجيز . قال الضحاك : بينما الناس في أسواقهم إذا انفتحت السماء ونزلت الملائكة فهرب الجنّ والإنس فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله : **﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾** قال ابن المبارك : إن ذلك يكون في الآخرة ، وقال الضحاك أيضا : معنى الآية : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا . وقيل : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، أي ببينة من الله، وقال قتادة: معناها لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : « الباء » بمعنى « إلى » ، أي لا تنفذون إلا إلى سلطان. **﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾** ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسيء عن إساءته ، مع أن من حذّركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة . **﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾** قرأ الجمهور : **﴿ يرسل ﴾** بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ زيد بن عليّ بالنون ونصب « شواظ » والشواظ : اللهب الذي لا دخان معه ، وقال مجاهد : الشواظ : اللهب الأخضر المتقطع من النار . وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب ، وقال الأخفش وأبو عمرو : هو النار والدخان جميعا . قرأ الجمهور : **﴿ شواظ ﴾** بضم الشين ، وقرأ ابن كثير بكسرها وهما لغتان ، وقرأ الجمهور: **﴿ ونحاس ﴾** بالرفع عطفا على شواظ ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو بخفضه عطفا على نار ، وقرأ الجمهور :**﴿ نحاس ﴾** بضم النون ، وقرأ مجاهد وعكرمة وحميد وأبو العالية بكسرها ، وقرأ مسلم بن جندب والحسن: « ونحس » والنحاس: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ، وقال سعيد بن جبير: هو الدخان الذي لا لهب له ،وبه قال الخليل ، وقال الضحاك: هو درديّ الزيت المغلي، وقال الكسائي:هو النار التي لها ريح شديدة . وقيل: هو المهل **﴿ فلا تنتصران ﴾** أي لا تقدران على الامتناع من عذاب الله **﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾** فإن من جملتها هذا الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشر والرغوب في الخير .

﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أي انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة **﴿ فكانت وردة كالدهان﴾** أي كوردة حمراء . قال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى : فكانت حمراء . وقيل : فكانت كلون الفرس الورد ، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة ، قال الفراء وأبو عبيدة : تصير السماء كالأديم لشدّة حرّ النار ، وقال الفراء أيضا : شبه تلوّن السماء بتلون الورد من الخيل ، وشبه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، والدهان جمع دهن ، وقيل : المعنى : تصير السماء في حمرة الورد ، وجريان الدهن ، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدهن لذوبانها ، وقيل : الدهان الجلد الأحمر ، وقال

الحسن : ﴿ **كالدهان** ﴾ أى كصبيب الدهن . فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا . وقال زيد بن أسلم : إنها تصير كعصير الزيت . قال الزجاج : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردى : وزعم المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر. ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ أى يوم تشقق السماء ، لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه ، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم ، والجمع بين هذه الآية وبين مثل قوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ [الحجر : ٩٢] أن ما هنا يكون فى موقف والسؤال فى موقف آخر من موقف القيامة وقيل : إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم ، لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد ، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع، ومثله هذه الآية قوله :﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : ٧٨] قال أبو العالية: المعنى : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ، وقيل : إن عدم السؤال هو عند البعث ، والسؤال هو فى موقف الحساب ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد .

﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيما: العلامة . قال الحسن: سيماهم سواد الوجوه وزرقة الأعين ، كما فى قوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ [طه : ١٠٢] وقال : ﴿ يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقيل : سيماهم ما يعلوهم من الحزن والكآبة ﴿ **فيؤخذ بالنواصى والأقدام** ﴾ الجار والمجرور فى محل رفع على أنه النائب ، والنواصى : شعور مقدم الرؤوس. والمعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصى ، وتلقيهم الملائكة فى النار . قال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه فى سلسلة من وراء ظهره . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بنواصيهم وتجرّهم على وجوههم ، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرّهم على رؤوسهم . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد والوعيد البالغ الذى ترجف له القلوب وتضطرب لهوله الأحشاء . ﴿ **هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون** ﴾ أى يقال لهم عند ذلك: هذه جهنم التى تشاهدونها وتنظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون: إنها لا تكون ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصى والأقدام ؟ فقيل : يقال لهم : هذه جهنم ، تقريعًا لهم وتوبيخًا . ﴿ **يطوفون بينها** ﴾ أى بين جهنم فتحرقهم ﴿ **وبين حميم آن** ﴾ فتصبّ على وجوههم ، والحميم :الماء الحار ، والآن : الذى قد انتهى حرّه وبلغ غايته ، كذا قال الفراء . قال الزجاج : أنى يأنى أنى فهو آن : إذا انتهى فى النضج والحرارة . ومنه قول النابغة الذبيانى :

وتخضب لحية غدرت وخانت   بأحمر من نجيع الجوف آن

وقيل : هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار ، فيغمسون فيه . قال قتادة : يطوفون مرّة فى الحميم ، ومرّة بين الجحيم . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف وما يحصل به من الترغيب فى الخير والترهيب عن الشرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذو الجلال والإكرام** ﴾ قال : ذو الكبرياء والعظمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿**يسأله من فى السموات** ﴾ قال : مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو فى ذلك . وأخرج الحسن بن سفيان فى مسنده ، والبزار وابن جرير والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم وابن عساكر عن عبد الله بن منيب قال : تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **كل يوم هو فى شأن** ﴾ فقلنا : يا رسول الله ، وماذلك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين » [١] . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن ماجة وابن أبى عاصم والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر ، والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى الآية قال : « من شأنه أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين » زاد البزار : « ويجيب داعيًا » وقد رواه البخارى تعليقا ، وجعله من كلام أبى الدرداء [٢] . وأخرج البزار عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى الآية قال : « يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿**سنفرغ لكم أيه الثقلان** ﴾ قال : هذا وعيد من الله لعباده ، وليس بالله شغل ، وفى قوله :﴿ **لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ يقول : لا تخرجون من سلطانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار**﴾ قال : لهب النار ﴿ **ونحاس** ﴾ قال : دخان النار . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ونحاس : قال الصفر يعذبون به. وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **فكانت وردة** ﴾ يقول حمراء ﴿ **كالدهان** ﴾ قال : هو الأديم الأحمر . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿**فكانت وردة كالدهان** ﴾ قال : مثل لون الفرس الورد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ قال : لا يسألهم :هل عملتم كذا وكذا ؟ ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم : لم عملتم كذا وكذا ؟ . وأخرج

---

(١) ابن جرير ٢٧ / ٧٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبزار ، وفيه من لم أعرفهم » .

(٢) البخارى تعليقا وموقوفا ٨ / ٦٢٠ وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٢) وفى الزوائد : « إسناده حسن » وابن جرير ٢٧ / ٧٩ وابن حبان (٦٨٨) والبيهقى فى الشعب (١٠٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٠ ، ١٢١ : « روى ابن ماجة إلى قوله ، ويجيب داعيا ، وفيه الوزير بن صبيح ولم أعرفه » .

ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور عنه أيضًا فى قوله : ﴿فيؤخذ بالنواصى والأقدام﴾ قال : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال هو الذى انتهى حرّه .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التى أنعم بها عليهم . فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ مقامه سبحانه هو الموقف الذى يقف فيه العباد للحساب ، كما فى قوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [المطففين : ٦] فالمقام مصدر بمعنى القيام . وقيل : المعنى خاف قيام ربه عليه ، وهو إشرافه على أحواله واطلاعه على أفعاله وأقواله كما فى قوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد: ٣٣] قال مجاهد والنخعى : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

واختلف فى الجنتين ، فقال مقاتل : يعنى : جنة عدن ، وجنة النعيم . وقيل : إحداهما التى خلقت له والأخرى ورثها. وقيل : إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه . وقيل : إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقيل :جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى. وقيل : جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية . وقيل : جنة للعقيدة التى يعتقدها ،

والأخرى للعمل الذى يعمله . وقيل : جنة بالعمل وجنة بالتفضل . وقيل : جنة روحانية وجنة جسمانية . وقيل : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته ، وقال الفرّاء : إنما هى جنة واحدة ، والتثنية لأجل موافقة الآى . قال النحاس : وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله . فإن الله يقول : ﴿ جنتان ﴾ ويصفهما بقوله : ﴿ فيهما ﴾ إلخ . ﴿**فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة ، وهى إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ هذه صفة للجنتين ، وما بينهما اعتراض ، والأفنان: الأغصان ، واحدها: فنن وهو الغصن المستقيم طولا ، وبهذا قال مجاهد وعكرمة وعطية وغيرهم ، وقال الزجاج : الأفنان : الألوان ، واحدها : فنّ ، وهو الضرب من كل شيء ، وبه قال عطاء وسعيد بن جبير ، وجمع عطاء بين القولين ، فقال : فى كل غصن فنون من الفاكهة ، ومن إطلاق الفنن على الغصون قول النابغة :

دعـاء حمامــةٍ تَدْعــو هَدِيــلاً مُفَجَّعَــةٍ عــلى فَنَنٍ تُغَنــى

وقول الآخر :

ما هاجَ شُوْقُكَ مِن هَديل حَمامةٍ تَدْعو عَلَى فَنَنِ الغُصون حمَامَا

وقيل : معنى ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ ، ذواتا فضل وسعة على ما سواهما ، قاله قتادة . وقيل : الأفنان : ظلّ الأغصان على الحيطان ، روى هذا عن مجاهد وعكرمة . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن كل منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار. ﴿ **فيهما عينان تجريان** ﴾ هذا أيضا صفة أخرى لـ ﴿ **جنتان** ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال الحسن : إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : كل واحدة منهما مثل الدنيا أضعافا مضاعفة .﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة فى الجنة لأهل السعادة . ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ هذا صفة ثالثة لجنتان ، والزوجان : الصنفان والنوعان ، والمعنى : إن فى الجنتين من كلّ نوع يتفكه به ضربين ،يستلذ بكل نوع من أنواعه . قيل : أحد الصنفين رطب والآخر يابس لا يقصر أحدهما عن الآخر فى الفضل والطيب ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن فى مجرد تعداد هذه النعم ووصفها فى هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير ، والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم ، وتلك نعمة عظمى ومنة كبرى ، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه ؟! ﴿ **متكئين على فرش بطائنها من إستبرق** ﴾ انتصاب ﴿ **متكئين** ﴾ على الحال من فاعل قوله : ﴿ **ولمن خاف** ﴾ وإنما جمع ؛حملا على معنى من. وقيل : عاملها محذوف، والتقدير : يتنعمون متكئين .وقيل : منصوب على المدح ، والفرش جمع فرش ، والبطائن : هى التى تحت الظهائر ، وهى جمع بطانة ، قال الزجاج : هى ما يلى الأرض ، والإستبرق :

ما غلظ من الديباج ، وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر ؟ قيل : لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ [السجدة : ١٧] قيل : إنما اقتصر على ذكر البطائن ، لأنه لم يكن أحد فى الأرض يعرف ما فى الظهائر . وقال الحسن : بطائنها من إستبرق وظهائرها من نور جامد ، وقال الحسن : البطائن هى الظهائر ، وبه قال الفراء : وقال : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة ؛ لأنّ كل واحد منهما يكون وجها ، والعرب تقول : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء لظاهرها الذى نراه ، وأنكر ابن قتيبة هذا ، وقال : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين ﴿ **وجنى الجنتين دان** ﴾ مبتدأ وخبر ، والجنى : ما يجتنى من الثمار ، قيل : إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها . ومنه قول الشاعر :

هذا جَنَاى وخيَاره فيه ... إذْ كلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فِيه

قرأ الجمهور ﴿ **فرش** ﴾ بضمتين ، وقرأ أبوحيوة بضمة وسكون ، وقرأ الجمهور : ﴿**جنى**﴾ بفتح الجيم ، وقرأ عيسى بن عمر بكسرها ، وقرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة. ﴿ **فبأىّ آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكذب بشىء منها لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة والآجلة . ﴿ **فيهن قاصرات الطرف** ﴾ أى فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال : ﴿ **فيهنّ** ﴾ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل : ﴿**فيهنّ** ﴾ أى فى الفرش التى بطائنها من إستبرق ، ومعنى ﴿ **قاصرات الطرف** ﴾ أنهن يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة الصافات . ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾ قال الفراء : الطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتَّدمية ، يقال : طمث الجارية : إذا افتضها . قال الواحدى : قال المفسرون : لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن قبلهم أحد . قال مقاتل : لأنهن خلقن فى الجنة ، والضمير فى ﴿ **قبلهم** ﴾ يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف . وقيل : يعود إلى متكئين ، والجملة فى محل رفع صفة لقاصرات ؛ لأن إضافتها لفظية . وقيل : الطمث: المسّ ، أى لم يمسسهنّ . قاله أبو عمرو . وقال المبرد : أى لم يذللهنّ ، والطمث التذليل ، ومن استعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق :

دفعن إلىَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِى ... وهنّ أصَح مِنْ بيض النَّعام

قرأ الجمهور : ﴿ **يطمثهن** ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الكسائى بضمها ، وقرأ الجحدرى وطلحة ابن مصرف بفتحها . وفى هذه الآية بل فى كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه وعملوا بفرائضه ، وانتهوا عن مناهيه . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ فإن فى مجرّد هذا الترغيب فى هذه النعم نعمة جليلة ومنة عظيمة لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة والفرار من الأعمال الطالحة ، فكيف بالوصول إلى هذه النعم والتنعم بها فى

جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال . ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ هذه صفة لقاصرات ، أو حال منهنّ ، شبههنّ سبحانه فى صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان ، والياقوت :هو الحجر المعروف ، والمرجان قد قدمنا الكلام فيه فى هذه السورة على الخلاف فى كونه صغار الدر، أو الأحمر المعروف . قال الحسن :هنّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ ، لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت ، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة ؟. ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى ما جزاء من أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليه فى الآخرة ، كذا قال ابن زيد وغيره ، قال عكرمة : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ؟. وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت إليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد ؟ قال الرازى : فى هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل : إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول : إحداها : قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] وثانيها:﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ [الإسراء: ٨] وثالثها : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال محمد بن الحنفية : هى للبرّ والفاجر ، البرّ فى الآخرة، والفاجر فى الدنيا . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم فى الدنيا والآخرة بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح ، والزجر عن العمل الذى لا يرضاه .

﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ أى ومن دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة . ومعنى ﴿ **من دونهما** ﴾ أى من أمامهما ومن قبلهما ، أى هما أقرب منهما وأدنى إلى العرش. وقيل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى . قال ابن جريج: هى أربع جنات : جنتان منهما للسابقين المقرّبين ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ و﴿ **عينان تجريان** ﴾ وجنتان لأصحاب اليمين ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ و﴿ **فيهما عينان نضاختان** ﴾ : قال ابن زيد : إن الأولين من ذهب للمقربين ، والأخرين من ورق لأصحاب اليمين . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها كلها حق ونعم لا يمكن جحدها . ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال : ﴿ **مدهامتان** ﴾ وما بينهما اعتراض . قال أبو عبيدة والزجاج : من خضرتهما قد اسودتا من الرى ، وكل ما علاه السواد ريا فهو مدهم . قال مجاهد : مسودّتان ، والدهمة فى اللغة : السواد ، يقال : فرس أدهم وبعير أدهم : إذا اشتدت ورقته حتى ذهب البياض الذى فيه . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر . ﴿**فيهما عينان نضاختان** ﴾ النضخ : فوران الماء من العين ، والمعنى : أن فى الجنتين المذكورتين عينين فوارتين. قال أهل اللغة : والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة . قال الحسن ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضخ رش

المطر . وقال سعيد بن جبير : إنها تنضخ بأنواع الفاكهة والماء. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب ولا بمكان للجحد .

﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا ، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه كما حكاه الزجاج والأزهرى وغيرهما . وقيل: إنما خصهما لكثرتهما فى أرض العرب. وقيل : خصهما لأن النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم ، ولم يخالف فى ذلك إلا أبو حنيفة ، وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن من جملتها هذه النعم التى هى جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها أثر فى نفوس السامعين وتجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **خيرات** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ قتادة وابن السميفع وأبو رجاء العطاردى وبكر بن حبيب السهمى وابن مقسم والنهدى بالتشديد ، فعلى القراءة الأولى هى جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين ، يقال : امرأة خيرة وأخرى شرّة ، أو جمع خيرة مخفف خيرة . وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد ، قال الواحدى : قال المفسرون : الخيرات : النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، قيل : وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع ، ولا وجه لهذا فإنه قد وصف نساء الجنتين الأولين بأنهن قاصرات الطرف .﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ وبين الصفتين بون بعيد . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن شيئا منها كائنا ما كان لا يقبل التكذيب.

﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾ أى محبوسات ، ومنه القصر ، لأنه يحبس من فيه ، والحور: جمع حوراء وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها . وقد تقدم بيان معنى الحوراء والخلاف فيه . وقيل : معنى ﴿**مقصورات**﴾: أنهنّ قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، وحكاه الواحدى عن المفسرين ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة ومقاتل وغيرهما ، قال فى الصحاح : قصرت الشىء أقصره قصرا حبسته ، والمعنى : أنهن خدّرن فى الخيام ، والخيام: جمع خيمة . وقيل : جمع خيم ، والخيم : جمع خيمة ، وهى أعواد تنصب وتظلل بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية . قيل: الخيمة من خيام الجنة درّة مجّوفة ، فرسخ فى فرسخ ، وارتفاع ﴿ **حور** ﴾ على البدلية من خيرات ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان**﴾ قد تقدّم تفسيره فى صفة الجنتين الأولين ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر ومنن لا تجحد .

﴿ **متكئين على رفرف خضر** ﴾ انتصاب ﴿ **متكئين** ﴾ على الحال أو المدح كما سبق ، قال أبو عبيدة : الرفارف : البسط ، وبه قال الحسن ومقاتل والضحاك وغيرهم ، وقال ابن عيينة : هى الزرابى . وقال ابن كيسان: هى المرافق . وروى عن أبى عبيدة أنه قال : هى حاشية

الثوب، وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر ، وقيل : الفرش المرتفعة . وقيل: كل ثوب عريض . قال فى الصحاح : والرفرف : ثياب خضر يتخذ منها المحابس، والواحدة رفرفة . وقال الزجاج : قالوا الرفرف هنا رياض الجنة ، وقالوا : الرّفرف: الوسائد ، وقالوا : الرفرف: المحابس. ا .هـ . ومن القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير ، واشتقاق الرفرف من رفّ يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر، وهى تحريك جناحيه فى الهواء .قرأ الجمهور: ﴿**رفرف**﴾ على الإفراد ، وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدرى : « رفارف » على الجمع ﴿ **وعبقرى حسان** ﴾ العبقرىّ : الزرابى ، والطنافس الموشية . قال أبو عبيدة: كل وشى من البسط : عبقرىّ ، وهو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى . قال الفرّاء : العبقرى : الطنافس الثمان، وقيل : الزرابى . وقيل : البسط . وقيل : الديباج ، قال ابن الأنبارى : الأصل فيه أن عبقر: قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق ، قال الخليل : العبقرىّ عند العرب : كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء ، ومنه قول زهير :

بَخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ ... جَديرون يومًا أنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا

قال الجوهرىّ : العبقر موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن . قال لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر

ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا : عبقرىّ ، وهو واحد وجمع ، قرأ الجمهور : ﴿ **عبقرىّ** ﴾ وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدرى : «عباقرىّ » وقرئ : « عباقر » وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد . وقال قطرب : ليس بمنسوب ، وهو مثل كرسىّ وكراسى وبختى وبخاتى . قرأ الجمهور : ﴿ **خضر** ﴾ بضم الخاء وسكون الضاد ، وقرئ بضمهما وهى لغة قليلة . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرق إليه التكذيب ، وأعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر ، وقد قدمنا فى أول هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده . ﴿ **تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾ تبارك : تفاعل من البركة . قال الرازى : وأصل التبارك من التبرّك ، وهو الدوام والثبات ، ومنه برك البعير ، وبركة الماء فإن الماء يكون دائما ، والمعنى : دام اسمه وثبت ، أو دام الخير عنده ، لأن البركة وإن كانت من الثياب لكنها تستعمل فى الخير ، أو أن يكون معناه : علا وارتفع شأنه . وقيل : معناه : تنزيه الله سبحانه وتقديسه ، وإذا كان هذا التبارك منسوبا إلى اسمه عزّ وجلّ ، فما ظنك بذاته سبحانه ؟ وقيل : الاسم بمعنى الصفة. وقيل : هو مقحم كما فى قول الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقد تقدم تفسير ﴿ **ذى الجلال والإكرام** ﴾ فى هذه السورة . قرأ الجمهور : ﴿ **ذى الجلال**﴾ على أنه صفة للرب سبحانه ، وقرأ ابن عامر « ذو الجلال » على أنه صفة لاسم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف : من ركب طاعة الله وترك معصيته . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن عطاء أنها نزلت فى أبى بكر . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب مثله . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى الآية قال : لمن خافه فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم فى نوادر الأصول ، والنسائى [(١)] والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء ؛ أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية :﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ الثانية : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق؟ فقال الثالثة : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « نعم وإن رغم أنف أبى الدّرداء » [(٢)] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقال أبو الدرداء : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبى الدّرداء » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبى الدّرداء فى قوله : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال : قيل لأبى الدرداء : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق . وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبد الملك فقال : قال أبوهريرة : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال أبو هريرة : وإن زنى وإن سرق ؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « جنان الفردوس أربع جنات : جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة حليتهما وأبنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » [(٣)] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى موسى عن النبىّ ﷺ فى قوله :

---

(١) فى المخطوطة « والحاكم والترمذى والنسائى » والصحيح ما أثبتناه من الدرالمنثور ٦ / ١٤٦ كما لم يذكر المزى (١٠٩٥٤) راويا للحديث إلا النسائى .

(٢) أحمد ٢ / ٣٥٧ والنسائى فى التفسير (٥٨٠) وابن جرير ٢٧ / ٨٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢١ : «رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية ٣ / ٣٨٢ وقال البوصيرى : « رواته ثقات » .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٧٨) وفى التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم فى الإيمان (١٨٠ / ٢٩٦) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٨) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٦) .

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وفى قوله : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ قال : « جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى موسى فى قوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : ذواتا ألوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : فنّ غصونها يمس بعضها بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : الفنّ الغصن ، وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم ،والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف بالظهائر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه قيل له : بطائنها من إستبرق ، فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله :﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : ١٧] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه فى قوله : ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ قال : جناها ثمرها ، والدانى : القريب منك يناله القائم والقاعد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله : ﴿ فيهنّ قاصرات الطرف ﴾ يقول : عن غير أزواجهنّ ﴿ لم يطمثهنّ ﴾ يقول : لم يدن منهنّ أو لم يدمهنّ . وأخرج أحمد وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبى ﷺ : فى قوله : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : «تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب ، وأنه يكون عليها سبعون ثوبا وينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك » (٢) . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد بن السرىّ والترمذى ، وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال: « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها ، وذلك أن الله يقول : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه» (٣) وقد رواه الترمذى موقوفا وقال: هو أصحّ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، وضعفه عن ابن عمر قال :

(١) ابن جرير ٢٧ / ٨٥ .
(٢) أحمد ٣ / ٧٥ وابن حبان (٧٣٥٤) وصححه الحاكم ٢ / ٤٧٥ ، وقال الذهبى : «قلت دراج صاحب عجائب » .
(٣) الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٣) وابن جرير ٢٧ / ٨٨ وابن حبان (٧٣٥٣) .

قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال : « ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » (١) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبغوىّ فى تفسيره ، والديلمى فى مسند الفردوس ، وابن النجار فى تاريخه عن أنس مرفوعا مثله (٢). وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا فى الآية قال : « هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة . وأخرج ابن عدىّ وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى ، والبيهقى فى الشعب وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «أنزل الله علىّ هذه الآية فى سورة الرحمن للكافر والمسلم : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ »(٣). وأخرجه ابن مردويه موقوفا على ابن عباس .

وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مدهامتان** ﴾ قال : هما خضراوان . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : قد اسودّتا من الخضرة من الرّىّ من الماء . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه .وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: سألت النبىّ ﷺ عن قوله : ﴿ **مدهامتان** ﴾ قال : « خضراوان » (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **نضاختان** ﴾ قال : فائضتان . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ينضخان بالماء .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **خيرات حسان** ﴾ قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لامراحات ولا طماحات ولا بخرات ولا دفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حور** ﴾ قال : بيض ﴿ **مقصورات** ﴾ قال :

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٢٥) قال البيهقى : « تفرد به إبراهيم بن محمد الكوفى وهو منكر » .

(٢) البغوى فى التفسير ٤ / ٢٧٦ .

(٣) ابن عدى ٧ / ١٠٤ والبيهقى فى الشعب (١٩٥٤) قال النسائى : « فى السند الهيثم بن عدى الكوفى وهو متروك الحديث» ، وقال أبو داود: « كذاب » وقال الإمام أحمد : « كان صاحب أخبار وتدليس » ، وقال البخارى : « ليس بثقة وكان يكذب » لسان الميزان ٦ / ٢٥٢ .

(٤) الطبرانى (٤٠٧٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢١ :« رواه الطبرانى وفيه واصل بن السائب وهو متروك » .

محبوسات ﴿ **في الخيام** ﴾ قال : في بيوت اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : الحور: سود الحدق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال : « الخيام در مجوف » (١) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ : « الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن » (٢) . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ **متكئين على رفرف** ﴾ قال : فضول المحابس والفرش والبسط . وأخرج عبد بن حميد عن عليّ بن أبي طالب قال : هي فضول المحابس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر ، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن عباس : ﴿ **رفرف خضر** ﴾ قال : المحابس ﴿ **وعبقريّ حسان** ﴾ قال : الزرابي . وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال : الرّفرف : الرياض ، والعبقريّ : الزرابي .

---

(١) ابن جرير ٢٧ / ٩٤ .

(٢) البخاري في التفسير (٤٨٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨ / ٢٣) .

تفسير سورة الواقعة

هى سبع وتسعون ، أوست وتسعون آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء ، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ وقال الكلبى : إنها مكية إلا أربع آيات منها ، وهى : ﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون** ﴾ وقوله : ﴿ **ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين** ﴾ . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس: قال : نزلت سورة الواقعة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن الضريس والحارث بن أبى أسامة وأبو يعلى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا » [(١)] . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال :« سورة الواقعة سورة الغنى فاقرؤوها وعلموها أولادكم » . وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى» [(٢)]. وقد تقدم قوله ﷺ : «شيبتنى هود والواقعة » [(٣)] . ا .هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ الواقعة : اسم للقيامة كالآزفة وغيرها ، وسميت واقعة لأنها

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢٢٦٧ ـ ٢٢٦٩) وإسناده ضعيف .

(٢) الديلمى (٤٠٠٥) .

(٣) سبق تخريجه.

كائنة لا محالة ، أو لقرب وقوعها ، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد وانتصاب إذا بمضمر، أى اذكر وقت وقوع الواقعة ، أو بالنفى المفهوم من قوله : ﴿ **ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ أى لا يكون عند وقوعها تكذيب ، والكاذبة مصدر كالعاقبة ، أى ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً. وقيل : إذا شرطية وجوابها مقدّر ، أى إذا وقعت كان كيت وكيت ، والجواب هذا هو العامل فيها. وقيل : إنها شرطية والعامل فيها الفعل الذى بعدها ، واختار هذا أبو حيان ، وقد سبقه إلى هذا مكّى فقال: والعامل وقعت . قال المفسرون : والواقعة هنا : هى النفخة الآخرة ومعنى الآية : أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا ، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة . قال الزجاج : ليس لوقعتها كاذبة، أى لا يردّها شىء ، وبه قال الحسن وقتادة . وقال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائى : ليس لها تكذيب ، أى لا ينبغى أن يكذب بها أحد . ﴿**خافضة رافعة**﴾ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ ، أى هى خافضة رافعة. وقرأ الحسن وعيسى الثقفى بنصبهما على الحال ، قال عكرمة والسدىّ ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا، ورفعت الصوت فأسمعت من نأى : أى أسمعت القريب والبعيد ، وقال قتادة : خفضت أقواما فى عذاب الله ، ورفعت أقواما إلى طاعة الله ، وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع فى المكان والمكانة والعزّ والإهانة ، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز ، والخافض والرّافع فى الحقيقة هو الله سبحانه .

﴿**إذا رُجَّت الأرض رجا**﴾ أى إذا حرّكت حركة شديدة ، يقال:رجه يرجه رجا إذا حركه، والرجة : الاضطراب، وارتج البحر اضطرب ، قال المفسرون : يرتجّ كما يرتجّ الصبىّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شىء من الجبال وغيرها ، قال قتادة ومقاتل ومجاهد : معنى ﴿ **رجت** ﴾: زلزلت ، والظرف متعلق بقوله : ﴿**خافضة رافعة** ﴾ أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبس الجبال ؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض وينخفض ما هو مرتفع . وقيل: إنه بدل من الظرف الأوّل ذكره الزجاج ، فيكون معنى وقوع الواقعة : هو رج الأرض ، وبس الجبال . ﴿ **وبست الجبال بسا** ﴾ البس : الفت ، يقال : بس الشىء إذا فته حتى يصير فتاتا ، ويقال : بس السويق : إذا لته بالسمن أو بالزيت ، قال مجاهد ومقاتل : المعنى : أن الجبال فتتت فتا . وقال السدّى : كسرت كسرًا . وقال الحسن: قلعت من أصلها ،وقال مجاهد أيضًا: بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت ، والمعنى : أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت ، وقال أبو زيد : البسّ : السوق، والمعنى على هذا : سيقت الجبال سوقا . قال أبو عبيد : بسّ الإبل وأبسها لغتان : إذا زجرها ، وقال عكرمة : المعنى: هدّت هدًا ﴿**فكانت هباء منبثا** ﴾ أى غبارا متفرّقا منتشرا . قال مجاهد : الهباء : الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار ، وقيل: هو الرّهج الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب . وقيل : ما تطاير من النار

إذا اضطرمت على صورة الشرر فإذا وقع لم يكن شيئا ، وقد تقدّم بيانه فى الفرقان عند تفسير قوله : ﴿فجعلناه هباء منثورا﴾ [الفرقان : ١٣] قرأ الجمهور : ﴿منبثا﴾ بالمثلثة ، وقرأ مسروق والنخعى وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق ، أى منقطعا ، من قولهم : بته الله، أى قطعه .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال : ﴿ **وكنتم أزواجا ثلاثة** ﴾ والخطاب لجميع الناس أو للأمة الحاضرة ، والأزواج : الأصناف ، والمعنى: وكنتم فى ذلك اليوم أصنافا ثلاثة. ثم فسر سبحانه هذه الأصناف فقال : ﴿**فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة**﴾ أى أصحاب اليمين ، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، و﴿**أصحاب الميمنة**﴾ مبتدأ وخبره : ﴿ **ما أصحاب الميمنة** ﴾أى أىّ شىء هم فى حالهم وصفتهم. والاستفهام للتعظيم والتفخيم ، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغنى عن الضمير الرّابط ، كما فى قوله : ﴿ الحاقة . ما الحاقة﴾ [الحاقة : ١ ، ٢] و﴿ القارعة . ما القارعة ﴾ [القارعة: ١ ، ٢] ولا يجوز مثل هذا إلا فى مواضع التفخيم والتعظيم والكلام فى ﴿**أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة**﴾ كالكلام فى ﴿ **أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة** ﴾ والمراد : الذى يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم ، والمراد : تعجيب السامع من حال الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل : فأصحاب الميمنة فى نهاية السعادة وحسن الحال، وأصحاب المشأمة فى نهاية الشقاوة وسوء الحال . وقال السدّى : أصحاب الميمنة : هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه ، وأصحاب المشأمة : هم الذين كانوا عن شماله ، وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة : هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة : هم الذين أخذوا من شقه الأيسر . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة : هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة : هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة: هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة : هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة . وقال المبرد : أصحاب الميمنة : أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة: أصحاب التأخر ، والعرب تقول : اجعلنى فى يمينك ، ولا تجعلنى فى شمالك ، أى اجعلنى من المتقدّمين ولا تجعلنى من المتأخرين ، ومنه قول ابن الدمينة :

أبنيتى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم كما مرّ فى القسمين الأوّلين ، كما تقول : أنت أنت وزيد زيد ، والسابقون مبتدأ ، وخبره السابقون ، وفيه تأويلان : أحدهما: أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك ، والثانى : أن متعلق السابقين مختلف ، والتقدير : والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة ، والأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم . قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كلامه . وقال محمد بن كعب : إنهم الأنبياء ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقال مجاهد : هم الذين سبقوا إلى الجهاد ، وبه قال الضحاك،

وقال سعيد بن جبير : هم السابقون إلى التوبة وأعمال البرّ . وقال الزجاج : المعنى : والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله . قيل : ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوّلين هو أن يقترن به ما بعده ، وهو قوله : ﴿ **أولئك المقربون . فى جنات النعيم** ﴾ فالإشارة هى إليهم ، أى المقرّبون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته ، أوالذين قربت درجاتهم وأعليت مراتبهم عند الله ، وقوله : ﴿ **فى جنات النعيم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **المقربون** ﴾ أى مقرّبون عند الله فى جنات النعيم ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لأولئك ، وأن يكون حالا من الضمير فى ﴿**المقربون** ﴾ أى كائنين فيها . قرأ الجمهور :﴿ **فى جنات** ﴾ بالجمع ، وقرأ طلحة بن مصرف : « فى جنة » بالإفراد ، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال : دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل .

وارتفاع ﴿ **ثلة من الأوّلين** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم ثلة ، والثلة : الجماعة التى لا يحصر عددها، قال الزجاج : معنى ثلة معنى فرقة ، من ثللت الشىء : إذا قطعته . والمراد بالأوّلين : هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿ **وقليل من الآخرين** ﴾ أى من هذه الأمة ، وسموا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا . قال الزجاج : الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدّقوا بهم أكثر ممن عاين النبىّ ﷺ ، ولا يخالف هذا ما ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » ، ثم قال : « ثلث أهل الجنة » ، ثم قال: « نصف أهل الجنة » [(١)] ؛ لأن قوله : ﴿ **ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين** ﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى فى ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم ، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة ، والمقابلة بين الثلثين فى أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة كما يقال : هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة ، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة ، وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور .

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال : ﴿ **على سرر موضونة** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **سرر**﴾ بضم السين والراء الأولى ، وقرأ أبو السماك وزيد بن علىّ بفتح الراء ، وهى لغة كما تقدّم والموضونة : المنسوجة ، والوضن : النسيج المضاعف . قال الواحدى : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب . وقيل : مشبكة بالدّر والياقوت والزبرجد . وقيل : إن الموضونة المصفوفة ، وقال مجاهد : الموضونة : المرمولة بالذهب . وانتصاب ﴿ **متكئين عليها**﴾ على الحال ، وكذا انتصاب ﴿ **متقابلين** ﴾ والمعنى : مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٨) وهو جزء من حديث عن أبى سعيد الخدرى .

من المقربين ، أومستأنفة لبيان بعض ما أعدّ الله لهم من النعيم ، والمعنى : يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ولا يتغيرون ، بل شكلهم شكل الولدان دائما ، قال مجاهد : المعنى لا يموتون . وقال الحسن والكلبى : لا يهرمون ولا يتغيرون . قال الفراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط : إنه لمخلد . وقال سعيد بن جبير : مخلدون : مقرطون . قال الفراء : ويقال : مخلدون: مقرطون ، يقال : خلد جاريته: إذا حلاها بالخلدة ،وهى القرطة . وقال عكرمة : مخلدون : منعمون ، ومنه قول امرئ القيس :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل : مستورون بالحلية ، وروى نحوه عن الفراء . ومنه قول الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهنّ أقاوز الكثبان

وقيل : مخلدون : ممنطقون . قيل : هم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقيل : هم أطفال المشركين ، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين فى الجنة للقيام بهذه الخدمة . والأكواب : هى الأقداح المستديرة الأفواه التى لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها فى سورة الزخرف ، والأباريق : هى ذات العرى والخراطيم ، واحدها إبريق ، وهو الذى يبرق لونه من صفائه ، ﴿ **وكأس من معين** ﴾ أى من خمر جارية أو من ماء جار ، والمراد به هاهنا الخمر الجارية من العيون ، وقد تقدّم بيان معنى الكأس فى سورة الصافات . ﴿ **لا يصدّعون عنها** ﴾ أى لا تتصدع رؤوسهم من شرابها كما تتصدع من شرب خمر الدنيا ، والصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الإنسان فى رأسه . وقيل : معنى : ﴿ **لا يصدعون** ﴾ لا يتفرقون كما يتفرق الشراب ، ويقوى هذا المعنى قراءة مجاهد : « يصدعون » بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصل يتصدعون ، أى يتفرقون ، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو فى محل نصب على الحال ، وجملة: ﴿ **ولا ينزفون** ﴾ معطوف على الجملة التى قبلها ، وقد تقدم اختلاف القراء فى هذا الحرف فى سورة الصافات ، وكذلك تقدم تفسيره ، أى لا يسكرون فتذهب عقولهم ، من أنزف الشارب : إذا نفذ عقله أو شرابه . ومنه قول الشاعر :

لعَمْرى لئن أنزفتم أو صَحَوتُمُ لبئس الندامى كنتم آل أبْجَرَا

﴿ **وفاكهة مما يتخيرون** ﴾ أى يختارونه ، يقال : تخيرت الشيء : إذا أخذت خيره ، قرأ الجمهور : ﴿**وفاكهة** ﴾ بالجر وكذا ﴿ **لحم** ﴾ عطفا على ﴿ **أكواب** ﴾ أى يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمفكه به ، وقرأ زيد بن علىّ وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقدّر ، أى ولهم فاكهة ولحم ، ومعنى ﴿ **مما يشتهون** ﴾ : مما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم . ﴿ **وحور عين .كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **حور عين** ﴾ برفعهما عطفا على ولدان أوعلى تقدير مبتدأ ، أى نساؤهم حور عين ، أو على تقدير خبر ، أى ولهم حور عين . وقرأ حمزة والكسائى بجرهما عطفا على أكواب قال الزجاج : وجائز أن يكون عطفا

على جنات ، أى هم فى جنات وفى حور ، على تقدير مضاف محذوف ، أى وفى معاشرة حور . قال الفراء فى توجيه العطف على أكواب : إنه يجوز الجرّ على الاتباع فى اللفظ وإن اختلفا فى المعنى . لأن الحور لا يطاف بهن، كما فى قول الشاعر :

إذا مَا الغانياتُ بَرزنَ يَوْمًا وَزَجَّجن الحوَاجبَ والعيُونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل ، ومن هذا قول الشاعر :

علفتها تبنا وماء باردا

وقول الآخر :

متقلدا سيفا ورمحا

قال قطرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور : ويكون لهم فى ذلك لذة ، وقرأ الأشهب العقيلى والنخعى وعيسى بن عمر بنصبها على تقدير إضمار فعل ،كأنه قيل : ويزوّجون حورا عينا ، أو ويعطون، ورجح أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور ، ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذى لم تمسه الأيدى ولا وقع عليه الغبار ، فهو أشد ما يكون صفاء ، وانتصاب ﴿ **جزاء** ﴾ فى قوله : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ على أنه مفعول له ، أى يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم ، ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لفعل محذوف ، أى يجزون جزاء ، وقد تقدّم تفسير الحور العين فى سورة الطور وغيرها . ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما** ﴾ اللغو : الباطل من الكلام ، والتأثيم : النسبة إلى الإثم ، قال محمد بن كعب : لا يؤثم بعضهم بعضا ، وقال مجاهد : لا يسمعون شتما ولا مأثما ، والمعنى : أنه لا يقول بعضهم لبعض : أثمت ،لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم . ﴿ **إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾ القيل : القول ، والاستثناء منقطع ، أى لكن يقولون قيلا ، أو يسمعون قيلا ، وانتصاب ﴿**سلاما سلاما** ﴾ على أنه بدل من ﴿ **قيلا** ﴾ أو صفة له ، أو هو مفعول به ﴿ **قيلا** ﴾ أى إلا أن يقولوا : سلاما ، واختار هذا الزجاج ، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بـ﴿**قيلا** ﴾ أى إلا قيلا سلموا سلاما سلاما ، والمعنى فى الآية : أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض قال عطاء : يحيى بعضهم بعضا بالسلام . وقيل: إن الاستثناء متصل وهو بعيد ، لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأثيم ، قرئ: « سلام سلام » بالرفع . قال مكى : ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم ، مبتدأ وخبر.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿**إذا وقعت الواقعة** ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ **ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ قال : ليس لها مردّ يردّ ﴿ **خافضة رافعة** ﴾ قال: تخفض ناسا وترفع آخرين . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه ﴿ **خافضة رافعة** ﴾ قال : أسمعت القريب والبعيد. وأخرج ابن أبى حاتم عن عمر ابن الخطاب : ﴿ **خافضة رافعة** ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء

الله إلى الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا رجت الأرض رجا** ﴾ قال : زلزلت ﴿ **وبست الجبال بسا** ﴾ قال : فتتت ﴿ **فكانت هباء منبثا** ﴾ قال : شعاع الشمس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **فكانت هباء منبثا** ﴾ قال : الهباء الذى يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر فإذا وقع لم يكن شيئًا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : الهباء ما يثور مع شعاع الشمس ، وانبثاثه : تفرقه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : الهباء : المنبث : رهج الدواب [١] . والهباء المنثور : غبار الشمس الذى تراه فى شعاع الكوّة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وكنتم أزواجا** ﴾ قال : أصنافا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وكنتم أزواجا ثلاثة** ﴾ قال : هى التى فى سورة الملائكة: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : ٣٢] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا في قوله : ﴿**والسابقون السابقون** ﴾ . قال يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى . وعلى بن أبى طالب سبق إلى رسول الله ﷺ . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذى ذكر فى يس ، وعلىّ بن أبى طالب ، وكل رجل منهم سابق أمته ، وعلىّ أفضلهم سبقا . وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **وأصحاب اليمين . . . وأصحاب الشمال** ﴾ فقبض بيديه قبضتين فقال : « هذه فى الجنة ولا أبالى ، وهذه فى النار ولا أبالى » [٢] . وأخرج أحمد أيضا عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : « الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوا ، وحكموا للناس حكمهم لأنفسهم» [٣] . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت ﴿ **ثلة من الأوّلين . وقليل من الآخرين** ﴾ شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ . فنزلت : ﴿ **ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين** ﴾ فقال النبىّ ﷺ : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث الجنة . بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسموهم النصف الثانى » [٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس : ﴿**على سرر موضونة** ﴾ قال : مصفوفة .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عنه . قال: مرمولة بالذهب . وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، والبزار وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ: « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويا » . وأخرج أحمد والترمذى والضياء عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى

---

(١) رهج الدواب : أى الغبار التى تثيره عند المشى .
(٢) أحمد ٥/ ٢٣٩ .
(٣) أحمد ٦/ ٦٧ .
(٤) أحمد ٢/ ٣٩١ .

شجر الجنة » فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن هذه الطير لناعمة ، قال : « آكلها أنعم منها ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها »[1] . وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ فقال : الذى فى الصرف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا** ﴾ قال : باطلا ﴿ **ولا تأثيما** ﴾ قال : كذبا .

﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)** ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين وما أعده لهم من النعيم المقيم ، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال : ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام، وما فى هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم والتعظيم ، وهى خبر المبتدأ ، وهو أصحاب اليمين ، وقوله : ﴿ **فى سدر مخضود** ﴾ خبرثان أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى سدر مخضود، والسدر : نوع من الشجر ، والمخضود : الذى خضد شوكه ، أى قطع فلا شوك فيه ، قال أمية بن أبى الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق فى الجنان ظليلة ... فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود : الموقر حملا . ﴿ **وطلح منضود** ﴾ قال أكثر المفسرين: إن الطلح فى الآية هو شجر الموز . وقال جماعة : ليس هو شجر الموز ، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب . قال الفراء وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك . قال الزجاج: الطلح هو أمّ غيلان ، ولها نور طيب ، فخوطبوا ووعدوا

---

(١) أحمد ٣/ ٢٢١ والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٤٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

ما يحبون ، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا . قال: ويجوز أن يكون فى الجنة وقد أزيل شوكه . قال السدى : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا ، لكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود : المتراكب الذى قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة . قال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنائها نضيد ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها ﴿ **وظل ممدود** ﴾ أى دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس . قال أبو عبيدة : والعرب تقول لكل شىء طويل لا ينقطع : ممدود ، ومنه قوله : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل** ﴾ [الفرقان : ٤٥] والجنة كلها ظل لا شمس معه ، قال الربيع بن أنس : يعنى : ظل العرش، ومن استعمال العرب للممدود فى الدائم الذى لا ينقطع قول لبيد :

غلب العزاء وكان غير مغلب ... دهـر طويل دائـم ممـدود

﴿ **وماء مسكوب** ﴾ أى منصبّ يجرى بالليل والنهار أينما شاؤوا لا ينقطع عنهم ، فهو مسكوب يسكبه الله فى مجاريه ، وأصل السكب : الصبّ ، يقال: سكبه سكبا أى صبه . ﴿**وفاكهة كثيرة** ﴾ أى ألوان متنوعة متكثرة . ﴿ **لا مقطوعة** ﴾ فى وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا فى بعض الأوقات . ﴿ **ولا ممنوعة** ﴾ أى لا تمتنع على من أرادها فى أى وقت على أىّ صفة ، بل هى معدّة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل ، قال ابن قتيبة : يعنى : أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا . ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ أى مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرة . وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ، وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن والكمال . ﴿ **إنا أنشأناهنّ إنشاء** ﴾ أى خلقناهن خلقا جديدا من غير توالد . وقيل : المراد : نساء بنى آدم ، والمعنى : أن الله سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب ، والنساء وإن لم يتقدم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة عين النساء فمرجع الضمير ظاهر . ﴿ **فجعلناهنّ أبكارا** ﴾ ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان ﴾ [الرحمن : ٥٦] ﴿**عربا أترابا** ﴾ العرب جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها . قال المبرد : هى العاشقة لزوجها ، ومنه قول لبيد:

وفى الخباء عروب غير فاحشة ... ريا الروادف يعشى ضوؤها البصرا

وقال زيد بن أسلم : هى الحسنة الكلام . قرأ الجمهور بضم العين والراء ، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء وهما لغتان فى جمع فعول ، والأتراب : هنّ اللواتى على ميلاد واحد وسنّ واحد ، وقال مجاهد : أترابا أمثالا و أشكالا . وقال السدىّ : أترابا فى الأخلاق لاتباغض بينهن ولا تحاسد . قوله : ﴿ **لأصحاب اليمين**﴾ متعلق بـ﴿**أنشأناهنّ**﴾ أو بجعلنا أو بـ ﴿ **أترابا** ﴾ والمعنى : أن الله أنشأهنّ لأجلهم أو خلقهنّ لأجلهم أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين فى السنّ ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هنّ لأصحاب اليمين ﴿ **ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين** ﴾ هذا راجع إلى قوله : ﴿**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ أى هم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين، والمعنى : أنهم

جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأولين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ، وجماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين وهم أمة محمد ﷺ . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ يعنى : من سابقى هذه الأمة ﴿ **وثلة من الآخرين** ﴾ من هذه الأمة من آخرها .

ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب الشمال وما أعدّه لهم فقال : ﴿**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال** ﴾ الكلام فى إعراب هذا وما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين وقوله : ﴿ **فى سموم وحميم** ﴾ إما خبرثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف ، والسموم : حرّ النار، والحميم : الماء الحار الشديد الحرارة ، وقد سبق بيان معناه . وقيل : السموم : الريح الحارة التى تدخل فى مسامّ البدن . ﴿ **وظلّ من يحموم** ﴾ اليحموم يفعول من الأحم وهو الأسود . والعرب تقول : أسود يحموم : إذا كان شديد السواد، والمعنى : أنهم يفزعون إلى الظلّ فيجدونه ظلا من دخان جهنم شديد السواد . وقيل : وهو مأخوذ من الحم وهو الشحم المسودّ باحتراق النار . وقيل : مأخوذ من الحمم وهو الفحم . قال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود . ثم وصف هذا الظلّ بقوله: ﴿ **لا بارد ولا كريم** ﴾ أى ليس كغيره من الظلال التى تكون باردة ، بل هو حار لأنه دخان نار جهنم ، قال سعيد بن المسيب: ﴿ **ولا كريم** ﴾ أى ليس فيه حسن منظر وكلّ ما لا خير فيه فليس بكريم. وقال الضحاك : ﴿ **ولا كريم** ﴾ : ولا عذب . قال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعا لكلّ شىء ونفت عنه وصفا تنوى به الذم . تقول ما هو بسمين ولا بكريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة . ثم ذكر سبحانه أعمالهم التى استحقوا بها هذا العذاب فقال : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين** ﴾ وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين فى الدنيا أى منعمين بما لا يحل لهم ، والمترف: المتنعم . وقال السدى : مشركين . وقيل : متكبرين ، والأوّل أولى . ﴿ **وكانوا يصرّون على الحنث العظيم**﴾ الحنث : الذنب، أى يصرون على الذنب العظيم . قال الواحدى : قال أهل التفسير : عنى به الشرك ، أى كانوا لا يتوبون عن الشرك ، وبه قال الحسن والضحاك وابن زيد، وقال قتادة ومجاهد: هو الذنب العظيم الذى لا يتوبون عنه. وقال الشعبى : اليمين الغموس . ﴿ **وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾ الهمزة فى الموضعين للإنكار والاستبعاد وقد تقدّم الكلام على هذا فى الصافات ،وفى سورة الرعد ، والمعنى: أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت ، وقد صاروا عظاما وترابا ، والمراد أنه صار لحمهم وجلودهم ترابا وصارت عظامهم نخرة بالية ، والعامل فى الظرف ما يدل عليه مبعوثون ؛ لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله ، أى أنبعث إذا متنا ؟ إلخ . ﴿ **أو آباؤنا الأوّلون** ﴾ معطوف على الضمير فى ﴿ **لمبعوثون** ﴾ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة ، والمعنى: أن بعث آبائهم الأوّلين أبعد لتقدّم موتهم، وقرئ «وآباؤنا» .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويردّ استبعادهم فقال : ﴿ **قل إنّ الأوّلين**

والآخرين . لمجموعون﴾ أى قل لهم يا محمد : إن الأوّلين من الأمم والآخرين منهم الذى أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث ﴿ **إلى ميقات يوم معلوم** ﴾ وهو يوم القيامة . ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون** ﴾ هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول ، وهو معطوف على ﴿ **إن الأولين** ﴾ ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين ، وهما الضلال عن الحق والتكذيب له ﴿**لآكلون من شجر من زقوم** ﴾ أى لآكلون فى الآخرة من شجر كريه المنظر كريه الطعم ، وقد تقدم تفسيره فى سورة الصافات « ومن » الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بيانية ، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة ، والثانية بيانية ، وأن تكون الثانية مزيدة ، والأولى للابتداء . ﴿ **فمالئون منها البطون** ﴾ أى مالئون من شجر الزقوم بطونكم لما يلحقكم من شدة الجوع . ﴿ **فشاربون عليه من الحميم**﴾ الضمير فى ﴿ **عليه** ﴾ عائد إلى الزقوم ، والحميم : الماء الذى قد بلغ حرّه إلى الغاية، والمعنى : فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ ، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكر ويؤنث ، ويجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله : ﴿**لآكلون** ﴾ . وقرئ: « من شجرة » بالإفراد . ﴿ **فشاربون شرب الهيم** ﴾ قرأ الجمهور: « شرب الهيم » بفتح الشين . وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضمها ، وقرأ مجاهد وأبو عثمان النهدى بكسرها ، وهى لغات . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها . قال المبرد : الفتح على أصل المصدر والضم اسم المصدر . والهيم : الإبل العطاش التى لا تروى لداء يصيبها ، وهذه الجملة بيان لما قبلها ، أى لا يكون شربكم شربا معتادا ، بل يكون مثل شرب الهيم التى تعطش ولا تروى بشرب الماء ، ومفرد الهيم أهيم ، والأنثى هيماء ، قال قيس بن الملوّح :

يقـــال بـــه داء الهُيَامِ أصـابه وقد علمت نفسى مكان شفائيا

وقال الضحاك وابن عيينة والأخفش وابن كيسان : الهيم : الأرض السهلة ذات الرمل ، والمعنى : أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ولا يظهر له فيها أثره ، قال فى الصحاح: الهيام بالضم : أشد العطش ، والهيام كالجنون من العشق، والهيام : داء يأخذ الإبل تهيم فى الأرض لا ترعى ، يقال : ناقة هيماء ، والهيماء أيضا : المفازة لاماء بها ، والهيام بالفتح : الرمل الذى لا يتماسك فى اليد للينه ، والجمع هيم مثل قذال وقذل ، والهيام بالكسر الإبل العطاش . ﴿ **هذا نزلهم يوم الدين** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نزلهم** ﴾ بضمتين ، وروى عن أبى عمرو وابن محيصن بضمة وسكون ، وقد تقدّم أن النزل ما يعدّ للضيف ويكون أوّل ما يأكله ، ويوم الدين : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، والمعنى : أن ما ذكر من شجر الزقوم ، وشراب الحميم ، وهو الذى يعدّ لهم ويأكلونه يوم القيامة ، وفى هذا تهكم بهم ، لأن النزل هو ما يعدّ للأضياف تكرمة لهم . ومثل هذا قوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : ٢٤] .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى أمامة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابى يوما فقال : يارسول الله ، ذكر فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها : قال : « وما هى ؟ »

قال: السدر فإن لها شوكا ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ **فى سدر مخضود**﴾؟ يخضد الله شوكه ، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر » (١) . وأخرج ابن أبى داود والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن مردويه عن عتبة بن عبد السلمى قال (٢) : كنت جالسا مع النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يارسول الله : أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها : يعنى الطلح ، فقال رسول الله ﷺ: « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود ـ يعنى : الخصىّ منها ـ فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون آخر» (٣) وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سدر مخضود** ﴾ قال : خضده وقره من الحمل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه قال : المخضود الذى لا شوك فيه . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : المخضود الموقر الذى لا شوك فيه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: ﴿ **وطلح منضود** ﴾ قال : هو الموز . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ: « وطلع منضود » . وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف عن قيس بن عباد قال: قرأت على علىّ بن أبى طالب : ﴿ **وطلح منضود** ﴾ فقال علىّ : ما بال الطلح . أما نقرأ وطلع ؟ ثم قال : ﴿ وطلع نضيد﴾ [ق : ١٠] ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أنحكها فى المصحف ؟ قال : لا يهاج القرآن اليوم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**منضود**﴾ قال : بعضه على بعض .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **وظلّ ممدود**﴾»(٤) وأخرج البخارى وغيره نحوه من حديث أنس (٥) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما نحوه من حديث أبى سعيد(٦) . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، والنسائى وغيرهم عن أبى سعيد

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٦ ووافقه الذهبى .

(٢) فى المطبوعة: « عيينة بن عبد السلمى » وفى المخطوطة « عتبة » وهو ما أثبتناه وفى مجمع الزوائد ١٠ / ٤١٧: (عتبة) وفى الدر المنثور ٦/ ١٥٦: «عقبة » وفى الإصابة ٢/ ٤٩٠ بهما .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ١/ ٤١٧ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٨٨١) ومسلم فى الجنة (٦/٢٨٢٦) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٢) . وهو جزء من حديث .

(٥) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥١) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٣) وقال : «حديث حسن صحيح » .

(٦) البخارى فى الرقاق (٦٥٥٣) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٨ / ٨) .

الخدرى عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : « ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام » (١) . قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى ، ورشدين ضعيف .

وأخرج الفريابى وهناد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ قال : « إن المنشئات التى كنّ فى الدنيا عجائز عمشا رمصا » . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب ، وموسى ويزيد ضعيفان (٢) . وأخرج الطيالسى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وابن قانع ، والبيهقى فى البعث عن سلمة بن يزيد الجعفى سمعت النبى ﷺ يقول فى قوله : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ قال « الثيب والأبكار اللاتى كنّ فى الدنيا» (٣) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : خلقهنّ غير خلقهنّ الأوّل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **أبكارا** ﴾ قال : عذارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عربا** ﴾ قال : عواشق ﴿ **أترابا** ﴾ يقول : مستويات . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **عربا** ﴾ قال : عواشق لأزواجهنّ ، وأزواجهن لهنّ عاشقون ﴿ **أترابا** ﴾ قال : فى سنّ واحد ثلاثا وثلاثين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : العروب : المَلِقَة لزوجها (٤) . وأخرج مسدد فى مسنده ، وابن المنذر والطبرانى، وابن مردويه بسند حسن عن أبى بكرة عن النبىّ ﷺ فى قوله: ﴿ **ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين**﴾ قال : «جميعهما من هذه الأمة » (٥) .

وأخرج أبو داود والطيالسى ومسدّد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى بكرة فى قوله : ﴿ **ثلة من الأوّلين . وثلة من الآخرين** ﴾ قال : هما جميعا من هذه الأمة (٦) . وأخرج الفريابى ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند ضعيف ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **ثلة من الأوّلين . وثلة من الآخرين** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « هما جميعا من أمتى »(٧) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الثلتان جميعا من هذه الأمة .

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٩٤) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٢٩٦) وابن جرير ٢٧ / ١٠٧. والعمش : ضعف البصر ، والرمص : وسخ يكون فوق العين .

(٣) الطيالسى (١٣٠٦) وابن جرير ٢٧/١٠٦ ، ١٠٧ والطبرانى (٦٣٢١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٢٢ : «فيه جابر الجعفى وهو ضعيف» .

(٤) المَلَق : الود واللطف الشديد . لسان العرب ١٠/ ٣٤٧ .

(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٢٠ ، ١٢١ : « رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير على ابن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ » .

(٦) الطيالسى (٨٨١) .

(٧) ابن جرير ٢٧/ ١١٠ .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وظلّ من يحموم** ﴾ قال : من دخان أسود ، وفى لفظ : من دخان جهنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **شرب الهيم** ﴾ قال : الإبل العطاش .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **نحن خلقناكم فلولا تصدقون** ﴾ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتا لهم وإلزاما للحجة ، أى فهلا تصدقون بالبعث أو بالخلق . قال مقاتل : خلقناكم ولم تكونوا شيئا وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث؟ ﴿ **أفرأيتم ما تمنون** ﴾ أى ما تقذفون وتصبون فى أرحام النساء من النطف . ومعنى ﴿ **أفرأيتم** ﴾ : أخبرونى . ومفعولها الأوّل : ﴿ **ما تمنون** ﴾ والثانى الجملة الاستفهامية ، وهى ﴿ **أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**﴾ أى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا أم نحن المقدرون المصورون له ، و« أم » هى المتصلة . وقيل : هى المنقطعة ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور :﴿ **تمنون** ﴾ بضم الفوقية من أمنى . وقرأ ابن عباس وأبو السماك ومحمد بن السميفع والأشهب العقيلى بفتحها من منى يمنى ، وهما لغتان . وقيل : معناهما مختلف ، يقال : أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومنى إذا أنزل عن احتلام ، وسمّى المنىّ منيا لأنه يمنى ، أى يراق . ﴿**نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين** ﴾ قرأ الجمهور﴿ **قدّرنا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال : قدرت الشيء وقدّرته ، أى قسمناه عليكم ووقتناه لكل فرد من أفرادكم . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب . قال مقاتل : فمنكم من يموت كبيرا ومنكم من يموت صغيرا، وقال الضحاك : معناه : أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ بمغلوبين ، بل قادرين .

﴿ **على أن نبدل أمثالكم** ﴾ أى نأتى بخلق مثلكم . قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقا

غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا . قال ابن جرير : المعنى : نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم وما نحن بمسبوقين فى آجالكم ، أى لا يتقدّم متأخر ، ولا يتأخر متقدّم ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير ، كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى : ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، وقال سعيد بن المسيب : ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ يعنى فى البعث : فى حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف ، وبرهوت واد باليمن ، وقال مجاهد : ﴿فيما لا تعلمون ﴾ يعنى : فى أى خلق شئنا ومن كان قادرا على هذا فهو قادر على البعث ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ وهى ابتداء الخلق من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ولم تكونوا قبل ذلك شيئا ، وقال قتادة والضحاك : يعنى : خلق آدم من تراب ﴿ فلولا تذكرون ﴾ أى فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى، قرأ الجمهور :﴿ النشأة ﴾ بالقصر ، وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمر بالمدّ ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة العنكبوت .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ أى أخبرونى ما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيه البذر ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أى تنبتونه وتجعلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب ﴿ أم نحن الزارعون﴾ أى المنبتون له الجاعلون له زرعا لا أنتم . قال المبرد : يقال زرعه الله ، أى أنماه ، فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث .﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ أى لو نشاء لجعلنا ما تحرثون حطاما : أى متحطما متكسرا ، والحطام : الهشم الذى لا ينتفع به ولا يحصل منه حبّ ولا شىء مما يطلب من الحرث ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ أى صرتم تعجبون . قال الفراء : تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم فى زرعكم . قال فى الصحاح : وتفكه : تعجب ، ويقال : تندّم ، قال الحسن وقتادة وغيرهما : معنى الآية : تعجبون من ذهابها وتندمون مما حلّ بكم ، وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله ، وقال أبو عمرو والكسائى : هو التلهف على ما فات . قرأ الجمهور : ﴿ فظلتم ﴾ بفتح الظاء مع لام واحدة . وقرأ أبوحيوة وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الظاء . وقرأ ابن عباس والجحدرى : « فظللتم » بلامين ، أولاهما مكسورة على الأصل . وروى عن الجحدرى فتحها . وهى لغة . وقرأ الجمهور:﴿ تفكهون ﴾ وقرأ أبو حازم العكلى «تفكنون» بالنون مكان الهاء ، أى تندمون . قال ابن خالويه : تفكه: تعجب، وتفكن: تندم . وفى الصحاح التفكن : التندم . ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ أبو بكر والمفضل وزرّ بن حبيش بهمزتين على الاستفهام ، والجملة بتقدير القول ، أى تقولون : إنا لمغرمون ، أى ملزمون غرما بما هلك من زرعنا ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض ، قاله الضحاك وابن كيسان . وقيل : المعنى : إنا لمعذبون ، قاله قتادة وغيره، وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ، ومنه قول النمر بن تولب :

سَلاَ عـــن تَذَكُّره تكتمـا وكان رَهينًا بـها مُغْـرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلان ، أى أولع . وقال مقاتل : مهلكون . قال النحاس : مأخوذ من الغرام ، وهو الهلاك ومنه قول الشاعر :

ويوم النِّسارِ ويومُ الجبار ــــ كان عليكم عذابا مقيما

والظاهر من السياق المعنى الأول ، أى إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه ومصيره حطاما . ثم أضربوا عن قولهم هذا وانتقلوا فقالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أى حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا ، والمحروم الممنوع من الرزق الذى لاحظ له فيه ، وهو المحارف . ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون** ﴾ فتسكنون به ما يلحقكم من العطش وتدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ ، واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده وأجلّ منافعه ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن** ﴾ أى السحاب . قال فى الصحاح : قال أبو زيد : المزنة : السحابة البيضاء ، والجمع مزن والمزنة : المطر ، قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أن اللـه أنْزَلَ مُـــزْنَـةً ــــ وعُفْرُ الظِّبَاءِ فى الكِنَاس تَقَمَّعُ

ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر :

فنحنُ كماءِ المزْنِ ما فى نصابنا ــــ كَهَام ولا فينا يُعَد بَخيلُ

وقول الآخر :

فلا مزنة ودقت ودقها ــــ ولا أرض أبقل إبقالها

﴿ **أم نحن المنزلون** ﴾ له بقدرتنا دون غيرنا ، فإذا عرفتم ذلك ، فكيف لا تقرّون بالتوحيد وتصدقون بالبعث . ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال : ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجا** ﴾ . الأجاج: الماء الشديد الملوحة الذى لا يمكن شربه ، وقال الحسن : هو الماء المرّ الذى لا ينتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما ﴿ **فلولا تشكرون** ﴾ أى فهلا تشكرون نعمة الله الذى خلق لكم ماء عذبًا تشربون منه وتنتفعون به . ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون** ﴾ أى أخبرونى عنها ، ومعنى ﴿ **تورون** ﴾: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : أوريت النار إذا قدحتها .﴿ **أأنتم أنشأتم شجرتها**﴾ التى يكون منها الزنود ، وهى : المرخ والعفار [(١)]، تقول العرب : فى كل شجر نار واستمجد [(٢)] المرخ والعفار ﴿ **أم نحن المنشئون** ﴾ لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء : الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة . ﴿ **نحن جعلناها تذكرة** ﴾ أى جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى ، قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس فى الظلام ، وقال عطاء : وموعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿ **ومتاعا للمقوين** ﴾ أى منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهى الأرض القفر كالمسافرين

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر . لسان العرب ٤/٥٨٩ .
(٢) استمجد : استكثر . لسان العرب ٤/ ٥٨٩ .

وأهل البوادى النازلين فى الأراضى المقفرة ، يقال : أرض قواء بالمد والقصر ، أى مقفرة ، ومنه قول النابغة :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

وقول الآخر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

ويقال: أقوى إذا سافر : أى نزل القوى . وقال مجاهد : المقوين :المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم يقال : أقويت منذ كذا وكذا أى ما أكلت شيئا وبات فلان للقوى، أى بات جائعا ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لأختار القوى طاوى الحشا محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب : المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ، يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه ، وكثر ماله ، وحكى الثعلبى عن أكثر المفسرين القول الأول ، وهو الظاهر . ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه ، وتنزيهه على ما قبلها مما عدّده من النعم التى أنعم بها على عباده وجحود المشركين لها وتكذيبهم بها .

وقد أخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب وضعفه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقولنّ أحدكم زرعت ، ولكن يقول حرثت » قال أبو هريرة : ألم تسمعوا الله يقول :﴿ **أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ﴾ (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **تفكهون** ﴾ قال : تعجبون .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **المزن** ﴾ : السحاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﴿ **نحن جعلناها تذكرة**﴾ قال : تذكرة للنار الكبرى ﴿ **ومتاعا للمقوين** ﴾ قال : للمسافرين .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)

(١) ابن جرير ٢٧/ ١١٤ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٢٦٧ والبيهقى فى الشعب (٤٨٥١) ورجاله ثقات .

وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **فلا أقسم** ﴾ ذهب جمهور المفسرين إلى أن « لا» مزيدة للتوكيد . والمعنى : فأقسم ويؤيد هذا قوله بعد : ﴿**وإنه لقسم** ﴾ وقال جماعة من المفسرين : إنها للنفى ، وإن المنفى بها محذوف ، وهو كلام الكفار الجاحدين ، قال الفراء: هى نفى ، والمعنى : ليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف فقال : أقسم ، وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز كما قال أبو حيان وغيره . وقيل : إنها لام الابتداء ، والأصل فلا أقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقول الشاعر :

أعوذ بالله من العقراب

وقد قرأ هكذا : « فلأقسم » بدون ألف الحسن وحميد وعيسى بن عمر ، وعلى هذا القول وهذه القراءة يقدّر مبتدأ محذوف ، والتقدير : فلأنا أقسم بذلك . وقيل : إن لا هنا بمعنى ألا التى للتنبيه ، وهو بعيد ، وقيل : لا هنا ظاهرها ، وإنها لنفى القسم ، أى فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك ، وهذا مدفوع بقوله : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ مع تعيين المقسم به والمقسم عليه ، ومعنى قوله : ﴿ **بمواقع النجوم** ﴾ مساقطها ، وهى مغاربها كذا قال قتادة وغيره . وقال عطاء بن أبى رباح : منازلها ، وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة، وقال الضحاك : هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون : مطرنا بنوء كذا ، وقيل : المراد بمواقع النجوم : نزول القرآن نجوما من اللوح المحفوظ ، وبه قال السدّى وغيره ، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور :﴿ **مواقع** ﴾ على الجمع، وقرأ ابن مسعود والنخعى وحمزة والكسائى وابن محيصن وورش عن يعقوب « بموقع » على الإفراد . قال المبرد : موقع هاهنا مصدر ، فهو يصلح للواحد والجمع . ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتفخيمه فقال : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ هذه الجملة معترضة بين المقسم به والمقسم عليه ، وقوله :﴿ **لو تعلمون** ﴾ جملة معترضة بين جزأى الجملة المعترضة ، فهو اعتراض فى اعتراض ، قال الفراء والزجاج : هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن ، والضمير فى ﴿ **إنه** ﴾ على القسم الذى يدل عليه أقسم ، والمعنى : أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال : ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ أى كرمه الله وأعزّه ورفع قدره

على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحرا أو كهانة أو كذبا . وقيل : إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالى الأمور . وقيل : لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه ، وحكى الواحدى عن أهل المعانى : أن وصف القرآن بالكريم ؛ لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التى تؤدّى إلى الحق فى الدين . قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . ﴿ **فى كتاب مكنون** ﴾ أى مستور مصون . وقيل : محفوظ عن الباطل ، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة . وقيل: هو كتاب . وقال عكرمة : هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن، ومن ينزل عليه ، وقال السدّى : هو الزبور . وقال مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون ، أى لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون ، وهم الملائكة . وقيل : هم الملائكة والرسل من بنى آدم . ومعنى ﴿ **لا يمسه** ﴾: المسّ الحقيقى. وقيل : معناه : لا ينزل به إلا المطهرون . وقيل : معناه : لا يقرؤه ، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن فقيل : ﴿**لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ من الأحداث والأنجاس ، كذا قال قتادة وغيره . وقال الكلبى : المطهرون من الشرك ، وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا ، وقال محمد بن الفضل وغيره : معنى ﴿ **لا يمسه** ﴾ : لا يقرؤه إلا المطهرون ، أى إلا الموحدون ، وقال الفراء: لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون ، أى المؤمنون . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق . وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف ، وبه قال علىّ وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهرى والنخعى والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى ، وروى عن ابن عباس والشعبى وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمحدث مسه ، وقد أوضحنا ما هو الحق فى هذا فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه . قرأ الجمهور : ﴿ **المطهرون** ﴾ بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول ، وقرأ سلمان الفارسى بكسر الهاء على أنه اسم فاعل ، أى المطهرون أنفسهم . وقرأ نافع وأبو عمرو فى رواية عنهما، وعيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أطهر ، وقرأ الحسن وزيد بن علىّ وعبد الله بن عون بتشديد الطاء وكسر الهاء ، وأصله المتطهرون . ﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع، وقرئ بالنصب ، فالرفع على أنه صفة أخرى لقرآن ، أوخبر مبتدأ محذوف ، والنصب على الحال .

﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون** ﴾ . الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة . والمدهن والمداهن : المنافق ، كذا قال الزجاج وغيره ، وقال عطاء وغيره : هو الكذاب ، وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مدهنون: كافرون ، كما فى قوله : ﴿ **ودّوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ [القلم : ٩] وقال الضحاك : مدهنون :معرضون ، وقال مجاهد : ممالئون للكفار على الكفر، وقال أبو كيسان : المدهن : الذى لا يعقل حق الله عليه ويدفعه بالعلل ؛ والأول أولى لأن

أصل المدهن الذى ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن فى سهولته . قال المؤرج : المدهن : المنافق الذى يلين جانبه ليخفى كفره ، والإدهان والمداهنة : التكذيب والكفر والنفاق . وأصله اللين ، وأن يسرّ خلاف ما يظهر ، وقال فى الكشاف : مدهنون : أى متهاونون به كمن يدهن فى الأمر ، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به . انتهى . قال الراغب : والإدهان فى الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجدّ : كما جعل التقريد : وهو نزع القراد عبارة عن ذلك ، ويؤيد ما ذكره قول أبى قيس بن الأسلت :

الحَزْمُ والقُوّةُ خيرٌ مِنَ الـ إدهان والفَهَّة[1] والهَاعِ[2]

﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ فى الكلام مضاف محذوف ، كما حكاه الواحدى عن المفسرين ، أى تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله فتضعون التكذيب موضع الشكر . وقال الهيثم : إن أزد شنوءة يقولون : ما رزق فلان، أى ما شكر ، وعلى هذه اللغة لا يكون فى الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر ، ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيرا بالسبب عن المسبب ، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله ، وأنزل عليهم المطر : سقينا بنوء كذا ، ومطرنا بنوء كذا . قال الأزهرى : معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذى رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرزاق ، وقرأ علىّ وابن عباس : « وتجعلون شكركم » وقرأ الجمهور:﴿أنكم تكذبون﴾ بالتشديد من التكذيب ، وقرأ علىّ وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف من الكذب . ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أى فهلا إذا بلغت الروح أو النفس الحلقوم عند الموت ، ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاؤوا بمثل هذه العبارة ، ومنه قول حاتم طىء :

أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ إلى ما هو فيه ذلك الذى بلغت نفسه أو روحه الحلقوم . قال الزجاج : وأنتم يا أهل الميت فى تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، والمعنى: أنهم فى تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه ، ولا يستطيعون شيئا ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه . ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى بالعلم والقدرة والرؤية . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أى لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه . ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها ﴾ يقال : دان السلطان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم. قال الفراء : دنته ملكته ، وأنشد للحطيئة :

لقد دنت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين

(١) الفهة : العى والتعثر فى الكلام .

(٢) الهاع : سوء الحرص مع ضعف الشخصية .

أى ملكت ، ويقال : دانه ، إذا أذله واستعبده ، وقيل : معنى ﴿ **مدينين** ﴾ :محاسبين ، وقيل : مجزيين ، ومنه قول الشاعر :

ولـم يبـق سوى العدوا ن دنـاهم كـما دانوا

والمعنى الأول ألصق بمعنى الآية ، أى فهلا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين ترجعونها ، أى النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مقرّها الذى كانت فيه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ ولن ترجعوها ، فبطل زعمكم أنكم غير مربوبين ولا مملوكين ، والعامل فى قوله : ﴿ **إذا بلغت** ﴾ هو قوله : ﴿ **ترجعونها** ﴾ و« لولا» الثانية تأكيد للأولى قال الفراء : وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد . ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال : ﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ أى السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدّم تفصيل أحوالهم ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **روح** ﴾ بفتح الراء ، ومعناه : الراحة من الدنيا والاستراحة من أحوالها ، وقال الحسن : الروح : الرحمة. وقال مجاهد : الروح : الفرح ، وقرأ ابن عباس وعائشة والحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدرى : « فروح » بضم الراء ورويت هذه القراءة عن يعقوب ، قيل : ومعنى هذه القراءة : الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، والريحان : الرزق فى الجنة ، قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل . قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير : يقال : خرجت أطلب ريحان الله ، أى رزقه ، ومنه قول النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

وقال قتادة : إنه الجنة ، وقال الضحاك : هو الرحمة ، وقال الحسن : هو الريحان المعروف الذى يشم . قال قتادة والربيع بن خثيم : هذا عند الموت ، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث ، وكذا قال أبو الجوزاء وأبو العالية . ومعنى ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ : أنها ذات تنعم ، وارتفاع روح وما بعده على الابتداء ، والخبر محذوف ، أى فله روح. ﴿ **وأما إن كان** ﴾ ذلك المتوفى ﴿ **من أصحاب اليمين** ﴾ وقد تقدّم ذكرهم وتفصيل أحوالهم وما أعدّه الله لهم من الجزاء. ﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ أى لست ترى فيهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم بهم فإنهم يسلمون من عذاب الله ، وقيل : المعنى : سلام لك منهم ، أى أنت سالم من الاغتمام بهم ، وقيل : المعنى : إنهم يدعون لك ويسلمون عليك . وقيل : إنه ﷺ يحيى بالسلام إكراما . وقيل : هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض. وقيل: المعنى : سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين .

﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين** ﴾ أى المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى ، وهم أصحاب الشمال المتقدّم ذكرهم ، وتفصيل أحوالهم . ﴿ **فنزل من حميم** ﴾ أى فله نزل يعدّ لنزوله من حميم ، وهو الماء الذى قد تناهت حرارته ، وذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه . ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ يقال : أصلاه النار وصلاه، أى إذا جعله فِى النار ، وهو من

إضافة المصدر إلى المفعول أو إلى المكان . قال المبرد : وجواب الشرط فى هذه الثلاثة المواضع محذوف ، والتقدير : مهما يكن من شيء فروح ... إلخ . وقال الأخفش : إن الفاء فى المواضع الثلاثة هى جواب «أما» وجواب حرف الشرط . قرأ الجمهور : ﴿ **وتصلية**﴾ بالرفع عطفا على ﴿**فنزل** ﴾ وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على ﴿ **حميم** ﴾ أى فنزل من حميم ومن تصلية جحيم . ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين** ﴾ الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرّقين لهو حق اليقين ، أى محض اليقين وخالصه ، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه . قال المبرد : هو كقولك: عين اليقين ومحض اليقين ، هذا عند الكوفيين وجوّزوا ذلك لاختلاف اللفظ ، وأما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفا والتقدير : حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين ، والفاء فى: ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى نزهه عما لا يليق بشأنه ، والباء متعلقة بمحذوف ، أى فسبح ملتبسا باسم ربك للتبرك به . وقيل : المعنى : فصلِّ بذكر ربك ، وقيل :الباء زائدة ، والاسم بمعنى: الذات . وقيل : هى للتعدية لأن سبح يتعدّى بنفسه تارة ويتعدّى بالحرف أخرى . والأوّل أولى .

وقد أخرج النسائى وابن جرير ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرّق فى السنين ، وفى لفظ : ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما ، ثم قرأ : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ [(١)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ومحمد ابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ قال : القرآن ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ قال : القرآن . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال : نجوم القرآن حين نزل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضا ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال : الكتاب المنزل فى السماء لا يمسه إلا الملائكة. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أنس﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال الملائكة . وأخرج عبد الرزّاق وابن المنذر عن علقمة قال : أتينا سلمان الفارسى فخرج علينا من كنيف، فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا ، قال : إنما قال الله : ﴿ **فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ وهو الذى فى السماء لا يمسه إلا الملائكة . ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا [(٢)] . وأخرج عبد الرزّاق وابن أبى داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرو بن حزم عن أبيه قال فى كتاب النبىّ ﷺ لعمرو بن حزم : لا تمس القرآن إلا على طهر[(٣)]. وأخرجه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر [(٤)]. وأخرجه أبو داود فى المراسيل،

---

(١) النسائى فى التفسير (٥٨٥) وابن جرير ١١٧/٢٧ ، وصححه الحاكم (٤٧٧/٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٣٨٦) ورجاله ثقات .

(٢) عبد الرزاق (١٣٢٥) . (٣) المرجع السابق (١٣٢٨) . (٤) الموطأ ١/ ١٩٩ (١) .

من حديث الزهرى قال : قرأت فى صحيفة عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال : « لا يمس القرآن إلا طاهر»[١] . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبى العاص ، وفى أسانيدها نظر [٢]. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئا . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر ،والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال:كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة ، فتوارى عنا ثم خرج إلينا فقلنا : لوتوضأت فسألناك عن أشياء من القرآن . فقال: سلونى ، فإن لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون**﴾ [٣] . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمس القرآن إلا طاهر»[٤] وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن كتب له فى عهده : «أن لا يمس القرآن إلا طاهر » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أنتم مدهنون** ﴾ قال : مكذبون . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال النبى ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر» ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ [٥] . وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت فى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهنى[٦]، ومن حديث أبى سعيد الخدرى ، وفى الباب أحاديث . وأخرج أحمد وابن منيع وعبد بن حميد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن علىّ عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ قال : شكركم ، تقولون: « مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا » [٧] . وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن عائشة قالت : ما فسر رسول الله ﷺ إلا آيات يسيرة . قوله : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ قال : «شكركم ». وأخرج ابن مردويه عن علىّ أن رسول الله ﷺ قرأ :« وتجعلون شكركم » . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٩٢، ٩٣) ورجال الحديث رجال الشيخين .
(٢) الدارقطنى ١/ ١٢١ .
(٣) صححه الحاكم ٢/ ٤٧٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٤) الطبرانى (١٣٢١٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٨١ : « رجاله موثقون » .
(٥) مسلم فى الإيمان (٧٣/ ١٢٧) .
(٦) البخارى فى التوحيد (٧٥٠٣) ومسلم فى الإيمان (٧١/ ١٢٥) .
(٧) أحمد ١/ ٨٩ والترمذى فى التفسير (٣٢٩٥) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث إسرائيل »وابن جرير ٢٧/ ١١٩ .

المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ: «وتجعلون شكركم » قال: يعنى: الأنواء وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرا،كانوا يقولون:مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله: ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أبى عبد الرحمن السلمى عن علىّ أنه قرأ : « وتجعلون شكركم » وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **غير مدينين** ﴾ قال : غير محاسبين . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع ابن خثيم ﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ الآية. قال : هذا له عند الموت ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم** ﴾ قال : هذا عند الموت ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ قال : تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فروح** ﴾ قال : راحة ﴿ **وريحان** ﴾ قال : استراحة . وأخرج ابن جرير عنه قال : يعنى بالريحان : المستريح من الدنيا ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ يقول : مغفرة ورحمة . وأخرج ابن المنذر عنه أيضًا قال : الريحان : الرزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا فى قوله :﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين** ﴾ قال : ما قصصنا عليك فى هذه السورة. وأخرج عنه أيضا : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال : فصلّ لربك . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ، فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى : ١] قال : « اجعلوها فى سجودكم » [(١)] .

---

(١) أحمد ٤/ ١٥٥ وأبو داود في الصلاة (٨٦٩) وابن حبان (١٨٩٥) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٧ ، ٤٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ،والبيهقى ٢/ ٨٦ .

تفسير سورة الحديد

وهى تسع وعشرون آية . وهى مدنية . قال القرطبى: فى قول الجميع .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحديد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء ، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء » ، ونهى رسول الله ﷺ عن الحجامة يوم الثلاثاء [١] . وأخرج الديلمى عن جابر مرفوعًا : « لا تحتجموا يوم الثلاثاء فإن سورة الحديد أنزلت يوم الثلاثاء»[٢] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن العرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وفى إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال معروف [٣]. وقد أخرجه النسائى ، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله ﷺ ولم يذكر العرباض بن سارية ، فهو مرسل [٤] . وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبى كثير قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات ، وكان يقول : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » قال يحيى: فنراها الآية التى فى آخر الحشر. وقال ابن كثير فى تفسيره: والآية المشار إليها والله أعلم هو قوله: ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ [٥] الآية . والمسبحات المذكورة : هى الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)** ﴾ .

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٢٣ : « رواه الطبرانى وفيه مسلمة بن على وهو ضعيف » .
(٢) الديلمى (٧٣٩٥) عن أنس، وقد ذكر المحقق أن هذا الحديث عن جابر مرفوعا فى زهر الفردوس ٤/ ١٨١ .
(٣) أحمد ٤/ ١٢٨ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤) .
(٤) النسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٥١) . (٥) ابن كثير ٦/ ٥٤٣ .

قوله : ﴿ **سبح لله ما فى السموات والأرض** ﴾ أى نزهه ومجده . قال المقاتلان : يعنى : كل شىء من ذى روح وغيره ، وقد تقدّم الكلام فى تسبيح الجمادات عند تفسير قوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾ [الإسراء : ٤٤] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما فى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات هو ما يعمّ التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإذا كل موجود يدل على الصانع . وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة . فلم قال : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة ، وفعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارة ، كما فى قوله : ﴿وسبحوه ﴾ [الأحزاب : ٤٢] وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعديا بنفسه ، لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام ، فهى إما مزيدة للتأكيد كما فى شكرته وشكرت له ، أو هى للتعليل ، أى افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصًا له ، وجاء هذا الفعل فى بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة ، وفى بعضها مضارعا ، وفى بعضها أمر للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة فى كل الأوقات لا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت ، بل هى مسبحة أبدا فى الماضى ، وستكون مسبحة أبدا فى المستقبل ، ﴿ **وهو العزيز**﴾ أى القادر الغالب الذى لا ينازعه أحد ، ولا يمانعه ممانع ، كائنا ما كان ، ﴿ **الحكيم** ﴾ الذى يفعل أفعال الحكمة والصواب .

﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ يتصرّف فيه وحده ولا ينفذ غير تصرّفه وأمره ، وقيل أراد خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق ﴿ **يحيى ويميت** ﴾ الفعلان فى محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على الحال من ضمير له ، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك ، والمعنى : إنه يحيى فى الدنيا ، ويميت الأحياء . وقيل : يحيى النطف وهى موات ، ويميت الأحياء . وقيل : يحيى الأموات للبعث ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء كائنا ما كان . ﴿ **هو الأوّل** ﴾ قبل كل شىء ﴿ **والآخر**﴾ بعد كل شىء ، أى الباقى بعد فناء خلقه ﴿ **والظاهر** ﴾ العالى الغالب على كل شىء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة ﴿ **والباطن**﴾ أى العالم بما بطن ، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان ، أى يعلم داخلة أمره ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار والعقول، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ كما سيأتى ، فيتعين المصير إلى ذلك ﴿ **وهو بكل شىء عليم** ﴾ لا يعزب عن علمه شىء من المعلومات . ﴿ **هوالذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ هذا بيان لبعض ملكه السموات والأرض . وقد تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وفى غيرها مستوفى ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ من نبات وغيره ﴿ **وما ينزل من السماء**﴾ من مطر وغيره ﴿**وما يعرج فيها**﴾ أى يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد،

وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة سبأ ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ أى بقدرته وسلطانه وعلمه وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فى الأرض من برّ وبحر ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء ﴿ له ملك السموات والأرض﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ لا إلى غيره . قرأ الجمهور : ﴿ ترجع ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر على البناء للفاعل . ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة آل عمران ، وفى مواضع ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أى بضمائر الصدور ومكنوناتها ، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال : جاءت فاطمة إلى الرسول ﷺ تسأله خادما، فقال قولى : « اللهمّ ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم ، وربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء خفف عنا الدين ، واغننا من الفقر »(١) . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فى الأربعة الأسماء المذكورة وتفسيرها(٢) . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر وأبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأوّل قبل كل شيء . والآخر فليس بعده شيء . وهو الظاهر فوق كل شيء ، وهو الباطن دون كل شيء ، وهو بكل شيء عليم » وأخرج أبو داود عن أبى زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده فى صدرى ، قال : ما هو ؟ قلت: والله لا أتكلم به ،قال: فقال لى : أشيء من شك ؟ قال وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ الآية [يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئا فقل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ قال : عالم بكم أينما كنتم .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٣٩٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٣ / ٦١ ، ٦٣) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أحمد ٢/ ٤٠٤ ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٣/ ٦١) وأبو داود فى الأدب (٥٠٥١) .

وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله** ﴾ أى صدّقوا بالتوحيد وبصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب ، ويجوز أن تكون خطابا للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان فى حق المسلمين الاستمرار عليه ، أو الازدياد منه . ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله ، والعباد خلفاء الله فى أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه . وقيل : جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم فلا تبخلوا به ، كذا قال الحسن وغيره ، وفيه الترغيب إلى الإنفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم إلى غيرهم .والظاهر أن معنى الآية : الترغيب فى الإنفاق فى الخير ،وما يرضاه الله على العموم . وقيل : هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص . ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل الله فقال: ﴿ **فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ أى الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإنفاق فى سبيل الله لهم أجر كبير ، وهو الجنة .

﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أىْ أىّ عذرلكم ، وأىّ مانع من الإيمان ، وقد أزيحت عنكم العلل ، و﴿ **ما** ﴾ مبتدأ و﴿ **لكم** ﴾ خبره و﴿ **لاتؤمنون**﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ **لكم** ﴾ والعامل ما فيه من معنى الاستقرار.وقيل : المعنى : أى شىء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا ؟ وجملة: ﴿**والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل ، ولتؤمنوا متعلق بيدعوكم، أى يدعوكم للإيمان ، والمعنى:أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ؟ وجملة : ﴿ **وقد أخذ ميثاقكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا، أى والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان .قرأ الجمهور :﴿ **وقد أخذ**﴾ مبنيا للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدّم ذكره ، وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول :﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ ما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته .

﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات** ﴾ أى واضحات ظاهرات ، وهى الآيات القرآنية . وقيل : المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ أى ليخرجكم الله

بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات أو بالدعوة ﴿ **وإن الله بكم لرؤوف رحيم** ﴾ أى لكثير الرأفة والرحمة بليغهما حيث أنزل كتبه وبعث رسله لهداية عباده فلا رأفة ولارحمة أبلغ من هذه . والاستفهام فى قوله : ﴿ **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله** ﴾ للتقريع والتوبيخ. والكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله: ﴿**وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ . وفى هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله : ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ هو الإنفاق فى سبيل الله كما بينا ذلك ، والمعنى: أى عذر لكم وأى شىء يمنعكم من ذلك ،والأصل فى ألا تنفقوا. وقيل: إن « أن » زائدة ، وجملة: ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **ألا تنفقوا** ﴾ أو من مفعوله، والمعنى : أى شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه، والحال أن كل ما فى السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لهم منه شىء ، وهذا أدخل فى التوبيخ وأكمل فى التقريع فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها وتصير لله سبحانه ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله فى الحقيقة، وهم خلفاؤه فى التصرف فيها .

ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح** ﴾ قيل : المراد بالفتح : فتح مكة . وبه قال أكثر المفسرين . وقال الشعبى والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة : كان قتالان ، أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك ، وكذا قال مقاتل وغيره ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : لا يستوى من أنفق من قبل الفتح ﴿ **وقاتل** ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره ولدلالة ما سيأتى عليه ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح ، لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقلّ وأضعف ، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجدون ما يجودون به من الأموال .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والإشارة بقوله :﴿ **أولئك** ﴾ إلى ﴿ **من** ﴾ باعتبار معناها وهو مبتدأ وخبره :﴿ **أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** ﴾ أى أرفع منزلة وأعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله من بعد الفتح وقاتلوا مع رسول الله ﷺ . قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها . قال الزجاج : لأن المتقدّمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ. وقد أرشد ﷺ إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه: « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه » [1] وهذا خطاب منه ﷺ للمتأخرين

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٠ / ٢٢١) عن أبى سعيد .

وصحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الذى ورد فيه هذا الحديث ﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ أى وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى ، وهى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها ، قرأ الجمهور : ﴿ **وكلاً** ﴾ بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر ، وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء ، والجملة بعده خبره ، والعائد محذوف ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أمّ الخيار تدعى ... علىّ ذنبا كله لم أصنع

﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء . ثم رغب سبحانه فى الصدقة فقال : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا** ﴾ أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله ، فإنه كمن يقرضه ، والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا : قد أقرض ، ومنه قول الشاعر :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه ... إنما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الكلبى : ﴿ **قرضا** ﴾ أى صدقة ﴿ **حسنا** ﴾ أى محتسبا من قلبه بلا منّ ولا أذى . قال مقاتل :حسنا : طيبة به نفسه ، وقد تقدم تفسير الآية فى سورة البقرة ﴿ **فيضاعفه له** ﴾ قرأ ابن عامر وابن كثير:« فيضعفه » بإسقاط الألف إلا أن ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء ، وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة ﴿ **فيضاعفه** ﴾ بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء ورفع الباقون ، قال ابن عطية : الرّفع على العطف على ﴿ **يقرض** ﴾ ، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء فى جواب الاستفهام ، وضعف النصب أبو علىّ الفارسى قال : لأن السؤال لم يقع عن القرض، إنما وقع عن فاعل القرض ، إنما تنصب الفاء فعلاً مردودا على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله:﴿ **من ذا الذى يقرض الله** ﴾ بمنزلة قوله : أيقرض الله أحد ﴿ **وله أجر كريم** ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هى كون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل من طريق زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ:«يوشك أن يأتى قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم » قلنا : من هم يارسول الله ؟ أقريش ؟ قال : « لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبا » فقلنا : أهم خير منا يارسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه ، إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ الآية » وهذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد . وقد رواه ابن جرير ولم يذكر فيه الحديبية [1] . وأخرج أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٢٧ .

الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ النبىّ ﷺ . فقال : « دعوا لى أصحابى ، فو الذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ بلفظ: « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه »[١] وفى لفظ : «ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » أخرج هذا الحديث البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى[٢] . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره [٣] .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ .

قوله : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ العامل فى الظرف مضمر وهو اذكر ، أو كريم ، أو فيضاعفه ، أو العامل فى لهم وهو الاستقرار ، والخطاب لكل من يصلح له،وقوله: ﴿ يسعى نورهم ﴾ فى محل نصب على الحال من مفعول ترى. والنور هو الضياء الذى يرى ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة ، وهو دليلهم إلى الجنة ، قال قتادة : إن المؤمن يضىء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، حتى إن من المؤمنين من لايضىء له نوره إلا موضع قدميه ، وقال الضحاك ومقاتل : وبأيمانهم : كتبهم التى أعطوها ، فكتبهم بأيمانهم ، ونورهم بين أيديهم . قال الفراء : الباء بمعنى « فى » أى فى أيمانهم ، أو بمعنى « عن » . قال الضحاك أيضا :نورهم: هداهم ،وبأيمانهم:كتبهم ، واختار هذا ابن جرير الطبرى ، أى يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم ، قرأ الجمهور : ﴿ بأيمانهم ﴾ جمع يمين . وقرأ سهل بن سعد الساعدّى وأبو حيوة :« بإيمانهم » بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر . وقيل : هو القرآن ، والجار والمجرور فى الموضعين فى محل نصب على

---

(١) أحمد ٣/٢٦٦ .

(٢) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤١/٢٢٢) وأبو داود فى السنة (٤٦٥٨) .

(٣) ابن أبى شيبة (١٢٤٦٣/٢) .

الحال من نورهم ، أى كائنا بين أيديهم وبأيمانهم ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ بشراكم مبتدأ ، وخبره جنات على تقدير مضاف ، أى دخول جنات ، والجملة مقول قول مقدرَ ، أى يقال لهم هذا ، والقائل لهم هم الملائكة قال مكىّ : وأجاز الفراء نصب جنات على الحال ،ويكون اليوم خبر بشراكم ، وهذا بعيد جدًا ﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال مقدرة ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى النور والبشرى ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ أى لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه .

﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات** ﴾ ﴿ **يوم** ﴾ بدل من ﴿ **يوم** ﴾ الأوّل ويجوز أن يكون العامل فيه: ﴿ **الفوز العظيم** ﴾ ، ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر ، أى اذكر ﴿ **للذين آمنوا**﴾ اللام للتبليغ كنظائرها . قرأ الجمهور : ﴿ **انظرونا** ﴾ أمراً بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار ، أى انتظرونا ، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة ، وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار، أى أمهلونا وأخرونا ، يقال : أنظرته واستنظرته ، أى أمهلته واستمهلته ، قال الفراء : تقول العرب :أنظرنى ، أى انتظرنى ، وأنشد قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقيل : معنى ﴿ **انظرونا** ﴾ : انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم ﴿ **نقتبس من نوركم** ﴾ أى نستضىء منه ، والقبس : الشعلة من النار والسراج ، فلما قالوا ذلك :﴿ **قيل ارجعوا وراءكم** ﴾ أى قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجرًا لهم وتهكمًا بهم أى ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذى أخذنا منه النور ﴿ **فالتمسوا نورا** ﴾ أى اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم ، فإنه من هنالك يقتبس ، وقيل : المعنى : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة ، وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكما بهم : ﴿ **فضرب بينهم بسور** ﴾ السور : هو الحاجز بين الشيئين والمراد به هنا : الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار قال الكسائى : والباء فى بسور زائدة ، ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال : ﴿ **له باب باطنه فيه الرحمة**﴾ أى باطن ذلك السور وهو الجانب الذى يلى أهل الجنة فيه الرحمة وهى الجنة وظاهره وهو الجانب الذى يلى أهل النار ﴿**من قبله العذاب** ﴾ أى من جهته عذاب جهنم ،وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون فى العذاب وبينهم السور .وقيل : إن الرحمة التى فى باطنه: نور المؤمنين، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك فقال : ﴿**ينادونهم ألم نكن معكم**﴾ أى موافقين لكم فى الظاهر نصلى بصلاتكم فى مساجدكم ، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قال المنافقون بعد ضرب

السور بينهم وبين المؤمنين ؟ فقال : ﴿ ينادونهم ﴾ . ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال : ﴿ قالوا بلى ﴾ أى كنتم معنا فى الظاهر ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر . قال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق ، وقيل : بالشهوات واللذات ﴿ وتربصتم ﴾ بمحمد ﷺ وبمن معه من المؤمنين حوادث الدّهر . وقيل : تربصتم بالتوبة ، والأوّل أولى ﴿ وارتبتم ﴾ أى شككتم فى أمر الدين ولم تصدّقوا ما نزل من القرآن ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿ وغَرتكم الأمانى ﴾ الباطلة التى من جملتها ما كنتم فيه من التربص . وقيل : هو طول الأمل . وقيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين . وقال قتادة : الأمانى هنا : غرور الشيطان. وقيل: الدنيا. وقيل: هو طمعهم فى المغفرة ، وكل هذه الأشياء تدخل فى مسمى الأمانىّ ﴿حتى جاء أمر الله﴾ وهو الموت . وقيل : نصره سبحانه لنبيه ﷺ . وقال قتادة : هو إلقاؤهم فى النار ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين ، وهو صفة على فعول ، والمراد به : الشيطان ، أى خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان ، وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميفع وسماك ابن حرب بضمهما وهو مصدر .

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ بالله ظاهرًا وباطنا ﴿ مأواكم النار ﴾ أى منزلكم الذى تأوون إليه النار ﴿هى مولاكم﴾ أى هى أولى بكم ، والمولى فى الأصل من يتولى مصالح الإنسان ثم استعمل فيمن يلازمه . وقيل : معنى ﴿ مولاكم ﴾ : مكانكم عن قرب من الولى : وهو القرب. وقيل : إن الله يركب فى النار الحياة والعقل ، فهى تتميز غيظا على الكفار ، وقيل : المعنى: هى ناصركم على طريقة قول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿ وبئس المصير ﴾ الذى تصيرون إليه وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرّة ويوقد أخرى (١). وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال: بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم فى الدنيا، قال المؤمنون : ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿ فالتمسوا ﴾ هنالك

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٢٨وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

النور [١] .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعوالناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نورا وكل منافق نورا فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ،فقال المنافقون: ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ [التحريم: ٨] فلا يذكر عند ذلك أحد أحدًا » [٢] وفي الباب أحاديث وآثار. وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس فبكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذى ذكره الله فى القرآن ﴿**فضرب بينهم بسور**﴾ هو السور الذى ببيت المقدس الشرقى ﴿ **باطنه فيه الرحمة** ﴾ المسجد ﴿**وظاهره من قبله العذاب**﴾ يعنى وادى جهنم وما يليه [٣] .

ولا يخفاك أن تفسير السور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال مالا يدفعه مقال ، ولا سيما بعد زيادة قوله : ﴿ **باطنه فيه الرّحمة** ﴾ المسجد ، فإن هذا غير ما سيقت له الآية وغير ما دلت عليه، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين والمنافقين ، وأىّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا ، فإن كان المراد: أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس ، ويجعله فى الدار الآخرة سوراً مضروبا بين المؤمنين والمنافقين ، فما معنى تفسير باطن السور وما فيه من الرّحمة بالمسجد ،وإن كان المراد: أن الله يسوق فريقى المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد، ويجعل المنافقين خارجه ، فهم إذ ذاك على الصراط وفى طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس ، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتا عن رسول الله ﷺ قبلناه وآمنا به ، وإلا فلا كرامة ولا قبول .
وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم** ﴾ قال: بالشهوات واللذات ﴿ **وتربصتم** ﴾ قال : بالتوبة . ﴿ **وغرتكم الأمانىّ حتى جاء أمر الله** ﴾ قال : الموت ﴿ **وغركم بالله الغرور** ﴾ قال : الشيطان .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ

---

(١) ابن جرير ٢٧/١٢٩ .
(٢) الطبرانى (١١٢٤٢) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/٣٦٢: «فيه إسحاق بن بشر ـ أبو حذيفة ـ وهو متروك » .
(٣) ابن جرير ٢٧/ ١٣٠ وصححه الحاكم ٤/ ٦٠١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ يقال: أنى لك يأنى أنى: إذا حان. قرأ الجمهور: ﴿**ألم يأن** ﴾ وقرأ الحسن وأبو السماك : « ألما يأن » وأنشد ابن السكيت :

ألمــا يــأن لى أن تجلى عمـايتى وأقـصر عن ليـلى ؟ بـلـى قـد أنى ليا

و﴿ **أن تخشع قلوبهم** ﴾ فاعل يأن ، أى لم يحضر خشوع قلوبهم ويجئ وقته . ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لى يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا ؟

هذه الآية نزلت فى المؤمنين .قال الحسن : يستبطئهم وهم أحبّ خلقه إليه . وقيل : إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد . قال الزجاج : نزلت فى طائفة من المؤمنين ،حثوا على الرقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرّقة والخشوع فطبقة فوق هؤلاء . وقال السدّى وغيره : المعنى : ألم يأن للذين آمنوا فى الظاهر وأسروا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿ **لذكر الله**﴾ وسيأتى فى آخر البحث ما يقوّى قول من قال: إنها نزلت فى المسلمين . والخشوع لين القلب ورقته . والمعنى : أنه ينبغى أن يورثهم الذكر خشوعا ورقة ، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخضع له ﴿ **وما نزل من الحق**﴾ معطوف على ذكر الله ، والمراد بما نزل من الحقّ : القرآن ، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان ، أو خطور بالقلب ، وقيل : المراد بالذكر هو القرآن ، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير ، أو باعتبار تغاير المفهومين . قرأ الجمهور : « نزل » مشددًا مبنيا للفاعل، وقرأ نافع وحفص بالتخفيف مبنيا للفاعل . وقرأ الجحدرى وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو فى رواية عنه مشدّدا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود : « أنزل » مبنيًا للفاعل ﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل** ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جريا على ما تقدّم ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالفوقية على الخطاب التفاتا ، وقرأ بها عيسى وابن إسحاق ، والجملة معطوفة على تخشع ، أى ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا ؟ والمعنى: النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿ **فطال عليهم الأمد**﴾ أى طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم . قرأ الجمهور :﴿**الأمد** ﴾ بتخفيف الدال وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بتشديدها ، أى الزّمن الطويل ، وقيل : المراد بالأمد على القراءة الأولى : الأجل

والغاية، يقال : أمد فلان كذا ، أى غايته ﴿فقست قلوبهم ﴾ بذلك السبب فلذلك حرفوا وبدلوا ، فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أى خارجون عن طاعة الله لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرّفوا وبدلوا ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ . وقيل : هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ وقيل : هم الذين ابتدعوا الرهبانية ، وهم أصحاب الصوامع . ﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ التى من جملتها هذه الآيات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى كى تعقلوا ما تضمنته من المواعظ وتعملوا بموجب ذلك .

﴿إن المصدّقين والمصدّقات ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد فى الموضعين من الصدقة ، وأصله المتصَدقين والمتصدّقات ، فأدغمت التاء فى الصاد ، وقرأ أبىّ : « المتصدّقين والمتصدّقات » بإثبات التاء على الأصل . وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى صدّقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ معطوف على اسم الفاعل فى المصدّقين لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حلّ محلّ الفعل فكأنه قال : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا ، كذا قال أبو على الفارسى وغيره . وقيل : جملة : ﴿ وأقرضوا ﴾ معترضة بين اسم إن وخبرها ، وهو ﴿ يضاعف ﴾ وقيل : هى صلة لموصول محذوف، أى والذين أقرضوا ، والقرض الحسن ، عبارة عن التصدق والإنفاق فى سبيل الله مع خلوص نية وصحة قصد واحتساب أجر . قرأ الجمهور :﴿ يضاعف لهم ﴾ بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف ، أى ثوابهم . وقرأ الأعمش : « يضاعفه » بكسر العين وزيادة الهاء ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب : « يضعف » بتشديد العين وفتحها ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ جميعا ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول ، وخبره قوله : ﴿ هم الصدّيقون والشهداء ﴾ الجملة خبر الموصول . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صدّيق . قال المقاتلان: هم الذين لم يشكوا فى الرسل حين أخبروهم ولم يكذّبوهم ، وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة ، وهم الأنبياء ، الذين يشهدون للأمم وعليهم ، واختار هذا الفراء والزجاج . وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا فى سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير . وقيل : هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ ، والظاهر أن معنى الآية : إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعا بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند الله . وقيل : إن الصدّيقين هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا بالله وصدّقوا جميع رسله ، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد . ثم بين سبحانه حالهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ والضمير الأوّل

راجع إلى الموصول ، والضميران الأخيران راجعان إلى الصدّيقين والشهداء ، أى لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال : إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء ، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شىء واحد ، والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ذكر حال الكافرين وعقابهم فقال : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ أى جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب ،وهذا مبتدأ وخبره :﴿ **أصحاب الجحيم** ﴾ يعذبون بها ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبى ﷺ قال : « استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ . . . الآية ». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه فى المسجد وهم يضحكون ، فسحب رداءه محمرا وجهه فقال : « أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ولقد أنزل علىّ فى ضحككم آية :﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ » قالوا: يارسول الله ، فما كفارة ذلك ؟ قال « تبكون بقدر ما ضحكتم ». وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿**ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ إلا أربع سنين [(١)] . وأخرج نحوه عنه ابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق أخرى . وأخرج أبويعلى وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض : أى شىء أحدثنا :أىّ شىء صنعنا ؟ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا**﴾. . . الآية . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن عبد العزيز بن أبى رواد أن أصحاب النبىّ ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾[(٢)] .

وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس : ﴿ **اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ قال: يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها . وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مؤمنو أمتى شهداء» ثم تلا النبىّ ﷺ : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم** ﴾ [(٣)] . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : كل مؤمن صديق وشهيد .وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ثم تلا هذه الآية .وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه .

---

(١) مسلم فى التفسير (٢٧ ٣٠ / ٢٤) والنسائى فى التفسير (٥٨٨) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٢) عن عبد الله بن الزبير وليس ابن مسعود كما عند مسلم والنسائى .

(٢) ابن أبى شيبة (١٧٥٦٤) .

(٣) ابن جرير ٢٧/ ١٣٣ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون** ﴾ قال: هذه مفصولة ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ . وأخرج ابن حبان عن عمرو ابن مرة الجهنى : قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان ، وقمته فممن أنا ؟ قال : « من الصدّيقين والشهداء »[(١)] .

﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثانى وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها بين لهم حقارتها ، وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة ، واللعب :هو الباطل ، واللهو :كل شىء يتلهى به ثم يذهب ، قال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . قال مجاهد : كلّ لعب لهو . وقيل : اللعب : ما رغب فى الدنيا ، واللهو: ما ألهى عن الآخرة وشغل عنها . وقيل : اللعب : الاقتناء ، واللهو : النساء ، وقد تقدّم تحقيق هذا فى سورة الأنعام ، والزينة : التزين بمتاع الدنيا دون عمل للآخرة ﴿ **وتفاخر بينكم** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **تفاخر** ﴾ والظرف صفة له ، أو معمول له ، وقرأ السلمى بالإضافة ، أى يفتخر به بعضكم على بعض ، وقيل : يتفاخرون بالخلقة والقوّة . وقيل : بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب ﴿**وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتطاولون بذلك على الفقراء . ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبهها وضرب لها مثلا فقال : ﴿ **كمثل غيث أعجب الكفار نباته** ﴾ أى كمثل مطر أعجب الزراع نباته ، والمراد بالكفار هنا : الزراع لأنهم يكفرون البذر ، أى يغطونه بالتراب ، ومعنى نباته : النبات الحاصل به ﴿ **ثم يهيج** ﴾ أى يجفّ بعد خضرته وييبس ﴿**فتراه**

---

(١) ابن حبان فى الموارد فى الإيمان (١٩) .

مصفرا ﴾ أى متغيرا عما كان عليه من الخضرة . والرونّق إلى لون الصفرة والذبول ﴿ **ثم يكون حطاما** ﴾ أى فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه ، وقد تقدّم تفسير هذا المثل فى سورة يونس والكهف ، والمعنى : أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن . وقرئ : « مصفارا » والكاف فى محل نصب على الحال، أو محل رفع على أنها خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، ذكر ما أعدّه للعصاة فى الدار الآخرة فقال :﴿ **وفى الآخرة عذاب شديد**﴾ وأتبعه بما أعدّ لأهل الطاعة فقال : ﴿ **ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ والتنكير فيهما للتعظيم . قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته ، قال الفراء : التقرير فى الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد، ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال :﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ لمن اغتر بها ولا يعمل لآخرته . قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه ، وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدّم ومؤكدة له .

ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة فقال : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ أى سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم وتوبوا مما وقع منكم من المعاصى ، وقيل: المراد بالآية : التكبيرة الأولى مع الإمام ، قاله مكحول . وقيل: المراد : الصفّ الأوّل ، ولا وجه لتخصيص ما فى الآية بمثل هذا ،بل هو من جملة ما تصدّق عليه صدقا شموليا أو بدليا ﴿**وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ أى كعرضهما،وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها. قال الحسن: يعنى:جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها ،وقيل: المراد بالجنة التى عرضها هذا العرض هى جنة كل واحد من أهل الجنة ، وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشىء بعرضه دون طوله . ومن ذلك قول الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران . ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال : ﴿ **أعدت للذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة ، وفى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان بالله ورسله ، ولكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه واجتنب ما نهاه الله عنه ، وهى أدلة كثيرة فى الكتاب والسنة ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أى يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضلا وإحسانا ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق والجواد الذى لا يبخل . ثم بيّن

سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره وثبت فى أمّ الكتاب فقال : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض** ﴾ من قحط مطر وضعف نبات ونقص ثمار ، قال مقاتل : القحط هو قلة النبات والثمار . وقيل: الجوائح فى الزرع ﴿ **ولا فى أنفسكم** ﴾ قال قتادة : بالأوصاب والأسقام . وقال مقاتل : إقامة الحدود : وقال ابن جريج : ضيق المعاش ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ فى محل نصب على الحال من مصيبة أى إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وجملة : ﴿ **من قبل أن نبرأها** ﴾ فى محل جر صفة لكتاب ، والضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس،أو إلى الأرض،أو إلى جميع ذلك.ومعنى ﴿**نبرأها**﴾ : نخلقها ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أى أن إثباتها فى الكتاب على كثرته على الله يسير غير عسير .

﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ أى اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ﴿ **ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ منها أى أعطاكم منها ، فإن ذلك يزول عن قريب ، وكلّ زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره ، فلن يعدو امرأ ما كتب له ، وما كان حصوله كائنا لا محالة ؛ فليس بمستحق للفرح بحصوله ولا الحزن على فوته ، قيل : والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز ، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، قرأ الجمهور:﴿ **بما آتاكم** ﴾ بالمدّ أعطاكم ، وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو بالقصر ، أى جاءكم ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد ﴿ **والله لا يحب كل مختال فخور**﴾ أى لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين ، وهما الاختيال والافتخار قيل : هو ذمّ للفرح الذى يختال فيه صاحبه ويبطر . وقيل : إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت فى نفسه اختال وافتخر بها . وقيل : المختال : الذى ينظر إلى نفسه، والفخور : الذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار ، والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى ، فمن حصلتا فيه فهو الذى لا يحبه الله .

﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ الموصول فى محل رفع بالابتداء ، وهو كلام مستأنف لاتعلق له بما قبله والخبر مقدر ، أى الذين يبخلون فالله غنىّ عنهم ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **ومن يتولّ فإن الله هو الغنىّ الحميد** ﴾ . وقيل : الموصول فى محل جرّ بدل من مختال ، وهو بعيد، فإن هذا البخل بما فى اليد وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور ، لا لغة ، ولا شرعا . وقيل : هو فى محل جرّ نعت له ، وهو أيضا بعيد ، قال سعيد بن جبير : الذين يبخلون بالعلم، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس شيئا ، وقال زيد بن أسلم: أنه البخل بأداء حق الله . وقيل : إنه البخل بالصدقة ، وقال طاووس : إنه البخل بما فى يديه ، وقيل : أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم ، قاله السدّى والكلبى . قرأ الجمهور :﴿ **بالبخل** ﴾ بضم الباء وسكون الخاء ، وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن

وحمزة والكسائى بفتحتين وهى لغة الأنصار وقرأ أبو العالية وابن السميفع بفتح الباء وسكون الخاء ، وقرأ نصر بن عاصم بضمهما ، وكلها لغات ﴿ **ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ أى ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنىّ عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ هو الغنى ﴾ بإثبات ضمير الفصل، وقرأ نافع وابن عامر : « فإن الله الغنى الحميد» بحذف الضمير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم** ﴾ يقول : فى الدين والدنيا ﴿ **إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾ قال : نخلقها ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ من الدنيا ﴿**ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ منها. وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو شىء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ الآية قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا ، ومن أصابه خير جعله شكرًا [١] . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، إنه قال: ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ وليس هذا من مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ، ويفرحوا بالحسنة .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات والشرائع الظاهرة ﴿ **وأنزلنا معهم**

(١) ابن جرير ٢٧/١٣٦ وصححه الحاكم ٢/٤٧٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٩٧٧١) .ط . دار الكتب .

الكتاب ﴾ المراد الجنس ، فيدخل فيه كتاب كلّ رسول ﴿ **والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان : العدل : أمرناهم بالعدل كما فى قوله :﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ [الرحمن: ٧] وقوله:﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : ١٧] وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به ، ومعنى ﴿ **ليقوم الناس بالقسط**﴾: ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط : العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه وموجباته ، وعلى القول بأن المراد به: الآلة التى يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى : إرشاد الناس إليه وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب :

علفتها تبنًا وماء باردا

﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أى خلقناه كما فى قوله:﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر : ٦] والمعنى : أنه خلقه من المعادن وعلم الناس صنعته .وقيل: إنه نزل مع آدم ﴿ **فيه بأس شديد** ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب، قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب ،قال مجاهد:فيه جنة وسلاح ،ومعنى ﴿ **ومنافع للناس** ﴾: أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين والفأس ، والإبرة وآلات الزراعة والتجارة والعمارة ، ﴿ **وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **ليقوم الناس** ﴾ أى لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم . وقيل : معطوف على علة مقدرة، كأنه قيل: ليستعملوه وليعلم الله ، والأول أولى، والمعنى: أن الله أمر فى الكتاب الذى أنزل بنصرة دينه ورسله فمن نصر دينه ورسله علمه ناصرا ، ومن عصى علمه بخلاف ذلك و﴿**بالغيب** ﴾ فى محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله، أى غائبا عنهم أو غائبين عنه ﴿ **إن الله قوىٌّ عزيز** ﴾ أى قادر على كل شىء غالب لكل شىء ، وليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين .

﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم** ﴾ لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل فذكر رسالته لنوح وإبراهيم ،وكرّر القسم للتوكيد ﴿**وجعلنا فى ذريتهما النبوّة والكتاب**﴾ أى جعلنا فيهم النبوّة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل : جعل بعضهم أنبياء وبعضهم يتلون الكتاب ﴿ **فمنهم مهتد** ﴾ أى فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح وإبراهيم.وقيل: المعنى : فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾: خارجون عن الطاعة .

﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا** ﴾ أى أتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم ﴿ **وقفينا بعيسى ابن مريم** ﴾ أى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم وهو من ذرية إبراهيم من

جهة أمه ﴿ **وآتيناه الإنجيل** ﴾ وهو الكتاب الذى أنزله الله عليه، وقد تقدّم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران . قرأ الجمهور : ﴿ **الإنجيل** ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بفتحها ﴿**وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة** ﴾ الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله فى قلوبهم مودّة لبعضهم البعض ، ورحمة يتراحمون بها ، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك ،وأصل الرأفة : اللين ، والرحمة :الشفقة ، وقيل: الرأفة : أشد الرحمة ، ﴿ **ورهبانية ابتدعوها** ﴾ انتصاب ﴿ **رهبانية** ﴾ على الاشتغال ، أى وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، وليس بمعطوفة على ما قبلها . وقيل : معطوفة على ما قبلها ، أى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم ، والأوّل أولى ، ورجحه أبو على الفارسى وغيره ، وجملة : ﴿ **ما كتبناها عليهم** ﴾ صفة ثانية لرهبانية ، أو مستأنفة مقرّرة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم ، والمعنى : ما فرضناها عليهم ، والرهبانية بفتح الراء وضمها ، وقد قرئ بهما ، وهى بالفتح : الخوف من الرهب ، وبالضم منسوبة إلى الرهبان ، وذلك لأنهم غلوا فى العبادة وحملوا على المشقات فى الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع ؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقى منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا ، ذكر معناه الضحاك وقتادة وغيرهما ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله** ﴾ الاستثناء منقطع ، أى ما كتبناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، وقال الزجاج : ما كتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئا ألبتة ، قال : ويكون ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله**﴾ بدلا من الهاء والألف فى كتبناها ، والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴿ **فما رعوها حقّ رعايتها** ﴾ أى لم يرعوا هذه الرهبانية التى ابتدعوها من جهة أنفسهم ، بل صنعوها ، وكفروا بدين عيسى ، ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا وبدّلوا وتركوا الترهب ، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم ، وهم المرادون بقوله : ﴿ **فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**﴾ الذى يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله ﴿ **وكثير منهم فاسقون**﴾: خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذّم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه دينا ، وأما على القول بأن الاستثناء متصل ، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدّمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ . فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ بترك ما نهاكم عنه ﴿ **وآمنوا برسوله** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ أى نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، وأصل الكفل : الحظ والنصيب ، وقد تقدّم الكلام على تفسيره فى سورة النساء. ﴿**ويجعل لكم نورا تمشون به** ﴾ يعنى: على الصراط كما قال : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾[التحريم : ٨] وقيل : المعنى : ويجعل لكم سبيلا واضحا فى الدين تهتدون به ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ما سلف

من ذنوبكم ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة . ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان والتقوى ، والتقدير : اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿ **أن لا يقدرون على شيء من فضل الله** ﴾ و« لا » فى قوله : ﴿ **لئلا** ﴾ زائدة للتوكيد ، قاله الفراء والأخفش وغيرهما ، و « أن » فى قوله: ﴿ **أن لا يقدرون** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف وخبرها ما بعدها ، والجملة فى محل نصب على أنها مفعول يعلم ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئا من فضل الله الذى تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذى تفضل الله به على المستحقين له ، وجملة : ﴿ **وأن الفضل بيد الله** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، أى ليعلموا أنهم لا يقدرون وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه ، وقوله : ﴿ **يؤتيه من يشاء** ﴾ خبرثان لأن ، أو هو الخبر ، والجارّ والمجرور فى محل نصب على الحال ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . والمراد بالفضل هنا : ما تفضل به على الذين اتقوا ، وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف. وقال الكلبى: هو رزق الله. وقيل: نعم الله التى لا تحصى، وقيل : هو الإسلام ، وقد قيل : إن « لا » فى ﴿ **لئلا** ﴾ غير مزيدة، وضمير ﴿ **لا يقدرون** ﴾ للنبىّ ﷺ وأصحابه ، والمعنى : لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبىّ والمؤمنون على شيء من فضل الله الذى هو عبارة عما أوتوه، والأوّل أولى ، وقرأ ابن مسعود : « لكيلا يعلم » وقرأ خطاب بن عبد الله : « لأن يعلم » وقرأ عكرمة :« ليعلم » وقرئ : «ليلا» بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بفتح اللام .

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق [عَن][1] ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ: « يا عبد الله » قلت : لبيك يارسول الله ، ثلاث مرات ، قال : « هل تدرى أى عرى الإسلام أوثق ؟ » قلت: الله ورسوله أعلم ، قال:« أوثق عرى الإيمان الولاية فى الله بالحب فيه والبغض فيه » قال : « هل تدرى أى الناس أفضل؟ » قلت : [الله ورسوله أعلم] [2] قال : « أفضل الناس أفضلهم عملا ، إذا فقهوا فى دينهم ، يا عبد الله هل تدرى أىّ الناس أعلم ؟» قلت الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصرا بالعمل وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها : فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلهم الملوك ونشرتهم بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولابالمقام معهم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ١٧٧ ومن المخطوطة .
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة وقد أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ١٧٧ ومن البيهقى فى الشعب .

الله: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ هم الذين آمنوا بى وصدقونى ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ الذين جحدونى وكفروا بى »[١] .

وأخرج النسائى ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل . فقيل لملوكهم: ما نجد شيئا أشدّ من شتم يشتمناه هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤]﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥] ﴿فأولئك هم الفاسقون ﴾ [المائدة : ٤٧] مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم، فادعوهم فليقرؤوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا ، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل ، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منهما ، فقالوا :ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة: دعونا نسيح فى الأرض، ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك ، فأنزل الله: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك وفنى من فنى منهم قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبىّ ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته، وجاء السياح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه فقال الله: ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين: بإيمانهم بعيسى وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم به ﴿ ويجعل لكم نورا تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبىّ ﷺ[٢] .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى ، والبيهقى فى الشعب عن أنس أن النبى ﷺ قال: « إن لكل أمة رهبانية ،ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله »[٣].وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى فى قوله: ﴿كفلين ﴾ قال : ضعفين وهى بلسان الحبشة . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال : الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءا من رحمة الله .

---

(١) ابن جرير ٢٧/١٣٨ والبيهقى فى الشعب (٩٥١٠) . ط . دار الكتب .

(٢) النسائى فى التفسير (٥٨٧) وابن جرير ٢٧/١٣٨ وقال ابن كثير ٦/٥٦٨ ، ٥٦٩ : «هذا السياق فيه غرابة » .

(٣) أحمد ٣/٢٦٦وأبو يعلى (٤٢٠٤) والبيهقى فى الشعب (٣٩٢٣) وإسناد الحديث ضعيف لضعف زيد العمى .

تفسير سورة المجادلة

هى ثنتان وعشرون آية ، وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدنى، وباقيها مكى [١] . وقال الكلبى : نزلت جميعها بالمدينة غير قوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ نزلت بمكة . وأخرج ابن الضريس والنحاس وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المجادلة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ .

قوله : ﴿ قد سمع الله ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بإدغام الدال فى السين ، وقرأ الباقون بالإظهار . قال الكسائى : من بين الدال عند السين فلسانه أعجمي وليس بعربىّ ﴿ قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ أى تراجعك الكلام فى شأنه ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ معطوف على تجادلك ، والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها : « قد حرمت عليه»، قالت :والله ما ذكر طلاقاً ثم تقول : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك فهذا معنى قوله : ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت وكان به لمم [٢] فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقا فى الجاهلية . وقيل : هى خولة بنت حكيم ، وقيل : اسمها جميلة ، والأول أصح . وقيل : هى بنت خويلد ، وقال الماوردى: إنها نسبت تارة إلى أبيها ، وتارة إلى جدها وأحدهما أبوها ، والآخر جدها ، فهى

---

(١) القرطبى ٩/ ٦٤٣٩ .

(٢) اللمم : طرف من جنون يلم الإنسان .

خولة بنت ثعلبة بن خويلد ، وجملة : ﴿ **والله يسمع تحاوركما** ﴾ فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها ، أى والله يعلم تراجعكما فى الكلام ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾ يسمع كل مسموع ، ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة .

ثم بين سبحانه شأن الظهار فى نفسه وذكر حكمه فقال : ﴿ **الذين يظهرون منكم من نسائهم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**يظهرون** ﴾ بالتشديد مع فتح حرف المضارعة ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى : « **يظاهرون** » بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقرأ أبو العالية وعاصم و زر بن حبيش : « **يتظاهرون** » بفك الإدغام ، ومعنى الظهار : أن يقول لامرأته : أنت على كظهر أمى ، ولا خلاف فى كون هذا ظهارا .

واختلفوا إذا قال : أنت على كظهر ابنتى أو أختى أو غير ذلك من ذوات الأرحام ، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار ، وبه قال الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى . وقال جماعة منهم قتادة والشعبى : إنه لا يكون ظهارا ، بل يختص الظهار بالأم وحدها . واختلفت الرواية عن الشافعى ، فروى عنه كالقول الأول ، وروى عنه كالقول الثانى. وأصل الظهار مشتق من الظهر. واختلفوا إذا قال لامرأته :أنت على كرأس أمى أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك ،هل يكون ظهارا أم لا ؟ وهكذا إذا قال : أنت على كأمى ولم يذكر الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهارا . وروى عن أبى حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهارا . وروى عن الشافعى أنه لا يكون الظهار إلا فى الظهر وحده واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية ، فقيل : يكون ظهارا . وقيل : لا ، والكلام فى هذا مبسوط فى كتب الفروع .

وجملة :﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر الموصول ، أى ما نساؤهم بأمهاتهم ، فذلك كذب منهم . وفى هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم ، قرأ الجمهور : «**أمهاتهم** » على اللغة الحجازية فى إعمال « ما » عمل ليس . وقرأ أبو عمرو والسلمى بالرفع على عدم الإعمال ، وهى لغة نجد وبنى أسد ، ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال : ﴿**إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ أى ما أمهاتهم إلا النساء اللائى ولدنهم ثم زاد سبحانه فى توبيخهم وتقريعهم فقال:﴿ **وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا** ﴾ أى وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرا من القول ، أى فظيعا من القول ينكره الشرع ، والزور : الكذب ، وانتصاب ﴿**منكرا**﴾ و﴿ **زورا** ﴾ على أنهما صفة لمصدر محذوف ، أى قولا منكرا وزورا ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ أى بليغ العفو والمغفرة، إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا القول المنكر .

﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** ﴾ لما ذكر سبحانه الظهار إجمالا ووبخ فاعليه شرع فى تفصيل أحكامه ، والمعنى : والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور ، ثم يعودون لما قالوا ، أى إلى ما قالوا بالتدارك والتلافى كما فى قوله : ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾

[النور: ١٧] قال الأخفش : ﴿ لما قالوا ﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان. قال : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] وقال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصافات : ٢٣] ، ﴿ بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة : ٥] ،وقال :﴿ وأوحى إلى نوح ﴾ [هود : ٣٦] وقال الفراء : اللام بمعنى عن ، والمعنى : ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء . وقال الزجاج : المعنى : ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . قال الأخفش أيضا : الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى : والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع ﴿فتحرير رقبة﴾ لما قالوا ، أى فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا ، فالجار فى قوله : ﴿ لما قالوا ﴾ متعلق بالمحذوف الذى هو خبر المبتدأ وهو فعليهم .

واختلف أهل العلم فى تفسير العود المذكور على أقوال : الأول : أنه العزم على الوطء وبه قال العراقيون أبوحنيفة وأصحابه ، وروى عن مالك . وقيل : هو الوطء نفسه وبه قال الحسن ، وروى أيضا عن مالك . وقيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق وبه قال الشافعى . وقيل : هو الكفارة ، والمعنى : أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد ، وروى عن أبى حنيفة . وقيل : هو تكرير الظهار بلفظه ، وبه قال أهل الظاهر ، وروى عن بكير بن الأشج وأبى العالية والفراء ، والمعنى : ثم يعودون إلى قول ما قالوا .

والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ على تقدير فعليهم تحرير رقبة كما تقدم ، أو فالواجب عليهم إعتاق رقبة ، يقال : حررته ، أى جعلته حرا ، والظاهر أنها تجزئ أى رقبة كانت . وقيل : يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة فى كفارة القتل ، وبالأول : قال أبو حنيفة وأصحابه ، وبالثانى : قال مالك والشافعى ، واشترطا أيضا سلامتها من كل عيب ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ المراد بالتماس هنا : الجماع ، وبه قال الجمهور، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر. وقيل : إن المراد به : الاستمتاع بالجماع ، أو اللمس ، أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك، وهو أحد قولى الشافعى ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى الحكم المذكور ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ توعظون به ﴾ أى تؤمرون به ، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة . قال الزجاج : معنى الآية : ذلكم التغليظ فى الكفارة توعظون به ، أى إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم فهو مجازيكم عليها .

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ أى فمن لم يجد الرقبة فى ملكه ولا تمكن من قيمتها فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض قال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى

والشافعي ومالك : إنه يبنى ولا يستأنف ، وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعي ومعنى ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ : هو ما تقدم قريبا ، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك ، وقال الشافعي : لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم ، والأول أولى ﴿ **فمن لم يستطع** ﴾ يعنى : صيام شهرين متتابعين ﴿**فإطعام ستين مسكينا** ﴾ أى فعليه أن يطعم ستين مسكينا ، لكل مسكين مدان ، وهما نصف صاع ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقال الشافعي وغيره : لكل مسكين مد واحد ، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة ، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة ، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم ، وبعضهم فى يوم آخر ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الأحكام وهو مبتدأ وخبره مقدر ، أى ذلك واقع ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ ويجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب ، والتقدير : فعلنا ذلك لتؤمنوا ، أى لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه ، أو لتطيعوا الله ورسوله فى الأوامر والنواهى ، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها ولا تعودوا إلى الظهار الذى هو منكر من القول وزور ، والإشارة بقوله : ﴿ **وتلك** ﴾ إلى الأحكام المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره: ﴿ **حدود الله** ﴾ فلا تجاوزوا حدوده التى حدها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة ﴿ **وللكافرين** ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله ولا يعملون بما حده الله لعباده ﴿**عذاب أليم**﴾ وهو عذاب جهنم ، وسماه كفرا تغليظا وتشديدا .

وقد أخرج ابن ماجة وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شيء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ وهو أوس بن الصامت [١] . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : كان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها : خولة بنت خويلد ، فظاهر منها فأسقط فى يده وقال : ما أراك إلا قد حرمت على ، فانطلقى إلى النبى ﷺ فاسأليه ، فأتت النبى ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته ، فقال : « يا خولة ، ما أمرنا فى أمرك بشيء » ، فأنزل الله على النبى ﷺ فقال : « يا خولة أبشرى » قالت : خيرا . قال : «خيرا »، فقرأ عليها : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ الآيات [٢] . وأخرج أحمد وأبو داود وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال : حدثتنى خولة بنت ثعلبة قالت : فى والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر

---

(١) ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٣) وصححه الحاكم ٢/ ٤٨١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٣٨٢ .
(٢) البيهقى ٧/ ٣٨٣ وقال ابن كثير ٦/ ٥٧٦ : « هذا إسناد جيد قوى ، وسياقه غريب » .

سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، فدخل على يوما فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت على كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادى قومه ساعة، ثم دخل على فإذا هو يريدني عن نفسي، قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه، فقال لى : « يا خولة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك » ، ثم قرأ على : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عذاب أليم**﴾ فقال رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » ، قلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين» ، قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : « فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر » ، قلت : والله ما ذاك عنده ، قال رسول الله ﷺ : « فأنا سأعينه بعرق من تمر » ، فقلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، فقال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدقى به عنه ثم استوصى بابن عمك خيرا » ، قالت : ففعلت [١]. وفى الباب أحاديث .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم يعودون لما قالوا** ﴾ قال : هو الرجل يقول لامرأته : أنت على كظهر أمى ، فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر بعتق رقبة ﴿ **فمن** ﴾ فإن ﴿ **لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا** ﴾ والمس : النكاح ﴿ **فمن** ﴾ فإن ﴿ **لم يستطع فإطعام ستين مسكينا**﴾ وإن هو قال لها : أنت على كظهر أمى إن فعلت كذا فليس يقع فى ذلك ظهار حتى يحنث ، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفر ، ولا يقع فى الظهار طلاق . وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة قال: ثلاث فيه مد : كفارة اليمين ، وكفارة الظهارة ، وكفارة الصيام . وأخرج البزار والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : أتى رجل النبى ﷺ فقال : إنى ظاهرت من امرأتى، فرأيت خلخالها فى ضوء القمر ، فوقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال النبى ﷺ : «ألم يقل الله : ﴿**من قبل أن يتماسا** ﴾ » قال : قد فعلت يا رسول الله . قال : « أمسك عنها حتى تكفر » [٢] . وأخرج عبد الرزاق وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والحاكم والبيهقى عن ابن عباس ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها من قبل أن أكفر ، فقال : « وما حملك على ذلك ؟ » قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر ، قال : «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله » [٣] .

---

(١) أحمد ٦/ ٤١٠ ، ٤١١ وأبو داود فى الطلاق (٢٢١٤) والطبرانى (٦١٦) والبيهقى ٧/ ٣٨٩ .

(٢) الطبرانى (١٠٨٨٧) وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٤ وقال : « حديث إسماعيل عن عمرو بن دينار ، ولم يحتج الشيخان بإسماعيل ولا بالحكم بن أبان إلا أن الحكم بن أبان صدوق » وقال الذهبى : « العوفى غير ثقة » والبيهقى ٧/ ٣٨٦ .

(٣) عبد الرزاق (١١٥٢٥) وأبو داود فى الطلاق (٢٢٢٥) والترمذى فى الطلاق (١١٩٩) وقال : « حديث حسن غريب صحيح » والنسائى فى الظهار٦/ ١٦٧وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٥) والحاكم ٢/ ٢٠٤ والبيهقى٧/٣٨٦ .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجة والطبرانى ، والبغوى فى معجمه ، والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصارى قال : كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتابع فى ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركنى الصبح ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشف لى منها شىء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى ، فقلت : انطلقوا معى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بأمرى ، فقالوا : والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن ، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجت فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبرى ، فقال : « أنت بذاك ؟ » قلت : أنا بذاك ، قال : « أنت بذاك ؟ » قلت :أنا بذاك ، قال : « أنت بذاك ؟ » قلت : أنا بذاك وها أنا ذا فأمض فى حكم الله فإنى صابر لذلك . قال : « اعتق رقبة » ، فضربت عنقى بيدى ، فقلت : لا والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : « فصم شهرين متتابعين » ، فقلت : هل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ؟ قال : « فأطعم ستين مسكينا » ، فقلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشا ما لنا عشاء ، قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق ، فقل له ، فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا ، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك » ، فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة ، أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلى ، فدفعوها إليه [1] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا

---

(١) عبد الرزاق (١١٥٢٨) وأحمد ٤/ ٣٧ وأبو داود فى الطلاق (٢٢١٣) والترمذى فى التفسير (٣٢٩٩) وقال : «هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٦٢) والطبرانى (٢٨٦٣) وصححه الحاكم ٢/ ٢٠٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله** ﴾ لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين ، والمحادة : المشاقة والمعاداة والمخالفة ، ومثله قوله :﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ [المجادلة : ٢٠] . قال الزجاج : المحادة أن تكون فى حد يخالف صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب ﴿ **كبتوا كما كبت الذين من قبلهم** ﴾ أى أذلوا وأخزوا ، يقال : كبت الله فلانا : إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت . قال المقاتلان: أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة ، وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا ، وقال ابن زيد : عذبوا ، وقال السدى : لعنوا . وقال الفراء : أغيظوا ، والمراد بمن قبلهم : كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه . وقيل : المعنى : على المضى، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر ، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر ، وجملة : ﴿ **وقد** [1] **أنزلنا آيات بينات** ﴾ فى محل نصب على الحال من الواو فى كبتوا ، أى والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسله من الأمم المتقدمة . وقيل : المراد : الفرائض التى أنزلها الله سبحانه . وقيل : هى المعجزات ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ أى للكافرين بكل ما يجب الإيمان به ، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوليا ، والعذاب المهين : الذى يهين صاحبه ويذله ، ويذهب بعزه ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعا** ﴾ الظرف منتصب بإضمار اذكر ، أو بمهين ، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار أو بأحصاه المذكور بعده ، وانتصاب ﴿ **جميعا** ﴾ على الحال ، أى مجتمعين فى حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ﴿ **فينبئهم بما عملوا** ﴾ أى يخبرهم بما عملوه فى الدنيا من الأعمال القبيحة ، توبيخا لهم وتبكيتا ولتكميل الحجة عليهم ، وجملة : ﴿**أحصاه الله ونسوه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف ينبئهم بذلك على كثرته واختلاف أنواعه ، فقيل : أحصاه الله جميعا ولم يفته منه شىء ، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه ، بل وجدوه حاضرا مكتوبا فى صحائفهم ﴿ **والله على كل شىء شهيد** ﴾ لا يخفى عليه شىء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر .

ثم أكد سبحانه بيان كونه عالما بكل شىء فقال : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ أى ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شىء مما فيهما ، وجملة : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة** ﴾ إلخ مستأنفة لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات

(١) فى المطبوعة : « ولقد » .

قرأ الجمهور : ﴿ **يكون** ﴾ بالتحتية . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، و« من » مزيدة للتأكيد ، ونجوى فاعل كان ، والنجوى : السرار ، يقال : قوم نجوى ، أى ذو نجوى وهى مصدر . والمعنى : ما يوجد من تناجى ثلاثة أو من ذوى نجوى ، ويجوز أن تطلق على الأشخاص المتناجين ، فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أو الصفة لها. قال الفراء : ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهى قراءة ابن أبى عبلة ، ويجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى ﴿ **إلا هو رابعهم** ﴾ هذه الجملة فى موضع نصب على الحال، وكذا قوله : ﴿ **إلا هو سادسهم** [1] ﴾ ﴿ **إلا هو معهم** ﴾ أى ما يوجد شىء من هذه الأشياء إلا فى حال من هذه الأحوال ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، ومعنى رابعهم : جاعلهم أربعة ، وكذا سادسهم: جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى ﴿ **ولا خمسة** ﴾ أى ولا نجوى خمسة ، وتخصيص العددين بالذكر ؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة ، أو كانت الواقعة التى هى سبب النزول فى متناجين كانوا ثلاثة فى موضع وخمسة فى موضع . قال الفراء : العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر والجهر لا تخفى عليه خافية ﴿ **ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم** ﴾ أى ولا أقل من العدد المذكور كالواحد والاثنين ، ولا أكثر منه ، كالستة والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شىء . قرأ الجمهور : ﴿ **ولا أكثر** ﴾ بالجر بالفتحة عطفا على لفظ نجوى. وقرأ الحسن والأعمش وابن أبى إسحاق وأبو حيوة ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بن عمر وسلام بالرفع عطفا على محل نجوى . وقرأ الجمهور : ﴿ **ولا أكثر** ﴾ بالمثلثة . وقرأ الزهرى وعكرمة بالموحدة . قال الواحدى : قال المفسرون : إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم ، فيحزنون لذلك ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم ألاّ يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله هذه الآيات ، ومعنى ﴿ **أينما كانوا** ﴾ إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم فى أى مكان من الأمكنة ﴿ **ثم ينبئهم** ﴾ أى يخبرهم ﴿ **بما عملوا يوم القيامة** ﴾ توبيخا لهم وتبكيتا وإلزاما للحجة ﴿**إن الله بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان .

﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ هؤلاء الذين نهوا ، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدم ذكره من المنافقين واليهود . قال مقاتل : كان بين النبى ﷺ وبين اليهود مواعدة ، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا ، فنهاهم الله فلم ينتهوا ، فنزلت . وقال ابن زيد : كان الرجل يأتى النبى ﷺ فيسأله الحاجة

(١) فى المطبوعة : « خامسهم » .

ويناجيه ، والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك ﴿ **ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يتناجون** ﴾ بوزن يتفاعلون ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله فيما بعد : ﴿ **إذا تناجيتم فلا تتناجوا**﴾ وقرأ حمزة وخلف وورش عن يعقوب : « وينتجون » بوزن يفتعلون، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم : ما هو إثم فى نفسه كالكذب والظلم، والعدوان : ما فيه عدوان على المؤمنين ، ومعصية الرسول : مخالفته ، قرأ الجمهور : ﴿ **ومعصية** ﴾ بالإفراد ، وقرأ الضحاك وحميد ومجاهد : « ومعصيات » بالجمع ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال القرطبى : إن المراد بها اليهود كانوا يأتون النبى ﷺ فيقولون : السام عليك يريدون بذلك: السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا ، فيقول النبى ﷺ :« عليكم » . وفى رواية أخرى : « وعليكم »[1]. ﴿**ويقولون فى أنفسهم**﴾ أى فيما بينهم: ﴿ **لولا يعذبنا الله بما نقول** ﴾ أى هلا يعذبنا ذلك ، ولو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به . وقيل : المعنى: لو كان نبيا لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم ووقع علينا الموت عند ذلك ﴿**حسبهم جهنم** ﴾ عذابا ﴿ **يصلونها** ﴾ يدخلونها ﴿ **فبئس المصير** ﴾ أى المرجع ، وهو جهنم .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ لما فرغ سبحانه عن نهى اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم ألاّ يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله كما يفعله اليهود والمنافقون ، ثم بين لهم ما يتناجون به فى أنديتهم وخلواتهم فقال : ﴿ **وتناجوا بالبر والتقوى** ﴾ أى بالطاعة وترك المعصية . وقيل : الخطاب للمنافقين ، والمعنى : يأيها الذين آمنوا ظاهرا أو بزعمهم ، واختار هذا الزجاج . وقيل: الخطاب لليهود ، والمعنى : يأيها الذين آمنوا بموسى ، والأول أولى ، ثم خوفهم سبحانه فقال : ﴿ **واتقوا الله الذى إليه تحشرون** ﴾ فيجزيكم بأعمالكم .ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجى هو من جهة الشيطان . فقال : ﴿ **إنما النجوى** ﴾ يعنى : بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿ **من الشيطان** ﴾ لا من غيره ، أى من تزيينه وتسويله ﴿**ليحزن الذين آمنوا** ﴾ أى لأجل أن يوقعهم فى الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها فى مكيدة يكادون بها ﴿ **وليس بضارهم شيئا** ﴾ أو وليس الشيطان أو التناجى الذى يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أى بمشيئته . وقيل : بعلمه ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ويفوضونه فى جميع شؤونهم ، ويستعيذون بالله من الشيطان، ولا يبالون بما يزينه من النجوى .

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى

---

(١) القرطبى ٩/ ٦٤٦٢ .

الشعب ، قال السيوطي: بسند جيد ، عن ابن عمر : إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: السام عليك ، يريدون بذلك شتمه ، ثم يقولون في أنفسهم : ﴿ **لولا يعذبنا الله بما نقول**﴾ فنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ (١) . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ، والترمذي وصححه عن أنس أن يهوديا أتى النبي ﷺ وأصحابه فقال: السام عليكم ، فرد عليه القوم ، فقال النبي ﷺ: « هل تدرون ما قال هذا ؟ » . قالوا : الله أعلم ، سلم يا نبي الله ، قال : « لا ، ولكنه قال كذا وكذا ، ردوه على » فردوه ، قال : « قلت : السام عليكم؟ » قال : نعم ، قال النبي ﷺ عند ذلك : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك (٢) ، ما قلت ». قال:﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾(٣). وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال :« يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا المتفحش » ، قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أو ما سمعتني أقول : وعليكم » ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾(٤) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه : سام عليك فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبي ﷺ إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رؤوسهم إلى المسلمين ويقولون : قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله ﷺ تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبي ﷺ ومن المسلمين ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ الآية. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :« إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » (٥) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ يطرقه أمر ، أو يأمر بشيء ، فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا أنداء (٦)

---

(١) أحمد ٢/ ٩ ومسلم في السلام (٢١٦٤/ ٨ ، ٩) والبيهقي في الشعب (٩١٠٠) وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٢٤ ، ١٢٥ : « رواه أحمد والبزار والطبراني وإسناده جيد ؛لأن حمادا سمع من عطاء بن السائب في حالة الصحة » .

(٢) في المخطوطة:« فقولوا : عليك . قال : عليك » وفي الدر المنثور ٦/ ١٨٤ بحذف:«قال:عليك » وهو ما أثبتناه.

(٣) أحمد ٣/ ١٤٠ والبخاري في الاستئذان (٦٢٥٨) وفي استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم (٦٩٢٦) والترمذي في التفسير (٣٣٠١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٤ : « قلت : لأنس حديث في الصحيح غير هذا ، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البخاري في الاستئذان (٦٢٥٦) ومسلم في الاستئذان (٢١٦٥/ ١٠ ، ١١) والنسائي في التفسير (٥٩١) وابن ماجة في الأدب (٣٦٩٨).

(٥) البخاري في الاستئذان (٦٢٩٠) ومسلم في السلام (٢١٨٤/ ٣٧) والترمذي في الأدب (٢٨٢٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة في الأدب (٣٧٧٥) .

(٦) جمع النادي وهم القوم المجتمعون . لسان العرب ٥/ ٣١٧ .

نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال : « ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ » قلنا : يا رسول الله ، إنا كنا فى ذكر المسيح فرقا منه ، فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى منه ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله ، قال :« الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء [1] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس ﴾ يقال : فسح له يفسح فسحا، أى وسع له، ومنه قولهم : بلد فسيح ، أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة فى المجلس ، وعدم التضايق فيه . قال قتادة ومجاهد والضحاك : كانوا يتنافسون فى مجلس النبى ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقال الحسن ويزيد بن أبى حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ، رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ أى فوسعوا يوسع الله لكم فى الجنة ، أو فى كل ما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما . قرأ الجمهور : ﴿ تفسحوا فى المجلس ﴾ وقرأ السلمى وزر بن حبيش وعاصم : ﴿ فى المجالس﴾ على الجمع ؛ لأن لكل واحد منهم مجلسا ، وقرأ قتادة والحسن وداود بن أبى هند وعيسى بن عمر : « تفاسحوا » قال الواحدى : والوجه التوحيد فى المجلس ؛ لأنه يعنى به مجلس النبى ﷺ . وقال القرطبى : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو يوم الجمعة ، وأن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه ، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه [2] ، ويؤيد هذا حديث ابن عمر عند البخارى ومسلم وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا»[3] .

---

(١) ابن كثير ٦/ ٥٨١ . (٢) القرطبى ٩/ ٦٤٦٧ .

(٣) أحمد ٢/ ١٧ والبخارى فى الاستئذان (٦٢٧٠) ومسلم فى السلام (٢١٧٧/ ٢٧، ٢٨) والترمذى فى الأدب (٢٧٤٩) وقال : « حديث حسن صحيح » .

﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيها ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمها فيهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، يقال : نشز ، أى ارتفع ينشز وينشز كعكف يعكف ، والمعنى : إذا قيل لكم : انهضوا فانهضوا . قال جمهور المفسرين : أى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، وقال مجاهد والضحاك وعكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة ، فقيل لهم : إذا نودى للصلاة فانهضوا . وقال الحسن : انهضوا إلى الحرب ، وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبى ﷺ كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى ﷺ ، فقال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ عن النبى ﷺ ﴿ فانشزوا ﴾ فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى : أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف ، والظاهر حمل الآية على العموم ، والمعنى : إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا ، ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجا أوليا ، وهكذا يندرج ما فيه السياق وهو التفسيح فى المجلس اندراجًا أوليا ، وقد قدمنا أن معنى نشز :ارتفع ، وهكذا يقال : نشز ينشز: إذا تنحى عن موضعه ومنه امرأة ناشز ، أى متنحية عن زوجها ، وأصله مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى، ذكر معناه النحاس ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ فى الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ أى ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا والثواب فى الآخرة، ومعنى الآية : أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ، ثم رفعه بعلمه درجات، وقيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة ، وكذلك الذين أوتوا العلم . وقيل : المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن ، والأولى حمل الآية على العموم فى كل مؤمن وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، وفى هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله ، وقد دل على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم من خير وشر ، فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا .

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فـقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ المناجاة : المسارة، والمعنى : إذا أردتم مسارة الرسول فى أمر من أموركم فقدموا بين يدى مساررتكم له صدقة . قال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبى ﷺ يناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى ، فشق عليهم ذلك، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبى ﷺ ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدا من مناجاته ، وكان ذلك يشق على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم ناجوه

بأن جموعا اجتمعت لقتاله ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول** ﴾ فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بالآية التى بعد هذه ، والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من تقديم الصدقة بين يدى النجوى ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **خير لكم وأطهر** ﴾ لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امتثاله خيرا لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ يعنى من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدى النجوى ، فلا حرج عليه فى النجوى بدون صدقة .

﴿**أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ﴾ أى أخفتم الفقر والعيلة لأن تقدموا ذلك، والإشفاق : الخوف من المكروه ، والاستفهام للتقرير . وقيل : المعنى : أبخلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقال الكلبى : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة ، وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من النهار ﴿ **فإذ لم تفعلوا** ﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدى النجوى ، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ولم يفعل ، وأما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله : ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ ﴿ **وتاب الله عليكم** ﴾ بأن رخص لكم فى الترك . و« إذ » على بابها فى الدلالة على المضى . وقيل : هى بمعنى إذا . وقيل : بمعنى إن ، وتاب معطوف على لم تفعلوا، أى وإذا لم تفعلوا وإذ تاب عليكم ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ والمعنى : إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدى النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿**والله خبير بما تعملون** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء فهو مجازيكم ، وليس فى الآية ما يدل على تقصير المؤمنين فى امتثال هذا الأمر ، أما الفقراء منهم فالأمر واضح ، وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة، بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة ، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصرا فى امتثال الأمر بالصدقة ، على أن فى الآية ما يدل على أن الأمر للندب كما قدمنا ، وقد استدل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل ،وليس هذا الاستدلال بصحيح ، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل ، وأيضا قد فعل ذلك البعض ، فتصدق بين يدى نجواه كما سيأتى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية : ﴿ **إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس** ﴾ يوم جمعة ورسول الله ﷺ يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع

لهم ، فعرف النبى ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : « قم يا فلان وأنت يا فلان » ، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية [١] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : ذلك فى مجلس القتال ﴿ **وإذا قيل انشزوا** ﴾ قال : إلى الخير والصلاة . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه ، والبيهقى فى المدخل عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ قال: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية قال : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات . وأخرج ابن المنذر عنه قال : ما خص الله العلماء فى شيء من القرآن ما خصهم فى هذه الآية ، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا ناجيتم الرسول** ﴾ الآية ، قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما قال ذلك امتنع [٢] كثير من الناس وكفوا عن المسألة . فأنزل الله بعد هذا : ﴿ **أأشفقتم** ﴾ الآية ، فوسع الله عليهم ولم يضيق . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والنحاس وابن مردويه عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت :﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ قال لى النبى ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قلت : لا يطيقونه . قال : « فنصف دينار؟» قلت : لا يطيقونه ، قال : « فكم ؟ » قلت : شعيرة ، قال : « إنك لزهيد » ، قال: فنزلت: ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ﴾ الآية ، فبى خفف الله عن هذه الأمة، والمراد بالشعيرة هنا : وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد : واحدة من حب الشعير[٣]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت ، وما كانت إلا ساعة ، يعنى: آية النجوى . وأخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أيضا قال : إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة**﴾ كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله ﷺ قدمت بين

---

(١) القرطبى ٩ / ٦٤٦٦ .

(٢) فى المخطوطة : « ظن » والصحيح : امتنع كما فى الدر المنثور ٦ / ١٨٥ ليستقيم المعنى .

(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٧٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه » وأبو يعلى (٤٠٠) وابن جرير ٢٨ / ١٥ .

يدى نجواى درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ﴾ الآية [١] . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن سعد بن أبى وقاص قال : نزلت ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك لزهيد » ، فنزلت الآية الأخرى : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ﴾[٢] .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)** ﴾ .

قوله :﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوما** ﴾ أى والوهم . قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود. وقال السدى ومقاتل : هم اليهود تولوا المنافقين ، ويدل على الأول قوله : ﴿ **غضب الله عليهم** ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود ، ويدل على الثانى قوله : ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾ فإن هذه صفة المنافقين ، كما قال الله فيهم : ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ [النساء : ١٤٣] وجملة : ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو هى مستأنفة ﴿**ويحلفون على الكذب** ﴾ أى يحلفون أنهم مسلمون ، أو يحلفون أنهم ما

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢١٧٤) وصححه الحاكم ٢/ ٤٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٥ : « رواه الطبرانى فى حديث طويل وفيه مسلمة بن الفضل الأبرش ووثقه ابن معين وغيره وضعفه البخارى وغيره » .

(٢) الطبرانى ١ / ١٤٧ .

نقلوا الأخبار إلى اليهود ، والجملة عطف على تولوا داخلة فى حكم التعجيب من فعلهم ، وجملة : ﴿**وهم يعلمون**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه ، وأنه كذب لا حقيقة له . ﴿ **أعد الله لهم عذابا شديدا** ﴾ بسبب هذا التولى والحلف على الباطل ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**أيمانهم** ﴾ بفتح الهمزة جمع يمين ، وهى ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل ، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم . وقرأ الحسن وأبو العالية: « إيمانهم» بكسر الهمزة ، أى جعلوها تصديقهم جنة من القتل ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم ﴿**فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أى منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط وتهوين أمر المسلمين وتضعيف شوكتهم . وقيل : المعنى : فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾ أى يهينهم ويخزيهم ، قيل : هو تكرير لقوله: ﴿ **أعد الله لهم عذابا شديدا** ﴾ للتأكيد ، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة ،ولا وجه للقول بالتكرر ، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة.

﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا** ﴾ أى لن تغنى عنهم من عذابه شيئا من الإغناء . قال مقاتل : قال المنافقون : إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذن، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة فنزلت الآية ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ **أصحاب النار** ﴾ لا يفارقونها ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ لا يخرجون منها ﴿**يوم يبعثهم الله جميعا** ﴾ الظرف منصوب بقوله : ﴿ **مهين** ﴾ أو بمقدر ، أى اذكر ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾ أى يحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم فى الدنيا ، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة ، فكيف يجترئون على أن يكذبوا فى ذلك الموقف ويحلفون على الكذب ﴿**ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ أى يحسبون فى الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعا ، أو يدفع ضررا كما كانوا يحسبون ذلك فى الدنيا ﴿ **ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ أى الكاملون فى الكذب المتهالكون عليه البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة فى موقف القيامة بين يدى الرحمن.

﴿ **استحوذ عليهم الشيطان** ﴾ أى غلب عليهم واستعلى واستولى ، قال المبرد : استحوذ على الشيء :حواه وأحاط به . وقيل : قوى عليهم . وقيل : جمعهم ، يقال : أحوذ الشيء، أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، والمعانى متقاربة ؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوى عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم ﴿ **فأنساهم ذكر الله** ﴾ أى أوامره والعمل بطاعته فلم يذكروا شيئا من ذلك . وقيل : زواجره فى النهى عن معاصيه . وقيل : لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ، وهو

مبتدأ وخبره ﴿ **حزب الشيطان** ﴾ أى جنوده وأتباعه ورهطه ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون فى الخسران حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران ؛ لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة فى الدنيا والآخرة ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله**﴾ تقدم معنى المحادة لله ولرسوله فى أول هذه السورة ، والجملة تعليل لما قبلها ﴿**أولئك فى الأذلين** ﴾ أى أولئك المحادون لله ورسوله المتصفون بتلك الصفات المتقدمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة ؛ لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان ، قال عطاء : يريد الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة .

﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم فى الأذلين ، أى كتب فى اللوح المحفوظ، وقضى فى سابق علمه : لأغلبن أنا ورسلى بالحجة والسيف . قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب فهو غالب فى الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة ، قال الفراء : كتب بمعنى قال ، وقوله : ﴿ **أنا** ﴾ توكيد ، ثم ذكر مثل قول الزجاج .﴿ **إن الله قوى عزيز** ﴾ فهو قوى على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد . ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، أى يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، وجملة : ﴿ **يوادون** ﴾ فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لتجد إن كان متعديا إلى مفعولين ، أو فى محل نصب على الحال إن كان متعديا إلى مفعول واحد ، أو صفة أخرى لـ﴿**قوما**﴾ أى جامعون بين الإيمان والموادة لمن حاد الله ورسوله ﴿ **ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ أى ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين إلخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة ﴿**أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾ يعنى الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ، ومعنى ﴿**كتب فى قلوبهم الإيمان** ﴾ : خلقه . وقيل : أثبته . وقيل : جعله . وقيل : جمعه ، والمعانى متقاربة ﴿**وأيدهم بروح منه**﴾ أى قواهم بنصر منه على عدوهم فى الدنيا ، وسمى نصره لهم روحا ؛ لأن به يحيا أمرهم . وقيل : هو نور القلب . وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة. وقيل : بجبريل . وقيل :بالإيمان . وقيل :برحمة . قرأ الجمهور:﴿**كتب** ﴾ مبنيا للفاعل ، ونصب الإيمان على المفعولية ، وقرأ زر بن حبيش والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول ورفع الإيمان على النيابة ، وقرأ زر بن حبيش : « عشيراتهم » بالجمع ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ﴿**ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ على الأبد ﴿ **رضى الله عنهم** ﴾ أى قبل أعمالهم وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة ﴿**ورضوا عنه** ﴾ أى فرحوا بما أعطاهم عاجلا وآجلا ﴿ **أولئك حزب الله** ﴾ أى جنده الذين يمتثلون أوامره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه ، وفى إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم ﴿**ألا**

إن حزب الله هم المفلحون ﴾ أى الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون فى الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح .

وقد أخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين ، فقال : « إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان ، فإن جاءكم فلا تكلموه » ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فقال : ذرنى آتيك بهم ، فحلفوا واعتذروا فأنزل الله : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾ الآية والتى بعدها [1] . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى سننه عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة بن الجراح يتقصد لأبى عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله ، فنزلت : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله** ﴾ الآية [2] .

---

(١) أحمد ١ / ٣٥٠ وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى والبيهقى فى الدلائل ٥ / ٢٨٢ .
(٢) الحاكم ٣ / ٢٦٤ وأبو نعيم فى الحلية ١ / ١٠١ والبيهقى فى السير ٩ / ٢٧ .

تفسير سورة الحشر

هى أربع وعشرون آية ، وهى مدنية ـ قال القرطبى : فى قول الجميع (١) . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحشر بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة النضير : يعنى : أنها نزلت فى بنى النضير كما صرح بذلك فى بعض الروايات (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ .

قوله : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحديد . ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ هم بنو النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون ، نزلوا المدينة فى بنى إسرائيل انتظارا منهم لمحمد ﷺ ، فغدروا بالنبى ﷺ بعد أن عاهدوه وصاروا عليه مع المشركين ،

---

(١) القرطبى ٩ / ٦٤٨٠ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٣) ومسلم فى التفسير (٣٠٣١ / ٣١).

فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء ، قال الكلبى : كانوا أوّل من أجلى من أهل الذّمة من جزيرة العرب ، ثم أجلى آخرهم فى زمن عمر بن الخطاب ، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة ،وآخر حشر إجلاء عمر لهم .وقيل : إن أوّل الحشر: إخراجهم من حصونهم إلى خيبر ،وآخر الحشر : إخراجهم من خيبر إلى الشام . وقيل : آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر ، وهى الشام . قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة فى الشام فليقرأ هذه الآية ،وأن النبى ﷺ قال لهم : « اخرجوا » ، قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » . قال ابن العربى: الحشر أول وأوسط وآخر ، فالأوّل : إجلاء بنى النضير ، والأوسط : إجلاء أهل خيبر ، والآخر : يوم القيامة .

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين فى الآية هم بنو النضير ،ولم يخالف فى ذلك إلا الحسن البصرى.فقال: هم بنو قريظة ، وهو غلط ، فإن بنى قريظة ما حشروا ،بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه ، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم،وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم،فقال رسول الله ﷺ لسعد:« لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»(١) .

واللام فى ﴿ **لأوّل الحشر** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **أخرج** ﴾ ،وهى لام التوقيت كقوله: ﴿ لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : ٧٨] ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ هذا خطاب للمسلمين ، أى ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدّة ﴿ **وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله** ﴾ أى وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، وقوله : ﴿ **مانعتهم** ﴾ خبر مقدّم ، و﴿ **حصونهم** ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿ **أنهم** ﴾،ويجوز أن يكون ﴿ **مانعتهم** ﴾ خبر ﴿ **أنهم** ﴾ و ﴿ **حصونهم** ﴾ فاعل ﴿ **مانعتهم** ﴾ ، ورجح الثانى أبو حيان ، والأول أولى ﴿ **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أى أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك . وقيل : هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف . قاله ابن جرير والسدى وأبو صالح ، فإنّ قتله أضعف شوكتهم . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **أتاهم** ﴾ و ﴿ **لم يحتسبوا** ﴾ للمؤمنين ، أى فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا ، والأوّل أولى لقوله:﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب**﴾ فإن قذف الرعب كان فى قلوب بنى النضير ،لا قلوب المسلمين . قال أهل اللغة : الرعب : الخوف الذى يرعب الصدر ، أى يملؤه ، وقذفه : إثباته فيه . وقيل : كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب

---

(١) أحمد ٢ / ٢٢ والبخارى فى المغازى (٤١٢١) فى مناقب الأنصار (٣٨٠٤) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٦٨ / ٦٤) عن أبى سعيد الخدرى .

الذى قذفه الله فى قلوبهم هو الذى ثبت فى الصحيح من قوله ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (١) .

﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين** ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم . قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدى المؤمنين : أنهم عرضوها لذلك .قرأ الجمهور:﴿ **يخربون**﴾ بالتخفيف . وقرأ الحسن والسلمى ونصر بن عاصم وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد . قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد ؛ لأن الإخراب ترك الشىء خرابا ، وإنما خربوها بالهدم . وليس ما قاله بمسلّم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد . قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان ، نحو: أخربته وخربته وأفرحته وفرحته . واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم . قال الزهرى وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبى ﷺ على أن لهم ما أقلت الإبل ، كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود فيهدمون بيوتهم ، ويحملون ذلك على إبلهم ، ويخرب المؤمنون باقياها . وقال الزهرى أيضا : ﴿ **يخربون بيوتهم** ﴾ بنقض المعاهدة و﴿ **أيدى المؤمنين** ﴾ بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم فى تركهم لها وبـ ﴿ **أيدى المؤمنين** ﴾ فى إجلائهم عنها ، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه ، أو فى محل نصب على الحال ﴿**فاعتبروا يا أولى الأبصار**﴾ أى اتعظوا وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. قال الواحدى: ومعنى الاعتبار : النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها .

﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا** ﴾ أى لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبى فى الدنيا كما فعل ببنى قريظة ، والجلاء : مفارقة الوطن ، قال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء، والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحد من جهتين : إحداهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد. والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . الثانى : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لجماعة ولواحد ، كذا قال الماوردى . ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب النار** ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب « لولا » متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب وإن نجوا من عذاب الدنيا .والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدَّم ذكره من الجلاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ أى بسبب المشاقة منهم

(١) أحمد ١ / ٣٠١ ، ٢ / ٢٢٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ والبخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٣٨) وفى الجهاد (٢٩٧٧) وفى التعبير (٦٩٩٨) وفى الاعتصام (٧٢٧٢) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣ / ٥) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى الغسل ١ / ٢١٠ .

للّه ولرسوله بعدم الطاعة والميل مع الكفار ونقض العهد ﴿ **ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة الله ؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله . قرأ الجمهور: ﴿ **يشاق** ﴾ بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميفع : « يشاقق » بالفك .

﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** ﴾ قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا على قطع النخل فنهاهم بعضهم ، وقالوا : إنما هى مغانم للمسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدوّ ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم ، فقال : ﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، فقال بنو النضير وهم أهل الكتاب : يا محمد ، ألست تزعم أنك نبى تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على رسول الله ﷺ ووجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية ، ومعنى الآية : أىُّ شىء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير فى ﴿ **تركتموها** ﴾ عائد إلى « **ما** » لتفسيرها باللينة ، وكذا فى قوله: ﴿ **قائمة على أصولها** ﴾ ومعنى ﴿ **على أصولها** ﴾: أنها باقية على ما هى عليه .

واختلف المفسرون فى تفسير اللينة ، فقال الزهرى ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله إلا العجوة . وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها . وقال الثورى : هى كرام النخل. وقال أبو عبيدة : إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرنى (١). وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة . وقيل : هى ضرب من النخل ، يقال لتمره : اللون ، تمره أجود التمر ، وقال الأصمعى : هى الدقل (٢) .

وأصل اللينة : لونة ، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة: لين. وقيل : ليان، وقرأ ابن مسعود : « ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوما على أصولها » أى قائمة على سوقها ، وقرئ : « على أصلها » وقرئ : « قائما على أصوله » ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ أى ليزل الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ، ويغيظهم فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف شاؤوا من القطع والترك ازدادوا غيظا . قال الزجاج : ﴿ **وليخزى الفاسقين** ﴾ بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير : وليخزى الفاسقين أذن فى ذلك ، يدل على المحذوف قوله : ﴿ **فبإذن الله** ﴾، وقد استدلّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى فى كتب الأصول .

﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ أى ما ردّه عليه من أموال الكفار ، يقال : فاء يفىء ،

(١) البرنى بفتح الباء ، وسكون الراء بعدها نون مكسورة وهو تمر ، معرَّب ، أصله : برينك ، أى الحمْلُ الجيد .
(٢) الدَّقل : التمر الردىء .

إذا رجع، والضمير فى ﴿ **منهم** ﴾ عائد إلى بنى النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب**﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفا ، وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه : إذا حمله على السير السريع ، ومنه قول تميم بن مقبل :

مذ أوبد بالبيض الحديد صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

وقال نصيب :

ألا رُبَّ ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولـولا أنت لم يوجف الركب

و« ما » فى ﴿ **فما أوجفتم** ﴾ نافية . والفاء جواب الشرط إن كانت « ما » فى قوله: ﴿ **ما أفاء الله** ﴾ شرطية ، وإن كانت موصولة فالفاء زائدة ، و« من » فى قوله : ﴿ **من خيل** ﴾ زائدة للتأكيد ، والركاب : ما يركب من الإبل خاصة ، والمعنى : أن ما ردّ الله على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلا ولا إبلا ، ولا تجشمتم لها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعل الله سبحانه أموال بنى النضير لرسوله ﷺ خاصة لهذا السبب ، فإنه افتتحها صلحا وأخذ أموالها ، وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية : ﴿ **ولكنَّ الله يسلط رسله على من يشاء** ﴾ من أعدائه ، وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله ﷺ دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا إليها مشيا ، ولم يقاسوا فيها شيئا من شدائد الحروب ، ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ هذا بيان لمصارف الفىء بعد بيان أنه لرسول الله ﷺ خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع ﴿ **أهل القرى** ﴾ موضع قوله: ﴿ **منهم** ﴾ أى من بنى النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببنى النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحا ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . قيل : والمراد بالقرى : بنو النضير ، وقريظة ، وفدك ، وخيبر ، وقد تكلم أهل العلم فى هذه الآية والتى قبلها ، هل معناهما متفق أو مختلف ؟ فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا . وقيل : مختلف ، وفى ذلك كلام لأهل العلم طويل .

قال ابن العربى : لا إشكال أنها ثلاثة معان فى ثلاث آيات . أما الآية الأولى وهى قوله: ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ فهى خاصة برسول الله ﷺ خالصة له ، وهى أموال بنى النضير وما كان مثلها ، وأما الآية الثانية وهى قوله : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأوّل بمستحق غير الأول ، وإن اشتركت هى والأولى فى أن كل واحدة منهما تضمنت شيئا أفاءه الله على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال وهى الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية ، وهى قوله :

﴿ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى ﴾ عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من هاهنا ، فطائفة قالت : هى ملحقة بالأولى وهى مال الصلح ، وطائفة قالت : هى ملحقة بالثالثة وهى آية الأنفال ، والذين قالوا : إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ، هل هى منسوخة أو محكمة ؟ هذا معنى حاصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول اللّه ﷺ ، والآية الثانية هى فى بنى قريظة ، ويعنى : أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ومذهب الشافعى أن سبيل خمس الفىء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبى ﷺ وهى بعده لمصالح المسلمين **﴿فلله وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾** المراد بقوله : **﴿ للّه ﴾** أنه يحكم فيه بما يشاء **﴿ وللرسول ﴾** يكون ملكًا له **﴿ولذى القربى﴾** وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ لأنهم قد منعوا من الصدقة فجعل لهم حقا فى الفىء . قيل : تكون القسمة فى هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول اللّه ﷺ ، وخمسه يقسم أخماسا ، للرسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس . وقيل : يقسم أسداسا ، والسادس : سهم اللّه سبحانه ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك **﴿ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾** أى كيلا يكون الفىء دولة بين الأغنياء دون الفقراء ، والدولة : اسم للشىء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرّة ولهذا مرّة . قال مقاتل : المعنى : أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم ، قرأ الجمهور : **﴿ يكون ﴾** بالتحتية **﴿دولة﴾** بالنصب ، أى كيلا يكون الفىء دولة . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام وأبو حيان: «تكون » بالفوقية « دولة » بالرفع ، أى كيلا تقع أو توجد دولة ،وكان تامة ،وقرأ الجمهور: **﴿دولة﴾** بضم الدال. وقرأ أبوحيوة والسلمى بفتحها ، قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى: هما لغتان بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الدولة بالفتح الذى يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل ، وكذا قال أبو عبيدة .

ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله ﷺ فقال : **﴿ وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** أى ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تأخذوه . قال الحسن والسدّى : وما أعطاكم من مال الفىء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه ، وقال ابن جريج : ما آتاكم من طاعتى فافعلوا ، وما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه . والحق أن هذه الآية عامة فى كل شىء يأتى به رسول اللّه ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وكل شىء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا . وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه ، أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته ، فقال: **﴿ واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب ﴾** فهو معاقب من لم يأخذ ما آتاه الرسول ،

ولم يترك ما نهاه عنه .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن عائشة قالت : كانت غزوة بنى النضير ـ وهم طائفة من اليهود ـ على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم فى ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة ، يعنى : السلاح ، فأنزل الله فيهم : **﴿سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾** إلى قوله : **﴿ لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ﴾** فقاتلهم النبى ﷺ حتى صالحهم على الإجلاء وجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى، وأما قوله: **﴿ لأول الحشر ﴾** فكان إجلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام (١). وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عباس قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية : **﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾** قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ : « اخرجوا » ، قالوا : إلى أين ؟ قال: « إلى أرض المحشر » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر، عن ابن عباس قال : كان النبىّ ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منه، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء (٢) . وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة ، ولها يقول حسان :

لهان على سراة بنى لؤىّ حريق بالبويرة (٣) مستطير

فأنزل الله : **﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾** (٤) . وأخرج الترمذى وحسنه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : اللينة : النخلة **﴿ وليخزى الفاسقين ﴾** قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحكّ فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ، فلنسألنّ رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله:

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٤٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣ / ١٧٨ .

(٢) ابن جرير ٢٨ / ٢٢ .

(٣) البويرة : الحفرة الصغيرة وهى اسم لموضع نخل بنى النضير .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٠٣١) وفى التفسير (٤٨٨٤) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٦ / ٢٩) وأبو داود فى الجهاد (٢٦١٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٢) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٤٤) والنسائى فى التفسير (٥٩٣) .

﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ الآية [١] . وفى الباب أحاديث ، والكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء اللّه على رسوله ومما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول اللّه ﷺ خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدّة فى سبيل اللّه [٢] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ فجعل ما أصاب رسول اللّه ﷺ يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها. قال : والإيجاف أن يوضعوا السير ، وهى لرسول اللّه ﷺ ، فكان من ذلك خيبر وفدك وقرى عرينة . وأمر رسول اللّه ﷺ أن يعمد لينبع ، فأتاها رسول اللّه ﷺ فاحتواها كلها ، فقال ناس : هلا قسمها اللّه ؟ فأنزل اللّه عذره فقال : ﴿ **ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى** ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف للّه ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين فكان الذى للّه ورسوله من ذلك الكثيبة والوطيح وسلالم ووحدوه ، وكان الذى للمسلمين الشقّ : ثلاثة عشر سهما ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول اللّه ﷺ من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول اللّه ﷺ لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصارى .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول اللّه ﷺ صفايا فى النضير وخيبر وفدك ، فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه ، وأما فدك فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء : قسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءًا لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين [٣] . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبى شيبة ، وابن زنجويه فى الأموال وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ما على وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا الفىء حق إلا ما ملكت أيمانكم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لعن اللّه الواشمات والمستوشمات [٤] ، والمتنمصات [٥]

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٠٣) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٥٩٤) وإسناده صحيح على شرط البخارى .

(٢) البخارى فى فرض الخمس (٣٠٩٤) وفى المغازى (٤٠٣٣) وفى النفقات (٥٣٥٨) وفى الفرائض (٦٧٢٨) وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٣٧٠٥) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٥٧ / ٤٨) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٦٣) .

(٣) أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٦٧) .

(٤) الوشم : غرز الإبرة فى البدن ، والمستوشمات : التى سألتها ذلك .

(٥) النامصة : هى التى تزيل الشعر من الوجه ، والمتنمصة : هى التى تطلب فعل ذلك منها .

والمتفلجات [١] للحسن، المغيرات لخلق اللّه»، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها: أمّ يعقوب، فجاءت ابن مسعود ، فقالت : بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، قال : وما لى لا ألعن من لعن رسول اللّه ﷺ وهو فى كتاب اللّه ؟ قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه [٢] .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **للفقراء** ﴾ قيل : هو بدل من ﴿ **لذى القربى** ﴾ وما عطف عليه ، ولا يصح أن يكون بدلا من الرسول وما بعده لئلا يستلزم وصف رسول اللّه ﷺ بالفقر . وقيل : التقدير : كى لا يكون دولة ، ولكن يكون للفقراء . وقيل : التقدير : اعجبوا للفقراء . وقيل : التقدير: واللّه شديد العقاب للفقراء ، أى شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء. وقيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو كما تقول : المال لزيد لعمرو لبكر ، والمراد بـ ﴿ **المهاجرين** ﴾ : الذين هاجروا إلى رسول اللّه ﷺ رغبة فى الدين ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين ، ومعنى ﴿ **أخرجوا من ديارهم** ﴾ : أن كفار مكة أخرجوهم منها واضطروهم إلى الخروج ، وكانوا مائة رجل ﴿ **يبتغون فضلا من اللّه ورضوانا** ﴾ أى يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق فى الدنيا ، وبالرضوان فى الآخرة ﴿ **وينصرون اللّه ورسوله** ﴾ بالجهاد للكفار ، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ **يبتغون** ﴾ ،ومحل الجملتين النصب على الحال ، الأولى: مقارنة، والثانية : مقدّرة ، أى ناوين لذلك ، ويجوز أن تكون حالا مقارنة ، لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **هم الصادقون** ﴾ أى الكاملون فى

(١) المتفلجات للحسن : المراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها ، الثنايا والرباعيات ، وهو من الفلج ، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها فى السن إظهارا للصغر ، وحسن الأسنان .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٦) ومسلم فى اللباس والزينة (٢١٢٥ / ١٢٠) والترمذى فى الأدب (٢٧٨٢) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى الزينة ٨ / ١٤٦ .

الصدق الراسخون فيه .

ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم**﴾ المراد بالدار : المدينة ، وهى دار الهجرة ، ومعنى تبوّئهم الدار والإيمان : أنهم اتخذوها مباءة أى تمكنوا منهما تمكنا شديدا ،والتبوّؤ فى الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل . وقيل : إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور ، والتقدير : واعتقدوا الإيمان أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو على الفارسى . ويجوز أن يكون على حذف مضاف ، أى تبوؤوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون ﴿**تبوؤوا**﴾ متضمنا لمعنى لزموا . والتقدير : لزموا الدار والإيمان ، ومعنى ﴿ **من قبلهم** ﴾ : من قبل هجرة المهاجرين فلابدّ من تقدير مضاف ؛ لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم فى أموالهم ومساكنهم ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة** ﴾ أى لا يجد الأنصار فى صدورهم حسدا وغيظا وحزازة ﴿ **مما أوتوا** ﴾ أى مما أوتى المهاجرون دونهم من الفىء ، بل طابت أنفسهم بذلك ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى لا يجدون فى صدورهم مسّ حاجة أو أثر حاجة ، وكل ما يجده الإنسان فى صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة ، وكان المهاجرون فى دور الأنصار ، فلما غنم النبىّ ﷺ بنى النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم ، وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال : « إن أحببتم قسمت ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ــ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم والمشاركة لكم فى أموالكم ــ وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من ديارهم » ، فرضوا بقسمة ذلك فى المهاجرين وطابت أنفسهم ، ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ الإيثار : تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة ، يقال : آثرته بكذا ، أى خصصته به ، والمعنى : ويقدّمون المهاجرين على أنفسهم فى حظوظ الدنيا ﴿**ولو كان بهم خصاصة** ﴾ أى حاجة وفقر ، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت وهى الفرج التى تكون فيه ، وجملة : ﴿ **ولو كان بهم خصاصة** ﴾ فى محل نصب على الحال . وقيل : إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص ، وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الانفراد بالحاجة ، ومنه قول الشاعر :

إن الربيع إذا يكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر

﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يوق** ﴾ بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة بفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأ الجمهور : ﴿ **شحّ نفسه** ﴾ بضم الشين ، وقرأ ابن عمر وابن أبى عبلة بكسرها ، والشحّ :

البخل مع حرص ، كذا فى الصحاح . وقيل : الشحّ أشد من البخل . قال مقاتل : شح نفسه: حرص نفسه . قال سعيد بن جبير : شحّ النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة . قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئا نهاه اللّه عنه ولم يمنع شيئا أمره اللّه بأدائه فقد وقى شحّ نفسه . قال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده ، والشحّ أن يشح بما فى أيدى الناس ، يحب أن يكون له ما بأيديهم بالحلال والحرام لا يقنع ، وقال ابن عيينة : الشحّ الظلم . وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشىء من الأشياء التى يقبح الشحّ إلى النفس ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى « من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة . وقيل : هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة ؛ لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاؤوا بعد الأوّلين والأنصار ، والموصول مبتدأ وخبره : ﴿ **يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ ويجوز أن يكون الموصول معطوفا على قوله : ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان** ﴾ فيكون ﴿ **يقولون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنف لا محل له ، والمراد بالأخوّة هنا : أخوة الدّين ، أمرهم اللّه أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدّمهم من المهاجرين والأنصار ﴿ **ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا** ﴾ أى غشا وبغضا وحسدا .

أمرهم اللّه سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من اللّه سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل فى ذلك الصحابة دخولا أوليا ؛ لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان اللّه لهم فقد خالف ما أمره اللّه به فى هذه الآية . فإن وجد فى قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان وحلّ به نصيب وافر من عصيان اللّه بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه ﷺ ،وانفتح له باب من الخذلان يعذبه على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى اللّه سبحانه والاستغاثة به ، بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغلّ لخير القرون وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم ، فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع فى غضب اللّه وسخطه ، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المفتراة والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب اللّه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسول اللّه ﷺ المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر فى كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر ، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة

إلى منزلة ، ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب اللّه وسنة رسوله وخير أمته وصالحى عباده وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض اللّه وهجروا شعائر الدين ، وسعوا فى كيد الإسلام وأهله كل السعى ، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، واللّه من ورائهم محيط . ﴿ **ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ أى كثير الرأفة والرحمة بلغهما لمن يستحق ذلك من عبادك .

وقد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد؛ فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ،فقال: « ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه اللّه »، فقال رجل من الأنصار ، وفى رواية : فقال أبو طلحة الأنصارى: أنا يا رسول اللّه ،فذهب به أهله، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول اللّه ﷺ لا تدخريه شيئا ، قالت : واللّه ما عندى إلا قوت الصبية، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول اللّه ﷺ ففعلت ، ثم غدا الضيف على النبىّ ﷺ فقال : « لقد عجب اللّه الليلة من فلان وفلانة .وأنزل فيهما : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ » (٢). وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول ، فنزلت فيهم : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ (٣) .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن رجلا قال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إنى سمعت الله يقول : ﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشحّ ولكنه البخل ولا خير فى البخل وإن الشحّ الذى ذكره الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشرّ ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له . وأخرج ابن المنذر عن على بن أبى طالب قال :

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٨٨) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٨٩) ومسلم فى الأشربة (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٤) وقال : « حسن صحيح » . وقال الذهبى : « عبيد اللّه ضعفوه » .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٤٨٤ والبيهقى فى الشعب (٣٢٠٤) .

من أدى زكاة ماله فقد وقى شحّ نفسه . وأخرج الحكيم الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ما محق الإسلام محق الشحّ شيء قط » [١]. وأخرج أحمد، والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر بن عبد اللّه ؛ أن رسول اللّه قال: « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ،فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » [٢] . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذم الشح .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت ، ثم قرأ: ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبىّ ﷺ فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه : ﴿ **للفقراء المهاجرين** ﴾ الآية. ثم قال: هؤلاء المهاجرون ، أفمنهم أنت ؟ قال:لا ،ثم قرأ عليه: ﴿ **والذين تبوؤوا الدار والإيمان** ﴾ الآية . ثم قال : هؤلاء الأنصار ، أفأنت منهم ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجوا ، قال: ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

---

(١) أبو يعلى (٣٤٨٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١ / ١٠٧ : « فيه على بن أبى سارة وهو ضعيف » .

(٢) أحمد ٣ / ٣٢٣ ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨ / ٥٦) والبيهقى فى الشعب (١٠٨٣٢) . ط . دار الكتب .

بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم ، فقال : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا** ﴾ والخطاب لرسول اللّه ، أو لكل من يصلح له ، والذين نافقوا هم عبد اللّه بن أبىّ وأصحابه ، وجملة : ﴿ **يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع ؛ لاستحضار الصورة ، أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان فى الكفر ، واللام فى ﴿ **لإخوانهم** ﴾ هى لام التبليغ ،وقيل: هو من قول بنى النضير لبنى قريظة ،والأوّل أولى؛ لأن بنى النضير وبنى قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم ، واللام فى قوله: ﴿ **لئن أخرجتم** ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى واللّه لئن أخرجتم من دياركم ﴿ **لنخرجن معكم** ﴾ هذا جواب القسم ، أى لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم ﴿ **ولا نطيع فيكم** ﴾ أى فى شأنكم ، ومن أجلكم ﴿ **أحدا** ﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله: ﴿ **أبدا** ﴾.ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدهم بالنصرة لهم ، فقالوا : ﴿ **وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ على عدّوكم ، ثم كذبهم سبحانه فقال : ﴿ **واللّه يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم .

ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصّل ما كذبوا فيه فقال : ﴿ **لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومن معهم ، ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة، وأهل خيبر ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ أى لو قدّر وجود نصرهم إياهم ؛ لأن ما نفاه اللّه لا يجوز وجوده . قال الزجاج : معناه : لو قصدوا نصر اليهود ﴿ **ليولنّ الأدبار** ﴾ منهزمين ﴿ **ثم لا ينصرون** ﴾ يعنى : اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم ، وهم المنافقون . وقيل: يعنى : لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم اللّه ولا ينفعهم نفاقهم . وقيل : معنى الآية : لا ينصرونهم طائعين ولئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار ، وقيل : معنى ﴿ **لا ينصرونهم** ﴾ : لا يدومون على نصرهم ، والأوّل أولى ، ويكون من باب قوله : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] . ﴿ **لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من اللّه** ﴾ أى لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفا وخشية فى صدور المنافقين ، أو صدور اليهود ، أو صدور الجميع من اللّه ، أى من رهبة اللّه . والرهبة هنا بمعنى: المرهوبية ؛ لأنها مصدر من المبنى للمفعول ، وانتصابها على التمييز ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أى ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشىء من الأشياء ولو كان لهم فقه لعلموا أن اللّه سبحانه هو الذى سلطكم عليهم،

فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم .

ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فقال : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعا** ﴾ يعنى: لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرون على ذلك ﴿ **إلا فى قرى محصنة** ﴾ بالدروب والدور ﴿ **أو من وراء جدر** ﴾ أى من خلف الحيطان التى يستترون بها لجبنهم ورهبتهم. قرأ الجمهور : ﴿ **جدر** ﴾ بالجمع ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وابن كثير وأبو عمرو :« جدار » بالإفراد ،واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم لأنهـا موافقة لقوله : ﴿ **قرى محصنة** ﴾ ،وقرأ بعض المكيين: « جدر » بفتح الجيم وإسكـان الدال ، وهى لغة فى الجدار ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أى بعضهم غليظ فظ على بعض ، وقلوبهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، قال السدّى : المراد: اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحـد . وقال مجاهد : ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ بالكلام والوعيد ليفعلن كذا ، والمعنى : أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس ، وإذا لاقوا عدوّا ذلوا وخضعوا وانهزموا . وقيل : المعنى : أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله فى قلوبهم من الرعب ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى** ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو فى الظاهر مع تخالف قلوبهم فى الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذى بينهم الموصوف بالشدة ، ومعنى﴿ **شتى** ﴾ :متفرقة ، قال مجاهد: يعنى: اليهود والمنافقين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وروى عنه أيضا أنه قال: المراد : المنافقون. وقال الثورى: هم المشركون وأهل الكتاب. قال قتادة: ﴿ **تحسبهم جميعا** ﴾، أى مجتمعين على أمر ورأى، ﴿ **وقلوبهم شتى** ﴾ متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق. وقرأ ابن مسعود : « وقلوبهم أشت » أى أشد اختلافا ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ أى ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئا ولو عقلوا لعرفوا الحقّ واتبعوه .

﴿ **كمثل الذين من قبلهم** ﴾ أى مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، والمعنى : أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿ **قريبا** ﴾ يعنى: فى زمان قريب ، وانتصاب ﴿ **قريبا** ﴾ على الظرفية ، أى يشبهونهم فى زمن قريب . وقيل : العامل فيه ﴿ **ذاقوا** ﴾ ، أى ذاقوا فى زمن قريب ، ومعنى ﴿ **ذاقوا وبال أمرهم** ﴾ : أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا بقتلهم يوم بدر ، وكان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره . قيل : المراد : بنو النضير حيث أمكن الله منهم ، قاله قتادة . وقيل : قتل بنى قريظة ،قاله الضحاك. وقيل : هو عام فى كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأول أولى ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أى فى الآخرة .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر فقال : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر**﴾ أى مثلهم فى تخاذلهم وعدم تناصرهم ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر آخر للمبتدأ المقدر قبل قوله: ﴿ **كمثل الذين من قبلهم** ﴾ على تقدير حذف حرف العطف كما تقول: أنت عاقل ، أنت عالم ، أنت كريم . وقيل : المثل الأوّل : خاص باليهود ، والثانى : خاص بالمنافقين . وقيل : المثل الثانى بيان للمثل الأوّل . ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال : ﴿ **إذ قال للإنسان اكفر** ﴾ أى أغراه بالكفر وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالإنسان هنا : جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان. وقيل: هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه ﴿ **فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ أى فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان ،وقبولا لتزيينه قال الشيطان: إنى برىء منك ، وهذا يكون منه يوم القيامة ، وجملة : ﴿ **إنى أخاف الله رب العالمين**﴾ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره . وقيل : المراد بالإنسان هنا : أبو جهل ، والأوّل أولى . قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا : جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم . قيل : وليس قول الشيطان : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ على حقيقته ، وإنما هو على وجه التبرّى من الإنسان فهو تأكيد لقوله : ﴿ **إنى برىء منك** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **إنى** ﴾ بإسكان الياء وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها ﴿ **فكان عاقبتهما أنهما فى النار** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **عاقبتهما** ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ،واسمها ﴿ **أنهما فى النار** ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده ، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذى كفر صائران إلى النار ﴿**خالدين فيها** ﴾ قرأ الجمهور :﴿**خالدين**﴾ بالنصب على الحال ،وقرأ ابن مسعود والأعمش وزيد بن علىّ وابن أبى عبلة: « خالدان » على أنه خبر « أن » والظرف متعلق به ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أى الخلود فى النار جزاء الظالمين ، ويدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ أى اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ أى لتنظر أى شىء قدمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد . وقيل : ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة ﴿ **واتقوا الله** ﴾ كررّ الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شـّرا فشرّ ، ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله** ﴾ أى تركوا أمره . أو ما قدروه حق قدره ، أو لم يخافوه ،أو جميع ذلك ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ أى جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصى التى توقعهم فيه ، ففى الكلام مضاف محذوف ، أى أنساهم حظوظ أنفسهم . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم. وقيل: نسوا الله فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد ﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أى الكاملون فى الخروج عن طاعة الله . ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة** ﴾ فى

الفضل والرتبة ، والمراد : الفريقان على العموم ، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى الله منهم دخولا أوّليا ، ويدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوّليا ؛ لأن السياق فيهم ، وقد تقدّم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة ، وفى سورة السجدة ، وفى سورة ص ، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفى التساوى بينهم وبين أهل النار فقال: **﴿أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾** أى الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :**﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾** قال:عبد الله ابن أبى بن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وعبد الله بن نبتل ، وأوس بن قيظى ، وإخوانهم بنى النضير . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الدلائل عنه ؛ أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لانسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ؛ فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ،على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، ففعل، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله : **﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾** قال : هم المشركون .

وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، عن علىّ بن أبى طالب ؛ أن رجلا كان يتعبد فى صومعة وأن امرأة كان لها إخوة ، فعرض لها شىء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها ، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إنى أنا الذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك ، فسجد له . فذلك قوله : **﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾** الآية [١]. قلت : وهذا لا يدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدل على أنه من جملة من تصدق عليه . وقد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا وليس فيه ما يدلّ على أنه المقصود بالآية . وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : **﴿ كمثل الشيطان ﴾** قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبى ﷺ **﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾** .

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ٣٣ وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٠٦٧)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم استوائهم فى شىء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم ، وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة ، فقال ، **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾** أى من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيته مع كونه فى غاية القسوة وشدّة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعا ، أى متشققا من خشية الله سبحانه ، حذرا من عقابه وخوفا من ألا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخييل يقتضى علوّ شأن القرآن وقوة تأثيره فى القلوب ، ويدلّ على ذلك قوله : **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾** فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ ، وينزجروا بالزواجر ، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ،والخاشع: الذليل المتواضع.وقيل : الخطاب للنبىّ ﷺ ، أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل ثابت لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبىّ ﷺ ؛ لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسى .

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال : **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾** وفى هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك **﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾** أى عالم ما غاب من الإحساس وما حضر ، وقيل : عالم السرّ والعلانية . وقيل : ما كان وما يكون . وقيل : الآخرة والدنيا ، وقدّم الغيب على الشهادة ؛ لكونه متقدمّا وجودا **﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾** قد تقدم تفسير هذين الاسمين **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾** كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك **﴿الملك القدوس ﴾** أى الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص ، والقدس بالتحريك فى لغة أهل الحجاز : السطل ؛ لأنه يتطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء ، قرأ الجمهور : **﴿ القدوس ﴾** بضم القاف ، وقرأ أبو ذرّ وأبو السماك بفتحها ، وكان سيبويه يقول: سبوح قدوس بفتح أوّلهما ، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يقرأ : « القدوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل

إلا السبوح والقدوس ، فإن الضم فيهما أكثر ، وقد يفتحان ﴿ **السلام** ﴾ أى الذى سلم من كل نقص وعيب . وقيل : المسلم على عباده فى الجنة ، كما قال : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ [يس : ٥٨] . وقيل : الذى سلم الخلق من ظلمه وبه قال الأكثر . وقيل : المسلم لعبادة ، وهو مصدر وصف به للمبالغة ﴿ **المؤمن** ﴾ أى الذى وهب لعباده الأمن من عذابه . قيل : المصدق رسله بإظهار المعجزات . وقيل : المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدر للكافرين بما أوعدهم به من العذاب ، يقال : أمنه من الأمن وهو ضد الخوف ، ومنه قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند (١)

وقال مجاهد: المؤمن الذى وحد نفسه بقوله: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران: ١٨] . قرأ الجمهور : ﴿ **المؤمن** ﴾ بكسر الميم ، اسم فاعل من آمن بمعنى : أمن ، وقرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى : المؤمن به على الحذف كقوله : ﴿واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . وقال أبو حاتم : لا تجوز هذه القراءة ؛ لأن معناه : أنه كان خائفا فأمنه غيره ﴿ **المهيمن** ﴾ أى الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم ، كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ، ويقال : هيمن يهيمن فهو مهيمن : إذا كان رقيبا على الشيء . قال الواحدى: ذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، والأوّل أولى، وقد قدمنا الكلام على المهيمن فى سورة المائدة ﴿ **العزيز** ﴾ الذى لا يوجد له نظير . وقيل : القاهر . وقيل : الغالب. وقيل : القوى ﴿ **الجبار** ﴾ جبروت الله : عظمته ، والعرب تسمى الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر : إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير ، ويجوز أن يكون من جبره على كذا : إذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذى جبر خلقه على ما أراد منهم ، وبه قال السدى ، ومقاتل ، واختاره الزجاج والفراء ، قال: هو من أجبره على الأمر ،أى قهره، قال :ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا فى جبار من أجبر، ودراك من أدرك.وقيل : الجبار: الذى لا تطاق سطوته ﴿ **المتكبر** ﴾ أى الذى تكبر عن كل نقص وتعظيم عما لا يليق به ، وأصل التكبر : الامتناع وعدم الانقياد ، ومنه قول حميد بن ثور :

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصعب وهى ذلول

والكبر فى صفات الله مدح ، وفى صفات المخلوقين ذمّ . قال قتادة : هو الذى تكبر عن كل سوء . قال ابن الأنبارى : المتكبر ذو الكبرياء ، وهو الملك ، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين ، فقال : ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ أى عما يشركونه أو عن إشراكهم به.

(١) العائذات : ما عاذ بالبيت من الطير ، والغيل : الكثير الملتف من الشجر ، والسند : ما قابلك من الجبل ، وعلا من السفح .

﴿ هو الله الخالق ﴾ أى المقدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته **﴿ البارئ ﴾** أى المنشئ المخترع للأشياء الموجد لها ، وقيل : المميز لبعضها من بعض **﴿ المصوّر ﴾** أى الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التصوير : التخطيط والتشكيل . قال النابغة :

الخالق البارئ المصور فى الـ أرحام ماء حتى يصير دما

وقرأ حاطب بن أبى بلتعة الصحابى: « **المصوَّر** » بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ ، أى الذى برأ المصوّر ، أى ميزه **﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ قد تقدم** بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله :﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . **﴿ يسبح له ما فى السموات والأرض ﴾** أى ينطق بتنزيهه بلسان الحال،أو المقال كل ما فيهما **﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾** أى الغالب لغيره الذى لا يغالبه مغالب ، الحكيم فى كل الأمور التى يقضى بها .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، فى قوله : **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾** قال : يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود وعلى مرفوعا فى قوله : **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾** إلى آخر السورة قال : هى رقية الصداع رواه الديلمى بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما . وأخرج الخطيب فى تاريخه بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإنى قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإنى قرأت على الأعمش ، ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلى ابن مسعود فقال : فإنى قرأت على النبى ﷺ فلما بلغت هذه الآية قال لى : « ضع يدك على رأسك ، فإن جبريل لما نزل بها قال لى:ضع يدك على رأسك ، فإنها شفاء من كل داء إلا السام » والسام: الموت . قال الذهبى: هو باطل (١) .وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر رجلا إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال : « إن متّ متّ شهيدا » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ :« من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس والجنّ إن كان ليلا حتى يصبح ، وإن كان نهارا حتى يمسى ».وأخرج أحمد والدارمى ،

(١) الخطيب فى تاريخه ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

والترمذى وحسنه والطبرانى وابن الضريس ، والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة ». قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١) . وأخرج ابن عدىّ وابن مردويه والخطيب ، والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة قال رسول الله ﷺ : « من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ قال : السرّ والعلانية .وفى قوله: ﴿ **المؤمن** ﴾ قال : المؤمّن خلقه من أن يظلمهم ، وفى قوله : ﴿ **المهيمن** ﴾ قال : الشاهد .

---

(١) أحمد ٥ / ٢٦ والدارمى ٢ / ٤٥٨ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٢) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٢٠ / ٢٢٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٢) وإسناده ضعيف .

(٢) ابن عدى فى الضعفاء ٣ / ٣١٨ والخطيب فى تاريخه ١٢ / ٤٤ والبيهقى فى الشعب (٢٢٧) وإسناده ضعيف .

تفسير سورة الممتحنة

هى ثلاث عشرة آية . وهى مدنية ، قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . والممتحنة ، بكسر الحاء ، اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازا ، كما سميت سورة براءة : الفاضحة ؛ لكشفها عن عيوب المنافقين .وقيل : الممتحنة ، بفتح الحاء ، اسم مفعول إضافة إلى المرأة التى نزلت فيها ، وهى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط لقوله سبحانه: ﴿ **فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ** ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾ .

قال المفسرون : نزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء** ﴾ فى حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى مشركى قريش يخبرهم بمسير النبىّ ﷺ إليهم ، وسيأتى ذكر القصة آخر البحث ، إن شاء الله ، وقوله : ﴿**عدوّى** ﴾ هو المفعول الأول ﴿ **وعدوّكم**﴾ معطوف عليه ، والمفعول الثانى أولياء ، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيمًا لجرمهم ، والعدوُّ مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، والآية تدلّ على النهى عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ﴿ **تلقون إليهم بالمودّة** ﴾ أى توصلون إليهم المودّة على أن الباء زائدة أو هى سببية ، والمعنى : تلقون إليهم أخبار النبىّ ﷺ بسبب المودّة التى بينكم وبينهم . قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبىّ ﷺ وسرّه بالمودّة التى بينكم وبينهم والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب صفة لأولياء ، وجملة : ﴿ **وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار . قرأ الجمهور : ﴿ **بما جاءكم** ﴾ بالباء الموحدة . وقرأ الجحدرى وعاصم فى رواية عنه : « لما جاءكم » باللام ، أى لأجل ما جاءكم من الحق

على حذف المكفور به ، أى كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سببا للكفر توبيخا لهم ﴿ **يخرجون الرسول وإياكم** ﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى محل نصب على الحال وقوله : ﴿ **أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ تعليل للإخراج ، أى يخرجونكم لأجل إيمانكم ، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿ **إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى** ﴾ جواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودّة ، أو إن كنتم كذلك فلا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء ، وانتصاب ﴿ **جهادا** ﴾ و﴿ **ابتغاء** ﴾ على العلة ، أى إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد فى سبيلى ولأجل ابتغاء مرضاتى ، وجملة : ﴿ **تسرّون إليهم بالمودّة** ﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ ، أى تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودة . وقيل : هى بدل من قوله: ﴿ **تلقون** ﴾ . ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فقال : ﴿**وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم** ﴾ والجملة فى محل نصب على الحال ، أى بما أضمرتم وما أظهرتم، والباء فى ﴿ **بما** ﴾ زائدة : يقال : علمت كذا وعلمت بكذا ، هذا على أن أعلم مضارع. وقيل: هو أفعل تفضيل ، أى أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل**﴾ أى من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوّى وعدوّكم أولياء ويلقى إليهم بالمودّة ؛ فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضلّ عن قصد السبيل .

﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء** ﴾ أى إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما فى قلوبهم من العداوة ، ومنه المثاقفة ، وهى طلب مصادفة الغرة فى المسابقة . وقيل : المعنى إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان ﴿**ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء** ﴾ أى يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه ، وألسنتهم بالشتم ونحوه ﴿**وودّوا لو تكفرون** ﴾ هذا معطوف على جواب الشرط ، أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجح هذا أبو حيان ، والمعنى : أنهم تمنوا ارتدادهم وودّوا رجوعهم إلى الكفر . ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم** ﴾ أى لا تنفعكم القرابات على عمومها ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم فى الأرحام؛لمزيد المحبة لهم والحنوّ عليهم ، والمعنى :أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم ، كما وقع فى قصة حاطب بن أبى بلتعة ، بل الذى ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم ، وجملة :﴿ **يوم القيامة يفصل بينكم** ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك اليوم ، ومعنى ﴿**يفصل بينكم** ﴾ : يفرّق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار . وقيل: المراد بالفصل بينهم: أنه يفر كلّ منهم من الآخر من شدة الهول كما فى قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ الآية [عبس : ٣٤] ، قيل : ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله ، أى لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه، ويبتدأ بقوله : ﴿**يفصل بينكم**﴾ والأولى أن يتعلق بما بعده كما ذكرنا ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك. قرأ الجمهور : ﴿ **يفصل** ﴾ بضم الياء وتخفيف الفاء وفتح الصاد مبنيا للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرأ عاصم

بفتح الياء وكسر الصاد مبنيا للفاعل ، وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة، وقرأ علقمة بالنون ، وقرأ قتادة وأبو حيوة بضم الياء وكسر الصاد مخففة .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن علىّ بن أبى طالب قال : بعثنى رسول اللّه ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول اللّه ﷺ : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ [١] فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتونى به » فخرجنا حتى أتينا الرَوضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى من كتاب ، فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لتلقِنَ الثياب ، فأخرجته من عقاصها [٢] ، فأتينا به النبىّ ﷺ ، فإذا بـه مـن حاطب بن أبى بلتعة إلى نـاس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى ﷺ ، فقال النبىّ ﷺ : « ما هذا يا حاطب ؟ » قال : لا تعجل علىّ يا رسول اللّه ، إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى فقال النبىّ ﷺ : « صدق » فقال عمر : دعنى أضرب عنقه ، فقال : « إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعلّ اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٣]. ونزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة**﴾. وفى الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة، وأن هذه الآيات إلى قوله : ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم** ﴾ نازلة فى ذلك .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ

---

(١) روضة خاخ : اسم مكان بين مكة والمدينة . (٢) العقاص : المضفور من شعر الرأس .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤ / ١٦١) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٥٠) .

وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من النهى عن موالاة المشركين والذّم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلا حين تبرأ من قومه، فقال : ﴿ **قد كانت لكم إسوة حسنة** ﴾ أى خصلة حميدة تقتدون بها، يقال : لى به أسوة فى هذا الأمر ، أى اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به فى ذلك إلا فى استغفاره لأبيه . قرأ الجمهور :﴿ **إسوة** ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر :القدوة ، ويقال : هو أسوتك ، أى مثلك وأنت مثله ، وقوله: ﴿**فى إبراهيم والذين معه** ﴾ متعلق بأسوة ، أو بحسنة ، أو هو نعت لأسوة أو حال من الضمير المستتر فى حسنة . أو خبر «كان » ، و« لكم » للبيان ، و﴿ **الذين معه** ﴾ هم أصحابه المؤمنون ، وقال ابن زيد : هم الأنبياء ، قال الفراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ، والظرف فى قوله : ﴿ **إذ قالوا لقومهم** ﴾ هو خبر كان، أو متعلق به ،أى وقت قولهم لقومهم الكفار :﴿ **إنا برآء منكم** ﴾ جمع برىء ،مثل شركاء وشريك، وظرفاء وظريف . قرأ الجمهور : ﴿ **برآء** ﴾ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ، ككرماء فى كريم . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف ، ككرام فى جمع كريم ، وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف ﴿ **ومما تعبدون من دون اللّه**﴾ وهى الأصنام ﴿ **كفرنا بكم**﴾ أى بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم.

﴿ **وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا** ﴾ أى هذا دأبنا معكم مادمتم على كفركم ﴿**حتى تؤمنوا باللّه وحده**﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة والبغضاء محبة ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك** ﴾ هو استثناء متصل من قوله : ﴿ **فى إبراهيم** ﴾ بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء ، أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه ،أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه ، أو من التبرى والقطيعة التى ذكرت ، أى لم يواصله إلا قوله ، ذكر هذا ابن عطية ، أو هو منقطع، أى لكن قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، فلا تأتسوا به ، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه ﴾ [التوبة :١١٤] وقد تقدم تحقيق هذا فى سورة براءة ﴿ **وما أملك لك من اللّه من شىء** ﴾ هذا من تمام القول المستثنى ، يعنى ما أغنى عنك وما أدفع عنك من عذاب الله شيئا ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرنّ ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد ، فإنه إظهار للعجز وتفويض للأمر إلى الله ، وذلك من خصال الخير ﴿ **ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير** ﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها. وقيل : هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول ، والتوكل : هو تفويض الأمور إلى اللّه ، والإنابة: الرجوع ، والمصير: المرجع ، وتقديم الجارّ والمجرور لقصر

التوكل والإنابة والمصير على الله . ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا** ﴾ قال الزجاج : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك ، وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ﴿ **واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز** ﴾ أى الغالب الذى لا يغالب ﴿ **الحكيم** ﴾ ذو الحكمة البالغة .

﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة** ﴾ أى لقد كان لكم فى إبراهيم والذين معه قدوة حسنة، وكررّ هذا للمبالغة والتأكيد . وقيل : إن هذا نزل بعد الأول بمدّة ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ بدل من قوله: ﴿ **لكم** ﴾بدل بعض من كلّ ، والمعنى : أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع فى الخير فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ **ومن يتول فإن الله هو الغنىّ الحميد** ﴾ أى يعرض عن ذلك ، فإن الله هو الغنىّ عن خلقه الحميد إلى أوليائه. ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة ، وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم فى الإسلام مودّة وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله وقيل : المراد بالمودّة هنا : تزويج النبىّ ﷺ بأمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، ولا وجه لهذا التخصيص وإن كان من جملة ما صار سببا إلى المودّة ، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله ﷺ ؛ ولكنها لم تحصل المودّة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده ﴿ **والله قدير** ﴾ أى بليغ القدرة كثيرها ﴿**والله غفور رحيم** ﴾ أى بليغهما كثيرهما .

ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغى للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موادّتهم ؛ فصل القول فيمن يجوز بره منهم ومن لا يجوز فقال : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم** ﴾ أى لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿ **أن تبروّهم** ﴾ هذا بدل من الموصول بدل اشتمال ، وكذا قوله : ﴿ **وتقسطوا إليهم** ﴾ يقال : أقسطت إلى الرّجل : إذا عاملته بالعدل . قال الزجاج : المعنى : وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ﴿**إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى العادلين، ومعنى الآية : أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى ألا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل ، قال ابن زيد :كان هذا فى أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ ، قال قتادة : نسختها : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] . وقيل : هذا الحكم كان ثابتا فى الصلح بين النبىّ ﷺ وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم . وقيل : هى خاصة فى حلفاء النبىّ ﷺ ومن بينه وبينه عهد قاله الحسن ، وقال الكلبى : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف . وقال مجاهد : هى خاصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا . وقيل : هى خاصة بالنساء والصبيان ، وحكى القرطبى عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة ، ثم بين سبحانه من لا يحلّ بره ولا العدل فى معاملته فقال : ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم** ﴾ وهم صناديد الكفر من قريش ﴿ **وظاهروا على إخراجكم** ﴾

أى عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم فى عهدهم وقوله : ﴿**أن تولوهم** ﴾ بدل اشتمال من الموصول كما سلف ﴿ **ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾ أى الكاملون فى الظلم لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوّا لله ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياء لهم.

وقد أخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس : ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه** ﴾ قال : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، وقوله : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا** ﴾ لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة**﴾ قال : فى صنيع إبراهيم كله إلا فى الاستغفار لأبيه ، وهو مشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا تجعلنا فتنة للذين كفروا** ﴾ قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وأخرج ابن مردويه عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال: أول من قاتل أهل الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب وفيه نزلت هذه الآية :﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة**﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى أن رسول اللّه ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول اللّه ﷺ أقبل فلقى « ذا الخمار» مرتدّا ، فكان أوّل من قاتل فى الردّة وجاهد عن الدّين ، قال : وهو فيمن قال اللّه فيه : ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عدىّ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية قال : كانت المودّة التى جعل بينهم تزويج النبىّ ﷺ أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، فصارت أمّ المؤمنين ، فصار معاوية خال المؤمنين ، وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول اللّه ثلاث أعطينهنّ ، قال « نعم » ، قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال: « نعم » ، قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : « نعم » ، قال : وعندى أحسن العرب وأجمله أمّ حبيبة بنت أبى سفيان أزوّجكها الحديث (١) .

وأخرج الطيالسى وأحمد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا : ضباب وأقط وسمن وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلى عن هذا

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٠١ / ١٦٨) .

رسول الله ﷺ فسألته ، فأنزل الله : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدّين** ﴾ الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها [١] ، وزاد ابن أبى حاتم فى المدّة التى كانت بين قريش ورسول الله ﷺ . وفى البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر قالت : أتتنى أمى راغبة وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ، فسألت النبىّ ﷺ : أأصلها؟ فأنزل الله : ﴿ **لا ينهاكم الله** ﴾ الآية ، فقال : « نعم صلى أمك » [٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه حكم فريقى الكافرين فى جواز البرّ والإقساط للفريق الأوّل دون الفريق الثانى ذكر حكم من يظهر الإيمان ، فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ من بين الكفار وذلك أن النبى ﷺ لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهنّ ، فقال: ﴿ **فامتحنوهنّ** ﴾ أى فاختبروهنّ .

وقد اختلف فيما كان يمتحنّ به ، فقيل : كنّ يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا بل حبا لله ولرسوله ورغبة فى دينه ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبىّ ﷺ زوجها مهرها ، وما أنفق عليها ولم يردّها إليه . وقيل : الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ﷺ الآية ، وهى : ﴿ **يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات** ﴾ إلى آخرها .

---

(١) أحمد ٤ / ٤ وابن جرير ٢٨ / ٤٢ وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٥ ، ٤٨٦ ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى فى الهبة (٢٦٢٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٣ / ٤٩ ، ٥٠) وأبو داود فى الزكاة (١٦٦٨) .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عهد الهدنة أم لا ؟ على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص .

﴿ **اللّه أعلم بإيمانهنّ** ﴾ هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهنّ لا يعلمها إلا اللّه سبحانه ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم ما يدلّ على صدق دعواهنّ فى الرغوب فى الإسلام ﴿ **فإن علمتموهنّ مؤمنات** ﴾ أى علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذى أمرتم به ﴿ **فلا ترجعوهنّ إلى الكفار** ﴾ أى إلى أزواجهنّ الكافرين ، وجملة : ﴿**لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهنّ** ﴾ تعليل للنهى عن إرجاعهنّ . وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحلّ لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرّد هجرتها ، والتكرير لتأكيد الحرمة ، أو الأوّل لبيان زوال النكاح ، والثانى لامتناع النكاح الجديد ﴿ **وآتوهم ما أنفقوا** ﴾ أى وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتى هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهنّ من المهور . قال الشافعى : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض .

﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ** ﴾ لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم ﴿ **إذا آتيتموهنّ أجورهنّ** ﴾ أى مهورهنّ ، وذلك بعد انقضاء عدّتهنّ ، كما تدل عليه أدلة وجوب العدة ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**تمسكوا** ﴾ بالتخفيف من الإمساك ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة لقوله : ﴿ فأمسكوهنّ بمعروف ﴾ [البقرة: ٢٣١] ،وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد من التمسك ، والعصم جمع عصمة ، وهى ما يعتصم به ، والمراد هنا : عصمة عقد النكاح ، والمعنى : أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين . قال النخعى : هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوّجون المسلمين والمسلمون يتزوّجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب . وقيل : عامة فى جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها . وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثنّى أو كتابّى لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدّة . وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرّد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم فى انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها ﴿ **واسألوا ما أنفقتم** ﴾ أى اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ﴿ **وليسألوا ما أنفقوا** ﴾ قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين : إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت ردّوا مهرها على زوجها الكافر ﴿ **ذلكم حكم اللّه** ﴾ أى ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم اللّه ، وقوله : ﴿ **يحكم بينكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ﴿ **واللّه عليم حكيم** ﴾ أى بليغ العلم لا تخفى عليه خافية ، بليغ

الحكمة فى أقواله وأفعاله . قال القرطبى : وكان هذا مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين .

﴿ **وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار** ﴾ لما نزلت الآية المتقدّمة قال المسلمون : رضينا بحكم اللّه وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا ، فنزل قوله : ﴿ **وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار** ﴾ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات، وقيل: المعنى : وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة ﴿ **فعاقبتم** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : ﴿**فعاقبتم**﴾ فغنمتم . قال الزجاج : تأويله : وكانت العقبى لكم ، أى كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم ﴿**فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا** ﴾ من مهر المهاجرة التى تزوّجوها ودفعوه إلى الكفار ، ولا تؤتوه زوجها الكافر، قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة ، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح ، وحاصل معناها : أن ﴿ **من أزواجكم** ﴾ يجوز أن يتعلق بفاتكم أى من جهة أزواجكم، ويراد بالشيء : المهر الذى غرمه الزوج ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء ، ثم يجوز فى شيء أن يراد به المهر ، ولكن لا بدّ على هذا من مضاف محذوف، أى من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف وصفته ، ويجوز أن يراد بشيء: النساء ، أى نوع وصنف منهنّ ، وهو ظاهر قوله : ﴿ **من أزواجكم** ﴾ ، وقوله :﴿ **فآتوا الذين ذهبت أزواجهم**﴾ والمعنى: أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ولم يردّ عليه المشركون مهرها ، كما حكم اللّه مثل ذلك المهر الذى أنفقه عليها من الغنيمة ﴿ **واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ أى احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم ، فإن الإيمان الذى أنتم متصفون به ، يوجب على صاحبه ذلك.

﴿ **يأيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ أى قاصدات لمبايعتك على الإسلام ، و﴿ **على أن لا يشركن بالله شيئا** ﴾ من الأشياء كائنا ما كان ، هذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول اللّه ﷺ يبايعنه ، فأمره الله أن يأخذ عليهنّ : ألا يشركن ﴿ **ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ** ﴾ وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات ﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ** ﴾ أى لا يلحقن بأزواجهنّ ولدا ليس منهم . قال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدى منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهنّ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ؛ لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا ﴿ **ولا يعصينك فى معروف** ﴾ أى فى كل أمر هو طاعة لله . قال عطاء : فى كل برّ وتقوى ، وقال المقاتلان: عنى بالمعروف : النهى عن النوح ، وتمزيق الثياب ، وجزّ الشعر ، وشق الجيب ، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد

ابن أسلم، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه ، قيل : ووجه التقييد بالمعروف، مع كونه ﷺ لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق﴿ **فبايعهنّ** ﴾ هذا جواب إذا والمعنى : إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهنّ ، ولم يذكر فى بيعتهنّ الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ، وإنما خصّ الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء ﴿ **واستغفر لهنّ الله** ﴾ أى اطلب من الله المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك ﴿ **إن الله غفور رحيم**﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة لعباده .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم** ﴾ هم جميع طوائف الكفر . وقيل : اليهود خاصة . وقيل : المنافقون خاصة ، وقال الحسن : اليهود والنصارى ، والأول أولى ؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها ﴿ **قد يئسوا من الآخرة** ﴾ « من » لابتداء الغاية ، أى أنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم ﴿ **كما يئس الكفار من أصحاب القبور** ﴾ أى كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث ، وقيل : كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة ؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة وعلموا أنه لا نصيب لهم فى الآخرة ، فتكون « من » على الوجه الأول ابتدائية ، وعلى الثانى بيانية ، والأول أولى .

وقد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ؛ أن رسول اللّه ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ حتى بلغ ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك [١]. وأخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا، وفيه وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول اللّه ﷺ ، وهى عانق ، فجاء أهلها يسألون رسول اللّه ﷺ يرجعها إليهم حتى أنزل الله فى المؤمنات ما أنزل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فامتحنوهنّ** ﴾ قال : كان امتحانهنّ: أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا علموا أن ذلك حقا منهنّ لم يرجعن إلى الكفار وأعطى بعلها فى الكفار الذين عقد لهم رسول اللّه صداقها الذى أصدقها وأحلهنّ للمؤمنين إذا آتوهن أجورهنّ . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، فكان من أسلم من نسائهم ، فسئلت: ما أخرجك ؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها ورغبة عنه ردّت ، وإن كانت خرجت رغبة فى الإسلام أمسكت وردّ على زوجها مثل ما أنفق . وأخرج ابن أبى أسامة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير وابن مردويه ، بسند حسن كما قال السيوطى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ**﴾ قال : كان إذا جاءت المرأة النبىّ ﷺ حلفها عمر بن الخطاب باللّه ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وباللّه ما خرجت من بغض زوج ، وباللّه ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت

---

(١) البخارى فى الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

إلا حبا لله ورسوله[١] .

وأخرج ابن منيع من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته فى المشركين ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى والترمذى وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ **يأيها النبىّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **غفور رحيم** ﴾ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك كلاما » ، والله ما مست يده يد امرأة قط من المبايعات ، ما بايعهنّ إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك»[٢] . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت النبىّ ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن أن لا نشرك بالله شيئا حتى بلغ : ﴿ **ولا يعصينك فى معروف** ﴾ فقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » وفى الباب أحاديث [٣] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبىّ ﷺ فقال : «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، وقرأ آية النساء ، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» [٤] . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه** ﴾ قال : كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية . قال : لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم ﴿ **ولا يعصينك فى معروف** ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء . وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت : قالت امرأة من النسوة : ما هذا المعروف الذى لا ينبغى لنا أن نعصيك فيه ؟ قال : « لا تنحن » قلت : يا رسول الله ، إن بنى فلان أسعدونى على عمى ، لا بدّ لى من قضائهن ، فأبى علىّ فعاودته مرارا ، فأذن لى فى قضائهنّ ، فلم أنح بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيرى [٥] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أمّ عطية

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ٤٤ وقال الهيثمى فى المجمع ١٢٦/٧ : « رواه البزار وفيه قيس بن الربيع » .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٩١) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) أحمد ٦/ ٣٥٧ والترمذى فى السير (١٥٩٧) والنسائى فى البيعة ٧ / ١٥٢ وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٤) وابن جرير ٢٨ / ٥٢ .

(٤) البخارى فى الإيمان (١٨) ومسلم فى الحدود (١٧٠٩ / ٤١) والترمذى فى الحدود (١٤٣٩) .

(٥) ابن أبى شيبة فى الجنائز ٣/ ٣٨٩ والترمذى فى التفسير (٣٣٠٧) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٨٠) وابن جرير ٢٨ / ٥٢ .

قالت : بايعنا رسول اللّه ﷺ فقرأ علينا ألا نشرك باللّه شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : يا رسول اللّه ، إن فلانة أسعدتنى وأنا أريد أن أجزيها فلم يقل لها شيئا ، فذهبت ثم رجعت فقالت: ما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأمّ العلاء وبنت أبى سبرة امرأة معاذ أو بنت أبى سبرة وامرأة معاذ [١] . وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن النوح .

وأخرج أبو إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس قال : كان عبد اللّه بن عمرو وزيد بن الحارث يودّان رجلا من اليهود، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم** ﴾ الآية . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **قد يئسوا من الآخرة** ﴾ قال : فلا يؤمنون بها ولا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم اللّه .

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٢) ومسلم فى الجنائز (٩٣٦ / ٣١) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٠٧) .

تفسير سورة الصف

هى أربع عشرة آية . وهى مدنية . قال الماوردى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بمكة ، ولعل هذا لا يصح عنه ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلا فجمعنا ، فقرأ علينا هذه السورة ـ يعنى سورة الصف كلها [(١)] . وأخرجه ابن أبى حاتم ، وقال فى آخره : فنزلت فيهم هذه السورة . وأخرجه أيضا الترمذى وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين والبيهقى فى الشعب والسنن [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾ .

قوله : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ قد تقدم الكلام على هذا ووجه التعبير فى بعض السور بلفظ الماضى كهذه السورة ، وفى بعضها بلفظ المضارع ، وفى بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح فى كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد

(١) أحمد ٥/ ٤٥٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٠٩) وابن حبان (١٥٨٩) وصححه الحاكم ٢/ ٤٨٧ على شرط الشيخين والبيهقى فى الشعب (٣٩٠٧) وإسناده موثقون ، وفى السنن ٩/ ١٥٩ .

قدمنا نحو هذا فى أول سورة الحديد ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب الذى لا يغالب ، الحكيم فى أفعاله وأقواله . ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه ، و « لم » مركبة من اللام الجارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالها كما فى نظائرها . ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال: ﴿**كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾ أى عظم ذلك فى المقت ، وهو البغض والمقت والمقاتة مصدران ، يقال: رجل مقيت وممقوت: إذا لم يحبه الناس. قال الكسائى: ﴿ **أن تقولوا** ﴾ فى موضع رفع ، لأن ﴿ **كبر** ﴾ فعل بمعنى: بئس ، و﴿ **مقتا** ﴾ منتصب على التميز، وعلى هذا فيكون فى ﴿ **كبر** ﴾ ضمير مبهم مفسر بالنكرة ، وأن ﴿ **تقولوا** ﴾ هو المخصوص بالذم ، ويجىء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء ،وخبره الجملة المتقدمة عليه ، أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف . وقيل : إنه قصد بقوله: ﴿ **كبر** ﴾ التعجب ، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب . وقيل : إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب ، بل هو مسند إلى ﴿ **أن تقولوا** ﴾، و﴿ **مقتا** ﴾ تمييز محول عن الفاعل .

﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا** ﴾ قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا . فأنزل الله: ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون** ﴾ الآية ، وانتصاب ﴿**صفا** ﴾ على المصدرية ، والمفعول محذوف ، أى يصفون أنفسهم صفا . وقيل : هو مصدر فى موضع الحال ، أى صافين أو مصفوفين . قرأ الجمهور: ﴿ **يقاتلون** ﴾ على البناء للفاعل . وقرأ زيد بن على على البناء للمفعول وقرئ : «يقتلون » بالتشديد ، وجملة : ﴿ **كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **يقاتلون** ﴾ ، أو من الضمير فى ﴿**صفا**﴾ على تقدير أنه مؤول بصافين أو مصفوفين ، ومعنى ﴿**مرصوص**﴾: ملتزق بعضه ببعض ، يقال : رصصت البناء أرصه رصا : إذا ضممت بعضه إلى بعض . قال الفراء : مرصوص بالرصاص . قال المبرد : هو مأخوذ من رصصت البناء : إذا لا يمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة . وقيل : هو من الرصيص ، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص : التلاصق .

﴿ **وإذ قال موسى لقومه** ﴾ لما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين فى سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد ، وجاهدا فى سبيل الله ، وحل العقاب بمن خالفهما ، والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر ، أى اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى ، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين فى سبيل الله التحذير لأمة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿ **يا قوم لم تؤذونني**﴾ هذا مقول القول ، أى لم تؤذونني بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التى افترضها الله عليكم ، أو لم تؤذونني بالشتم والانتقاص ، ومن ذلك رميه بالأدرة [1] ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة الأحزاب ، وجملة :

(١) الأدرة : بالضم : نفخة فى الخصية .

﴿وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم﴾ فى محل نصب على الحال ، و« قد » لتحقق العلم أو لتأكيده ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، والمعنى : كيف تؤذوننى مع علمكم بأنى رسول الله ، والرسول يحترم ويعظم ، ولم يبق معكم شك فى الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التى توجب عليكم الاعتراف برسالتى ، وتفيدكم العلم بها علما يقينيا **﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾** أى لما أصروا على الزيغ واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وصرفها عن قبول الحق . وقيل : فلما زاغوا عن الإيمان ، أزاغ الله قلوبهم عن الثواب . قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق ، أمال الله قلوبهم عنه ، يعنى: أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم ، أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا **﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾** هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . قال الزجاج: لا يهدى من سبق فى علمه أنه فاسق ، والمعنى : أنه لا يهدى كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم .

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم ﴾ معطوف على **﴿ وإذ قال موسى ﴾** معمول لعامله ، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول **﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾** أى إنى رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقا لما بين يدى من التوراة لأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على التبشير بى ، فكيف تنفرون عنى وتخالفوننى ، وانتصاب **﴿ مصدقا ﴾** على الحال ، وكذا **﴿ مبشرا ﴾** والعامل فيهما ما فى الرسول من معنى الإرسال ، والمعنى : أنى أرسلت إليكم حال كونى مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا بمن يأتى بعدى ، وإذا كنت كذلك فى التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبى ، وأحمد اسم نبينا ﷺ وهو علم منقول من الصفة، وهى تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه أكثر حمدا لله من غيره ، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمى وزر بن حبيش وأبو بكر عن عاصم : « من بعدى » بفتح الياء ، وقرأ الباقون بإسكانها **﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾** أى لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا : هذا الذى جاءنا به سحر واضح ظاهر . وقيل : المراد : محمد ﷺ ، أى لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة ، والأول أولى. قرأ الجمهور : **﴿سحر ﴾** وقرأ حمزة والكسائى : « ساحر » .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أى لا أحد أكثر ظلما منه حيث يفترى على الله الكذب ، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذى هو خير الأديان وأشرفها ؛ لأن من كان كذلك فحقه ألا يفترى على غيره الكذب ، فكيف يفتريه على ربه ، قرأ الجمهور : **﴿ وهو يدعى ﴾** من الدعاء مبنيا للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرف: «يدعى» بفتح الياء وتشديد الدال من الادعاء مبنيا للفاعل ، وإنما عدى بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب **﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾** هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى: لا يهدى من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم **﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾**

الإطفاء: الإخماد، وأصله فى النار ، واستعير لما يجرى مجراها من الظهور ، والمراد بنور الله : القرآن ، أى يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، أو الإسلام ، أو محمد ﷺ ، أو الحجج والدلائل ، أو جميع ما ذكر ، ومعنى ﴿ **بأفواههم** ﴾ : بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن ﴿ **والله متم نوره** ﴾ بإظهاره فى الآفاق وإعلائه على غيره ، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم: ﴿ **متم نوره** ﴾ بالإضافة والباقون بتنوين «متم » ﴿ **ولو كره الكافرون**﴾ ذلك فإنه كائن لا محالة ، والجملة فى محل نصب على الحال ، قال ابن عطية : واللام فى ﴿**ليطفئوا** ﴾لام مؤكدة دخلت على المفعول ؛ لأن التقدير : يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، كقولك: لزيد ضربت ، ولرؤيتك قصدت .وقيل : هى لام العلة ، والمفعول محذوف ، أى يريدون إبطال القرآن ، أو دفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا . وقيل : إنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة بنفسها . قال الفراء : العرب تجعل لام كى فى موضع أن فى أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائى ، ومثل هذا قوله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء : ٢٦] وجملة : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها ، والهدى: القرآن أو المعجزات ، ومعنى ﴿ **دين الحق** ﴾ : الملة الحقة ، وهى ملة الإسلام ، ومعنى ﴿ **ليظهره** ﴾ : ليجعله ظاهرا على جميع الأديان عاليا عليها غالبا لها ولو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة . قال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام ، والدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة ، وجواب « لو » فى الموضعين محذوف ، والتقدير : أتمه وأظهره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ قال : هذه الآية فى القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبى ﷺ فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفى ولم يفعلوا ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عنه أيضا قال : قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه ؛ فأخبرهم الله فقال : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ فكرهوا ذلك ، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون .كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ قال : مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى أسماء: أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر، الذى يحشر الله الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا

العاقب ، والعاقب الذى ليس بعده نبى »[(١)] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار . قرأ الجمهور: ﴿ **تنجيكم** ﴾ بالتخفيف من الإنجاء .وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة بالتشديد من التنجية . ثم بين سبحانه هذه التجارة التى دل عليها فقال : ﴿**تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ وهو خبر فى معنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ، وقدم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هى التى يبدأ بها فى الإنفاق والتجهز إلى الجهاد ، قرأ الجمهور : ﴿ **تؤمنون** ﴾ وقرأ ابن مسعود : « آمنوا وجاهدوا » على الأمر . قال الأخفش : ﴿ **تؤمنون** ﴾ عطف بيان لـ ﴿ **تجارة** ﴾، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ **خير لكم** ﴾ أى هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ أى إن كنتم ممن يعلم فإنكم تعلمون أنه خير لكم ، لا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك .

﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، ولهذا جزم . قال الزجاج والمبرد : قوله: ﴿ **تؤمنون** ﴾ فى معنى آمنوا ، ولذلك جاء ﴿ **يغفر لكم** ﴾ مجزوما . وقال الفرّاء : ﴿ **يغفر لكم** ﴾ جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام ، وقد غلطه بعض أهل العلم . قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال الرازى فى توجيه قول الفراء : إن ﴿ **هل أدلكم** ﴾ فى معنى الأمر عنده يقال : هل أنت ساكت ، أى اسكت ، وبيانه : أن « هل » بمعنى الاستفهام ، ثم يتدرج

(١) أحمد ٤/ ٨٤ والبخارى فى المناقب (٣٥٣٢) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤/ ١٢٤، ١٢٥) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

إلى أن يصير عرضا وحثا ، والحث كالإغراء والإغراء أمر ، وقرأ زيد بن على: « تؤمنوا ، وتجاهدوا » على إضمار لام الأمر . وقيل : إن ﴿ **يغفر لكم** ﴾ مجزوم بشرط مقدر، أى إن تؤمنوا يغفر لكم ، وقرأ بعضهم بالإدغام فى يغفر لكم ، والأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه فى اللام ﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قد تقدم بيان كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات ﴿ **ومساكن طيبة فى جنات عدن** ﴾ أى فى جنات إقامة ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾ أى ذلك المذكور من المغفرة ، وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذى لا فوز بعده ، والظفر الذى لا ظفر يماثله .

﴿ **وأخرى تحبونها** ﴾ قال الأخفش والفرّاء : ﴿ **أخرى** ﴾ معطوفة على ﴿ **تجارة** ﴾ فهى فى محل خفض ، أى وهل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها فى العاجل مع ثواب الآخرة. وقيل : هى فى محل رفع ، أى ولكم خصلة أخرى . وقيل : فى محل نصب ، أى ويعطيكم خصلة أخرى ، ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال : ﴿ **نصر من الله وفتح قريب** ﴾ أى هى نصر من الله لكم ، وفتح قريب يفتحه عليكم . وقيل : ﴿ **نصر** ﴾ بدل من ﴿ **أخرى** ﴾ على تقدير كونها فى محل رفع . وقيل : التقدير : ولكم نصر وفتح قريب . قال الكلبى : يعنى : النصر على قريش وفتح مكة . وقال عطاء : يريد فتح فارس والروم ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ معطوف على محذوف ، أى قل يأيها الذين آمنوا وبشر ، أو على ﴿ **تؤمنون** ﴾ لأنه فى معنى الأمر ، والمعنى : وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح ، أو وبشرهم بالنصر فى الدنيا والفتح ، وبالجنة فى الآخرة ، أو وبشرهم بالجنة فى الآخرة .

ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله** ﴾ أى دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع : « أنصاراً لله » بالتنوين وترك الإضافة ، وقرأ الباقون بالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معا ، واختار أبو عبيد قراءة الإضافة لقوله : ﴿ **نحن أنصار الله** ﴾ بالإضافة ﴿ **كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله** ﴾ أى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى : ﴿ **من أنصارى إلى الله** ﴾ فقالوا : ﴿ **نحن أنصار الله** ﴾ والكاف فى ﴿ **كما قال**﴾ نعت مصدر محذوف ، تقديره : كونوا كونا كما قال . وقيل : الكاف فى محل نصب على إضمار الفعل ، وقيل : هو كلام محمول على معناه دون لفظه ، والمعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم :من أنصارى إلى الله . وقوله : ﴿ **إلى الله** ﴾ قيل : إلى بمعنى : مع ، أى من أنصارى مع الله . وقيل : التقدير : من أنصارى فيما يقرب إلى الله . وقيل : التقدير : من أنصارى متوجها إلى نصرة الله ، وقد تقدم الكلام على هذا فى سورة آل عمران . والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه ، وأول من آمن به ، وقد تقدم بيانهم ﴿**فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة** ﴾ أى آمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة ، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم** ﴾ أى قوينا المحقين منهم

على المبطلين **﴿فأصبحوا ظاهرين﴾** أى عالين غالبين ، وقيل المعنى : فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعا.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قالوا : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فنزلت : **﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾** فكرهوا ، فنزلت : **﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾** إلى قوله : **﴿ بنيان مرصوص ﴾** . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : **﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾** قال : قد كان ذلك بحمد الله ، جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه . وأخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة : « أخرجوا إلى اثنى عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم ، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم»[١] . وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله ﷺ للنقباء : « إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل قومى »، قالوا :نعم [٢] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : **﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾** قال : فقوينا الذين آمنوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : فأيدنا الذين آمنوا بمحمد ﷺ وأمته على عدوهم فأصبحوا اليوم ظاهرين.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٢ وابن سعد ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٢) ابن سعد ١/ ٢٢٢، ٢٢٣.

تفسير سورة الجمعة

هى إحدى عشرة آية . وهى مدنية . قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج مسلم وأهل السنن عن أبى هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة سورة الجمعة و﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ [المنافقون] [٢] . وأخرج مسلم وأهل السنن عن ابن عباس نحوه [٣] . وأخرج ابن حبان ، والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال :كان رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ [الكافرون] و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص] وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون [٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾ .

قوله : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى أول سورة

---

(١) القرطبى ٩/ ٦٥٧٠ .

(٢) مسلم فى الجمعة (٨٧٧/ ٦١) وأبو داود فى الصلاة (١٠٧٤) والترمذى فى الصلاة (٥١٩) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١١١٨) .

(٣) مسلم فى الجمعة (٨٧٩/ ٦٤) وأبو داود فى الصلاة (١٠٧٥) والترمذى فى الصلاة (٥١٩) وقال : « حديث حسن صحيح » والنسائى ٣/ ١١١ والبيهقى ٣/ ٢٠٠ .

(٤) ابن حبان فى الصلاة (١٨٣٨) والبيهقى ٣/ ٢٠١ .

الحديد . وما بعدها من المسبحات ﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ قرأ الجمهور بالجر فى هذه الصفات الأربع على أنها نعت لـ ﴿ لله ﴾ ، وقيل : على البدل ، والأول أولى . وقرأ أبو وائل بن محارب وأبو العالية ونصر بن عاصم ورؤبة بالرفع على إضمار مبتدأ ، وقرأ الجمهور : ﴿ القدوس ﴾ بضم القاف ، وقرأ زيد بن على بفتحها ،وقد تقدم تفسيره . ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ المراد بالأميين : العرب ، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، والأمى فى الأصل : الذى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب كذلك ، وقد مضى بيان معنى الأمى فى سورة البقرة ، ومعنى ﴿ منهم ﴾ : من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم وما كان حى من أحياء العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة ، ووجـه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه ﴿ يتلوعليهم آياته ﴾ يعنى: القرآن ، مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك من أحد ، والجملة صفة لـ ﴿ رسولا ﴾ وكذا قوله : ﴿ ويزكيهم ﴾ قال ابن جريج ومقاتل : أى يطهرهم من دنس الكفر والذنوب. وقال السدى :يأخذ زكاة أموالهم . وقيل : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ هذه صفة ثالثة لـ ﴿ رسولا ﴾ ، والمراد بالكتاب : القرآن، وبالحكمة : السنة ، كذا قال الحسن . وقيل : الكتاب : الخط بالقلم ، والحكمة : الفقه فى الدين ، كذا قال مالك بن أنس ﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ أى وإن كانوا من قبل بعثته فيهم فى شرك وذهاب عن الحق .

﴿ وآخرين منهم ﴾ معطوف على الأميين ، أى بعث فى الأميين ، وبعث فى آخرين منهم ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ ذلك الوقت ، وسيلحقون بهم من بعد ، أو هو معطوف على المفعول الأول فى ﴿ يعلمهم ﴾ أى ويعلم آخرين ، أو على مفعول ﴿يزكيهم ﴾ ، أى يزكيهم ويزكى آخرين منهم . والمراد بالآخرين : من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بهم : من أسلم من غير العرب ، وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : هم الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدى . وجملة : ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ صفة لـ ﴿ آخرين ﴾ ، والضمير فى « منهم » و« لهم » راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين : هم من يأتى بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو ﷺ وإن كان مرسلا إلى جميع الثقلين ، فتخصيص العرب هاهنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لا ينافى عموم الرسالة، ويجوز أن يراد بالآخرين : العجم ؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب ، فقد صاروا بالإسلام منهم والمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم ﴿ وهو العزيـز الحكيم ﴾ أى بليغ العـزة والحكمة . والإشارة بقوله :﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم ذكره ، وقال الكلبى: يعنى:الإسلام.وقال قتادة: يعنى: الوحى والنبوة . وقيل : إلحاق العجم بالعـرب ، وهـو مبتدأ وخـبره ﴿ فـضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أى يعطيه من يشاء من عباده ﴿ والله ذو الفـضل العظيم﴾ الذى لا يساويه فضل ولا يدانيه .

﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها** ﴾ ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلا فقال: ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة**﴾ أى كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ﴿**ثم لم يحملوها**﴾ أى لم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها﴿**كمثل الحمار يحمل أسفارا**﴾ هى جمع سفر وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ .قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبل ، فهكذا اليهود. وقال الجرجانى: هو يعنى حملوا من الحمالة يعنى الكفالة، أى ضمنوا أحكام التوراة ، وقوله: ﴿ **يحمل** ﴾ فى محل نصب على الحال، أو صفة للحمار ، إذ ليس المراد به حمارا معينا ،فهو فى حكم النكرة كما فى قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى   فمضيت ثم وقلت لا يعنينى

﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله** ﴾ أى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، على أن التميز محذوف ، والفاعل المفسر به مضمر ، و﴿ **مثل القوم** ﴾ هو المخصوص بالذم ، أو ﴿ **مثل القوم** ﴾ فاعل ﴿ **بئس** ﴾ ، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف مضاف، أى مثل الذين كذبوا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون فى محل جر ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء ﴿**والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ يعنى على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوليا .

﴿ **قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس** ﴾ المراد بالذين هادوا : الذين تهودوا ، وذلك أن اليهود ادعوا الفضيلة على الناس، وأنهم أولياء الله من دون الناس ، كما فى قولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] ،وقولهم: ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادعوا هذه الدعوة الباطلة : ﴿**فتمنوا الموت**﴾ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة فى زعمكم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى هذا الزعم ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار . قرأ الجمهور : ﴿ **فتمنوا** ﴾ بضم الواو ،وقرأ ابن السميفع بفتحها تخفيفا ،وحكى الكسائى إبدال الواو همزة .ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم فقال: ﴿ **ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم** ﴾ أى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصى والتحريف والتبديل ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ يعنى : على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوليا .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم وأنه نازل بهم فقال : ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم** ﴾ لا محالة ونازل بكم بلا شك ، والفاء فى قوله: « فإنه » داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج: لا يقال: إن زيدا فمنطلق ، وهاهنا قال : فإنه ملاقيكم لما فى معنى الذى من الشرط والجزاء ، أى إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه . وقيل : إنها مزيدة. وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ **تفرون منه** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ من الأعمال

القبيحة ويجازيكم عليها .

وقد أخرج ابن المنذر والحاكم والبيهقى فى الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾ أول سورة الجمعة. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال :«إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » (١). وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ حين نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ قال له رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسى وقال : « والذى نفسى بيده ، لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء» (٢) . وأخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ : « لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس ـ أو قال ـ : من أبناء فارس » (٣) . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » . ثم قرأ :﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ قال : الدين . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه:﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها** ﴾ قال : اليهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أسفارا** ﴾ قال : كتبا .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة** ﴾ أى وقع النداء لها ، والمراد به : الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواه ، وقوله: ﴿ **من يوم الجمعة** ﴾ بيان لإذا وتفسير لها . وقال أبو البقاء : إن « من » بمعنى فى كما فى

---

(١) أحمد ٢/ ٤٣ ، ٥٢ ، ١٢٢ ، ١٢٩ والبخارى فى الصوم (١٩١٣) ومسلم فى الصوم (١٠٨٠ / ١٥) وأبو داود فى الصوم (٢٣١٩) والنسائى ٤/ ١٣٩ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٣١٠) وقال : « حديث غريب » .

(٣) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٦/ ٢٣٠ ، ٢٣١) عن أبى هريرة .

قوله: ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [فاطر: ٤٠] أى فى الأرض . قرأ الجمهور : ﴿الجمعة ﴾ بضم الميم ، وقرأ عبد الله بن الزبير والأعمش بإسكانها تخفيفا ، وهما لغتان وجمعها جمع وجمعات . قال الفراء : يقال : الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها ، وهى صفة لليوم ، أى يوم يجمع الناس . قال الفراء أيضا وأبو عبيد : والتخفيف أخف وأقيس ، نحو : غرفة وغرف ، وطرفة وطرف ، وحجرة وحجر ، وفتح الميم لغة عقيل . وقيل : إنها سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم . وقيل : لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمعت فيها جميع المخلوقات .وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ قال عطاء : يعنى : الذهاب والمشى إلى الصلاة، وقال الفراء : المضى والسعى والذهاب فى معنى واحد ، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود . « فامضوا إلى ذكر الله » . وقيل : القصد . قال الحسن : والله ما هو سعى على الأقدام ، ولكنه قصد بالقلوب والنيات . وقيل : هو العمل كقوله :﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ [الإسراء : ١٩] وقوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ [الليل:٤] وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم : ٣٩] قال القرطبى : وهذا قول الجمهور (١) ، ومنه قول زهير :

سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم

وقال أيضا :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ..... تنزل ما بين العشيرة بالدم

أى فاعملوا على المضى إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، ويؤيد هذا القول ، قول الشاعر :

أسعى على جل بنى مالك ..... كل امرئ فى شأنه ساعى

﴿ **وذروا البيع** ﴾ أى اتركوا المعاملة به ، ويلحق به سائر المعاملات . قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع . والإشارة بقوله :﴿ **ذلكم** ﴾ إلى السعى إلى ذكر الله وترك البيع ، وهو مبتدأ وخبره ﴿**خير لكم** ﴾ أى خير لكم من فعل البيع ، وترك السعى لما فى الامتثال من الأجر والجزاء ، وفى عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم ، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم . ﴿ **فإذا قضيت الصلاة** ﴾ أى إذا فعلتم الصلاة وأديتموها وفرغتم منها ﴿ **فانتشروا فى الأرض** ﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿ **وابتغوا من فضل الله** ﴾ أى من رزقه الذى يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح فى المعاملات والمكاسب . وقيل : المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات واجتناب ما لا يحل ﴿ **واذكروا الله كثيرا** ﴾ أى ذكرا كثيرا بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروى والدنيوى ، وكذا اذكروه بما

---
(١) القرطبى ٩ / ٦٥٨٠ .

يقربكم إليه من الأذكار، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى كى تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به .

﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما** ﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة، فأقبلت عير من الشام والنبى ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد [١]، ومعنى ﴿ **انفضوا إليها** ﴾ : تفرقوا خارجين إليها . وقال المبرد : مالوا إليها ، والضمير للتجارة، وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهم عندهم . وقيل : التقدير : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل : إنه اقتصر على ضمير التجارة ؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموما مع الحاجة إليها فكيف بالانفضاض إلى اللهو. وقيل غير ذلك ﴿ **وتركوك قائما** ﴾ أى على المنبر ، ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا فقال : ﴿ **قل ما عند الله** ﴾ يعنى: من الجزاء العظيم وهو الجنة ﴿ **خير من اللهو ومن التجارة** ﴾ اللذين ذهبتم إليهما وتركتم البقاء فى المسجد ، وسماع خطبة النبى ﷺ لأجلها ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾ فمنه اطلبوا الرزق وإليه توسلوا بعمل الطاعة ، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قلت : يا رسول الله ، لأى شىء سمى يوم الجمعة ؟ قال: « لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفى آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له » . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن سلمان قال : قال لى رسول الله ﷺ : « أتدرى ما يوم الجمعة ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاث مرات ثم قال فى الثالثة : « هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم ، أفلا أحدثكم عن يوم الجمعة ؟» الحديث[٢] . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة» [٣]. وفى الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٩) ومسلم فى الجمعة (٨٦٣/٣٦ ـ ٣٨) كلاهما عن جابر بن عبد الله .

(٢) أحمد ٥/ ٤٣٩ والنسائى ٣/ ١١٤ وصححه الحاكم ١/ ٢٧٧ ووافقه الذهبى والطبرانى (٦٠٨٩ ـ ٦٠٩٢) وإسناده حسن وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٧٧ : « رجاله ثقات » .

(٣) أحمد ٢/ ٤٠١ ، ٤٨٦ ، ٥٠٤ ، ٥٤٠ ومسلم فى الجمعة (٨٥٤/ ١٨ ، ١٩) والترمذى فى الصلاة (٤٨٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وورد فى فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك فى فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفى الساعة التى فيها ، وأنه يستجاب الدعاء فيها ، وقد أوضحت ذلك فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره [١] .

وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف عن خرشة بن الحر قال : رأى معى عمر بن الخطاب لوحا مكتوبا فيه : ﴿ **إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت : أبى ابن كعب ، قال : إن أبيا أقرأنا للمنسوخ ، اقرأها : «فامضوا إلى ذكر الله » [٢] . وروى هؤلاء ماعدا أبا عبيد عن ابن عمر قال : لقد توفى رسول الله ﷺ وما نقرأ هذه الآية التى فى سورة الجمعة إلا : « فامضوا إلى ذكر الله » . وأخرجه عنه أيضا الشافعى فى الأم ، وعبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم [٣]. وأخرجوا كلهم أيضا عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « فامضوا إلى ذكر الله » قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى[٤] . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ قال : فامضوا . وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعى : العمل . وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب : أن رجلين من أصحاب النبى ﷺ كانا يختلفان فى تجارتهما إلى الشام فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فيدعونه ويقومون، فنزلت الآية : ﴿ **وذروا البيع** ﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ قال : « ليس لطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ فى الله » [٥]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : لم تؤمروا بشىء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها** ﴾ إلى آخر السورة [٦] . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال : جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام ، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشترى ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية ، وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر ، وبقى فى المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة ، فقال رسول الله ﷺ : « لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا » . وفى الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم .

---

(١) نيل الأوطار ٣/ ٢٦٩ وما بعدها .
(٢) ابن أبى شيبة ٢/ ١٥٧ .
(٣) الشافعى فى الأم ١/ ١٩٦ وابن جرير ٢٨/ ٦٥ .
(٤) ابن جرير ٢٨/ ٦٥ .
(٥) ابن جرير ٢٨/ ٦٧ .
(٦) البخارى فى التفسير (٤٨٩٩) ومسلم فى الجمعة (٣٦/٨٦٣ ـ ٣٨) والترمذى فى التفسير (٣٣١١) وقال : « حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦١٣) .

تفسير سورة « المنافقون »

هى إحدى عشرة آية . وهى مدنية ، قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المنافقين بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج سعيد بن منصور ، والطبرانى فى الأوسط ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن أبى هريرة قال : كان رسول اللّه ﷺ يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرّض بها على المؤمنين . وفى الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين [٢] . وأخرج البزار والطبرانى عن أبى عنبة الخولانى مرفوعا نحوه [٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ .

قوله : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ أى إذا وصلوا إليك وحضروا مجلسك ، وجواب الشرط : ﴿ قالوا ﴾ وقيل : محذوف ، و﴿ قالوا ﴾ حال ، والتقدير: جاؤوك قائلين : كيت وكيت فلا تقبل منهم ، وقيل : الجواب ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ وهو بعيد ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول اللّه ﴾

---

(١) القرطبى ٩ / ٦٥٩٩ .

(٢) السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٢٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١٩٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن ، ومحمد بن عمار هو الوازعى وهو وشيخه عبد الصمد من أهل الرأى وثقهما ابن حبان » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١٩٤ : « رواه البزار والطبرانى فى الكبير وفيه زيادة ، وفيه أبو مهدى سعيد بن سنان وهو ضعيف » .

أكدوا شهادتهم بإنّ واللام ؛ للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم ، والمراد بالمنافقين : عبد اللّه بن أبى وأصحابه ، ومعنى ﴿ **نشهد**﴾ : نحلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، ومن هذا قول قيس بن ذَريح :

وأشهد عند الله أنى أحبها ... فهذا لها عندى فما عندها ليا

ومثل نشهد نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم ، كما فى قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتينّ منيتى ... إن المنايا لا تطيش سهامها

وجمْلة : ﴿ **والله يعلم إنك لرسوله** ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة ، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد ، لا إلى منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حقّ ، والمعنى : والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد، وطمأنينة قلب ، وموافقة باطن لظاهر. ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة** ﴾ أى جعلوا حلفهم الذى حلفوا لكم به إنهم لمنكم وإن محمداً لرسول اللّه وقاية تقيهم منكم وسترة يستترون بها من القتل والأسر ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، وقد تقدّم قول من قال : إنها جواب الشرط ، قرأ الجمهور:﴿ **أيمانهم** ﴾ بفتح الهمزة ، وقرأ الحسن بكسرها ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة المجادلة ، ﴿**فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح فى النبوة ، هذا معنى الصدّ الذى بمعنى الصرف ، ويجوز أن يكون من الصدود، أى أعرضوا عن الدخول فى سبيل اللّه وإقامة أحكامه ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ من النفاق والصدّ ، وفى ساء معنى التعجب . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الكذب والصد وقبح الأعمال ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **بأنهم آمنوا** ﴾ أى بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقا ﴿ **ثم كفروا** ﴾ فى الباطن ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين ، وهذا صريح فى كفر المنافقين . وقيل : نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدوا ، والأول أولى كما يفيده السياق . ﴿**فطبع على قلوبهم** ﴾ أى ختم عليها بسبب كفرهم ، قرأ الجمهور: ﴿ **فطبع** ﴾ على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده ، وقرأ زيد ابن علىّ على البناء للفاعل ، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، ويدل على هذا قراءة الأعمش : « فطبع الله على قلوبهم » . ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ ما فيه من صلاحهم ورشادهم وهو الإيمان . ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ أى هيئاتهم ومناظرهم ، يعنى : أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ﴿ **وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وقد كان عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين فصيحًا جسيمًا جميلاً ،وكان يحضر مجلس النبى ﷺ ، فإذا قال سمع النبىّ ﷺ مقالته ، قال الكلبى: المراد: عبد الله بن أبىّ ، وجدّ بن قيس ، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة ،

والخطاب للنبى ﷺ . وقيل : لكلّ من يصلح له ، ويدلّ عليه قراءة من قرأ : « يسمع » على البناء للمفعول ، وجملة : ﴿ **كأنهم خشب مسندة** ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائى وتروق الناظر ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لا تفهم ولا تعلم ، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع والعلم الذى ينتفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم فى ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب .قرأ الجمهور :﴿ **خشب** ﴾ بضمتين ،وقرأ أبو عمرو والكسائى وقنبل بإسكان الشين ، وبها قرأ البراء بن عازب ، واختارها أبو عبيد ؛ لأن واحدتها خشبة ،كبدنة وبدن ، واختار القراءة الأولى أبوحاتم ، وقرأ سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب بفتحتين،ومعنى ﴿ **مسندة** ﴾ : أنها أسندت إلى غيرها ، من قولهم : أسندت كذا إلى كذا ، والتشديد للتكثير . ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال : ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم** ﴾ أى يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفى المفعول الثانى للحسبان وجهان : أحدهما : أنه عليهم ، ويكون قوله : ﴿ **هم العدو** ﴾:جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون ، والوجه الثانى: أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله: ﴿ **هم العدوّ** ﴾ ويكون قوله: ﴿ **عليهم** ﴾ متعلقا بـ ﴿ **صيحة** ﴾ ، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدو ، والوجه الأول أولى ، قال مقاتل والسدىّ : أى إذا نادى مناد فى العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون لما فى قلوبهم من الرعب ، ومن هذا قول الشاعر :

مازلت تحسب كلّ شىء بعدهم   خيلا تكر عليهم ورجالا

وقيل : كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم .ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال:﴿**فاحذرهم**﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك أو يطلعوا على شىء من أسرارك؛لأنهم عيون لأعدائك من الكفار.ثم دعا عليهم بقوله:﴿ **قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ أى لعنهم الله،وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا . بل المراد : ذمهم وتوبيخهم،وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته ـ عزّ وجلّ ـ أن يلعنهم ويخزيهم ،أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك ، ومعنى ﴿**أنى يؤفكون** ﴾:كيف يصرفون عن الحق ويميلون عنه إلى الكفر، قال قتادة : معناه : يعدلون عن الحق ، وقال الحسن :معناه: يصرفون عن الرشد.

﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله** ﴾ أى إذا قال لهم القائل من المؤمنين : قد نزل فيكم ما نزل من القرآن فتوبوا إلى الله ورسوله وتعالوا يستغفر لكم رسول الله﴿ **لوّوا رؤوسهم** ﴾ أى حركوها استهزاء بذلك، قال مقاتل:عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار، قرأ الجمهور:﴿ **لوّوا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ نافع بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ﴿**ورأيتهم**

يصدّون ﴾ أى يعرضون عن قول من قال لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه ، أو يعرضون عن رسول اللّه ﷺ ، وجملة :﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى ، وهم يصدّون ؛ لأن الرؤية بصرية فـ ﴿ **يصدون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمعنى: ورأيتهم صادّين مستكبرين ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم** ﴾ أى الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر، قرأ الجمهور : ﴿**أستغفرت** ﴾ بهمزة مفتوحة من غير مدّ ، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة « أم » عليها ،وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف ﴿ **لن يغفر الله لهم** ﴾أى ما داموا على النفاق ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ أى الكاملين فى الخروج عن الطاعة والانهماك فى معاصى اللّه ، ويدخل فيهم المنافقون دخولا أوّليا .ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال :﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا** ﴾ أى حتى يتفرّقوا عنه : يعنون بذلك فقراء المهاجرين ، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم ، أو لعدم مغفرة الله لهم . قرأ الجمهور:﴿ **ينفضوا** ﴾ من الانفضاض ،وهوالتفرق،وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشى:« ينفضوا » من أنفض القوم : إذا فنيت أزوادهم ، يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ . ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال : ﴿ **ولله خزائن السموات والأرض** ﴾ أى إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ما شاء ويمنع من شاء ما شاء ﴿ **ولكنّ المنافقين لا يفقهون** ﴾ ذلك ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد اللّه ـ عزّ وجلّ ـ وأنه الباسط القابض المعطى المانع .

ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل** ﴾ القائل لهذه المقالة : هو عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، وعنى بالأعز : نفسه ومن معه ، وبالأذلّ : رسول اللّه ﷺ ومن معه ، ومراده بالرجوع :رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم ،وهو عبد اللّه بن أبىّ ؛ لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله ، سامعون له مطيعون . ثم ردّ الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ أى القوّة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لا لغيرهم . اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزّة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين ﴿**ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضرّ فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم والطبع على قلوبهم .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن زيد بن أرقم قال :خرجنا مع رسول اللّه ﷺ فى سفر فأصاب الناس شدّة، فقال عبد اللّه بن أبىّ لأصحابه : ﴿ **لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا** ﴾ من حوله ، وقال :﴿ **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ**﴾ فأتيت النبىّ ﷺ فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد اللّه بن أبىّ فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا :

كذب زيد رسول الله ، فوقع فى نفسى مما قالوا شدّة حتى أنزل الله تصديقى فى ﴿ **إذا جاءك المنافقون**﴾ فدعاهم النبىّ ﷺ ليستغفر لهم فلوّوا رؤوسهم ، وهو قوله : ﴿ **كأنهم خشب مسندة**﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شىء [١] . وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه، وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي [٢] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما سماهم الله منافقين ؛ لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان .وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة** ﴾ قال : حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنبوا بأيمانهم من القتل والحرب .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**كأنهم خشب مسندة** ﴾ قال :نخل قيام.وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عنه أيضا ، قال:نزلت هذه الآية:﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** ﴾ فى عسيف لعمر بن الخطاب.وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم وابن مسعود أنهما قرآ:« لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله».

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبىّ ﷺ فى غزاة . قال سفيان : يرون أنها غزوة بنى المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال المهاجرىّ : يا للمهاجرين ، وقال الأنصارىّ:ياللأنصار، فسمع ذلك النبىّ ﷺ فقال : « ما بال دعوة الجاهلية ؟ » قالوا : رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار ، فقال النبىّ ﷺ : « دعوها فإنها منتنة » فسمع ذلك عبد الله بن أبىّ ، فقال : أو قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منه الأذلّ ، فبلغ ذلك النبىّ ﷺ ، فقام عمر فقال : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبىّ ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » زاد الترمذى : فقال له ابنه عبد الله : والله لا تنفلت حتى تقرّ أنك الذليل ، ورسول الله العزيز ، ففعل [٣] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ**

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٠٠ ـ ٤٩٠٤) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٢ / ١) والنسائى فى التفسير (٦١٨) .

(٢) ابن سعد فى الطبقات ٢ / ٦٥ والترمذى فى التفسير (٣٣١٢) وقال : « حسن صحيح » والطبرانى (٥٠٥٠) ، وصححه الحاكم ٢ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ وقال : « قد اتفق الشيخان على إخراج أحرف يسيرة من هذا الحديث من حديث أبى إسحاق السبيعى عن زيد بن أرقم » ووافقه الذهبى وقال : « وأخرجاه منه » والبيهقى ٨ / ١٩٨ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٠٥ ، ٤٩٠٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٤ / ٦٣) والترمذى فى التفسير (٣٣١٥) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٨١٣) وفى التفسير (٦١٩) .

رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ⑩ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑪ ﴾ .

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغبا لهم فى ذكره فقال : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله**﴾ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ،ومعنى ﴿ **لا تلهكم** ﴾:لا تشغلكم ، والمراد بالذكر: فرائض الإسلام ، قاله الحسن ، وقال الضحاك : الصلوات الخمس . وقيل : قراءة القرآن . وقيل : هو خطاب للمنافقين ، ووصفهم بالإيمان ؛ لكونهم آمنوا ظاهرا ، والأول أولى .﴿**ومن يفعل ذلك** ﴾ أى يلتهى بالدنيا عن الدين ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون فى الخسران.﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق فى الخير على عمومه ، و« من » للتبعيض ، أى أنفقوا بعض ما رزقناكم فى سبيل الخير . وقيل : المراد: الزكاة المفروضة ﴿ **من قبل أن يأتى أحدكم الموت** ﴾ بأن تنزل به أسبابه ويشاهد حضور علاماته ، وقدم المفعول على الفاعل للاهتمام ﴿ **فيقول ربّ لولا أخرتنى إلى أجل قريب** ﴾ أى يقول عند نزول ما نزل به منـاديا لربه : هلا أمهلتنى وأخرت موتى إلى أجل قريب ، أى أمد قصير ﴿ **فأصّدق** ﴾ أى فأتصدّق بمالى ﴿ **وأكن من الصالحين** ﴾ قرأ الجمهور:﴿**فأصّدق** ﴾ بإدغام التاء فى الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمنى . وقيل : إن « لا » فى ﴿ **لولا** ﴾ زائدة ، والأصل : لو أخرتنى . وقرأ أبىّ وابن مسعود وسعيد بن جبير: « فأتصدّق » بدون إدغام على الأصل ، وقرأ الجمهور : ﴿**وأكن**﴾ بالجزم على محل ﴿ **فأصدّق** ﴾، كأنه قيل : إن أخرتنى أتصدّق وأكن . قال الزجاج : معناه : هلا أخرتنى ؟ وجزم ﴿ **أكن** ﴾ على موضع ﴿ **فأصدق** ﴾؛ لأنه على معنى : إن أخرتنى ﴿ **فأصدّق** ﴾ وأكن ، وكذا قال أبو علىّ الفارسى وابن عطية وغيرهم ، وقال سيبويه حاكيا عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الذى يدّل عليه التمنى ، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ... ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

فخفض ولا سابق عطفا على مدرك الذى هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن ومجاهد : « وأكون » بالنصب عطفا على ﴿ **فأصدّق** ﴾ ، ووجهها واضح ، ولكن قال أبو عبيد : رأيت فى مصحف عثمان : ﴿**وأكن** ﴾ بغير واو ، وقرأ عبيد ابن عمير: « وأكون » بالرفع على الاستئناف ، أى وأنا أكون . قال الضحاك : لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤدّ زكاة إلا سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية.ثم أجاب الله سبحانه عن هذا المتمنى فقال : ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلهـا** ﴾ أى إذا جاء أجلهـا وانقضـى عمرها ﴿**والله خبير بما تعملون** ﴾ لا يخفى عليه شىء فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور : ﴿**تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ أبو بكر عن عاصم والسلمى بالتحتية على الخبر .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم** ﴾ الآية قال : « هم عباد من أمتى الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وعن الصلوات الخمس المفروضة » . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له مال يبلغه حج بيت الله ، أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت » ، فقال رجل : يا بن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكافر ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا: ﴿**يأيها الذين آمنوا** ﴾ إلى آخر السورة [١] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **فأصدّق وأكن من الصالحين** ﴾ قال: أحج .

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣١٦) وابن جرير ٢٨ / ٧٧ ولكنه من قول ابن عباس وليس من قول الرسول ﷺ ، والطبرانى (١٢٦٣٥ ، ١٢٦٣٦) وقال ابن كثير ٧ / ٢٤ : « رواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع » .

تفسير سورة التغابن

هى ثمان عشرة آية . وهى مدنية فى قول الأكثر ، وقال الضحاك : هى مكية . وقال الكلبى : هى مدنية ومكية . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعى ، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده فأنزل الله : ﴿يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم﴾ إلى آخر السورة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه [١] . وأخرج ابن حبان فى الضعفاء، والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عمر قال : قال النبىّ ﷺ: « ما من مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » قال ابن كثير : وهو غريب جدا بل منكر [٢] . وأخرج البخارى فى تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : ما من مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من أوّل سورة التغابن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات و ما فى الأرض** ﴾ أى ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التى فى سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شىء ، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء ﴿**هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ أى فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن. قال الضحاك : فمنكم كافر فى السرّ مؤمن فى العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن فى السرّ كافر فى العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر . وقال عطاء : فمنكم كافر بالله مؤمن

---

(١) ابن جرير ٢٨/ ٨١.

(٢) ابن كثير ٧/ ٢٦ وقال : « هو غريب جداً بل منكر ، وقال : أورده ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن صالح » .

بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب . قال الزجاج : إن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدّر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبى: وهذا أحسن الأقوال وهو الذى عليه جمهور الأمة ، وقدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم .

ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى بالحكمة البالغة ، وقيل : خلق ذلك خلقا يقينا لا ريب فيه . وقيل : الباء بمعنى اللام ، أى خلق ذلك لإظهار الحق ، وهو أن يجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ قيل المراد : آدم خلقه بيده كرامة له ، كذا قال مقاتل . وقيل : المراد: جميع الخلائق وهو الظاهر ، أى أنه سبحانه خلقهم فى أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل ، والتصوير : التخطيط والتشكيل . قرأ الجمهور : ﴿ **فأحسن صوركم** ﴾ بضمّ الصاد ، وقرأ زيد بن علىّ والأعمش وأبو زيد بكسرها ﴿ **وإليه المصير** ﴾ فى الدار الآخرة ، لا إلى غيره ﴿ **يعلم ما فى السموات والأرض** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿ **ويعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ أى ما تخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد ﴿ **والله عليم بذات الصدور** ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ، وهى تذييلية .

﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل** ﴾ وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ، والخطاب لكفار العرب ﴿ **فذاقوا وبال أمرهم** ﴾ بسبب كفرهم، والوبال :الثقل والشدّة ، والمراد بأمرهم هنا :ما وقع منهم من الكفر والمعاصى، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ وذلك فى الآخرة ، وهو عذاب النار .والإشارة بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من العذاب فى الدارين ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة ﴿ **فقالوا أبشر يهدوننا** ﴾ أى قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك. وأراد بالبشر الجنس ، ولهذا قال : ﴿ **يهدوننا** ﴾. ﴿ **فكفروا وتولوا** ﴾ أى كفروا بالرسل وبما جاؤوا به وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاؤوا به. وقيل: كفروا بهذا القول الذى قالوه للرسل ﴿ **واستغنى الله** ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم . وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات ، وقيل : استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ﴿ **والله غنى حميد** ﴾ أى غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا مكث المنىّ فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به

إلى الرب فيقول ، يارب ، أذكر أم أنثى؟ فيقضى اللّه ما هو قاض ، فيقول : أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق ». وقرأ أبو ذرّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير**﴾ (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : «العبد يولد مؤمنا ، ويعيش مؤمنا ، ويموت مؤمنا ، والعبد يولد كافرا ، ويعيش كافرا ويموت كافرا ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيا ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا » .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا** ﴾ الزعم: هو القول بالظنّ ويطلق على الكذب . قال شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، و﴿ **أن لن يبعثوا** ﴾ قائم مقام مفعول زعم ، و « أن » هي المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب ، والمراد بالكفار : كفار العرب ، والمعنى : زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبداً . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بأن يردّ عليهم ويبطل زعمهم فقال : ﴿**قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن** ﴾ بل هى التى لإيجاب النفى، فالمعنى : بلى تبعثون . ثم أقسم على ذلك ، وجواب القسم : ﴿ **لتبعثنّ** ﴾ أى لتخرجنّ من قبوركم ﴿ **لتنبؤن بما عملتم**﴾ أى لتخبرنّ بذلك إقامة للحجة عليكم ثم تجزون به ﴿ **ذلك** ﴾ البعث والجزاء ﴿ **على اللّه يسير**﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء ﴿**فآمنوا باللّه ورسوله**﴾ الفاء هى الفصيحة الدالة على شرط مقدرّ ، أى إذا كان الأمر هكذا فصدقوا باللّه ورسوله محمد ﷺ ﴿ **والنور الذى أنزلنا** ﴾ وهو القرآن ،لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿**واللّه بما تعملون خبير** ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم فهو مجازيكم على ذلك . ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع** ﴾ العامل فى الظرف: ﴿ **لتنبؤن** ﴾ قاله النحاس . وقال غيره : العامل فيه خبير . وقيل : العامل فيه محذوف هو اذكر ، وقال أبو البقاء : العامل فيه ما دلّ

(١) ابن جرير ٢٨/٧٨ .

عليه الكلام : أى تتفاوتون يوم يجمعكم . قرأ الجمهور : ﴿**يجمعكم**﴾ بفتح الياء وضم العين، وروى عن أبى عمرو إسكانها ، ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعا له كما قرئ في: ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام : ١٠٩] بسكون الراء ، وكقول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب   إثما من اللّه ولا واغل

بإسكان باء أشرب ، وقرأ زيد بن علىّ والشعبى ويعقوب ونصر وابن أبى إسحاق والجحدرى : « نجمعكم » بالنون، ومعنى ﴿ **ليوم الجمع** ﴾ : ليوم القيامة فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء ، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله ، وبين كل نبىّ وأمته ، وبين كل مظلوم وظالمه ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ يعنى أن يوم القيامة هو يوم التغابن ، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضا ، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر ، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولاغبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فنزلوا منازلهم التى كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ والجيد بالردىء والنعيم بالعذاب ،وأهل الجنة على العكس من ذلك، يقال : غبنت فلانا : إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون : من غبن أهله ومنازله فى الجنة ﴿ **ومن يؤمن باللّه ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته** ﴾ أى من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته ، قرأ الجمهور : « يكفر » و« يدخله » بالتحتية ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما ، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها أبدا** ﴾ على أنها حالة مقدّمة ، والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما ذكر من التكفير والإدخال ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **الفوز العظيم** ﴾ أى الظفر الذى لا يساويه ظفر .

﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير** ﴾ المراد بالآيات : إما التنزيلية أو ما هو أعم منها ، ذكر سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء ها هنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه سيكون بسبب التكفير وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وبسبب إدخال الطائفة الثانية النار وخلودهم فيها . ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن اللّه** ﴾ أى ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن اللّه ،أى بقضائه وقدره ، قال الفراء: إلا بإذن اللّه ، أى بأمر اللّه ، وقيل : إلا بعلم اللّه . وقيل : وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم اللّه عن المصائب فى الدنيا ﴿ **ومن يؤمن باللّه يهد قلبه** ﴾ أى من يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدّره اللّه عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء ، قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة فيقول : ﴿ إنا للّه وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : ١٥٦] وقال الكلبى: هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . قرأ الجمهور : ﴿ **يهد** ﴾ بفتح الياء وكسر الدال ، أى يهده اللّه ، وقرأ قتادة والسلمى والضحاك وأبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرّف والأعرج وسعيد بن جبير وابن

هرمز والأزرق : « نهد » بالنون ، وقرأ مالك بن دينار وعمرو بن دينار وعكرمة : «يهدأ » بهمزة ساكنة ورفع قلبه ، أى يطمئن ويسكن ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ أى بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ أى هوّنوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﴿ **فإن توليتم** ﴾ أى أعرضتم عن الطاعة ﴿ **فإنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ ليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : فلا بأس على الرسول ، وجملة: ﴿ **فإنما على رسولنا** ﴾ تعليل للجواب المحذوف. ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال: ﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ أى هو المستحق للعبودية دون غيره فوحدوه ولا تشركوا به ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى يفوضوا أمورهم إليه ويعتمدوا عليه ، لا على غيره .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبيهقى وابن مردويه عن ابن مسعود ؛أنه قيل له: ما سمعت النبى ﷺ يقول فى زعموا ؟ قال : سمعته يقول : « بئس مطية الرجل » [(١)]. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه كره زعموا [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :يوم التغابن من أسماء يوم القيامة [(٣)] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ قال : غبن أهل الجنة أهل النار. وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود فى قوله :﴿ **ما أصاب من مصيبة** ﴾ قال : هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يهد قلبه** ﴾ قال : يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ يعنى: أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير، ويدخل فى ذلك سبب النزول دخولا أوّليا ، وهو أن رجالا من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم فى شىء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله، والضمير فى: ﴿ **فاحذروهم** ﴾

---

(١) ابن أبى شيبة (٥٨٤٢) وأحمد ٤/١١٩.
(٢) ابن أبى شيبة (٥٨٤٣) .
(٣) ابن جرير ٢٨/٧٩.

يعود إلى العدوّ ، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم ، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم ، وإنما جاز جمع الضمير على الوجة الأوّل ؛ لأن العدوّ يطلق على الواحد والاثنين والجماعة . ثم أرشدهم اللّه إلى التجاوز فقال : ﴿**وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا**﴾ أى تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها وتركوا التثريب عليها وتستروها ﴿ **فإن اللّه غفور رحيم**﴾ بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم ، قيل : كان الرجل الذى ثبطه أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها وفقهوا فى الدين همّ أن يعاقب أزواجه وأولاده ، فأنزل اللّه: ﴿ **وإن تعفوا** ﴾ الآية . والآية تعمّ وإن كان السبب خاصا كما عرفناك غير مـرة . قـال مجاهد : واللّه ما عادوهم فى الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه .

ثم أخبر اللّه سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أى بلاء واختبار ومحنة يحملونكم علـى كسـب الحـرام ومنع حق اللّه فلا تطيعوهم فى معصية اللّه ﴿ **واللّه عنده أجر عظيم** ﴾ لمن آثر طاعة اللّه وترك معصيته فى محبة ماله وولده ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال : ﴿ **فاتقوا اللّه ما استطعتم** ﴾ أى ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحـانه : ﴿ اتقـوا اللّه حـق تقـاته ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ومنهم قتادة والربيع بن أنس والسدىّ وابن زيد ، وقد أوضحنا الكلام فى قوله : ﴿اتقوا اللّه حق تقاته﴾ ومعنى ﴿ **واسمعوا وأطيعوا** ﴾ أى اسمعوا ما تؤمرون به وأطيعوا الأوامر . قال مقاتل : ﴿ **اسمعوا**﴾ : أى اصغوا إلى ما ينزل عليكم وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم . وقيل : معنى ﴿ **اسمعوا** ﴾ : اقبلوا ما تسمعون لأنه لا فائدة فى مجرد السماع ﴿ **وأنفقوا خيرا لأنفسكم** ﴾ أى أنفقوا من أموالكم التى رزقكم اللّه إياها فى وجوه الخير ولا تبخلوا بها ، وقوله: ﴿ **خيرا لأنفسكم** ﴾ منتصب بفعل مضمر دلّ عليه أنفقوا ، كأنه قال: ائتوا فى الإنفاق خيرا لأنفسكم ، أو قدموا خيرا لها ، كذا قال سيبوبه ،وقال الكسائى والفراء : هو نعت لمصدر محذوف ، أى إنفاقا خيرا ، وقال أبوعبيدة : هو خبر لكان المقدرة ، أى يكن الإنفاق خيرا لكم ، وقال الكوفيون : هو منتصب على الحال.وقيل: هو مفعول به لأنفقوا ، أى فأنفقوا خيرا ، والظاهر: فى الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة. وقيل : المراد : زكاة الفريضة. وقيل : النافلة . وقيل: النفقة فى الجهاد ﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى ومن يوق شحّ نفسه فيفعل ما أمر به من الإنفاق ولا يمنعه ذلك منه فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب، وقد تقدم تفسير هذه الآية .

﴿ **إن تقرضوا اللّه قرضا حسنا** ﴾ فتصرفون أموالكم فى وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿ **يضاعفه لكم**﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية واختلاف القراءة فى قراءتها فى سورة البقرة وسورة الحديد ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أى يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿ **واللّه شكور حليم** ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة . ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى ما غاب وما حضر لا تخفى عليه

منه خافية ،وهو ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة ، وقال ابن الأنبارى : الحكيم : هو المحكم لخلق الأشياء .

وقد أخرج الفريابى ، وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال :نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم** ﴾ فى قوم أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبىّ ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم ، فنزلت إلى قوله: ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾[1]. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبى ﷺ يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشقّ وواحدا من ذا الشقّ، ثم صعد المنبر فقال : « صدق الله : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامى ونزلت إليهما » [2] . وأخرج [3] الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « يقول الله :استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، وشتمنى عبدى وهو لا يدرى ، يقول : وادهراه وادهراه وأنا الدهر » ثم تلا أبو هريرة : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضا حسناً يضاعفه لكم** ﴾ [4] .

---

(١) الترمذى فى التفسير(٣٣١٧) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٢٨/ ٨٠ والطبرانى (١١٧٢٠) وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٠ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن أبى شيبة (١٢٢٣٧) وأحمد ٥/ ٣٥٤ والترمذى فى المناقب (٣٧٧٤) وقال : « حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد » والنسائى ٣/ ١٠٨ ، وابن ماجة فى اللباس (٣٦٠٠).

(٣) فى المخطوطة : « وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه » والصحيح ما أثبتناه من حذف ابن جرير كما بالدر المنثور ٦/ ٢٢٩ كما لم أعثر عليه فى مظانه بالطبرى.

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٤٩١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

تفسير سورة الطلاق

هى إحدى عشرة آية . وقيل : اثنتا عشرة . وهى مدنية ، قال القرطبى : فى قول الجميع[(١)] . وأخرج ابن الضريس وابن النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الطلاق بالمدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها النبىّ إذا طلقتم النساء** ﴾ نادى النبى ﷺ أوّلا تشريفا له ، ثم خاطبه مع أمته ، أو الخطاب له خاصة، والجمع للتعظيم ، وأمته أسوته فى ذلك ، والمعنى : إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه ﴿ **فطلقوهنّ لعدَّتهنَّ** ﴾ أى مستقبلات لعدتهنّ أو فى قبل عدتهن ، أو لقبل عدتهن ، وقال الجرجانى : إن اللام فى: ﴿ **لعدتهنّ** ﴾ بمعنى فى، أى فى عدتهن ، وقال أبو حيان : هو على حذف مضاف ، أى لاستقبال عدتهنّ ، واللام للتوقيت نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد : أن يطلقوهنّ فى طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضى عدتهن ، فإذا طلقوهن هكذا فقد طلقوهن لعدتهن ، وسيأتى بيان هذا من السنة فى آخر البحث إن شاء اللّه ، ﴿**وأحصوا العدة** ﴾ أى احفظوها واحفظوا الوقت الذى وقع فيه الطلاق ثم تتم العدة : وهى ثلاثة قروء ، والخطاب للأزواج . وقيل : للزوجات . وقيل : للمسلمين على العموم ، والأول أولى ؛ لأن الضمائر كلها لهم ﴿ **واتقوا اللّه ربكم** ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم

---

(١) القرطبى ١٠/ ٦٦٢٦ .

ولا تضاروهنّ ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن** ﴾ أى التى كن فيها عند الطلاق ما دمن فى العدّة ، وأضاف البيوت إليهن ، وهى لأزواجهن لتأكيد النهى ، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى فى مدّة العدّة ، ومثله قوله : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكنّ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] ،وقوله : ﴿وقرن فى بيوتكن ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهنّ من البيوت التى وقع الطلاق وهنّ فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضا فقال : ﴿ **ولا يخرجن** ﴾ أى لا يخرجن من تلك البيوت ما دمنّ فى العدة إلا لأمر ضرورى كما سيأتى بيان ذلك . وقيل : المراد : لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس ، والأوّل أولى ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى،أى لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ،لا من الجملة الثانية. قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا: الزنا ،وذلك أن تزنى فتخرج لإقامة الحد عليها ،وقال الشافعى وغيره :هى البذاء فى اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها فى ذلك البيت ،ويؤيد هذا ما قال عكرمة:إن فى مصحف أبىّ :« إلا أن يفحشن عليكم » وقيل: المعنى : إلا أن يخرجن تعدّيا ، فإن خروجهنّ على هذا الوجه فاحشة ، وهو بعيد .

والإشارة بقوله : ﴿ **وتلك** ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **حدود اللّه** ﴾ والمعنى : أن هذه الأحكام التى بينها لعباده هى حدوده التى حدّها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها ﴿ **ومن يتعد حدود اللّه** ﴾ أى يتجاوزها إلى غيرها أو يخلّ بشىء منها ﴿**فقد ظلم نفسه** ﴾ بإيرادها مورد الهلاك وأوقعها فى مواقع الضرر بعقوبة اللّه له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وجملة : ﴿ **لا تدرى لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا**﴾ مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليله . قال القرطبى : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا : الرغبة فى الرجعة ، والمعنى : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثا أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلا (١) .وقال مقاتل : ﴿ **بعد ذلك** ﴾ أى بعد طلقة أو طلقتين ﴿ **أمرا** ﴾ بالمراجعة . قال الواحدى : الأمر الذى يحدث أن يوقع فى قلب الرجل : المحبة لرجعتها بعد الطلقة أو الطلقتين . قال الزجاج : وإذا طلقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى لقوله :﴿ **لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرا** ﴾ .

﴿ **فإذا بلغن أجلهنّ** ﴾ أى قاربن انقضاء أجل العدة وشارفن آخرها ﴿ **فأمسكوهن بمعروف**﴾ أى راجعوهنّ بحسن معاشرة ورغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارة لهنّ ﴿ **أو فارقوهن بمعروف**﴾ أى اتركوهنّ حتى تنقضى عدتهنّ فيملكن نفوسهن مع إيفائهن بما هو لهنّ عليكم من الحقوق وترك المضارة لهن ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ على الرجعة. وقيل :على الطلاق . وقيل :عليهما، قطعا للتنازع وحسما لمادة الخصومة، والأمر للندب كما فى قوله:﴿وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وقيل : إنه للوجوب ، وإليه ذهب الشافعى قال : الإشهاد واجب فى الرجعة ، مندوب إليه فى الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل . وفى

(١) القرطبى ١٠/ ٦٦٣٥ .

قول للشافعى : إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وروى نحو هذا عن أبى حنيفة وأحمد ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقربا إلى الله ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة البقرة . وقيل : الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة ، أى الشهود عند الرجعة فيكون قوله : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ أمرا بنفس الإشهاد ، ويكون قوله : ﴿ **وأقيموا الشهادة** ﴾ أمرا بأن تكون خالصة لله ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ وخص المؤمن بالله واليوم الآخر؛لأنه المنتفع بذلك دون غيره ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا**﴾ أى من يتق عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والوقوف على حدوده التى حدّها لعباده وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد والمحن .

﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ أى من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون فى حسابه ، قال الشعبى والضحاك : هذا فى الطلاق خاصة ، أى من طلق كما أمره الله يكن له مخرج فى الرجعة فى العدّة وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدّة، وقال الكلبى : ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة ، وقال الحسن : مخرجا مما نهى الله عنه ، وقال أبو العالية : مخرجا من كل شىء ضاق على الناس ، وقال الحسين بن الفضل : ومن يتق الله فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب ، أى يبارك له فيما آتاه ، وقال سهل بن عبد الله : ومن يتق الله فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة أهل البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب . وقيل غير ذلك ، وظاهر الآية العموم ، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص ويدخل ما فيه السياق دخولا أوليّا ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ أى ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين بالغ ونصب أمره، وقرأ حفص بالإضافة وقرأ ابن أبى عبلة وداود بن أبى هند وأبو عمرو فى رواية عنه بتنوين بالغ ورفع أمره على أنه فاعل بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر ، وبالغ خبر مقدم. قال الفراء فى توجيه هذه القراءة: أى أمره بالغ ،والمعنى على القراءة الأولى والثانية : أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شىء ولا يعجزه مطلوب ، وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يرده شىء. وقرأ المفضل : « بالغاء » بالنصب على الحال ويكون خبر إن قوله : ﴿ **قد جعل الله لكل شىء قدرا** ﴾ أى تقديرا وتوقيتا أو مقدارا، فقد جعل سبحانه للشدة أجلا تنتهى إليه ، وللرخاء أجلا ينتهى إليه، وقال السدى : هو قدر الحيض والعدة .

﴿ **واللائى يئسن من المحيض من نسائكم** ﴾ وهن الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن أيسن منه ﴿ **إن ارتبتم**﴾ أى شككتم وجهلتم كيف عدتهن ﴿ **فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن** ﴾ لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن المحيض ، أى فعدتهن ثلاثة أشهر ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ أى انتهاء عدتهن وضع الحمل ، وظاهر الآية : أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن . وقد تقدم الكلام فى هذا

فى سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث فى هذه الآية وفى الآية الأخرى ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا ﴾ [البقرة : ٢٣٤] وقيل : معنى ﴿ إن ارتبتم ﴾ : إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك وهو الظاهر. قال الزجاج :إن ارتبتم فى حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها . وقال مجاهد : ﴿ إن ارتبتم ﴾ يعنى : لم تعلموا عدّة الآيسة والتى لم تحض فالعدة هذه . وقيل : المعنى : إن ارتبتم فى الدم الذى يظهر منها هل هو حيض أم لا ؟ بل استحاضة فالعدّة ثلاثة أشهر ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ أى من يتقه فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره فى الدنيا والآخرة . وقال الضحاك:من يتق اللّه فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسرا فى الرجعة . وقال مقاتل : من يتق اللّه فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه للطاعة ، والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام ، أى ذلك المذكور من الأحكام ﴿ أمر اللّه أنزله إليكم ﴾ أى حكمه الذى حكم به بين عباده وشرعه الذى شرعه لهم ومعنى ﴿أنزله إليكم﴾ : أنزله فى كتابه على رسوله وبينه لكم وفصل أحكامه وأوضح حلاله وحرامه ﴿ ومن يتق اللّه ﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿ يكفر عنه سيئاته﴾ التى اقترفها ؛ لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ ويعظم له أجرا ﴾ أى يعطيه من الأجر فى الآخرة أجراً عظيما وهو الجنة.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : طلق رسول اللّه ﷺ حفصة فأتت أهلها ، فأنزل اللّه : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدتهنّ ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة وهى من أزواجك فى الجنة [(١)] . وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلا [(٢)] . وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد أبو ركانة أمّ ركانة ، ثم نكح امرأة من مزينة ، فجاءت إلى رسول اللّه ﷺ فقالت : يا رسول اللّه ، ما يغنى عنى إلا ما تغنى عنى هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ، فأخذت رسول اللّه ﷺ حمية عند ذلك ، فدعا رسول اللّه ﷺ ركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه : أترون كذا من كذا ، فقال رسول اللّه ﷺ لعبد يزيد :« طلقها » ففعل ، فقال لأبى ركانة :« ارتجعها »فقال :يا رسول اللّه ، إنى طلقتها ، قال : « قد علمت ذلك فارتجعها » ، فنزلت : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدتهنّ ﴾ قال الذهبى : إسناده واه ، والخبر خطأ ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام [(٣)] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول اللّه ﷺ ، فتغيظ رسول اللّه ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدّة التى أمر اللّه أن يطلق لها النساء ».

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٣٣٦: « رواه البزار وأبو يعلى ورجال أبى يعلى رجال الصحيح » .
(٢) ابن جرير ٢٨/ ٨٥ .
(٣) الحاكم ٢/ ٤٩١ وقال : «صحيح » وخالفه الذهبى فى ذلك .

وقرأ النبى ﷺ : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ فى قبل عدتهنّ » [(١)] .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ : «فطلقوهنّ فى قبل عدتهنّ » [(٢)] . وأخرج بن الأنبارى عن ابن عمر أنه قرأ : « فطلقوهن لقبل عدتهنّ » . وأخرج ابن الأنبارى وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن مجاهد أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله ، فليطلقها طاهرا فى غير جماع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿فطلقوهنّ لعدتهنّ ﴾ قال : طاهرا من غير جماع، وفى الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود : ﴿ وأحصوا العدّة ﴾ قال : الطلاق طاهراً فى غير جماع .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هى الفاحشة المبينة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : الفاحشة المبينة : أن تبدو المرأة على أهل الرجل ، فإن بدت عليهم بلسانها فقد حلّ لهم إخراجها . وأخرج ابن أبى حاتم عن فاطمة بنت قيس فى قوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ قالت : هى الرجعة . وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين ، أن رجلا سأل عمران بن حصين أن رجلا طلق ولم يشهد ، قال: بئس ما صنع ، طلق فى بدعة ،وارتجع فى غير سنة ، فيشهد على طلاقه وعلى مراجعته ويستغفر الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ قال : مخرجه : أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذى يعطيه وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه ، وفى قوله : ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : من حيث لا يدرى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ قال : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة . وأخرج الحاكم وصححه ، وضعفه الذهبى من طريق سالم بن أبى الجعد عن جابر قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ فى رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال،فأتى رسول الله ﷺ ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٠٨) ومسلم فى الطلاق (١٤٧١/ ١٤) وأبو داود فى الطلاق (٢١٨٥) والنسائى فى التفسير (٦٢١) .

(٢) عبد الرزاق فى المصنف (١٠٩٣١) والحاكم ٢/ ٢٥٠ وقد أخرجه مسلم بأطول من هذا ووافقه الذهبى .

فقال : « اتق اللّه واصبر » فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدوّ أصابوه ، فأتى رسول اللّه ﷺ ، فسأله عنها وأخبره خبرها ، فقال : كلها ، فنزلت : ﴿ ومن يتق اللّه﴾ الآية [١]. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه ، إن ابنى أسره العدو وجزعت أمه ، فما تأمرنى ؟ قال : « آمرك وإياها أن تستكثر من قول : لا حول ولا قوّة إلا باللّه » ، فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلا يكثران منها ، فتغفل عنه العدوّ ، فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فنزلت: ﴿ ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ﴾ الآية. وفى الباب روايات تشهد لهذا. وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية قال: يكفيه همّ الدنيا وغمها. وأخرج أحمد وصححه ، وابن مردويه، وأبو نعيم فى المعرفة ، والبيهقى عن أبى ذرّ قال: جعل رسول اللّه ﷺ يتلو هذه الآية : ﴿ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ فجعل يرددّها حتى نعست، ثم قال: « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » وفى الباب أحاديث [٢].

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه ﴾ قال: ليس المتوكل الذى يقول: تقضى حاجتى . وليس كل من يتوكل على اللّه كفاه ما أهمه ودفع عنه ما يكره وقضى حاجته ، ولكن اللّه جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، وفى قوله : ﴿ إن اللّه بالغ أمره ﴾ قال : يقول: قاضى أمره على من توكل وعلى من لم يتوكل ، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا . وفى قوله : ﴿قد جعل اللّه لكلّ شىء قدرا ﴾ قال : يعنى : أجلا ومنتهى ينتهى إليه . وأخرج ابن المبارك والطيالسى وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى ، والنسائى وابن ماجة وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لو أنكم توكلتم على اللّه حقّ توكله لرزقكم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » [٣] .

وأخرج إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبىّ بن كعب ؛ أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية فى البقرة فى عدة النساء قالوا : لقد بقى من عدة النساء عدد لم يذكر فى القرآن الصغار والكبار اللاتى قد انقطع حيضهنّ وذوات الحمل ، فأنزل اللّه: ﴿ واللائى يئسن من المحيض ﴾ الآية [٤] . وأخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند ، وأبو يعلى ، والضياء فى المختارة ،

---

(١) صححه الحاكم ٢/٤٩٣ وقال الذهبى : « بل منكر وعباد رافضى جبل ، وعبيد متروك قاله الأزدى » .
(٢) أحمد ٥/١٧٨ والنسائى فى التفسير (٦٢٣) وهو ضعيف وابن ماجة فى الزهد (٤٢٢٠) وفى الزوائد : «هذا حديث رجاله ثقات غير أنه منقطع وأبو السليل لم يدرك أبا ذر قاله فى التهذيب » .
(٣) ابن المبارك فى الزهد (٥٥٩) والطيالسى (٥٢) وأحمد ١/ ٣٠ والترمذى فى الزهد (٢٣٤٤) وقال : « حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو تميم الجيشانى اسمه عبد اللّه بن مالك » وابن ماجة فى الزهد (٤١٦٤) وأبو يعلى ١/٢١٢ وصححه الحاكم ٢/٤١٨ وسكت عنه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١١٣٩) .
(٤) ابن جرير ٢٨/٩١ وصححه الحاكم ٢/٤٩٣ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٧/ ٤١٤ .

وابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال : قلت للنبيّ ﷺ: ﴿ **وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ** ﴾ أهى المطلقة ثلاثا، أو المتوفى عنها ؟ قال : « هى المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » [١] . وأخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والدارقطنى من وجه آخر [٢]. وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود ؛ أنه بلغه أن عليا قال : تعتدّ آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته إن الآية التى فى سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة البقرة : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهنّ** ﴾ بكذا وكذا أشهرا ، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها ، وروى نحو هذا عنه من طرق وبعضها فى صحيح البخارى . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أم سلمة : أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول اللّه ﷺ [٣] . وفى الباب أحاديث .

﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **أسكنوهنّ من حيث سكنتم** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى ، و« من » للتبعيض ، أى بعض مكان سكناكم . وقيل : زائدة ﴿ **من وجدكم** ﴾ أى من سعتكم وطاقتكم ، والوجد : القدرة . قال الفراء : يقول : على ما يجد ، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإن كان فقيرا فعلى قدر ذلك . قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه .

وقد اختلف أهل العلم فى المطلقة ثلاثا ، هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟ فذهب مالك والشافعى : أن لها السكنى ولا نفقة لها . وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة ، وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور: أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق ، وقد قررته فى شرحى المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره [٤] .

(١) قال ابن كثير ٧/ ٤٢ : « أخرج عبد اللّه بن أحمد وذكر الرواية » ثم قال : « هذا حديث غريب جداً بل منكر لأن فى إسناده المثنى بن الصباح وهو متروك الحديث » .
(٢) ابن جرير ٢٨/ ٩١ والدارقطنى فى الطلاق ٣/ ٣٩ (١١١) .
(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٠٩) وفى الطلاق (٥٣١٨) ومسلم فى الطلاق (١٤٨٥/ ٥٧) والترمذى فى الطلاق (١١٩٤) وقال : « حسن صحيح» والنسائى ٦/ ١٩٢ وفى التفسير أيضاً (٦٢٦) .
(٤) نيل الأوطار ٦ / ٣٠٥ .

﴿ ولا تضارّوهن لتضيقوا عليهنّ ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهنّ بالتضييق عليهنّ فى المسكن والنفقة . وقال مجاهد: فى المسكن . وقال مقاتل : فى النفقة ، وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها ، فإذا بقى يومان من عدتها راجعها ، ثم طلقها **﴿ وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهنّ ﴾** أى إلى غاية هى وضعهنّ للحمل ، ولا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة ، والسكنى للحامل المطلقة ، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال علىّ وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعى والشعبى وحماد وابن أبى ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع . وقال ابن عباس ، وابن الزبير ، وجابر بن عبد الله ، ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه : لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وهذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة **﴿ فإن أرضعن لكم ﴾** أولادكم بعد ذلك **﴿ فآتوهن أجورهنّ ﴾** أى أجور إرضاعهنّ ، والمعنى : أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهنّ منهنّ فلهنّ أجورهنّ على ذلك **﴿وأتمروا بينكم بمعروف ﴾** هو خطاب للأزواج والزوجات ، أى تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل ، وأصل معناه : ليأمر بعضكم بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم . قال مقاتل : المعنى: ليتراض الأب والأم على أجر مسمى. قيل: والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها : ألاّ تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر**﴿ وإن تعاسرتم ﴾** أى فى أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطى الأمّ الأجر وأبت الأمّ أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر **﴿فسترضع له أخرى ﴾** أى يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة ،ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك : إن أبت الأمّ أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر .

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم **﴿ومن قدر عليه رزقه ﴾** أى كان رزقه بمقدار القوت ، أو مضيق ليس بموسع **﴿فلينفق مما آتاه الله ﴾** أى مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك **﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾** أى ما أعطاها من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس فى وسعه ، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق **﴿ سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾** أى بعد ضيق وشدّة سعة وغنى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : **﴿ من وجدكم ﴾** قال : من سعتكم **﴿ ولا تضارّوهنّ لتضيقوا عليهنّ﴾** قال : فى المسكن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : **﴿ وإن كن أولات حمل ﴾** الآية ، قال : فهذه فى المرأة يطلقها زوجها وهى حامل ، فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع وإن أرضعت حتى تفطم ، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضى عدّتها ولا نفقة لها . وأخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال : سأل

عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها . فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال: رحمه الله تأوّل هذه الآية : ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ .

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام ، حذر من مخالفتها ، وذكر عتوّ قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه فقال : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله** ﴾يعنى: عصت ، والمراد : أهلها ، والمعنى : وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله ، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين ﴿ **عتت** ﴾ معنى أعرضت ، وقد قدمنا الكلام فى ﴿ **كأين** ﴾ فى سورة آل عمران وغيرها ﴿ **فحاسبناها حسابا شديدا** ﴾ أى شددنا على أهلها فى الحساب بما عملوا. قال مقاتل : حاسبها الله بعملها فى الدنيا فجازاها بالعذاب وهو معنى قوله :﴿ **وعذبناها عذابا نكرا**﴾ أى عذبنا أهلها عذابا عظيما منكرا فى الآخرة. وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى عذبنا أهلها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ ، وحاسبناهم فى الآخرة حسابا شديدا ، والنكر : المنكر .﴿ **فذاقت وبال أمرها** ﴾ أى عاقبة كفرها ﴿ **وكان عاقبة أمرها خسرا** ﴾ أى هلاكا فى الدنيا وعذابا فى الآخرة .

﴿ **أعدّ الله لهم عذابا شديدا** ﴾ فى الآخرة ، وهو عذاب النار ، والتكرير للتأكيد ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب**﴾ أى يا أولى العقول الراجحة ، وقوله : ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ فى محل نصب بتقدير ، أعنى : بيانا للمنادى بقوله : ﴿ **يا أولى الألباب** ﴾ أو عطف بيان له ، أو نعت ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا** ﴾ قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل ، أى أنزل إليكم قرآنا وأرسل إليكم رسولا ، وقال أبو علىّ الفارسى : إن رسولا منصوب بالمصدر، وهو ذكرا ؛ لأن المصدر المنوّن يعمل . والمعنى : أنزل إليكم ذكر الرسول . وقيل : إن ﴿**رسولا** ﴾ بدل من ﴿**ذكرا**﴾ وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة . وقيل : إنه بدل منه على حذف

مضاف من الأوّل تقديره : أنزل ذا ذكر رسولا ، أو صاحب ذكر رسولا . وقيل : إن رسولا نعت على حذف مضاف ، أى ذكرا ذا رسول ، فذا رسول نعت للذكر . وقيل: إن رسولا بمعنى رسالة ، فيكون رسولا بدلا صريحا من غير تأويل، أو بيانا. وقيل : إن ﴿**رسولا**﴾ منتصب على الإغراء، كأنه قال :الزموا رسولا . وقيل : إن الذكر ها هنا بمعنى الشرف كقوله: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء: ١٠] وقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف : ٤٤] ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿**رسولا**﴾ وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا: محمد ﷺ ، وقال الكلبى: هو جبريل ، والمراد بالذكر: القرآن، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لا يخفى ، ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله : ﴿**يتلو عليكم آيات اللّه مبينات** ﴾ أى حال كونها مبينات ، قرأ الجمهور : ﴿ **مبينات** ﴾ على صيغة اسم المفعول ، أى بينها اللّه وأوضحها . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى على صيغة اسم الفاعل ، أى الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام ، ورجح القراءة الأولى أبوحاتم وأبو عبيد لقوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ [آل عمران : ١١٨] ﴿ **ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور** ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿ **يتلو** ﴾ أى ليخرج الرسول الذى يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ويجوز أن تتعلق اللام بأنزل ، فيكون المخرج هو اللّه سبحانه ﴿ **ومن يؤمن باللّه ويعمل صالحا** ﴾ أى يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه اللّه عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿**ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يدخله** ﴾ بالتحتية، وقرأ نافع وابن عامر بالنون . وجمع الضمير فى : ﴿ **خالدين فيها أبدا** ﴾ باعتبار معنى من، ووحده فى﴿ **يدخله** ﴾ باعتبار لفظها، وجملة: ﴿ **قد أحسن اللّه له رزقا** ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى خالدين على التداخل ، أو من مفعول يدخله على الترادف ، ومعنى : ﴿ **قد أحسن اللّه له رزقا** ﴾ أى وسع له رزقه فى الجنة .

﴿ **اللّه الذى خلق سبع سموات** ﴾ الاسم الشريف مبتدأ وخبره الموصول مع صلته ﴿ **ومن الأرض مثلهنّ** ﴾ أى وخلق من الأرض مثلهنّ يعنى : سبعا .

واختلف فى كيفية طبقات الأرض . قال القرطبى فى تفسيره : واختلف فيهنّ على قولين : أحدهما وهو قول الجمهور : إنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق اللّه. وقال الضحاك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات ، والأوّل أصح ؛ لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذى والنسائى وغيرهما ، وقد مضى ذلك مبينا فى البقرة [(١)] ، قال : وفى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال :سمعت النبىّ ﷺ يقول :« من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين » إلى آخر كلامه [(٢)] ، وسيأتى فى آخر البحث ما يقوّى

(١) القرطبى ١٠/ ٦٦٥٤.

(٢) مسلم فى المساقاة (١٦١٠/ ١٣٧) .

قول الجمهور .

قرأ الجمهور : ﴿ مثلهنّ ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ سبع سموات ﴾ أو على تقدير فعل ، أى وخلق من الأرض مثلهنّ. وقرأ عاصم فى رواية عنه بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره ﴿ يتنزل الأمر بينهنّ ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها ، والأمر: الوحى . قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين . وقال الحسن : بين كل سماء وبين الأرض . وقال قتادة : فى كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه . وقيل : بينهنّ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أدناها ،وبين السماء السابعة التى هى أعلاها . وقيل:هو ما يدبر فيهنّ من عجيب تدبيره ، فينزل المطر ويخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال . قال ابن كيسان : وهذا هو مجال اللغة واتساعها كما يقال للموت : أمر الله وللريح والسحاب ونحوها . قرأ الجمهور : ﴿يتنزل الأمر﴾ من التنزل ورفع الأمر على الفاعلية، وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه : «ينزل » من الإنزال ، ونصب الأمر على المفعولية والفاعل الله سبحانه ، واللام فى : ﴿ لتعلموا أن الله على كلّ شىء قدير ﴾ متعلق بـ﴿خلق ﴾ أو بـ﴿ يتنزل ﴾ أو بمقدّر ، أى فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته وإحاطته بالأشياء ، وهو معنى ﴿ وأن الله قد أحاط بكلّ شىء علما ﴾ فلا يخرج عن علمه شىء منها كائنا ما كان ، وانتصاب ﴿ علما ﴾ على المصدرية ، لأن ﴿ أحاط ﴾ بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف ، أى أحاط إحاطة علما ، ويجوز أن يكون تمييزاً .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فحاسبناها حسابا شديدا ﴾ يقول : لم ترحم ﴿وعذبناها عذابا نكرا ﴾ يقول : عظيما منكرا . وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا﴾ قال : محمدا ﷺ . وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر ؟ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم و الحاكم وصححه و البيهقى فى الشعب من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ومن الأرض مثلهنّ ﴾ قال : سبع أرضين فى كلّ أرض نبىّ كنبيكم ،وآدم كآدم و نوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى. قال البيهقى: هذا إسناده صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا [1] . وأخرج ابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال : قال رسول الله : « إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء،والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك ، والثانية مسجن الريح، فإذا أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا ،فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ؟ فقال

(١) ابن جرير ٢٨/٩٩ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٣ ووافقه الذهبى .

له الجبار : إذن تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهى التى قال الله فى كتابه : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ [الذاريات : ٤٢] والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم » ، فقالوا :يا رسول الله، للنار كبريت ؟ قال : « نعم، والذى نفسى بيده ، إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت » إلى آخر الحديث . قال الذهبى متعقبا للحاكم : هو حديث منكر [١] . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التى فيها العرش ، وسيد الأرضين الأرض التى نحن فيها .

---

(١) صححه الحاكم ٤/ ٥٩٤ وقال : « تفرد به أبو السمح عن عيسى بن هلال وقد ذكرت فيما تقدم عدالته بنص الإمام يحيى بن معين رضى الله عنه» وقال الذهبى : « بل منكر، وعبد الله بن عباس القتبانى ضعفه أبو داود ، وعند مسلم أنه ثقة ، ودراج كثير المناكير » .

تفسير سورة التحريم

هى اثنتا عشرة آية. وهى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع، وتسمى سورة النبىّ [(١)] .
وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه: عن ابن عباس قال : نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولفظ ابن مردويه : سورة المحرّم . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت بالمدينة سورة النساء : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرمّ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحلّ الله لك ﴾ اختلف فى سبب نزول الآية على أقوال : الأوّل : قول أكثر المفسرين. قال الواحدى : قال المفسرون : كان النبىّ ﷺ فى بيت حفصة فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية فى بيتها مع النبىّ ﷺ ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، فلما رأى النبى ﷺ فى وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: «لا تخبرى عائشة ولك علىّ ألاّ أقربها أبدا ، فأخبرت حفصة عائشة وكانتا متصافيتين ، فغضبت عائشة ولم تزل بالنبىّ ﷺ حتى حلف ألا يقرب مارية ، فأنزل الله هذه السورة [(٢)] . قال القرطبى: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة، وذكر القصة [(٣)] . وقيل : السبب : أنه كان ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغافير [(٤)] . وقيل : السبب : المرأة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ، وسيأتى دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله وستعرف كيفية الجمع بينهما ، وجملة : ﴿ تبتغى مرضات أزواجك ﴾ مستأنفة ،أو مفسرة لقوله: ﴿ تحرّم ﴾ أو فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ تحرّم ﴾، أى

---

(١) القرطبى ١٠ / ٦٦٥٦ . (٢) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٤٧ .
(٣) القرطبى ١٠ / ٦٦٥٦، ٦٦٥٧ .
(٤) المغافير : جمع مغفور هى بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة فيها حلاوة ، أو هو صمغ له ريح كريهة منكرة .

مبتغيا به مرضاة أزواجك . و﴿**مرضاة**﴾ اسم مصدر، وهو الرضى ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف إلى المفعول ، أى أن ترضى أزواجك ، أو إلى الفاعل ، أى أن يرضين هنّ ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك . وقيل : وكان لك ذنبا من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل : إنها معاتبة على ترك الأولى .

﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ أى شرع لكم تحليل أيمانكم وبين لكم ذلك ، وتحلة أصلها : تحللة ، فأدغمت ، وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد ، والكفارة حلّ ؛ لأنها تحلّ للحالف ما حرّمه على نفسه ، قال مقاتل : المعنى : قد بين الله كفارة أيمانكم فى سورة المائدة . أمر الله نبيه ﷺ أن يكفر يمينه ويراجع وليدته فأعتق رقبة. قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرم ما أحلّ الله .

قلت: وهذا هو الحق أن تحريم ما أحلّ الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه ، فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره ، ومعاتبته لنبيه ﷺ فى هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل والمذاهب فيه كثيرة والمقالات فيه طويلة ، وقد حققناه فى مؤلفاتنا بما يشفى .

واختلف العلماء هل مجرّد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا ؟ وفى ذلك خلاف ، وليس فى الآية ما يدل على أنه يمين، لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ وقد ورد فى القصة التى ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هى سبب نزول الآية أنه حرّم أوّلا ثم حلف ثانيا كما قدّمنا ﴿**والله مولاكم** ﴾ أى وليكم وناصركم والمتولى لأموركم ﴿ **وهو العليم** ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أفعاله وأقواله. ﴿ **وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ قال أكثر المفسرين : هى حفصة كما سبق ، والحديث: هو تحريم مارية ، أو العسل ، أو تحريم التى وهبت نفسها له ،والعامل فى الظرف فعل مقدّر ، أى واذكر إذ أسرّ . وقال الكلبى: أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتى على أمتى من بعدى ﴿ **فلما نبأت به** ﴾ أى أخبرت به غيرها ﴿ **وأظهره الله عليه** ﴾ أى أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها ﴿**عرّف بعضه** ﴾ أى عرّف حفصة بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور: ﴿ **عرّف** ﴾ مشدّدا من التعريف .وقرأ علىّ وطلحة بن مصرف وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة والكسائى بالتخفيف ،واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿ **وأعرض عن بعض** ﴾ أى لم يعرّفها إياه ، ولو كان مخففا لقال فى ضدّه : وأنكر بعضا ﴿ **وأعرض عن بعض** ﴾ أى وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر فى الناس ،وقيل:الذى أعرض عنه هو حديث مارية،وللمفسرين ها هنا خبط وخلط،وكل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد فى سبب النزول ،وسنوضح لك ذلك إن شاء الله ﴿ **فلما نبأها به** ﴾ أى أخبرها بما أفشت من الحديث ﴿**قالت من أنبأك هذا**﴾ أى من أخبرك به ﴿ **قال نبأنى العليم الخبير**﴾ أى أخبرنى الذى لا تخفى عليه خافية .

﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ الخطاب لعائشة وحفصة ، أى إن تتوبا إلى الله فقد وجب منكما ما يوجب التوبة ، ومعنى ﴿ **صغت** ﴾ : عدلت ومالت عن الحقّ ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ ، وهو إفشاء الحديث . وقيل : المعنى : إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما إلى التوبة ، وقال : ﴿ **قلوبكما** ﴾ ولم يقل : « قلباكما » لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين فى لفظ واحد ﴿ **وإن تظاهرا عليه** ﴾ أى تتظاهرا . قرأ الجمهور : ﴿ **تظاهرا** ﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ عكرمة : « تتظاهرا » على الأصل . وقرأ الحسن وأبو رجاء ونافع وعاصم فى رواية عنهما : «تظهر » بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، والمراد بالتظاهر: التعاضد والتعاون ، والمعنى : وإن تعاضدا وتعاونا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه ﴿ **فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين** ﴾ أى فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل ومن صلح من عباده المؤمنين فلن يعدم ناصرا ينصره ﴿**والملائكة بعد ذلك** ﴾ أى بعد نصر الله له ونصر جبريل وصالح المؤمنين ﴿**ظهير**﴾ أى أعوان يظاهرونه ، والملائكة مبتدأ وخبره ظهير ، قال أبو علىّ الفارسى: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله:﴿ولا يسأل حميم حميما﴾ [المعارج : ١٠] قال الواحدى : وهذا من الواحد الذى يؤدّى عن الجمع ،كقوله:﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾ [النساء : ٦٩] وقد تقررّ فى علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع ، وقيل : كان التظاهر بين عائشة وحفصة فى التحكم على النبىّ ﷺ فى النفقة .

﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن** ﴾ أى يعطيه بدلكنّ أزواجا أفضل منكنّ ، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهنّ ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرا منهن تخويفا لهنّ ، وهو كقوله : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ﴾ [محمد : ٣٨] فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم . ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: ﴿**مسلمات مؤمنات** ﴾ أى قائمات بفرائض الإسلام مصدّقات بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرّه . وقال سعيد بن جبير : مسلمات ، أى مخلصات . وقيل : معناه : مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿ **قانتات** ﴾ مطيعات لله . والقنوت : الطاعة . وقيل : مصليات ﴿**تائبات**﴾ يعنى : من الذنوب ﴿ **عابدات** ﴾ لله متذللات له ، قال الحسن وسعيد بن جبير: كثيرات العبادة ﴿ **سائحات** ﴾ أى صائمات . وقال زيد بن أسلم : مهاجرات ، وليس فى أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة ، قال ابن قتيبة والفراء وغيرهما : وسمى الصيام سياحة ؛ لأن السائح لا زاد معه . وقيل : المعنى : ذاهبات فى طاعة الله ، من ساح الماء : إذا ذهب ، وأصل السياحة : الجولان فى الأرض ، وقد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة ﴿ **ثيبات وأبكارا** ﴾ وسط بينهما العاطف لتنافيهما ، والثيبات : جمع ثيب ، وهى المرأة التى تزوجّت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج ، والأبكار : جمع بكر ، وهى العذراء ، سميت بذلك ؛ لأنها على أوّل حالها التى خلقت عليه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها لبنا أو عسلا ، فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبىّ ﷺ فلتقل: إنى أجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : « لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود » فنزلت : ﴿يأيها النبى لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ إلى قوله: ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا ﴾ لقوله : « بل شربت عسلا » [١] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى: بسند صحيح ،عن ابن عباس قال:كان رسول الله ﷺ شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحا ، فدخل على حفصة فقالت : إنى أجد منك ريحا ، فقال : « أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه أبدا » ، فأنزل الله : ﴿يأيها النبىّ لم تحرمّ ﴾ الآية [٢]. وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ﴾ قالت:كانت عندى عكة من عسل أبيض ، فكان النبىّ ﷺ يلعق منها وكان يحبه ، فقالت له عائشة: نحلها تجرس عرفطا فحرمها ، فنزلت الآية.

وأخرج النسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس ، أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ﴾ [٣] .وأخرج البزار والطبرانى ، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدو الحديث فى شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبىّ ﷺ فى بيت حفصة فى يومها ، فوجدت حفصة فقالت : يا رسول الله ، لقد جئت إلىّ بشىء ما جئته إلى أحد من أزواجك فى يومى وفى دورى على فراشى ، قال : « ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها أبدا ؟ » قالت : بلى ، فحرّمها وقال :« لا تذكرى ذلك لأحد » ، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب مارية . وأخرجه ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا . وأخرجه ابن مردويه أيضا من وجه آخر عنه بأخصر منه . وأخرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه مختصرا بلفظ قال : حرّم سريته وجعل ذلك سبب النزول فى جميع ما روى عنه من هذه الطرق [٤]. وأخرج الهيثم بن كليب فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة ، من طريق نافع

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩١٢) وفى الطلاق (٥٢٦٧) وفى الأيمان والنذور (٦٦٩١) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٤ / ٢٠) وأبو داود فى الأشربة (٣٧١٤) والنسائى فى التفسير (٦٢٨) .

(٢) الطبرانى (١١٢٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٠ : « ورجاله رجال الصحيح » والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٣٩ .

(٣) النسائى فى التفسير (٦٢٧) وإسناده صحيح ورجاله ثقات ، وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٤) الطبرانى (١١١٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٩ : « رواه البزار بإسنادين والطبرانى ورجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم الأصغر وهو ثقة » .

عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ لحفصة : « لا تحدثى أحدا ، وأن أمّ إبراهيم علىّ حرام » ، فقالت: أتحرم ما أحلّ الله لك ؟ قال : «فو الله لا أقربها »، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ [١] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن أبى هريرة ؛ أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف . وسنده ضعيف [٢] .

فهذان سببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القصتين : قصة العسل ، وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعا . وفى كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه، وأما ما قيل من أن السبب هو: تحريم المرأة التى وهبت نفسها ، فليس فى ذلك إلا ما روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ يأيها النبى لم تحرّم ما أحلّ الله لك ﴾ فى المرأة التى وهبت نفسها للنبىّ ﷺ . قال السيوطى : وسنده ضعيف [٣]، ويردّ هذا أيضا أن النبىّ ﷺ لم يقبل تلك الواهبة لنفسها ، فكيف يصحّ أن يقال : إنه نزل فى شأنها : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ما أحل الله لك ﴾ ؟فإن معه ردّ ما وهب له لم يصحّ أن يقال : إنه حرّمه على نفسه ، وأيضا لا ينطبق على هذا بسبب قوله : ﴿ وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا ﴾ إلى آخر ما حكاه الله ، وأما ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة ، ثم ذكر قصة الإيلاء كما فى الحديث الطويل ، فليس فى هذا نفى لكون السبب هو ما قدّمنا من قصة العسل وقصة السرية ؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبىّ ﷺ يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول : ﴿ يأيها النبىّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك ﴾ ويؤيد هذا ما قدمناه عن ابن عباس أنه قال لعمر : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة ، وبين له أن السبب قصة مارية ، هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية ودفع الاختلاف فى شأنه فاشدد عليه يديك لتنجو به من الخبط والخلط الذى وقع للمفسرين .

وأخرج عبد الرزاق والبخارى وابن مردويه عن ابن عباس قال : فى الحرام يكفر ، وقال : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ [٤] [الأحزاب : ٢١]. وأخرج ابن المنذر والطبرانى والحاكم وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل فقال : إنى جعلت امرأتى علىّ حراما . فقال : كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا : ﴿ لم تحرّم ما أحل الله لك ﴾ قال : عليك أغلظ

---

(١) قال ابن كثير ٧ / ٥١ : « وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٩ ، ١٣٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط من طريق موسى بن جعفر بن أبى كثير عن عمه قال الذهبى : مجهول وخبره ساقط » .

(٣) الدر المنثور ٦ / ٢٤١ وقال ابن كثير ٧ / ٥١ : « هذا قول غريب ، والصحيح أنها نزلت فى تحريمه العسل كما هو فى البخارى » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٩١١) وفى الطلاق (٥٢٦٦) ومسلم فى الطلاق (١٤٧٣ / ١٨ ، ١٩) وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٧٢ ، ٢٠٧٣) .

الكفارات عتق رقبة [(١)] . وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن عائشة قالت: لما حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح فأنزل الله : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ فأحلّ يمينه وأنفق عليه . وأخرج ابن عدىّ وابن عساكر عن عائشة فى قوله : ﴿ **وإذ أسر النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ قالت : أسرّ إليها أن أبا بكر خليفتى من بعدى. وأخرج ابن عدّى ، وأبو نعيم فى الصحابة ، والعشارى فى فضائل الصدّيق ، وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن علىّ وابن عباس قال: والله إن إمارة أبى بكر وعمر لفى الكتاب :﴿ **وإذ أسّر النبىّ إلى بعض أزواجه حديثا** ﴾ قال لحفصة : أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدى ، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا . قلت : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله : ﴿ **يأيها النبىّ لم تحرّم ما أحل الله لك** ﴾ بل فيه أن الحديث الذى أسرّه ﷺ هو هذا فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة وهى مقدّمة عليه ومرجحة بالنسبة إليه .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾ قال: زاغت وأثمت . وأخرج ابن المنذر عنه قال : مالت . وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه فى قوله : ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾ قال : أبو بكر وعمر . وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، وأبو نعيم فى فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله . وأخرج لابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس مثله . وأخرج الحاكم عن أبى أمامة مرفوعا مثله [(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم ، قال السيوطى : بسند ضعيف [(٣)] ، عن علىّ مرفوعا قال : هو علىّ بن أبى طالب . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿**وصالح المؤمنين** ﴾ : علىّ بن أبى طالب » . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾ قال : هو علىّ بن أبى طالب . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن بريدة فى قوله : ﴿ **ثيبات وأبكارا**﴾ قال :وعد الله نبيه ﷺ فى هذه أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون، وبالبكر مريم بنت عمران .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)** ﴾ .

---

(١) صحيحه الحاكم ٢ / ٥٩٣ ، ٥٩٤ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .
(٢) صحيحه الحاكم ٣ / ٦٩ وقال الذهبى : « قلت : موسى واه » .
(٣) السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٤ وقال ابن كثير ٧ / ٥٦ : « إسناده ضعيف وهو منكر جدا » .

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم** ﴾ بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿**وأهليكم** ﴾ بأمرهم بطاعة الله ونهيهم عن معاصيه ﴿ **نارًا وقودها الناس والحجارة** ﴾ أى نارًا عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، وقد تقدّم بيان هذا فى سورة البقرة . قال مقاتل بن سليمان : المعنى : قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار فى الآخرة، وقال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم . قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [طه : ١٣٢] ، وقوله : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢٢٤] . ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد** ﴾ أى على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحموهم ؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه وحبب إليهم تعذيب خلقه . وقيل : المراد : غلاظ القلوب شداد الأبدان . وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال . وقيل : الغلاظ : ضخام الأجسام ، والشداد : الأقوياء ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم** ﴾ أى لا يخافونه فى أمره ، و « ما » فى : ﴿ **ما أمرهم** ﴾ يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أى لا يعصون الله الذى أمرهم به ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف ، أو على تقدير نزع الخافض ، أى لا يعصون الله فى أمره ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى يؤدّونه فى وقته من غير تراخ لا يؤخرونه عنه ولا يقدّمونه . ﴿ **يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم** ﴾ أى يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييسًا لهم وقطعا لأطماعهم ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ من الأعمال فى الدنيا ، ومثل هذا قوله : ﴿ فيومئذ [1] لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ [الروم : ٥٧] .

﴿ **يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ أى تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازى ، وهو فى الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب وترك المعاودة له . والتوبة فرض على الأعيان . قال قتادة : التوبة النصوح الصادقة . وقيل : الخالصة . وقال الحسن : التوبة النصوح : أن يبغض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره ، وقال الكلبى: التوبة النصوح: الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على ألاّ يعود ، وقال سعيد بن جبير : هى التوبة المقبولة . قرأ الجمهور : ﴿ **نصوحا** ﴾ بفتح النون على الوصف للتوبة ، أى توبة بالغة فى النصح . وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بضمها ، أى توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح ، وأن يكون مصدرا .يقال: نصح نصاحة ونصوحا . قال المبّرد : أراد توبة ذات نصح . ﴿ **عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ بسبب تلك التوبة ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع فهى من الله واجبة ؛لأن التائب

---

(١) فى المطبوعة : « فاليوم » والصحيح ما أثبتناه .

من الذنب كمن لا ذنب له ، ويدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه وبالنصب قرأ الجمهور. وقرئ بالجزم عطفا على محل عسى ،كأنه قال : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم ﴿ يوم لا يخزى الله النبى ﴾ الظرف متعلق بـ﴿يدخلكم ﴾، أى يدخلكم يوم لا يخزى الله النبى ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ والموصول معطوف على النبى. وقيل:الموصول مبتدأ، وخبره : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ والأوّل أولى ، وتكون جملة : ﴿ نورهم يسعى ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم ، وقد تقدّم فى سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط ، وجملة : ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ فى محل نصب على الحال أيضا ، وعلى الوجه الآخر تكون خبرا آخر ، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين كما تقدم بيانه وتفصيله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله:﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، وأمروا أهلكم بالذكر ينجكم الله من النار . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال :أدبوا أهليكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، عن أبى عمران الجونى قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ليس فى قلوبهم رحمة وإنما خلقوا للعذاب ، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير ؛ أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح ، قال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدا [(١)] . وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: « التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود إليه أبدا » [(٢)]، وفى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى ، وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف ، كما أخرجه موقوفا عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كلّ سيئة ، وهو فى القرآن ، ثم قرأ هذه الآية [(٣)]. وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم لا يخزى الله

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ١٠٧ وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٠٣٤) ط. الكتب العلمية ، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٨٥) وعزاه لأحمد بن منيع وقال : « إسناده صحيح موقوف ، وتابعه البوصيرى » .

(٢) أحمد ١ / ٤٤٦ والبيهقى فى الشعب (٧٠٣٦) ط.الكتب العلمية ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢٠٢/١٠ ، ٢٠٣ : « رواه أحمد وإسناده ضعيف » .

(٣) صححه الحاكم ٢ / ٤٩٥ على شرط الشيخين ، وقال الذهبى : «عباية لا ذكر له فى الكتب الستة » .

النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى ﴾ الآية ، قال : ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نورا يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾ أى بالسيف والحجة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية فى سورة براءة ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أى شدد عليهم فى الدعوة واستعمل الخشونة فى أمرهم بالشرائع . قال الحسن : أى جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ أى مصيرهم إليها ، يعنى : الكفار والمنافقين ﴿ وبئس المصير ﴾ أى المرجع الذى يرجعون إليه . ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا ﴾ قد تقدّم غير مرّة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها فى الغرابة ، أى جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة ، وأنه لا يغنى أحد عن أحد ﴿ امرأت نوح وامرأت لوط ﴾ هذا هو المفعول الأول ، و﴿ مثلا ﴾ المفعول الثانى حسبما قدّمنا تحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له وإيضاح لمعناه ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ وهما نوح ولوط ، أى كانتا فى عصمة نكاحهما ﴿ فخانتاهما ﴾ أى فوقعت منهما الخيانة لهما . قال عكرمة والضحاك : بالكفر . وقيل : كانت امرأة نوح تقول للناس : إنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه ، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبى قطّ . وقيل : كانت خيانتهما النفاق. وقيل : خانتاهما بالنميمة ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ﴾ أى فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئا من الدفع ﴿ وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ أى وقيل لهما فى الآخرة ، أو عند موتهما : ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر والمعاصى . وقال يحيى بن سلام : ضرب الله مثلا للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه ، وما أحسن من قال : فإن ذكر امرأتى النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول ﷺ يرشد

(١) صحيحه الحاكم ٢ / ٤٩٨ ، ٤٩٩ وقال الذهبى : « عتبة بن يقظان واهٍ » .

أتمّ إرشاد ويلوحّ أبلغ تلويح إلى أن المراد : تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمته خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لا يغنى عنهما من الله شيئا ، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة .

﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون** ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى المثل الذى قبله ، أى جعل الله حال امرأة فرعون مثلا لحال المؤمنين ترغيبا لهم فى الثبات على الطاعة والتمسك بالدين والصبر فى الشدة ، وأن صولة الكفر لا تضرّهم كما لم تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين وصارت بإيمانها بالله فى جنات النعيم ﴿ **إذ قالت ربّ ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ الظرف متعلق بضرب أو بمثلا،أى ابن لى بيتا قريبا من رحمتك ، أو فى أعلى درجات المقربين منك ، أو فى مكان لا يتصرّف فيه إلا بإذنك وهو الجنة ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾ أى من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشرّ ﴿ **ونجنى من القوم الظالمين** ﴾ قال الكلبى: هم أهل مصر ، وقال مقاتل : هم القبط . قال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب .

﴿ **ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها** ﴾ معطوف على امرأة فرعون ، أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران ، أى حالها وصفتها . وقيل : إن الناصب لمريم فعل مقدّر ، أى واذكر مريم ، والمقصود من ذكرها: أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة ، واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿ **التى أحصنت فرجها** ﴾ أى عن الفواحش ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة النساء . قال المفسرون : المراد بالفرج هنا : الجيب لقوله : ﴿**فنفخنا فيه من روحنا** ﴾ وذلك أن جبريل نفخ فى جيب درعها فحبلت بعيسى ﴿ **وصدّقت بكلمات ربها** ﴾ يعنى: شرائعه التى شرعها لعباده ، وقيل: المراد بالكلمات هنا : هو قول جبريل لها : ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ الآية [مريم : ١٩] وقال مقاتل : يعنى بالكلمات : عيسى . قرأ الجمهور : ﴿ **وصدّقت** ﴾ بالتشديد . وقرأ حمزة الأموى ويعقوب وقتادة وأبو مجلز وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف . وقرأ الجمهور: ﴿ **بكلمات** ﴾ بالجمع . وقرأ الحسن ومجاهد والجحدرى : «بكلمة» بالإفراد . وقرأ الجمهور: « وكتابه » بالإفراد . وقرأ أهل البصرة وحفص : ﴿ **كتبه** ﴾ بالجمع ، والمراد على قراءة الجمهور: الجنس فيكون فى معنى الجمع ، وهى الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿ **وكانت من القانتين** ﴾ قال قتادة : من القوم المطيعين لربهم .وقال عطاء : من المصلين ، كانت تصلى بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين : رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ،وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، وقال : ﴿ **من القانتين** ﴾ ولم يقل : « من القانتات » ؛لتغليب الذكور على الإناث .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن

جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فخانتاهما** ﴾ قال : ما زنتا : أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط: فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتهما (١) . وأخرج ابن المنذر عنه : قال : ما بغت امرأة نبىّ قط . وقد رواه ابن عساكر مرفوعا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة (٢) . وأخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة : أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها (٣) وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس ، فرفعت رأسها إلى السماء ، فقالت : ﴿ **ربّ ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من الظالمين** ﴾ ففرج الله لها عن بيتها فى الجنة فرأته .

وأخرج أحمد والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها فى القرآن قالت : ﴿ **ربّ ابن لى عندك بيتا** ﴾ » الآية (٤) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (٥) . وأخرج وكيع فى الغرر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾ قال: من جماعته .

---

(١) ابن جرير ٢٨ / ١٠٩ وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٦ ووافقه الذهبى .

(٢) ابن أبى شيبة (١٦٥٠٥) وابن جرير ٢٨ / ١١٠ وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٥٢٠) .

(٣) فى المخطوطة : « صدرها » والصحيح ما أثبتناه بدليل ما بعده .

(٤) أحمد ١ / ٣١٦ والطبرانى (١١٩٢٨) وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٧ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٢٦ : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح » .

(٥) البخارى فى الأطعمة (٥٤١٨) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣١ / ٧٠) والترمذى فى الأطعمة (١٨٣٤) وقال : « حسن صحيح » .

تفسير سورة الملك

وتسمى سورة تبارك ، والواقية ، والمنجية ، والمانعة . وهى ثلاثون آية . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع[(١)] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت بمكة سورة تبارك الملك . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن الضريس ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ » قال الترمذى : هذا حديث حسن [(٢)] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول ﷺ : « سورة فى القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ »[(٣)] . وأخرج الترمذى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وابن نصر، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبىّ ﷺ خباءً على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبىّ ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » . قال الترمذى بعد إخراجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه [(٤)] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تبارك هى المانعة من عذاب القبر » وأخرجه أيضا النسائى وصححه ، والحاكم [(٥)] . وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبى هريرة أنهما سمعا رسول اللّه ﷺ يقول : «أنزلت علىّ سورة تبارك ، وهى ثلاثون آية جملة واحدة ، وهى المانعة فى القبور » . وأخرج عبد بن حميد فى مسنده والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى، قال : اقرأ : ﴿تبارك الذى بيده الملك ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها

---

(١) القرطبى ١٠ / ٦٦٨٤ .

(٢) أحمد ٢ / ٢٩٩ ، ٣٢١ وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٠) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩١) وقال : «هذا حديث حسن » والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٦) وفى التفسير (٦٣٢) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٦) وصححه الحاكم ١ / ٥٦٥ ، ٢ / ٤٩٨ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٦) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٠ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٠) والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٤١ تفرد به يحيى بن عمرو النكدى ، وهو ضعيف ؛ إلا أن لمعناه شاهدًا عن عبد الله بن مسعود .

(٥) النسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٧) وصححه الحاكم ٢ / ٤٩٨ ووافقه الذهبى .

فى قلب كل إنسان من أمتى » [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١ ﴾ .

قوله : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك** ﴾ تبارك تفاعل من البركة ، والبركة : النماء والزيادة . وقيل : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين . وقيل : دام فهو الدائم الذى لا أوّل لوجوده ولا آخر لدوامه ، وقال الحسن : تبارك : تقدس ، وصيغة التفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء . والملك : هو ملك السموات والأرض فى الدنيا والآخرة ، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء . وقيل : المراد بالملك : ملك النبوة ، والأوّل أولى ؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحا وأبلغ ثناء ، ولا وجه للتخصيص ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى بليغ القدرة لا يعجزه شىء من الأشياء يتصرف فى ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع .

﴿ **الذى خلق الموت والحياة** ﴾ الموت : انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له ، والحياة : تعلق الروح بالبدن واتصاله به . وقيل : هى ما يصح بوجوده الإحساس . وقيل : ما يوجب كون الشيء حيا . وقيل : المراد : الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة ، وقدم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة ، والحياة عارضة لها . وقيل : لأن الموت أقرب إلى القهر . وقال

(١) ورد هذا الحديث مقتصرًا على المرفوع فى الطبرانى (١١٦١٦) وصححه الحاكم ١ / ٥٦٥ وقال : « هذا إسناد عند اليمانيين صحيح » قال الذهبى : « قلت : حفص واه » وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٠ : « فيه إبراهيم بن الحاكم بن أبان وهو ضعيف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٧٨٧) ونسبه لعبد بن حميد وجاء بالرواية بأكملها ، وقال البوصيرى : « رواه البزار والترمذى مختصراً ولم يزد على هذا » .

مقاتل : خلق الموت : يعنى النطفة والمضغة والعلقة ، والحياة يعنى :خلقه إنسانا وخلق الروح فيه . وقيل : خلق الموت على صورة كبش لا يمرّ على شىء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمرّ بشىء إلا حيى ، قاله مقاتل والكلبى . وقد ورد فى التنزيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ [السجدة : ١١] ، وقوله : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وقوله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ [الأنعام : ٦١] ، وقوله : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [الزمر : ٤٢] وغير ذلك من الآيات ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ اللام متعلقة بخلق ، أى خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا فيجازيكم على ذلك . وقيل : المعنى : ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا وأشدّ منه خوفا . وقيل : أيكم أسرع إلى طاعة الله ، وأوزع عن محارم الله ، وقال الزجاج : اللام متعلق بخلق الحياة ، لا بخلق الموت ، وقال الزجاج أيضا والفراء : إن قوله : ﴿ **ليبلوكم** ﴾ لم يقع على أىّ ؛ لأن فيما بين البلوى وأىّ إضمار فعل كما تقول : بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ، ومثله قوله : ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾[القلم : ٤٠] أى سلهم ثم انظر أيهم ، فأيكم فى الآية مبتدأ وخبره أحسن ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، ويراد : صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط ؛ للإيذان بأن المراد بالذات ، والمقصد الأصلى من الابتلاء : هو ظهور كمال إحسان المحسنين ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أى الغالب الذى لا يغالب ﴿**الغفور** ﴾ لمن تاب وأناب .

﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقا** ﴾ الموصول يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتًا أو بيانا أو بدلا ، وأن يكون منقطعًا عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح ، و﴿ **طباقا** ﴾ صفة لسبع سموات ، أى بعضها فوق بعض ، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب ، أو مصدر طابق ، يقال : طابق مطابقة وطباقا ، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف ، أى ذات طباق ، ويجوز أن يكون منتصبا على المصدرية بفعل محذوف ، أى طوبقت طباقا ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات ، أو مستأنفة لتقدير ما قبلها ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، و« من » مزيدة لتأكيد النفى . قرأ الجمهور : ﴿ **من تفاوت**﴾ . وقرأ ابن مسعود وأصحابه وحمزة والكسائى : « تفوّت » مشدّدا بدون ألف وهما لغتان : كالتعاهد والتعهد ، والتحامل والتحمل ، والمعنى على القراءتين : ما ترى فى خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هى مستوية مستقيمة دالة على خالقها ، وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾ الفطور : الشقوق والصدوع والخروق ، أى اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة. أخبر أولا بأنه لا تفاوت فى خلقه ، ثم أمر ثانيا بترديد البصر فى ذلك ؛ لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة . قال مجاهد والضحاك : الفطور : الشقوق جمع فطر وهو الشق .

وقال قتادة : هل ترى من خلل ؟ وقال السدّى : هل ترى من خروق ؟ وأصله من التفطر والانفطار ، وهو التشقق والانشقاق ، ومنه قول الشاعر :

بنى لكـم بـلا عمـد سمـاء وزينها فما فيها فطـور

وقال الآخر :

شققت القلب ثم رددت فيه هواك فليم فالتام الفطور

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أى رجعتين مرّة بعد مرّة ، وانتصابه على المصدر ، والمراد بالتثنية : التكثير، كما فى : لبيك وسعديك ، أى رجعة بعد رجعة وإن كثرت ، ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب فى النظرة الأولى ولا فى الثانيـة، ولهـذا قـال أوّلا : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم قال ثانيا : ﴿فارجع البصر ﴾ ثم قال ثالثا : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ فيكون ذلك أبلغ فى إقامة الحجة وأقطع للمعذرة ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا ﴾ أى يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا عن أن يرى شيئا من ذلك . وقيل : معنى ﴿ خاسئا ﴾ : مبعدا مطرودا عن أن يبصر ما التمسه من العيب ، يقال : خسأت الكلب ، أى أبعدته وطردته . قرأ الجمهور : ﴿ ينقلب ﴾ بالجـزم جوابا للأمـر. وقـرأ الكسائى فى رواية بالرفع على الاستئناف ﴿ وهو حسير ﴾ أى كليل منقطع . قـال الزجـاج : أى وقد أعيا من قبل أن يرى فى السماء خللا ، وهـو فعيل بمعنى فاعـل من الحسور، وهو الإعياء ، يقال: حسر بصره يحسر حسورا ، أى كلّ وانقطع ، ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلىّ الطرف وهو حسير

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ بين سبحانه بعد خلق السموات وخلوّها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة ، فصارت فى أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجىء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح وهو السراج ،وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضىء كإضاءة السراج ، وبعض الكواكب وإن كان فى غير سماء الدنيا من السموات التى فوقها ، فهى تتراءى كأنها كلها فى سماء الدنيا ؛ لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونهـا أجرامـا صقيلـة شفـافـة ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ أى وجعلنا المصابيح رجوما يرجم بها الشياطين . وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهى كونها زينة للسماء الدنيا ، والمعنى : أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم : جمع رجم بالفتح ، وهو فى الأصل مصدر أطلق على المرجوم به ،كما فى قولهم : الدرهم ضرب الأمير ، أى مضروبه ، ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف محذوف ، أى ذات رجم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه . وقيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ وجعلناها ﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف ، أى شهبها ، وهى نارها المقتبسة منها ، لا هى أنفسها لقوله : ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات : ١٠] ووجه هذا : أن المصابيح التى

زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها ، كذا قال أبو علىّ الفارسى جوابا لمن سأله : كيف تكون المصابيح زينة وهى رجوم ؟ قال القشيرى : وأمثل من قوله هذا أن تقول : هى زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها فى البرّ والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدّى وظلم ، وقيل : معنى الآية : وجعلناها ظنونا لشياطين الإنس ، وهم المنجمون **﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾** أى وأعتدنا للشياطين فى الآخرة بعد الاحتراق فى الدنيا بالشهب عذاب السعير، أى عذاب النار ، والسعير : أشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهى مسعورة .

﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ من كفار بنى آدم ، أو من كفار الفريقين : **﴿ عذاب جهنم ﴾** قرأ الجمهور برفع : **﴿عذاب﴾** على أنه مبتدأ ، وخبره : **﴿ للذين كفروا ﴾** وقرأ الحسن والضحاك والأعرج بنصبه عطفا على **﴿عذاب السعير ﴾** ،**﴿ وبئس المصير ﴾** ما يصيرون إليه ، وهو جهنم . **﴿ إذا ألقوا فيها ﴾** أى طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار **﴿ سمعوا لها شهيقا ﴾** أى صوتا كصوت الحمير عند أوّل نهيقها ، وهو أقبح الأصوات ، وقوله : **﴿لها﴾** فى محل نصب على الحال ، أى كائنا لها ؛ لأنه فى الأصل صفة ، فلما قدّمت صارت حالا ، وقال عطاء : الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم فى النار . وجملة : **﴿ وهى تفور ﴾** فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنها تغلى بهم غليان المرجل ، ومنه قول حسان :

تركتم قدركم لا شىء فيه   وقدر الغير حامية تفور

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أى تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيظها عليهم . قال ابن قتيبة : تكاد تنشق غيظا على الكفار . قرأ الجمهور : **﴿ تميز ﴾** بتاء واحدة مخففة ، والأصل : تتميز بتاءين ، وقرأ طلحة بتاءين على الأصل . وقرأ البزى عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى . وقرأ الضحاك : « تمايز » بالألف وتاء واحدة ، والأصل تتمايز ، وقرأ زيد بن علىّ : « تميز » من ماز يميز ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ ، وجملة : **﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ﴾** مستأنفة لبيان حال أهلها ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل **﴿تميز ﴾**، والفوج : الجماعة من الناس ، أى كلما ألقى فى جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع :**﴿ ألم يأتكم ﴾** فى الدنيا **﴿نذير﴾** ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه . وجملة : **﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير ﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا السؤال ؟ فقال : **﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾** فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم **﴿ فكذبنا ﴾** ذلك النذير **﴿ وقلنا ما نزّل الله من شىء﴾** من الأشياء على ألسنتكم **﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾** أى فى ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ؛ والمعنى : أنه قال : كلّ فوج من تلك الأفواج حاكيا لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه : ما أنتم أيها الرسل فيم تدّعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرونا بها إلا فى ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره .

ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ أى لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل ، أو نعقل شيئا من ذلك ما كنا في عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير وهم الشياطين كما سلف . قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعى ، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه: ﴿ **فاعترفوا بذنبهم** ﴾ الذى استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾ أى فبعدًا لهم من اللهِ ومن رحمته . وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد فى جهنم يقال له : السحق . قرأ الجمهور : ﴿ **فسحقا** ﴾ بإسكان الحاء . وقرأ الكسائى وأبو جعفر بضمها ، وهما لغتان مثل السحت والرعب . قال الزجاج وأبو علىّ الفارسى :﴿ **فسحقا** ﴾ منصوب على المصدر ، أى أسحقهم الله سحقا ، قال أبو علىّ الفارسى : وكان القياس « إسحاقا » فجاء المصدر على الحذف ، واللام فى : ﴿**لأصحاب السعير** ﴾ للبيان ،كما فى : ﴿ هيت لك﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سبع سموات طباقا** ﴾ قال : بعضها فوق بعض . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ قال : ما تفوت بعضه بعضا تفاوتا مفرقا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **من تفاوت** ﴾ قال : من تشقق ، وفى قوله : ﴿ **هل ترى من فطور** ﴾ قال : شقوق ، وفى قوله : ﴿ **خاسئا** ﴾ قال : ذليلا ﴿ **وهو حسير** ﴾ : كليل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، قال : الفطور : الوهى . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **من فطور** ﴾ قال : من تشقق أو خلل ، وفى قوله : ﴿**ينقلب إليك البصر** ﴾ قال : يرجع إليك ﴿**خاسئا** ﴾ قال : صاغرًا ﴿ **وهو حسير** ﴾ قال : معيىٍّ ولا يرى شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **خاسئا** ﴾ قال : ذليلا ﴿ **وهو حسير** ﴾ قال : عيى مرتجع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿**تكاد تميز** ﴾ قال : تتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **تكاد تميز** ﴾ قال :يفارق بعضها بعضا .وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى جاتم عنه أيضا :﴿ **فسحقا**﴾ قال :بعدا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ

هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة ، و﴿**بالغيب**﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أى غائبين عنه ، أو غائبا عنهم ، والمعنى : أنهم يخشون عذابه ولم يروه فيؤمنون به خوفا من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى : يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس وذلك فى خلواتهم ، أو المراد بالغيب :كون العذاب غائبا عنهم لأنهم فى الدنيا ، وهو إنما يكون يوم القيامة ، فتكون الباء على هذا سببية ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿ **وأجر كبير** ﴾ وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ [ق : ٣٣] ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال : ﴿**وأسروا قولكم أو اجهروا به** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوى الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه ، والمعنى : إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به فى أمر رسول الله ﷺ ، فكلّ ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية ، وجملة : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ تعليل للاستواء المذكور، وذات الصدور: هى مضمرات القلوب . والاستفهام فى قوله : ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ للإنكار، والمعنى : ألا يعلم السرّ ومضمرات القلوب من خلق ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفى يعلم ضمير يعود إلى الله ، أى ألا يعلم الله المخلوق الذى هو من جملة خلقه ، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه ، وجملة : ﴿ **وهو اللطيف الخبير** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يعلم ، أى الذى لطف علمه بما فى القلوب، الخبير بما تسرّه وتضمره من الأمور ، لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ثم امتنّ سبحانه على عباده فقال : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا** ﴾ أى سهلة لينة تستقرون عليها ، ولم يجعلها بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشى عليها ، والذلول فى الأصل : هو المنقاد الذى يذلّ لك ولا يستصعب عليك ، والمصدر : الذلّ ، والفاء فى قوله : ﴿ **فامشوا فى مناكبها** ﴾ لترتيب الأمر بالمشى على الجعل المذكور ، والأمر للإباحة . قال مجاهد والكلبى ومقاتل : مناكبها : طرقها وأطرافها وجوانبها . وقال قتادة وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها ، وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، ومنه الريح النكباء ؛ لأنها تأتى من جانب دون جانب ﴿ **وكلوا من رزقه** ﴾ أى مما رزقكم وخلقه لكم فى الأرض ﴿**وإليه النشور** ﴾ أى وإليه البعث من قبوركم ، لا إلى غيره ، وفى هذا وعيد شديد .

ثم خوّف سبحانه الكفار فقال : ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى : عقوبة من فى السماء . وقيل : من فى السماء : قدرته وسلطانه وعرشه وملائكته ، وقيل : من فى السماء من الملائكة. وقيل : المراد : جبريل ،

ومعنى : ﴿ **أن يخسف بكم الأرض** ﴾ يقلعها ملتبسة بكم كما فعل بقارون بعدما جعلها لكم ذلولا وتمشون فى مناكبها ، وقوله : ﴿ **أن يخسف** ﴾ بدل اشتمال من الموصول ، أى أأمنتم خسفه ، أو على حذف من، أى من أن يخسف ﴿ **فإذا هى تمور** ﴾ أى تضطرب وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون . قرأ الجمهور: ﴿**أأمنتم** ﴾ بهمزتين . وقرأ البصريون والكوفيون بالتخفيف . وقرأ ابن كثير بقلب الأولى واوا ، ثم كرر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال : ﴿ **أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا** ﴾ أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل . وقيل : سحاب فيها حجارة . وقيل : ريح فيها حجارة ﴿ **فستعلمون كيف نذير** ﴾ أى إنذارى إذا عاينتم العذاب ولا ينفعكم هذا العلم . وقيل : النذير هنا : محمد ﷺ ، قاله عطاء والضحاك ، والمعنى : ستعلمون رسولى وصدقه ، والأوّل أولى. والكلام فى : ﴿ **أن يرسل عليكم حاصبا** ﴾ كالكلام فى : ﴿ **أن يخسف بكم الأرض**﴾ فهو إما بدل اشتمال، أو بتقدير من﴿ **ولقد كذب الذين من قبلهم**﴾ أى الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسّ وقوم فرعون ﴿ **فكيف كان نكير**﴾ أى فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع.

﴿ **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات** ﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف على مقدّر ، أى أغفلوا ولم ينظروا، ومعنى: ﴿**صافات** ﴾ أنها صافة لأجنحتها فى الهواء وتبسيطها عند طيرانها ﴿ **ويقبضن** ﴾ أى يضممن أجنحتهنّ . قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه :صافّ ، وإذا ضمها : قابض ، كأنه يقبضه ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح وقبضه بعض البسط ، ومنه قول أبى خراش :

يبادر جنح الليل فهو مزايل تحت الجناح بالتبسط والقبض

وإنما قال : ﴿ **ويقبضن** ﴾ ولم يقل : « قابضات » كما قال : ﴿ **صافات** ﴾ ؛ لأن القبض يتجدد تارة فتارة ، وأما البسط فهو الأصل ، كذا قيل . وقيل : إن معنى ﴿**ويقبضن**﴾: قبضهنّ لأجنحتهنّ عند الوقوف من الطيران، لا قبضها فى حال الطيران ، وجملة : ﴿ **ما يمسكهنّ إلا الرحمن** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه . والمعنى : إنه ما يمسكهّن فى الهواء عند الطيران إلا الرحمن القادر على كل شىء ﴿ **إنه بكل شىء بصير**﴾ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان .

﴿ **أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ . والمعنى : أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند : الحزب والمنعة . قرأ الجمهور : ﴿**أمّن** ﴾ هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من ، وأم بمعنى بل ، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة ؛ لأن بعدها هنا « من » الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير ، و « من » الاستفهامية مبتدأ ، واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الإشارة ، وينصركم صفة لجند ، ومن دون الرحمن فى محل

نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى : بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوز نصر الرحمن . وقرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى وتثقيل الثانية ، وجملة: ﴿ **إن الكافرون إلا فى غرور** ﴾ معترضة مقررّة لما قبلها ناعية عليهم ماهم فيه من الضلال ، والمعنى : ما الكافرون إلا فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرّهم به . ﴿ **أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه** ﴾ الكلام فى هذا كالكلام فى الذى قبله قراءة وإعرابا ، أى من الذى يدرّ عليكم الأرزاق من المطر وغيره إن أمسك الله ذلك عنكم ومنعه عليكم ﴿ **بل لجوا فى عتوّ ونفور** ﴾ أى لم يتأثروا لذلك ، بل تمادوا فى عناد واستكبار عن الحقّ ونفور عنه ولم يعتبروا ولا تفكروا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره ، والعتوّ : العناد والطغيان ، والنفور: الشرود . وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ قال : أبو بكر وعمر وعليّ وأبو عبيدة بن الجراح . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فى مناكبها** ﴾ قال : جبالها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، قال : أطرافها . وأخرج الطبرانى وابن عدّى ، والبيهقى فى الشعب ، والحكيم الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحبّ العبد المؤمن المحترف »[1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**بل لجوّا فى عتو ونفور** ﴾ قال: فى ضلال .

﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)** ﴾ .

ضرب سبحانه مثلا للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما ، فقال : ﴿ **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى**﴾ والمكبّ والمنكب : الساقط على وجهه ، يقال : كببته فأكبّ وانكبّ . وقيل : هو الذى يكب رأسه فلا ينظر يمينا ولا شمالا ولا أماما فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه . وقيل : أراد به الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه . قال قتادة : هو الكافر يكبّ على معاصى الله فى الدنيا فيحشره الله يوم

---

(١) الطبرانى (١٣٢٠٠) وابن عدى ١ / ٣٧٨ والبيهقى فى الشعب (١١٨١) وإسناده ضعيف . قال الهيثمى فى المجمع ٤ / ٦٥ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف » .

القيامة على وجهه ، والهمزة للاستفهام الإنكارى ، أى هل هذا الذى يمشى على وجهه أهدى إلى المقصد الذى يريده ؟ ﴿ **أمّن يمشى سويا** ﴾ معتدلا ناظرا إلى ما بين يديه ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أى على طريق مستوى لا اعوجاج به ولا انحراف فيه ، وخبر من محذوف لدلالة خبر« من » الأولى وهو أهدى عليه ، وقيل : لا حاجة إلى ذلك ؛ لأن « من » الثانية معطوفة على من الأولى عطف المفرد على المفرد ، كقولك: أزيد قائم أم عمرو ؟ وقيل : أراد بمن يمشى مكبا على وجهه : من يحشر على وجهه إلى النار ، ومن يمشى سويا : من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذى ذكرناه ، ومثله قوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ [الإسراء : ٩٧]. ﴿**قل هو الذى أنشأكم** ﴾ أمر سبحانه رسول الله ﷺ أن يخبرهم بأن الله هو الذى أنشأهم النشأة الأولى ﴿ **وجعل** ﴾ لهم ﴿**السمع** ﴾ ليسمعوا به ﴿**والأبصار** ﴾ ليبصروا بها، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، وقد قدّمنا بيان هذا فى مواضع مع زيادة فى البيان ﴿ **والأفئدة** ﴾ القلوب الّتى يتفكرون بها فى مخلوقات الله ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحا للحجة وقطعا للمعذرة وذما لهم على عدم شكر نعم الله ، ولهذا قال : ﴿ **قليلا ما تشكرون**﴾ وانتصاب ﴿ **قليلا** ﴾ على أنه نعت مصدر محذوف ، و «ما» مزيدة للتأكيد، أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا . وقيل : أراد بقلة الشكر :عدم وجوده منهم. قال مقاتل : يعنى : أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه . ﴿ **قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ أمر الله رسوله ﷺ بأن يخبرهم أن الله هو الذى خلقهم فى الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره .

ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ أى متى هذا الوعد الذى تذكرونه لنا من الحشر والقيامة والنار والعذاب إن كنتم صادقين فى ذلك ؟ والخطاب منهم للنبىّ ﷺ ولمن معه من المؤمنين ، وجواب الشرط محذوف، والتقدير : إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوه لنا ، وهذا منهم استهزاء وسخرية ، ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل إنما العلم عند الله** ﴾ أى إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره ، ومثله قوله : ﴿ قل إنما علمها عند ربى﴾ [الأعراف : ١٨٧]. ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال : ﴿ **وإنما أنا نذير مبين** ﴾ أنذركم وأُخوّفكم عاقبة كفركم وأبين لكم ما أمرنى الله ببيانه .

ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال : ﴿ **فلما رأوه زلفة** ﴾ يعنى : رأوا العذاب قريبا ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل ، أى مزدلفا أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف، أى ذا زلفة وقرب أو ظرف ، أى رأوه فى مكان ذى زلفة، قال مجاهد : أى قريبا . وقال الحسن : عيانا . قال أكثر المفسرين : المراد :عذاب يوم القيامة . وقال مجاهد : المراد : عذاب

بدر . وقيل : رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبا منهم كما يدلّ عليه قوله : ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ وقيل : لما رأوا عملهم السيئ قريبا ﴿ **سيئت وجوه الذين كفروا** ﴾ أى اسودت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة ، يقال : ساء الشيء يسوء فهو سيئ : إذا قبح . قال الزجاج : تبين فيها السوء ، أى ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه فى وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسوّد وجوه ﴾ [آل عمران : ١٠٦] . قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام ، وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وابن محيصن بالإشمام ﴿ **وقيل هذا الذى كنتم به تدّعون** ﴾ أى قيل لهم توبيخا وتقريعا : هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الذى كنتم به تدّعون فى الدنيا ، أى تطلبونه وتستعجلون به استهزاء على أن معنى ﴿**تدّعون** ﴾ الدعاء ، قال الفراء : تدعون تفتعلون من الدعاء ، أى تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين . وقال الزجاج : هذا الذى كنتم به تدّعون الأباطيل والأحاديث ، وقيل : معنى ﴿ **تدّعون** ﴾ : تكذبون ، وهذا على قراءة الجمهور :﴿ **تدّعون** ﴾ بالتشديد ، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر ، أو من الدعوى ،كما قال الزجاج ومن وافقه ، والمعنى: أنهم كانوا يدّعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار . وقرأ قتادة وابن أبى إسحاق ويعقوب والضحاك : « تدعون » مخففة ومعناها ظاهر . قال قتادة : هو قولهم : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ [ص : ١٦] . وقال الضحاك : هو قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] . قال النحاس : تدّعون وتدعون بمعنى واحد ،كما تقول : قدر واقتدر ، وغدا واغتدى ، إلا أنّ أفعل معناه : مضى شيئا بعد شيء ، وفعل يقع على القليل والكثير .

﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى** ﴾أى أخبرونى إن أهلكنى الله بموت أو قتل ، ومن معى من المؤمنين ﴿**أو رحمنا** ﴾ بتأخير ذلك إلى أجل . وقيل : المعنى :إن أهلكنى الله ومن معى بالعذاب ، أو رحمنا فلم يعذبنا ﴿ **فمن يجير الكافرين من عذاب أليم** ﴾ أى فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب . والمعنى : أنه لا ينجيهم من ذلك أحدٌ سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه ، أو أمهلهم . وقيل : المعنى : إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر ، وبيان أنه السبب فى عدم نجاتهم . ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به** ﴾ وحده ، لا نشرك به شيئا ﴿**وعليه توكلنا** ﴾ لا على غيره ، والتوكل : تفويض الأمور إليه ـ عزّ وجلّ ـ ﴿**فستعلمون من هو فى ضلال مبين** ﴾ منا ومنكم ، وفى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف . قرأ الجمهور : ﴿ **ستعلمون** ﴾ بالفوقية على الخطاب . وقرأ الكسائى بالتحتية على الخبر .

ثم احتجّ سبحانه عليهم ببعض نعمه ، وخوّفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال : ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا**﴾ أى أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا فى الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلا ، أو صار ذاهبا فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء . يقال : غار

الماء غورا ، أى نضب ، والغور: الغائر ، وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال: رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة الكهف ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أى ظاهر تراه العيون ، وتناله الدلاء . وقيل : هو من معن الماء ، أى كثر . وقال قتادة والضحاك : أى جار ، وقد تقدّم معنى المعين فى سورة المؤمنون [١] . وقرأ ابن عباس: « فمن يأتيكم بماء عذب » .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ أفمن يمشى مكبا ﴾ قال : فى الضلالة ﴿أمّن يمشى سويا ﴾ قال : مهتديا . وأخرج الخطيب فى تاريخه ، وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هذه الآية : ﴿هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ » [٢] . وأخرج الدارقطنى فى الإفراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات : ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع ﴾ إلى ﴿ يفقهون ﴾ [الأنعام : ٩٨] و ﴿ هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ فإنه يبرأ بإذن الله » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ قال : داخلا فى الأرض ﴿ فمن يأتيكم بماء معين﴾ قال : الجارى . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ قال : يرجع فى الأرض . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا :﴿ بماء معين ﴾ قال : ظاهر . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا : ﴿ بماء معين ﴾ قال : عذب .

---

(١) فى المخطوطة : « المؤمن » والصحيح ما أثبتناه . (٢) الخطيب ٩ / ٥٤ .

تفسير سورة القلم

هي اثنتان وخمسون آية . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أن من أوّلها إلى قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ مكيّ ، ومن بعد ذلك إلى قوله : ﴿ من الصالحين ﴾ مدنيّ ، وباقيها مكي كذا قال الماوردى . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء . وكان أوّل ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : ١] ثم نون . ثم المزمل ، ثم المدثر. وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عنه قال : نزلت سورة ن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ⑤ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ⑥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ⑦ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ⑧ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ⑪ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ⑬ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ⑮ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ⑯ ﴾ .

قوله : ﴿ ن ﴾ قرأ أبو بكر وورش وابن عامر والكسائى وابن محيصن وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها فى الواو ، وقرأ الباقون بالإظهار ، وقرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل ، وقرأ ابن عامر ونصر وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميفع وهارون بضمها على البناء ، قال مجاهد ومقاتل والسدّى : هو الحوت الذى يحمل الأرض ، وبه قال مرّة الهمذانى وعطاء الخراسانى والكلبى . وقيل : إن نون آخر حرف من حروف الرحمن . وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به . وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة . وقال عطاء وأبو العالية : هى النون من نصر وناصر . قال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين . وقيل : هو حرف من حروف الهجاء ، كالفواتح الواقعة فى أوائل السور المفتتحة بذلك، وقد عرّفناك ما هو الحق فى مثل هذه الفواتح فى أوّل سورة البقرة ، والواو فى قوله : ﴿ والقلم ﴾ واو القسم ، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به ، وقال جماعة من المفسرين : المراد به : القلم الذى كتب به اللوح المحفوظ ، أقسم الله به تعظيماً له . قال قتادة : القلم من نعمة الله على عباده

﴿وما يسطرون﴾ «ما» موصولة، أى والذى يسطرون ، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره ، لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب . والمعنى : والذى يسطرون ، أى يكتبون كل ما يكتب ، أو الحفظة على ما تقدّم ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، أى وسطرهم . وقيل : الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وجواب القسم قوله :﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ « ما » نافية ، وأنت اسمها ، وبمجنون خبرها . قال الزجاج : أنت هو اسم ما ، وبمجنون خبرها ، وقوله: ﴿بنعمة ربك ﴾ كلام وقع فى الوسط ، أى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل . قيل : الباء متعلقة بمضمر هو حال ، كأنه قيل : أنت برىء من الجنون ملتبسا بنعمة الله التى هى النبوة والرياسة العامة . وقيل : الباء للقسم ، أى وما أنت ونعمة ربك بمجنون . وقيل : النعمة هنا : الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿ يأيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر : ٦] .

﴿ وإن لك لأجرا ﴾ أى ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوة ، وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿ غير ممنون ﴾ أى غير مقطوع ، يقال :مننت الحبل إذا قطعته ، وقال مجاهد : غير ممنون : غير محسوب ، وقال الحسن : غير ممنون: غير مكدر بالمنّ . وقال الضحاك : أجرا بغير عمل. وقيل : غير مقدّر . وقيل : غير ممنون به عليك من جهة الناس . ﴿وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قيل : هو الإسلام والدين ، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين . وقيل : هو القرآن ، روى هذا عن الحسن والعوفى . وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهى عنه من نهى الله . قال الزجاج : المعنى : إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن . وقيل : هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم . وقيل : المعنى : إنك على طبع كريم . قال الماوردى : وهذا هو الظاهر ، وحقيقة الخلق فى اللغة : ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب ، وقد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبىّ ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن [١]، وهذه الجملة والتى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ أى ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحقّ وانكشف الغطاء وذلك يوم القيامة ﴿ بأيكم المفتون ﴾ الباء زائدة للتأكيد ، أى أيكم المفتون بالجنون ، كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما ، ومثله قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب العلج [٢] ... نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل :ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول ،كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيكم المفتون أو الفتنة ، ومنه قول الشاعر الراعى :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه ... لحما ولا لفؤاده معقولا

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٢) مدينة بأرض اليمامة لبنى جعدة .

أى عقلا . وقال الفراء : إن الباء بمعنى فى ، أى فى أيكم المفتون ، أفى الفريق الذى أنت فيه ، أم فى الفريق الآخر ؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبى عبلة فى أيكم المفتون . وقيل : الكلام على حذف مضاف ، أى بأيكم فتن المفتون ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وروى هذا عن الأخفش أيضاً . وقيل : المفتون : هو الشيطان ، لأنه مفتون فى دينه ، والمعنى: بأيكم الشيطان ، وقال قتادة : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى : سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون ، وجملة : **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾** تعليل للجملة التى قبلها ، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، والمعنى : هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين **﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾** إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة ، فهو مجازٍ كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين ، وهم رؤساء كفار مكة ، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة :مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير ، فنهاه الله عن ذلك كما يدل عليه قوله : **﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾** فإن الإدهان :هو الملاينة والمسامحة والمداراة . قال الفرّاء : المعنى : لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبى ، وقال الضحاك والسدّى : ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر ، وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون . وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك . وقال الحسن : ودوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك . وقال مجاهد : ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك . قال ابن قتيبة :كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة ، ويعبدوا الله مدّة ، وقوله : **﴿فيدهنون﴾** عطف على تدهن داخل فى حيز لو ، أو هوخبر مبتدأ محذوف ، أى فهم يدهنون . قال سيبويه: وزعم قالون أنها فى بعض المصاحف «ودّوا لو تدهن فيدهنوا » بدون نون ، والنصب على جواب التمنى المفهوم من ودّوا ، والظاهر من اللغة فى معنى الإدهان هو ما ذكرناه أوّلا .

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ أى كثير الحلف بالباطل **﴿ مهين ﴾** فعيل من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز. وقال مجاهد : هو الكذاب . وقال قتادة : المكثار فى الشر ، وكذا قال الحسن . وقيل : هو الفاجر العاجز. وقيل : هو الحقير عند الله . وقيل : هو الذليل . وقيل: هو الوضيع **﴿ هماز مشاء بنميم ﴾** الهماز : المغتاب للناس . قال ابن زيد : هو الذى تهمز بأخيه . وقيل : الهماز :الذى يذكر الناس فى وجوههم ، واللماز الذى يذكرهم فى مغيبهم ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبى رباح ، وقال مقاتل عكس هذا . والمشاء بنميم : الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال: نمّ ينم : إذا سعى بالفساد بين الناس ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده ـــــ لمـــولاه إلا ســعيــه بنميــم

وقيل : النميم : جمع نميمة ﴿ مناع للخير ﴾ أى بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه . وقيل: هو الذى يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام ، قال الحسن يقول لهم : من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا ﴿ معتد أثيم ﴾ أى متجاوز الحدّ فى الظلم كثير الإثم ﴿ عتل ﴾ قال الواحدى : المفسرون يقولون هو : الشديد الخلق الفاحش الخلق. وقال الفراء: هو الشديد الخصومة فى الباطل . وقال الزجاج : هو الغليظ الجافى ، وقال الليث : هو الأكول المنوع ، يقال : عتلت الرجل أعتله : إذا جذبته جذبا عنيفا ، ومنه قول الشاعر :

نقرعه قرعا ولسنا نعتله

﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ أى هو بعد ما عدّ من معايبه زنيم ، والزنيم : هو الدعىّ الملصق بالقوم وليس هو منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلية فى حلق الشاة أو الماعز ، ومنه قول حسان :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وقال سعيد بن جبير : الزنيم :المعروف بالشرّ . وقيل : هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة . وقيل : هو الظلوم . ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لا تطع ﴾ أى لا تطع مَنْ هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنين. قال الفراء والزجاج : أى لأن كان ، والمعنى : لا تطعه لماله وبنيه . قرأ ابن عامر وأبو جعفر والمغيرة وأبو حيوة : ﴿ أن كان﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام ، وقرأ حمزة وأبو بكر والمفضل : « أأن كان » بهمزتين مخففتين ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به: التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التى خوّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله ، وقرأ نافع فى رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط ، وجملة : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين ﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى ، وقد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فى غير موضع ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ أى سنسمه بالكىّ على خرطومه . قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم : الأنف. قال مقاتل : سنسمه بالسواد على الأنف ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار . قال الفراء : والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة فإنه فى مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدى عن بعض . قال الزجاج : سيجعل له فى الآخرة العلم الذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم . وقال قتادة :سنلحق به شيئا لا يفارقه ،واختار هذا ابن قتيبة . قال: والعرب تقول: قد وسمه ميسم سوء يريدون ألصق به عارا لا يفارقه ، فالمعنى : أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم .وقيل : معنى ﴿سنسمه ﴾:سنحطمه بالسيف.وقال النضر بن شميل: المعنى: سنحدّه على شرب الخمر ، وقد يسمى الخمر بالخرطوم، ومنه قول الشاعر:

تظل يومك فى لهو وفى طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى

الأسماء والصفات ، والخطيب في تاريخه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : إن أوّل شيء خلقه الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : ياربّ ، وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم ، وكان عرشه على الماء ، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السموات ، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ **نون . والقلم وما يسطرون** ﴾ [١] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أوّل ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد » [٢] . وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ، وهى الدواة وخلق القلم ، فقال : اكتب ؟ ، قال : وما أكتب ؟، قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وأخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ **ن** ﴾ : الدواة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « النون : السمكة التى عليها قرار الأرضين ، والقلم الذى خطّ به ربنا عزّ وجل القدر خيره وشرّه وضرّه ونفعه ». ﴿ **وما يسطرون** ﴾ قال : « الكرام الكاتبون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وما يسطرون**﴾ قال : وما يعلمون .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أخبرينى بخلق رسول الله ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [٣] . وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى الدلائل ، والواحدى عنها قالت : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : لبيك ، فلذلك أنزل الله: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [٤] . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى الدرداء قال: سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه [٥] . وأخرج ابن أبى شيبة ، والترمذى وصححه ، وابن مردويه عن أبى عبد الله الجدلى قال : قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : لم يكن فاحشا

---

(١) ابن جرير ٢٩/ ١٠ وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٨ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١١٩ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣١٩) وفى القدر (٢١٥٥) وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » .

(٣) أحمد ٦/ ٩١ ، ١٦٣ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) أبو نعيم فى الدلائل ص ١٣٩ .

(٥) البيهقى فى الدلائل ١/ ٣٠٩ ، ٣١٠ .

ولا متفاحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح [(١)].

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿بأيكم المفتون﴾ قال : الشيطان ، كانوا يقولون : إنه شيطان وإنه مجنون . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: بأيكم المجنون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ يقول : لو ترخص لهم فيرخصون . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ الآية قال : يعنى : الأسود بن عبد يغوث . وأخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدى قال : قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبى بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: إنها ليست بسنة أبى بكر وعمر ولكنها سنة هرقل، فقال مروان : هذا الذى أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أفٍّ لكما ﴾ الآية [الأحقاف : ١٧]. فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل فى عبد الرحمن ، ولكن نزل فى أبيك : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم ﴾ [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزل على النبى ﷺ : ﴿ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم ﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه ﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : العتل : هو الدعىّ ، والزنيم :هو المريب الذى يعرف بالشرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن عساكر عنه قال : الزنيم : هو الدعىّ . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه أيضا قال : الزنيم الذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون : رجل سوء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿زنيم﴾ قال: ظلوم ، وقد قيل : إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق . وقيل : فى الوليد بن المغيرة.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ

---

(١) ابن أبى شيبة (٥٣٨٢) والترمذى فى البر والصلة (٢٠١٦) وقال : «حسن صحيح وأبو عبد الله الجدلى اسمه عبد بن عبد ويقال: عبد الرحمن بن عبد » .

(٢) سبق تخريجه .

كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **إنا بلوناهم** ﴾ يعنى : كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ عليهم . والابتلاء : الاختبار ، والمعنى : أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط ﴿**كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدى حق الله منها ، فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحقّ الله فيها ، قال الواحدى : هم قوم من ثقيف كانوا مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظا للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه : المال قليل ، والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين ، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله فى كتابه . قال الكلبى : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم . وقيل : هى جنة كانت بصوران ، وصوران على فراسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير ﴿ **إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ أى حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح ، والصرم :القطع للثمر والزرع . وانتصاب ﴿**مصبحين**﴾ على الحال من فاعل ليصرمنها ، والكاف فى : ﴿ **كما بلونا** ﴾ نعت مصدر محذوف، أى بلوناهم ابتلاء كما بلونا ، وما مصدرية ، أو بمعنى الذى ، وإذ ظرف لبلونا منتصب به ، وليصرمنها جواب القسم ﴿**ولا يستثنون**﴾ يعنى : ولا يقولون : إن شاء الله ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم ، أو حال . وقيل : المعنى : ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه أبوهم إليهم ، قاله عكرمة .

﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ أى طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه ، والطائف قيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل . وقيل : الطائف : جبريل اقتلعها ، وجملة: ﴿ **وهم نائمون**﴾ فى محل نصب على الحال . ﴿**فأصبحت كالصريم** ﴾ أى كالشيء الذى صرمت ثماره ، أى قطعت ، فعيل بمعنى مفعول، وقال الفراء : كالصريم : كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم ... فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى : أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم : الرماد الأسود بلغة خزيمة، وقال الأخفش : أى كالصبح انصرم من الليل ، يعنى : أنها يبست وابيضت ، وقال المبرد : الصريم : الليل ، والصريم : النهار ، أى ينصرم هذا عن هذا ، وذاك عن هذا . وقيل: سمى الليل :صريما ؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف ، وقال المؤرج : الصريم : الرملة؛ لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به ، وقال الحسن : صرم منها الخير أى قطع ﴿ **فتنادوا مصبحين** ﴾ أى نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم

لبعض : ﴿ أن اغدوا على حرثكم ﴾ و « أن » فى قوله : ﴿أن اغدوا ﴾ هى المفسرة لأن فى التنادى معنى القول ، أو هى المصدرية ، أى بأن اغدوا ، والمراد : اخرجوا غدوة ، والمراد بالحرث : الثمار والزرع ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أى قاصدين للصرم ، والغدوّ يتعدى بإلى وعلى، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، وجواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم صارمين فاغدوا . وقيل : معنى ﴿ صارمين ﴾ : ماضين فى العزم ، من قولك : سيف صارم ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال : خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس ، ومنه قول دريد بن الصمة :

وإنى لم أهلك ملالا ولم أمت ‏ ‏ ‏ خفاتا وكلا ظنه بى عويمر

وقيل : المعنى : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم ، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ فإن « أن » هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. والمعنى : يسر بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين ، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم . ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والقصد . قال قتادة ومقاتل والكلبى والحسن ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد ؛ لأن القاصد إلى الشىء حارد، يقال : حرد يحرد : إذا قصد ، تقول : حردت حردك ، أى قصدت قصدك ومنه قول الراجز :

أقبل سيل جاء من عند الله ‏ ‏ ‏ يحرد حرد الجنة المغلة (١)

وقال أبو عبيدة والمبرد والقتيبى : على حرد : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا: إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هى القليلة اللبن ، وقال السدّى وسفيان والشعبى : ﴿على حرد ﴾ :على غضب ، ومنه قول الشاعر :

إذا جياد الخيل جاءت تردى ‏ ‏ ‏ مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر :

تساقوا على حرد دماء الأساود (٢)

ومنه قيل : أسد حارد ، وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أنهما قالا : ﴿ على حرد ﴾ : أى على حسد ، وقال الحسن أيضا : على حاجة وفاقة . وقيل : ﴿ على حرد ﴾ : على انفراد ، يقال : حرد يحرد حردا أو حرودا : إذا تنحى عن قومه ونزل منفردا عنهم ولم يخالطهم ، وبه

---

(١) فى المطبوعة : « المحلة » وهو تحريف ، وفى القرطبى : « المغلة » بمعنى ذات الغلة أو التى يجرى الماء فى غللها، أى فى أصولها .

(٢) الأساود : جمع أسود ، وهو اسم للحية .

قال الأصمعى وغيره . وقال الأزهرى : حرد :اسم قريتهم ، وقال السدّى : اسم جنتهم ، قرأ الجمهور :﴿ **حرد** ﴾ بسكون الراء ، وقرأ أبو العالية وابن السميفع بفتحها ، وانتصاب ﴿**قادرين**﴾ على الحال. قال الفراء : ومعنى ﴿ **قادرين** ﴾ : قد قدروا أمرهم وبنوا عليه ، وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم . وقال الشعبى : يعنى : قادرين على المساكين . ﴿**فلما رأوها** ﴾ أى لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت ما فيها ﴿ **قالوا إنا لـضالون** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه . ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أى حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول . وقيل : معنى قولهم : ﴿**إنا لـضالون** ﴾ : أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم .

﴿ **قال أوسطهم** ﴾ أى أمثلهم وأعقلهم وخيرهم ﴿ **ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾ أى هلا تسبحون ، يعنى: تستثنون . وسمى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدلّ على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحا . قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عزّ وجل، فجعل التسبيح فى موضع إن شاء الله . وقيل : المعنى : هلا تستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التى عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالوا : ﴿**سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذى فعلناه . وقيل: معنى تسبيحهم : الاستغفار ، أى نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا فى منعنا للمساكين .

﴿ **فأقبل بعـضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى يلوم بعضهم بعضا فى منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالوا : ﴿ **يا ويلنا إنا كنا طاغين** ﴾ أى عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان : أى طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا : ﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها** ﴾ لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عزّ وجل أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم . قيل : إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا : إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعنّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها . قرأ الجمهور : ﴿ **يبدلنا** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل :تغيير ذات الشىء ، أو تغيير صفته ، والإبدال : رفع الشىء جملة ووضع آخر مكانه، كما مضى فى سورة سبأ ﴿ **إنا إلى ربنا راغبون** ﴾ أى طالبون فيه الخير راجون لعفوه راجعون إليه ، وعدى بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو فى ؛ لتضمينه معنى الرجوع . ﴿ **كذلك**

العذاب ﴾ أى مثل ذلك العذاب الذى بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ، والعذاب مبتدأ مؤخر و ﴿ كذلك ﴾ خبره ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى أشد وأعظم لوكان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال : هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين ، فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين فـ ﴿ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ وألا يطعموا مسكينا . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ فطاف عليها طائف ﴾ قال : أمر من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له »، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ﴾ « قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله :﴿ كالصريم ﴾ قال : مثل الليل الأسود . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ وهم يتخافتون ﴾ قال : الإسرار والكلام الخفىّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ على حرد قادرين﴾ يقول : ذو قدرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ إنا لضالون ﴾ قال: أضللنا مكان جنتنا . وأخرجا عنه أيضا ﴿قال أوسطهم ﴾ قال : أعدلهم .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

(٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار ، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ، ذكر حال المتقين وما أعدّه لهم من الخير ، فقال : ﴿ **إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم** ﴾ أى المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصى عنده عزّ وجل فى الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذى لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**﴾ الاستفهام للإنكار ، وكان صناديد كفار قريش يرون وفورحظهم فى الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فلما سمعوا بذكر الآخرة ، وما يعطى الله المسلمين فيها قالوا : إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا، فقال الله مكذبا لهم رادّا عليهم : ﴿ **أفنجعل المسلمين**﴾ الآية ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، ثم وبخهم الله، فقال : ﴿**ما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿ **أم لكم كتاب فيه تدرسون**﴾ أى تقرؤون فيه فتجدون المطيع كالعاصى ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أم لكـم سلطـان مبـين . فأتوا بكتابكم ﴾ [الصافات : ٥٦ ، ٥٧] ، ثم قال سبحانه : ﴿ **إنّ لكم فيه لما تخيرون** ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون، أى تدرسون فى الكتاب ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون** ﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله : علمت إنك لعاقل بالكسر ، أو على الحكاية للمدروس ، كما فى قوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ﴾ [الصافات : ٧٨ ، ٧٩] وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **تدرسون** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون** ﴾ أى لكم ذلك ، وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك : «**أن لكم** » بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التوكيد، ومعنى ﴿**تخيرون** ﴾ : تختارون وتشتهون .

ثم زاد سبحانه فى التوبيخ فقال : ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة** ﴾ أى عهود مؤكدة موثقة متناهية ، والمعنى : أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها فى أن يدخلكم الجنة ، وقوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ متعلق بالمقدر فى ﴿**لكم**﴾ أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، وجواب القسم قوله : ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ لأن معنى ﴿**أم لكم أيمان** ﴾ أى أم أقسمنا لكم . قال الرازى : والمعنى : أم ضمنا لكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ أى ليس الأمر كذلك . قرأ الجمهور : ﴿ **بالغة** ﴾ بالرفع على النعت لأيمان ، وقرأ الحسن وزيد بن علىّ بنصبها على الحال من أيمان ؛ لأنها قد تخصصت بالوصف ، أو من الضمير فى لكم أو من الضمير فى علينا . ﴿ **سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ أى سل يا محمد الكفار موبخا لهم ومقرّعا أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم فى الآخرة

ما للمسلمين فيها . وقال ابن كيسان : الزعيم هنا : القائم بالحجة والدعوى . وقال الحسن : الزعيم :الرسول .

﴿ أم لهم شركاء ﴾ يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم فيه **﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾** فيما يقولون وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف . وقيل : المعنى : أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة. **﴿يوم يكشف عن ساق ﴾** يوم ظرف لقوله : **﴿فليأتوا ﴾** أى فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ، ويجوز أنّ يكون ظرفا لفعلٍ مقدّر ، أى اذكر يوم يكشف . قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله : **﴿ عن ساق ﴾** عن شدّة من الأمر . قال ابن قتيبة : أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمر عن ساقه ، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدة . وأنشد لدريد بن الصمة :

كميش [1] الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد

وقال : وتأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق ، قال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل : كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه من وقع فى شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدّة ، وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب فى أشعارها، ومن ذلك قول الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول آخر :

والخيل تعدو عند وقت الإشراق وقامت الحرب بنا على ساق

وقول آخر أيضا :

قد كشفت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

وقول آخر أيضا فى سنة :

قد كشفت عن ساقها حمرا ء تبرى اللحم عن عراقها

وقيل : ساق الشيء : أصله وقوامه كساق الشجرة وساق الإنسان ، أى يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه . وقيل : يكشف عن ساق جهنم . وقيل : عن ساق العرش . وقيل: هو عبارة عن القرب . وقيل : يكشف الرب سبحانه عن نوره ، وسيأتى فى آخر البحث ما هو الحق ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، قرأ الجمهور : **﴿يكشف ﴾** بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن أبى عبلة : « تكشف » بالفوقية مبنيا للفاعل، أى الشدّة أو الساعة ، وقرئ بالفوقية مبنيا للمفعول ، وقرئ بالنون ، وقرئ بالفوقية المضمومة

---

(١) الكميش : الماضى العزوم السريع فى أموره .

وكسر الشين من أكشف الأمر ، أى دخل فى الكشف ﴿**ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون**﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ؛ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود ، قال الربيع بن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله فى الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله فى الدنيا ، وانتصاب ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ على الحال من ضمير يدعون ، وأبصارهم مرتفع به على الفاعلية ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار ، وهو الخضوع والذلة ؛ لظهور أثره فيها ﴿**ترهقهم ذلة**﴾ أى تغشاهم ذلة شديدة وحسرة وندامة ﴿**وقد كانوا يدعون إلى السجود**﴾ أى فى الدنيا ﴿**وهم سالمون**﴾ أى معافون عن العلل متمكنون من الفعل ، قال إبراهيم التيمى : يدعون بالأذان والإقامة فيأبون . وقال سعيد بن جبير : يسمعون حىّ على الفلاح فلا يجيبون . قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات . وقيل : يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون ، وجملة : ﴿**وهم سالمون**﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون .

﴿**فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث**﴾ أى خل بينى وبينه وكل أمره إلى فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه: لا يشتغل به قلبك ، كله إلى فأنا أكفيك أمره ، والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها ، و « من » منصوب بالعطف على ضمير المتكلم ، أو على أنه مفعول معه، والمراد بهذا الحديث :القرآن ، قاله السدّى ، وقيل : يوم القيامة ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وجملة : ﴿**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله : ﴿**ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث**﴾ ، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها، والمعنى : سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج ؛ لأنهم يظنونه إنعاما ولا يفكرون فى عاقبته ، وما سيلقون فى نهايته . قال سفيان الثورى : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر ، وقال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، والاستدراج : ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال : استدرج فلان فلانا ، أى استخرج ما عنده قليلا قليلا ، ويقال : درّجه إلى كذا واستدرجه يعنى : أدناه إلى التدريج فتدرج هو.

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال : ﴿**وأملى لهم**﴾ أى أمهلهم ليزدادوا إثما ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف والطور. وأصل الملاوة : المدّة من الدهر ، يقال : أملى الله له ، أى أطال له المدّة ، والملا : مقصور الأرض الواسعة ، سميت به ، لامتدادها ﴿**إن كيدى متين**﴾ أى قوىّ شديد فلا يفوتنى شىء ، وسمى سبحانه إحسانه كيدا كما سماه استدراجا ، لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته ، ووصفه بالمتانة لقوّة أثره فى التسبب للهلاك ﴿**أم تسألهم أجرا**﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله : ﴿**أم لهم شركاء**﴾ أى أم

تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ المغرم : الغرامة ، أى فهم من غرامة ذلك الأجر ، ومثقلون ، أى يثقل عليهم حمله لِشُحِهِمْ ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم ، والمعنى : أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أى اللوح المحفوظ ، أو كل ما غاب عنهم ، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله .

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أى لقضائه الذى قد قضاه فى سابق علمه ، قيل : والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله ﷺ عليهم . وقيل : هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة . وقيل : وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعنى : يونس عليه السلام ، أى لا تكن مثله فى الغضب والضجر والعجلة والظرف فى قوله :﴿ إذ نادى ﴾ منصوب بمضاف محذوف ، أى لا تكن حالك كحاله وقت ندائه ، وجملة : ﴿ وهو مكظوم ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل نادى ، والمكظوم : المملوء غيظا وكربا . قال قتادة : إن الله يعزّى نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] وقيل : إن المكظوم : المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ، قاله المبرّد . وقيل : هو المحبوس ، والأول أولى ، ومنه قول ذى الرّمة :

وأنت من حبّ مىّ مضمر حزنا عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ أى لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله وهى توفيقه للتوبة فتاب الله عليه ﴿ لنبذ بالعراء ﴾ أى لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات ﴿ وهو مذموم ﴾ أى يذم ويلام بالذنب الذى أذنبه ويطرد من الرحمة ، والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبذ . قال الضحاك : النعمة هنا : النبوّة . وقال سعيد بن جبير : عبادته التى سلفت ، وقال ابن زيد : هى نداؤه بقوله : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . وقيل : مذموم : مبعد . وقيل : مذنب. قرأ الجمهور : ﴿تداركه ﴾ على صيغة الماضى ، وقرأ الحسن وابن هرمز والأعمش بتشديد الدال ، والأصل : تتداركه بتاءين مضارعا فأدغم ، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية ، وقرأ أبى وابن مسعود وابن عباس : «تداركته » بتاء التأنيث . ﴿ فاجتباه ربه ﴾ أى استخلصه واصطفاه واختاره للنبوة ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أى الكاملين فى الصلاح وعصمه من الذنب . وقيل : ردّ إليه النبوة وشفعه فى نفسه وفى قومه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم .

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ « إن » هي المخففة من الثقيلة ، قرأ الجمهور :﴿ليزلقونك﴾ بضم الياء من أزلقه، أى أزل رجله ، يقال : أزلقه عن موضعه: إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه : إذا تنحى . قال الهروى : أى فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ومجاهد وأبو وائل : « ليرهقونك » أى يهلكونك . وقال الكلبى : ﴿يزلقونك ﴾ أى يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، وكذا قال السدّى وسعيد بن جبير ، وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك . وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك. قال الزجاج : فى الآية مذهب أهل اللغة ، والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك ، وهذا مستعمل فى الكلام ، يقول القائل : نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى ، ونظرا يكاد يأكلنى . قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، كما قال الشاعر:

يتعارضون إذا التقوا فى مجلس نظرا يزيل مواطن الأقدام

﴿ لما سمعوا الذكر﴾ أى وقت سماعهم للقرآن ؛ لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة، ولما ظرفية منصوبة بـ﴿يزلقونك ﴾ . وقيل : هى حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿ويقولون إنه لمجنون ﴾ أى ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون ، أى والحال أنه تذكير وبيان لجميع مايحتاجون إليه ، أو شرف لهم كما قال سبحانه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] . وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ وأنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين وغيرهما، وله ألفاظ فى بعضها طول ، وهو حديث مشهور معروف [١] . وأخرج ابن منده عن أبى هريرة فى الآية قال : يكشف الله عزّ وجل عن ساقه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منده عن ابن مسعود فى الآية قال : يكشف عن ساقه تبارك وتعالى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات وضعفه ، وابن عساكر عن أبى موسى عن النبىّ ﷺ فى الآية قال : « عن نور عظيم فيخرّون له سجدا»[٢] . وأخرج

(١) أحمد ٣/ ١٦ ، ١٧ والبخارى فى التفسير (٤٩١٩) ومسلم فى الإيمان (١٨٣ / ٣٠٢) والدارمى ٢/ ٣٢٦ .
(٢) أبو يعلى (٧٢٨٣) وابن جرير ٢٩/ ٢٧ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٨٣ وإسناده ضعيف ، وقال ابن كثير ٧/ ٩١ : « فيه رجل مبهم».

الفريابى وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقى عن إبراهيم النخعى عن ابن عباس فى الآية قال: يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت على ساق . قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ، ويقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله :﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ قال : إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس : هذا يوم كرب شديد . روى عنه نحو هذا من طرق أخرى . وقد أغنانا الله سبحانه فى تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت ، وذلك لا يستلزم تجسيما ولا تشبيها فليس كمثله شىء.

دعوا كل قول عند قول محمد فمـا آمن فى دينه كمـــخاطر

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون**﴾ قال : هم الكفار يدعون فى الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿**ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ قال : ينفذونك بأبصارهم .

تفسير سورة الحاقة

هى إحدى وخمسون آية . وقيل : اثنتان وخمسون . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحاقة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبرانى عن أبى برزة أن النبىّ ﷺ كان يقرأ فى الفجر بالحاقة ونحوها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ ﴾ .

قوله : ﴿ الحاقة ﴾ هى القيامة ؛ لأن الأمر يحق فيها ، وهى تحق فى نفسها من غير شك. قال الأزهرى : يقال : حاققته فحققته أحقه :غالبته فغلبته أغلبه ، فالقيامة حاقة ؛ لأنها تحاق كل محاق فى دين الله بالباطل وتخصم كل مخاصم. وقال فى الصحاح : حاقه ، أى خاصمه فى صغار الأشياء ، ويقال : ما له فيها حقّ ولا حقائق ولا خصومة ، والتحاق : التخاصم ، والحاقة والحقة والحقّ ثلاث لغات بمعنى ، قال الواحدى : هى القيامة فى قول كل المفسرين ، وسميت بذلك ؛ لأنها ذات الحواقّ من الأمور ، وهى الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود . قال الكسائى والمؤرج : الحاقة : يوم الحق. وقيل : سميت بذلك ؛ لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل : سميت بذلك ؛ لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وهى مبتدأ وخبرها قوله :﴿ ما الحاقة﴾ على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمعنى: أىّ

(١) القرطبى ١٠/ ٦٧٣٥ .

شىء هى فى حالها أو صفاتها . وقيل : إن ما الاستفهامية خبر لما بعدها ، وهذه الجملة وإن كان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم والتفخيم لشأنها كما تقول : زيد ما زيد ، وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى فى سورة الواقعة .

ثم زاد سبحانه فى تفخيم أمرها وتفظيع شأنها وتهويل حالها فقال : ﴿ **وما أدراك ما الحاقة**﴾ أى أىّ شىء أعلمك ما هى ؟ أى كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين . قال يحيى بن سلام : بلغنى أن كل شىء فى القرآن وما أدراك ، فقد أدراه إياه وعلمه ، وكلّ شىء قال فيه: وما يدريك ، فإنه ما أخبره به ، وما مبتدأ ، وخبره أدراك ، و ﴿ **ما الحاقة** ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض ؛ لأن أدرى يتعدّى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ [يونس: ١٦] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى موضع المفعول الثانى ، وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا ، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين ، وجملة : ﴿ **وما أدراك** ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ **ما الحاقة** ﴾ . ﴿ **كذبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ أى بالقيامة ، وسميت بذلك ؛ لأنها تقرع الناس بأهوالها ، وقال المبرّد : عنى بالقارعة : القرآن الذى نزل فى الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوفونهم بذلك فيكذبونهم. وقيل: القارعة: مأخوذة من القرعة ؛ لأنها ترفع أقواما وتحط آخرين ، والأوّل أولى . ويكون وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة حالها ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة .

﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** ﴾ ثمود : هم قوم صالح ، وقد تقدّم بيان هذا فى غير موضع وبيان منازلهم وأين كانت ، والطاغية : الصيحة التى جاوزت الحدّ ، وقيل : بطغيانهم وكفرهم ، وأصل الطغيان : مجاوزة الحدّ . ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر** ﴾ عاد : هم قوم هود ، وقد تقدّم بيان هذا ، وذكر منازلهم ، وأين كانت فى غير موضع ، والريح الصرصر : هى الشديدة البرد ، مأخوذ من الصرّ وهو البرد . وقيل : هى الشديدة الصوت ، وقال مجاهد: الشديدة السموم ، والعاتية :التى عتت عن الطاعة ، فكأنها عتت على خزانها ، فلم تطعهم ولم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها ، أو عتت على عـاد ، فلـم يقـدروا على ردّها ، بل أهلكتهم . ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ومعنى ﴿**سخرها** ﴾ : سلطها ، كذا قال مقاتل . وقيل : أرسلها . وقال الزجاج : أقامها عليهم كما شاء ، والتسخير : استعمال الشىء بالاقتدار ، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح ، وأن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة ، أو من الضمير فى عاتية ﴿ **وثمانية أيام** ﴾ معطوف على ﴿**سبع ليال** ﴾ وانتصاب ﴿ **حسوما** ﴾ على الحال ، أى ذات حسوم ، أو على المصدر بفعل مقدّر، أى تحسمهم حسوما ، أو على أنه مفعول به ، والحسوم : التتابع ، فإذا تتابع الشىء ولم ينقطع أوله عن آخره قيل له : الحسوم . قال الزجاج : الذى توجبه اللغة فى معنى قوله :

﴿حسوما﴾ أى تحسمهم حسوما تفنيهم وتذهبهم . قال النضر بن شميل : حسمتهم : قطعتهم وأهلكتهم ، وقال الفراء : الحسوم : الأتباع، من حسم الداء وهو الكىّ؛ لأن صاحبه يكوى بالمكواة ، ثم يتابع ذلك عليه ، ومنه قول أبى دؤاد :

يفــرق بينهم زمن طويــل ... تتابـع فيـه أعــوام حسوم

وقال المبرد : هو من قولك حسمت الشىء : إذا قطعته وفصلته عن غيره . وقيل : الحسم: الاستئصال ، ويقال للسيف: حسام ؛ لأنه يحسم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته ، والمعنى : أنها حسمتهم ، أى قطعتهم وأذهبتهم ومنه قول الشاعر :

فأرسلت ريحا دبورا عقيمــا ... فدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد : أى حسمتهم فلم تبق منهم أحدا ، وروى عنه أنه قال : حسمت الأيام والليالى حتى استوفتها؛ لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوّل يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم . وقال الليث : الحسوم : هى الشؤم، أى تحسم الخير عن أهلها ، كقوله : ﴿ فى أيام نحسات ﴾ [فصلت : ١٦] . واختلف فى أولها. فقيل : غداة الأحد . وقيل : غداة الجمعة. وقيل :غداة الأربعاء . قال وهب : وهذه الأيام هى التى تسميها العرب أيام العجوز، كان فيها برد شديد وريح شديــدة ، وكان أوّلهـا يــوم الأربعاء ، وآخرها يوم الأربعاء ﴿ فترى القوم فيها صرعى ﴾ الخطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك ، والضمير فى : ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الليالى والأيام . وقيل : إلى مهاب الريح ، والأوّل أولى . وصرعى : جمع صريع ، يعنى : موتى ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أى أصول نخل ساقطة أو باليـة . وقيل : خـالية لا جوف فيها ، والنخل يذكـر ويـؤنث ، ومثله قوله : ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] وقد تقدّم تفسيره وهو إخبار عن عظم أجسامهم، قال يحيى بن سلام : إنما قال خاوية؛ لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ أى من فرقة باقية ، أو من نفس باقية ، أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية ، قال ابن جريج : أقاموا سبع ليالى وثمانية أيام أحياء فى عذاب الريح فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر .

﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أى من الأمم الكافرة . قرأ الجمهور: ﴿ قبله ﴾ بفتح القاف وسكون الباء ، أى ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية ، وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر القاف وفتح الباء ، أى ومن هو فى جهته من أتباعه واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود وأبىّ ومن معه ، ولقراءة أبى موسى ومن يلقاه : ﴿والمؤتفكات﴾ قرأ الجمهور : ﴿ المؤتفكات ﴾ بالجمع وهى قرى قوم لوط ، وقرأ الحسن والجحدرى : «المؤتفكة » بالإفراد ، واللام للجنس، فهى فى معنى الجمع ، والمعنى : وجاءت المؤتفكات ﴿ بالخاطئة ﴾ أى بالفعلة الخاطئة ، أو الخطأ على أنها مصدر ، والمراد: أنها جاءت بالشرك والمعاصى. قال

مجاهد : بالخطايا ، وقال الجرجانى : بالخطأ العظيم . ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ أى فعصت كلّ أمة رسولها المرسل إليها . قال الكلبى : هو موسى . وقيل : لوط لأنه أقرب . قيل : ورسول هنا بمعنى ، رسالة ومنه قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ... بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ أى أخذهم اللّه أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم ، والمعنى : أنها بالغة فى الشدة إلى الغاية ، يقال : ربى الشىء يربو : إذا زاد وتضاعف . قال الزجاج : تزيد على الأخذات ، قال مجاهد : شديدة . ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أى تجاوز حدّه فى الارتفاع والعلوّ ، وذلك فى زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر وكذبوه . وقيل : طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه . قال قتادة : زاد على كل شىء خمسة عشر ذراعا ﴿حملناكم فى الجارية ﴾ أى فى أصلاب آبائكم ، أو حملناهم وحملناكم فى أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين ، والجارية: سفينة نوح ، وسميت جارية؛ لأنها تجرى فى الماء ، ومحل ﴿فى الجارية ﴾ النصب على الحال ، أى رفعناكم فوق الماء حال كونكم فى السفينة ، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم وذكر ما حلّ بهم من العذاب زجر هذه الأمة من الاقتداء بهم فى معصية الرسول قال : ﴿لنجعلها لكم تذكرة ﴾ أى لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة اللّه وبديع صنعه ،أو لنجعل هذه الفعلة التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أى تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت . قال الزجاج : يقال : أوعيت كذا ، أى حفظته فى نفسى أعيه وعيا ، ووعيت العلم ووعيت ما قلته كله بمعنى . وأوعيت المتاع فى الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته فى غير نفسك :أوعيته بالألف ، ولما حفظته فى نفسك وعيته بغير ألف . قال قتادة فى تفسير الآية : أذن سمعت وعقلت ما سمعت . قال الفراء : المعنى : لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتى بعد ، قرأ الجمهور : ﴿ تعيها ﴾ بكسر العين ، وقرأ طلحة بن مصرّف وحميد الأعرج وأبو عمرو فى رواية عنه بإسكان العين تشبيها لهذه الكلمة برحم وشهد، وإن لم تكن من ذلك . قال الرازى : وروى عن ابن كثير إسكان العين ، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة فخفف وأسكن لما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف . انتهى . والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف كما فى قراءة من قرأ : ﴿ وما يشعركم ﴾ [الأنعام : ١٠٩] بسكون الراء . قال القرطبى : واختلفت القراءة فيها عن عاصم وابن كثير : يعنى : تعيها [١] .

﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ﴾ هذا شروع فى بيان الحاقة وكيف وقوعها بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين . قال عطاء : يريد : النفخة الأولى . وقال الكلبى ومقاتل : يريد :

(١) القرطبى : ١٠/ ٧٦٤٢ .

النفخة الأخيرة . قرأ الجمهور : ﴿ **نفخة واحدة**﴾ بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة ، و﴿ **واحدة** ﴾ تأكيد لها ، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل، وقرأ أبو السماك بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور . قال الزجاج : قوله : ﴿ **فى الصور** ﴾ يقوم مقام ما لم يسم فاعله ﴿ **وحملت الأرض والجبال**﴾ أى رفعت من أماكنها وقلعت عن مقارّها بالقدرة الإلهية ، قرأ الجمهور : ﴿**حملت**﴾ بتخفيف الميم ، وقرأ الأعمش وابن أبى عبلة وابن مقسم وابن عامر فى رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية ﴿ **فدكتا دكة واحدة** ﴾ أى فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها ، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيبا مهيلا وهباء منبثا ، قال الفراء : ولم يقل : فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ، ومثله قوله تعالى :﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ [الأنبياء : ٣٠] وقيل : دكتا :بسطتا بسطة واحدة ، ومنه : اندك سنام البعير : إذا انفرش على ظهره . ﴿**فيومئذ وقعت الواقعة** ﴾ أى قامت القيامة . ﴿**وانشقت السماء فهى يومئذ واهية** ﴾ أى انشقت بنزول ما فيها من الملائكة فهى فى ذلك اليوم ضعيفة مسترخية . قال الزجاج : يقال لكل ما ضعف جداً : قد وهى فهو واه ، وقال الفراء : وهيها : تشققها .

﴿ **والملك على أرجائها** ﴾ أى جنس الملك على أطرافها وجوانبها ، وهى جمع رجى مقصور وتثنيته رجوان مثل قفا وقفوان ، والمعنى : أنها لما تشققت السماء ، وهى مساكنهم لجؤوا إلى أطرافها ، قال الضحاك : إذا كان يوم القيامة أمر اللّه السماء الدنيا فتشققت ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ فينزلون إلى الأرض ويحيطون بالأرض ومن عليها . وقال سعيد بن جبير : المعنى : والملك على حافات الدنيا ، أى ينزلون إلى الأرض . وقيل : إذا صارت السماء قطعا يقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشققة فى أنفسها ﴿**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ أى يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك . وقيل : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا اللّه عزّ وجل . وقيل : ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة ، قاله الكلبى وغيره . ﴿ **يومئذ تعرضون** ﴾ أى تعرض العباد على اللّه لحسابهم ، ومثله : ﴿ وعرضوا على ربك صفا﴾ [الكهف : ٤٨] وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به ، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال ، وجملة : ﴿ **لا تخفى منكم خافية** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير تعرضون ، أى تعرضون حال كونه لا يخفى على اللّه سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم خافية كائنة ما كانت ، والتقدير أىّ نفس خافية أو فعلة خافية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **الحاقة** ﴾ من أسماء القيامة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عنه قال : ما أرسل اللّه شيئا من ريح إلا بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد ، فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم

يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ : ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ، ثم قرأ : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ . وأخرج ابن جرير عن علىّ ابن أبى طالب نحوه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال : «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر مرفوعا : قال : « ما أمر الخزّان على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح ، فعتت على الخزّان فخرجت من نواحى الأبواب » فذلك قوله : ﴿بريح صرصر عاتية ﴾ قال : « عتوها عتت على الخزّان». وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال: الغالبة.

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ حسوما ﴾ قال : متتابعات . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿حسوما ﴾ قال : تباعا ، وفى لفظ متتابعات . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ قال: هى أصولها ، وفى قوله : ﴿ خاوية ﴾ قال : خربة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أيضا فى قوله: ﴿إنا لما طغى الماء ﴾ قال : طغى على خزانه فنزل ، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية من طريق مكحول عن علىّ ابن أبى طالب فى قوله : ﴿وتعيها أذن واعية ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت الله أن يجعلها أذنك يا علىّ » ، فقال على : ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئا فنسيته . قال ابن كثير : وهو حديث مرسل (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والواحدى وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ لعلىّ : « إن الله أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ، وأن تعى ، وحقّ لك أن تعى »، فنزلت هذه الآية : ﴿وتعيها أذن واعية ﴾ « فأنت أذن واعية ، ياعلى » (٣) . قال ابن كثير: ولا يصح (٤). وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله :﴿ أذن واعية﴾ قال : أذن عقلت عن الله .

وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى البعث عن أبىّ بن كعب فى قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ قال : تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين ، وذلك قوله : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة ﴾ [عبس : ٤٠ ، ٤١] . وأخرج

---

(١) أحمد ١/٢٢٨، ٣٢٤ والبخارى فى الاستسقاء (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى الأنبياء (٣٣٤٣) ومسلم فى الاستسقاء (٩٠٠/١٧).

(٢) ابن كثير ١٠٢/٧ .

(٣) فى المخطوطة : «لعلى » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٤) ابن جرير ٣٦/٢٩ .

ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فهى يومئذ واهية** ﴾ قال: متخرقة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **والملك على أرجائها** ﴾ قال : على حافاتها على ما لم يه منها . وأخرج عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمى فى الردّ على الجهمية ، وأبو يعلى وابن المنذر وابن خزيمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب فى تالى التلخيص عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ قال : ثمانية أملاك على صورة الأوعال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا من طرق فى الآية قال : يقال : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، ويقال : ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش فى السماء السابعة وأقدامهم فى الأرض السفلى ، ولهم قرون كقرون الوعلة ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله »[١] . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود نحوه .

﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)** ﴾ .

---

(١) أحمد ٤/ ٤١٤ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٥) وقال : « ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى موسى » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٧٧) وفى الزوائد :« رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع » .

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه ، فقال : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾ أى أعطى كتابه الذى كتبته الحفظة عليه من أعماله ﴿ **فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه** ﴾ يقول ذلك سرورا وابتهاجا . قال ابن السكيت والكسائى : العرب تقول : ها يا رجل ، وللاثنين هاؤما يا رجلان، وللجمع هاؤم يا رجال ، قيل : والأصل هاؤكم ، فأبدلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد : ومعنى ﴿ **هاؤم** ﴾ : تعالوا . وقال مقاتل : هلم . وقيل : خذوا ، والذى صرح به النحاة : أنها بمعنى خذ ، يقول ها بمعنى خذ ، وهاؤما بمعنى خذا ، وهاؤم بمعنى خذوا ، فهى اسم فعل ، وقد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم الإعراب ، وقوله : ﴿ **كتابيه** ﴾ معمول لقوله : ﴿**اقرؤوا** ﴾ لأنه أقرب الفعلين ، ومعمول ﴿ **هاؤم**﴾ محذوف يدل عليه معمول ﴿ **اقرؤوا** ﴾ والتقدير : هاؤم كتابيه اقرؤوا كتابيه ، والهاء فى كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه هى هاء السكت ، قرأ الجمهور فى هذه بإثبات الهاء وقفا ووصلا مطابقة لرسم المصحف ، ولولا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت ويوافق الخط ، يعنى خط المصحف . وقرأ ابن محيصن وابن أبى إسحاق وحميد ومجاهد والأعمش ويعقوب بحذفها وصلا وإثباتها وقفا فى جميع هذه الألفاظ ، ورويت هذه القراءة عن حمزة ، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعا للغة ، وروى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا ووقفا .

﴿ **إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾ أى علمت وأيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة . وقيل : المعنى : إنى ظننت أن يأخذنى الله بسيئاتى فقد تفضل علىّ بعفوه ولم يؤاخذنى . قال الضحاك : كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك ، قال مجاهد : ظنّ الآخرة يقين ، وظنّ الدنيا شك ، قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظنّ بربه ، فأحسن العمل للآخرة ، وإن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل ، قيل : والتعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدح فى الاعتقاد ما يهجس فى النفس من الخطرات التى لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبا ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾ أى فى عيشة مرضية لا مكروهة ، أو ذات رضى ، أى يرضى بها صاحبها . قال أبو عبيدة والفرّاء : راضية ، أى مرضية كقوله : ﴿**ماء دافق** ﴾ [الطارق : ٦] أى مدفوق فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها ، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد ﴿ **فى جنة عالية** ﴾ أى مرتفعة المكان لأنها فى السماء أو مرتفعة المنازل ، أو عظيمة فى النفوس . ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ القطوف : جمع قطف بكسر القاف ما يقطف من الثمار ، والقطف بالفتح المصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى : أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع . ﴿**كلوا واشربوا** ﴾ أى يقال لهم : كلوا واشربوا فى الجنة ﴿**هنيئا**﴾ أى أكلا وشربا هنيئا لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ **بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ أى بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا . وقال مجاهد : هى أيام الصيام .

﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول** ﴾ حزنا وكرباً لما رأى فيه من سيئاته ﴿ **ياليتنى لم أوت كتابيه** ﴾ أى لم أعط كتابيه ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾ أى لم أدر أىّ شىء حسابى : لأن كله عليه . ﴿ **ياليتها كانت القاضية** ﴾ أى ليت الموتة التى متها كانت القاضية ، ولم أحى بعدها، ومعنى : القاضية : القاطعة للحياة ، والمعنى : أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله ، وما يصير إليه من العذاب ، فالضمير فى ليتها يعود إلى الموتة التى قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة لأنها لظهورها كانت كالمذكورة . قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا شىء عنده أكره منه ، وشرّ من الموت ما يطلب منه الموت . وقيل : الضمير يعود إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت علىّ . ﴿ **ما أغنى عنى ماليه** ﴾ أى لم يدفع عنى من عذاب اللّه شيئا على أن « ما » نافية أو استفهامية ، والمعنى : أىّ شىء أغنى عنى مالى . ﴿ **هلك عنى سلطانيه** ﴾ أى هلكت عنى حجتى ، وضلت عنى ، كذا قال مجاهد وعكرمة والسدّى والضحاك ، وقال ابن زيد : يعنى : سلطانى الذى فى الدنيا ، وهو الملك . وقيل : تسلطى على جوارحى ، قال مقاتل : يعنى : حين شهدت عليه الجوارح بالشرك ، وحينئذ يقول اللّه عزّ وجلّ : ﴿ **خذوه فغلوه** ﴾ أى اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال . ﴿ **ثم الجحيم صلوه** ﴾ أى أدخلوه الجحيم ، والمعنى : لا تصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظيمة ﴿ **ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه** ﴾ السلسلة :حلق منتظمة ، وذرعها : طولها . قال الحسن : اللّه أعلم بأىّ ذراع هو . قال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان نوف فى رحبة الكوفة. قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿ **فاسلكوه** ﴾: فاجعلوه فيها ، يقال : سلكته الطريق : إذا أدخلته فيه ، قال سفيان : بلغنا أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فيه ، قال الكلبى : تسلك سلك الخيط فى اللؤلؤ ، وقال سويد ابن أبى نجيح : بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة ، وتقديم السلسلة؛ للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم ، وجملة : ﴿ **إنه كان لا يؤمن باللّه العظيم** ﴾ تعليل لما قبلها . ﴿ **ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ أى لا يحث على إطعام المسكين من ماله ، أو لا يحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء ، كما قال الشاعر :

أكفرا بعد ردّ الموت عنى ... وبعد عطائك المال الرعايا

أى بعد إعطائك ، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر ، والمعنى : أنه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين ، وفى جعل هذا قرينا ؛ لترك الإيمان باللّه من الترغيب فى التصدّق على المساكين وسدّ فاقتهم ، وحث النفس والناس على ذلك ما يدلّ أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم.وأشدّ المآثم . ﴿ **فليس له اليوم ها هنا حميم** ﴾ أى ليس له يوم القيامة فى الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له ؛

لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه . ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ أى وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار ، وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد ، وغسلين فعلين من الغسل . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار ، وقال قتادة : هو شر الطعام ، وقال ابن زيد : لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا اللّه تعالى، وقال سبحانه فى موضع آخر: ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية : ٦] فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فليس له اليوم ها هنا حميم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار . ﴿**ولا طعام** ﴾ أى ليس لهم طعام يأكلونه، ولا ملجئ لهذا التقديم والتأخير ، وجملة : ﴿ **لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾ صفة لغسلين ، والمراد : أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب . قال الكلبى : المراد : الشرك . قرأ الجمهور : ﴿**الخاطئون**﴾ مهموزا ، وهو اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمداً ، والمخطئ : من يفعله غير متعمد ، وقرأ الزهرى وطلحة بن مصرف والحسن : « الخاطيون » بياء مضمومة بدل الهمزة ، وقرأ نافع فى رواية عنه بضم الطاء بدون همزة .

﴿ **فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون** ﴾ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون و« لا» زائدة، والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه . قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، فيدخل فى هذا جميع المخلوقات . وقيل : إن « لا» ليست زائدة ، بل هى لنفى القسم ، أى لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ فى ذلك . والأوّل أولى . ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ أى إن القرآن لتلاوة رسول كريم ، على أن المراد بالرسول: محمد ﷺ ، أى إنه لقول يبلغه رسول كريم . قال الحسن والكلبى ومقاتل : يريد به جبريل ، دليله قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم. ذى قوّة عند ذى العرش مكين ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] وعلى كل حال فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ ، ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو قول اللّه، فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ . ﴿ **وما هو بقول شاعر** ﴾ كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها ﴿ **قليلا ما تؤمنون** ﴾ أى إيمانا قليلا تؤمنون وتصديقا يسيراً تصدقون ، و « ما » زائدة ﴿**ولا بقول كاهن** ﴾ كما تزعمون ، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿**قليلا ما تذكرون** ﴾ أى تذكرا قليلا ، أو زمانا قليلا تتذكرون ، و « ما » زائدة ، والقلة فى الموضعين بمعنى النفى، أى لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلا ﴿ **تنزيل من ربّ العالمين** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو تنزيل . وقرأ أبو السماك بالنصب على المصدرية بإضمار فعل ، أى نزل تنزيلا ، والمعنى : إنه لقول رسول كريم ، وهو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه .

﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل** ﴾ أى ولو تقوّل ذلك الرسول ، وهو محمد ، أو جبريل على ما تقدّم ، والتقوّل : تكلف القول ، والمعنى : لو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه ،

وسمي الافتراء تقوّلا لأنه قول متكلف ، وكل كاذب يتكلف ما يكذب به ، قرأ الجمهور : ﴿تقوّل﴾ مبنيا للفاعل . وقرئ مبنيا للمفعول مع رفع بعض . وقرأ ابن ذكوان : «ولو يقول» على صيغة المضارع ، والأقاويل جمع أقوال ، والأقوال جمع قول . ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أى بيده اليمنى، قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فى الأخذ بيد من يعاقب . قال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أى بالقوّة والقدرة . قال ابن قتيبة : وإنما أقام اليمين مقام القوّة ، لأن قوة كل شىء فى ميامنه ، ومن هذا قول الشاعر :

إذا مـا رايـة نـصبت لمجـد تلقـاها عـرابة باليـمين

وقول الآخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورهـا تناولت منها حاجتى بيمينى

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ الوتين : عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب ، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه . قال الواحدى : والمفسرون يقولون : إنه نياط القلب . انتهى . ومن هذا قول الشاعر :

إذا بلغتـنى وحملـت رحـلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أى ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه ، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ، ولا تقدرون على الدفع منه ، والحجز : المنع ﴿وحاجزين ﴾ صفة لأحد ، أو خبر لما الحجازية . ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ أى إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به . ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أى أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك ، وفى هذا وعيد شديد. ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ أى وإن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين . وقيل : هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ أى وإن القرآن لكونه من عند الله حقّ فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّق إليه شك . ﴿فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أى نزهه عما لا يليق به . وقيل : فصل لربك ، والأوّل أولى

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنى ظننت ﴾ قال : أيقنت . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن البراء بن عازب ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال : قريبة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن البراء فى الآية قال : يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فاسلكوه ﴾ قال : السلسلة تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ،

ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود ثم يشوى . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبى الدرداء قال : إن لله سلسلة لم تزل تغلى منها مراجل النار منذ خلق اللّه جهنم إلى يوم تلقى فى أعناق الناس ، وقد نجانا اللّه من نصفها بإيماننا باللّه العظيم، فحضى على طعام المسكين يا أمّ الدرداء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الغسلين :الدّم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم . وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبىّ ﷺ قال: « لو أن دلواً من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا »[1] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين : اسم طعام من أطعمة أهل النار . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون** ﴾ يقول : بما ترون وما لا ترون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾ قال: بقدرة .وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : ﴿ **الوتين** ﴾ عرق القلب . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عنه أيضا قال :﴿ **الوتين** ﴾ :نياط القلب . وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه أيضا قال : هو حبل القلب الذى فى الظهر .

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥٠١ ووافقه الذهبى .

تفسير سورة سأل سائل

ويقال : سورة المعارج . وهى أربع وأربعون آية . وهى مكية . قال القرطبى : باتفاق [١] .

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة سأل بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝١٨ ﴾ .

قوله : ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قرأ الجمهور : ﴿ سأل ﴾ بالهمزة . وقرأ نافع وابن عامر بغير همزة ، فمن همز فهو من السؤال وهى اللغة الفاشية ،وهو إما مضمن معنى الدعاء ، فلذلك عدّى بالباء ،كما تقول : دعوت لكذا ، والمعنى : دعا داع على نفسه بعذاب واقع ، ويجوز أن يكون على أصله والباء بمعنى عن ،كقوله : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ [الفرقان : ٥٩] ومن لم يهمز ، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفا ، فيكون معناها معنى قراءة من همز ، أو يكون من السيلان ، والمعنى : سال واد فى جهنم يقال له : سائل ،كما قال زيد بن ثابت ، ويؤيده قراءة ابن عباس : « سال سيل ». وقيل : إن سال بمعنى : التمس ، والمعنى: التمس ملتمس عذابا للكفار ، فتكون الباء زائدة كقوله : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : ٢٠] والوجه الأول هو الظاهر ، وقال الأخفش : يقال : خرجنا نسأل عن فلان وبفلان . قال أبو علىّ الفارسى: وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر ، وهذا السائل : هو النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال : ٣٢] وهو ممن قتل يوم بدر صبرا . وقيل : هو أبو جهل . وقيل : هو الحارث بن النعمان الفهرى ، والأوّل أولى لما سيأتى . وقرأ أبىّ وابن مسعود : « سال سال » مثل : مال مال

---

(١) القرطبى ٦٧٥٧/١٠ .

على أن الأصل سائل ، فحذفت العين تخفيفا ، كما قيل : شاك فى شائك السلاح . وقيل : السائل هو نوح عليه السلام ، سأل العذاب للكافرين ، وقيل : هو رسول الله ﷺ دعا بالعقاب عليهم ، وقوله : ﴿ بعذاب واقع ﴾ يعنى إما فى الدنيا كيوم بدر أو فى الآخرة .

وقوله : ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب ، أى كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع ، واللام للعلة ، أو يسأل على تضمينه معنى دعا ، أو فى محل رفع على تقدير : هو للكافرين ، أو تكون اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبىّ : « بعذاب واقع على الكافرين » . قال الفرّاء : التقدير : بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة : ﴿ ليس له دافع﴾ صفة أخرى لعذاب ، أو حال منه ، أو مستأنفة ، والمعنى : أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد ، وقوله : ﴿ من الله ﴾ متعلق بواقع ، أى واقع من جهته سبحانه ، أو بدافع ، أى ليس له دافع من جهته تعالى ﴿ ذى المعارج ﴾ أى ذى الدرجات التى تصعد فيها الملائكة ، وقال الكلبى : هى السموات ، وسماها معارج ؛ لأن الملائكة تعرج فيها . وقيل : المعارج : مراتب نعم الله سبحانه على الخلق . وقيل : المعارج : العظمة . وقيل : هى الغرف . وقرأ ابن مسعود : « ذى المعاريج » بزيادة الياء ، يقال : معارج ومعاريج مثل مفاتح ومفاتيح .

﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ أى تصعد فى تلك المعارج التى جعلها الله لهم ، وقرأ الجمهور : ﴿ تعرج ﴾ بالفوقية . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائى والسلمى بالتحتية ، والروح: جبريل ،أفرد بالذكر بعد الملائكة ؛ لشرفه ، ويؤيد هذا قوله:﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء : ١٩٣] وقيل : الروح هنا : ملك آخر عظيم غير جبريل . وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس وليسوا من الناس .وقال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ إليه ﴾ :أى إلى المكان الذى ينتهون إليه .وقيل : إلى عرشه . وقيل : هو كقول إبراهيم : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى ﴾ [الصافات : ٩٩] أى إلى حيث أمرنى ربى ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال ابن إسحاق والكلبى ووهب بن منبه : أى عرج الملائكة إلى المكان الذى هو محلها فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد ، وقال عكرمة : وروى عن مجاهد أن عمر الدنيا هذا المقدار لا يدرى أحدكم كم مضى ولا كم بقى ، ولا يعلم ذلك إلا الله ، وقال قتادة والكلبى ومحمد بن كعب : إن المراد :يوم القيامة ، يعنى : أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه فى ساعته . وقيل : إن مدّة موقف العباد للحساب هى هذا المقدار، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . وقيل : إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة ، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر . وقيل : ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها ، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره كما تصف العرب أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، ويشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة ، والطويل بظل الرمح ، ومنه قول الشاعر :

ويومٍ كظلِّ الرُّمْح قَصَّر طولَه دَمُ الزِّق عنّا واصطفاف المزَاهِر[١]

وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى ليس له دافع من الله ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه ، وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله فى سورة السجدة : ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ [السجدة : ٥] فارجع إليه . وقد قيل فى الجمع : إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة ؛ لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام ، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة ، وإن عرجوا من هذه الأرض التى نحن فيها إلى باطن هذه السماء التى هى سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة ،وسيأتى فى آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال : ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ أى اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرًا جميلا لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله ، وهذا معنى الصبر الجميل . وقيل : هو أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى بأنه مصاب ، قال ابن زيد وغيره : هى منسوخة بآية السيف ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ أى يرون العذاب الواقع بهم،أو يرون يوم القيامة بعيدًا ،أى غير كائن؛ لأنهم لا يؤمنون به،فمعنى ﴿بعيدًا﴾: أى مستبعدا محالا ، وليس المراد : أنهم يرونه بعيدًا غير قريب . قال الأعمش: يرون البعث بعيدا ؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة ،كما تقول لمن تناظره : هذا بعيد ، أى لا يكون . ﴿ونراه قريبا ﴾ أى نعلمه كائنا قريبا ؛ لأن ما هو آت قريب . وقيل : المعنى : ونراه هينا فى قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر .

ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ والظرف متعلق بمضمر دلّ عليه واقع ، أو بدل من قوله : ﴿ فى يوم ﴾ على تقدير تعلقه بواقع ، أو متعلق بقريبا ، أو مقدر بعده ، أى يوم تكون إلخ كان كيت وكيت، أو بدل من الضمير فى نراه ، والأوّل أولىَ . والتقدير يقع بهم العذاب ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ والمهل : ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة . وقال مجاهد : هو القيح من الصديد والدم . وقال عكرمة وغيره : هو درديّ الزيت ، وقد تقدّم تفسيره فى سورة الكهف والدخان . ﴿ وتكون الجبال كالعهن﴾ أى كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن ؛ إلا إذا كان مصبوغا . قال الحسن : تكون الجبال كالعهن ، وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف . وقيل : العهن: الصوف ذو الألوان ، فشبه الجبال به فى تكوّنها ألوانا ، كما فى قوله : ﴿ جدد بيض وحمر . . . وغرابيب سود ﴾ [فاطر : ٢٧] فإذا بست وطيرت فى الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

---

(١) الزق : وعاء من جلد، ويريد بدم الزق: الخمر، والمزاهر:العيدان، واصطفت المزاهر:جاوب بعضها بعضا .

﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ أى لا يسأل قريب قريبه عن شأنه فى ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التى أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله ، كما قال سبحانه : ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [عبس : ٣٧] . وقيل : المعنى: لا يسأل حميم عن حميم ، فحذف الحرف ووصل الفعل . قرأ الجمهور: ﴿ لا يسأل ﴾ مبنيا للفاعل . قيل : والمفعول الثانى محذوف والتقدير : لا يسأله نصره ولا شفاعته . وقرأ أبوجعفر وأبو حيوة وشيبة وابن كثير فى رواية عنه على البناء للمفعول ، وروى هذه القراءة البزىّ عن عاصم ، والمعنى : لا يسأل حميم إحضار حميمه . وقيل : هذه القراءة على إسقاط حرف الجرّ ، أى لا يسأل حميم عن حميم ، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وجملة : ﴿يبصرونهم﴾ مستأنفة ، أو صفة لقوله : ﴿حميما﴾ أى يبصر كلّ حميم حميمه ، لا يخفى منهم أحد عن أحد ، وليس فى القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه ، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضا ؛ لاشتغال كل أحد منهم بنفسه . وقال ابن زيد : يبصر الله الكفار فى النار الذين أضلوهم فى الدنيا وهم الرؤساء المتبوعون . وقيل : إن قوله : ﴿يبصرونهم﴾ يرجع إلى الملائكة ، أى يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم ، وإنما جمع الضمير فى يبصرونهم ، وهما للحميمين حملا على معنى العموم ؛ لأنهما نكرتان فى سياق النفى . قرأ الجمهور : ﴿يبصرونهم ﴾ بالتشديد ، وقرأ قتادة بالتخفيف .

ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال : ﴿ يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ﴾ المراد بالمجرم : الكافر ، أو كل مذنب ذنبا يستحق به النار ، لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الذى نزل به ﴿ببنيه . وصاحبته وأخيه ﴾ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يودّ الافتداء من العذاب بمن ذكر . قرأ الجمهور : ﴿ من عذاب يومئذ﴾بإضافة عذاب إلى يومئذ . وقرأ أبوحيوة بتنوين: « عذاب » وقطع الإضافة . وقرأ الجمهور : « يومئذ» بكسر الميم . وقرأ نافع والكسائى والأعرج وأبو حيوة بفتحها ﴿ وفصيلته التى تؤويه﴾ أى عشيرته الأقربين الذين يضمونه فى النسب ، أو عند الشدائد ، ويأوى إليهم . قال أبو عبيد : الفصيلة : دون القبيلة . وقال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون . قال المبرّد : الفصيلة : القطعة من أعضاء الجسد وسميت عشيرة الرجل فصيلة ؛ تشبيهاً لها بالبعض منه، وقال مالك: إن الفصيلة هى التى تربيه ﴿ ومن فى الأرض جميعا ﴾ أى ويودّ المجرم لو افتدى بمن فى الأرض جميعا من الثقلين وغيرهما من الخلائق.وقوله: ﴿ ثم ينجيه ﴾ معطوف على يفتدى ، أى يودّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء،وكان العطف بثم؛لدلالته على استبعاد النجاة .وقيل: إن يود تقتضى جوابا،كما فى قوله:﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم:٩] والجواب:﴿ثم ينجيه ﴾ والأوّل أولى.

وقوله: ﴿ كلا ﴾ ردع للمجرم عن تلك الودادة ،وبيان امتناع ما ودّه من الافتداء ،و« كلا » يأتى بمعنى حقا ، وبمعنى لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، والضمير فى قوله : ﴿ إنها

لظى ﴾ عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب ، أوهو ضمير مبهم يفسره ما بعده ، ولظى علم لجهنم ، واشتقاقها من التلظى فى النار وهو التلهب . وقيل : أصله لظظ بمعنى دوام العذاب ، فقلبت إحدى الظائين ألفا . وقيل : لظى : هى الدركة الثانية من طباق جهنم .

﴿**نزاعة للشوى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **نزاعة** ﴾ بالرفع على أنه خبر ثان لإنّ ، أوخبر مبتدأ محذوف ، أوتكون لظى بدلا من الضمير المنصوب ، ونزاعة خبر إنّ ، أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علما ، أو يكون الضمير فى إنها للقصة ، ويكون لظى مبتدأ ونزاعة خبره ، والجملة خبر إنّ ، وقرأ حفص عن عاصم وأبو عمرو فى رواية عنه وأبو حيوة والزعفرانى والترمذى وابن مقسم : « نزاعة» بالنصب على الحال . وقال أبو على الفارسى: حمله على الحال بعيد ؛ لأنه ليس فى الكلام ما يعمل فى الحال .وقيل : العامل فيها ما دلّ عليه الكلام من معنى التلظى ، أو النصب على الاختصاص ، والشوى : الأطراف ، أوجمع شواة ، وهى جلدة الرأس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ماله ... قد جُلِّلَتْ شيبا شَوَاتُه

وقال الحسن وثابت البنانى : ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ : أى لمكارم الوجه وحسنه ، وكذا قال أبو العالية وقتادة . وقال قتادة : تبرى اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئا . وقال الكسائى : هى المفاصل . وقال أبو صالح : هى أطراف اليدين والرجلين ﴿ **تدعومن أدبر** ﴾ أى تدعو لظى من أدبر عن الحقّ فى الدنيا ﴿**وتولى**﴾ أى أعرض عنه . ﴿ **وجمع فأوعى**﴾ أى جمع المال فجعله فى وعائه . قيل : إنها تقول: إلىّ يا مشرك ، إلىَّ يا منافق . وقيل : معنى ﴿ **تدعو** ﴾ : تهلك، تقول العرب : دعاك الله ، أى أهلكك . وقيل : ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من عذابهم . وقيل : المراد: أن خزنة جهنم تدعوا الكافرين والمنافقين فأسند الدعاء إلى النار ، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحلّ . وقيل: هو تمثيل وتخييل ، ولا دعاء فى الحقيقة ، والمعنى : أن مصيرهم إليها ، كما قال الشاعر :

ولقد هبطنا الواد بين قوادنا ... ندعو الأنيس به الغصيص الأبكم

والغصيص الأبكم : الذباب ، وهى لا تدعو ، وفى هذا ذمّ لمن جمع المال فأوعاه ، وكنزه ولم ينفقه فى سبل الخير ، أو لم يؤد زكاته .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد والنسائى وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿**سأل سائل** ﴾ قال : هو النضر بن الحارث قال : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال : ٣٢] (١). وفى قوله : ﴿ **بعذاب واقع** ﴾ قال : كائن ﴿ **للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج**﴾

---

(١) النسائى فى التفسير (٦٤٠) وإسناده حسن موقوف ، وصححه الحاكم ٥٠٢/٢ على شرط الشيخين ، والذهبى على شرط البخارى .

قال: ذى الدرجات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **سأل سائل** ﴾ قال: سال : واد فى جهنم. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ذى المعارج** ﴾ قال : ذى العلوّ والفواضل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة ، ويوم كان مقداره ألف سنة قال : يعنى بذلك : ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد . فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ،وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام . فذلك أربعة عشر ألف عام . وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله :﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله :﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾ [السجدة : ٥] قال : هذا فى الدنيا تعرج الملائكة فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ، وفى قوله: ﴿**فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : لو قدّرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم . قال: يعنى : يوم القيامة. وقد قدّمنا عن ابن عباس الوقف فى الجمع بين الآيتين فى سورة السجدة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى قال : قيل: يا رسول الله ﷺ ، يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » (١) . وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ، وهما ضعيفان . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة مرفوعا قال : ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله :﴿ **فاصبر صبرا جميلا** ﴾ قال : لا تشكو إلى أحد غيرى . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد وابن المنذر، والخطيب فى المتفق والمفترق ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله :﴿ **يوم تكون السماء كالمهل** ﴾ قال: كدردىّ الزيت . وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿**يبصرونهم** ﴾ يعرف بعضهم بعضا ويتعارفون ثم يفرّ بعضهم من بعض . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ قال : تنزع أمّ الرأس .

﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾**

(١) أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلى (١٣٩٠) وابن جرير ٢٩/ ٤٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٣٩ : « رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ما فيه من ضعف » .

إلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا** ﴾ قال فى الصحاح : الهلع فى اللغة : أشدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه . يقال : هلع بالكسر فهو هلع وهلوع على التكثير ، وقال عكرمة : هو الضجور . قال الواحدى : والمفسرون يقولون : تفسير الهلع ما بعده يعنى : قوله : ﴿ **إذا مسه الشرّ جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا** ﴾ أى إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو جزوع ، أى كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك . وقال أبو عبيدة : الهلوع : هو الذى إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشرّ لم يصبر . قال ثعلب : قد فسر الله الهلوع : هو الذى إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع ، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس ، والعرب تقول : ناقة هلوع وهلواع : إذا كانت سريعة السير خفيفته ، ومنه قول الشاعر :

شكاء ذعلبة إذا استدبرتها ... جرح إذا استقبلتها هلواع

والذعلبة : الناقة السريعة ، وانتصاب هلوعا وجزوعا ومنوعا على أنها أحوال مقدّرة ، أو محققة ؛لكونها طبائع جبل الإنسان عليها ، والظرفان معمولان لجزوعا ومنوعا. ﴿ **إلا المصلين** ﴾ أى المقيمين للصلاة . وقيل : المراد بهم: أهل التوحيد ، يعنى: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع ، والجذع ، والمنع ، وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية ؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير .

ثم بينهم سبحانه فقال: ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ أى لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يصرفهم عنها صارف ، وليس المراد بالدوام : أنهم يصلون أبدا . قال الزجاج : هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة، وقال الحسن وابن جريج : هو التطوع منها . قال النخعى: المراد بالمصلين : الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة . وقيل : الذين يصلونها لوقتها ،

والمراد بالآية : جميع المؤمنين . وقيل : الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين . ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم** ﴾ قال قتادة ومحمد بن سيرين : المراد: الزكاة المفروضة . وقال مجاهد: سوى الزكاة . وقيل : صلة الرحم ، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوما وجعله قرينا للصلاة ، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم فى سورة الذاريات مستوفى . ﴿ **والذين يصدقون بيوم الدين** ﴾ أى بيوم الجزاء ، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحدونه . وقيل : يصدقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم فى الطاعات. ﴿**والذين هم من عذاب ربهم مشفقون** ﴾ أى خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقارًا لأعمالهم ، واعترافا بما يجب لله سبحانه عليهم . وجملة : ﴿ **إن عذاب ربهم غير مأمون** ﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغى أن يأمنه أحد ، وأن حقّ كل أحد أن يخافه . ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾ قد تقدّم تفسيره فى سورة المؤمنين مستوفى .

﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ أى لا يخلون بشىء من الأمانات التى يؤتمنون عليها ولا ينقضون شيئا من العهود التى يعقدونها على أنفسهم . قرأ الجمهور : ﴿ **لأماناتهم** ﴾ بالجمع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن : « لأمانتهم » بالإفراد ، والمراد : الجنس . ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ أى يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد أو رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، وقد تقدّم القول فى الشهادة فى سورة البقرة . قرأ الجمهور : «بشهادتهم » بالإفراد . وقرأ حفص ويعقوب وهى رواية عن ابن كثير بالجمع . قال الواحدى : والإفراد أولى ؛ لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات .قال الفرّاء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ [الطلاق : ٢] . ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ أى على أذكارها وأركانها وشرائطها لا يخلون بشىء من ذلك . قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها ، وقال ابن جريج : المراد : التطوع ، وكرر ذكر الصلاة ؛ لاختلاف ما وصفهم به أوّلا ، وما وصفهم به ثانيا ، فإن معنى الدوام : هو ألا يشتغل عنها بشىء من الشواغل كما سلف ، ومعنى المحافظة : أن يراعى الأمور التى لا تكون صلاة بدونها . وقيل : المراد :يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرر الموصولات ؛ للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحقّ أن يستقلّ بموصوف منفرد ،والإشارة بقوله:﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿ **فى جنات مكرمون** ﴾ أى مستقرّون فيها مكرمون بأنواع الكرامات ، وخبر المبتدأ قوله:﴿ **فى جنات**﴾ وقوله :﴿ **مكرمون** ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون وفى جنات متعلق به. ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين** ﴾ أى أىّ شىء لهم حواليك مسرعين ، قال الأخفش : مهطعين : مسرعين ، ومنه قول الشاعر :

بمكة أهلها ولقد أراهم إليهم مهطعين إلى السماع

وقيل: المعنى : ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك ولايعملون بما تأمرهم ؟ وقيل : ما بالهم مسرعين إلى التكذيب ؟ وقيل : ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك ويستهزئون بك ؟وقال الكلبى: إن معنى ﴿ **مهطعين** ﴾:ناظرين إليك. وقال قتادة : عامدين. وقيل : مسرعين إليك مادّى أعناقهم مديمى النظر إليك . ﴿ **عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾ أى عن يمين النبىّ ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة ،وعزين جمع عزة ، وهى العصبّة من الناس ، ومنه قول الشاعر :

ترانـــا عنـــده والليـــل داج ... علـى أبـوابـــه حلـقـــا عـزيـنـــا

وقال الراعى :

أخليفةَ الرحـمنِ إن عـشيرتى ... أمسـى سَرَاتُـهُم إليـــك عــزيـــنا

وقال عنترة :

وقرن قد تركـت لـــدى ولـى ... عليه الطير كالعصب العزينا

وقيل : أصلها عزوة من العزو ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى . قال فى الصحاح :والعزة : الفرقة من الناس ، والهاء عوض عن التاء ، والجمع عزى وعزون . وقوله: ﴿ **عن اليمين وعن الشمال** ﴾ متعلق بعزين ، أو بمهطعين . ﴿ **أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم** ﴾ قال المفسرون : كان المشركون يقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّ قبلهم ، فنزلت الآية . قرأ الجمهور :﴿ **أن يدخل** ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن وزيد بن على وطلحة بن مصرف والأعرج ويحيى بن يعمر وأبو رجاء وعاصم فى رواية عنه على البناء للفاعل، ثم ردّ الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ أى من القذر الذين يعلمون به فلا ينبغى لهم هذا التكبر . وقيل : المعنى : إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهـو امتـثال الأمر والنهـى وتـعريضهم للثواب والعـقـاب ، كـما فـى قـولـه : ﴿ وما خلقـت الجـن والإنس إلا ليعبـدون ﴾ [الذاريات : ٥٩] ، ومنه قول الأعشى :

وأزمعت من آل ليلى ابتكارا ... وشطت على ذى هوى أن يزارا

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن الهلوع فقال: هو كما قال الله :﴿ **إذا مسّه الشرّ جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا**﴾. وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **هلوعا** ﴾ قال : الشره . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال : على مواقيتها . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عمران بن حصين : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال : الذى لا يلتفت فى صلاته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عقبة ابن عامر : ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ قال : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا .

وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين** ﴾ قال : ينظرون ﴿ **عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾ قال : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن حلق متفرقون فقال ﷺ :« مالى أراكم عزين » (١) . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن سعد وابن أبى عاصم والباوردى وابن قانع والحاكم والبيهقى فى الشعب ، والضياء عن بشر بن جحاش قال :قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين** ﴾ إلى قوله :﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ ثم بزق رسول الله ﷺ على كفه ووضع عليها أصبعه وقال : « يقول الله: ابن آدم ، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت: أو أنى أوان الصدقة » (٢) .

﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)** ﴾ .

قوله :﴿ **فلا أقسم** ﴾ « لا » زائدة كما تقدّم قريبا ، والمعنى : فأقسم ﴿ **بربّ المشارق والمغارب** ﴾ يعنى: مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه. قرأ الجمهور:﴿ **المشارق والمغارب** ﴾ بالجمع. وقرأ أبو حيوة وابن محيصن وحميد بالإفراد. ﴿ **إنا لقادرون . على أن نبدّل خيرا منهم**﴾ أى على أن نخلق أمثل منهم ، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء . ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ أى بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شىء ولا يعجزنا أمر ، ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر. ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا**﴾ أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ، واشتغل بما أمرت به ولا يعظّمن عليك ما هم فيه ، فليس عليك إلا البلاغ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف . قرأ الجمهور : ﴿ **يلاقوا** ﴾ . وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وحميد ومجاهد : « حتى يلقوا ». ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعا** ﴾ يوم بدل من يومهم ، وسراعا منتصب على الحال من ضمير يخرجون .قرأ الجمهور:﴿**يخرجون** ﴾ على البناء للفاعل ، وقرأ السلمى والأعمش والمغيرة وعاصم فى رواية على البناء للمفعول ، والأجداث جمع جدث ، وهو القبر ﴿ **كأنهم إلى نصب يوفضون** ﴾ قرأ الجمهور:« نصب » بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ

---

(١) مسلم فى الصلاة (١١٩/٤٣٠) وأبو داود فى الأدب (٤٨٢٣) والنسائى فى التفسير (٦٤٢) .

(٢) أحمد ٤/ ٢١٠ وابن ماجة فى الوصايا (٢٧٠٧) وصححه الحاكم ٢/ ٥٠٢ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » والبيهقى فى الشعب (٣١٩٨) وإسناده حسن .

ابن عامر وحفص بضم النون والصاد. وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد . قال فى الصحاح : والنصب ما نصب فعبد من دون اللّه ، وكذا النصب : بالضم ، وقد يحرك . قال الأعشى :

وذا النصب المنصوب لا تعبدنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

والجمع الأنصاب . وقال الأخفش والفراء : النصب جمع النصب ، مثل رهن ورهن ، والأنصاب جمع النصب فهو جمع الجمع . وقيل :النصب جمع نصاب ، وهوحجر أوصنم يذبح عليه ، ومنه قوله :﴿ وما ذبح على النصب ﴾ [المائدة : ٣] .وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد . وقيل : معنى ﴿**إلى نصب** ﴾: إلى غاية ، وهى التى تنصب إليها بصرك. وقال الكلبى : إلى شىء منصوب علم أو راية ، أى كأنهم إلى علم يدعون إليه ، أو راية تنصب لهم يوفضون . قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون اللّه لا يلوى أوّلهم على آخرهم . وقال أبو عمرو : النصب : شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته ، ومعنى ﴿ **يوفضون** ﴾ : يسرعون ، والإيفاض : الإسراع ، يقال: أوفض إيفاضا ، أى أسرع إسراعا ، ومنه قول الشاعر :

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجنّ يوفض من عبقر

وعبقر : قرية من قرى الجن كما تزعم العرب ، ومنه قول لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر

وانتصاب ﴿ **خاشعة أبصارهم** ﴾ على الحال من ضمير يوفضون ،وأبصارهم مرتفعة به ، والخشوع :الذلة والخضوع ، أى لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أى تغشاهم ذلة شديدة . قال قتادة : هى سواد الوجوه ، ومنه غلام مراهق : إذا غشيه الاحتلام ، يقال : رهقه بالكسر يرهقه رهقا ، أى غشيه ، ومثل هذا قوله : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ [يونس : ٢٦] والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره . وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾ أى الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به ، وإن كان مستقبلا ، فهو فى حكم الذى قد وقع لتحقق وقوعه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب** ﴾ قال : للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه ، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس وغير مغربها بالأمس. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿ **إلى نصب يوفضون** ﴾ قال : إلى علم يستبقون .

تفسير سورة نوح

هى تسع وعشرون آية ، أو ثمان وعشرون آية . وهى مكية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت سورة ﴿ إنا أرسلنا نوحا ﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ .

قوله : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ قد تقدّم أن نوحا أوّل رسول أرسله الله، وهو نوح ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم، وقد تقدّم مدة لبثه فى قومه ، وبيان جميع عمره ، وبيان السنّ التى أرسل وهو فيها فى سورة العنكبوت. ﴿أن أنذر قومك﴾ أى بأن أنذر على أنها مصدرية، ويجوز أن تكون هى المفسرة ، لأن فى الإرسال معنى القول . وقرأ ابن مسعود ﴿أنذر﴾ بدون أن ، وذلك على تقدير القول ، أى فقلنا له: أنذر ﴿ من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ أى عذاب شديد الألم ، وهو عذاب النار . وقال الكلبى : هو ما نزل بهم من الطوفان . وجملة : ﴿ قال يا قوم إنى لكم نذير مبين ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيا على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال نوح ؟: فقال : قال لهم إلخ . والمعنى : إنى لكم منذر من عقاب الله ومخوّف لكم ومبين لما فيه نجاتكم . ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ « أن » هى التفسيرية لنذير ، أو هى المصدرية ، أى بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره ﴿ واتقوه ﴾ أى

اجتنبوا ما يوقعكم فى عذابه ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما آمركم به فإنى رسول إليكم من عند الله .

﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ هذا جواب الأمر ، و« من » للتبعيض ، أى بعض ذنوبكم وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته . وقال السدّى: المعنى: يغفر لكم ذنوبكم ، فتكون « من » على هذا زائدة . وقيل : المراد بالبعض : ما لا يتعلق بحقوق العباد . وقيل : هى لبيان الجنس ، وقيل : يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذى قدره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم ، على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان . وقيل : التأخير بمعنى البركة فى أعمارهم إن آمنوا ، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا . قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم. وقال الزجاج : أى يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب . وقال الفراء : المعنى: لا يمتكم غرقًا ولا حرقًا ولا قتلا ﴿ **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر** ﴾ أى ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء وأنتم باقون على الكفر لا يؤخر بل يقع لا محالة فبادروا إلى الإيمان والطاعة. وقيل: المعنى: إن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان. وقيل: المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب ﴿ **لو كنتم تعلمون** ﴾ أى شيئًا من العلم، لسارعتم إلى ما أمرتكم به ، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

﴿ **قال ربّ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا** ﴾ أى قال نوح مناديا لربه وحاكيا له ما جرى بينه وبين قومه ، وهو أعلم به منه: إنى دعوت قومى إلى ما أمرتنى بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائما فى الليل والنهار من غير تقصير . ﴿ **فلم يزدهم دعائى إلا فرارا** ﴾ عما دعوتهم إليه وبعدا عنه . قال مقاتل : يعنى : تباعدًا من الإيمان ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء ؛ لكونه سببها كما فى قوله: ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ [الأنفال : ٢] قرأ الجمهور : « دعائى » بفتح الياء ، وقرأ الكوفيون ويعقوب والدورى عن أبى عمرو بإسكانها، والاستثناء مفرغ . ﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم** ﴾ أى كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة ، وهو الإيمان بك ، والطاعة لك ﴿ **جعلوا أصابعهم فى آذانهم** ﴾ لئلا يسمعوا صوتى ﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾ أى غطوا بها وجوههم لئلا يرونى . وقيل : جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامى ، فيكون استغشاء الثياب على هذا ، زيادة فى سدّ الآذان . وقيل : هو كناية عن العداوة ، يقال : لبس فلان ثياب العداوة. وقيل : استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ **وأصروا** ﴾ أى استمروا على الكفر، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ﴿ **واستكبروا** ﴾ عن قبول الحق ، وعن امتثال ما أمرهم به ﴿ **استكبارا** ﴾ شديدًا .

﴿ **ثم إنى دعوتهم جهارا** ﴾ أى مظهرا لهم الدعوة مجاهرا لهم بها. ﴿ **ثم إنى أعلنت لهم** ﴾ أى دعوتهم معلنا لهم بالدعاء ﴿ **وأسررت لهم إسرارا** ﴾ أى وأسررت لهم الدعوة إسرارا كثيرًا. قيل : المعنى : أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سرا فيما بينه وبينه ، والمقصود : أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجع ذلك فيهم . قال مجاهد : معنى

﴿ **أعلنت** ﴾ : صحت ، وقيل : معنى ﴿ **أسررت** ﴾ : أتيتهم فى منازلهم فدعوتهم فيها . وانتصاب ﴿**جهارا** ﴾ على المصدرية ؛ لأن الدعاء يكون جهارا ويكون غير جهار ، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم : قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، أى دعاء جهارا، وأن يكون مصدرا فى موضع الحال ، أى مجاهرا ، ومعنى: « ثم »: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما .قرأ الجمهور: ﴿ **إنى** ﴾ بسكون الياء ، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها . ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا** ﴾ أى سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿ **إنه كان غفارا** ﴾ أى كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل : معنى﴿ **استغفروا** ﴾ : توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين .﴿ **يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾ أى يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار . وقيل : المراد بالسماء : المطر كما فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمدرار : الدرور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ، ولم يؤنث لأن مفعالا لايؤنث، تقول : امرأة مئناث ومذكار ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى إرسالا مدرارا ، وقد تقدّم الكلام عليه فى سورة الأنعام ، وجزم يرسل ؛ لكونه جواب الأمر . وفى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق ، ولهذا قال : ﴿ **ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات** ﴾ يعنى : بساتين ﴿**ويجعل لكم أنهارا** ﴾ جارية . قال عطاء : المعنى : يكثر أموالكم وأولادكم . أعلمهم عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر فى الآخرة ، الخصب والغنى فى الدنيا . ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا** ﴾ أى أىّ عذرلكم فى ترك الرجاء ، والرجاء هنا بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون الله ، والوقار : العظمة من التوقير وهو التعظيم ، والمعنى : لا تخافون حقّ عظمته فتوحدونه وتطيعونه ، و﴿ **لا ترجون** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين ، والعامل فيه معنى الاستقرار فى لكم ، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلى :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبى رباح : ما لكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون منه عقابا ، وقال مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة . قال قطرب : هذه لغة حجازية ، وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج: لم أبل . وقال قتادة : ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان ، وقال ابن كيسان : ما لكم لا ترجون فى عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا . وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدون لله طاعة . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون له نعمة ، وجملة : ﴿ **وقد خلقكم أطوارا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة : نطفة ، ثم مضغة ، ثم

علقة إلى تمام الخلق كما تقدّم بيانه فى سورة المؤمنين ، والطورُ فى اللغة : المرّة ، وقال ابن الأنبارى : الطور الحال وجمعه أطوار : وقيل : أطوارا : صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا . وقيل : الأطوار : اختلافهم فى الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى: كيف تقصرون فى توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ؟ .

﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا** ﴾ الخطاب لمن يصلح له والمراد : الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة . والطباق : المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب : قال الحسن : خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر ، وقد تقدّم تحقيق هذا فى قوله : ﴿ ومن الأرض مثلهنّ ﴾ [الطلاق : ١٢] وانتصاب ﴿ **طباقا** ﴾ على المصدرية ، تقول : طابقه مطابقة ، وطباقاً ، أو حال بمعنى ذات طباق ، فحذف ذات وأقام طباقا مقامه ، وأجاز الفراء فى غير القرآن جرّ ﴿ **طباقا** ﴾ على النعت ﴿ **وجعل القمر فيهنّ نورا**﴾ أى منوّرا لوجه الأرض ، وجعل القمر فى السموات مع كونها فى سماء الدنيا ؛ لأنها إذا كانت فى إحداهنّ ، فهى فيهنّ ، كذا قال ابن كيسان . قال الأخفش : كما تقول : أتانى بنو تميم ، والمراد بعضهم. وقال قطرب : فيهنّ بمعنى معهنّ ، أى خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض ، كما فى قول امرئ القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

أى مع ثلاثة أحوال ﴿ **وجعل الشمس سراجا** ﴾ أى كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك إلى التصرّف فيما يحتاجون إليه من المعاش . ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا** ﴾ يعنى : آدم خلقه الله من أديم الأرض ، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء ؛ لكونه أدل على الحدوث والتكوين ، و﴿ **نباتا** ﴾ إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد ، أو مصدر لفعل محذوف، أى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا . وقال الخليل والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى ، لأن معنى ﴿ **أنبتكم** ﴾ : جعلكم تنبتون نباتا .وقيل : المعنى:والله أنبت لكم من الأرض النبات ، فنباتا على هذا مفعول به ، قال ابن بحر: أنبتهم فى الأرض بكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر.﴿ **ثم يعيدكم فيها** ﴾ أى فى الأرض ﴿ **ويخرجكم إخراجا** ﴾ يعنى: يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة.﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا** ﴾ أى فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم . ﴿**لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾ أى طرقا واسعة ، والفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء وغيره، وقيل : الفج: المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة الأنبياء وفى سورة الحج مستوفى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعلوا**[١] **أصابعهم فى آذانهم** ﴾ قال :

---

(١) فى المخطوطة : « وجعلوا » ، والصحيح ما أثبتناه .

لئلا يسمعوا ما يقول ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ قال : ليتنكروا فلا يعرفهم ﴿ **واستكبروا استكبارا**﴾ قال : تركوا التوبة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحا ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا**﴾ قال : لا تعلمون لله عظمة . وأخرج ابن جرير والبيهقى عنه أيضا : ﴿ **وقاراً** ﴾ قال : عظمة . وفى قوله: ﴿**وقد خلقكم أطوارا** ﴾ قال : نطفة ثم علقة ثم مضغة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: لا تخافون لله عظمة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لا تخشون له عقابا ولا ترجون له ثوابا .وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن على بن أبى طالب ، أن النبى ﷺ رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر ، فوقف فنادى بأعلى صوته : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا** ﴾[1] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمرو قال : الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك عليكم أنه من كتاب الله: ﴿ **وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضىء لأهل السموات كما تضىء لأهل الأرض .وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله ابن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب فتعاتبا فذهب ذلك . فقال عبد الله بن عمرو لكعب : سلنى عما شئت فلا تسألنى عن شىء إلا أخبرتك بتصديق قولى من القرآن ، فقال له: أرأيت ضوء الشمس والقمر أهو فى السموات السبع كما هو فى الأرض ؟ قال : نعم ، ألم تروا إلى قول الله:﴿ **خلق سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **وجعل القمر فيهنّ نورا** ﴾ قال : وجهه فى السماء إلى العرش وقفاه إلى الأرض . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه : ﴿ **وجعل القمر فيهنّ نورا** ﴾ قال : خلق فيهنّ حين خلقهنّ ضياء لأهل الأرض ، وليس فى السماء من ضوئه شىء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **سبلا فجاجا** ﴾ قال : طرقا مختلفة .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا

---

(١) عبد الرزاق (١١٠٢) .

(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **قال نوح ربّ إنهم عصونى** ﴾ أى استمرّوا على عصيانى ولم يجيبوا دعوتى ، شكاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه وهو أعلم بذلك ﴿ **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾ أى اتبع الأصاغر رؤساءهم ، وأهل الثروة منهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالا فى الدنيا وعقوبة فى الآخرة ، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم وولده بفتح الواو واللام . وقرأ الباقون بسكون اللام ، وهى لغة فى الولد ، ويجوز أن يكون جمعا ، وقد تقدّم تحقيقه ، ومعنى ﴿**واتبعوا** ﴾ : أنهم استمروا على اتباعهم ، لا أنهم أحدثوا الاتباع ﴿**ومكروا مكرا كبارا** ﴾ أى مكرا كبيرا عظيما ، يقال : كبير وكبار وكبار مثل عجيب وعجاب وعجاب ، وجميل وجمال وجمال . قال المبرد : كبارا بالتشديد للمبالغة ، ومثل ﴿**كبارًا**﴾ قراء لكثير القراءة ، وأنشد ابن السكيت :

بيضاء تصطاد القلوب وتستبى   بالحسن قلب المسلم القراء

قرأ الجمهور : ﴿ **كبارا** ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد بالتخفيف . قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكرا مكان ذنوب أو أفاعيل ، فلذلك وصفه بالجمع . وقال عيسى بن عمر: هى لغة يمانية . واختلف فى مكرهم هذا ما هو ؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح . وقيل : هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة : لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم . وقال الكلبى : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد . وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم : لا تذرنّ آلهتكم . وقيل : مكرهم : كفرهم . ﴿ **وقالوا لا تذرنّ آلهتكم** ﴾ أى لا تتركوا عبادة آلهتكم ، وهى الأصنام والصور التى كانت لهم ، ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور . ﴿ **ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ أى لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورّتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء ؛ لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم . وقال عروة بن الزبير وغيره : إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم ، وكان ودّ أكبرهم ، قال الماوردى : فأما ودّ فهو أوّل صنم معبود ، سمى ودّا ؛ لودّهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ودّ فإنا لا يحل لنا   لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ

فى قول قتادة ، وقال المهدوى : لمراد ثم لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان فى قول قتادة وعكرمة وعطاء ، وقال الثعلبى :كان لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار فى همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمدانى :

يَريش الله فى الدنيا ويَبْرى [(١)] ولا يَبْرى يعوقُ ولا يريش

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير فى قول قتادة ومقاتل ، قرأ الجمهور : ﴿ ودًّا ﴾ بفتح الواو ، وقرأ نافع بضمها. قال الليث :« ودّ » بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح ، وبه سمى عمرو بن ودّ . قال فى الصحاح . والودّ بالفتح: الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها فى الدال . وقرأ الجمهور : ﴿ **ولا يغوث ويعوق** ﴾ بغير تنوين . فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين فالعجمة والعلمية . وقرأ الأعمش : « ولا يغوثا ويعوقا » بالصرف . قال ابن عطية : وذلك وهم . ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة ؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها ﴿ **وقد أضلوا كثيرا** ﴾ أى أضلّ كبراؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الناس . وقيل :الضمير راجع إلى الأصنام ، أى ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم : ﴿ ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ [إبراهيم : ٣٦] وأجرى عليهم ضمير من يعقل ؛ لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل. ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾ معطوف على ﴿ **ربّ إنهم عصونى** ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم ،وقال أبو حيان: إنه معطوف على ﴿ **قد أضلوا**﴾ ، ومعنى ﴿ **إلا ضلالا**﴾ : إلا عذابا ، كذا قال ابن بحر ، واستدلّ على ذلك بقوله : ﴿ إنّ المجرمين فى ضلال وسعر ﴾ [القمر : ٤٧] وقيل : إلا خسرانا . وقيل : إلا فتنة بالمال والولد . وقيل : الضياع . وقيل : ضلالا فى مكرهم .

﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا** ﴾ « ما » مزيدة للتأكيد ، والمعنى : من خطيئاتهم ، أى من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان ﴿ **فأدخلوا نارا** ﴾ عقب ذلك وهى نار الآخرة . وقيل : عذاب القبر ، قرأ الجمهور : ﴿ **خطيئاتهم** ﴾ على جمع السلامة ، وقرأ أبو عمرو : « خطاياهم » على جمع التكسير ، وقرأ الجحدرى وعمرو بن عبيد والأعمش وأبو حيوة وأشهب العقيلى :« خطيئتهم » على الإفراد . قال الضحاك : عذبوا بالنار فى الدنيا مع الغرق فى حالة واحدة ،كانوا يغرقون فى جانب ويحترقون فى جانب . قرأ الجمهور : ﴿ **أغرقوا** ﴾ من أغرق ، وقرأ زيد بن علىّ : « غرقوا » بالتشديد . ﴿ **فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ أى لم يجدوا أحدا يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم .

﴿ **وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾ معطوف على ﴿ **قال نوح ربّ إنهم عصونى**﴾ لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك ، قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى إليه:﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : ٣٦] فأجاب الله دعوته وأغرقهم . وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد

---

(١) يريش : يرفع ، ويبرى : يخفض .

وعطية : إنما قال هذا حين أخرج الله كلّ مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة، وقيل : بأربعين . قال قتادة : لم يكن فيهم صبىّ وقت العذاب . وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلا فيهم . ولكن أهلك ذرّيتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب و معنى ﴿ **ديارا** ﴾ : من يسكن الديار ، وأصله ديوار على فيعال ، من دار يدور ، فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما فى الأخرى ، مثل القيام أصله قيوام . وقال القتيبى : أصله من الدار ، أى نازل بالدار ، يقال : ما بالدار ديار ، أى أحد ، وقيل : الديار : صاحب الديار ، والمعنى : لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته ﴿ **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك** ﴾ أى إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحقّ ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ أى إلا فاجرا يترك طاعتك كفارا لنعمتك ، أى كثير الكفران لها ، والمعنى : إلا من سيفجر ويكفر .

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين ، فقال : ﴿ **ربّ اغفر لى ولوالدى** ﴾ وكانا مؤمنين . وأبوه: لامك بن متوشلخ كما تقدّم ، وأمه : سمحاء بنت أنوش . وقيل : أراد : آدم وحواء . وقال سعيد بن جبير : أراد بوالديه : أباه وجدّه. وقرأ سعيد بن جبير : « ولوالدى » بكسر الدال على الإفراد ﴿ **ولمن دخل بيتى** ﴾ قال الضحاك والكلبى : يعنى مسجده . وقيل : منزله الذى هو ساكن فيه . وقيل : سفينته . وقيل : لمن دخل فى دينه ، وانتصاب ﴿ **مؤمنا** ﴾ على الحال ، أى لمن دخل بيتى متصفًا بصفة الإيمان ، فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذى قال : ﴿ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء﴾ [هود: ٤٣] ثم عمم الدعوة فقال: ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ أى واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث . ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين . فقال : ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا تبارا** ﴾ أى لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكا وخسرانا ودمارا ، وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة ، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ قال : هذه الأصنام كانت تعبد فى زمن نوح . وأخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : صارت الأوثان التى كانت تعبد فى قوم نوح فى العرب : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذى كانوا يجلسون فيه أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت [١] .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٠) .

تفسير سورة الجن

هى ثمان وعشرون آية . وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل أوحى إلىّ** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **أوحى** ﴾ رباعيًا . وقرأ ابن أبى عبلة وأبو إياس والعتكى عن أبى عمرو : « وحى » ثلاثيا ، وهما لغتان . واختلف هل رآهم النبىّ ﷺ أم لم يرهم ؟ فظاهر القرآن لم يرهم ، لأن المعنى : قل يا محمد لأمتك : أوحى إلىّ على لسان جبريل ﴿ **أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ ومثله قوله : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ [الأحقاف : ٢٩] ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم . قال عكرمة : والسورة التى كان يقرؤها رسول الله ﷺ هى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [العلق : ١] وقد تقدّم فى سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة فى هذا ، قوله : ﴿ **أنه استمع نفر من الجن** ﴾ هذا هو القائم مقام الفاعل ، ولهذا فتحت أنّ ، والضمير للشأن ، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجار والمجرور ، والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة . قال الضحاك : والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين . وقال الحسن : إنهم ولد إبليس ، قيل : هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم

النارية والهوائية . وقيل : نوع من الأرواح المجرّدة . وقيل : هى النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم فى دخول مؤمنى الجنّ الجنة كما يدخل عصاتهم النار لقوله فى سورة تبارك : ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [الملك : ٥] وقول الجنّ فيما سيأتى فى هذه السورة : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن: يدخلون الجنة ، وقال مجاهد : لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار ، والأوّل أولى لقوله فى سورة الرحمن : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ ﴾ [الرحمن:٥٦] وفى سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلا منهم ، بل الرسل جميعا من الإنس وإن أشعر قوله : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [الزمر : ٧١] بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة فى الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بنى آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة .

﴿ **فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا** ﴾ أى قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم أى سمعنا كلاما مقروءا عجبا فى فصاحته وبلاغته. وقيل :عجبا فى مواعظه . وقيل : فى بركته ، وعجبا مصدر وصف به للمبالغة ،أو على حذف المضاف ،أى ذا عجب ، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أى معجبا ﴿ **يهدى إلى الرشد** ﴾ أى إلى مراشد الأمور ، وهى الحقّ والصواب . وقيل : إلى معرفة الله ، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿ **فآمنا به** ﴾ أى صدّقنا به بأنه من عند الله ﴿**ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ من خلقه ولا نتخذ معه إلها آخر ؛ لأنه المتفرد بالربوبية ، وفى هذا توبيخ للكفار من بنى آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ولم ينتفع كفار الإنس لا سيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرات متعدّدة وتلاوته عليهم فى أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم لا جرم صرعهم الله أذّل مصرع وقتلهم أقبح مقتل ، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون .

﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ قرأه حمزة ، والكسائى وابن عامر وحفص وعلقمة ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف والسلمى : ﴿ **وأنه تعالى** ﴾ بفتح أنّ ، وكذا قرؤوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها ،وذلك أحد عشر موضعا إلى قوله:﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ [الجن:١٩]، وقرأ الباقون بالكسر فى هذه المواضع كلها إلا فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله ﴾[الجن: ١٨]، فإنهم اتفقوا على الفتح ، أما من قرأ بالفتح فى هذه المواضع ، فعلى العطف على محل الجار والمجرور فى ﴿ **فآمنا به** ﴾ كأنه قيل : فصدّقناه وصدقنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ . وأما من قرأ بالكسر فى هذه المواضع فعلى العطف على ﴿ **إنا سمعنا** ﴾ أى فقالوا :إنا سمعنا قرآنا ، وقالوا: إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره. واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة الكسر لأنه كله من كلام الجنّ ومما هو محكيّ عنهم بقوله : ﴿ **فقالوا إنا سمعنا** ﴾ وقرأ أبو جعفر وشعبة بالفتح فى ثلاثة

مواضع ، وهى : ﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس** ﴾ قالا :لأنه من الوحى ، وكسرا ما بقى لأنه من كلام الجنّ . وقرأ الجمهور ﴿ **وأنه لما قام عبد الله** ﴾ [الجن : ١٩]، بالفتح لأنه معطوف على قوله:﴿ **أنه استمع** ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وشيبة وزرّ بن حبيش وأبو بكر والمفضل عن عاصم بالكسر فى هذا الموضع عطفا على فآمنا به بذلك التقدير السابق واتفقوا على الفتح فى ﴿ **أنه استمع** ﴾ كما اتفقوا على الفتح فى ﴿ أنّ المساجد﴾ [الجن : ١٨]، وفى : ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ [الجن : ١٦]، واتفقوا على الكسر فى: ﴿ **فقالوا إنا سمعنا** ﴾ و﴿قل إنما أدعو ربى ﴾ [الجن : ٢٠] و : ﴿قل إن أدرى ﴾ [الجن : ٢٥] و : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ﴾ ﴿ الجن: ٢١] .

والجدّ عند أهل اللغة : العظمة والجلال ، يقال : جدّ فى عينى ، أى عظم ، فالمعنى : ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه قال عكرمة ومجاهد . وقال الحسن : المراد : تعالى غناه ، ومنه قيل للحظ : جدّ ، ورجل مجدود ، أى محظوظ وفى الحديث : « ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » (١) قال أبو عبيد والخليل : أى لا ينفع ذا الغنى منك الغنى أى إنما تنفعه الطاعة ، وقال القرطبى والضحاك : جدّه آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدّى : أمره . وقال سعيد بن جبير : ﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ أى تعالى ربنا . وقيل : جدّه : قدرته . وقال محمد بن علىّ بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع بن أنس : ليس لله جدّ ، وإنما قالته الجنّ للجهالة . قرأ الجمهور ﴿ **جدّ** ﴾ بفتح الجيم ، وقرأ عكرمة وأبو حيوة ومحمد بن السميفع بكسر الجيم ، وهو ضدّ الهزل ، وقرأ أبو الأشهب : «جدى ربنا » أى : جدواه ومنفعته ، وروى عن عكرمة أيضا أنه قرأ بتنوين : « جدّ » ورفع « ربنا » على أنه بدل من جدّ ﴿ **ما اتخذ صاحبة ولا ولدا** ﴾ هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه . قال الزجاج : تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا ، وكأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذى يتسبون إلى الله الصاحبة والولد ، ونزّهوا الله سبحانه عنهما .

﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا** ﴾ الضمير فى ﴿ **أنه** ﴾ للحديث أو الأمر ، ﴿**وسفيهنا** ﴾ يجوز أن يكون اسم كان ، و ﴿ **يقول** ﴾ الخبر ،ويجوز أن يكون سفيهنا فاعل يقول، والجملة خبر كان ، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر ، ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيههم : عصاتهم ومشركوهم . وقال مجاهد وابن جريج وقتادة : أرادوا به إبليس . والشطط : الغلوّ فى الكفر ، وقال أبو مالك : الجور . وقال الكلبى : الكذب . وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحدّ . ومنه قول الشاعر :

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا ... وما ذاك إلا حيث يممك الوخط (٢)

---

(١) مسلم فى الصلاة (٤٧٧ / ٢٠٥) عن أبى سعيد .
(٢) الوخط : قيل : هو استواء البياض والسواد ، وقيل : هو فشو الشيب فى الرأس ، وقيل غيره .

﴿ **وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذبا** ﴾ أى إنا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكا وصاحبة وولدا ، فلذلك صدّقناهم فى ذلك حتى سمعنا القرآن ، فعلمنا بطلان قولهم وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذبا . على أنه مصدر مؤكد ليقول ، لأن الكذب نوع من القول ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى قولا كذبا . وقرأ يعقوب والجحدرى وابن أبى إسحاق : « أن لـن تقـوّل » من التقوّل ، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعول به ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ** ﴾ قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه فيبيت فى جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية . قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم ﴿ **فزادوهم رهقا** ﴾ أى زاد رجال الجنّ من تعوّذ بهم من رجال الإنس رهقا ، أى سفها وطغيانا ، أو تكبرا وعتّوا ، أو زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقا ؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون سدنا الجنّ والإنس ، وبالأوّل قال مجاهد وقتادة ، بالثانى قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد . والرهق فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق : إذا كان كذلك ، ومنه قولـه:﴿ ترهقهـم ذلـة﴾ [المعارج : ٤٤] أى تغشاهم ، ومنه قول الأعشى :

لا شىء ينفعنى من دون رؤيتها   هل يشتفى عاشق ما لم يصب رهقا

يعنى : إثما . وقيل الرهق : الخوف ، أى أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعَوذ بهم خوفا منهم . وقيل : كان الرجل من الإنس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادى ، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجنّ ، فيكون قوله : ﴿ **برجال** ﴾ وصفا لمن يستعيذون به من رجال الإنس ، أى يعوذون بهم من شر الجنّ ، وهذا فيه بعد . وإطلاق لفظ رجال على الجنّ على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاركة . ﴿ **وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا** ﴾ هذا من قول الجنّ للإنس ، أى وإن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث . وقيل : المعنى : وإن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجنّ ، والمعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون.﴿ **وأنا لمسنا السماء**﴾ هذا من قول الجنّ أيضا ، أى طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا ﴿ **فوجدناها ملئت حرسا** ﴾ من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ، والحرس جمع حارس ،و﴿ **شديدا** ﴾ صفة لـ ﴿**حرسا**﴾ أى قويا ﴿ **وشهبا** ﴾ جمع شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب كما تقدّم بيانه فى تفسير قوله:﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ [الملك:٥] ومحـل قولـه:﴿ **ملئت حرسًا شديدًا**﴾ النصب على أنه ثانى مفعولى وجدنا ، لأنه يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز أن يكون متعدّيا إلى مفعول واحد ، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد،وحرسا منصوب على التمييز ، ووصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ ، كما يقال : السلف الصالح ، أى الصالحين .

﴿ **وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع** ﴾ أى وأنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع ، أى مواضع نقعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء ، وللسمع متعلق بـ ﴿**نقعد**﴾ أى لأجل السمع ، أو بمضمر هو صفة لمقاعد ، أى مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان ، وذلك أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة ، وهو معنى قوله : ﴿ **فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾ أى أرصد له ليرمى به ، أو لأجله لمنعه من السماع ، وقوله :﴿ **الآن** ﴾ هو ظرف للحال واستعير للاستقبال ، وانتصاب ﴿**رصدا**﴾ على أنه صفة لـ ﴿ **شهابا** ﴾ أو مفعول له ، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم : لم يكن ذلك ، وحكى الواحدى عن معمر قال : قلت للزهرى : أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية ؟ قال: نعم ، قلت : أفرأيت قوله : ﴿ **وأنا كنا نقعد منها** ﴾ الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ . قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ، ولكنه لم يكن مثله فى شدة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون فى بعض الأحوال ،فلما بعث منعوا من ذلك أصلا، وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد ، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ، ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنوّ إلى السماء ، وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين فى الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب ، وقد تقدّم البحث عن هذا .

﴿ **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ لا ندرى أشرّ أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء ، أو أراد بهم ربهم رشدا ؟ أى خيرا . قال ابن زيد : قال إبليس: لا ندرى أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا؟ وارتفاع ﴿ **أشرٌ** ﴾ على الاشتغال ،أو على الابتداء ، وخبره ما بعده ، والأول أولى ، والجملة سادّة مسدّ مفعولى ندرى والأولى أن هذا من قول الجنّ فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد . ﴿ **وأنا منا الصالحون** ﴾ أى قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ : وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح ﴿ **ومنا دون ذلك** ﴾ أى قوم دون ذلك ، أى دون الموصوفين بالصلاح . وقيل : أراد بـ ﴿ **الصالحون** ﴾ المؤمنين ، وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأوّل أولى ، ومعنى ﴿ **كنا طرائق قددا** ﴾ أى جماعات متفرقة وأصنافا مختلفة ، والقدة: القطعة من الشىء ، وصار القوم قددا :إذا تفرقت أحوالهم ، ومنه قول الشاعر :

القابض الباسط الهادى لطاعته ... فى فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى : كنا ذوى طرائق قددا ، أو كانت طرائقنا طرائق قددا ، أوكنا مثل طرائق قددا،

ومـن هـذا قول لبيد :

لـم تبلـغ العـين كـل نهمتهـا ... يـوم تمشى الجيـاد بالقـدد

وقوله أيضا :

ولقـد قـلت وزيـد حـاسـر ... يـوم ولت خيل عمـرو قـددا

قال السدّى والضحاك : أديانا مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة ، وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس . وكذا قال مجاهد . قال الحسن : الجنّ أمثالكم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة ، وكذا قال السدّى . ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض** ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين ، أى وإنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله فى الأرض أينما كنا فيها ، ولن نفوته إن أراد بنا أمرا ﴿ **ولن نعجزه هربا** ﴾ أى هاربين منها ، فهو مصدر فى موضع الحال . ﴿ **وأنا لما سمعنا الهدى** ﴾ يعنون : القرآن ﴿ **آمنا به** ﴾ وصدّقنا أنه من عند الله ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس ﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا** ﴾ أى لا يخاف نقصا فى عمله وثوابه ، ولا ظلما ومكروها يغشاه ، والبخس: النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى : لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد فى سيئاته ، وقد تقدم تحقيق الرهق قريبا . قرأ الجمهـور : ﴿ **بخسا** ﴾ بسكـون الخـاء . وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : « فلا يخف » جزما عـلى جـواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء ، والتقدير : فهو لا يخاف والأمر ظاهر .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : انطلق النبىّ ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ [١] ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا بشىء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبىّ ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ **فقالوا** ﴾ يا قومنا ﴿**إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ فأنـزل اللـه علـى نبيه ﷺ : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن [٢] .

---

(١) هو موضع بقرب مكة ، كانت تقام به فى الجاهلية سوق يقيمون فيه أياما .
(٢) أحمد ١ / ٢٥٢ والبخارى فى الأذان (٧٣٧) ومسلم فى الصلاة (٤٤٩ / ١٤٩) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٣) والنسائى فى التفسير (٦٤٤) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ قال : كانوا من جن نصيبين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنه تعالى جدّ ربنا** ﴾ قال : آلاؤه وعظمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أمره وقدرته . وأخرج ابن مردويه والديلمى ، قال السيوطى : بسند واه ،عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا فى قوله: ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ قال : إبليس .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والعقيلى فى الضعفاء ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر عن عكرمة بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة ، وذلك أوّل ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، أنا جارك ، فنادى مناد يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ** ﴾ [(١)] الآية. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **فزادوهم رهقا** ﴾ قال : إثما . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان القوم فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه ، فلا يكون بشيء أشدّ ولعا منهم بهم فذلك قوله : ﴿ **فزادوهم رهقا** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير والطبرانى ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : كانت الشياطين لهم مقاعد فى السماء يسمعون فيها الوحى ، فإذا سمعوا الكلمة زداوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقا ، وأما ما زادوا ، فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم : ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلى بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض [(٢)] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك** ﴾ يقول : منا المسلم ، ومنا المشرك ، و ﴿ **كنا طرائق قددا** ﴾ أهواء شتى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **فلا يخاف بخسًا ولا رهقا** ﴾ قال: لا يخاف نقصا من حسناته ولا زيادة فى سيئاته.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

(١) العقيلى فى الضعفاء ١ / ١٠١ والطبرانى (٤٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٢ : « فيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفى وهو ضعيف » .

(٢) أحمد ١ / ٣٢٣ والترمذى فى التفسير (٣٣٢٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٤٦) وابن جرير ٢٦ / ٢٠ والطبرانى (١٢٤٣١) والبيهقى فى الدلائل ٢ / ٢٣٩ .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ **وأنا منا المسلمون** ﴾ هم الذين آمنوا بالنبيّ ﷺ . ﴿ **ومنا القاسطون** ﴾ أى الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ، ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال : قسط : إذا جار ، وأقسط : إذا عدل ﴿ **فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا** ﴾ أى قصروا طريق الحق . قال الفراء : أمّوا الهدى . ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ أى وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس. ﴿ **وألوا استقاموا على الطريقة** ﴾ هذا ليس من قول الجنّ بل هو معطوف على : ﴿ **أنه استمع نفر من الجن** ﴾ والمعنى :وأوحى إلىّ أن الشأن لو استقام الجنّ أو الإنس أو كلاهما على الطريقة ، وهى طريقة الإسلام،وقد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح «أن» ههنا . قال ابن الأنبارى : والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها . والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل ، يقال فى الكلام : والله لو قمت لقمت كما فى قول الشاعر :

أما والله أن لو كنت حراً ولا بالحرّ أنت ولا العتيق

قال : أو على ﴿ **أوحى إلىّ أنه استمع** ﴾ ، ﴿ **وأن لو استقاموا** ﴾ أو على ﴿ **آمنا به** ﴾ أى آمنا به ،وبأن لو استقاموا . قرأ الجمهور بكسر الواو من « لو » لا لتقاء الساكنين وقرأ ابن وثاب والأعمش بضمها ﴿ **لأسقيناهم ماء غدقا** ﴾ أى كثيرا واسعا . قال مقاتل: ماء كثيرا من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين . وقال ابن قتيبة : المعنى: لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم فى الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلا لأن الخير كله والرزق بالمطر ، وهذا كقوله: ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾ الآية [المائدة : ٦٥] وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] وقوله : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ﴾ الآية [نوح: ١٠ـ ١٢]. وقيل : المعنى : وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، واختار هذا الزجاج . والماء الغدق : هو الكثير فى لغة العرب .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أى لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم ، وقال الكلبى : المعنى : وأن لو استقاموا على الطريقة التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا ؛ لأوسعنا أرزاقهم مكرا بهم واستدراجا حتى يفتنوا بها فنعذبهم فى الدنيا والآخرة ، وبه قال الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والثمالى ويمان بن زيان وابن كيسان وأبو مجلز ، واستدلوا بقوله : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقوله : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ﴾ الآية [الزخرف : ٣٣] والأوّل أولى ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ أى ومن يعرض عن القرآن ، أو عن العبادة ، أو عن الموعظة ، أو عن جميع ذلك يسلكه ، أى يدخله عذابا صعدا ، أى شاقا صعبا . قرأ الجمهور : « نسلكه » بالنون مفتوحة . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو فى رواية عنه بالياء التحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿ عن ذكر ربه ﴾ ولم يقل : « عن ذكرنا » . وقرأ مسلم بن جندب وطلحة بن مصرف والأعرج بضم النون وكسر اللام ، من أسلكه . وقراءة الجمهور من سلكه ، والصعد فى اللغة المشقة ، تقول : تصعد بى الأمر : إذا شقّ عليك ، وهو مصدر صعد ، يقال : صعد صعدا وصعودا ، فوصف به العذاب مبالغة ، لأنه يتصعد المعذب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ، قال أبو عبيد : الصعد : مصدر أى عذابا ذا صعد ، وقال عكرمة : الصعد: هو صخرة ملساء فى جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما فى قوله : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ [المدثر : ١٧] والصعود : العقبة الكؤود .

﴿ وأن المساجد لله ﴾ قد قدّمنا اتفاق القراء هنا على الفتح فهو معطوف على أنه استمع ، أى وأوحى إلىّ أن المساجد مختصة بالله . وقال الخليل : التقدير : ولأن المساجد ،والمساجد : المواضع التى بنيت للصلاة فيها . قال سعيد بن جبير : قالت الجنّ : كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت .وقال الحسن:أراد بها كل البقاع ؛لأن الأرض كلها مسجد ، وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد ، وهى: القدمان والركبتان واليدان والجبهة ، يقول : هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء . وقيل : المساجد هى الصلاة لأن السجود من جملة أركانها ، قاله الحسن ﴿ فلا تدعو مع الله أحدا ﴾ من خلقه كائنا ما كان .

﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ قد قدّمنا أن الجمهور قرؤوا هنا بفتح أن عطفا على أنه استمع، أى وأوحى إلىّ أنّ الشأن لما قام عبد الله ، وهو النبىّ ﷺ ﴿ يدعوه ﴾ أى يدعوا الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة كما تقدّم حين قام رسول الله ﷺ يصلى ويتلو القرآن ، وقد قدّمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر إن هنا ، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد ﴿ كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ أى كاد الجنّ يكونون على رسول الله لبدا١ ، أى متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج . ومعنى ﴿ لبدا ﴾ : يركب بعضهم بعضا ، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التى

تفرش . قرأ الجمهور : ﴿ لبدا ﴾ بكسر اللام وفتح الباء ، وقرأ مجاهد وابن محيصن وهشام بضم اللام وفتح الباء ، وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميفع والعقيلى والجحدرى بضم الباء واللام ، وقرأ الحسن وأبو العالية والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة ، فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه ، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى: كثيرا كما فى قوله : ﴿ أهلكت مالا لبدا ﴾ [البلد : ٦] وقيل : المعنى : كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حردا على النبىّ ﷺ . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره، ويتم نوره ، واختار هذا ابن جرير قال مجاهد : ﴿ لبدا ﴾ أى جماعات ، وهو من تلبد الشىء على الشىء ،أى اجتمع ومنه : اللبد الذى يفرش لتراكم صوفه ، وكل شىء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته ،ويقال : للشعر الذى على ظهر الأسد لبدة ، وجمعها لبد ، ويقال:للجراد الكثير لبد ، ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشىء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان: لبد لطول بقائه ، وهو المقصود بقول النابغة:

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

﴿ **قال إنما أدعو ربى** ﴾ أى قال عبد الله : إنما أدعو ربى وأعبده ﴿ **ولا أشرك به أحدا** ﴾ من خلقه . قرأ الجمهور : ﴿ **قال** ﴾ وقرأ عاصم وحمزة : « قل » على الأمر ، وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نخبرك . ﴿ **قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا** ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّا ولا أسوق إليكم خيرا . وقيل : الضرّ الكفر ، والرشد الهدى ، والأوّل أولى لوقوع النكرتين فى سياق النفى ، فهما يعمان كل ضرر ، وكل رشد فى الدنيا والدين . ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد** ﴾ أى لا يدفع عنى أحد عذابه إن أنزله بى ﴿ **ولن أجد من دونه ملتحدا** ﴾ أى ملجأ ومعدلا وحرزا .والملتحد: معناه فى اللغة : المحال ، أى موضعا أميل إليه ، قال قتادة : مولى . وقال السدىّ : حرزا ، وقال الكلبى : مدخلا فى الأرض مثل السرب . وقيل : مذهبا ومسلكا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول الشاعر :

يالهف نفسى ولهفا غير مجدية عنى وما من قضاء الله ملتحد

والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا بلاغا من الله** ﴾ هو من قوله : ﴿ **لا أملك** ﴾ أى لا أملك ضرّا ولا رشدا إلا التبليغ من الله ، فإن فيه أعظم الرشد ، أو من ملتحدا ، أى لن أجد من دونه ملجأ إلا التبليغ . قال مقاتل : ذلك الذى يجيرنى من عذابه ، وقال قتادة : إلا بلاغا من الله ، فذلك الذى أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . قال الفراء : لكن أبلغكم ما أرسلت به ، ، فهو على هذا منقطع . وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : ﴿ **ملتحدا** ﴾ أى ولن أجد من دونه ملتحدا إلا أن أبلغ ما يأتى من الله ، وقوله : ﴿**ورسالاته** ﴾ معطوفا على ﴿ **بلاغا** ﴾ أى إلا بلاغا من الله وإلا رسالاته التى أرسلنى بها

إليكم ، أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته ، فآخذ نفسى بما آمر به غيرى . وقيل : الرسالات معطوفة على الاسم الشريف ، أى إلا بلاغا من الله وعن رسالاته ،كذا قال أبو حيان ورجحه ﴿ **ومن يعص الله ورسوله** ﴾ فى الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه ﴿ **فإن له نار جهنم** ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها جملة مستأنفة ، وقرئ بفتح الهمزة ، لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، والتقدير : فجزاؤه أن له نار جهنم ، أو فحكمة أن له نار جهنم . وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، أى فى النار أو فى جهنم ، والجمع باعتبار معنى مَنْ ، كما أن التوحيد فى قوله: ﴿ **فإن له** ﴾ باعتبار لفظها ، وقوله:﴿ **أبدا** ﴾ تأكيد لمعنى الخلود ،أى خالدين فيها بلا نهاية ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون** ﴾ يعنى: من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة، والمعنى: لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبى ﷺ والمؤمنين حتى إذا رأوا الذى يوعدون به ﴿ **فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقلّ عددا** ﴾ أى من هو أضعف جندا ينتصر به وأقلّ عددا أهم أم المؤمنون ؟

﴿ **قل إن أدرى أقريب ما توعدون** ﴾ أى ما أدرى أقريب حصول ما توعدون من العذاب ﴿ **أم يجعل له ربى أمدا** ﴾ أى غاية ومدة . أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الذى توعدنا به ؟ قال عطاء : يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده ، والمعنى : أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله . قرأ الجمهور ﴿ **ربى** ﴾ بإسكان الياء ، وقرأ الحرميان وأبو عمرو بفتحها ، « ومن » فى : ﴿ **من أضعف** ﴾ موصولة ، وأضعف خبر مبتدأ محذوف ، أى هو أضعف ، والجملة صلة الموصول ، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء وأضعف خبرها ، والجملة فى محل نصب سادة مسدّ مفعولى أدرى ، وقوله ﴿ **أقريب** ﴾ خبر مقدّم ﴿ **وما توعدون** ﴾ مبتدأ مؤخر .

﴿ **عالم الغيب** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربى ، أو بيان له أو خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررّة لما قبلها من عدم الدراية ، وقرئ بالنصب على المدح . وقرأ السدّى علم الغيب بصيغة الفعل ونصب الغيب ، والفاء فى : ﴿ **فلا يظهر على غيبه أحدا** ﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفردّه بعلم الغيب ، أى لا يطلع على الغيب الذى يعلمه ، وهو ما غاب عن العباد أحدا منهم . ثم استثنى فقال : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول** ﴾ أى إلا من اصطفاه من الرسل أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ليكون ذلك دالا على نبوته . قال القرطبى [1] : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكف ويزجر بالطين ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما

---

(١) القرطبى ١٠ / ٦٨١٩ .

يشاء من غيبه ، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه ، وقال سعيد بن جبير : إلا من ارتضى من رسول هو جبريل ، وفيه بعد . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول** ﴾ فإنه يطلعه على بعض غيبه ، وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة ، لا ما لا يتعلق برسالته من الغيوب ، كوقت قيام الساعة ونحوه . قال الواحدى : وفى هذا دليل على أن من ادّعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما فى القرآن . قال فى الكشاف [1] : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال للكهانة والتنجيم ، لأن أصحابها أبعد شىء من الارتضاء وأدخله فى السخط .

قال الرازى : وعندى لا دلالة فى الآية على شىء مما قالوه إذ لا صيغة عموم فى غيبه ، فتحمل على غيب واحد وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله : ﴿ **أقريب ما توعدون** ﴾ الآية ، فإن قيل : فما معنى الاستثناء حينئذ ؟ قلنا : لعله إذا قربت القيامة يظهره ، وكيف لا وقد قال: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة ، أو هو استثناء منقطع ، أى من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شرّ مردة الجنّ والإنس ، ويدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحداً على شىء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقا وسطيحا كانا كاهنين وقد عرّفا بحديث النبىّ ﷺ قبل ظهوره وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى . فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شىء من المغيبات ، وأيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة ويكون صادقا فيها ، وأيضا قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان وسألها عن أمور مستقبلة فأخبرته بها ، فوقعت على وفق كلامها ، قال : وأخبرنى ناس محققون فى علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل ، فكانت على وفق خبرها ، وبالغ أبو البركات فى كتاب التعبير فى شرح حالها وقال : فحصت عن حالها ثلاثين سنة ، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقا ، وأيضا فإنا نشاهد ذلك فى أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك فى السحرة أيضا ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف ، ولو قلنا : إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرّق الطعن إلى القرآن ، فيكون التأويل ما ذكرنا ، انتهى كلامه .

قلت : أما قوله إذ لا صيغة عموم فى غيبه فباطل ، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم كما صرّح به أئمة الأصول وغيرهم ، وأما قوله : أو هو استثناء منقطع فمجرّد

---

(١) الكشاف ٤ / ٦٣٢ .

دعوى يأباه النظم القرآنى ، وأما قوله : إن شقا وسطيحا إلخ ، فقد كانا فى زمن تسترق فيه الشياطين السمع ويلقون ما يسمعونه إلى الكهان فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت فى الحديث الصحيح [١] ، وفى قوله : ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ [الصافات : ١٠] ونحوها من الآيات ، فباب الكهانة قد ورد بيانه فى هذه الشريعة ، وأنه كان طريقا لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية . وقالوا : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾ فباب الكهانة فى الوقت الذى كانت فيه مخصوص بأدلته ، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية ، وأما حديث المرأة الذى أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شىء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد فى الحديث : « إن فى هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » [٢] فيكون كالتخصيص لعموم هذه الاية لا انقضاء لها ، وأما ما أجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله فى آخر كلامه فلو قلنا : إن القرآن يدلّ على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن فيقال له : ما هذه بأوّل زلة من زلاتك ، وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذى صار يتخبطك فى مباحث تفسيرك ياعجبا لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجبا لتطرّق الطعن إلى القرآن ! وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا :

وإذا رامت الذبابة للشمـ ... ـس غطاء مدّت عليها جناحا

وقلت من أبيات :

مهب رياح سده بجناح ... وقـابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآنى أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه ، فهل للرسول الذى أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته ؟ قلت : نعم ولا مانع من ذلك . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فمن ذلك ما صحّ أنه قام مقاما أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة ، وما ترك شيئا مما يتعلق بالفتن ونحوها . حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه . وكذلك ما ثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتن بعده [٣] ، حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه ، وثبت فى الصحيح وغيره أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التى تموج كموج البحر ، فقال : إن بينك وبينها بابا ، فقال عمر : هل يفتح أو يكسر؟ فقال : بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب ، وأن كسره قتله ، كما فى الحديث الصحيح المعروف

---

(١) سبق تخريجه فى أول السورة . (٢) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٩٨ / ٢٣) عن عائشة .
(٣) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩١ / ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) .

أنه قيل لحذيفة : هل كان عمر يعلم ذلك ؟ فقال : نعم كان يعلم أن دون غد الليلة[١] ، وكذلك ما ثبت من إخباره لأبى ذرّ بما يحدث له [٢] ، وإخباره لعلىّ بن أبى طالب بخير ذى الثدية [٣] ، ونحو هذا مما يكثر تعدده ، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقلّ ، وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختصّ بعض صلحاء هذه الأمة بشىء من أخبار الغيب التى أظهرها الله لرسوله ، وأظهرها رسوله لبعض أمته ، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الرّبانى بواسطة الجناب النبوى .

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذى يطلع عليه الرسول فقال : ﴿ **فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء ، والمعنى : أنه يجعل سبحانه بين يدى الرسول ومن خلفه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدى الوحى وخلفه حرسا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين ، فتلقيه إلى الكهنة ، والمراد من جميع الجوانب ، قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا : هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا : هذا رسول ربك ، قال ابن زيد : ﴿ **رصدا** ﴾ أى حفظة يحفظون النبىّ ﷺ من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين ، قال قتادة وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة ، وقال الفراء : المراد جبريل . قال فى الصحاح : الرصد : القوم يرصدون كالحرس يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث ، والرصد للشىء : الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصْدا ورصدا ، والترصد : الترقب ، والمرصد : موضع الرصد .

﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ اللام متعلق بـ ﴿ **يسلك** ﴾ والمراد به : العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذى أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير ﴿**أبلغوا** ﴾ يعود إلى الرصد ، وقال قتادة ومقاتل : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وفيه حذف تتعلق به اللام ، أى أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ . وقيل : ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط . وقال ابن قتيبة : أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم ، وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ،

---

(١) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩٣ / ٢٦) .
(٢) أحمد ٥ / ١٥٥ وابن حبان (٦٦٣٥) والحاكم ٣ / ٣٤٥ وسكت عنه ، ووافقه الذهبى .
(٣) أحمد ٣ / ٥٦ ومسلم فى الزكاة (١٤٧ / ١٤٨) والنسائى فى الكبرى (٨٥٦٨ / ١) والبيهقى ٨/ ١٧١ وفى دلائله ٦ / ٤٠١ ، ٤٠٢ .

قرأ الجمهور : ﴿ **ليعلم** ﴾ بفتح التحتية على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب وزيد بن عليّ بضمها على البناء للمفعول ، أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا ، وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته ، أى ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيبا ، وقرأ ابن أبى عبلة والزهرى بضم الياء وكسر اللام ﴿ **وأحاط بما لديهم** ﴾ أى بما عنده الرصد من الملائكة ، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **يسلك** ﴾ بإضمار قد ، أى والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال : قال سعيد بن جبير : ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته ، ﴿ **وأحصى كلّ شىء عددا** ﴾ من جميع الأشياء التى كانت والتى ستكون وهو معطوف على أحاط ، وعددا يجوز أن يكون منتصبا على التمييز محوّلا من المفعول به ، أى وأحصى عدد كل شىء كما فى قوله : ﴿وفجرنا الأرض عيونا ﴾ [القمر : ١٢] ويجوز أن يكون منصوبا على المصدرية ، أو فى موضع الحال : معدودًا ، والمعنى : أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال ، بل على وجه التفصيل : أى أحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ **القاسطون** ﴾ العادلون عن الحقّ . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **وألوا ستقاموا على الطريقة** ﴾ قال : أقاموا ما أمروا به ﴿**لأسقيناهم ماء غدقا** ﴾ قال : معينا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدّى قال : قال عمر : ﴿ **وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه** ﴾ قال : حيثما كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿**لنفتنهم فيه**﴾ قال : لنبتليهم به ، وفى قوله : ﴿ **ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابًا صعدا** ﴾ قال: شقة من العذاب يصعد فيها . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **يسلكه عذابا صعدا** ﴾ قال : جبلا فى جهنم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ﴿ **عذابا صعدا** ﴾ قال : لا راحة فيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وأن المساجد لله** ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيلياء ببيت المقدس .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، عن ابن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى نواحى مكة فخط لى خطا ، وقال : « لا تحدثن شيئا حتى آتيك » ، ثم قال : « لا يهولنك شيئا تراه ، فتقدم شيئا » ، ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزطّ ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ **كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : لما سمعوا النبى ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول ،

(١) البيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٢٧ .

فجعل يقرئه : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ** ﴾ [(١)] . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضًا فى الآية قال : لما أتى الجنّ إلى رسول الله ﷺ وهو يصلى بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، فعجبوا من طواعية أصحابه ، فقالوا لقومهم لما قام عبد الله يدعوه : ﴿**كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ [(٢)] . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **لما قام عبد الله يدعوه** ﴾ أى يدعو الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ قال : أعوانا .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول** ﴾ قال : أعلم الله الرسول من الغيب : الوحى وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضًا : ﴿**رصدا** ﴾ قال : هى معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذى أرسل إليهم به، وذلك حتى : يقول أهل الشرك : قد أبلغوا رسالات ربهم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها ، حتى يؤدوها إلى رسول الله ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ يعنى : الملائكة الأربعة ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٢٩ / ٧٤ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٢٣) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٢٩ / ٧٤ وصححه الحاكم ٢ / ٥٠٤ ، ووافقه الذهبى .

تفسير سورة المزمل

هى تسع عشرة آية . وقيل : عشرون آية . وهى مكية . قال الماوردى : كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر ، قال : وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها : ﴿ **واصبر على ما يقولون** ﴾ والتى تليها . وقال الثعلبى : إلا قوله : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم** ﴾ إلى آخر السورة فإنه نزل بالمدينة . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة المزّمل بمكة إلا آيتين : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ...** ﴾ . وأخرج البزار ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة ، فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تصدّون الناس عنه : فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، فتفرّق المشركون على ذلك ، فبلغ النبى ﷺ فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل ، فقال : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ ﴿ يأيها المدثر ﴾ [المدثر : ١] (١) . قال البزار بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرحمن : إن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه ؛ لكنه إذا تفرّد بالأحاديث لا يتابع عليها . وأخرج أبو داود ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : بتُّ عند خالتى ميمونة ، فقام النبى ﷺ يصلى من الليل ، فصلى ثلاث عشرة ركعة ، منها ركعتا الفجر ، فحزرت قيامه فى كل ركعة بقدر ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٣ : « فيه معلى بن عبد الرحمن الواسطى ، وهو كذاب » .

(٢) أبو داود فى الصلاة (١٣٦٥) والبيهقى فى الصلاة ٣ / ٨ .

السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨)﴾ .

قولـه : ﴿ **يأيهـا المزّمل** ﴾ أصله المتزمّل فأدغمت التاء فى الـزاى ، والتزمل : التلفف فى الـثوب . قـرأ الجمهـور : ﴿**المزمل**﴾ بالإدغام . وقرأ أبى :« المتزمل » على الأصل . وقرأ عكرمة بتخفيف الزاى ، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى أفانين وبله ‏ ‏ ‏ ‏ كبير أناس فى لحاد مزمل

وهذا الخطاب للنبىّ ﷺ ، وقد اختلف فى معناه ، فقال جماعة : إنه كان يتزمل ﷺ بثيابه فى أوّل ما جاءه جبريل بالوحى فرقا منه حتى أنس به . وقيل: المعنى : يأيها المزمل بالنبوة والملتزم بالرسالة ، وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ : « يأيها المزمل » بتخفيف الزاى وفتح الميم مشدّدة اسم مفعول . وقيل : المعنى : يأيها المزمل بالقرآن ، وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه . وقيل : بلغه من المشركين سوء قول ، فتزمل فى ثيابه وتدثر ، فنزلت : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ و ﴿ يأيها المدثر ﴾ [المدثر : ١] . وقـد ثبت أن النبىّ ﷺ لما سمـع صـوت الملـك ونظـر إليه أخذته الرعدة ، فأتى أهله وقال : « زملونى دثرونى » [(١)] وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب فى أول نزول الوحى .

ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة : ﴿ **قم الليل إلا قليلا** ﴾ أى قم للصلاة فى الليل. قرأ الجمهور : ﴿ قم ﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين ، وقرأ أبو السماك بضمها اتباعا لضمة القاف . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأىّ حركة تحرك فقد وقع الغرض ، وانتصاب الليل على الظرفية . وقيل : إن معنى ﴿ **قم** ﴾ : صلّ ، عبر به عنه واستعير له . واختلف هل كان هذا القيام الذى أمر به فرضا عليه أو نفلا ؟ وسيأتى إن شاء الله ما روى فى ذلك . وقوله : ﴿ **إلا قليلا** ﴾ استثناء من الليل ، أى صـلّ الليـل كلـه إلا يسيرا منه ، والقليل من الشىء : هو ما دون النصف . وقيل : ما دون السـدس، وقيـل : ما دون العشر . وقال مقاتل والكلبى : المراد بالقليل هنا: الثلث ، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله: ﴿ نصفه ﴾ إلخ، وانتصاب ﴿ نصفه ﴾ على أنه بدل من الليل . قال الزجاج : نصفه :بدل من الليل، وإلا قليلا استثناء من النصف ، والضمير فى منه وعليه عائد إلى النصف . والمعنى : قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ، فكأنه قال : قم ثلثى الليل ، أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن نصفـه بـدل من قولـه : ﴿ قليلا ﴾ فيكـون المعنى : قم الليل إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه . قال الأخفش : نصفه، أى أو نصفه كما يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة ، يريد أو درهمين أو ثلاثة . قال الواحدى : قال المفسرون : أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين ، جعل له سعة فى مدة قيامه فى الليل وخيره فى هذه الساعات

(١) البخارى فى بدء الوحى (٤) ومسلم فى الإيمان (١٦١ / ٢٥٥ ـ ٢٥٨) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٥) عن جابر .

للقيام ، فكان النبىّ ﷺ وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشقّ ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدرى كم صلى أوكم بقى من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم . وقيل : الضميران فى منه وعليه راجعان للأقل من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقلّ ، أو أزيد منه قليلا ، وهو بعيد جدّا . والظاهر أن نصفه بدل من﴿قليلا﴾ والضميران راجعان إلى النصف المبدل من ﴿ قليلا﴾ . واختلف فى الناسخ لهذا الأمر ، فقيل : هو قوله : ﴿إنّ ربّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ﴾ إلى آخر السورة . وقيل : هو قوله : ﴿ علم أن لن تحصوه﴾ وقيل : هو قوله : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وبهذا قال مقاتل والشافعى وابن كيسان . وقيل : هو قوله : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ وذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ، ولو قدر حلب شاة ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى اقرأه على مهل مع تدبر . قال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . قال الزجاج : هو أن يبين جميع الحروف ، ويوفى حقها من الإشباع . وأصل الترتيل : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، وتأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة .

﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ أى سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده ، قال مجاهد : حلاله وحرامه . قال الحسن : العمل به . قال أبو العالية: ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام،وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسبّ آلهتهم، وقال السدىّ :ثقيل: بمعنى كريم، من قولهم : فلان ثقيل علىّ ، أى يكرم علىّ . قال الفراء : ثقيلا: رزينا ليس بالخفيف السفساف ؛ لأنه كلام ربنا ، وقال الحسن بن الفضل : ثقيلا: لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد .وقيل :وصفه بكونه ثقيلا حقيقة ، لما ثبت أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرّى عنه (١) .

﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أى ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أوّلا ، يقال :نشأ الشىء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شىء فهو ناشئ ، وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحاب : إذا بدأت، فناشئة فاعلة من نشأ ينشأ فهى ناشئة . قال الزجاج . ناشئة الليل : كل ما نشأ منه ، أى حدث ، فهو ناشئة . قال الواحدى : قال المفسرون : الليل كله ناشئة ، والمراد : أن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف . وقيل : إن ناشئة الليل هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة ، أى تنهض ، من نشأ من مكانه إذا نهض . وقيل : الناشئة بالحبشية: قيام الليل . وقيل : إنما يقال لقيام الليل : ناشئة ، إذا كان بعد نوم قال ابن الأعرابى إذا نمت من أوّل الليل فقمت فتلك المنشأة والنشأة ، ومنه : ناشئة الليل . قيل :

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥٠٥ ووافقه الذهبى ، وهو عن عائشة .

وناشئة الليل هى : ما بين المغرب والعشاء ؛ لأن معنى نشأ : ابتدأ ، ومنه قول نصيب :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار

قال عكرمة وعطاء : إن ناشئة الليل :بدوّ الليل ، وقال مجاهد وغيره : هى فى الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار . واختار هذا مالك . وقال ابن كيسان : هى القيام من آخر الليل . قال فى الصحاح : ناشئة الليل : أوّل ساعاته . وقال الحسن : هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح ﴿ هى أشدّ وطأ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وطأ ﴾ بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ أبو العالية وابن أبى إسحاق ومجاهد وأبو عمرو وابن عامر وحميد وابن محيصن والمغيرة وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، فالمعنى على القراءة الأولى : أن الصلاة فى ناشئة الليل أثقل على المصلى من صلاة النهار ؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة : المعنى : أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار ، ومن قول العرب : اشتدت على القوم وطأة السلطان : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، ومنه قوله ﷺ : «اللهمّ اشدد وطأتك على مضر » (١) ، والمعنى على القراءة الثانية : أنها أشدّ مواطأة ، أى موافقة ، من قولهم : واطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء : إذا وافقته عليه . قال مجاهد وابن أبى مليكة : أى أشد موافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه : ﴿ ليواطئوا عدة ما حرّم الله ﴾ [التوبة : ٣٧] أى ليوافقوا . وقال الأخفش: أشد قياما . وقال الفراء : أى أثبت للعمل ، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبى : أشد نشاطا ﴿وأقوم قيلا ﴾ أى وأشدّ مقالا وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهدوء الأصوات ، وأشد استقامة واستمرارا على الصواب ؛ لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلى ما يقرأه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم . قال أبو على الفارسى : أقوم قيلا ، أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل . قال الكلبى : أى أبين قولا بالقرآن . وقال عكرمة : أى أتمّ نشاطا وإخلاصا وأكثر بركة . وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه فى القرآن . وقيل : أعجل إجابة للدعاء .

﴿ إن لك فى النها سبحا طويلا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ سبحا ﴾ بالحاء المهملة ، أى تصرفا فى حوائجك وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا ، والسبح : الجرى والدوران ، ومنه السباحة فى الماء لتقلبه ببدنه ورجليه ، وفرس سابح ، أى شديد الجرى . وقيل : السبح: الفراغ ، أى إن لك فراغا بالنهار للحاجات ، فصلّ بالليل . قال ابن قتيبة : أى تصرّفا وإقبالا وإدبارا فى حوائجك وأشغالك . وقال الخليل : إن لك فى النهار سبحا . أى نوما ، والتسبح : التمدّد . قال الزجاج : المعنى: إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ للاستدراك ، وقرأ يحيى بن

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٨٦) ومسلم فى المساجد (٦٧٥ / ٢٩٤) وأبو داود فى الصلاة (١٤٤٢) عن أبى هريرة .

يعمر وأبو وائل وابن أبى عبلة : « سبخا » بالخاء المعجمة . قيل : ومعنى هذه القراءة: الخفة والسعة والاستراحة . قال الأصمعى : يقال : سبخ الله عنك الحمّى ، أى خففها ، وسبخ الحر: فتر وخف ، ومنه قول الشاعر :

فسبخ عليك الهمّ واعلم بأنـه إذا قدّر الرحمن شيئا فكـائـن

أى خفف عنك الهمّ ، والتسبيخ من القطن: ما ينسج بعد الندف ، ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما تذرى سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب :السبخ بالخاء المعجمة : التردد والاضطراب ، والسبخ : السكون ، وقال أبو عمرو : السبخ : النوم والفراغ. ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أى ادعه بأسمائه الحسنى . وقيل : اقرأ باسم ربك فى ابتداء صلاتك . وقيل : اذكر اسم ربك فى وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته . وقيل : المعنى : دم على ذكر ربك ليلا ونهارا واستكثر من ذلك . وقال الكلبى : المعنى : صلّ لربك ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ أى انقطع إليه انقطاعا بالاشتغال بعبادته ، والتبتل:الانقطاع ، يقال: بتلت الشيء ، أى قطعته وميزته من غيره ، وصدقة بتلة ، أى منقطعة من مال صاحبها، ويقال : للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، ومنه قول الشاعر :

تضيء الظلام بالعشاء كأنهـا منـارة ممسى راهب متبتـل

ووضع ﴿ تبتيلا ﴾ مكان تبتلا لرعاية الفواصل . قال الواحدى : التبتل : رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله . ﴿ ربّ المشرق والمغرب ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر وابن عامر بجرّ ربّ على النعت لربك أو البدل منه أو البيان له. وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ ، وخبره :﴿ لا إله إلا هو ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى هو ربّ المشرق . وقرأ زيد بن علىّ بنصبه على المدح . وقرأ الجمهور : ﴿ المشرق والمغرب ﴾ مفردين . وقرأ ابن مسعود وابن عباس : « المشارق والمغارب » على الجمع . وقد قدّمنا تفسير المشرق والمغرب ، والمشرقين والمغربين ، والمشارق والمغارب ﴿ فاتخذه وكيلا ﴾ أى إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلا ، أى قائما بأمورك ، وعوّل عليه فى جميعها . وقيل : كفيلا بما وعدك من الجزاء والنصر .﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ من الأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك ﴿واهجرهم هجرا جميلا﴾ أى لا تتعرّض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم . وقيل : الهجر الجميل: الذى لا جزع فيه . وهذا كان قبل الأمر بالقتال .

﴿ وذرنى والمكذبين ﴾ أى دعنى وإياهم ولا تهتم بهم فإنى أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم . قيل : نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة وقد تقدم ذكرهم . وقال يحيى بن سلام : هم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم اثنا عشر ﴿ أولى النعمة ﴾ أى أرباب الغنى والسعة والترفه واللذة فى الدنيا ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ أى تمهيلا قليلا على أنه نعت

لمصدر محذوف ، أو زمانا قليلا على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى : أمهلهم إلى انقضاء آجالهم . وقيل : إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، والأول أولى لقوله : ﴿ **إنّ لدينا أنكالا** ﴾ وما بعده فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل وهو القيد ، كذا قال الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال الكلبى : الأنكال : الأغلال ، والأوّل أعرف فى اللغة ، ومنه قول الخنساء :

أتــوك فـقـطـعت أنكـالهـم وقـد كـنّ قبـلك لا تقطــع

وقال مقاتل : هى أنواع العذاب الشديد ، وقال أبو عمران الجونى : هى قيود لا تحلّ ﴿**وجحيما** ﴾ أى نارا مؤججة ﴿ **وطعاما ذا غـصة** ﴾ أى لا يسوغ فى الحلق بل ينشب فيه ، فلا ينزل ولا يخرج . قال مجاهد : هو الزقوم . وقال الزجاج : هو الضريع ،كما قال : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية : ٦] قال : وهو شوك العوسج . قال عكرمة: هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج ، والغصة : الشجا فى الحلق ، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره ، وجمعها غصص ﴿ **وعذابا أليما** ﴾ أى ونوعا آخر من العذاب غير ما ذكر . ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال** ﴾ انتصاب الظرف إما بذرنى ، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا ، أو هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف ، أى عذابا واقعا يوم ترجف ، أو متعلق بـ﴿ **أليما** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **ترجف** ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مبنيا للفاعل . وقرأ زيد بن علىّ على البنـاء للمفعـول ، مأخـوذ من أرجفها ، والمعنى : تتحرك وتضطرب بمن عليها ، والرجفة : الزلزلة والرعدة الشديدة ﴿ **وكانت الجبال كثيبا مهيلا** ﴾ أى وتكون الجبال ، وإنما عبر عنه بالمـاضى ؛ لتحقق وقـوعه ، والكثيب : الرمـل المجتمع ، والمهيل : الذى يمرّ تحت الأرجل . قال الواحدى: أى رملا سائلا . يقال لكل شىء أرسلته إرسالا من تراب أو طعام: أهلته هيلا . قال الضحاك والكلبى : المهيل : الذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال، ومنه قول حسان :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحى فى الورق القشيب

﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم** ﴾ الخطاب لأهل مكة أو للكفار العرب أو لجميع الكفار . والرسول محمد ﷺ ، والمعنى : يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم ﴿ **كما أرسلنا إلى فرعون رسولا** ﴾ يعنى : موسى . ﴿**فعصى فرعون الرسول** ﴾ الذى أرسلناه إليه وكذبه ولم يؤمن بما جاء به ، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه ﴿**فأخذناه أخذا وبيلا** ﴾ أى شديدا ثقيلا غليظا ، والمعنى : عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق ، وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به وإن اختلف نوع العقوبة . قال الزجاج : أى ثقيلا غليظا، ومنه قيل للمطر : وابل .وقال الأخفش : شديدا ،والمعنى متقارب ،ومنه طعام وبيل :

إذا كان لا يستمرأ، ومنه قول الخنساء :

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت   فوارس مالك أكلا وبيلا

﴿ فكيف تتقون ﴾ أى كيف تتقون أنفسكم ﴿ إن كفرتم ﴾ أى إن بقيتم على كفركم ﴿يوما﴾ أى عذاب يوم ﴿يجعل الولدان شيبا ﴾ لشدّة هوله ، أى يصير الولدان شيوخا ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة ، وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلا ؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ فى الضعف وسقوط القوّة ، وفى هذا تقريع لهم شديد وتوبيخ عظيم . قال الحسن : أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم ؟ وكذا قرأ ابن مسعود وعطية ، ويوما مفعول به لتتقون . قال ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم بـ﴿كفرتم﴾، وهذا قبيح ، والولدان : الصبيان ، ثم زاد فى وصف ذلك اليوم بالشدّة فقال : ﴿ السماء منفطر به ﴾ أى متشققة به لشدّته وعظيم هوله ، والجملة صفة أخرى ليوم ، والباء سببية. وقيل : هى بمعنى فى ، أى منفطر فيه . وقيل : بمعنى اللام ، أى منفطر له ، وإنما قال : ﴿ منفطر ﴾ ولم يقل: « منفطرة »؛ لتنزيل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت ، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل : « منفطرة »؛ لأن مجازها السقف ، كما قال الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوما   لحقنا بالسماء وبالسحاب

فيكون هذا كما فى قوله : ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ [الأنبياء : ٣٢] . وقال الفراء : السماء تذكر وتؤنث، وقال أبو علىّ الفارسى : هو من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر ، و ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر: ٢٠] قال أيضا: أى السماء ذات انفطار كقولهم: امرأة مرضع ، أى ذات إرضاع على طريق النسب ، وانفطارها؛ لنزول الملائكة، كما قال: ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : ١] ، وقوله : ﴿ السموات يتفطرن من فوقهنّ ﴾ [الشورى : ٥]. وقيل : منفطر به ، أى بالله والمراد : بأمره ، والأوّل أولى ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ أى وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائنا لا محالة ، والمصدر مضاف إلى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولا ، فالمصدر مضاف إلى مفعوله ، وقال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، والبيهقى فى سننه عن سعد بن هشام قال . قلت لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة : ﴿ يأيها المزمل ﴾ ؟ قلت : بلى، قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ،

وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهرًا ، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضه . وقد روى هذا الحديث عنها من طرق [١] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ومحمد بن نصر والطبرانى ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت أوّل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : لما نزلت : ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾ فاستراح الناس .

وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن نصر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : فى المزمل : ﴿ **قم الليل إلا قليلا .نصفه** ﴾ نسختها الآية التى فيها: ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمل : ٢٠] وناشئة الليل: أوّله ، كان صلاتهم أوّل الليل ، يقول : هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ ، وقوله : ﴿ **أقوم قيلا** ﴾ هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن ، وقوله : ﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلا** ﴾ يقول : فراغا طويلا . وأخرج الحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **يأيها المزمل**﴾ قال : زملت هذا الأمر فقم به . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية أيضا قال : يتزمل بالثياب . وأخرج الفريابى عن أبى صالح عنه أيضا : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ قال : تقرأ آيتين ثلاثا ثم تقطع لا تهدر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن منيع فى مسنده ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ومحمد بن نصر عنه أيضا : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ قال : بينه تبيينا . وأخرج العسكرى فى المواعظ عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا نحوه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر ، والحاكم وصححه عن عائشة : أن النبىّ ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسرّى عنه ، وتلت : ﴿ **إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا** ﴾ [٣] . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**إنّ ناشئة الليل** ﴾ قال : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا : نشأ . وأخرج البيهقى عنه قال : ﴿ **ناشئة الليل** ﴾ أوّله . وأخرج ابن المنذر وابن نصر عنه أيضا قال : الليل كله ناشئة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ﴿ **ناشئة الليل**﴾ بالحبشة : قيام الليل . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن نصر ، والبيهقى فى

(١) أحمد ٦ / ٥٤ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦ / ١٣٩) وأبو داود فى الصلاة (١٣٤٢) والنسائى فى التفسير (٦٤٧) والبيهقى فى السنن ٣ / ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٧٧٩١) وابن جرير ٢٩/ ٧٨وصححه الحاكم ٢/٥٠٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢/ ٥٠٠ .

(٣) أحمد ٦ / ١١٨ وابن جرير ٢٩ / ٨٠ وصححه الحاكم ٢ / ٥٠٥ ووافقه الذهبى .

سننه عن أنس بن مالك قال : ﴿ ناشئة الليل ﴾ ما بين المغرب والعشاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنّ لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ قال : السبح: الفراغ للحاجة والنوم . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ﴾ لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر [1]. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود : ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ قال : قيودا. وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن عباس : ﴿ وطعاما ذا غصة ﴾ قال : شجرة الزقوم . وأخرج الحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ كثيبا مهيلا ﴾ قال : المهيل: الذى إذا أخذت منه شيئا تبعك آخره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا: ﴿ كثيبا مهيلا ﴾ قال : الرمل السائل ، وفى قوله: ﴿ أخذا وبيلا ﴾ قال : شديدا .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ يجعل الولدان شيبا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار ، قال : من كم يارب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين وينجو واحد » ، فاشتدّ ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك فى وجوههم : « إن بنى آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ، ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » [2] . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه . وأخرج الغريابى وابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : ممتلئة بلسان الحبشة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : مثقلة موقرة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى الآية قال : يعنى : تشقق السماء .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

---

(١) أبو يعلى (٤٥٧٨) وابن جرير ٢٩ / ٨٤ وصححه الحاكم ٤ / ٥٩٥ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) الطبرانى (١٢٠٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٣٣ : « فيه عثمان بن عطاء الخراسانى ، وهو ضعيف » وقال ابن كثير ٧ / ١٤٩ : « هذا حديث غريب » .

الإشارة بقوله : ﴿ **إن هذه** ﴾ إلى ما تقدّم من الآيات ، والتذكرة: الموعظة ، والإشارة إلى جميع آيات القرآن لا إلى ما فى هذه السورة فقط ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ أى اتخذ بالطاعة التى أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقا توصله إلى الجنة . ﴿ **إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل** ﴾ معنى ﴿ **أدنى** ﴾ : أقلّ ، استعير له الأدنى ؛ لأن المسافة بين السنين إذا دنت قلّ ما بينهما ﴿ **ونصفه** ﴾ معطوف على أدنى ﴿ **وثلثه** ﴾ معطوف على نصفه ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقلّ من ثلثى الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه ، وبالنصب قرأ ابن كثير والكوفيون ، وقرأ الجمهور : « ونصفه وثلثه » بالجرّ عطفا على ثلثى الليل ، والمعنى: أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقلّ من ثلثى الليل وأقلّ من نصفه وأقلّ من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبـو عبيد وأبـو حـاتم لقولـه : ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه ؟ وقال الفرّاء : القراءة الأولى أشبه بالصواب ؛ لأنه قال : أقل من ثلثى الليل، ثم فسر نفس القلة ﴿ **وطائفة من الذين معك** ﴾ معطوف على الضمير فى تقوم ، أى وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك .

﴿ **والله يقدّر الليل والنهار** ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ويختص بذلك دون غيره وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة . قال عطاء : يريد لا يفوته علم ما تفعلون ، أى أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم قدر الذى تقومون من الليل ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ أن لن تطيقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة ، وفى أن ضمير شأن محذوف ، وقيل : المعنى : لن تطيقوا قيام الليل . قال القرطبى : والأوّل أصحّ ، فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل وغيره : لما نزل : ﴿ **قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه** ﴾ شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم فرحمهم الله وخفف عنهم فقال : ﴿**علم أن لن تحصوه** ﴾ أى علم أن لن تحصوه لأنكم إن زدتم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضا،وإن نقصتم شق ذلك عليكم . ﴿ **فتاب عليكم** ﴾ أى فعاد عليكم بالعفو ، ورخص لكم فى ترك القيام . وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التـوبة: الرجـوع كما تقدّم ،فالمعنى : رجع لكم من التثقيل إلى التخفيف [١] ، ومن العسر إلى اليسر.

﴿ **فاقرؤوا ما تيسر من القرآن** ﴾ أى فاقرؤوا فى الصلاة بالليل ماخف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتا.قال الحسن : هو ما نقرأ فى صلاة المغرب والعشاء . قال السدى : ما تيسر منه هو مائة آية . قال الحسن أيضا : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن . وقال كعب : من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية . وقيل : معنى ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه** ﴾ : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرآنا ،كقوله: ﴿ وقرآن الفجر ﴾ [الإسراء : ٧٨] . قيل : إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه ،

(١) فى المطبوعة : « التخويف » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

والنقصان من النصف ، والزيادة عليه ، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضا ثابتا ، ويحتمل أن يكون منسوخا لقوله : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . قال الشافعي : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدلّ على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس . وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ فى حقه ﷺ وفى حق أمته . وقيل : نسخ التقدير بمقدار ، وبقى أصل الوجوب . وقيل : إنه نسخ فى الأمة ، وبقى فرضا فى حقه ﷺ ، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم فى حقه ﷺ وفى حق أمته ، وليس فى قوله : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه** ﴾ ما يدل على بقاء شىء من الوجوب لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن : فقد وجدت فى صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل: فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوّع . وأيضا الأحاديث الصحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول الله ﷺ : هل علىّ غيرها ؟ يعنى : الصلوات الخمس. فقال : « لا ، إلا أن تطوّع »[1] تدل على عدم وجوب غيرها ، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة كما ارتفع وجوب ذلك على النبىّ ﷺ بقوله : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ [الإسراء : ٧٩] قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾ كان هذا فى صدر الإسلام ، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين ، وثبت على النبىّ ﷺ خاصة، وذلك قوله : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال : ﴿ **علم أن سيكون منكم مرضى** ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ﴿ **وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله** ﴾ أى يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه فى معاشهم فلا يطيقون قيام الليل ﴿ **وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** ﴾ يعنى : المجاهدين ، فلا يطيقون قيام الليل ، ذكر سبحانه ها هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ، ورفع وجوب قيام الليل ، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التى تنوب بعضهم . ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال : ﴿ **فاقرؤوا ما تيسر منه** ﴾ وقد سبق تفسيره قريبا ، والتكرير للتأكيد ﴿**وأقيموا الصلاة** ﴾ يعنى :المفروضة وهى الخمس لوقتها ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ يعنى : الواجبة فى الأموال ، وقال الحارث العكلى : هى صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوّع . وقيل : كل أفعال الخير ﴿**وأقرضوا الله قرضا حسنا** ﴾ أى أنفقوا فى سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا ، وقد مضى تفسيره فى سورة الحديد . قال زيد بن أسلم : القرض الحسن : النفقة على الأهل . وقيل : النفقة فى الجهاد . وقيل : هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن ، فيكون تفسيرا لقوله : ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ والأول أولى لقوله : ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله** ﴾ فإن ظاهره

(١) البخارى فى الإيمان (٤٦) ومسلم فى الإيمان (١١ / ٨ ، ٩) وأبو داود فى الصلاة (٣٩١) والنسائى ٢٢٧/١ ، ٢٢٨ .

العموم ، أى أىّ خير كان مما ذكر ومما لم يذكر ﴿ هو خيرا وأعظم أجرا ﴾ مما تؤخرونه إلى عند الموت أو توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب ﴿خير﴾ على أنه ثانى مفعولى تجدوه ، وضمير هو ضمير فصل ، وبالنصب قرأ الجمهور وقرأ أبو السماك وابن السميفع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ وخير خبره ، والجملة فى محل نصب على أنها ثانى مفعولى تجدوه ، قال أبو زيد : وهى لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وأنشد سيبويه :

تحنّ إلى ليلى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملاء أنت أقدر

وقرأ الجمهور أيضا :﴿ وأعظم ﴾ بالنصب عطفا على ﴿ خيرا ﴾ . وقرأ أبو السماك بالرفع كما قرأ برفع « خير» وانتصاب ﴿ أجرا ﴾ على التمييز ﴿ واستغفروا الله ﴾ أى اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم فإنكم لاتخلون من ذنوب تقترفونها ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى كثير المغفرة لمن استغفره ،كثير الرحمة لمن استرحمه.

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس عن النبى ﷺ ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ قال : «مائة آية » [١] .[قال ابن كثير : هذا حديث غريب جدا لم أره إلا فى معجم الطبرانى] [٢] . وأخرج الدارقطنى والبيهقى فى سننه وحسناه عن قيس بن أبى حازم قال: صليت خلف ابن عباس . فقرأ فى أول ركعة بالحمد لله ربّ العالمين ، وأول آية من البقرة ثم ركع ، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إن الله يقول: ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾[٣]. وأخرج أحمد ، والبيهقى فى سننه عن أبى سعيد قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر [٤] . وقد قدّمنا فى البحث الأوّل من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هى الناسخة لوجوب قيام الليل ، فارجع إليه .

---

(١) الطبرانى (١٠٩٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣٣ : « فيه عبد الرحمن بن طاووس ولم أعرفه ، وبقية رجاله وثقوا » وقال ابن كثير ٧ / ١٥١ : « هذا حديث غريب جدا لم أره إلا فى معجم الطبرانى » .

(٢) ما بين المعقوفتين ورد فى المخطوطة بعد حديث قيس بن أبى حازم ، والصحيح ما أثبتناه كما فى ابن كثير ١٥١/٧ .

(٣) الدارقطنى ١ / ٣٣٨ وقال : « هذا إسناد حسن » والبيهقى ٢ / ٤٠ .

(٤) أحمد ٣ / ٣ ، ٤٥ ، ٩٧ والبيهقى ٢ / ٦٠ .

تفسير سورة المدثر

هى ست وخمسون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المدثر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وسيأتى أن أول هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ⑴ قُمْ فَأَنذِرْ ⑵ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ⑶ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ⑷ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑸ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑹ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑺ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ⑻ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑼ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑽ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ⑿ وَبَنِينَ شُهُودًا ⒀ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ⒁ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⒂ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ⒃ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ⒄ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⒅ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⒆ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⒇ ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ .

قال الواحدى : قال المفسرون : لما بدئ رسول الله ﷺ بالوحى أتاه جبريل ، فرآه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ ، ففزع ووقع مغشيًا عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه ، وقال : «دثرونى دثرونى » ، فدثروه بقطيفة، فقال : ﴿ **يأيها المدثر . قم فأنذر** ﴾ ومعنى ﴿**يأيها المدثر** ﴾ : يأيها الذى قد تدثر بثيابه ، أى تغشى بها ، وأصله المتدثر ، فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما . وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبى «المتدثر» على الأصل ، والدثار : هو ما يلبس فوق الشعار ، والشعار : هو الذى يلى الجسد ، وقال عكرمة : المعنى يأيها المدثر بالنبوّة وأثقالها . قال ابن العربى : وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبيا إذ ذاك ﴿ **قم فأنذر** ﴾ أى انهض فخوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم . وقيل : الإنذار هنا: هو إعلامهم بنبوّته . وقيل : إعلامهم بالتوحيد ، وقال الفراء : المعنى : قم فصلّ وأمر بالصلاة . ﴿**وربك فكبر** ﴾ أى واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار وأعظم من أن يكون له صاحبة ، أو ولد . قال ابن العربى : المراد به : تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد

والأصنام ولا يتخذ وليا غيره ولايعبد سواه ، ولا يرى لغيره فعلا إلا له ، ولا نعمة إلا منه . قال الزجاج : إن الفاء فى: ﴿ فكبر ﴾ دخلت على معنى الجزاء كما دخلت فى: ﴿ فأنذر ﴾ . وقال ابن جنى : هو كقولك : زيدا فاضرب ،أى زيدا اضرب فالفاء زائدة . ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ المراد بها : الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوى ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها من النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها . وقيل : المراد بالثياب : العمل . وقيل : القلب. وقيل : النفس . وقيل : الجسم . وقيل : الأهل . وقيل : الدين . وقيل : الأخلاق . قال مجاهد وابن زيد وأبو رزين : أى عملك فأصلح . وقال قتادة : نفسك فطهر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس . وقال سعيد بن جبير : قلبك فطهر ، ومن هذا قول امرئ القيس :

فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقال عكرمة: المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة . وقال : أما سمعت قول الشاعر :

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبست ولا من غدرة أتقنع

والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفى ، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنترة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرّم

وقول الآخر :

ثياب بنى عوف طهارى نقية

وقال الحسن والقرظى : إن المعنى : وأخلاقك فطهر ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه ، ومنه قول الشاعر :

ويحيى لا يلام بسوء خلق ... ويحيى طاهر الأثواب حر

وقال الزَجاج : المعنى : وثيابك فقصر ، لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض ، وبه قال طاوس، والأوّل أولى لأنه المعنى الحقيقى ، وليس فى استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدلّ على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس فى مثل هذا الأصل ، أعنى : الحمل على الحقيقة عند الإطلاق ، خلاف . وفى الآية دليل على وجوب طهارة الثياب فى الصلاة . ﴿ **والرجز فاهجر** ﴾ الرجز: معناه فى اللغة : العذاب ، وفيه لغتان: كسر الراء وضمها ، وسمى الشرك وعبادة الأصنام رجزًا؛ لأنها سبب الرجز . قرأ الجمهور : ﴿ الرجز ﴾ بكسر الراء ، وقرأ الحسن ومجاهد وعكرمة وحفص وابن محيصن بضمها ، وقال مجاهد وعكرمة : الرجز : الأوثان كما فى قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : ٣٠] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعى : الرجز : المأثم ، والهجر : الترك . وقال قتادة: الرجز : إساف ونائلة وهما صنمان كانا عند البيت ، وقال أبوالعالية والربيع والكسائى:

الرجز بالضم : الوثن ، وبالكسر : العذاب، وقال السدّى : الرجز بضم الراء : الوعيد ، والأول أولى ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **ولا تمنن** ﴾ بفك الإدغام ، وقرأ الحسن وأبو اليمان والأشهب العقيلى بالإدغام، وقرأ الجمهور : ﴿ **تستكثر** ﴾ بالرفع على أنه حال ، أى ولا تمنن حال كونك مستكثرا . وقيل : على حذف أن ، والأصل : ولا تمنن أن تستكثر فلما حذفت رفع ، وقال الكسائى : فإذا حذف أن رفع الفعل ،وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : « تستكثر » بالنصب على تقدير أن وبقاء عملها . ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود : « ولا تمنن أن تستكثر » بزيادة أن ، وقرأ الحسن أيضا وابن أبى عبلة : « تستكثر » بالجزم على أنه بدل من تمنن كما فى قوله : ﴿ يلق أثاما . يضاعف له ﴾ [الفرقان : ٦٨ ، ٦٩] وقول الشاعر :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف ، كما فى قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

بتسكين أشرب . وقد اعترض على هذه القراءة ؛ لأن قوله : ﴿ **تستكثر** ﴾ لايصح أن يكون بدلا من تمنن ، لأن المنّ غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جوابا للنهى .

واختلف السلف فى معنى الآية، فقيل : المعنى : لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير . وقيل : لا تعط عطية تلتمس فيها أفضل منها قاله عكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرّمه الله على رسوله ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجلّ الأخلاق ، وأباحه لأمته. وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، من قولك : حبل متين : إذا كان ضعيفا . وقال الربيع بن أنس : لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير ، وقال ابن كيسان : لا تستكثر عملا فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته . وقيل : لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثره ،وقال محمد بن كعب : لا تعط مالك مصانعة ، وقال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك .

﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ أى لوجه ربك فاصبر على طاعته وفرائضه ، والمعنى : لأجل ربك وثوابه ، وقال مقاتل ومجاهد : اصبر على الأذى والتكذيب . وقال ابن زيد : حملت أمرا عظيما فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله . وقيل : اصبر تحت موارد القضاء لله . وقيل: فاصبر على البلوى . وقيل : على الأوامر والنواهى . ﴿ **فإذا نقر فى الناقور** ﴾ الناقور: فاعول من النقر، كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر فى كلام العرب : الصوت ، ومنه قول امرئ القيس :

أخفضه بالنقر لما علوته

ويقولون : نقر باسم الرجل : إذا دعاه ، والمراد هنا : النفخ فى الصور ، والمراد : النفخة الثانية . وقيل : الأولى ، وقد تقدّم الكلام فى هذا فى سورة الأنعام وسورة النحل والفاء للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم ، والعامل فى إذا ما دلّ عليه قوله : ﴿ **فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين** ﴾ فإن معناه : عسر الأمر عليهم . وقيل : العامل فيه ما دلّ عليه ﴿ **فذلك** ﴾ لأنه إشارة إلى النقر ، ويومئذ بدل من إذا أو مبتدأ وخبره يوم عسير، والجملة خبر ﴿ **فذلك** ﴾ . وقيل : هو ظرف للخبر ، لأن التقدير وقوع يوم عسير ، وقوله : ﴿ **غير يسير** ﴾ تأكيد لعسره عليهم ؛ لأن كونه غير يسير؛ قد فهم من قوله : ﴿ **يوم عسير** ﴾ . ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ أى دعنى ، وهى كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى : دعني والذى خلقته حال كونه وحيدا فى بطن أمه لا مال له ولا ولد ، هذا على أن وحيدا منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد إليه المحذوف ، ويجوز أن يكون حالا من الياء فى ذرنى ، أى دعنى وحدى معه ، فإنى أكفيك فى الانتقام منه، والأوّل أولى ، قال المفسرون : وهو الوليد بن المغيرة . قال مقاتل : يقول : خلّ بينى وبينه فأنا أنفرد بهلكته ، وإنما خُص بالذكر؛ لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه . وقيل: أراد بالوحيد : الذى لا يعرف أبوه، وكان يقال فى الوليد المغيرة : إنه دعىّ .

﴿ **وجعلت له مالا ممدودا** ﴾ أى كثيرا ، أو يمد بالزيادة والنماء شيئا بعد شىء . قال الزجاج : مالا غير منقطع عنه ، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهورا بكثرة المال على اختلاف أنواعه . قيل : كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار . وقيل : أربعة آلاف دينار . وقيل : ألف دينار . ﴿ **وبنين شهودا** ﴾ أى وجعلت له بنين حضورا بمكة معه لا يسافرون ولا يحتاجون إلى التفرق فى طلب الرزق لكثرة مال أبيهم ، قال الضحاك : كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولدا ، وقال مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل : معنى ﴿ **شهودا** ﴾ : أنه إذا ذكر ذكروا معه . وقيل : كانوا يشهدون معه ما كان يشهده ويقومون بما كان يباشره ﴿ **ومهدت له تمهيدا** ﴾ أى بسطت له فى العيش وطول العمر والرياسة فى قريش ، والتمهيد عند العرب : التوطئة ، ومنه مهد الصبىّ ، وقال مجاهد : إنه المال بعضه فوق بعض ، كما يمهد الفراش . ﴿ **ثم يطمع أن أزيد** ﴾ أى يطمع بعد هذا كله فى الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم وإشراكه بالله . قال الحسن : لم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان يقول : إذا كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى ، ثم ردعه الله سبحانه وزجره فقال : ﴿ **كلا** ﴾ أى لست أزيده ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿**إنه كان لآياتنا عنيدا** ﴾ أى معاندا لها كافرا بما أنزلناه منها على رسولنا ، يقال : عند يعند بالكسر : إذا خالف الحق وردّه وهو يعرفه.فهو عنيد وعاند ، والعاند: الذى يجوز عن الطريق ويعدل عن القصد ، ومنه قول الحارثى :

إذا ركبت فاجعلانى وسطا إنى كبير لا أطيق العندا

قال أبو صالح : عنيدا معناه : مباعدا . وقال قتادة : جاحدا . وقال مقاتل : معرضا ﴿**سأرهقه صعودا**﴾ أى سأكلفه مشقة من العذاب وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذى لا يطاق . وقيل : المعنى : إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار ، والإرهاق فى كلام العرب : أن يحمل الإنسان الشىء الثقيل ، وجملة : ﴿ **إنه فكر وقدّر** ﴾ تعليل لما تقدّم من الوعيد ، أى إنه فكر فى شأن النبىّ ﷺ ، وما أنزل عليه من القرآن وقدّر فى نفسه ، أى هيأ الكلام فى نفسه ، والعرب تقول : هيأت الشىء: إذا قدرته ، وقدرت الشىء : إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه وقدّر فى نفسه ما يقول، فذمه الله وقال : ﴿ **فقتل كيف قدّر**﴾ أى لعن وعذب كيف قدر ، أى على أىّ حال قدر ما قدر من الكلام ، كما يقال فى الكلام : لأضربنه كيف صنع ، أى على أىّ حال كانت منه . وقيل : المعنى : قهر وغلب كيف قدر ، ومنه قول الشاعر :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال الزهرى : عذب ، وهو من باب الدعاء عليه ، والتكرير فى قوله : ﴿ **ثم قتل كيف قدر** ﴾ للمبالغة والتأكيد . ﴿**ثم نظر** ﴾ أى بأىّ شىء يدفع القرآن ويقدح فيه ، أو فكر فى القرآن وتدبر ما هو . ﴿ **ثم عبس** ﴾ أى قطب وجهه لما لم يجد مطعنا يطعن به فى القرآن ، والعبس مصدر عبس مخففا يعبس عبسا وعبوسا : إذا قطب . وقيل : عبس فى وجوه المؤمنين. وقيل :عبس فى وجه النبىّ ﷺ ﴿ **وبسر** ﴾ أى كلح وجهه وتغير ،ومنه قول الشاعر:

صبحنا تميما غداة الجفار بشهباء ملموسة باسره

وقول الآخر :

وقد رابنى منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتى وبسورها

وقيل : إن ظهور العبوس فى الوجه يكون بعد المحاورة ، وظهور البسور فى الوجه قبلها ، والعرب تقول : وجه باسر: إذا تغير واسودّ ، وقال الراغب : البسر : استعجال الشرّ قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته ، أى طلبها فى غير أوانها . قال: ومنه قوله : ﴿ **عبس وبسر** ﴾ أى أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر ، أى وقف لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا ، أى صرنا إلى البسور . ﴿ **ثم أدبر واستكبر** ﴾ أى أعرض عن الحقّ ، وذهب إلى أهله ، وتعظم عن أن يؤمن ﴿ **فقال إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ أى يأثره عن غيره ويرويه عنه ، والسحر : إظهار الباطل فى صورة الحقّ ، أو الخديعة على ما تقدّم بيانه فى سورة البقرة ، يقال : أثرت الحديث بأثره إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قول الأعشى :

إن الذى فيه تماريتما بين للسامع والآثر

﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ يعنى : أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله ، وسيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة إلى آخر كلامه . ولما قال هذا القول الذى حكاه الله عنه قال الله عزّ وجلّ : ﴿سأصليه سقر ﴾ أى سأدخله النار . وسقر من أسماء النار ، ومن دركات جهنم . وقيل : إن هذه الجملة بدل من قوله : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ ثم بالغ سبحانه فى وصف النار وشدة أمرها فقال : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ أى وما أعلمك أىّ شىء هى ، والعرب تقول : وماأدراك ما كذا: إذا أرادوا المبالغة فى أمره وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ، و « ما » الأولى مبتدأ ، وجملة: ﴿ماسقر ﴾ خبر المبتدأ . ثم فسر حالها فقال : ﴿ لا تبقى ولا تذر ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر ، والكشف عن وصفها . وقيل : هى فى محل نصب على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيم ؛ لأن قوله : ﴿وماأدراك ما سقر ﴾ يدل على التعظيم ، فكأنه قال : استعظموا سقر فى هذه الحال ، والأوّل أولى ومفعول الفعلين محذوف ، قال السدّى : لا تبقى لهم لحما ولا تذر لهم عظما ، وقال عطاء : لا تبقى من فيها حيا ولا تذره ميتا . وقيل : هما لفظان بمعنى واحد ، كررا للتأكيد كقولك : صدّ عنى ، وأعرض عنى ﴿ لوّاحة للبشر ﴾ قرأ الجمهور: ﴿لوّاحة ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقيل : على أنه نعت لسقر ، والأوّل أولى ، وقرأ الحسن وعطية العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر وابن أبى عبلة وزيد بن علىّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل ، يقال: لاح يلوح ، أى ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للبشر ، قال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا كقوله : ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : ٣٦] وقيل : معنى ﴿ لوّاحة للبشر ﴾ أى مغيرة لهم ومسودة . قال مجاهد : والعرب تقول : لاحه الحر والبرد والسقم والحزن : إذا غيره ، وهذا أرجح من الأوّل، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

وتعجب هند أن رأتنى شاحبا تقول لشىء لوحته السمائم

أى غيرته ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

لوحَ منه بعد بدن وشبق تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقال الأخفش : المعنى : أنها معطشة للبشر ، وأنشد :

سقتنى على لوح من الماء شربة سقاها به الله الرهام الغواديا

والمراد بالبشر : إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر ، أو المراد به : أهل النار من الإنس ، كما قال الأخفش . ﴿عليها تسعة عشر ﴾ قال المفسرون : يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها . وقيل : تسعة عشر صنفا من أصناف الملائكة . وقيل : تسعة عشر صفا من صفوفهم . وقيل : تسعة عشر نقيبا مع كل نقيب جماعة من الملائكة . والأوّل أولى.

قال الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق ، قرأ الجمهور : ﴿ تسعة عشر ﴾ بفتح الشين من عشر ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان بإسكانها .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله ، أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال : إن أول مانزل من القرآن : ﴿ يأيها المدثر ﴾ فقال له يحيى بن أبى كثير : يقولون : إن أوّل ما نزل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [العلق: ١] فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لاأحدّثنك إلا ما حدّثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه رعبا ، فرجعت فقلت: دثرونى فدثرونى ، فنزلت : ﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر ﴾ إلى قوله : ﴿والرجز فاهجر﴾ » وسيأتى فى سورة اقرأ ما يدل على أنها أوّل سورة أنزلت ، والجمع ممكن [1] .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ يأيها المدثر ﴾ فقال : دثر هذا الأمر ، فقم به[2] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ يأيها المدثر ﴾ قال: النائم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لاتكن ثيابك التى تلبس من مكسب باطل ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال : الأصنام ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط تلتمس بها أفضل منها . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿وثيابك فطهر ﴾ قال : من الإثم . قال : وهى من كلام العرب نقيّ الثياب . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : من الغدر ، لاتكن غدّارا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى وابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لا تلبسها على غدرة ، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وأخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه عنه أيضا : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضًا: ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ قال : الصور ﴿ يوم عسير ﴾ قال : شديد . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ قال : الوليد بن المغيرة . وأخرج الحاكم وصححه ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٢) ومسلم فى الإيمان (١٦١ / ٢٥٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٥) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٥١) .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ٥٠٦ ووافقه الذهبى .

والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبىّ ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : ياعمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولابقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ (١) . وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا ، وكذا أخرجه ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وغير واحد .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عمر بن الخطاب ؛ أنه سئل عن قوله: ﴿ **وجعلت له مالا ممدودا** ﴾ قال : غلة شهر بشهر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿**وجعلت له مالا ممدودا** ﴾ قال : ألف دينار . وأخرج هناد عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **سأرهقه صعودا** ﴾ قال : هو جبل فى النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، فإذا رفعوها عادت كما كانت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿**عنيدا** ﴾ قال : جحودا . وأخرج أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : «الصعود جبل فى النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ، ثم يهوى وهو كذلك فيه أبدا » قال الترمذى بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن درّاج . قال ابن كثير : وفيه غرابة ونكارة انتهى(٢) . وقد أخرجه جماعة من قول أبى سعيد .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **صعودا** ﴾ : صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وأخرج ابن المنذر عنه قال : جبل فى النار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لا تبقى ولا تذر** ﴾ قال : لا تبقى منهم شيئا ، وإذا بدّلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأوّل . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا : ﴿ **لوّاحة للبشر** ﴾ قال : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه ، فيصير أسود من الليل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**لوّاحة** ﴾ قال : محرقة . وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن البراء ؛ أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبىّ ﷺ عن خزنة جهنم : فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل ، فأخبر النبى ﷺ ، فنزلت عليه ساعتئذ ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾.

---

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥٠٧ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٣ / ٧٥ والترمذى فى التفسير (٣٣٢٦) وابن جرير ٢٩ / ٩٧ وابن كثير ٧ / ١٥٧ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾ .

لما نزل قوله سبحانه : **﴿ عليها تسعة عشر ﴾** قال أبو جهل : أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوّفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبسطوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار ؟ فقال أبو الأشدّ ، وهو رجل من بنى جمح :يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة ، فأنا أمشى بين أيديكم ، فأدفع عشرة بمنكبى الأيمن وتسعة بمنكبى الأيسر ونمضى ندخل الجنة ، فأنزل الله : **﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾** يعنى : ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم ؟ وقيل : جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجنّ والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرأفة . وقيل : لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له ، وأشدهم بأسا وأقواهم بطشا **﴿ وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة ﴾** أى ضلالة للذين استقلوا عددهم ومحنة لهم ، والمعنى : ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور فى القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم ، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم،وقيل:معنى **﴿إلا فتنة﴾**:إلا عذابا كما فى قوله:**﴿يوم هم على النار يفتنون﴾**[الذاريات: ١٣] أى يعذبون ، واللام فى قوله : **﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾** متعلق بـ **﴿ جعلنا﴾** والمراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم . قاله قتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم ، والمعنى : أن الله جعل عدّة الخزنة هذه العدّة ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما فى القرآن لما فى كتبهم .

﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾ وقيل : المراد : الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . وقيل : أراد الذين آمنوا: المؤمنين من أمة محمد ﷺ ، والمعنى : ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم ، وجملة : **﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾** مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى: نفى الارتياب عنهم فى الدّين أو فى أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب فى الحقيقة من المؤمنين ، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن فى قلبه شك **﴿ وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾** المراد بالذين فى قلوبهم مرض : هم المنافقون ، والسورة وإن كانت مكية ولم

يكن إذ ذاك نفاق ، فهو إخبار بما سيكون فى المدينة ، أو المراد بالمرض : مجرد حصول الشكّ والريب ، وهو كائن فى الكفار . قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض فى هذه الآية : الخلاف ، والمراد بقوله : ﴿**والكافرون**﴾ كفار العرب من أهل مكة وغيرهم ، ومعنى ﴿ **ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ أىّ شىء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، قال الليث : المثل : الحديث ، ومنه قوله : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ [الرعد : ٣٥] أى حديثها والخبر عنها ﴿ **كذلك يـضلّ الله من يشاء** ﴾ أى مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره، وهو قوله : ﴿ **وما جعلنا عدتهم إلا فـتـنة للذين كفروا** ﴾ يـضل الله من يشاء من عباده ، والكاف نعت مصدر محذوف ﴿ **ويهدى من يشاء** ﴾ من عباده ، والمعنى : مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء إضلاله ويهدى من يشاء هدايته ، وقيل: المعنى : كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء ويهدى إليها من يشاء.

﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ أى ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد ، وقال عطاء : يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدّتهم إلا الله، والمعنى : أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال :﴿**وما هى إلا ذكرى للبشر**﴾ أى وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم . وقيل :﴿**وما هى**﴾ إلا الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر ، وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة ، وهو بعيد . وقيل : ما هى أى عدّة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله، أنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار . وقيل : الضمير فى ﴿**وما هى**﴾ يرجع إلى الجنود .

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال : ﴿ **كلا والقمر** ﴾ قال الفراء : ﴿ **كلا** ﴾ صلة للقسم ، التقدير : أى والقمر. وقيل : المعنى : حقا والقمر . قال ابن جرير : المعنى : ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم ، أى ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده ، وهذا هو الظاهر من معنى الآية . ﴿ **والليل إذ أدبر** ﴾ أى ولى . قرأ الجمهور: «إذا» بزيادة الألف . دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان . وقرأ نافع وحفص وحمزة : ﴿ **إذ** ﴾ بدون ألف ، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان . ودبر وأدبر لغتان، كما يقال : أقبل الزمان وقبل الزمان ، يقال : دبر الليل وأدبر إذا تولى ذاهبا . ﴿ **والصبح إذا أسفر** ﴾ أى أضاء وتبين . ﴿ **إنها لإحدى الكبر** ﴾ هذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر، أى إن سقر لإحدى الدواهى أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى ، وقال مقاتل : إن الكبر اسم من أسماء النار . وقيل : إنها : أى تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر . وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، ومنه قول الشاعر :

يابن المعلى نزلت إحدى الكبر داهية الدهر وصماء الغير

قرأ الجمهور : ﴿ لإحدى ﴾ بالهمزة ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن وابن كثير فى رواية عنه : « إنها لحدى » بدون همزة. وقال الكلبى:أراد بالكبر درجات جهنم وأبوابها . ﴿ نذيراً للبشر ﴾ انتصاب ﴿ نذيرا ﴾ على الحال من الضمير فى ﴿ إنها ﴾ قاله الزجاج ، وروى عنه وعن الكسائى وأبى على الفارسى أنه حال من قوله : ﴿ قم فأنذر﴾ أى قم يامحمد فأنذر حال كونك نذيرا للبشر ، وقال الفراء : هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدّر . وقيل: إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التعظيم ، كأنه قيل : أعظم الكبر إنذارا . وقيل : إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور فى أوّل السورة وقيل : منصوب بإضمار أعنى، وقيل : منصوب بتقدير : ادع . وقيل : منصوب بتقدير : ناد أو بلغ . وقيل: إنه مفعول لأجله ، والتقدير : وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر . قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبىّ بن كعب وابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى نذير . أو هو نذير . وقد اختلف فى النذير ، فقال الحسن: هى النار . وقيل : محمد ﷺ وقال أبو رزين : المعنى : أنا نذير لكم منها . وقيل : القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد . ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ هو بدل من قوله : ﴿ للبشر ﴾ أى نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر عنها ، والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر . وقيل : فاعل المشيئة هو الله سبحانه ، أى لمن شاء الله أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر ، والأوّل أولى ، وقال السدىّ : لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر إلى الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما سمع أبو جهل : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدّهم [١] ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم [٢] ؟ وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ قال : قال أبو الأشدّ : خلوا بينى وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤنتهم ، قال : وحدّثت أن النبىّ ﷺ وصف خزان جهنم فقال : « كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصى يجرّون أشعارهم ، لهم مثل قوة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل حتى يرمى بهم فى النار فيرمى بالجبل عليهم» . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ عن أبى سعيد الخدرى، أنّ رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : « فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا فإذا أنا بملك يقال له : إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف » وتلا هذه الآية : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . وأخرج أحمد عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : « أطت السماء [٣] وحق لها أن تئط ما فيها

---

(١) الدهم : السواد الكثير . (٢) ابن جرير ٢٩ / ١٠٠ . (٣) أى أثقلتها كثرة الملائكة .

موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد » وأخرجه الترمذى وابن ماجة . قال الترمذى : حسن غريب ، ويروى عن أبى ذرّ موقوفا [(١)] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إذ أدبر ﴾ قال : دبور ظلامه . وأخرج ابن مسدّد فى مسنده ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ فسكت عنى حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان نادانى : يامجاهد ، هذا حين دبر الليل . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر ﴾ قال : من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ .

قوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أى مأخوذة بعملها ومرتهنة به ، إما خلصها وإما أوبقها ، والرهينة اسم بمعنى الرهن ، كالشيمة بمعنى الشيم ، وليست صفة ، ولو كانت صفة لقيل : رهين ، لأن فعيلا يستوى فيه المذكر والمؤنث والمعنى : كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة . ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم . واختلف فى تعيينهم ، فقيل : هم الملائكة . وقيل : المؤمنون . وقيل : أولاد المسلمين ، وقيل : الذين كانوا عن يمين آدم . وقيل : أصحاب الحقّ . وقيل : هم المعتمدون على الفضل دون العمل . وقيل : هم الذين اختارهم الله لخدمته ﴿ فى جنات ﴾ هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله، ويجوز أن يكون ﴿ فى جنات ﴾ حالا من ﴿أصحاب اليمين ﴾ ، وقد يكون حالا من فاعل ﴿يتساءلون﴾، أو يكون ظرفا لـ ﴿ يتساءلون ﴾ ، وقوله : ﴿ يتساءلون ﴾ يجوز أن يكون على بابه ، أى يسأل بعضهم بعضا ، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون ، أى يسألون غيرهم ، نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأوّل يكون ﴿ عن المجرمين ﴾ متعلقا بـ﴿يتساءلون ﴾ ، أى يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين ، وعلى الوجه الثانى تكون « عن » زائدة ، أى

---

(١) أحمد ٥ / ١٧٣ والترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) .

يسألون المجرمين .

وقوله : ﴿ ما سلككم فى سقر ﴾ هو على تقدير القول ، أى يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم : ما سلككم فى سقر ؟ أو يسألونهم قائلين لهم : ما سلككم فى سقر ؟ والجملة على كلا التقديرين فى محل نصب على الحال ، والمعنى : ما أدخلكم فى سقر ؟ تقول : سلكت الخيط فى كذا : إذا دخلته فيه . قال الكلبى : يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يافلان ، ما سلكك فى النار ؟ وقيل : إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم ، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم : ما سلككم فى سقر ؟ قال الفراء: فى هذا ما يقوىّ أن أصحاب اليمين هم الولدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب . ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال : ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ أى من المؤمنين الذين يصلون لله فى الدنيا . ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى لم نتصدق على المساكين . قيل: وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة ؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات . ﴿وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نخالط أهل الباطل فى باطلهم . قال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . وقال السدّى : كنا نكذب مع المكذبين . وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد ﷺ وهو قولهم : كاذب مجنون ساحر شاعر . ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أى بيوم الجزاء والحساب . ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو الموت ، كما فى قوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر:٩٩] .

﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أى شفاعة الملائكة والنبيين كما تنفع الصالحين . ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ التذكرة : التذكير بمواعظ القرآن ، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها . وانتصاب ﴿ معرضين ﴾ على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور ، أى أىّ شىء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى . ثم شبههم فى نفورهم عن القرآن بالحمر فقال: ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ والجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل ، ومعنى مستنفرة نافرة ، يقال : نفر واستنفر ، مثل عجب واستعجب ، والمراد : الحمر الوحشية. قرأ الجمهور : ﴿مستنفرة ﴾ بكسر الفاء ، أى نافرة ، وقرأ نافع وابن عامر بفتحها، أى منفرة مذعورة ، واختار القراءة الثانية أبو حاتم وأبو عبيد ، قال فى الكشاف : المستنفرة : الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له ، وحملها عليه . ﴿فرّت من قسورة ﴾ أى من رماة يرمونها . والقسور : الرامى ، وجمعه قسورة قاله سعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن كيسان . وقيل : هو الأسد قاله عطاء والكلبى . قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر ، لأنه يقهر السباع . وقيل : القسورة: أصوات الناس . وقيل : القسورة بلسان العرب : الأسد ، وبلسان الحبشة : الرماة ، وقال ابن الأعرابى : القسورة : أوّل الليل ، أى فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأوّل أولى ، وكلّ شديد عند العرب

فهو قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يابنت كونى خيرة لخيره ... أخوالها الحىّ وأهل القسورة

ومنه قول لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة فى ندينا ... أتانا الرجال العابدون القساور

ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال ... كأنه القسور الرهال

﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد . قال المفسرون : إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ : ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله . والصحف : الكتب ، واحدتها صحيفة ، والمنشرة : المنشورة المفتوحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ [الإسراء : ٩٣] قرأ الجمهور : ﴿ منشرة ﴾ بالتشديد. وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف ، وقرأ الجمهور أيضا بضم الحاء من صحف ، وقرأ سعيد بن جبير بإسكانها. ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال : ﴿ كلا بل لايخافون الآخرة ﴾ يعنى : عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات . وقيل : كلا بمعنى حقا ، ثم كررّ الردع والزجر لهم فقال : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ يعنى : القرآن . أو حقا إنه تذكرة ، والمعنى : أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه . ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أى فمن شاء أن يتعظ به اتعظ . ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال : ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ قرأ الجمهور : ﴿يذكرون ﴾ بالياء التحتية . وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية ، واتفقوا على التخفيف . وقوله: ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال . قال مقاتل : إلا أن يشاء الله لهم الهدى ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أى هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أى هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ قال : مأخوذة بعملها . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم المسلمون. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن علىّ بن أبى طالب : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم أطفال المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى موسى الأشعرى فى قوله : ﴿ فرّت من قسورة ﴾ قال : هم الرماة

رجال القسيّ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : القسورة : الرجال الرماة القنص . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال : قلت لابن عباس : القسورة : الأسد ، فقال : ما أعلمه بلغة أحد من العرب : الأسد ، هم عصبة الرجال . وأخرج سفيان بن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس **﴿ من قسورة ﴾** قال : هو ركز الناس : يعنى أصواتهم . وأخرج أحمد والدارمى والترمذى وحسنه، والنسائى وابن ماجة والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدىّ وصححه ، وابن مردويه عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: **﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾** فقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له » [1] . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعًا نحوه .

(١) أحمد ٣ / ٢٤٣ والدارمى فى الرقاق ٢ / ٣٠٣ والترمذى فى التفسير (٣٣٢٨) وقال : « هذا حديث غريب، وسهيل ليس بالقوى فى الحديث ، قد تفرد » والنسائى فى التفسير (٦٥٠) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٩٩) وأبو يعلى (٣٣١٧) وابن عدى ٣ / ٤٥٠ .

تفسير سورة القيامة

هى تسع وثلاثون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة القيامة ـ وفى لفظ سورة لا أقسم ـ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت سورة لا أقسم بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ② أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ③ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ④ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ⑤ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ⑥ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩ كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑭ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ⑮ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ⑲ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ⑳ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ㉑ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ㉒ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ㉓ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ㉔ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ㉕﴾ .

قوله: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين : إنّ « لا » زائدة ، والتقدير : أقسم . قال السمرقندى : أجمع المفسرون أن معنى ﴿ لا أقسم ﴾ : أقسم ، واختلفوا فى تفسير « لا » ، فقال بعضهم : هى زائدة ، وزيادتها جارية فى كلام العرب كما فى قوله : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] يعنى : أن تسجد ، و﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : ٢٩] ومن هذا قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لا يتقطع

وقال بعضهم : هى ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين ، كقول القائل : لا والله ، فلا ردّ لكلام قد تقدّمها ، ومنه قول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وقيل : هى للنفى ، لكن لا لنفى الإقسام ، بل لنفى ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه ، كأن معنى لا أقسم بكذا : لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك . وقيل : إنها لنفى الإقسام لوضوح الأمر ، وقد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير قوله :

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة : ٧٥] . وقرأ الحسن وابن كثير فى رواية عنه ، والزهرى ، وابن هرمز : « لأقسم » بدون ألف على أن اللام لام الابتداء ، والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال . وقد اعترض عليه الرازى بما لا يقدح فى قوته ولا يفت فى عضد رجحانه، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة ؛ لتعظيمه وتفخيمه ، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة كما أقسم بيوم القيامة ، فيكون الكلام فى « لا » هذه كالكلام فى الأولى ، وهذا قول الجمهور . وقال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة. قال الثعلبى : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا ، ومعنى النفس اللوّامة : النفس التى تلوم صاحبها على تقصيره ، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا ، والفاجر لا يعاتب نفسه . قال مجاهد : هى التى تلوم على مافات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لمَ تعمله ؟ وعلى الخير لمَ لمْ تستكثر منه ؟ قال الفراء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت : هلا ازددت وإن كانت عملت سوءا قالت : ليتنى لم أفعل ، وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس ، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا . وقيل : اللوامة : هى الملومة المذمومة ، فهى صفة ذمّ ، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسما ، إذ ليس لنفس العاصى خطر يقسم به ، قال مقاتل: هى نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر فى الآخرة على ما فرط فى جنب الله ، والأول أولى .

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ المراد بالإنسان : الجنس . وقيل : الإنسان الكافر ، والهمزة للإنكار ، و«أن » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، والمعنى : أيحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتا ، فنعيدها خلقا جديدا ، وذلك حسبان باطل ، فإنا نجمعها ، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم . قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ليجمعن العظام للبعث ، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف ، أى ليبعثنّ ، والمعنى : أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خص العظام؛ لأنها قالب الخلق . ﴿ بلى قادرين على أن نسوّى بنانه ﴾ بلى إيجاب لما بعد النفى المنسحب إليه الاستفهام ، والوقف على هذا وقف حسن ، ثم يبتدئ الكلام بقوله : ﴿ قادرين ﴾ وانتصاب ﴿قادرين ﴾ على الحال ، أى بلى نجمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدّر . وقيل : المعنى : بل نجمعها نقدر قادرين . قال الفراء : أى نقدر ، ونقوى قادرين على أكثر من ذلك . وقال أيضا : إنه يصلح نصبه على التكرير ، أى بلى فليحسبنا قادرين . وقيل : التقدير : بلى كنا قادرين . وقرأ ابن أبى عبلة وابن السميفع : « بلى قادرون » على تقدير مبتدأ ، أى بلى نحن قادرون ، ومعنى ﴿ على أن نسوّى بنانه ﴾ : على أن نجمع بعضها إلى بعض ، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها ، فكيف بكبار الأعضاء فنبه سبحانه بالبنان ، وهى الأصابع، على بقية الأعضاء ، وأن الاقتدار على بعثها

وإرجاعها كما كانت أولى فى القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق ، فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة ، وقال جمهور المفسرين : إن معنى الآية : أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها ، فلا يقدر على أن ينتفع بها فى الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما ، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها . وقيل : المعنى : بل نقدر على أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم ، فكيف فى صورته التى كان عليها ، والأوّل أولى ، ومنه قول عنترة :

وإن الموت طوع يدى إذا ما وصلت بنانها بالهندوان

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء . ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ هو عطف على ﴿ أيحسب ﴾، إما على أنه استفهام مثله وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام . والمعنى : بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة . قال ابن الأنبارى: يريد أن يفجر ما امتدّ عمره ، وليس فى نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه . قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدىّ وسعيد بن جبير : يقول : سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت ، وهو على أشرّ أحواله . قال الضحاك : هو الأمل ، يقول : سوف أعيش وأصيب من الدنيا ، ولا يذكر الموت ، والفجور أصله : الميل عن الحقّ ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل ، ومنه قول الشاعر :

أقسم بالله أبو حفص عمر

مامسها من نقب ولا دبر

اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ مستأنفة لبيان معنى يفجر ، والمعنى : يسأل : متى يوم القيامة ؟ سؤال استبعاد واستهزاء : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أى فزع وتحير، من برق الرجل : إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . قرأ الجمهور : ﴿برق﴾ بكسر الراء . قال أبو عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما : المعنى : تحير فلم يطرف ، ومنه قول ذى الرّمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه مى سافرا [١] كاد يبرق

وقال الخليل والفراء :﴿ برق ﴾ بالكسر فزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت : قد برق فهو برق ، وأنشد الفرّاء :

---

(١) فى المطبوعة : « يسافرا » والصحيح ما أثبتناه من القرطبى ١٠ / ٦٦٨٧ ومن المخطوطة .

ونفسك فانع ولا تنعنى وداو الكلوم ولا تبرق

أى لا تفزع من كثرة الكلوم التى بك ، وقرأ نافع وأبان عن عاصم :« برق » بفتح الراء ، أى لمع بصره من شدة شخوصه للموت ، قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل : برق يبرق شق عينيه وفتحهما . وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى ﴿ **وخسف القمر** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **خسف** ﴾ بفتح الخاء والسين مبنيا للفاعل . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى والأعرج وابن أبى عبلة وابن حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنيا للمفعول ، ومعنى ﴿**خسف القمر**﴾: ذهب ضوؤه ولا يعود كما يعود إذا خسف فى الدنيا ، ويقال : خسف: إذا ذهب جميع ضوئه ، وكسف : إذا ذهب بعض ضوئه . ﴿ **وجمع الشمس والقمر** ﴾ أى ذهب ضوؤهما جميعا ، ولم يقل: « جمعت » لأن التأنيث مجازىّ ، قاله المبرد . وقال أبو عبيدة : هو لتغليب المذكر على المؤنث . وقال الكسائى : حمل على معنى جمع النيران ، وقال الزجاج والفراء : ولم يقل : « جمعت » لأن المعنى جمع بينهما فى ذهاب نورهما . وقيل : جمع بينهما فى طلوعهما من الغرب أسودين مكورين مظلمين . قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى . وقيل : تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار ، وقرأ ابن مسعود : « وجمع بين الشمس والقمر » . ﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ** ﴾ أى يقول عند وقوع هذه الأمور: أين المفرّ ، أين الفرار ؟ والمفرّ مصدر بمعنى الفرار . قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار ، ومنه قول الشاعر :

أين المفر والكباش تنتطح وكل كبش فر منها يفتضح

قال الماوردى : يحتمل وجهين : أحدهما : أين المفرّ من الله سبحانه استحياء منه ، والثانى :أين المفرّ من جهنم حذرا منها . قرأ الجمهور : ﴿ **أين المفر** ﴾ بفتح الميم والفاء مصدرا كما تقدّم ، وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان ، أى أين مكان الفرار ، وقال الكسائى : هما لغتان مثل مدَب ومدِب ومصَح ومصِح ، وقرأ الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به: الإنسان الجيد الفرار ، ومنه قول امرئ القيس :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

أى جيد الفرّ والكر . ﴿ **كلا لا وزر** ﴾ أى لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله . وقال ابن جبير : لا محيص ولا منعة ، والوزر فى اللغة : ما يلجأ إليه الإنسان من حصن ، أو جبل أو غيرهما ، ومنه قول طرفة :

ولقد تعلم بكر أننا فاضلو الرأى وفى الروع وزر

وقال آخر :

لعمرى ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

قال السدّى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال لهم الله : لا وزر يعصمكم منى يومئذ ، وكلا للردع ، أو لنفى ما قبلها ، أو بمعنى حقا ﴿ **إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ أى المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره . وقيل : إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره . وقيل : المستقر : الاستقرار حيث يقرّه الله ﴿ **ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾ أى يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشرّ . وقال قتادة :بما عمل من طاعة ، وما أخر من طاعة فلم يعمل بها . وقال زيد بن أسلم : بما قدّم من أمواله وما خلف للورثة . وقال مجاهد : بأول عمله وآخره . وقال الضحاك: بما قدّم من فرض وأخر من فرض . قال القشيرى : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت . قال القرطبى : والأوّل أظهر. ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة** ﴾ ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان ، على نفسه متعلق ببصيرة ، قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل : أنت حجة على نفسك . وقيل : المعنى : إن جوارحه تشهد عليه بما عمل كما فى قوله : ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : ٢٤] وأنشد الفرّاء :

كأن على ذى العقل عينا بصيـ ـرة بمقعده أو منظر هو ناظر

فيكون المعنى : بل جوارح الإنسان عليه شاهدة . قال أبو عبيدة والقتيبى : إن هذه الهاء فى بصيرة هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كما فى قولهم : علامة . وقيل : المراد بالبصيرة: الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشرّ، والتاء على هذا للتأنيث . وقال الحسن : أى بصير بعيوب نفسه .﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾ أى ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك . يقال : معذرة ومعاذير . قال الفرّاء : أى وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره . وقال الزجاج : المعاذير : الستور ، والواحد معذار ، أى وإن أرخى الستور يريد أن يخفى نفسه فنفسه شاهدة عليه ، كذا قال الضحاك والسدّى . والستر بلغة اليمن يقال له : معذار ، كما قال المبرد ، ومنه قول الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة علينا وأطت يومها بالمعاذر

والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وأبو العالية ومقاتل ، ومثله قوله : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ [غافر : ٥٢] . وقوله :﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[المرسلات : ٣٦] . وقول الشاعر :

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به** ﴾كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصا على أن يحفظه ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، أى لا

تحرّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك،ومثل هذا قوله: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ الآية [طه : ١١٤] ، ﴿ **إن علينا جمعه** ﴾ فى صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء ﴿ **وقرآنه** ﴾ أى إثبات قراءته فى لسانك ، قال الفرّاء : القراءة والقرآن مصدران . وقال قتادة : فاتبع قرآنه ، أى شرائعه وأحكامه . ﴿**فإذا قرأناه** ﴾ أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل ﴿ **فاتبع قرآنه** ﴾ أى قراءته . ﴿ **ثم إن علينا بيانه**﴾ أى تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل منه ، قال الزجاج : المعنى : علينا أن ننزله عليك قرآنا عربيا فيه بيان للناس . وقيل : المعنى : إن علينا أن نبينه بلسانك .

﴿ **كلا بل تحبون العاجلة** ﴾ كلا للردع عن العجلة والترغيب فى الأناة . وقيل : هى ردع لمن لا يؤمن بالقرآن وبكونه بينا من الكفار . قال عطاء : أى لا يؤمن أبوجهل بالقرآن وبيانه . قرأ أهـل المديـنة والكوفيون : ﴿ **بل تحبون** ﴾ ﴿**وتذرون**﴾ بالفوقية فى الفعلين جميعا . وقرأ الباقون بالتحتية فيهما ، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريعا وتوبيخا ، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائدا إلى الإنسان؛ لأنه بمعنى الناس ، والمعنى : تحبون الدنيا وتتركون ﴿**الآخرة**﴾ فلا تعملون لها . ﴿**وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ أى ناعمة غضة حسنة ، يقال : شجر ناضر وروض ناضر ، أى حسن ناعم ، ونضارة العيش حسنه وبهجته . قال الواحدى والمفسرون : يقولون : مضيئة مسفرة مشرقة ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ هذا من النظر ، أى إلى خالقها ومالك أمرها ،ناظرة ، أى تنظر إليه ، هكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به : ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر ، قال ابن كثير : وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام . وقال مجاهد : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروى نحوه عن عكرمة . وقيل : لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده ، قال الأزهرى : وقول مجاهد خطأ؛ لأنه لا يقال : نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، إذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرته كما فى قول الشاعر :

فإنكما إن تنظرانى ساعة ... من الدهر تنفعنى لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه ، كما قال الشاعر :

نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال

وقال الآخر :

إنى إليك لما وعدت لناظر ... نظر الفقير إلى الغنى الموسر

أى أنظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغنىّ ، وأشعار العرب وكلماتهم فى هذا

كثيرة جدا ، و﴿**وجوه**﴾ مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة لأن المقام مقام تفصيل ، وناضرة صفة لوجوه ، ويومئذ ظرف لناضرة ، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله : ﴿ **ناضرة** ﴾ مسوّغا للابتداء بها ، ولكن مقام التفصيل بمجرّده مسوّغ للابتداء بالنكرة . ﴿ **ووجوه يومئذ باسرة** ﴾ أى كالحة عابسة كئيبة . قال فى الصحاح: بسر الرجل وجهه بسورا ، أى كلح . قال السدّى: باسرة ، أى متغيرة . وقيل : مصفرة ، والمراد بالوجوه هنا : وجوه الكفار . ﴿ **تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾ الفاقرة : الداهية العظيمة ، يقال : فقرته الفاقرة ، أى كسرت فقار ظهره . وقال قتادة : الفاقرة : الشرّ ، وقال السدّى : الهلاك ، وقال ابن زيد : دخول النار ، وأصل الفاقرة : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى تخلص إلى العظم ، كذا قال الأصمعى، ومن هذا قولهم : قد عمل به الفاقرة ، قال النابغة :

أبا لى قبر لا يزال مقابلى ... وضربة فأس فوق رأسى فاقره

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه ، قلت : ﴿**ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ قال : النفس اللؤوم . قلت : ﴿ **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوّى بنانه** ﴾ قال : لو شاء لجعله خفا أو حافرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **اللوّامة** ﴾ قال : المذمومة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : التى تلوم على الخير والشرّ تقول :لو فعلت كذا وكذا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : تندم على ما فات وتلوم عليه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ﴾ قال : يمضى قدما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : هو الكافر الذى يكذب بالحساب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : يعنى : الأمل ، يقول : أعمل ثم أتوب . وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الأمل ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى الآية قال : يقدّم الذنب ويؤخر التوبة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب ، عنه أيضا : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ﴾ يقول : سوف أتوب ﴿ **يسأل أيان يوم القيامة** ﴾ قال : يقول : متى يوم القيامة؟ قال : فبين له﴿ **إذا برق البصر**﴾ . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ﴿**إذا برق البصر**﴾ يعنى: الموت.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **لا وزر** ﴾ قال : لا حصن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله :﴿ **لا وزر** ﴾ قال : لا حصن ولا ملجأ ، وفى لفظ : لا حرز ، وفى لفظ : لا جبل .وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله :﴿ **ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر**﴾ قال : بما قدّم من عمل ، وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شرّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بما قدّم من المعصية وأخر من الطاعة فينبؤ بذلك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه فى قوله : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة** ﴾ قال : شهد على نفسه وحده ﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾ قال : ولو اعتذر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾ قال : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه ﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾ قال : ولو تجرّد من ثيابه .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به . إنّ علينا جمعه وقرآنه**﴾ قال : يقول : إنّ علينا أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه ﴿ **فإذا قرأناه** ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك ﴿**فاتبع قرآنه** ﴾ فاستمع إليه وأنصت ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾ أن نبينه بلسانك ، وفى لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق . وفى لفظ : استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿**فإذا قرأناه** ﴾ قال : بيناه ﴿ **فاتبع قرآنه**﴾ يقول : اعمل به . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **كلا بل تحبون العاجلة** ﴾ قال : عجلت لهم الدنيا شرها وخيرها وغيبت الآخرة .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ قال : ناعمة . وأخرج ابن المنذر والآجرى فى الشريعة ، واللالكائى فى السنة ، والبيهقى فى الرؤية عنه : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ قال : يعنى حسنها ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ قال : نظرت إلى الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال تنظر إلى وجه ربها . وأخرج ابن مردويه عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة .إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدّ محدود ولا صفة معلومة» . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال الناس : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال : « فهل تضارّون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » [٢] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة نحوه . وقد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها ، وهى تأتى فى مصنف مستقل ، ولم يتمسك من نفاها واستبعدها بشىء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٢٧) ومسلم فى الصلاة (٤٤٨/ ١٤٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٢٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٥٤) .

(٢) أحمد ٢/ ٢٧٥ والبخارى فى التوحيد (٧٤٣٧) وفى الرقائق (٦٥٧٣) ومسلم فى الإيمان (١٨٢ / ٢٩٩) والنسائى فى التفسير (٥٠٨).

والدارقطنى والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ [1] . وأخرجه أحمد فى المسند من حديثه بلفظ : «إن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرّتين » [2] . وأخرج النسائى والدارقطنى وصححه ، وأبو نعيم عن أبى هريرة قال : قلنا : يارسول الله ، هل نرى ربنا ؟ قال : « هل ترون الشمس فى يوم لا غيم فيه ، وترون القمر فى ليلة لا غيم فيها ؟ » قلنا : نعم . قال : « فإنكم سترون ربكم عزّ وجلّ ، حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة ، فيقول : عبدى هل تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : ألم تغفر لى ؟ فيقول : بمغفرتى صرت إلى هذا » [3] .

﴿ **كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **كلا** ﴾ ردع وزجر ، أى بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ، ثم استأنف ، فقال: ﴿ **إذا بلغت التراقى** ﴾ أى بلغت النفس أو الروح التراقى ، وهى جمع ترقوة ، وهى عظم بين ثغرة النحر والعاتق ، ويكنى ببلوغ النفس التراقى عن الإشفاء على الموت ، ومثله قوله: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ [الواقعة : ٨٣] وقيل: معنى ﴿ **كلا** ﴾ : حقا ، أى حقا أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقى ، والمقصود : تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت ، قال دريد بن الصمة :

ورب كـريهة دافـعـت عـنهـا وقد بلغت نفـوسهـم التـراقى

﴿ **وقيل من راق** ﴾ أى قال من حضر صاحبها : من يرقيه ويشتفى برقيته ؟ قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا ، وبه قال أبو قلابة ، ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقى أم هل له من حمام الموت من راقى

وقال أبو الجوزاء : هو من رقى يرقى : إذا صعد ، والمعنى : من يرقى بروحه إلى السماء

---

(١) ابن أبى شيبة فى الجنة (١٥٨٤٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٣٠) وقال : « غريب ، قد رواه غير واحد عن إسرائيل مرفوعا ، وروى عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله ولم يرفعه » وابن جرير ٢٩/ ١٢٠ والحاكم ٢/ ٥٠٩ ، ٥١٠ وقال : « ثوير لم ينقم عليه إلا التشيع » وقال الذهبى : « بل هو واهى الحديث ».

(٢) أحمد ٢/ ٦٤ .

(٣) النسائى فى التفسير (٦٥٧) .

أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل : إنه يقول ذلك ملك الموت ، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ﴿ **وظنّ أنه الفراق** ﴾ أى وأيقن الذى بلغت روحه التراقى أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد . ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ أى التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به ، وقال جمهور المفسرين : المعنى : تتابعت عليه الشدائد . وقال الحسن : هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن ، وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت ، وقيل : ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه ، وقد كان جوّالا عليهما . وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه ، وبه قال ابن زيد ، والعرب لا تذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار والمحن العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق . وقيل : الساق الأوّل : تعذيب روحه عند خروج نفسه ، والساق الآخر : شدّة البعث وما بعده. ﴿ **إلى ربك يومئذ المساق** ﴾ أى إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه . ﴿ **فلا صدق ولا صلى** ﴾ أى لم يصدّق بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور فى أول هذه السورة . قال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلى لله ، وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى : « لا » بمعنى «لم»، وكذا قال الأخفش : والعرب تقول : لا ذهب أى ، لم يذهب ، وهذا مستفيض فى كلام العرب ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبـد لـك لا ألـمـا

﴿ **ولكن كذب وتولى** ﴾ أى كذّب بالرسول وما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان . ﴿**ثم ذهب إلى أهله يتمطى** ﴾ أى يتبختر ويختال فى مشيته افتخارا بذلك . وقيل : هو مأخوذ من المطى وهو الظهر . والمعنى : يلوى مطاه . وقيل : أصله يتمطط ، وهو التمدّد والتثاقل ، أى يتثاقل ويتكاسل عن الداعى إلى الحق ﴿ **أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى** ﴾ أى وليك الويل ، وأصله : أولاك الله ما تكرهه ، واللام مزيدة كما فى : ﴿ ردف لكم ﴾[النمل : ٧٢] . وهذا تهديد شديد ، والتكرير للتأكيد ، أى يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة ، قال الواحدى : قال المفسرون : أخذ رسول الله ﷺ بيد أبى جهل ، ثم قال : ﴿ **أولى لك فأولى**﴾ فقال أبو جهل : بأى شيء تهدّدنى لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، وإنى لأعز هذا الوادى ، فنزلت هذه الآية . وقيل : معناه : الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هممت بنفسى بعض الهمو م فأولى لنفـسـى أولى لها

وعلى القول بأنه الويل ، قيل : هو من المقلوب كأنه قيل : أويل لك ، ثم أخر الحرف المعتل . قيل : ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات : والويل لك حيا ، والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار . وقيل : المعنى : إن الذمّ لك أولى لك من تركه . وقيل : المعنى : أنت أولى وأجدر بهذا العذاب قاله ثعلب. وقال الأصمعى :

أولى فى كلام العرب معناه : مقاربة الهلاك . قال المبرّد : كأنه يقول : قد وليت الهلاك وقد دانيته ، وأصله من الولى ، وهو القرب . وأنشد الفرّاء :

فأولى أن يكـــون لك الولاء

أى قارب أن يكون لك ، وأنشد أيضا :

أولى لمن هاجت له أن يكمدا

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ أى هملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب. وقال السدى : معناه : المهمل ، ومنه إبل سدى ، أى ترعى بلا راع . وقيل : المعنى : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يبعث ، وجملة : ﴿**ألم يك نطفة من منىّ يمنى** ﴾ مستأنفة، أى ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منىّ يراق فى الرحم ؟! وسمى المنىّ منيا لإراقته، والنطفة الماء القليل ، يقال : نطف الماء : إذا قطر . قرأ الجمهور :﴿ **ألم يك** ﴾ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الإنسان ، وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخا له. وقرأ الجمهور أيضا: ﴿ **تمنى** ﴾ بالفوقية على أن الضمير للنطفة. وقرأ حفص وابن محيصن ومجاهد ويعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، واختارها أبو حاتم . ﴿**ثم كان علقة** ﴾ أى كان بعد النطفة علقة ، أى دما ﴿ **فخلق** ﴾ أى فقدّر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿**فسوّى**﴾ أى فعدله وكمل نشأته ونفخ فيه الروح . ﴿**فجعل منه** ﴾ أى حصل من الإنسان . وقيل : من المنىّ ﴿**الزوجين**﴾ أى الصنفين من نوع الإنسان . ثم بين ذلك فقال : ﴿**الذكر والأنثى** ﴾ أى الرجل والمرأة . ﴿ **أليس ذلك** ﴾ أى ليس ذلك الذى أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿ **بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ أى يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا، فإن الإعادة أهون من الابتداء ، وأيسر مؤونة منه . قرأ الجمهور : ﴿ **بقادر** ﴾ وقرأ زيد ابن علىّ : « يقدر » فعلا مضارعا ، وقرأ الجمهور : ﴿ **يحيى** ﴾ بنصبه بأن . وقرأ طلحة بن سليمان والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفا ، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مرّ فى مواضع .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقيل من راق** ﴾ قال : تنتزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقيه ، قيل : من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ قال التفت عليه الدنيا والآخرة وملائكة العذاب أيهم يرقى به .وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿**وقيل من راق** ﴾ قل : من راق يرقى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة ، فتلقى الشدّة بالشدة إلا من رحم الله.وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿**يتمطى**﴾ قال : يختال . وأخرج سعيد بن منصور وعبد

ابن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **أولى لك فأولى** ﴾ : أشىء قاله رسول الله ﷺ لأبى جهل من قبل نفسه ، أم أمره الله به ؟ قـال : بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله [١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أن يترك سدى** ﴾ قال : هملا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عن صالح أبى الخليل قال : كان النبىّ ﷺ إذا قرأ هذه الآية : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال : « سبحانك اللهم وبلى » . وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « سبحانك ربى وبلى » . وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن أبى أمامة ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند قراءته لهذه الآية : « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . وأخرج أحمد وأبوداود والترمذى وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم : ﴿ والتين والزيتون ﴾[التين : ١] فانتهى إلى آخرها : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ٨] فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾[القيامة : ١] فانتهى إلى قوله : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ فليقل: بلى . ومن قرأ : ﴿والمرسلات عرفا ﴾[المرسلات : ١] فبلغ : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ [المرسلات: ٥٠] فليقل : آمنا بالله » . وفى إسناده رجل مجهول . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأت : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة﴾ فبلغت: ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ فقل : بلى » .

(١) النسائى فى التفسير (٦٥٨) وابن جرير ٢٩/ ١٢٤ والطبرانى (١٢٢٩٨) وصححه الحاكم ٢/ ٥١٠ على شرط الشيخين ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٥ : « رجاله ثقات » .

تفسير سورة الإنسان

قال الجمهور : هى مدنية ، وقال مقاتل والكلبى : هى مكية . وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقيل : فيها مكى ، من قوله: ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾ إلى آخر السورة ، وما قبله مدنىّ . وأخرج الطبرانى ، وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « سل واستفهم » ، فقال : يارسول الله ، فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوّة ، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به ، أنى كائن معك فى الجنة ، قال: « نعم ، والذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » ، ثم قال : «من قال : لا إله إلا الله كان له عند الله عهد . ومن قال : سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة » ، ونزلت هذه السورة : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ إلى قوله : ﴿ وملكا كبيرا ﴾ فقال الحبشىّ : وإن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة ، قال : «نعم »، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه فى حفرته بيده (١) . وأخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال : حدثنى الثقة أن رجلا أسود كان يسأل رسول الله ﷺ عن التسبيح والتهليل ، فقال له عمر بن الخطاب : أكثرت على رسول الله ، فقال : « مه ياعمر » ، وأنزلت على النبى ﷺ : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه ، فقال النبى ﷺ : « مات شوقا إلى الجنة ». وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعا مرسلا .

وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن منيع ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والضياء عن أبى ذرّ قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ هل أتى على الإنسان﴾ حتى ختمها ، ثم قال : « إنى أرى ما لا ترون وأسمع مالا تسمعون ، أطت السماء وحقّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عزّ وجل »(٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا

(١) الطبرانى (١٣٥٩٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/٤٢٣ : « فيه أيوب بن عتبة وهو ضعيف » .
(٢) أحمد ٥/١٧٣ والترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) وصححه الحاكم ٤/٥٤٤ ووافقه الذهبى .

كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴿١٢﴾ ﴾ .

حكى الواحدى عن المفسرين وأهل المعانى أن ﴿ **هل** ﴾ هنا بمعنى قد ، وليس باستفهام ، وقد قال بهذا سيبويه والكسائى ، والفراء وأبو عبيدة . قال الفرّاء : هل تكون جحدا وتكون خبرا فهذا من الخبر لأنك تقول : هل أعطيتك ، تقرره بأنك أعطيته ، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا . وقيل : هى وإن كانت بمعنى قد ؛ ففيها معنى الاستفهام ، والأصل: أهل أتى ، فالمعنى : أقد أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب ، والمراد بالإنسان هنا: هو آدم ، قاله قتادة والثورى وعكرمة والسدّى وغيرهم ﴿ **حين من الدهر** ﴾ قيل : أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح . وقيل : إنه خلق من طين أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وقيل: الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره . وقيل : المراد بالإنسان: بنو آدم ، والحين : مدّة الحمل ، وجملة : ﴿ **لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ فى محل نصب على الحال من الإنسان ، أو فى محل رفع صفة لحين ، قال الفرّاء وقطرب وثعلب : المعنى: أنه كان جسدا مصوّرا ترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا . وقيل : ليس المراد بالذكر هنا : الإخبار ، فإن إخبار الرّب عن الكائنات قديم ، بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف ، كما فى قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] قال القشيرى : ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله سبحانه . قال الفراء : كان شيئا ولم يكن مذكورا . فجعل النفى متوجها إلى القيد . وقيل : المعنى : قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليقة . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوان .

﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة** ﴾ المراد بالإنسان هنا : ابن آدم . قال القرطبى . من غير خلاف ، والنطفة : الماء الذى يقطر ، وهو المنىّ وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة ، وجمعها نطف ، و ﴿ **أمشاج** ﴾ صفة لنطفة ، وهى جمع مشج ، أومشيج ، وهى الأخلاط ، والمراد : نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما . يقال : مشج هذا بهذا فهو ممشوج ، أى خلط هذا بهذا فهو مخلوط . قال المبرد : مشج يمشج : إذا اختلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم ، قال رؤبة ابن العجاج :

يطرحن كل معجل مشاج لم يكس جلدا من دم أمشاج

قال الفراء : أمشاج : اختلاط ماء الرجل وماء المرأة ، والدم والعلقة ، ويقال : مشج هذا: إذا خلط . وقيل : الأمشاج: الحمرة فى البياض ، والبياض فى الحمرة ، قال القرطبى : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة . قال الهذلى :

كأن الريش والفوقين منه حلاف النصل نيط به مشيج

وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، قال ابن السكيت :الأمشاج : الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة . وقيل : الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة ، وجملة : ﴿ **نبتليه** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل خلقنا ، أى مريدين ابتلاءه ، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان ، والمعنى : نبتليه بالخير والشر والتكاليف . قال الفراء : معناه والله أعلم : جعلناه سميعا بصيرا نبتليه وهى مقدّمة معناها التأخير ، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا تكون هذه الحال مقدّرة . وقيل : مقارنة . وقيل : معنى الابتلاء : نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة ، والأوّل أولى .

ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء فقال : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ أى بيّنا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر كما فى قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠] قال مجاهد : أى بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك والسدّى وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل : منافعه ومضارّه التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب ﴿ **شاكرا** ﴾ و ﴿ **كفورا** ﴾ على الحال من مفعول ﴿**هديناه** ﴾، أى مكناه من سلوك الطريق فى حالتيه جميعا . وقيل : على الحال من سبيل على المجاز ، أى عرّفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا . وحكى مكىّ عن الكوفيين أن قوله : ﴿ **إما**﴾ هى إن شرطية زيدت بعدها ما ، أى بينا له الطريق إن شكر وإن كفر . واختار هذا الفراء ، ولا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع ﴿**شاكرا**﴾ و﴿**كفورا**﴾ ، ويمكن أن يضمر فعل ينصب شاكرا وكفورا ، وتقديره : إن خلقناه شاكرا فشكور وإن خلقناه كافرا فكفور ، وهذا على قراءة الجمهور : ﴿ **إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ بكسر همزة إما .وقرأ أبو السماك وأبو العجاج بفتحها ، وهى على الفتح إما العاطفة فى لغة بعض العرب، أو هى التفصيلية وجوابها مقدّر . وقيل: انتصب﴿ **شاكرا** ﴾و ﴿ **كفورا** ﴾بإضمار كان، والتقدير:سواء كان شاكرا أو كان كفورا.

ثم بين سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال :﴿ **إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا** ﴾ قرأ نافع والكسائى وأبوبكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر : « سلاسل » بالتنوين ، ووقف قنبل عن ابن كثير وحمزة بغير ألف ، والباقون وقفوا بالألف . ووجه من قرأ بالتنوين فى سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله وهو : ﴿**إما**

شاكرا وإما كفورا ﴾ وما بعده وهو : ﴿ **أغلالا وسعيرا** ﴾ منوّن، أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاه الكسائى وغيره من الكوفيين عن بعض العرب . قال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف ، لأن الأصل فى الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها . قال الفراء : هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم : هو أظرف منك فإنهم لا يجرّونه ، وأنشد ابن الأنبارى فى ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبينا

ومن ذلك قول الشاعر :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

بكسر السين من نواكس ، وقول لبيد :

وحسور أستار دعونى لحتفها بمعالق متشابه أعلاقها

وقوله أيضا :

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح لشوب رغائب غنامها

وقيل : إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالألف . وقيل: إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف ، والسلاسل قد تقدّم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هى القيود أو ما يجعل فى الأعناق كما فى قول الشاعر :

. . . . ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال

جمع غلّ تغلّ به الأيدى إلى الأعناق . والسعير : الوقود الشديد ، وقد تقدّم تفسير السعير . ثم ذكر سبحانه ما أعده للشاكرين فقال : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس** ﴾ الأبرار : أهل الطاعة والإخلاص ، والصدق جمع برّ أو بارّ . قال فى الصحاح : جمع البرّ الأبرار ، وجمع البارّ البررة ، وفلان يبرّ خالقه ويبرره ، أى يطيعه ، وقال الحسن : البر : الذى لا يؤذى الذر . وقال قتادة : الأبرار : الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر ، والكأس فى اللغة : هو الإناء الذى فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأسا ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة ، بل يكون من الزجاج . ومن الذهب والفضة والصينى وغير ذلك ، وقد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر. كما فى قول الشاعر:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

﴿ **كان مزاجها كافورا** ﴾ أى يخالطها وتمزج به ، يقال : مزجه يمزجه مزجا ، أى خلطه يخلطه خلطا ، ومنه قول الشاعر :

كأن سبية من بيت رأس ... كأن مزاجها عسل وماء

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

معتقة كأن الحص فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا

ومنه مزاج البدن ، وهو ما يمازجه من الأخلاط ، والكافور قيل : هو اسم عين فى الجنة يقال لها : الكافورى تمزج خمر الجنة بماء هذه العين ، وقال قتادة ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك ، وقال عكرمة : مزاجها : طعمها. وقيل : إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها . وقيل : إنما أراد الكافور فى بياضه وطيب رائحته وبرده ؛ لأن الكافور لا لايشرب كما فى قوله : ﴿ حتى إذا جعله نارا ﴾ [الكهف : ٩٦] أى كنار . وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل ، وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا ، وإنما سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب ، والجملة فى محل جرّ صفة لكأس . وقيل : إن كان هنا زائدة، أى من كأس مزاجها كافورا .

﴿ **عينا يشرب بها عباد الله** ﴾ انتصاب ﴿ **عينا**﴾ على أنها بدل من ﴿ **كافورا**﴾ : لأن ماءها فى بياض الكافور ، وقال مكى : إنها بدل من محل ﴿ **من كأس** ﴾ على حذف مضاف كأنه قيل : يشربون خمرا خمر عين . وقيل : إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون ، أى عينا من كأس . وقيل : هى منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش . وقيل: منتصبة بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أى يشربون عينا يشرب بها عباد الله ، والأوّل أولى ، وتكون جملة: ﴿**يشرب بها عباد الله** ﴾ صفة لـ﴿**عينا**﴾. وقيل : إن الباء فى ﴿ **يشرب بها** ﴾ زائدة . وقيل : بمعنى من ، قاله الزجاج . ويعضده قراءة ابن أبى عبلة :« يشربها عباد الله» . وقيل : إن يشرب مضمن معنى يلتذّ . وقيل : هى متعلقة بـ﴿**يشرب** ﴾ ، والضمير يعود إلى الكأس ، وقال الفراء : يشربها ويشرب بها سواء فى المعنى ، وكأنّ يشرب بها يروى بها وينتفع بها ، وأنشد قول الهذلى :

شربن بماء البحر ثم ترفعت

قال : ومثله تكلم بكلام حسن ، وتكلم كلاما حسنا ﴿ **يفجرونها تفجيرا** ﴾ أى يجرونها إلى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاؤون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقا كما يشقّ النهر ويفجر إلى هنا وهنا . قال مجاهد : يقودونها حيث شاؤوا وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم . والجملة صفة أخرى لـ ﴿ **عينا** ﴾ ، وجملة : ﴿**يوفون بالنذر** ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر ، وكذا ما عطف عليها . ومعنى النذر فى اللغة : الإيجاب ، والمعنى : يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات ، قال قتادة ومجاهد : يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما . وقال عكرمة : يوفون إذا نذروا فى حق الله سبحانه ، والنذر فى الشرع : ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه

على أنفسهم . قال الفراء : فى الكلام إضمار ، أى كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا ، وقال الكلبى : يوفون بالعهد ، أى يتممون العهد ، والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص ﴿ **ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا** ﴾ المراد : يوم القيامة ، ومعنى استطارة شرّه : فشوّه وانتشاره ، يقال : استطار يستطير استطارة فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، ومنه قول الأعشى :

فبانت وقد أسأرت فى الفؤا د صدعا على نأيها مستطيرا

والعرب تقول : استطار الصدع فى القارورة والزجاجة : إذا امتدّ ، ويقال : استطار الحريق : إذا انتشر ، قال الفرّاء : المستطير : المستطيل ، قال قتادة : استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . قال مقاتل : كان شره فاشيا فى السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نسفت الجبال وغارت المياه. ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** ﴾ أى يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم وقلته عندهم . قال مجاهد: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له ، فقوله : ﴿ **على حبه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كائنين على حبه ، ومثله قوله: ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران : ٩٢] وقيل : على حب الإطعام برغبتهم فى الخير ، قال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام . وقيل : الضمير فى حبه يرجع إلى الله ، أى يطعمون الطعام على حبّ الله ، أى يطعمون إطعاما كائنا على حب الله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** ﴾ والمسكين : ذو المسكنة ، وهو الفقير ، أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم : يتامى المسلمين ، والأسير الذى يؤسر فيحبس . قال قتادة ومجاهد : الأسير : المحبوس . وقال عكرمة : الأسير : العبد . وقال أبو حمزة الثمالى : الأسير : المرأة . قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف فى حق الأسير الكافر،وقال غيره : بل هى محكمة، وإطعام المسكين واليتيم على التطوّع،وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام.

وجملة : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير القول ، أى يقولون : إنما نطعمكم، أو قائلين إنما نطعمكم ، يعنى : أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك ، قال الواحدى : قال المفسرون : لم يتكلموا بهذا ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه ﴿ **لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾ أى لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ، لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه . ﴿ **إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرا** ﴾ أى نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ، ومعنى ﴿ **عبوسا** ﴾ : أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى : أنه ذو عبوس . قال الفراء وأبو عبيدة والمبرد : يوم قمطرير وقماطر إذا كان

صعبا شديدا ، وأنشد الفراء :

بـنى عمنا هل تذكرون بـــلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر

قال الأخفش : القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ، ومنه قول الشاعر :

فـفروا إذا مـا الحـــرب ثار غبارها ولـج بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائى : اقمطر اليوم، وازمهر: إذا كان صعبا شديدا ، ومنه قول الشاعر :

بنـو الحرب أوصينا لهـم بقمطرة ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

وقال مجاهد : إن العبوس بالشفتين ، والقمطير بالجبهة والحاجبين ، فجعلهما من صفات المتغير فى ذلك اليوم لما يراه من الشدائد ، وأنشد ابن الأعرابى :

يقــدر عــلى الصيد بعود منكسر ويقمطر سـاعـة ويــكـفهــر

قال أبو عبيدة : يقال : قمطرير ، أى منقبض ما بين العينين والحاجبين ، قال الزجاج : يقال : اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطربها ، ورمت بأنفها ما يسبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة . ﴿ **فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم** ﴾ أى دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه ﴿ **ولقاهم نـضرة وسرورا** ﴾ أى أعطاهم بدل العبوس فى الكفار نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب . قال الضحاك : والنضرة : البياض والنقاء فى وجوههم . وقال سعيد بن جبير : الحسن والبهاء . وقيـل : النـضرة : أثر النعـمة . ﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾ أى بسبب صبرهم على التكاليف . وقيل : على الفقر . وقيل : على الجوع . وقيل : على الصوم ، والأولى حمل الآية على الصبر على كل شىء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ، «وما » مصدرية ، والتقدير : بصبرهم ﴿ **جنة وحريرا** ﴾ أى أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضا عن تركه فى الدنيا امتثالا لما ورد فى الشرع من تحريمه ، وظاهر هذه الآيات العموم فى كلّ من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصا كما سيأتى فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولا أوليا .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ قال : كل إنسان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **أمشاج** ﴾ قال : أمشاجها عروقها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم : ﴿**أمشاج** ﴾ قال : العـروق . وأخرج عبد بـن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **من نطفة أمشاج** ﴾ قال : ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ﴿ **أمشاج** ﴾ ألوان : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وحمراء . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الأمشاج : الذى يخرج على أثر البـول كـقطع الأوتار ومـنه يـكون الولد . وأخـرج ابن المنذر

وابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **كان شرّه مستطيرا** ﴾ قال : فاشيا . وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وأسيرا** ﴾ قال : هو المشرك .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿**مسكينا** ﴾ قال : «فقيرا» ﴿**ويتيما** ﴾ قال : « لا أب له » ﴿ **وأسيرا** ﴾ قال : « المملوك والمسجون » [(١)] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ويطعمون الطعام** ﴾ الآية قال: نزلت هذه الآية فى علىّ بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يوما عبوسا** ﴾ قال : ضيقا ﴿ **قمطريرا** ﴾ قال : طويلا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبىّ ﷺ فى قوله : ﴿ **يوما عبوسا قمطريرا** ﴾ قال: «يقبض ما بين الأبصار » . ما بين عينيه ووجهه . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **ولقاهم نضرة وسرورا** ﴾ قال : نضرة فى وجوههم وسرورا فى صدورهم .

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾.

قوله : ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزى ، ولا يعمل فيها صبروا ، لأن الصبر إنما كان فى الدنيا ، وجوّز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة . قال الفراء : وإن شئت جعلت ﴿**متكئين**﴾ تابعا، كأنه قال : جزاهم جنة متكئين فيها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون منصوبا على المدح والضمير من ﴿ **فيها** ﴾ يعود إلى الجنة ، والأرائك : السرر فى الحجال ، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الكهف ﴿**لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير فى متكئين ، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخرى لجنة ، والزمهرير: أشدّ البرد ، والمعنى : أنهم لا يرون فى الجنة حرّ الشمس ولا برد الزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمسا ولا زمهريرا

وقال ثعلب : الزمهرير : القمر بلغة طيئ ، وأنشد لشاعرهم :

---

(١) أبو نعيم ٥/ ١٠٥ وقال : « غريب من حديث عمرو تفرد به عباد عن عمه » .

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتـــها والزمهرير ما زهر

ويروى : ماظهر ، أى لم يطلع القمر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة مريم . ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **دانية** ﴾ بالنصب عطفا على محل لا يرون ، أو على متكئين، أو صفة لمحذوف ، أى وجنة دانية ، كأنه قال : وجزاهم جنة دانية . وقال الزجاج : هو صفة لجنة المتقدم ذكرها . وقال الفراء : هو منصوب على المدح ، وقرأ أبو حيوة : « ودانية» بالرفع على أنه خبر مقدم وظلالها مبتدأ مؤخر والجملة فى موضع النصب على الحال ، والمعنى : أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظللة عليهم زيادة فى نعيمهم وإن كان لا شمس هنالك ، قال مقاتل: يعنى : شجرها قريب منهم ، وقرأ ابن مسعود: « ودانيا عليهم » . ﴿ **وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ معطوف على دانية كأنه قال : ومذللة ، ويجوز أن تكون الجملة فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ **عليهم** ﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار ، والمعنى : أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيرا كثيرا بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك ، قال النحاس : المذلل القريب والمتناول ، ومنه قولهم : حائط ذليل ، أى قصير . قال ابن قتيبة :ذللت : أدنيت ، من قولهم : حائط ذليل ، أى كان قصير السمك ، وقيل : ذللت ، أى جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا . ﴿ **ويطاف عليهم بآنية من فـضة وأكواب** ﴾ أى تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشرب بآنية الفضة ، والأكواب جمع كوب ، وهو الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة ، ومنه قول عدىّ :

متكئ تقرع أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره فى سورة الزخرف ﴿ **كانت قواريراً . قواريراً من فـضة** ﴾ أى فى وصف القوارير فى الصفاء وفى بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ، ولونها لون الفضة ، قرأ نافع والكسائى وأبو بكر : ﴿**قوارير . قوارير**﴾ بالتنوين فيهما مع الوصل ، وبالوقف عليهما بالألف ، وقد تقدّم وجه هذه القراءة فى تفسير قوله : ﴿ **سلاسل** ﴾ من هذه السورة ، وبينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه ، وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع ، وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف ، وقرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثانى والوقف على الأوّل بالألف دون الثانى ، وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما، والوقف على الأوّل بالألف دون الثانى ، والجملة فى محل جرّ صفة لأكواب . قال أبو البقاء : وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها . قال الواحدى : قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة ، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير . قال الزجاج : القوارير التى فى الدنيا من الرمل ، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما فى داخلها ، وجملة : ﴿ **قدّروها تقديرا** ﴾ صفة لقوارير . قرأ الجمهور : ﴿**قدّروها**﴾ بفتح القاف على البناء للفاعل ، أى قدّرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم

على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان ، قال مجاهد وغيره : أتوا بها على قدر ريهم بغير زيادة ولا نقصان . قال الكلبى : وذلك ألذّ وأشهى . وقيل : قدرّها الملائكة . وقيل : قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد ولا تنقص ، وقرأ على وابن عباس والسلمى والشعبى وزيد بن علىّ وعبيد بن عمير وأبو عمرو فى رواية عنه : « قدروها » بضم القاف وكسر الدال مبنيا للمفعول، أى جعلت لهم على قدر إرادتهم، قال أبو على الفارسى هو من باب القلب ، قال : لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم لا قدّروها ، لأنه فى معنى : قدروا عليها . وقال أبو حاتم : التقدير : قدرت الأوانى على قدر ريهم ، فمفعول ما لم يسمّ فاعله محذوف . قال أبو حيان : والأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال : قدّر ريهم منها تقديرا ، فحذف المضاف فصار قدروها ، وقال المهدوى : إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى ، وكأن الأصل قدروا عليها فحذف حرف الجرّ كما أنشد سيبويه :

آليت حبّ العراق الدهر آكله ... والحب يأكله فى القرية السوس

أى آليت على حبّ العراق . ﴿ **ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا** ﴾ قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر ، وإذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس ، والمعنى : أن أهل الجنة يسقون فى الجنة كأسا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل ، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته ، وقال مجاهد وقتادة : الزنجبيل: اسم للعين التى يشرب بها المقربون. وقال مقاتل : هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا . ﴿ **عينا فيها تسمى سلسبيلا** ﴾ انتصاب ﴿**عينا**﴾ على أنها بدل من ﴿**كأسًا** ﴾، ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدر ، أى يسقون عينا، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض ، أى من عين ، والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب : هذا شراب سلس وسلسال وسلسبيل، أى طيب لذيذ . قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة : اسم لماء فى غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ فى حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم ... كأسا يصفق بالرحيق السلسل

﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون** ﴾ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ، ووصف آنيتهم، ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب ، ومعنى ﴿ **مخلدون** ﴾ : باقون على ماهم عليه من الشباب والطراوة والنضارة ، لا يهرمون ولا يتغيرون . وقيل : معنى ﴿**مخلدون**﴾ : لا يموتون . وقيل : التخليد : التحلية ، أى محلون . ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** ﴾: إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤا مفرّقا . قال عطاء : يريد فى بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما . قال أهل المعانى : إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم فى الخدمة ، ولو كانوا

صفا لشبهوا بالمنظوم . وقيل : إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين فإنه شبههنّ باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهنّ بالخدمة . ﴿ **وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا** ﴾ أى وإذا رميت ببصرك هناك ، يعنى : فى الجنة رأيت نعيما لا يوصف ، وملكا كبيرا لا يقادر قدره . و« ثم » ظرف مكان ، والعامل فيها رأيت . قال الفراء : فى الكلام « ما » مضمرة ، أى وإذا رأيت ما ثمَّ ، كقوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] أى ما بينكم ، قال الزجاج معترضا على الفراء : إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن رأيت يتعدّى فى المعنى إلى ثم . والمعنى : إذا رأيت ببصرك ثم ، ويعنى بثمّ : الجنة . قال السدّى : النعيم : ما يتنعم به ، والملك الكبير : استئذان الملائكة عليهم ، وكذا قال مقاتل والكلبى . وقيل : إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدّر ، ولا منوىّ ، بل معناه : أن بصرك أينما وقع فى الجنة رأيت نعيما وملكا كبيرا .

﴿ **عاليهم ثياب سندس** ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن : « عاليهم » بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، أو على أن عاليهم مبتدأ ، وثياب مرتفع بالفاعلية وإن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش . وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء ، وخبره : ثياب سندس ، واسم الفاعل مراد به الجمع ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف فى محلّ رفع على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل : فوقهم ثياب ، قال الفرّاء : إن عاليهم بمعنى : فوقهم ، وكذا قال ابن عطية . قال أبو حيان : عال وعالية اسم فاعل، فيحتاج فى كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب ، وقد تقدمه إلى هذا الزجاج وقال : هذا مما لا نعرفه فى الظروف ولو كان ظرفًا لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما : الهاء والميم فى قوله : ﴿ **يطوف عليهم** ﴾ أى على الأبرار ﴿ **ولدان** ﴾ عاليا الأبرار ﴿ **ثياب سندس** ﴾ أى يطوف عليهم فى هذه الحال . والثانى : أن يكون حالا من الولدان ، أى إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا فى حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علىّ الفارسى : العامل فى الحال إما لقاهم نضرة وسرورا ، وإما جزاهم بما صبروا . قال : ويجوز أن يكون ظرفا ، وقرأ ابن سيرين ومجاهد وأبو حيوة وابن أبى عبلة :« عليهم»، وهى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود : «عاليتهم » ، وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بتنوين ثياب وقطعها عن الإضافة ورفع سندس و خضر وإستبرق على أن السندس نعت للثياب ، لأن السندس نوع من الثياب ، وعلى أن ﴿ **خضر** ﴾ نعت لسندس ، لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس ، أى وثياب إستبرق ، والجمهور من القراء اختلفوا فى خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه ، فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس ورفع إستبرق عطفا على ثياب ، أى عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق . وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتا لثياب ، وجرّ

إستبرق نعتا لسندس ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، والإستبرق من جنس السندس ، وقرأ نافع وحفص برفع : ﴿**خضر وإستبرق**﴾ لأن ﴿ **خضر** ﴾ نعت للثياب ، وإستبرق عطف على الثياب ، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بجرّ خضر وإستبرق على أن ﴿ **خضر** ﴾ نعت للسندس ، وإستبرق معطوف على سندس ، وقرؤوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه ، قال : لأنه أعجمى ، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب ، والسندس : ما رق من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه ، وقد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف .

﴿ **وحلوا أساور من فضة** ﴾ عطف على ﴿**يطوف عليهم**﴾ . ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة وفى سورة فاطر : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ [فاطر : ٢٣] وفى سورة الحج : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا﴾ [الحج : ٢٣] ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد ﴿ **وسقاهم ربهم شرابا طهورا** ﴾ هذا نوع آخر من الشراب الذى يمنّ الله عليهم به ، قال الفراء : يقول : هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفا بالنجاسة ، والمعنى : أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا . قال مقاتل : هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غشّ وغلّ وحسد ، قال أبو قلابة وإبراهيم النخعى : يؤتون بالطعام ، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك . ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء** ﴾ أى يقال لهم : إن هذا الذى ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم ، أى ثوابا لها ﴿ **وكان سعيكم مشكورا** ﴾ أى كان عملكم فى الدنيا بطاعة الله مرضيا مقبولا ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبول لطاعته .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : الزمهرير : هو البرد الشديد . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «اشتكت النار إلى ربها فقالت : رب ، أكل بعضى بعضا ، فجعل لها نفسين : نفسا فى الصيف ، ونفسا فى الشتاء ، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدة ما تجدون فى الصيف من الحر من سمومها » [١] . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد ابن السرىّ وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٦٠) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٦١٧/ ١٨٥) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩٢) وقال : « هذا حديث صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٣١٩) بمعناه .

قوله : ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ قال : قريبة ﴿ **وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما وقعودا ومضطجعين وعلى أىّ حال شاؤوا . وفى لفظ قال : ذللت فيتناولون منها كيف شاؤوا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : ﴿ **آنية من فضة**﴾وصفاؤها كصفاء القوارير ﴿ **قدروها تقديرا** ﴾ قال : قدرت للكف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقى عنه قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة فى صفاء القوارير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : ليس فى الجنة شىء إلا وقد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وأخرج الفريابى عنه أيضا فى قوله : ﴿ **قدروها تقديرا** ﴾ قال : أتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئا ولا يشتهون بعدها شيئا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **قدّروها تقديرا** ﴾ قال : قدّرتها السقاة . وأخرج ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عمرو قال : إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وتلا هذه الآية : ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ .

قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا** ﴾ أى فرّقناه فى الإنزال ولم ننزله جملة واحدة. وقيل : المعنى: نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون . ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ أى لقضائه ، ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته ، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ **ولا تطع منهم** (١) **آثما أو كفورا**﴾ أى لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال فى كفر ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك . قال الزجاج إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص ، لأنه أمره ألا يطيع الاثنين ، فإذا قال : لا تطع منهم آثما أو كفورا ، دلّ ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، فقد قلت: إنهما أهل أن

(١) فى المطبوعة : « منها » وهو خطأ .

يتبعا ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع ، وقال الفراء : « أو » هنا بمنزلة لا ، كأنه قال : ولا كفورا . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **آثما** ﴾ عتبة بن ربيعة ، وبقوله: ﴿**أو كفورا** ﴾ الوليد بن المغيرة ، لأنهما قالا للنبيّ ﷺ : ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج . ﴿**واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا** ﴾ أى دم على ذكره فى جميع الأوقات . وقيل : المعنى : صلّ لربك أول النهار وآخره ، فأوّل النهارصلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر . ﴿ **ومن الليل فاسجد له** ﴾ أى صلّ المغرب والعشاء . وقيل : المراد الصلاة فى بعضه من غير تعيين ، و « من » للتبعيض على كل تقدير ﴿ **وسبحه ليلا طويلا** ﴾ أى نزهه عما لا يليق به ، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها . وقيل : المراد التطوّع فى الليل ، قال ابن زيد وغيره :إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس . وقيل : الأمر الندب . وقيل : هو مخصوص بالنبىّ ﷺ .

﴿ **إنّ هؤلاء يحبون العاجلة** ﴾ يعنى : كفار مكة ومن هو موافق لهم ، والمعنى : أنهم يحبون الدار العاجلة ، وهى دار الدنيا ، ﴿ **ويذرون وراءهم يوما ثقيلا** ﴾ أى يتركون ويدعون وراءهم ، أى خلفهم أو بين أيديهم وأمامهم يوما شديدا عسيرا ، وهو يوم القيامة ، وسمى ثقيلا لما فيه من الشدائد والأهوال ومعنى كونه يذرونه وراءهم : أنهم لا يستعدّون له ، ولا يعبؤون به ، فهم كمن ينبذ الشىء وراء ظهره تهاونا به واستخفافا بشأنه ، وإن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم . ﴿ **نحن خلقناهم** ﴾ أى ابتدأنا خلقهم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا فى ذلك عمل ولا سعى لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ **وشددنا أسرهم** ﴾ الأسر : شدّة الخلق ، يقال : شدّ الله أسر فلان ، أى قوى خلقه ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم : شددنا خلقهم . قال الحسن : شددنا أوصالهم بعضا إلى بعض بالعروق والعصب . قال أبو عبيد : يقال : فرس شديد الأسر ، أى الخلق . قال لبيد :

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوك القتد

وقال الأخطل :

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

وقال ابن زيد : الأسر : القوة ، واشتقاقه من الإسار ، وهو القدّ الذى تشد به الأقتاب ، ومنه قول ابن أحمر يصف فرسا :

يمشى بأوطفة شداد أسرها شمّ السبائك لا تفى بالجدجد

﴿ **وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا** ﴾ أى لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وقيل: المعنى: مسخناهم إلى أسمج صورة ، وأقبح خلقة . ﴿ **إنّ هذه تذكرة** ﴾ يعنى : أن هذه

السورة تذكير وموعظة ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ أى طريقا يتوسل به إليه ، وذلك بالإيمان والطاعة ، والمراد إلى ثوابه أو إلى جنته . ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله**﴾ أى وما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلا إلا أن يشاء الله ، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، والخير والشرّ بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فمشيئة العبد مجردة لا تأتى بخير ، ولا تدفع شرّا ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير كما فى حديث : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) قال الزجاج : أى لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ فى أمره ونهيه ، أى بليغ العلم والحكمة . ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته** ﴾ أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، أو يدخل فى جنته من يشاء من عباده . قال عطاء : من صدقت نيته أدخله جنته ﴿ **والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما**﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ما قبله ، أى يعذب الظالمين ، نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب أى : يدخل من يشاء فى رحمته ، ويعذب الظالمين ، أى المشركين ، ويكون أعدّ لهم تفسيرا لهذا المضمر، والاختيار النصب وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **وشددنا أسرهم** ﴾ قال : خلقهم . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة: ﴿**وشددنا أسرهم** ﴾ قال : هى المفاصل .

---

(١) البخارى فى بدء الوحى (١) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧ / ١٥٥) .

تفسير سورة المرسلات

هى خمسون آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال قتادة : إلا آية منها وهى قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ فإنها مدنية ، وروى هذا عن ابن عباس . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة المرسلات بمكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبى ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت سورة ﴿ المرسلات عرفا ﴾ فإنه ليتلوها، وإنى لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبىّ ﷺ : « اقتلوها » ، فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ:« وقيت شركم كما وقيتم شرها » [١] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ؛ أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ :﴿والمرسلات عرفا﴾ فقالت : يا نبى ، لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة ، أنها آخر ما سمعت رسول اللّه ﷺ يقرأ بها فى المغرب [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾ .

قوله : ﴿ والمرسلات عرفا ﴾ قال جمهور المفسرين : هى الرياح . وقيل : هى الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبى . وقيل : هم الأنبياء ، فعلى الأول : أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما فى قوله : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ [الحجر : ٢٣] وقوله : ﴿يرسل[٣] الرياح ﴾ [الروم : ٤٨] وغير ذلك ، وعلى الثانى : أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهيه ، وعلى الثالث : أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وانتصاب ﴿عرفا﴾ إما على أنه مفعول لأجله ، أى المرسلات لأجل العرف وهو ضد

---

(١) أحمد ١/ ٣٧٧ والبخارى فى بدء الخلق (٣٣١٧) ومسلم فى السلام (٢٢٣٤ / ١٣٧) .
(٢) الموطأ فى الصلاة ١/ ٧٨ والبخارى فى الأذان (٧٦٣) ومسلم فى الصلاة (٤٦٢ / ١٧٣) .
(٣) فى المخطوطة : « ويرسل » بالواو ، وهو خطأ .

النكر ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه　　　لا يذهب العرف بين الله والناس

أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس ، تقول العرب : سار الناس إلى فلان عرفا واحدا : إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه. أو على أنه مصدر كأنه قال : والمرسلات إرسالا ، أى متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض ، أى والمرسلات بالعرف . قرأ الجمهور : ﴿ **عرفا** ﴾ بسكون الراء . وقرأ عيسى بن عمر بضمها . وقيل : المراد بالمرسلات : السحاب لما فيها من نعمة ونقمة :﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ وهى الرياح الشديدة الهبوب ، قال القرطبى : بغير اختلاف ، يقال : عصف بالشيء: إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف ، أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة، ويقال : عصفت الحرب بالقوم : إذا ذهبت بهم : وقيل : هى الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : يعصفون بروح الكافر . وقيل : هى الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها . ﴿**والناشرات نشرا**﴾ يعنى : الرياح تأتى بالمطر وهى تنشر السحاب نشرا ، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم فى الجوّ عند النزول بالوحىّ ، أو هى الأمطار لأنها تنشر النبات ، وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بنى آدم ، قال الربيع : إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح ، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر : ﴿**فالفارقات فرقا**﴾ يعنى : الملائكة تأتى بما يفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وقال مجاهد : هى الريح تفرّق بين السحاب فتبدّده، وروى عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل . وقيل : هى الرسل ، فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه . وبه قال الحسن : ﴿ **فالملقيات ذكرا** ﴾ هى الملائكة . قال القرطبى بإجماع : أى تلقى الوحى إلى الأنبياء، وقيل : هو جبريل ، وسمى باسم الجمع تعظيما له . وقيل : هى الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب. قرأ الجمهور : ﴿ **فالملقيات** ﴾ بسكون اللام وتخفيف القاف اسم فاعل ، وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهى إيصال الكلام إلى المخاطب ، والراجح أن الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة وهو الذى اختاره الزجاج والقاضى وغيرهما .

﴿ **عذرا أو نذرا** ﴾ انتصابهما على البدل من ﴿ **ذكرا** ﴾ أو على المفعولية ، والعامل فيهما المصدر المنون كما فى قوله : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة .يتيما ﴾ [البلد : ١٤، ١٥] أو على المفعول لأجله ، أى للإعذار والإنذار ، أوعلى الحال بالتأويل المعروف ، أى معذرين أو منذرين . قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما . وقرأ زيد بن ثابت وابنه خارجة بن زيد وطلحة بضمها . وقرأ الحرميان وابن عامر وأبو بكر بسكونها فى ﴿ **عذرا** ﴾ وضمها فى «نذرا » . وقرأ الجمهور : ﴿ **عذرا أو نذرا** ﴾ على العطف بـ « أو » وقرأ إبراهيم التيمى وقتادة على العطف بالواو بدون ألف ، والمعنى : أن الملائكة تلقى الوحى إعذارا من الله إلى خلقه وإنذارا من عذابه ،كذا قال الفراء .وقيل : عذرا للمحقين، ونذرا للمبطلين . قال أبو علىّ الفارسى:

يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر وناذر كقوله : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى﴾ [النجم : ٥٦] فيكون نصبا على الحال من الإلقاء ، أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار ، أو مفعولان لذكرا ، أى تذكر عذرا أو نذرا . قال المبرد : هما بالتثقيل جمع ، والواحد عذير ونذير .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ **إنما توعدون لواقع** ﴾ أى أن الذى توعدونه من مجىء الساعة والبعث كائن لا محالة . ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال : ﴿ **فإذا النجوم طمست** ﴾ أى محى نورها وذهب ضوؤها ، يقال: طمس الشىء : إذا درس وذهب أثره ﴿ **وإذا السماء فرجت** ﴾ أى فتحت وشقت ، ومثله قوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ [النبأ : ١٩] ﴿ **وإذا الجبال نسفت** ﴾ أى قلعت من مكانها بسرعة ، يقال : نسفت الشىء وأنسفته : إذا أخذته بسرعة . وقال الكلبى : سويت بالأرض ، والعرب تقول : نسفت الناقة الكلأ : إذا رعته .وقيل :جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف،ومنه قوله:﴿ وبست الجبال بسا ﴾ [الواقعة: ٥] والأول أولى . قال المبرد : نسفت : قلعت من مواضعها . ﴿ **وإذا الرسل أقتت**﴾ الهمزة فى ﴿ **أقتت** ﴾ بدل من الواو المضمومة ، وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة . وقد قرأ بالواو أبو عمرو وشيبة والأعرج وقرأ الباقون بالهمزة ، والوقت : الأجل الذى يكون عنده الشىء المؤخر إليه ، والمعنى : جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما فى قوله سبحانه : ﴿يوم يجمع اللّه الرسل ﴾ [المائدة : ١٠٩] وقيل : هذا فى الدنيا ، أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبها.والأول أولى . قال أبو على الفارسى : أى جعل يوم الدين والفصل لها وقتا . وقيل : ﴿ **أقتت** ﴾ : أرسلت لأوقات معلومة على ما علم اللّه به ﴿ **لأى يوم أجلت** ﴾ هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب ، أى لأى يوم عظيم يعجب العباد منه لشدته ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لـ « إذا » ، أو فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿**أقتت**﴾. قال الزجاج : المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم .

ثم بين هذا اليوم فقال : ﴿ **ليوم الفصل** ﴾ قال قتادة : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم عظم ذلك اليوم فقال : ﴿ **وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ أى وما أعلمك بيوم الفصل ، يعنى : أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره ، و« ما » مبتدأ وأدراك خبره ، أو العكس كما اختاره سيبويه . ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى ويل لهم فى ذلك اليوم الهائل ، وويل أصل مصدر سادّ مسد فعله ، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات. والويل : الهلاك ، أو هو اسم واد فى جهنم ، وكررّ هذه الآية فى هذه السورة لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشىء عذابا سوى تكذيبه بشىء آخر ، ورب شىء كذب به هو أعظم جرما من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب .

ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال : ﴿ **ألم نهلك الأولين** ﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد ﷺ . قال مقاتل : يعنى : بالعذاب فى الدنيا حين كذبوا رسلهم . ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين**﴾ يعنى : كفار مكة ، ومن وافقهم حين كذبوا محمداً ﷺ . قرأ الجمهور : ﴿ **نتبعهم** ﴾ بالرفع على الاستئناف، أى ثم نحن نتبعهم . قال أبو البقاء : ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى : أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين فى الإهلاك، وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد ، ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود : « ثم سنتبعهم الآخرين » . وقرأ الأعرج والعباس عن أبى عمرو : « نتبعهم » بالجزم عطفا على ﴿ **نهلك** ﴾ . قال شهاب الدين : على جعل الفعل معطوفا على مجموع الجملة من قوله : ﴿ **ألم نهلك** ﴾ . ﴿ **كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف ، أى مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما فى الدنيا أو فى الآخرة : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب اللّه ورسله . قيل : الويل الأول لعذاب الآخرة ، وهذا لعذاب الدنيا .

﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ أى ضعيف حقير ،وهو النطفة ﴿ **فجعلناه فى قرار مكين** ﴾ أى مكان حريز ، وهو الرحم : ﴿ **إلى قدر معلوم** ﴾ أى إلى مقدار معلوم ، وهو مدّة الحمل ، وقيل : إلى أن يصور ﴿**فقدرنا**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**فقدرنا** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ نافع والكسائى بالتشديد من التقدير ، قال الكسائى والفراء: وهما لغتان بمعنى، تقول : قدرت كذا ، وقدرته ﴿ **فنعم القادرون** ﴾ أى نعم المقدرون نحن ، قيل : المعنى: قدرناه قصيرا أو طويلا. وقيل : معنى ﴿**قدرنا**﴾: ملكنا ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بقدرتنا على ذلك .

ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا** ﴾ معنى الكفت فى اللغة : الضم والجمع ، يقال : كفت الشيء : إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر : كفت ، والمعنى : ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها والأموات فى باطنها تضمهم وتجمعهم . قال الفراء : يريد تكفتهم أحياء على ظهرها فى دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتا فى بطنها ، أى تحوزهم وهو معنى قوله : ﴿ **أحياء وأمواتا** ﴾ وأنشد سيبويه :

كرام حين تنكفت الأفـاعى إلى أجحـارهن مـن الصـقيع

قال أبو عبيدة كفاتا : أوعية ، ومنه قول الشاعر :

فأنت اليوم فوق الأرض حيّ وأنت غدا تضمن فى كفـات

أى فى قبر ، وقيل : معنى جعلها كفاتا : أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات . وقال الأخفش وأبوعبيدة: الأحياء والأموات وصفان للأرض ، أى الأرض مقسمة إلى حيّ وهو الذى ينبت ، وإلى ميت وهو الذى لا ينبت . قال الفراء : انتصاب أحياء

وأمواتا بوقوع الكفات عليه ، أى ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نون نصب ما بعده . وقيل : نصبا على الحال من الأرض ، أى منها كذا ومنها كذا . وقيل : هو مصدر نعت به للمبالغة . وقال الأخفش: كفاتا جمع كافتة ،والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع ، وقال الخليل : التكفت : تقليب الشيء ظهرًا لبطن أو بطنًا لظهر، ويقال : انكفت القوم إلى منازلهم ، أى ذهبوا . ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات** ﴾ أى جبالا طوالا ، والرواسى : الثوابت ، والشامخات : الطوال ، وكل عال فهو شامخ ﴿**وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾ أى عذبا ، والفرات : الماء العذب يشرب منه ويسقى به . قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث.﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التى هذه من جملتها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، عن أبى هريرة : ﴿ **والمرسلات عرفا** ﴾ قال : هى الملائكة أرسلت بالعرف . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ **والمرسلات عرفا** ﴾ قال : الريح ﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ قال : الريح ﴿ **والناشرات نشرا** ﴾ قال :الريح . وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب ، أنه جاء رجل إلى علىّ بن أبى طالب ، فقال : ما العاصفات عصفا ، قال : الرياح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿**والمرسلات عرفا** ﴾ قال: الريح ﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ قال : الريح ﴿ **فالفارقات فرقا** ﴾ قال : الملائكة ﴿ **فالملقيات ذكرا** ﴾ قال:الملائكة .وأخرج ابن المنذر عنه ﴿**والمرسلات عرفا**﴾ قال : الملائكة ﴿ **فالفارقات فرقا** ﴾ قال : الملائكة ، فرقت بين الحق والباطل ﴿**فالملقيات ذكرا** ﴾ قال : بالتنزيل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود قال : ويل : واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فجعل للمكذبين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **من ماء مهين** ﴾ قال : ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **كفاتا** ﴾ قال : كنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**رواسى شامخات** ﴾ قال : جبالا مشرفات ، وفى قوله : ﴿ **فراتا** ﴾: عذبا .

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقال لهم توبيخا وتقريعا : ﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون** ﴾ فى الدنيا ، تقول لهم ذلك خزنة جهنم : أى سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب ، وهو عذاب النار ﴿ **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب** ﴾ أى إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب . وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعبا . قرأ الجمهور : ﴿ **انطلقوا** ﴾ فى الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد ، وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضى فى الثانى ، أى لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا . وقيل: المراد بالظل هنا : هو السرادق ، وهو لسان من النار يحيط بهم ، ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم ، ثم يصيرون إلى النار. وقيل: هو الظل من يحموم كما فى قوله : ﴿ فى سموم وحميم . وظلّ من يحموم ﴾ [الواقعة : ٤٢ ، ٤٣] على ما تقدم ، ثم وصف سبحانه هذا الظلّ تهكما بهم فقال : ﴿ **لا ظليل ولا يغنى من اللهب** ﴾ أى لا يظل من الحرّ ولا يغنى من اللهب . قال الكلبى : لا يردّ حرّ جهنم عنكم .

ثم وصف سبحانه النار فقال : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾ أى كل شررة من شررها التى ترمى بها كالقصر من القصور فى عظمها ، والشرر: ما تطاير من النار متفرقا ، والقصر : البناء العظيم ، وقيل : القصر : جمع قصرة ساكنة الصاد مثل : حمر وحمرة ، وتمر وتمرة ، وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ . قال سعيد بن جبير والضحاك : وهى أصول الشجر العظام . وقيل : أعناقه . قرأ الجمهور : ﴿ **كالقصر** ﴾ بإسكان الصاد، وهو واحد القصور كما تقدم، وقرأ ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمى بفتح الصاد ، أى أعناق النخل . والقصرة : العنق ، جمعه قصر وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل ، وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد وهى أيضا جمع قصرة، مثل : بدر وبدرة ، وقصع وقصعة ، وقرأ الجمهور : ﴿ **بشرر** ﴾ بفتح الشين ، وقرأ ابن عباس وابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراءين ، وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين ، وهى لغات . ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال : ﴿ **كأنه جمالات صفر** ﴾ وهى جمع جمال ، وهى الإبل أو جمع جمالة . قرأ الجمهور : « جمالات » بكسر الجيم ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص : ﴿ **جمالة** ﴾ جمع جمل . وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وأبو رجاء : « جمالات » بضم الجيم ، وهى حبال السفن ، قال الواحدى : والصفر معناها : السود فى قول المفسرين، قال الفراء : الصفر : سواد الإبل ، لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة ، لذلك سمت العرب سود الإبل صفرا . قيل:

والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود ، ومنه قول الشاعر [١] :

تلك خيلى وتلك ركابى هن صفر أولادها كالزبيب

أى هنّ سود ، قيل : وهذا القول محال فى اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قال بهذا ، وقد قال تعالى : ﴿ **جمالات صفر** ﴾ . وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهى مضيئة، فلما خلق اللّه جهنم ، وهى موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار ، وبعث إليها سلطانه وغضبه فاسودت من سلطانه وازدادت سوادا وصارت أشدّ سوادا من كل شيء ، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت : وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل ، لأن كلامه باعتبار ما وقع فى الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء ، فلو كان الأمركما ذكره المجيب من اسوداد النار، واسوداد شررها . لقال اللّه : كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ، فكان ما فى القرآن هنا واردا على هذا الاستعمال العربى .

﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ لرسل اللّه وآياته ﴿ **هذا يوم لا ينطقون** ﴾ أى لا يتكلمون . قال الواحدى : قال المفسرون: فى يوم القيامة مواقف ، ففى بعضها يتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدّمنا الجمع بهذا فى غير موضع . وقيل : إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون ، لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت . وقال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . قرأ الجمهور : برفع ﴿ **يوم** ﴾ على أنه خبر لاسم الإشارة . وقرأ زيد بن على والأعرج والأعمش وأبو حيوة وعاصم فى رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ، ومحله الرفع على الخبرية ، وقيل : هو منصوب على الظرفية ، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد كأنه قيل : هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون : ﴿ **ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يؤذن** ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن على : « ولا يأذن » على البناء للفاعل ، أى لا يأذن اللّه لهم ، أى لا يكون لهم إذن من اللّه فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن كما لو نصب . قال الفراء: الفاء فى ﴿ **فيعتذرون** ﴾ نسق على ﴿ **يؤذن** ﴾ وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ، ولو قال : فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال : ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا** ﴾ [فاطر : ٣١] بالنصب ، والكل صواب . ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته.

---

(١) الشاعر هو الأعشى .

﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين** ﴾ أى ويقال لهم : هذا يوم الفصل الذى يفصل فيه بين الخلائق ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب فى : ﴿ **جمعناكم** ﴾ للكفار فى زمن نبينا محمد ﷺ ، والمراد بالأولين : كفار الأمم الماضية. ﴿ **فإن كان لكم كيد** ﴾ أى إن قدرتم على كيد الآن ﴿ **فكيدون** ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم . قال مقاتل : يقول : إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم . وقيل : المعنى : فإن قدرتم على حرب فحاربون . وقيل : إن هذا من قول النبى ﷺ ، فيكون كقول هود : ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ [هود : ٥٥] . ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه فى الدنيا .

ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿ **إن المتقين فى ظلال وعيون** ﴾ أى فى ظلال الأشجار وظلال القصور ،لا كالظلّ الذى للكفار من الدخان أو من النار كما تقدّم ، قال مقاتل والكلبى: المراد بالمتقين : الذين يتقون الشرك بالله ، لأن السورة من أولها إلى آخرها فى تقريع الكفار على كفرهم ، قال الرازى : فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة فى نظمها وترتيبها وإنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم ، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال ، والمراد بالعيون : الأنهار ، وبالفواكه : ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم . ﴿ **كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون** ﴾ أى يقال لهم ذلك. فالجملة مقدرة بالقول ، وهى فى محل نصب على الحال من ضمير المتقين ، والباء للسببية ، أى بسبب ما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة . ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى المحسنين فى أعمالهم ، قرأ الجمهور : ﴿ **فى ظلال** ﴾ . وقرأ الأعمش والزهرى وطلحه والأعرج : «فى ظلل » جمع ظلة . ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ حيث صاروا فى شقاء عظيم ، وصار المؤمنون فى نعيم مقيم .

﴿ **كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون** ﴾ الجملة بتقدير القول فى محل نصب على الحال من المكذبين ، أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم فى الدنيا ، أو يقال لهم هذا فى الدنيا ، والمجرمون : المشركون بالله ، وهذا وإن كان فى اللفظ أمرا ، فهو فى المعنى تهديد وزجر عظيم . ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ كرّره لزيادة التوبيخ والتقريع . ﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** ﴾ أى وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون . قال مقاتل: نزلت فى ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبىّ ﷺ بها فقالوا : لا ننحنى فإنها مسبة علينا ، فقال النبى ﷺ : « لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود » (١) ، وقيل : إنما يقال لهم ذلك فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، وقيل: المعنى بالركوع : الطاعة والخشوع . ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه ﴿ **فبأى حديث بعده يؤمنون** ﴾ أى فبأى حديث بعد القرآن يصدقون إذا لم يؤمنوا به . قرأ الجمهور : ﴿ **يؤمنون** ﴾ بالتحتية على الغيبة. وقرأ ابن عامر فى رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب .

---

(١) أحمد ٢١٨/٤ وأبو داود فى الإمارة (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبى العاص .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بشرر كالقصر** ﴾ قال : كالقصر العظيم ، وقوله : ﴿ **جمالات صفر** ﴾ قال : قطع النحاس . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه ، من طريق عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس يسأل عن قوله : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾ قال : كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل ، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ، قال : وسمعته يسأل عن قوله : « جمالات صفر » قال : حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال ، ولفظ البخارى : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر . « كأنه جمالات صفر » حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أنه قرأ : «كالقصر » بفتح القاف والصاد ، وقال قصر النخل : يعنى الأعناق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كانت العرب فى الجاهلية تقول : أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر الذراع والذراعين. وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**ترمى بشرر كالقصر** ﴾ قال : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كالقصر** ﴾ قال: هو القصر . وفى قوله : ﴿**جمالات صفر** ﴾ قال : الإبل.

وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون**﴾ ، و﴿ لا تسمع إلا همسًا ﴾ [طه : ١٠٨] ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور : ٢٥] ﴿ وهاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ [الحاقة : ١٩] فقال له : ويحك هل سألت عن هذا أحدا قبلى ؟ قال : لا ، قال : أما أنك لو كنت سألت هلكت ، أليس قال الله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : ٤٧] قال : بلى ، قال : فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**﴾ يقول : يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله فى الدنيا .

تفسير سورة عم

وتسمى سورة النبأ . وهى أربعون آية . وقيل : إحدى وأربعون آية . وهى مكية عند الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿عم يتساءلون﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا(٣٠)﴾ .

قوله : ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ أصله : عن ما ، فأدغمت النون فى الميم ، لأن الميم تشاركها فى الغنّة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وممّ ونحو ذلك ، والمعنى : عن أى شيء يسأل بعضهم بعضا . قرأ الجمهور : ﴿ **عم** ﴾ بحذف الألف لما ذكرنا ، وقرأ أبى وابن مسعود وعكرمة وعيسى بإثباتها ومنه قول الشاعر :

علاما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى دمان

ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة ، وقرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف وروى ذلك عن ابن كثير . قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام ، والمعنى : تفخيم القصة كما تقول : أى شيء تريد : إذا عظمت شأنه . قال الواحدى : قال المفسرون : لما بعث رسول اللّه ﷺ وأخبرهم بتوحيد اللّه والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن ، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون : ماذا جاء به محمد وما الذى أتى به ؟ فأنزل اللّه : ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ قال الفرّاء : التساؤل :

هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل ، وقد يستعمل أيضا فى أن يتحدثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال قال اللّه تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور : ٢٥]. ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ﴾ الآية [الصافات : ٥١] وهذا يدل على أنه التحدث، ولفظ « ما » موضوع لطلب حقائق الأشياء وذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا فجعل الشىء العظيم الذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول ، ولهذا جاء سبحانه بلفظ « ما » .

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا ، وبينه فقال : ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ فأورده سبحانه أوّلا على طريقة الاستفهام مبهما لتتوجه إليه أذهانهم وتلتفت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب : ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ على منهاج قوله : ﴿ لمن الملك اليوم للّه الواحد القهار ﴾ [غافر: ١٦] فالجار والمجرور متعلق بالفعل الذى قبله ، أو بما يدّل عليه . قال ابن عطية : قال أكثر النحاة : عن النبأ العظيم متعلق بـ ﴿ **يتساءلون** ﴾ الظاهر ، كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ وقيل : ليس بمتعلق بالفعل المذكور ، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير أعن النبأ العظيم ؟ فلزم أن يتعلق بـ ﴿ **يتساءلون** ﴾ آخر مقدّر وإنما كان ذلك النبأ ، أى القرآن عظيما ؛ لأنه ينبئ عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور. قال الضحاك: يعنى : نبأ يوم القيامة ، وكذا قال قتادة .

وقد استدل على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله : ﴿ **الذى هم فيه مختلفون** ﴾ فإنهم اختلفوا فى القرآن فجعله بعضهم سحرًا وبعضهم شعرا وبعضهم كهانة وبعضهم قال : هو أساطير الأولين ، وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره ، ويمكن أن يقال : إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة ، فصدق به المؤمنون وكذب به الكافرون ، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية ، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ، ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون﴾ [ص : ٦٧، ٦٨] ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة ، وأيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث، فأثبت النصارى المعاد الروحانى ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسمانى ، وفى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ « جنعيذا» بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف . وفى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين والعذاب للعاصين وقد كانت بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد، كما حكى اللّه عنهم بقوله : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون : ٣٧] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه ، بل شاكة فيه . كما حكى اللّه عنهم بقوله : ﴿ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : ٣٢] وما حكاه عنهم بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ﴾ [فصلت : ٥٠] فقد حصل الاختلاف بين

طوائف الكفر على هذه الصفة ، قد قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ **يتساءلون** ﴾ يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه ، فأما المسلم فيزداد يقينا واستعدادا وبصيرة فى دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية . قال الرازى : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون: ما هذا الذى يعدنا به من أمر الآخرة ، والموصول فى محل جرّ صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيما فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل : إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل: كلا بمعنى: حقا ، ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿ **ثم كلا سيعلمون**﴾ للمبالغة فى التأكيد والتشديد فى الوعيد . قرأ الجمهور بالياء التحتية فى الفعلين على الغيبة . وقرأ الحسن وأبو العالية وابن دينار وابن عامر فى رواية عنه بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الضحاك الأوّل بالفوقية والثانى بالتحتية. قال الضحاك أيضا : ﴿**كلا سيعلمون** ﴾ يعنى : الكافرين عاقبة تكذيبهم . ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ يعنى : المؤمنين عاقبة تصديقهم . وقيل: بالعكس .وقيل : هو وعيد بعده وعيد . وقيل : المعنى: ﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ عند النزع ، ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ عند البعث .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه ، وعظيم قدرته ليعرفوا توحيده ، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا** ﴾ أى قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ،والمهاد:الوطاء والفراش كما فى قوله:﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ [البقرة : ٢٢] قرأ الجمهور : ﴿**مهادا**﴾ وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين: «مهدا» والمعنى : أنها كالمهد للصبىّ وهو ما يمهد له فينوم عليه ، والأوتاد جمع وتد ، أى جعلنا الجبال أوتادًا للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى الخيام بالأوتاد ، وفى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن ، ولا عن نبوة محمد ﷺ كما قيل ؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ، ﴿ **وخلقناكم أزواجا** ﴾ معطوف على المضارع المنفى داخل فى حكمه ، فهو فى قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا : الأصناف ، أى الذكور والإناث .وقيل : المراد بالأزواج : الألوان . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير .﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ أى راحة لأبدانكم . قال الزجاج: السبات: أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه ،أى جعلنا نومكم راحة لكم. قال ابن الأنبارى :جعلنا نومكم قطعا لأعمالكم ،لأن أصل السبت القطع.وقيل:أصله: التمدد ، يقال: سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق ، أى ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدّد ، فسمى النوم سباتا ، وقيل : المعنى : وجعلنا نومكم موتا ، والنوم أحد الموتتين ، فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم تفارقه الروح ، ومنه قول الشاعر :

ومطوية الأقراب أما نهارها فسبت وأما ليلها فذميل

ومن هذا قوله: ﴿ اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ الآية [الزمر: ٤٢] وقوله : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : ٦٠] ﴿ **وجعلنا الليل لباسا** ﴾ أى نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس . وقال سعيد بن جبير والسدّى : أى سكنا لكم . وقيل : المراد به : ما يستره عند النوم من اللحاف ونحوه ، وهو بعيد ؛ لأن الجبل وقع على الليل ، لا على ما يستتر به النائم عند نومه ﴿ **وجعلنا النهار معاشا** ﴾ أى وقت معاش ، والمعاش : العيش ، وكل شيء يعاش به فهو معاش ، والمعنى: أن اللّه جعل لهم النهار مضيئًا ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه اللّه لهم من الرزق . ﴿ **وبنينا فوقكم سبعا شدادا**﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كلٍّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام ، كما ورد ذلك . ﴿ **وجعلنا سراجًا وهاجا** ﴾ المراد به : الشمس ، وجعل هنا بمعنى: خلق ، وهكذا قوله :﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ وما بعده ، لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين فلابدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق أو التصيير ونحو ذلك . وقيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع فى جميع المواضع ، والمراد به: الإنشاء التكوينى الذى بمعنى التقدير والتسوية . قال الزجاج : الوهاج : الوقاد وهوالذى وهج ، يقال: وهجت النار تهيج وهجا ووهاجا . قال مقاتل :جعل فيه نورا وحرّا ، والوهج يجمع النور والحرارة .

﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا** ﴾ المعصرات : هى السحاب التى تنعصر بالماء ولم تمطر بعد ، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك. وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبى: هى الرياح ، والرياح تسمى معصرات ، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا : إذا أثارت العجاج . قال الأزهرى : هى الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدر المطر . وقال الفراء : المعصرات : السحاب التى يتحلب منها المطر . قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح : يقال للريح التى تأتى بالمطر : معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر ، ويجوز أن تكون هذه الأقوال قول واحد ، ويكون المعنى : وأنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجاجا . قال فى الصحاح : والمعصرات : السحاب تعتصر بالمطر وعصر القوم أى مطروا . قال المبرد : يقال : سحاب معصر ، أى ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء . وقال أبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات: السموات . والثجاج : المنصب بكثرة على جهة التتابع ، يقال : ثج الماء ، أى سال بكثرة ، وثجه أى أساله . قال الزجاج : الثجاج : الصباب . قال ابن زيد : ثجاجا : كثيرا : ﴿ **لنخرج به حبا ونباتا** ﴾ أى لنخرج بذلك الماء حبا يقتات ، كالحنطة والشعير ونحوهما ، والنبات : ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النبات ،﴿ **وجنات ألفافا** ﴾أى بساتين ملتف بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخياف . وقيل : واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائى ، وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف ، وروى عن الكسائى أنها جمع الجمع ، يقال:جنة لفاء ونبت لف، والجمع لف بضم

اللام مثل حمر ، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف . وقيل : هو جمع ملتفة بحذف الزوائد . قال الفرّاء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا** ﴾ أى وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسمى يوم الفصل ؛ لأن اللّه يفصل فيه بين خلقه ، وهذا شروع فى بيان ما يتساءلون عنه من البعث ، وقيل : معنى ﴿ **ميقاتا** ﴾ أنه حدّ توقت به الدنيا وتنتهى عنده . وقيل : حد للخلائق ينتهون إليه . ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا** ﴾ أى يوم ينفخ فى الصور ، وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا : النفخة الثانية التى تكون للبعث ﴿**فتأتون** ﴾ أى إلى موضع العرض ﴿ **أفواجا** ﴾ أى زمرا زمرا وجماعات جماعات وهى جمع فوج ، وانتصاب ﴿ **يوم ينفخ** ﴾ على أنه بدل من يوم الفصل ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخرا عن النفخ ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ، وانتصاب ﴿ **أفواجا** ﴾ على الحال من فاعل تأتون . والفاء فى : ﴿**فتأتون** ﴾ فصيحة تدلّ على محذوف ، أى فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا .

﴿ **وفتحت السماء فكانت أبوابا** ﴾ معطوف على ينفخ ، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ، أى فتحت لنزول الملائكة ﴿ **فكانت أبوابا** ﴾ كما فى قوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقيل : معنى ﴿**فتحت** ﴾ : قطعت فصارت قطعا كالأبواب . وقيل : أبوابها : طرقها . وقيل : تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب . وقيل : إن لكل عبد بابين فى السماء : باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب ، وظاهر قوله : ﴿ **فكانت أبوابا** ﴾ أنها صارت كلها أبوابا ، وليس المراد ذلك ؛ بل المراد : أنها صارت ذات أبواب كثيرة، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى : ﴿ **فتحت** ﴾ مخففا ، وقرأ الباقون بالتشديد . ﴿**وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾ أى سيرت عن أماكنها فى الهواء ، وقلعت عن مقارّها فكانت هباء منبثا يظن الناظر أنها سراب . والمعنى : أن الجبال صارت كلا شىء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء ، وليس بماء . وقيل : معنى : ﴿ **سيرت** ﴾ أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] .

وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول: أول أحوالها : الاندكاك ، وهو قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : ١٤] وثانى أحوالها :أن تصير كالعهن المنفوش كما فى قوله:﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [القارعة: ٥] وثالث أحوالها : أن تصير كالهباء وهو قوله : ﴿ وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثّا﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦] ورابع أحوالها : أن تنسف وتحملها الرياح كما فى قوله : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] وخامس أحوالها : أن تصير سرابا ، أى لا شىء كما فى هذه الآية .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا** ﴾ قال الأزهرى : المرصاد المكان الذى يرصد الراصد فيه العدو . قال المبرد : مرصادا يرصدون به ، أى هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار . قال الحسن : إن على الباب رصدًا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجئ بجواز حبس . وقال مقاتل: محبسا ، وقيل : طريقا وممرًا . قال فى الصحاح : الراصد للشىء الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصدا ، والرصد: الترقب ، والمرصد : موضع الرصد ، قال الأصمعى : رصدته أرصده ترقبته ، ومعنى الآية : أن جهنم كانت فى حكم اللّه وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به ويأتى إليهم . والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هى مرصد لـه فقال : ﴿ **للطاغين مآبا** ﴾ أى مرجعا يرجعون إليه ، والمآب : المرجع ، يقال : آب يؤوب : إذا رجع ، والطاغى هـو من طغى بالكفر و﴿ **للطاغين** ﴾ نعت لـ ﴿**مرصادا** ﴾ متعلق بمحذوف ، و ﴿ **مآبا** ﴾ بدل من ﴿ **مرصادا** ﴾ ويجوز أن يكون للطاغين فى محل نصب على الحال من ﴿ **مآبا** ﴾ قدمت عليه لكونه نكرة ، وانتـصاب ﴿ **لابثين فيها** ﴾ على الحال المقدرة من الضـمير المستكن فى الطاغين . قرأ الجـمهور : ﴿ **لابثين** ﴾ بالألف وقرأ حمزة والكسائى : « لبثين » بدون ألف ، وانتصاب ﴿ **أحقابا** ﴾ على الظرفية ، أى ماكثين فى النار ما دامت الأحقاب ، وهى لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهى جمع حقب بضمتين ، وهو الدهر ، والأحقاب : الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف ، قيل : هو ثمانون سنة ،وحكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوما، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : الأحقاب: وقت لشربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب. وقال السدّى: الحقب: سبعون سنة ، وقال بشير بن كعب : ثلثمائة سنة. وقال ابن عمر: أربعون سنة. وقيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن : الأحقاب لا يدرى أحد كم هى ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة . وقيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، والأولى ما ذكرناه أولا من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد . وحكى الواحدى: عن الحسن أنه قال : واللّه ما هى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ، ثم آخر ، ثم كذلك إلى الأبد .

وجملة : ﴿ **لا يذوقـون فيها بـردًا ولا شـرابا . إلا حميما وغساقا** ﴾ مستأنـفة لبيـان ما اشتملت عليه من أنهم لا يـذوقون فى جهنم أو فى الأحـقاب بـردا ينـفعهم من حـرّها ولا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميما ، وهو المـاء الحارّ ، وغساقا وهو صديد أهل النار ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين ، أو صفة للأحقاب ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، ويجوز أن يكون متصلا من قوله : ﴿ **شرابا** ﴾ وقال مجاهد

والسدى وأبو عبيدة والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى : البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم ، ومنه قول الكندى :

بردت مراشفها علىّ فصدّنى عنها وعن تقبيلها البرد

أى النوم . قال الزجاج : أى لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور ، وقال الحسن وعطاء وابن زيد : بردا أى روحا وراحة قرأ الجمهور : « غساقا » بالتخفيف . وقرأ حمزة والكسائى بتشديد السين ، وقد تقدّم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما فى سورة « ص » . ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾ أى موافقا لأعمالهم ، وجزاء منتصب على المصدر ، ووفاقا نعت له . قال الفراء والأخفش: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم . قال الزجاج: جوزوا جزاء وافق أعمالهم . قال الفرّاء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد . قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأتاهم اللّه بما يسوؤهم : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا** ﴾ أى لا يرجون ثواب حساب . قال الزجاج : كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم ، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ أى كذبوا بالآيات القرآنية ، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيبا شديدًا . وفعال من مصادر التفعل ، قال الفراء: هى لغة فصيحة يمانية ، تقول: كذبت كذابا وخرقت القميص خراقا. قال فى الصحاح: وكذبوا بآياتنا كذابا هو أحد مصادر المشدّد ؛ لأن مصدره قد يجىء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل : ﴿ ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبأ : ١٩] قرأ الجمهور ﴿ **كذابا** ﴾ بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب بالتخفيف ، وقال أبو على الفارسى : التخفيف والتشديد جميعا مصدر المكاذبة ، وقرأ ابن عمر : « كذابا » ، بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب . قال أبو حاتم : ونصبه على الحال . قال الزمخشرى : وقد يكون يعنى على هذه القراءة ، بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، تقول : رجل كذاب كقولك : حسان وبخال .

﴿ **وكل شىء أحصيناه كتابا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **وكل** ﴾ بالنصب على الاشتغال ، أى وأحصينا كل شىء أحصيناه .وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء ، وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وانتصاب ﴿ **كتابا** ﴾ على المصدرية لأحصيناه ؛ لأن أحصيناه فى معنى: كتبناه ، وقيل: هو منتصب على الحال ، أى مكتوبا ، قيل : المراد : كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، وقيل : أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، وقيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأول أولى . ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين﴾ [يس : ١٢] ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات . قال الرّازى : هذه الفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل

بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم ، ومن الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها ، وكلما خبت النار زادهم اللّه سعيرا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ قال : القرآن ، وهذا مروى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وجعلنا سراجا وهاجا** ﴾ قال : مضيئًا ﴿**وأنزلنا من المعصرات** ﴾ قال: السحاب ﴿ **ماء ثجاجا** ﴾ قال: منصبا . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **ثجاجا**﴾ قال : منصبا . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا** ﴾ قال : يبعث اللّه الريح ، فتحمل الماء فيمرّ به السحاب ، فتدر كما تدّر اللقحة، والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالى[1] فتصرفه الرياح فينزل متفرقا . وأخرج ابن جرير ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن قتادة قال : فى قراءة ابن عباس ﴿**وأنزلنا من المعصرات** ﴾ بالرياح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه فى قوله : ﴿ **وجنات ألفافا** ﴾ قال : ملتفة .وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يقول: التف بعضها ببعض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾ قال : سراب الشمس الآل .وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **لابثين فيها أحقابا** ﴾ قال: سنين.

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال : سأل علىّ بن أبى طالب هلال الهجرى : ما تجدون الحقب فى كتاب اللّه ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة منها اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة . وأخرج سعيد بن منصور ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال : الحقب ثمانون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم كألف سنة مما تعدون . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : الحقب ثمانون عاما ، اليوم منها كسدس السنة . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أبى أمامة عن النبى ﷺ ﴿ **لابثين فيها أحقابا** ﴾ قال: «الحقب ألف شهر ، والشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف سنة » [2] . وأخرج البزار وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « واللّه لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا، والحقب بضع وثمانون سنة ،كل سنة ثلثمائة وستون يوما، واليوم ألف سنة مما تعدون » [3]. قال ابن عمر : فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد اللّه بن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله .

---

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية . لسان العرب ١١/٤٤٣ .

(٢) الطبرانى (٧٩٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/١٣٦ : « وفيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف » .

(٣) الديلمى (٧٠٢٩) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/٣٩٨ : «وفيه سليمان بن مسلم الخشاب وهو ضعيف جدًا » .

وأخرج ابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : « الحقب أربعون سنة» وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان فى قوله: ﴿ لابثين فيها أحقابا ﴾ وقوله: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : ١٠٨] إنهما فى أهل التوحيد من أهل القبلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب ، لأن الله يقول : ﴿ لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابا ﴾ .وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما ﴾ قال : « قد انتهى حرّه » ﴿ وغساقا ﴾ : « قد انتهى حرّه » . « وإن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه ، حتى يبقى عظاما تقعقع » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ جزاء وفاقا﴾ قال : وافق أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ فهم فى مزيد من عذاب الله أبدًا .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ .

قوله : ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ هذا شروع فى بيان حال المؤمنين ، وما أعدّ الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعدّ الله لهم من الشرّ ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالنعمة والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة : مفازة ، تفاؤلا بالخلاص منها . ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال: ﴿ حدائق وأعنابا ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل من مفازا بدل اشتمال ، أو بدل كلّ من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى ، وإذا كان ﴿ مفازا ﴾ بمعنى الفوز ، فيقدر مضاف محذوف ، أى الفوز حدائق ، وهى جمع حديقة: وهى البستان المحوّط عليه، والأعناب جمع عنب،أى كروم أعناب: ﴿ وكواعب أترابا ﴾ الكواعب جمع كاعبة : وهى الناهدة ، يقال : كعبت الجارية تكعب تكعيبا وكعوبا ، ونهدت تنهد نهودا ، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت : أى صارت ثديهن كالكعب فى صدورهن . قال الضحاك : الكواعب : العذارى . قال قيس بن عاصم :

وكم من حصان قد حوينا كريمة ... وكم كاعب لم تدرما البؤس معصر

وقال عمر بن أبى ربيعة :

وكان مجنى دون ما كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبات ومعصر

والأتراب : الأقران فى السن ، وقد تقدّم تحقيقه فى سورة البقرة . ﴿ **وكأسا دهاقا** ﴾ أى ممتلئة . قال الحسن وقتادة وابن زيد: هى مترعة مملؤة يقال : أدهقت الكأس ، أى ملأتها . ومنه قول الشاعر :

ألا أسقنى صرفا سقاك الساقى من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد : ﴿ **دهاقا** ﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضا . وقال زيد ابن أسلم : ﴿ **دهاقا** ﴾ صافية .والمراد بالكأس : الإناء المعروف ، ولا يقال له : الكأس إلا إذا كان فيه الشراب : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا** ﴾ أى لا يسمعون فى الجنة لغوا ، وهو الباطل من الكلام ، ولا كذابا ، أى ولا يكذب بعضهم بعضا . قرأ الجمهور : ﴿**كذابا**﴾ بالتشديد ، وقرأ الكسائى هنا بالتخفيف ، ووافق الجماعة على التشديد فى قوله : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ المتقدم فى هذه السورة للتصريح بفعله هناك ، وقد قدمنا الخلاف فى﴿ **كذابا** ﴾ هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة ؟ ﴿ **جزاء من ربك** ﴾ أي جازاهم بما تقدم ذكره جزاء . قال الزجاج : المعنى : جزاهم جزاء ، وكذا : ﴿ **عطاء** ﴾ أى وأعطاهم عطاء ﴿**حسابا** ﴾ قال أبو عبيدة : كافيا . وقال ابن قتيبة : كثيرا ، يقال : أحسبت فلانا ، أى أكثرت له العطاء ، ومنه قول الشاعر :

ونعطى وليد الحى إن كان جائعا ونحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة : أى نعطيه حتى يقول : حسبى . قال الزجاج : حسابا، أى ما يكفيهم . قال الأخفش : يقال : أحسبنى كذا ، أى كفانى . قال الكلبى : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . وقال مجاهد : حسابا لما عملوه ، فالحساب بمعنى : القدر ، أى يقدر ما وجب له فى وعد الرب سبحانه ؛ فإنه وعد للحسنة عشراً ، ووعد لقوم سبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : ١٠] وقرأ أبو هاشم : « حسابا » بفتح الحاء وتشديد السين، أى كفافا . قال الأصمعى : تقول العرب : حسبت الرجل : بالتشديد إذا أكرمته ، ومنه قول الشاعر :

إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس : « حسانا » بالنون : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن** ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير ، وزيد عن يعقوب ، والمفضل ، عن عاصم ، برفع « رب » و «الرحمن » على أن ربّ مبتدأ والرحمن خبره أو على أن ربّ خبر مبتدأ مقدّر : أى هو ربّ ، والرحمن صفته ، و ﴿ **لا يملكون** ﴾ خبر ربّ ، أو على أن ربّ مبتدأ ، والرحمن مبتدأ ثان ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثانى ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، وقرأ يعقوب فى رواية عنه وابن عامر وعاصم فى رواية عنه بخفضهما على أن ربّ بدل من ربك ، والرحمن

صفة له ، وقرأ ابن عباس وحمزة والكسائى بخفض الأوّل على البدل ، ورفع الثانى على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال: هذه القراءة أعدلها، فخفض ربّ لقربه من ربك ، فيكون نعتا له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره : ﴿ **لا يملكون منه خطابا** ﴾ أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ، وقال الكسائى : لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه . وقيل : الخطاب : الكلام ، أى لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه ، دليله : ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ [هود : ١٠٥] وقيل : أراد : الكفار ، وأما المؤمنون فيشفعون ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررّة لما تفيده الربوبية من العظمة والكبرياء .

﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** ﴾ الظرف منتصب بلا يتكلمون ، أو بلا يملكون ، وصفا منتصب على الحال ، أى مصطفين ، أو على المصدرية ، أى يصفون صفا ، وقوله : ﴿ **لا يتكلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لتقرير ما قبله.

واختلف فى الروح ، فقيل : إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال . وقيل : هو جبريل قاله الشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل : الروح جند من جنود اللّه ليسوا ملائكة قاله أبو صالح ومجاهد. وقيل : هم أشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان . وقيل : هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبى نجيح . وقيل : بنو آدم قاله الحسن وقتادة . وقيل : هم أرواح بنى آدم تقوم صفا وتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفى . وقيل : إنه القرآن ، قاله زيد بن أسلم .

وقوله : ﴿ **إلا من أذن له الرحمن** ﴾ يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون ، وأن يكون منصوبا على أصل الاستثناء ، والمعنى : لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة ، أو لا يتكلمون إلا فى حقّ من أذن له الرحمن وكان ذلك الشخص ممن ﴿ **قال**(١) **صوابا** ﴾ قال الضحاك ومجاهد : ﴿ **صوابا** ﴾ يعنى : حقا . وقال أبو صالح : لا إله إلا اللّه. وأصل الصواب : السداد من القول والفعل . قيل : ﴿ **لا يتكلمون** ﴾ يعنى : الملائكة والروح الذين قاموا صفا هيبة وإجلالا إلا من أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة ، وهم قد قالوا صوابا . قال الحسن : إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل ، قال الواحدى : فهم لا يتكلمون ، يعنى : الخلق كلهم ، إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال فى الدنيا صوابا ، أى شهد بالتوحيد ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **اليوم الحقّ** ﴾ أى الكائن الواقع المتحقق ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا** ﴾أى مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح ، لأنه إذا عمل خيرا

---

(١) فى المطبوعة : « قالوا » .

قربه إلى اللّه، وإذا عمل شرًّا باعده منه ، ومعنى ﴿ إلى ربه ﴾ : إلى ثواب ربه . قال قتادة : ﴿ مآبا ﴾ : سبيلا .

ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا ﴾ يعنى :العذاب فى الآخرة ، وكلّ ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٦] كذا قال الكلبى وغيره ، وقال قتادة: هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين . قال مقاتل : هو قتل قريش ببدر ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ﴾ فإن الظرف إما بدل من عذاب أو ظرف لمضمر هو صفة له ، أى عذابا كائنا ﴿ يوم ينظر المرء ﴾ أى يشاهد ما قدّمه من خير أو شر ، و« ما » موصولة أو استفهامية . قال الحسن : والمرء هنا هو : المؤمن ، أى يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا . وقيل : المراد به : الكافر على العموم ، وقيل : أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، والأول أولى لقوله : ﴿ ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾ فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعده اللّه له من أنواع العذاب ، والمعنى : أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق، أو ترابا يوم القيامة . وقيل : المراد بالكافر : أبو جهل . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وقيل : إبليس ، والأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرّة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ قال : منتزها ﴿وكواعب ﴾ قال : نواهد ﴿ أترابا ﴾ قال :مستويات : ﴿ وكأسا دهاقا ﴾ قال : ممتلئا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿وكأسا دهاقا ﴾ قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : يا غلام ، اسقنا وادهق لنا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ دهاقا ﴾ قال : دراكا . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : إذا كان فيها خمر فهى كأس . وإذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عنه أيضا ؛ أن النبىّ ﷺ قال : « الروح جند من جنود اللّه ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل » ثم قرأ : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ قال هؤلاء جند وهؤلاء جند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس: ﴿يوم يقوم الروح﴾ قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا [١]. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : الروح فى السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٥ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١٠٤ .

تسبيحة يخلق اللّه من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجيء يوم القيامة صفا واحدا (١) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار ترعد فرائصه فرقا من عذاب اللّه يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك ، ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول اللّه : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** ﴾ . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله : ﴿ **يوم يقوم الروح** ﴾ قال : يعنى : حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿**وقال صوابا** ﴾ قال : لا إله إلا اللّه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث والنشور عن أبى هريرة قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدّواب والطير وكلّ شىء فيبلغ من عذاب اللّه أن يؤخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر: ﴿**يا ليتنى كنت ترابا** ﴾ (٢) .

---

(١) ابن جرير ٣٠/١٥ .
(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٧ .

تفسير سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة . هى خمس وأربعون آية . وقيل : ست وأربعون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة النازعات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها ، وهى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع فى القوس ، فيبلغ بها غاية المدّ ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات : يعنى : الملائكة ، والعطف مع اتحاد الكلّ ؛ لتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال السدّى : **﴿ النازعات ﴾**: هى النفوس حين تغرق فى الصدور . وقال مجاهد : هى الموت ينزع النفس . وقال قتادة : هى النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم : نزع إليه : إذا ذهب. أو من قولهم: نزعت بالحب، أى أنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر ،وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان. وقال عطاء وعكرمة : النازعات : القسى تنزع بالسهام . وإغراق النازع فى القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهى به إلى النصل . وقال يحيى بن سلام : تنزع بين الكلأ وتنفر . وقيل : أراد

بالنازعات : الغزاة الرماة ، وانتصاب ﴿ **غرقا** ﴾ على أنه مصدر بحذف الزوائد ، أى إغراقا ، والناصب له ما قبله لملاقاته له فى المعنى،أى إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد، أو على الحال، أى ذوات إغراق ، يقال: أغرق فى الشىء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته.

ومعنى ﴿ **الناشطات** ﴾ : أنها تنشط النفوس ، أى تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير ، إذا حلّ عنه، ونشط الرجل الدلو من البئر : إذا أخرجها ، والنشاط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة للعقدة التى يسهل حلها . قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطا: عقدته ، وأنشطته ، أى حللته ، وأنشطت الحبل ، أى مددته. قال الفراء : أنشط العقال، أى حلّ ونشط ، أى ربط الحبل فى يديه . قال الأصمعى : بئر أنشاط ، أى قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط ، وهى التى لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان . وقال السدّى : هى النفوس حين تنشط من القدمين . وقال عكرمة وعطاء : هى الأوهاق التى تنشط السهام.وقال قتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، أى تذهب . قال فى الصحاح : ﴿ **والناشطات نشطا** ﴾ : يعنى النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد ، والهموم تنشط بصاحبها . وقال أبو عبيدة وقتادة : هى الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد . وقيل : الناشطات لأرواح المؤمنين ، والنازعات لأرواح الكافرين ؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق وتجذب روح الكافر بعنف ، وقوله : ﴿ **نشطا** ﴾ مصدر ، وكذا سبحا وسبقا ﴿ **والسابحات** ﴾ : الملائكة تسبح فى الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغوّاص فى البحر لإخراج شىء منه.وقال مجاهد وأبو صالح: هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد : سابح : إذا أسرع فى جريه . وقال مجاهد أيضا : السابحات : الموت يسبح فى نفوس بنى آدم . وقيل : هى الخيل السابحة فى الغزو ، ومنه قول عنترة :

والخيل تعلم حين تسـ ـبح فى حياض الموت سبحا

وقال قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها ، كما فى قوله : ﴿ كلٌّ فى فلك يسبحون ﴾ [يس : ٤٠] .وقال عطاء : هى السفن تسبح فى الماء . وقيل : هى أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى الله ﴿ **فالسابقات سبقا**﴾ :هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف . قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحى إلى الأنبياء . وقال أبو روق : هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، وروى نحوه عن مجاهد . وقال مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . وقال الربيع : هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى الله . وقال مجاهد أيضا :هو الموت يسبق الإنسان. وقال قتادة والحسن ومعمر : هى النجوم يسبق بعضها فى السير بعضا . وقال عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد . وقيل: هى

الأرواح التى تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار . قال الجرجانى : عطف السابقات بالفاء ؛ لأنها مسببة من التى قبلها ، أى واللاتى يسبحن فيسبقن . تقول : قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب . قال الواحدى : وهذا غير مطرد فى قوله : ﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾ ؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبر . قال الرازى: ويمكن الجواب عما قاله الواحدى : بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض ،كقوله : قام زيد فذهب ولما سبقوا فى الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوّض إليهم التدبير ، ويجاب عنه :بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب ، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية ، والأولى أن يقال : العطف بالفاء فى المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ، ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله ؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لالمطابقته وموافقته.

﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾ قال القشيرى: أجمعوا على أن المراد هنا : الملائكة. وقال الماوردى : فيه قولان : أحدهما : الملائكة وهو قول الجمهور . والثانى : أنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما : تدبر طلوعها وأفولها . الثانى : تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال ، ومعنى تدبير الملائكة للأمر : نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما ، والفاعل للتدبير فى الحقيقة ، وإن كان هو الله عز وجلّ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به . وقيل : إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها : مدبرات . قال عبد الرحمن بن ساباط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة :جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وجواب القسم بهذه الأمور التى أقسم الله بها محذوف ، أى والنازعات ، وكذا وكذا لتبعثنّ . قال الفرّاء : وحذف لمعرفة السامعين به ، ويدل عليه قوله : ﴿ **أإذا كنا عظاما نخرة** ﴾ . وقيل : إن جواب القسم قوله : ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ أى إن فى يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال بينهما . وقيل : جواب القسم ﴿ **هل أتاك حديث موسى** ﴾ ؛ لأن المعنى : قد آتاك ، وهذا ضعيف جدا . وقيل : الجواب : ﴿ **يوم ترجف الراجفة**﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . وقال السجستانى : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لايفتتح بها الكلام ، والأوّل أولى .

﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم ، أو بإضمار اذكر ،

والراجفة : المضطربة . يقال : رجف يرجف : إذا اضطرب ، والمراد هنا : الصيحة العظيمة التى فيها تردّد واضطراب كالرعد، وهى النفخة الأولى التى يموت بها جميع الخلائق، والرادفة : النفخة الثانية التى تكون عند البعث ، وسميت رادفة ؛لأنها ردفت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين . وقال ابن زيد : الراجفة : الأرض ، والرادفة : الساعة . وقال مجاهد : الرادفة: الزلزلة ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ : الصيحة. وقيل: الراجفة : اضطراب الأرض ، والرادفة : الزلزلة ، وأصل الرجفة : الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط ،بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا : إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف؛ لاضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها، ومنه قول الشاعر :

أبا الأراجيف يا ابن اللؤم توعدنى وفى الأراجيف خلت اللوم والخورا

ومحل ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ : النصب على الحال من الراجفة ، والمعنى : لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها . ﴿ **قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قلوب مبتدأ ، ويومئذ منصوب بواجفة ، وواجفة صفة قلوب. وجملة ﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾ خبر قلوب ، والراجفة : المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة . قال جمهور المفسرين : أى خائفة وجلة . وقال السدّى: زائلة عن أماكنها ، نظيره: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ [غافر: ١٨]. وقال المؤرج : قلقة مستوفزة . وقال المبرد : مضطربة . يقال : وجف القلب يجف وجيفا : إذا خفق ،كما يقال : وجب يجب وجيبا ، والإيجاف : السير السريع ، فأصل الوجيف : اضطراب القلب ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بنى جحجبى وقومهم أكبادنا من ورائهم تجف

﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾ أى أبصار أصحابها . فحذف المضاف ، والخاشعة : الذليلة ، والمراد : أنها تظهر عليهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ،كقوله : ﴿ خاشعين من الذلّ ﴾ [الشورى : ٤٥] . قال عطاء : يريد أبصار من مات على غير الإسلام ، ويدلّ على هذا أن السياق فى منكرى البعث . ﴿ **يقولون أإنا لمردودون فى الحافرة** ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم : إنكم تبعثون ، أى أنردّ إلى أوّل حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ؟ يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى رجع من حيث جاء ، والحافرة عند العرب : اسم لأوّل الشىء وابتداء الأمر . ومنه قولهم : رجع فلان على حافرته ، أى على الطريق الذى جاء منه . ويقال : اقتتل القوم عند الحافرة ، أى عند أوّل ما التقوا ، وسميت الطريق التى جاء منها حافرة ؛ لتأثيره فيها بمشيه فيها فهى حافرة بمعنى محفورة ، ومن هذا قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من سفه وعار

أى أأرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغزل بعد الشيب والصلع ؟! وقيل: الحافرة :

العاجلة ، والمعنى: إنا لمردودون إلى الدنيا . وقيل: الحافرة : الأرض التى تحفر فيها قبورهم ، ومنه قول الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا حتى يردّ الناس فى الحافرة

والمعنى : إنا لمردودون فى قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء ، وبه قال مجاهد . وقال ابن زيد : الحافرة : النار ، واستدلّ بقوله : ﴿ تلك إذًا كرة خاسرة ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿فى الحافرة ﴾ . وقرأ أبوحيوة : « فى الحفرة». ﴿ أإذا كنا عظاما نخرة ﴾ أى بالية متفتتة . يقال : نخر العظم بالكسر : إذا بلى ، وهذا تأكيد لإنكار البعث ، أى كيف نردّ أحياء ونبعث إذا كنا عظاما نخرة ؟ والعامل فى إذا مضمر يدلّ عليه مردودون ، أى أئذا كنا عظاما بالية نردّ ونبعث مع كونها أبعد شىء من الحياة ؟ قرأ الجمهور : ﴿ نخرة ﴾ . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر: « ناخرة » واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوى . قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة : التى لم تنخر بعد، أى لم تبل ولابدّ أن تنخر . وقيل : هما بمعنى . تقول العرب : نخر الشىء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك . قال الأخفش : هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن . قال الشاعر :

يظلّ بها الشيخ الذى كان بادنا يدبّ على عوج له نخرات

يعنى : على قوائم عوج . وقيل : الناخرة : التى أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة : التى فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة : أى مرفوتة ، كما فى قوله : ﴿ رفاتا ﴾ [الإسراء : ٤٩] . وقد قرئ : « إذا كنا » و﴿ أئذا كنا ﴾ بالاستفهام وبعدمه . ثم ذكر سبحانه عنهم قولا آخر قالوه فقال : ﴿ قالوا تلك إذا كرّة خاسرة ﴾ أى رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى : أنهم قالوا : إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد . وقيل : معنى ﴿ خاسرة ﴾ كاذبة ، أى ليست بكائنة .كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا ؛ لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرة : الرجعة ، والجمع كرّات . وقوله : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة ﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى : لاتستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة ، وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة : الصيحة ، وهى النفخة الثانية التى يكون البعث بها. وقيل : إن الضمير فى قوله:﴿ إنما هى ﴾ راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها .﴿ فإذا هم بالساهرة﴾ أى فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض . قال الواحدى :المراد بالساهرة : وجه الأرض وظاهرها فى قول الجميع . قال الفرّاء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم . وقيل: لأنه يسهر فى فلاتها خوفا منها ،

فسميت بذلك ، ومنه قول أبى كثير الهذلى :

يردون ساهرة كأنّ حميمها وغميمها أسداف ليل مظلم

وقول أمية بن أبى الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة . قال فى الصحاح : الساهرة : وجه الأرض ، ومنه قوله : ﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ . وقال : الساهرة : أرض بيضاء . وقيل : أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها . وقيل الساهرة : الأرض السابعة ، يأتى بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق . وقال سفيان الثورى : الساهرة : أرض الشام . وقال قتادة : هى جهنم ، أى فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم ،وإنما قيل لها ساهرة ؛لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم. وجملة: ﴿ **هل آتاك حديث موسى**﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ،ومعنى ﴿ **هل أتاك** ﴾:قد جاءك وبلغك، هذا على تقدير أنه قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أوّل ما نزل عليه فى شأنهما فيكون المعنى على الاستفهام ، أى هل أتاك حديثه أنا أخبرك به.

﴿ **إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى** ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ **حديث** ﴾ لا بـ ﴿ **أتاك** ﴾ لاختلاف وقتيهما وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع ما فيه كفاية ، وقد تقدم الاختلاف بين القرّاء فى ﴿ **طوى** ﴾ فى سورة طه، والواد المقدس : المبارك المطهر . قال الفراء ﴿**طوى** ﴾ : واد بين المدينة ومصر ، قال : وهو معدول من طاو ، كما عدل عمر من عامر. قال : والصرف أحبّ إلىّ إذ لم أجد فى المعدول نظيرا له . وقيل : طوى معناه : يارجل بالعبرانية ، فكأنه قيل : يارجل اذهب . وقيل : المعنى : إن الوادى المقدّس بورك فيه مرتين ، والأوّل أولى ، وقد مضى تحقيق القول فيه . ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ قيل : هو على تقدير القول . وقيل : هو تفسير للنداء ، أى ناداه نداء هو قوله : اذهب . وقيل : هو على حذف أن المفسرة ، ويؤيده قراءة ابن مسعود« أن ذهب »؛ لأن فى النداء معنى القول ، وجملة : ﴿ **إنه طغى** ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال ، أى جاوز الحدّ فى العصيان والتكبر والكفر بالله ﴿ **فقل** ﴾ له ﴿ **هل لك إلى أن تزكى** ﴾ أى قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكى وهو التطهر من الشرك . وأصله : تتزكى ، فحذفت إحدى التاءين . قرأ الجمهور: ﴿**تزكى** ﴾ بالتخفيف . وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى . قال أبو عمرو بن العلاء : معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا ، ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفى الكلام مبتدأ مقدّر يتعلق به إليه ، والتقدير : هل لك رغبة أو هل لك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى ؟ ومثل هذا قولهم : هل لك فى الخير ؟ يريدون : هل لك رغبة فى الخير ؟ ومن هذا قول الشاعر :

فهل لكم فيها إلىّ فإننى ... بصير بما أعيا النطاسى جذيما

﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أى أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الخشية على الهداية، لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعنى : فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله فى غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال : ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها ﴾ [الأعراف : ١٠٦] فعند ذلك أراه الآية الكبرى . واختلف فى الآية الكبرى ما هى ؟ فقيل : العصا. وقيل : يده . وقيل : فلق البحر . وقيل : هى جميع ما جاء به من الآيات التسع ﴿فكذّب وعـصى ﴾ أى فلما أراه الآية الكبرى كذّب بموسى وبما جاء به وعصى الله عزّ وجل فلم يطعه . ﴿ ثم أدبر﴾ أى تولى وأعرض عن الإيمان ﴿ يسعى ﴾ أى يعمل بالفساد فى الأرض ويجتهد فى معارضة ما جاء به موسى . وقيل : أدبر هاربا من الحية يسعى خوفا منها . وقال الرازى : معنى ﴿ أدبر يسعى ﴾ : أقبل يسعى ، كما يقال : أقبل يفعل كذا ، أى أنشأ يفعل كذا ، فوضع أدبر موضع أقبل ؛ لئلا يوصف بالإقبال .﴿ فحشر ﴾ أى فجمع جنوده للقتال والمحاربة ، أو جمع السحرة للمعارضة ، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع ، أوجمعهم ليمنعوه من الحية ﴿ فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ أى قال لهم بصوت عال ، أو أمر من ينادى بهذا القول ، ومعنى ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ : أنه لا رب فوقى . قال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربّ أصنامكم . وقيل : أراد بكونه ربهم : أنه قائدهم وسائدهم ، والأوّل أولى لقوله فى آية أخرى: ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ النكال نعت مصدر محذوف ، أى أخذه أخذ نكال ، أو هو مصدر لفعل محذوف ، أى أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى . أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة . والمراد بنكال الآخرة : عذاب النار ، ونكال الأولى : عذاب الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب أوّل عمره وآخره . وقال قتادة : الآخرة . قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى : تكذيبه لموسى . وقيل : الآخرة . قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى : قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[القصص : ٣٨] وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له ، أى أخذه الله لأجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض ، أى بنكال . ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال : لأن معنى أخذه الله : نكل الله به ، فأخرج من معناه لا من لفظه . وقال الفرّاء : أى أخذه الله أخذا نكالا ، أى للنكال ، والنكال : اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له ، يقال : نكل فلان بفلان : إذا عاقبه ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل : القيد . ﴿ إنّ فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ، ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن عليّ بن أبى طالب فى قوله :﴿ **والنازعات غرقا** ﴾ قال : هى الملائكة تنزع روح الكفار ﴿ **والناشطات نشطا** ﴾ قال : هى الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿ **والسابحات سبحا** ﴾ هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿ **فالسابقات سبقا** ﴾ هى الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾ هى الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **والنازعات غرقا** ﴾ قال : هى أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق فى النار . وأخرج الحاكم وصححه عنه :﴿ **والنازعات غرقا . والناشطات نشطا** ﴾ قال : الموت . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ **والنازعات غرقا** ﴾ قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله : ﴿ **والسابحات سبحا** ﴾ قال : الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : قال لى رسول الله ﷺ : « لا تمزّق الناس فتمزقك كلاب النار . قال الله :﴿ **والناشطات نشطا** ﴾ أتدرى ما هو ؟ » قلت : يانبى الله ، ما هو ؟ قال : « كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عليّ بن أبى طالب أن ابن الكوّاء سأله عن :﴿ **المدبرات أمرا** ﴾ قال : هى الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره . وأخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت عن ابن عباس قال : ﴿ **المدبرات أمرا**﴾: ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدّعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه ويدلى فى حفرته. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ قال : النفخة الأولى ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ قال : النفخة الثانية ﴿**قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قال :خائفة ﴿ **أإنا لمردودون فى الحافرة** ﴾ قال : الحياة . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد والترمذى وحسنه وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبىّ بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال : « أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » [1] . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى ، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها وهى التى يقول الله ﴿ **يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة**﴾» يقول : «مثل السفينة فى البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه » .وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿ **قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قال: وجلة متحركة .وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿ **أإنا لمردودون فى الحافرة**﴾ قال: خلقا جديدا . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء، وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم أيضا ؛ أنه سئل عن قوله :﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ فقال: الساهرة : وجه الأرض ، وفى لفظ قال : الأرض كلها ساهرة ، ألاترى قول الشاعر :

(١) أحمد ٥/١٣٦ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٧) والحاكم ٢/ ٥١٣ والبيهقى فى الشعب (١٤١٨) وإسناده حسن ، ورواية الترمذى : «كان إذا جاء ثلثا الليل » .

صيد بحر وصيد ساهرة

وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى** ﴾ قال : هل لك أن تقول: لا إله إلا الله ؟. وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة**﴾ قال : قوله: ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾ ﴿ **والأولى** ﴾ قال: قوله: ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة .

﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **أأنتم أشد خلقًا أم السماء** ﴾ أى أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشدّ عندكم وفى تقديركم أم خلق السماء ؟ والخطاب لكفار مكة ، والمقصود به : التوبيخ لهم والتبكيت ؛ لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة ؟ ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [غافر : ٥٧] ، وقوله: ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس : ٨١] . ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال : ﴿ **بناها . رفع سمكها فسوّاها** ﴾ أى جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ، ورفع سمكها ، أى أعلاه فى الهواء ، فقوله : ﴿**رفع سمكها** ﴾ بيان للبناء ، يقال : سمكت الشىء ، أى رفعته فى الهواء ، وسمك الشىء سموكا : ارتفع . قال الفرّاء : كل شىء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسنام سامك ، أى عال ، والسموكات : السموات : ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعـــائمـه أعزّ وأطـول

قال البغوى : رفع سمكها ، أى سقفها . قال الكسائى والفراء والزجاج : تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **أم السماء بناها** ﴾ لأنه من صلة السماء ، والتقدير : أم السماء التى بناها ،

فحذف التى ، ومثل هذا الحذف جائز . ومعنى ﴿ فسوّاها ﴾ : فجعلها مستوية الخلق معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ولا شقوق . ﴿**وأغطش ليلها**﴾ الغطش : الظلمة، أى جعله مظلما. يقال: غطش الليل وأغطشه الله، كما يقال : أظلم الليل وأظلمه الله، ورجل أغطش وامرأة غطشى: لا يهتديان . قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذى فى عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى : لا يهتدى فيها ، والتغاطش : التعامى . قال الأعشى :

ودهماء بالليل غطشى الفلا ... ة يؤنسنى صوت قيادها

وقوله :

وغامرهم مدلهم غطش

يعنى : غمرهم سواد الليل ، وأضاف الليل إلى السماء ؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس و الشمس مضافة إلى السماء. ﴿ **وأخرج ضحاها** ﴾ أى أبرز نهارها المضىء بإضاءة الشمس ، وعبر عن النهار بالضحى ؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء ؛ لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهى منسوبة إلى السماء .

﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾ أى بعد خلق السماء ، ومعنى ﴿ **دحاها** ﴾ : بسطها ، وهذا يدلّ على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدّم فى سورة فصلت من قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت : ١١] بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أوّلا غير مدحوّة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض . وقد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدّمنا أيضا بحثا فى هذا فى أول سورة البقرة عند قوله : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ [البقرة : ٢٩] وذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع ، كما فى قوله : ﴿ عتلّ بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : ١٣]. وقيل بعد بمعنى قبل ، كقوله : ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] أى من قبل : الذكر ، والجمع الذى ذكرناه أولى ، وهو قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير ، يقال : دحوت الشىء أدحوه : إذا بسطته ، ويقال : لعشّ النعامة : أدحى ؛ لأنه مبسوط على الأرض .

وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبى الصلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها ... فهم قطانها حتى التنادى

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدّها ... بأيد وأرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وابن أبى عبلة وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء . ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ أى فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون . وأخرج منها مرعاها ، أى النبات الذى يرعى ، ومرعاها مصدر ميمىّ ، أى رعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى ، والجملة إما بيان وتفسير لدحاها ؛ لأن السكنى لا تتأتى بمجرّد البسط بل لابد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب ، وإما فى محل نصب على الحال .

﴿ **والجبال أرساها** ﴾ أى أثبتها فى الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لاتميد بأهلها . قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء . قيل : ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل والمشرب ﴿ **متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ أى منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والإبل والغنم ، وانتصاب ﴿ **متاعا** ﴾ على المصدرية ، أى متعكم بذلك متاعا ، أو هو مصدر من غير لفظه ؛ لأن قوله : ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾ بمعنى متع بذلك ، أو على أنه مفعول له، أى فعل ذلك لأجل التمتيع ، وإنما قال : ﴿ **لكم ولأنعامكم**﴾ لأن فائدة ما ذكر من الدحوّ وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى: يعمّ ما يأكله الناس والدواب .

﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى** ﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات . قال الحسن وغيره : وهى النفخة الثانية . وقال الضحاك وغيره : هى القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تطمّ على كل شيء لعظم هولها . قال المبرد : الطامة عند العرب : الداهية التى لاتستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طمّ الفرس طميما : إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطمّ الماء : إذا ملأ النهر كله . وقال غيره : هو من طمّ السيل الركية ، أى دفنها ، والطمّ : الدفن .قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى : هى التى تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، وجواب إذا قيل هو قوله : ﴿ **فأما من طغى** ﴾. وقيل : محذوف ، أى فإن الأمر كذلك ، أو عاينوا ، أو علموا أو أدخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها ، وهو معنى ﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان** ﴾ فإنه منصوب بفعل مضمر، أى أعنى يوم يتذكر يكون كيت وكيت . وقيل : إن الظرف بدل من إذا . وقيل : هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الإنسان ما سعى :

أنه يتذكر ما عمله من خيرّ أو شرّ ؛ لأنه يشاهده مدوّنا فى صحائف عمله ، و« ما » مصدرية ، أو موصوله . ﴿ **وبرزت الجحيم لمن يرى** ﴾ معطوف على جاءت ، ومعنى برّزت : أظهرت إظهارًا لا يخفى على أحد . قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ، وقيل : ﴿**لمن يرى** ﴾ من الكفار ، لا من المؤمنين ، والظاهر أن تبرز لكل راء ، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غما إلى غمه وحسرة إلى حسرته . قرأ الجمهور : ﴿ **لمن يرى**﴾ بالتحتية . وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن علىّ بالفوقية ، أى لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يامحمد . وقرأ ابن مسعود : « لمن رأى » على صيغة الفعل الماضى .

﴿ **فأما من طغى** ﴾ أى جاوز الحد فى الكفر والمعاصى . ﴿ **وآثر الحياة الدنيا** ﴾ أى قدّمها عن الآخرة ولم يستعدّ لها ولا عمل عملها . ﴿ **فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ أى مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : أنها منزله الذى ينزله ومأواه الذى يأوى إليه لاغيرها. ثم ذكر القسم الثانى من القسمين فقال : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه** ﴾ أى حذر مقامه بين يدى ربه يوم القيامة . قال الربيع : مقامه يوم الحساب . قال قتادة : يقول : إن للّه عزّ وجلّ مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] والأوّل أولى . ﴿**ونهى النفس عن الهوى** ﴾ أى زجرها عن الميل إلى المعاصى والمحارم التى تشتهيها . قال مقاتل : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ﴿ **فإن الجنة هى المأوى** ﴾ أى المنزل الذى ينزله والمكان الذى يأوى إليه لاغيرها .

﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾ أى متى وقوعها وقيامها . قال الفراء : أى منتهى قيامها كرسوّ السفينة . قال أبو عبيدة : ومرسى السفينة حين تنتهى ، والمعنى : يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا فى سورة الأعراف . ﴿ **فيم أنت من ذكراها** ﴾ أى فى أىّ شىء أنت يامحمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ، والمعنى : لست فى شىء من علمها وذكراها إنما يعلمها الله سبحانه ، وهو إنكار وردّ لسؤال المشركين عنها ، أى فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه ؟ ﴿ **إلى ربك منتهاها** ﴾ أى منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره ، وهذا كقوله : ﴿ قل إنما علمها عند ربى ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقوله : ﴿إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان : ٣٤] فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها ؟ ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ أى مخوّف لمن يخشى قيام الساعة ، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه ، وخصّ الإنذار بمن يخشى ؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار وإن كان منذرا لكلّ مكلف من مسلم وكافر . قرأ الجمهور بإضافة :﴿ **منذر** ﴾ إلى ما بعده . وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وطلحة وابن محيصن وشيبة والأعرج وحميد بالتنوين ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو . قال الفراء : والتنوين

وتركه فى منذر صواب كقوله : ﴿ بالغ أمره ﴾ [الطلاق : ٣] ﴿ موهن كيد الكافرين ﴾ [الأنفال : ١٨]. قال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن تكون الإضافة للماضى ، نحو ضارب زيد أمس . ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ أى إلا قدر آخر نهار أو أوّله ، أوقدر الضحى الذى يلى تلك العشية ، والمراد : تقليل مدّة الدنيا ، كما قال : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقيل : لم يلبثوا فى قبورهم إلا عشية أو ضحاها . قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية : إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أوّل النهار ، ومنه قول الشاعر :

نحن صبحنا عامرا فى دارها

جردًا تعــادى طرفى نهارهـا

عشية الهــلال أو سرارهـــا

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجىء المنذر به .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رفع سمكها** ﴾ قال : بناها ﴿ **وأغطش ليلها**﴾ قال : أظلم ليلها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وأغطش ليلها** ﴾ قال : وأظلم ليلها ﴿ **وأخرج ضحاها** ﴾ قال : أخرج نهارها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ قال : مع ذلك . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا ؛ أن رجلا قال له : آيتان فى كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال : إنما أتيت من قبل رأيك ، قال : اقرأ : ﴿ قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ حتى بلغ ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت :٩ ــ ١١] ، وقوله : ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ، ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء ، وإنما قوله : ﴿ **دحاها** ﴾ بسطها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ﴿ **دحاها** ﴾ : أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما فى يومين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الطامة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبى طالب ، كان النبيّ ﷺ يسأل عن الساعة فنزلت : ﴿**فيم أنت من ذكراها** ﴾ . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله : ﴿ **فيم أنت من ذكراها .إلى ربك منتهاها** ﴾ فانتهى فلم يسأل عنها [(١)] . وأخرج عبد بن حميد والنسائى

(١) صححه الحاكم ٢ / ٥١٣ ، ٥١٤ ووافقه الذهبى .

وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ **فيم أنت من ذاكرها. إلى ربك منتهاها** ﴾ فكفّ عنها [١] . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس، قال السيوطي : بسند ضعيف ، أن مشركي مكة سألوا النبيّ ﷺ فقالوا : متى الساعة استهزاء منهم ؟ فأنزل الله : ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها**﴾ يعني مجيئها ﴿**فيم أنت من ذكراها** ﴾ يعني : ما أنت من علمها يا محمد ﴿ **إلى ربك منتهاها** ﴾ يعني : منتهى علمها . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم » .

---

(١) النسائي في التفسير (٦٦٥) وإسناده حسن ، والطبراني (٨٢١٠) .

تفسير سورة عبس

وتسمى سورة السفرة ، وهى إحدى وأربعون أو اثنان وأربعون آية . وهى مكية فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة عبس بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **عبس وتولى** ﴾ أى كلح بوجهه وأعرض . وقرئ « عبس » بالتشديد . ﴿ **أن جاءه الأعمى** ﴾ مفعول لأجله ، أى لأن جاءه الأعمى ، والعامل فيه إما ﴿عبس ﴾أو ﴿تولى﴾ على الاختلاف بين البصريين والكوفيين فى التنازع هل المختار إعمال الأوّل أو الثانى ؟ وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية : أن قومًا من أشراف قريش كانوا عند النبىّ ﷺ ، وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم ، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أمّ مكتوم كلامه، فأعرض عنه فنزلت [١] ، وسيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء الله .

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٣١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وصححه الحاكم ٢/ ٥١٤ ، ووافقه الذهبى ، وهو عن عائشة .

﴿ **وما يدريك لعله يزكى** ﴾ التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ ؛ لأن المشافهة أدخل فى العتاب ، أى أى شيء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة : ﴿ **لعله يزكى** ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافى الإعراض عنه ، أى لعله يتطهر من الذنوب [(١)] بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك ، فالضمير فى ﴿ **لعله** ﴾ راجع إلى﴿ **الأعمى** ﴾ ، وقيل : هو راجع إلى الكافر ، أى وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأوّل أولى . وكلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ التزكى مما لا يجوز . قرأ الجمهور: ﴿ **أن جاءه الأعمى** ﴾ على الخبر بدون استفهام ، ووجهه ما تقدّم ، وقرأ الحسن : « آن جاءه » بالمدّ على الاستفهام ، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه ﴿**عبس**﴾ و﴿ **تولى**﴾ ، والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض ، ومثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ ﴾ [الآية : ٥٢] وكذلك قوله فى سورة الكهف : ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [الآية : ٢٨] .

وقوله : ﴿ **أو يذكر** ﴾ عطف على ﴿ **يزكى**﴾ داخل معه فى حكم الترجى أى أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿**فتنفعه الذكرى** ﴾أى الموعظة . قرأ الجمهور :﴿ **فتنفعه** ﴾ بالرفع، وقرأ عاصم وابن أبى إسحاق [(٢)]وعيسى والسلمى وزرّ بن حبيش بالنصب على جواب الترجى. ﴿ **أما من استغنى** ﴾ أى كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الإيمان وعما عندك من العلم ﴿**فأنت له تصدى** ﴾ أى تصغى لكلامه ، والتصدّى :الإصغاء . قرأ الجمهور: ﴿ **تصدى** ﴾ بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام ، وفى هذا مزيد تنفير له ﷺ عن الإقبال عليهم والإصغاء إلى كلامهم .﴿ **وما عليك ألا يزكى** ﴾ أى أىّ شيء عليك فى أن لا يسلم ولا يهتدى ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ويجوز أن تكون « ما » نافية ، أى ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى من تصدّيت له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدّى .

ثم زاد سبحانه فى معاتبة رسوله ﷺ فقال : ﴿ **وأما من جاءك يسعى** ﴾ أى وصل إليك حال كونه مسرعا فى المجيء إليك طالبا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله ، وجملة: ﴿ **وهو يخشى** ﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف . ﴿**فأنت عنه تلهى** ﴾ أى تتشاغل عنه وتعرض عن الإقبال عليه، والتلهى : التشاغل والتغافل ، يقال : لهيت عن الأمر ألهى ، أى تشاغلت عنه ، وكذا تلهيت وقوله : ﴿**كلا**﴾ ردع له ﷺ عما عوتب عليه ، أى لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير ، والتصدّى للغنى والتشاغل به ، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى والقبول

(١) فى المطبوعة : « بالذنوب » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) فى المطبوعة : « عاصم بن أبى إسحاق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى ١٠/٥٠٠٧ .

للموعظة ، وهذا الواقع من النبى ﷺ هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿ إنها تذكرة ﴾ أى أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك . ﴿ فمن شاء ذكره﴾ أى فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره ، وقيل : الضميران فى «إنها» ، وفى ﴿ذكره﴾ للقرآن ، وتأنيث الأول لتأنيث خبره ، وقيل : الأوّل للسورة ، أو للآيات السابقة ، والثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر. وقيل : إن معنى ﴿فمن شاء ذكره ﴾: فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به، والأوّل أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال : ﴿ فى صحف ﴾ أى إنها تذكرة كائنة فى صحف، فالجار والمجرور صفة لـ﴿تذكرة﴾ ، وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة ، ومعنى ﴿ مكرمة ﴾ : أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : المراد بالصحف : كتب الأنبياء ، كما فى قوله : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : ١٨ ، ١٩] ومعنى ﴿ مرفوعة ﴾ أنها رفيعة القدر عند الله . وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة ، قال الواحدى : قال المفسرون: ﴿مكرمة ﴾ يعنى : اللوح المحفوظ ﴿ مرفوعة ﴾ يعنى: فى السماء السابعة . قال ابن جرير : مرفوعة القدر والذكر. وقيل : مرفوعة عن الشبه والتناقض ﴿ مطهرة ﴾ أى منزهة لا يمسها إلا المطهرون . قال الحسن : مطهرة من كل دنس ، قال السدّى : مصانة عن الكفّار لا ينالونها . ﴿ بأيدى سفرة ﴾ السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب ، والمعنى : أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، قال الفراء: السفرة هنا : الملائكة : الذين يسفرون بالوحى بين الله ورسوله من السفارة وهو السعى بين القوم ، وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومى ولا أمشى بغير أب نسيب

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر؛ لأن معناه : أنه بين، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، وأسفرت المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة ، أى أصلحت بينهم . قال مجاهد : هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد ، وقال قتادة : السفرة هنا هم : القراء ؛ لأنهم يقرؤون الأسفار . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب النبى ﷺ . ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿كرام بررة ﴾ أى كرام على ربهم ، كذا قال الكلبى ، وقال الحسن : كرام عن المعاصى ، فهم يرفعون أنفسهم عنها . وقيل : يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو قضى حاجته . وقيل : يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم . وقيل : يتكرّمون على المؤمنين بالاستغفار لهم ، والبررة: جمع بارّ، مثل : كفرة وكافر ، أى أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم ، وقد تقدّم تفسيره .

﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ أى لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره . وقيل : عذب . قيل : والمراد به : عتبة بن أبى لهب ، ومعنى ﴿ **ما أكفره** ﴾ : التعجب من إفراط كفره ، قال الزجاج : معناه : اعجبوا أنتم من كفره . وقيل : المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله : ﴿**أما من استغنى** ﴾ وقيل : المراد به الجنس ، وهذا هو الأولى ، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سببًا لنزول الآية دخولا أوّليا . ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغى لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكفّ عن طغيانه فقال :﴿ **من أىّ شىء خلقه** ﴾ أى من أىّ شىء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير ، ثم فسر ذلك فقال :﴿ **من نطفة خلقه**﴾ أىْ من ماء مهين ، وهذا تحقير له ، قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتّين ، ومعنى ﴿ **فقدّره** ﴾ أى فسوّاه وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواسّ . وقيل : قدّره أطوارا من حال إلى حال، نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . ﴿ **ثم السبيل يسره** ﴾ أى يسرّ له الطريق إلى الخير والشرّ ، وقال السدّى ومقاتل وعطاء وقتادة : يسره للخروج من بطن أمه ، والأوّل أولى . ومثله قوله : ﴿ وهديناه النجدين﴾ [البلد : ١٠] وانتصاب ﴿ **السبيل**﴾ بمضمر يدل عليه الفعل المذكور ، أى يسر السبيل يسره . ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾ أى جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفراء : وقال أبو عبيدة :جعل له قبرا وأمر أن يقبر فيه ، وقال : ﴿ **أقبره** ﴾ ولم يقل : قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، ومنه قول الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر

﴿ **ثم إذا شاء أنشره** ﴾ أى ثم إذا شاء إنشاره أنشره ، أى أحياه بعد موته ، وعلق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين ، بل هو تابع للمشيئة . قرأ الجمهور : ﴿ **أنشره** ﴾ بالألف ، وروى أبوحيوة عن نافع وشعيب بن أبى حمزة « نشرة » بغير ألف ، وهما لغتان فصيحتان : ﴿ **كلا لما يقض ما أمره** ﴾ كلا ردع وزجر للإنسان الكافر ، أى ليس الأمر كما يقول . ومعنى ﴿ **لما يقض ما أمره** ﴾ : لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل : المراد: الإنسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدّة لأنه لا يخلو من تقصير . قال الحسن : أى حقًا لم يعمل ما أمر به . وقال ابن فورك : أى كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره بما لم يقض له . قال ابن الأنبارى : الوقف على «كلا » قبيح والوقف على ﴿ **أمره** ﴾ جيد ، و« كلا» على هذا بمعنى :حقا ، وقيل: المعنى : لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره ، بل أخلّ به : بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله إلا القليل .

ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها ، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ﴾ أى ينظر كيف خلق الله طعامه

الذى جعله سببا لحياته ؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية ؟ قال مجاهد: معناه : فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أى إلى مدخله ومخرجه ، والأوّل أولى . ثم بين ذلك سبحانه فقال : ﴿ **أنا صببنا الماء صبا** ﴾ قرأ الجمهور : « إنا » بالكسر على الاستئناف، وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من ﴿**طعامه**﴾ بدل اشتمال لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام ، فهو كالمشتمل عليه، أوبتقدير لام العلة ، قال الزجاج: الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام . المعنى : فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبا ، وأراد بصب الماء : المطر . وقرأ الحسن بن علىّ بالفتح والإمالة . ﴿**ثم شققنا الأرض شقا** ﴾ أى شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر والكبر والشكل والهيئة .

ثم بين سبب هذا الشقّ وما وقع لأجله فقال : ﴿ **فأنبتنا فيها حبا** ﴾ يعنى : الحبوب الذى يتغذى بها ، والمعنى : أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حبا ، وقوله : ﴿ **وعنبا**﴾ معطوف على ﴿ **حبا** ﴾ ، أى وأنبتنا فيها عنبا . قيل : وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير فى خلوّ إنبات العنب عن شقّ الأرض ، والقضب : هو القتّ الرطب الذى يقضب مرة بعد أخرى تعلف به الدواب ، ولهذا سمى قضبا على مصدر قضبه ، أى قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع . قال الخليل : القضب : الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهى القتّ . قال فى الصحاح : والقضبة والقضب : الرطبة ، قال : والموضع الذى ينبت فيه مقضبة . قال القتيبى وثعلب : وأهل مكة يسمون العنب : القضب ، والزيتون هو ما يعصر منه الزيت ، وهو شجرة الزيتون المعروفة ، والنخل هو جمع نخلة ﴿ **وحدائق غلبا** ﴾ جمع حديقة ، وهى البستان ، والغلب : العظام الغلاظ الرقاب ، وقال مجاهد ومقاتل : الغلب : الملتف بعضها ببعض ، يقال : رجل أغلب : إذا كان عظيم الرقبة، ويقال للأسد : أغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعا . قال العجاج :

مازلت يوم البين ألوى صلبى والرأس حتى صرت مثل الأغلب

وجمع أغلب وغلباء: غلب ، كما جمع أحمر وحمراء على حمر ، وقال قتادة وابن زيد : الغلب : النخل الكرام، وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : هى غلاظ الأوساط والجذوع . والفاكهة: ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوها ، والأب: كل ما أنبتت الأرض مما لايأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ وسائر أنواع المرعى ، ومنه قول الشاعر :

جدنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ بها والمكرع

قال الضحاك : الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض ، وقال ابن أبى طلحة : هو الثمار الرطبة ، وروى عن الضحاك أيضا أنه قال : هو التين خاصة ، والأوّل أولى . ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ﴾ يعنى : صيحة يوم القيامة ،

وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الآذان ، أى تصمها فلا تسمع . وقيل : سميت صاخة لأنها يصيخ لها الأسماع ، من قولك : أصخ إلى كذا أى استمع إليه ، والأوّل أصح. قال الخليل : الصاخة : صيحة تصخ الآذان حتى تصمها بشدّة وقعها ، وأصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصكّ الشديد ، يقال : صخه بالحجر : إذا صكه بها ، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله : ﴿ **لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ أى فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه ، والظرف فى قوله : ﴿ **يوم يفرّ المرء من أخيه. وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه** ﴾ إما بدل من﴿ **إذا جاءت** ﴾، أو منصوب بمقدّر ، أى أعنى ، ويكون تفسيرا للصاخة ، أو بدلا منها مبنىّ على الفتح ، وخصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أخصّ القرابة ، وأولاهم بالحنوّ والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع . ﴿ **لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ أى لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم . وقيل : إنما يفرّ عنهم حذرا من مطالبتهم إياه بما بينهم . وقيل : يفرّ عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدّة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا كما قال تعالى : ﴿ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ﴾ [الدخان : ٤١] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار . قال ابن قتيبة : ﴿ **يغنيه**﴾ أى يصرفه عن قرابته ،ومنه يقال: أغن عنى وجهك، أى اصرفه. قرأ الجمهور : ﴿ **يغنيه** ﴾ بالغين المعجمة ، وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء ، أى يهمه ، من عناه الأمر إذا أهمه .

﴿ **وجوه يومئذ مسفرة** ﴾ ﴿ **وجوه** ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة ؛ لأنه فى مقام التفصيل ، وهو من مسوّغات الابتداء بالنكرة ، ويومئذ متعلق به ، ومسفرة خبره ، ومعنى ﴿ **مسفرة** ﴾ : مشرقة مضيئة ، وهى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك مالهم من النعيم والكرامة ، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء . وقيل : من قيام الليل . ﴿**ضاحكة مستبشرة** ﴾ أى فرحة بما نالته من الثواب الجزيل . ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال : ﴿**ووجوه يومئذ عليها غبرة** ﴾ أى غبار وكدورة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب . ﴿ **ترهقها قترة** ﴾ أى يغشاها ويعلوها سواد وكسوف . وقيل : ذلة . وقيل : شدة . والقتر فى كلام العرب :الغبار ،كذا قال أبو عبيدة ، وأنشد قول الفرزدق :

متوّج برداء الملك يتبعه فوج ترى فوقه الرايات والقترا

ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار ، وقال زيد بن أسلم : القترة: ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة : ما انحطت إلى الأرض ﴿ **أولئك** ﴾ يعنى : أصحاب الوجوه ﴿ **هم الكفرة الفجرة** ﴾ أى الجامعون بين الكفر بالله والفجور . يقال : فجر ، أى فسق ، وفجر ، أى كذب ، وأصله الميل ، والفاجر: المائل عن الحق .

وقد أخرج الترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ **عبس وتولى** ﴾ فى ابن أمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ

فجعل يقول : يارسول الله ، أرشدنى . وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول: لا . ففى هذا أنزلت[١] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال: جاء ابن أمّ مكتوم ، وهو يكلم أبىّ بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله :﴿ **عبس وتولى . أن جاءه الأعمى**﴾ فكان النبىّ ﷺ بعد ذلك يكرمه [٢]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام وكان يتصدّى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل عليه رجل أعمى يقال له : عبد الله بن أمّ مكتوم يمشى ، وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبىّ ﷺ آية من القرآن قال : يارسول الله ، علمنى مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله: ﴿ **عبس وتولى** ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبىّ الله ﷺ وكلمه وقال له : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال : « هل لك حاجة فى شىء ؟ » قال ابن كثير : فيه غرابة ، وقد تكلم فى إسناده[٣].

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **بأيدى سفرة** ﴾ قال : كتبة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بأيدى سفرة** ﴾ قال : هم بالنبطية القرّاء . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **كرام بررة** ﴾ قال : الملائكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأه وهو عليه شاق له أجران »[٤]. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **ثم السبيل يسره** ﴾ قال :يعنى بذلك خروجه من بطن أمه يسره له .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير فى قوله :﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ﴾ قال:إلى مدخله ومخرجه. وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه**﴾ قال : إلى خرئه . وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿ **أنا صببنا الماء صبا** ﴾ قال : المطر ﴿ **ثم شققنا الأرض شقا** ﴾ قال : عن النبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وقضبا** ﴾ قال : الفِصْفِصَة ، يعنى : القتّ ﴿ **وحدائق غلبا** ﴾ قال : طوالا ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ قال : الثمار الطيبة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحدائق : كل ملتفّ ، والغلب : ماغلظ ، والأبّ : ما أنبتت الأرض مما تأكله

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أبو يعلى (٣١٢٣) .

(٣) ابن جرير ٣٠/ ٣٣ وقال ابن كثير ٧/ ٢١٣ : « وفيه غرابة ونكارة » .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٩٣٧) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٨/ ٢٤٤) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدواب ولا يأكله الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **وحدائق غلبا** ﴾ قال: شجر فى الجنة يستظل به لا يحمل شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الأبّ : الكلأ والمرعى . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمى قال : سئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ماهو ؟ . فقال : أىّ سماء تظلنى وأىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ؟ . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد : أن رجلا سأل عمر عن قوله : ﴿ **وأبا** ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدّرة . وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب عن أنس ؛ أن عمر قرأ على المنبر : ﴿ **فأنبتنا فيها حبا . وعنبا** ﴾ إلى قوله : ﴿**وأبا**﴾ قال: كل هذا قد عرفناه ، فما الأبّ ؟ ثم نقض عصى كانت فى يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لا تدرى ما الأبّ ، اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه[١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الصاخة من أسماء يوم القيامة وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مسفرة** ﴾ قال : مشرقة ، وفى قوله : ﴿**ترهقها قترة** ﴾ قال : تغشاها شدة وذلة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **قترة** ﴾ قال : سواد الوجه .

(١) ابن جرير ٣٠/٣٨ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٤ ، ووافقه الذهبى .

تفسير سورة التكوير

وهى تسع وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن المنذر والطبرانى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و﴿إذا السماء انفطرت ﴾، و ﴿ إذا السماء انشقت﴾ » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ .

قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين . وأما عند الكوفيين والأخفش فهو مرتفع على الابتداء ، والتكوير الجمع ، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها . قال الزجاج : لفت كما تلف العمامة ، يقال : كورت العمامة على رأسى أكورها كورا ، وكورتها تكويرا : إذا لففتها . قال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع . قال الربيع بن خثيم : ﴿كورت ﴾ أى رمى بها ، ومنه كورته فتكوّر، أى سقط ، وقال مقاتل وقتادة والكلبى : ذهب ضوؤها .

(١) أحمد ٢/ ٢٧ والترمذى فى التفسير (٣٣٣٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وصححه الحاكم ٢/ ٥١٥ ، ووافقه الذهبى .

وقال مجاهد : اضمحلت . قال الواحدى : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لفّ جرمها ، أو لف ضوئها . أو الرمى بها.
﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ أى تهافتت وانقضت وتناكرت ، يقال : انكدر الطائر من الهواء : إذا انقضّ ، والأصل فى الانكدار الانصباب قال الخليل : يقال : انكدر عليهم القوم : إذا جاؤوا أرسالا فانصبوا عليهم . قال أبو عبيدة : انصبت كما ينصب العقاب . قال الكلبى وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوما ، فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع على الأرض ، وقيل : انكدارها : طمس نورها : ﴿ **وإذا الجبال سيّرت** ﴾ أى قلعت عن الأرض ، وسيرت فى الهواء، ومنه قوله : ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ [الكهف : ٤٧] .

﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ العشار : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها الواحدة عشراء، وهى التى قد أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وخصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب ، وأعزّه عندهم ، ومعنى ﴿ **عطلت** ﴾ : تركت هملا بلا راع ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم . قيل : وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء ، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء فى ذلك اليوم ، أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة وسيأتى آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا فى الدنيا . وقيل : العشار : السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله: ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ [الذاريات : ٢] وتعطيلها عدم إمطارها قرأ الجمهور : ﴿**عطلت**﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف . وقيل : المراد أن الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التى تعشر زرعها تعطل فلا تزرع .

﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ الوحوش : ما توحش من دوابّ البرّ ، ومعنى ﴿ **حشرت** ﴾: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتصّ للجماء من القرناء . وقيل : حشرها موتها . وقيل : إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبدّدها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم . قرأ الجمهور : ﴿ **حشرت** ﴾ بالتخفيف . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون بالتشديد : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ أى أوقدت فصارت نارا تضطرم . وقال الفرّاء : ملئت بأن صارت بحرا واحدا وكثر ماؤها ، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبى ومقاتل والحسن والضحاك . وقيل : أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى امتلأت ، [يقال :سجرت الحوض أسجره سجرا: إذا ملأته] (١) . وقيل : فجرت فصارت بحرا واحدا ، وروى عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية : يبست ولا يبقى فيها قطرة ، وقال القشيرى : هو من سجرت التنور أسجره سجرا : إذا

---

(١) ما بين المعقوفتين نقل إلى هذا الموضع ليستقيم المعنى ، وكان بالمخطوطة والمطبوعة بعد قول قتادة وابن حبان وهو غير مناسب .

أحميته. قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم : أوقدت فصارت نارا . وقيل : معنى سجرت : أنها صارت حمراء كالدم ، من قولهم عين سجراء ، أى حمراء . قرأ الجمهور : ﴿**سجرت** ﴾ بتشديد الجيم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها .

﴿ **وإذا النفوس زوّجت** ﴾ أى قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة . وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء فى النار ، وقال عطاء : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين . وقيل: قرن كل شكل إلى شكله فى العمل ، وهو راجع إلى القول الأوّل . وقيل : قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما فى قوله: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] وقال عكرمة : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ يعنى : قرنت الأرواح بالأجسام . وقال الحسن : ألحق كل امرئ بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها . ﴿ **وإذا الموؤودة سئلت** ﴾ أى المدفونة حية ، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة ، يقال : وأد يئد [(١)] وأدا فهو وائد، والمفعول به موؤود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن ، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت ، ومنه : ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة : ٢٥٥] أى لا يثقله ، ومنه قول متمم بن نويرة :

وموؤودة مقبورة فى مغارة

ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور : ﴿ **الموؤودة** ﴾ بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة ، وقرأ البزى فى رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ الأعمش : « المودة » بزنة الموزة . وقرأ الجمهور : ﴿**سئلت**﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل . وقرأ الجمهور : ﴿**قتلت**﴾ بالتخفيف مبنيا للمفعول . وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير ، وقرأ علىّ وابن مسعود وابن عباس سألت مبنيا للفاعل :« قتلت » بضم التاء الأخيرة ، ومعنى ﴿ **سئلت**﴾ على قراءة الجمهور : أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد . قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وفى مصحف أبىّ : « وإذا الموؤودة سألت بأى ذنب

---

(١) فى المطبوعة : « يائد » ، والصحيح ما أثبتناه .

قتلتنى» . ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ يعنى : صحائف الأعمال نشرت للحساب ، لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها ، فيقول : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ [الكهف : ٤٧]. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو : ﴿ نشرت ﴾ بالتخفيف . وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير . ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ الكشط : قلع عن شدة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش، والقشط بالقاف لغة فى الكشط ، وهى قراءة ابن مسعود . قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف . وقال الفراء : نزعت فطويت . وقال مقاتل : كشفت عما فيها . قال الواحدى: ومعنى الكشط : رفعك شيئا عن شىء قد غطاه .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أوقدت لأعداء الله إيقادا شديدا . قرأ الجمهور : « سعرت » بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وحفص بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة . قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أى قرّبت إلى المتقين وأدنيت منهم. قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. وقال ابن زيد : معنى ﴿أزلفت ﴾ : تزينت . والأوّل أولى لأن الزلفى فى كلام العرب القرب . قيل : هذه الأمور الاثنا عشر : ستّ منها فى الدنيا . وهى : من أول السورة إلى قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت﴾ وستّ فى الآخرة وهى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ إلى هنا . وجواب الجميع قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت﴾ على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة ، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف : يعنى : ما عملت من خير أو شرّ . ومعنى ﴿ ما أحضرت ﴾ : ما أحضرت من أعمالها ، والمراد : حضور صحائف الأعمال ، أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ويدلّ على هذا قوله : ﴿ يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ [آل عمران : ٣٠] وقيل : يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت ، فكيف وكلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه : لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله .

﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ « لا » زائدة كما تقدّم تحقيقه وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة ، أى فأقسم بالخنس ، وهى الكواكب ، وسميت بالخنس ، من خنس : إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى ، وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره

أهل التفسير ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم إنها تستقبل الشمس وتقطع المجرّة ، وقال فى الصحاح : الخنس : الكواكب كلها ، لأنها تخنس فى المغيب، أو لأنها تخفى نهارا، أو يقال : هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . قال الفراء : إنها الكواكب الخمسة المذكورة ، لأنها تخنس فى مجراها وتكنس : أى تستتر كما تكنس الظباء فى المغار ، ويقال : سميت خنسا لتأخرها ، لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم ، يقال خنس عنه يخنس خنوسا : إذا تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلفه ومضى عنه ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة . ومعنى ﴿ **الجوار** ﴾ أنها تجرى مع الشمس والقمر ، ومعنى :﴿ **الكنس** ﴾ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفائها تحت ضوئها . وقيل : خنوسها ، خفاؤها بالنهار ، وكنوسها : غروبها . قال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب ؛ لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لخفائها فلا ترى وتظهر بالليل وتكنس في وقت غروبها . وقيل : المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس . وقال عكرمة : الخنس : البقر ، والكنس : الظباء ، فهى تخنس : إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها . وقيل : هى الملائكة ، والأوّل أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا ، والكنس مأخوذ من الكناس الذى يختفى فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة .

﴿ **والليل إذا عسعس** ﴾ قال أهل اللغة : هو من الأضداد ، يقال : عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس : إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس : أدبر ، كذا حكاه عنه الجوهرى ، وقال الحسن: أقبل بظلامه . قال الفراء : العرب تقول : عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس الليل: إذا أدبر ، وهذا لا ينافى ما تقدّم عنه ، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على أدبر ، وإن كان فى الأصل مشتركا بين الإقبال والإدبار . قال المبرد : هو من الأضداد . قال: والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو ابتداء الظلام فى أوّله وإدباره فى آخره . قال رؤبة بن العجاج :

ياهند مـا أسرع ما تعسعسا — من بعد ما كان فتى ترعرعا

وقال امرؤ القيس :

عسعس حتى لونشاء إذ دنا — كـــان لنا من ناره مقتبس

وقوله :

والماء على الربع القديم تعسعسا

﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ : التنفس في الأصل : خروج النسيم من الجوف وتنفس الصبح إقباله ، لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفسا له مجازا . قال الواحدى : ﴿ **تنفس** ﴾ أى امتد ضوؤه حتى يصير نهارا ، ومنه يقال للنهار إذا زاد : تنفس ، وقيل : ﴿ **إذا تنفس** ﴾ : إذا انشق وانفلق ، ومنه : تنفست القوس ، أى تصدّعت . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ يعنى : جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلا به . وقيل : المراد بالرسول فى الآية : محمد ﷺ، والأول أولى . ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال : ﴿ **ذى قوّة عند ذى العرش مكين** ﴾ أى ذى قوّة شديدة فى القيام بما كلف به ، كما فى قوله : ﴿ شديد القوى ﴾ [النجم : ٥] ومعنى ﴿ **عند ذى العرش مكين** ﴾ : أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكينة عند الله سبحانه ، وهو فى محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف ، فلما قدّم صار حالاً ويجوز ، أن يكون نعتا لرسول ، يقال : مكن فلان عند فلان مكانه ، أى صار ذا منزلة عنده ومكانة . قال أبو صالح : من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين سرادقا بغير إذن ، ومعنى ﴿ **مطاع** ﴾ : أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه ﴿ **ثمّ أمين** ﴾ قرأ الجمهور بفتح :﴿ **ثمّ** ﴾ على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع فى السموات أو أمين فيها ، أى مؤتمن على الوحى وغيره ، وقرأ هشيم وأبو جعفر وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة ، وكان العطف بها للتراخى فى الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ، ومن قال : إن المراد بالرسول : محمد ﷺ فالمعنى : أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع يطيعه ، من أطاع الله أمين على الوحى .

﴿ **وما صاحبكم بمجنون** ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم : رسول الله ﷺ ، والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره فى شىء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم ، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدًا ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه: ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، أى وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين : أى بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ، ومنه قول الشاعر:

أخذنا بأقطار السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه : ﴿ **ولقد رآه بالآفق المبين** ﴾ مع أنه قد رآه غير مرّة ، لأنه رآه هذه المرّة

فى صورته ، له ستمائة جناح ، قال سفيان : إنه رآه فى أفق السماء الشرقى ، وقال ابن بحر : فى أفق السماء الغربى . وقال مجاهد: رآه نحو أجياد [1] وهو مشرق مكة . و﴿ المبين ﴾ صفة للأفق قاله الربيع . وقيل : صفة لمن رآه قاله مجاهد . وقيل : معنى الآية : ولقد رأى محمد ربه عزّ وجلّ ، وقد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم . ﴿ وما هو ﴾ أى محمد ﷺ ﴿ على الغيب ﴾ يعنى: خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا علمه عن أهل مكة ﴿ بضنين ﴾ بمتهم، أى هو ثقة فيما يؤدى عن الله سبحانه . وقيل : ﴿ بضنين ﴾ ببخيل ، أى لا يبخل بالوحى، ولا يقصر فى التبليغ ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء ، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « بظنين » بالظاء المشالة، أى بمتهم ، والظنة التهمة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأنهم لم يبخلوا ولكن كذبوه . وقرأ الباقون: ﴿ بضنين ﴾بالضاد ، أى ببخيل ، من ضننت بالشىء أضنن ضنا : إذا بخلت ، قال مجاهد : أى لا يظنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقيل : المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين ، والأوّل أولى.

﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أى وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبى : يقول : إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان : الشيطان الأبيض الذى كان يأتى النبىّ ﷺ فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . ثم بكتهم سبحانه ووبخهم فقال : ﴿ فأين تذهبون ﴾ أى أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قال قتادة . وقال الزجاج : معناه : أى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم ، يقال : أين تذهب ، وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام ، وخرجت العراق ، وانطلقت السوق ، أى إليها . قال سمعناه فى هذه الأحرف ، وأنشد لبعض بنى عقيل :

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا   وأىّ الأرض تذهب بالصياح

تريد إلى أىّ الأرض تذهب ، فحذف إلى . ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم . وقوله . ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار ومفعول المشيئة : ﴿ أن يستقيم ﴾ أى لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة . ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أى وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة فى التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ [يونس : ١٠٠] وقوله : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل

---

(١) فى المطبوعة : « رآه نحوا جباب نحو أجياد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى ٧٠٣٢/١٠ .

شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام : ١١١] وقوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ [القصص : ٥٦] والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ قال : أظلمت ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ قال : تغيرت . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن أبى مريم أن النبى ﷺ . قال فى قوله : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ [١] قال : كورت فى جهنم ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ قال : انكدرت فى جهنم . فكلّ من عبد من دون الله فهو فى جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى العالية قال : ست آيات من هذه السورة فى الدنيا ، والناس ينظرون إليها ، وست فى الآخرة ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ إلى ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ هذه فى الدنيا والناس ينظرون إليها ﴿ **وإذا النفوس زوّجت** ﴾ إلى ﴿ **وإذا الجنة أزلفت** ﴾ هذه فى الآخرة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الأهوال ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ واختلطت الدوابّ والطير والوحش فماجوا بعضهم فى بعض ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : اختلطت ﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿**وإذا البحار سجرت** ﴾ قال : قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم [٢] .

وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كلّ شيء الموت غير الجنّ والإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة [٣] .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتمٍ ، والخطيب فى المتفق والمفترق عنه فى قوله : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : يحشر كلّ شيءٍ يوم القيامة حتى إن الدوابّ لتحشر . وأخرج البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ قال : تسجر حتى تصير نارا . وأخرج الطبرانى عنه : ﴿**سجرت** ﴾ قال : اختلط ماؤها بماء الأرض . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن

---

(١) فى المطبوعة : « إذا السماء كورت » وهو خطأ . (٢) ابن جرير ٣٠/ ٤٣ .
(٣) صححه الحاكم ٢/ ٥١٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

الخطاب فى قوله : ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، كذلك تزويج الأنفس : وفى رواية : ثم قرأ : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] . وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعا . وأخرج البزار والحاكم فى الكنى ، والبيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال : جاء قيس بن عاصم التميمى إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية ، فقال له رسول الله ﷺ: « أعتق عن كل واحدة رقبة »، قال : إنى صاحب إبل . قال :« فأهد عن كل واحدة بدنة » [1] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ قال : قربت. وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن على ابن أبى طالب فى قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ قال : هى الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ لا أقسم بالخنس ﴾ قال : خمسة أنجم : زحل وعطارد والمشترى وبهرام والزهرة ، ليس شىء يقطع المجرة غيرها . وأخرج ابن مردويه ، والخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى الآية قال : هى النجوم السبعة : زحل وبهرام وعطارد والمشترى والزهرة والشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ بالخنس . الجوارى الكنس ﴾ قال : هى بقر الوحش . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هى البقر تكنس إلى الظلّ . وأخرج ابن المنذر عنه قال : تكنس لأنفسها فى أصول الشجر تتوارى فيه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : هى الظباء . وأخرج ابن راهويه وعبد ابن حميد ، والبيهقىّ فى الشعب عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ الجوار الكنس ﴾ قال : هى الكواكب . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ الخنس ﴾ البقر ﴿ والجوار الكنس﴾: الظباء ، ألم ترها إذا كانت فى الظلّ كيف تكنس بأعناقها ومدّت نظرها . وأخرج أبو أحمد الحاكم فى الكنى عن أبى العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ﴿ الجوار الكنس ﴾ ؟ فطعن عمر بمخصرة معه فى عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أحرورىّ ؟ والذى نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقا لأنحيت القمل عن رأسك، وهذا منكر، فالحرورية لم يكونوا فى زمن عمر ولا كان لهم فى ذلك الوقت ذكر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والليل إذا عسعس﴾ قال : إذا أدبر ﴿والصبح إذا تنفس ﴾ قال : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

---

(١) البيهقى ٨/١١٦ .

وأخرج الطبرانى عنه : ﴿ **إذا عسعس** ﴾ قال : إقبال سواده . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿**إنه لقول رسول كريم** ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود : ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾ قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إنما عنى جبريل أن محمدا رآه فى صورته عند سدرة المنتهى . وأخرج ابن مردويه عنه ﴿ **بالأفق المبين** ﴾ قال : السماء السابعة. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿ **بـضنين** ﴾ بالضاد ، وقال : ببخيل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ : « وما هو على الغيب بظنين » بالظاء قال : ليس بمتهم . وأخرج الدارقطنى فى الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه عن عائشة ؛ أن النبىّ ﷺ كان يقرؤه : « بظنين » بالظاء [١] . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله ﷺ فقال : كذبوا يامحمد ﴿ **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين** ﴾ .

(١) صححه الحاكم ٢/٢٥٢ وقال الذهبى : « إسحاق متروك » .

تفسير سورة الانفطار

هى تسع عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النسائى عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء فطوّل ، فقال النبى ﷺ : « أفتان أنت يامعاذ ، أين أنت عن ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿والضحى﴾ و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ » وأصل الحديث فى الصحيحين [(١)] ولكن بدون ذكر ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ وقد تفرّد بها النسائى ، وقد تقدّم فى سورة التكوير حديث : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ: ﴿ إذا الشمس كورت﴾ و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ »[(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : انفطارها انشقاقها كقوله: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] . والفطر : الشق ، يقال :فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير : إذا طلع ، قيل: والمراد : أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها . وقيل : انفطرت لهيبة الله. ﴿ **وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ أى تساقطت متفرقة ، يقال : نثرت الشىء أنثره نثرا . ﴿ **وإذا البحار فجرت** ﴾ أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحرًا واحدا ، واختلط العذب منها بالمالح ، وقال الحسن : معنى ﴿ **فجرت** ﴾ : ذهب ماؤها ويبست ، وهذه الأشياء بين يدى الساعة كما تقدم فى السورة التى قبل هذه ﴿ **وإذا القبور**

---

(١) البخارى فى الأذان (٧٠٥) ومسلم فى الصلاة (٤٦٥ / ١٧٩) والنسائى فى التفسير (٦٧٢) .
(٢) سبق تخريجه .

بعثرت ﴾ أى قلب ترابها وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال : بعثر يبعثر بعثرة : إذا قلب التراب ، ويقال : بعثر المتاع : قلبه ظهرا لبطن ، وبعثرت الحوض وبحثرته : إذا هدمته وجعلت أعلاه أسفله . قال الفراء : ﴿ **بعثرت** ﴾ أُخرِج ما فى بطنها من الذهب والفضة ، ذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها .

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخرت** ﴾ والمعنى : أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والكلام فى إفراد نفس هنا كما تقدم فى السورة الأولى فى قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير: ١٤] ومعنى ﴿ **ما قدمت وأخرت** ﴾ : ما قدمت من عمل خير أوشرّ ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها، وقال قتادة : ما قدّمت من معصية وأخرت من طاعة، وقيل : ما قدّم من فرض وأخر من فرض. وقيل : أوّل عمله وآخره . وقيل : إن النفس تعلم عند البعث بما قدّمت وأخرت علما إجماليا لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلى فإنما يحصل عند نشر الصحف .

﴿ **يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم** ﴾ هذا خطاب للكفار ، أى ما الذى غرّك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذى تفضل عليك فى الدنيا بإكمال خلقك وحواسك ، وجعلك عاقلا فاهما ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التى لا تقدر على جحد شىء منها . قال قتادة : غرّه شيطانه المسلط عليه ، وقال الحسن : غرّه شيطانه الخبيث . وقيل : حمقه وجهله . وقيل : غرّه عفو الله إذا لم يعاجله بعقوبة أوّل مرّة ، كذا قال مقاتل . ﴿**الذى خلقك فسوّاك فعدّلك**﴾ أى خلقك من نطفة ولم تك شيئا ، فسوّاك رجلا تسمع وتبصر وتعقل ، ﴿**فعدّلك** ﴾ : جعلك معتدلا ، قال عطاء : جعلك قائما معتدلا حسن الصورة . وقال مقاتل : عدّل خلقك فى العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء . قرأ الجمهور: ﴿ **فعدّلك** ﴾ مشدّدا ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى ، قال الفراء وأبو عبيد : يدلّ عليها قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ [التين : ٤]، ومعنى القراءة الأولى : أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى القراءة الثانية : أنه صرفه وأماله إلى أىّ صورة شاء ، إما حسنا وإما قبيحا، وإما طويلا وإما قصيرا .

﴿ **فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ فى أى صورة متعلق بركبك ، و« ما » مزّيدة ، و ﴿**شاء**﴾ صفة لصورة ، أى ركبك فى أىّ صورة شاءها من الصور المختلفة ، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله : ﴿ **فعدّلك** ﴾ والتقدير : فعدّلك : ركبك فى أىّ صورة شاءها ، ويجوز أن

يتعلق بمحذوف على أنه حال ، أى ركبك حاصلا فى أىّ صورة ، ونقل أبوحيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدّلك ، واعترض عليه بأن «أىّ» لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها ، قال مقاتل والكلبى ومجاهد : فى أىّ شبه من أب أو أمّ أو خال أو عمّ ، وقال مكحول: إن شاء ذكر وإن شاء أنثى . وقوله : ﴿**كلا**﴾ للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به والمعاصى له ، ويجوز أن يكون بمعنى :حقا . وقوله : ﴿ **بل تكذبون بالدين** ﴾ إضراب عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل : بعد الردع وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء ، أو بدين الإسلام . قال ابن الأنبارى : الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى ﴿ **كلا** ﴾ قبيح ، والمعنى : بل تكذبون يا أهل مكة بالدين ، أى بالحساب، وبل لنفى شىء تقدّم وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوما عندهم وإن لم يجر له ذكر . قال الفراء : كلا ليس الأمر كما غررت به، قرأ الجمهور : ﴿ **تكذبون** ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحتية على الغيبة .

وجملة : ﴿ **وإن عليكم لحافظين** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تكذبون ، أى تكذبون والحال أن عليكم من يرفع تكذيبكم ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم ، والحافظين: الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها فى الصحف ، ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ، وجملة ﴿ **يعلمون ما تفعلون** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير كاتبين ، أو على النعت ، أو مستأنفة . قال الرازى : والمعنى : التعجيب من حالهم كأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق: ١٧ ، ١٨] .

ثم بين سبحانه حال الفريقينْ فقال : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم** ﴾ والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذى سيقت له ، وهى كقوله سبحانه : ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ [الشورى : ٧] . وقوله : ﴿**يصلونها يوم الدين**﴾ صفة لـ﴿**جحيم**﴾ ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ والمجرور ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ما حالهم ؟ فقيل : ﴿ **يصلونها يوم الدين** ﴾ أى يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به، ومعنى ﴿ **يصلونها** ﴾ : أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرّها يومئذ . قرأ الجمهور: ﴿ **يصلونها** ﴾ مخففا مبنيا للفاعل، وقرئ بالتشديد مبنيا للمفعول . ﴿ **وماهم عنها بغائبين** ﴾ أى لا يفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها ، بل هم فيها. وقيل: المعنى: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها فى قبورهم . ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ أى يوم الجزاء والحساب ، وكرره تعظيما لقدره وتفخيما لشأنه وتهويلا لأمره كما فى قوله :﴿القارعة. ما القارعة . وما

أدراك ما القارعة﴾[القارعة :١ـ٣]و﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة:١ـ٣] والمعنى: أى شىء جعلك داريا ما يوم الدين . قال الكلبى: الخطاب للإنسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال : ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع « يوم » على أنه بدل من ﴿**يوم الدين**﴾، أو خبر مبتدأ محذوف . وقرأ أبو عمرو فى رواية : « يوم » بالتنوين ، والقطع عن الإضافة . وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير: أعنى أو اذكر ، فيكون مفعولا به ، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين ، وهو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه بدل من ﴿**يوم الدين**﴾، قال الزجاج : يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله : ﴿ **لا تملك** ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح ، وإن كان فى موضع رفع ، وهذا الذى ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضى ، وأما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسى والفرّاء وغيرهما ، والمعنى : أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرّ . ﴿ **والأمر يومئذ لله**﴾ وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنًا ما كان . قال مقاتل : يعنى لنفس كافرة شيئا من المنفعة . قال قتادة : ليس ثم أحد يقضى شيئا أو يصنع شيئا إلا الله ربّ العالمين ، والمعنى : أن الله لا يملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا، ومثل هذا قوله : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : ١٦] .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا البحار فجرت**﴾ قال : بعضها فى بعض ، وفى قوله : ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾ قال : بحثت . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخرت** ﴾ قال : ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، أو سنة سيئة تعمل بعده ، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبىّ ﷺ : « من استنّ خيرا فاستنّ به ، فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استنّ شرا، فاستنّ به ، فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم » ، وتلا حذيفة : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخرت**﴾[1] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية : ﴿ **ما غرّك بربك الكريم** ﴾ قال : غرّه والله جهله . وأخرج ابن جريرعن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين فى الليل وحافظين فى النهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره .

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٥١٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

تفسير سورة المطففين

هى ست وثلاثون آية . قال القرطبى : وهى مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل، ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ، وقال مقاتل أيضا : هى أوّل سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة : هى مدنية إلا ثمان آيات من قوله : ﴿إن الذين أجرموا﴾ إلى آخرها . وقال الكلبى وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة [(١)] . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المطففين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، قال السيوطى : بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ويل للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك[(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

قوله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ ويل مبتدأ ، وسوّغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز ، قال مكى : والمختار فى ويل وشبهه : إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب نحو قوله: ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ [طه : ٦١] و﴿للمطففين﴾ خبره . والمطفف : المنقص ، وحقيقته الأخذ فى الكيل أو الوزن شيئا طفيفا ، أى نزرا حقيرا . قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو القليل ، فالمطفف :هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للذى ينقص المكيال والميزان : مطفف ؛ لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان إلا الشىء اليسير الطفيف ،

---

(١) القرطبى ١٠/ ٧٠٤١ .

(٢) البيهقى فى الشعب (٤٩٠٣) وإسناده ضعيف .

قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف : الذى يبخس فى الكيل والوزن . والمراد بالويل هنا : شدّة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشر الشديد ، أو هو واد فى جهنم ، قال الكلبى : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يسيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فنزلت هذه الآية ، وقال السدّى : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان بها رجل يقال له : أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية . قال الفرّاء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا .

ثم بين سبحانه المطففين من هم ؟ فقال : ﴿ **الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون** ﴾ أى يستوفون الاكتيال والأخذ بالكيل . قال الفرّاء : يريد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن فى هذا الموضع يعتقبان ، يقال : اكتلت منك ، أى استوفيت منك، وتقول : اكتلت عليك ، أى أخذت ما عليك . قال الزجاج : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اتزنوا؛ لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر . قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى : الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا فى الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله : ﴿ **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدّى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال، ومثله : نصحتك ونصحت لك ، كذا قال الأخفش والكسائى والفرّاء . قال الفرّاء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدّ والمدّين إلى الموسم المقبل . قال : وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيدا ، أى توكيدا للضمير المستكنّ فى الفعل ، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا . قال أبو عبيد وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول : هم يخسرون . قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما : الخط ، ولذلك كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف ، والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى : كلت لك ووزنت لك هو كلام عربىّ ، كما يقال : صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك . وقيل : هو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون ، أى وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم ، ومعنى ﴿ **يخسرون** ﴾ : ينقصون كقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان﴾ [الرحمن : ٩] والعرب تقول : خسرت الميزان وأخسرته.

ثم خوّفهم سبحانه فقال : ﴿ **ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون** ﴾ والجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف وتفظيعه وللتعجيب من حالهم فى الاجتراء عليه ، والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المطففين ، والمعنى: أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون ، قيل : والظن هنا بمعنى اليقين ، أى لا يوقن أولئك، ولو أيقنوا مانقصوا الكيل

والوزن . وقيل : الظن على بابه ، والمعنى : إن كانوا لا يستيقنون البعث ، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ويتركوا ما يخشون من عاقبته ؟ واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم ؛ لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ، ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم أخبر عن ذلك اليوم ، فقال : ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ انتصاب الظرف بـ ﴿ **مبعوثون** ﴾ المذكور قبله ، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون ، أى يبعثون يوم يقوم الناس ، أو على البدل من محل ليوم ، أو بإضمار أعنى ، أو هو فى محلّ رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى محلّ جرّ على البدل من لفظ ليوم ، وإنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل . قال الزجاج :﴿ **يوم** ﴾ منصوب بقوله : ﴿**مبعوثون**﴾ ، المعنى : ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ؟ ومعنى ﴿ **يوم يقوم الناس** ﴾ : يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين ، أو لجزائه ، أو لحسابه أو لحكمه وقضائه ، وفى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ، ومزيد إثمه وفظاعة عقابه . وقيل: المراد بقوله : ﴿ **يوم يقوم الناس**﴾ قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم . وقيل : المراد : قيامهم بما عليهم من حقوق للعباد وقيل : المراد : قيام الرسل بين يدى الله للقضاء ، والأوّل أولى . قوله : ﴿ **كلا** ﴾ هى للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده ، ثم استأنف فقال : ﴿ **إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾ وعند أبى حاتم أن ﴿**كلا**﴾ بمعنى : حقا متصلة بما بعدها على معنى : حقا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وسجين هو ما فسره به سبحانه من قوله : ﴿ **وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم** ﴾ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم، أى مسطور . قيل : هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم له ، وقال قتادة وسعيد ابن جبير ومقاتل وكعب : إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وبه قال مجاهد ، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير : محل كتاب مرقوم . وقال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : ﴿ **لفى سجين**﴾: لفى حبس وضيق شديد، والمعنى : كأنهم فى حبس ، جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم وهوانها . وقال الواحدى : ذكر قوم أن قوله : ﴿ **كتاب مرقوم** ﴾ تفسير لسجين وهو بعيد ؛ لأنه ليس السجين من كتاب فى شىء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله : ﴿ **إن كتاب الفجار** ﴾ على تقدير : هو كتاب مرقوم ، أى مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون ، أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه ، فقال : ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ ثم بينه بقوله :

﴿ **كتاب مرقوم**﴾ قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك . قال قتادة : ومعنى ﴿**مرقوم**﴾: رقم لهم بشرّ كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر . وكذا قال مقاتل ، وقدا اختلفوا فى نون سجين ، فقيل: هى أصلية واشتقاقه من السجن ، وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق ، من الخمر والسكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج . قال الواحدى : وهذا ضعيف ؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجينا ، ويجاب عنه :بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة ، وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وقيل : النون بدل من اللام ، والأصل : سجيل ، مشتقا من السجل ، وهو الكتاب . قال ابن عطية : من قال : إن سجينا موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن ، والظرف وهو قوله : ﴿ **لفى سجين** ﴾ ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسر السجين ما هو ؟ كذا قال . قال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حميرَ وأصل الرقم الكتابة. قال الشاعر :

سأرقم بالمـــاء القراح إليـــكم على بعدكم إن كان للماء راقم

﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ **يوم يقوم الناس لربّ العالمين** ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل، ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال : ﴿ **الذين يكذبون بيوم الدين** ﴾ والموصول صفه للمكذبين ، أو بدل منه . ﴿ **وما يكذب به إلا كل معتد أثيم** ﴾ أى فاجر جائر متجاوز فى الإثم منهمك فى أسبابه . ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا** ﴾ المنزلة على محمد ﷺ ﴿ **قال أساطير الأولين** ﴾ أى أحاديثهم وأباطيلهم التى زخرفوها . قرأ الجمهور : ﴿ **إذا تتلى** ﴾ بفوقيتين ، وقرأ أبو حيوة وأبو السماك والأشهب العقيلى والسلمى بالتحتية،وقوله:﴿ **كلا** ﴾ للردع والزجر للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له ، وقوله : ﴿ **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ بيان للسبب الذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأوّلين . قال أبو عبيدة : ران على قلوبهم : غلب عليها رينا وريونا ، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك . قال الفرّاء : هو أنها كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، قال مجاهد : القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه ، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ هذه الآية. قال أبو زيد : يقال : قد رين بالرجل رينـا : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به. وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب

وهو أشدّ من الرين ، والإقفال أشد من الطبع . قال الزجاج: الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين .

ثم كررّ سبحانه الردع والزجر فقال : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ وقيل : كلا بمعنى :حقا ، أى حقا إنهم ، يعنى الكفار ، عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبدا . قال مقاتل : يعنى أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم . قال الحسين ابن الفضل : كما حجبهم فى الدنيا عن توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . قال الزجاج: فى هذه الآية دليل على أن الله عزّ وجلّ يرى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة . وقال جلّ ثناؤه :﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه : وقيل : هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك . وقال قتادة وابن أبى مليكة : هو أن لا ينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم . وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان. ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم** ﴾ أى داخلو النار وملازموها غير خارجين منها، وثم لتراخى الرتبة ؛ لأن صلى الجحيم أشدّ من الإهانة وحرمان الكرامة . ﴿ **ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون** ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم تبكيتا وتوبيخا : هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا فانظروه وذوقوه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ أن النبىّ ﷺ قال : «﴿ **يوم يقوم الناس لربّ العالمين**﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » [(١)] . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ فى هذه الآية : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال :« فكيف إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ؟ » [(٢)] . وأخرج أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : «﴿ **يوم يقوم الناس لرّب العالمين** ﴾ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب » [(٣)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا . وأخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال : يارسول الله ، كم مقام الناس بين يدى ربّ العالمين يوم القيامة ؟ قال : « ألف سنة لا يؤذن لهم » .

وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية ؛ أن

---

(١) أحمد ٢/ ١٣ والبخارى فى التفسير (٤٩٣٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٢ / ٦٠) .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٧٣ ووافقه الذهبى .
(٣) أبو يعلى (٦٠٢٥) وابن حبان (٧٢٨٩) .

ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم ويوضع تحت خد إبليس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال :﴿ سجين﴾ : أسفل الأرضين . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : «الفلق جب فى جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح » [١]. قال ابن كثير : هو حديث غريب منكر لا يصحّ [٢] . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبىّ ﷺ قال : ﴿ سجين ﴾ الأرض السابعة السفلى . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن ماجة والطبرانى والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابنى فأقرئه منى السلام ، فقال : غفر الله لك يا أمّ بشر نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وأن نسمة الكافر فى سجين ؟ » قال : بلى ، قالت : فهو ذلك. وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾» [٣] .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا

---

(١) ابن جرير ٣٠ / ٦١ .

(٢) ابن كثير ٧/ ٢٣٩ .

(٣) أحمد ٢/ ٢٩٧ والترمذى (٣٣٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٧٨) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٤٤) وابن جرير ١/ ٨٧ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٢٠٣) . ط ـ : دار الكتب .

كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **كلا** ﴾ للردع والزجر عما كانوا عليه ، والتكرير للتأكيد ، وجملة : ﴿ **إن كتاب الأبرار لفى عليين**﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن يكون كلا بمعنى :حقا ، والأبرار: هم المطيعون ، وكتابهم صحائف حسناتهم . قال الفراء : عليين : ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له ، ووجه هذا أنه منقول من جمع عليّ من العلوّ . قال الزجاج : هو إعلاء الأمكنة . قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع ؛ لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو:ثلاثين وعشرين وقنسرين . قيل : هو علم لديوان الخير الذى دوّن فيه ما عمله الصالحون، وحكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة ، قال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى : السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وقال الضحاك : هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شىء من أمر الله لا يعدوها . وقيل : هو الجنة . وقال قتادة أيضا : هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى وقيل: إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى كما يقال : فلان فى بنى فلان ، أى فى جملتهم . ﴿ **وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم** ﴾ أى وما أعلمك يا محمد أىّ شىء عليون على جهة التفخيم والتعظيم لعليين ، ثم فسره فقال : ﴿**كتاب مرقوم** ﴾ أى مسطور ، والكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله : ﴿ **وَما أدراك ما سجين .كتاب مرقوم** ﴾ وجملة : ﴿ **يشهده المقربون** ﴾ صفة أخرى لكتاب ، والمعنى : أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم . وقيل : يشهدون بما فيه يوم القيامة ، قال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا : إسرافيل ، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلألأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها .

ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال : ﴿ **إنّ الأبرار لفى نعيم** ﴾ أى إن أهل الطاعة لفى تنعم عظيم لا يقادر قدره ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ الأرائك : الأسرة التى فى الحجال ، وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة . قال الحسن : ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن ، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير . ومعنى ﴿ **ينظرون** ﴾ : أنهم ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ، كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار . وقيل : ينظرون إلى وجهه وجلاله . ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم**﴾ أى إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والرونق ، والخطاب لكلّ راء يصلح لذلك ، يقال : أنضر النبات : إذا أزهر ونوّر . قال عطاء : وذلك أن الله زاد فى جمالهم وفى ألوانهم مالا يصفه واصف . قرأ الجمهور : ﴿ **تعرف** ﴾ بفتح الفوقية وكسر الراء، ونصب نضرة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وطلحة وابن أبى إسحاق بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ، ورفع نضرة بالنيابة . ﴿**يسقون من رحيق مختوم** ﴾ قال

أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : الرحيق من الخمر ما لاغشّ فيه ولا شيء يفسده ، والمختوم : الذى له ختام ، وقال الخليل : الرحيق: أجود الخمر ، وفى الصحاح : الرحيق : صفرة الخمر . وقال مجاهد : هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهد : ﴿ **مختوم** ﴾ : مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى : أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار . وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى : ختامه آخر طعمه ، وهو معنى قوله : ﴿**ختامه مسك** ﴾ أى آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك . وقيل : مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره ، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه . قرأ الجمهور : ﴿ **ختامه** ﴾ وقرأ علىّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائى : « خاتمه » بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمه مسكا ، أى آخره ، والخاتم والختام يتقاربان فى المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء . قال فى الصحاح : والختام الطين الذى يختم به، وكذا قال ابن زيد . قال الفرزدق :

وبتن بجانبى مصرَعات ... وبت أفضّ أغلاق الختام

﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ أى فليرغب الراغبون . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة . وقيل : إن فى بمعنى إلى ، أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل كما فى قوله : ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ [الصافات : ٦١] وأصل التنافس : التشاجر على الشيء والتنازع فيه ، بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، يقال : نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة ، أى ظننت به ولم أحبّ أن يصير إليه . قال البغوى: أصله من الشيء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه ، وينفس به على غيره ، أى يضن به . قال عطاء : المعنى : فليستبق المستبقون . وقال مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون . وقوله : ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾ معطوف على ﴿ **ختامه مسك**﴾ صفة أخرى لرحيق ، أى ولزاج ذلك الرحيق من تسنيم ، وهو شراب ينصّب عليهم من علوّ ، وهو أشرف شراب الجنة وأصل التسنيم فى اللغة : الارتفاع ، فهى عين ماء تجرى من علوّ إلى أسفل ، ومنه : سنام البعير لعلوّه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور . ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ **عينا يشرب بها المقربون** ﴾ وانتصاب ﴿ **عينا** ﴾ على المدح . وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن تكون ﴿ **عينا** ﴾ حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله : ﴿ **يشرب بها** ﴾ وقال الأخفش: إنها منصوبة بـ﴿**يسقون** ﴾ أى يسقون عينا ، أو من عين . وقال الفرّاء : إنها منصوبة بـ

﴿تسنيم ﴾ على أنه مصدر مشتق من السنام ، كما فى قوله : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ﴾[البلد : ١٤، ١٥] والأول أولى ، وبه قال المبرّد . قيل : والباء فى « بها » زائدة ، أى يشربها ، أو بمعنى : من ، أو يشرب منها . قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش. قيل : يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ وهم كفار قريش ومن وافقهم على الكفر ﴿كانوا من الذين آمنوا يـضحكون ﴾ أى كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، ويسخرون منهم . ﴿ وإذا مروا بهم ﴾ أى وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم فى مجالسهم ﴿يتغامزون ﴾ من الغمز ، وهو الإشارة بالجفون والحواجب ، أى يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم . وقيل : يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ﴿وإذا انقلبوا ﴾ أى الكفار ﴿إلى أهلهم﴾ من مجالسهم ﴿ انقلبوا فاكهين ﴾ أى معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، والانقلاب : الانصراف. قرأ الجمهور: « فاكهين » وقرأ حفص وابن القعقاع والأعرج والسلمى : ﴿فكهين﴾ بغير ألف . قال الفَراء : هما لغتان ، مثل : طمع وطامع ، وحذر وحاذر ، وقد تقدّم بيانه فى سورة الدخان أن الفكه : الأشر البطر ، والفاكه : الناعم المتنعم . ﴿وإذا رأوهم ﴾ أى إذا رأو الكفار المسلمين فى أى مكان ﴿قالوا إن هؤلاء لـضالون ﴾ فى اتباعهم محمدًا ، وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر ، ويجوز أن يكون المعنى : وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول والأوّل أولى ، وجملة : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ قالوا ﴾ أى قالوا ذلك إنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم.

﴿ فاليوم الذين آمنوا ﴾ المراد باليوم : اليوم الآخر ﴿ من الكفار يـضحكون ﴾ والمعنى : أن المؤمنين فى ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا ، وجملة : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يـضحكون ﴾ أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ماهم فيه من الحال الفظيع . وقد تقدّم تفسير الأرائك قريبا . قال الواحدى : قال المفسرون : إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله وهم يعذبون فى النار ، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فى الدنيا ، وقال أبو صالح : يقال لأهل النار : اخرجوا ويفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يـضحكون ﴾.
﴿ هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم فى الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوّب بمعنى : أثيب ، والمعنى : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ وقيل : الجملة فى محل نصب

بـ ﴿ ينظرون ﴾ . وقيل : هي على إضمار القول ، أي يقول بعض المؤمنين لبعض : هل ثوّب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ويطلق على الخير والشرّ .

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية ؛ أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ قال : أرواح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء ، فتفتح لها أبواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهي بها إلى العرش وتعرّج الملائكة ، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ لفي عليين ﴾ قال الجنة ، وفي قوله : ﴿ يشهده المقرّبون ﴾ قال : أهل السماء. وأخرج أحمد وأبو داود والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين » (١) . وأخرج ابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ نضرة النعيم ﴾ قال : عين في الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فتجري عليهم نضرة النعيم .

وأخرج عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال : الرحيق : الخمر ، والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عنه في قوله : ﴿مختوم ﴾ قال : ممزوج ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : طعمه وريحه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ من رحيق﴾ قال : خمر ، وقوله : ﴿ مختوم﴾ قال : ختم بالمسك . وأخرج الفريابي والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ قال: ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك ، ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول خلطه من الطيب كذا وكذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن أبي الدرداء ﴿ختامه مسك ﴾ قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿تسنيم﴾ أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمتقين ويمزج لأصحاب اليمين. وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿ مزاجه من تسنيم ﴾ قال: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقرّبون صرفا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : هذا مما قال الله : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : ١٧] .

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد ٥/٢٦٨ وأبو داود في الصلاة (٥٥٨) والطبراني (٧٧٣٤) .

تفسير سورة الانشقاق

هى ثلاث وعشرون آية . وقيل : خمس وعشرون آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقىّ عن ابن عباس قال : نزلت سورة الانشقاق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد . فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجد حتى ألقاه [1] . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [2] . وأخرج ابن خزيمة، والرويانى فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة ؛ أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الظهر : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ونحوها [3] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾ .

قوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ هو كقوله : ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ [التكوير : ١] فى إضمار الفعل وعدمه . قال الواحدى : قال المفسرون : انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها : انفطارها بالغمام الأبيض كما فى قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقيل : تنشقّ من المجرة ، والمجرة باب السماء . واختلف فى جواب إذا ، فقال الفرّاء :

(١) البخارى فى الأذان (٧٦٦ ، ٧٦٨) مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائى فى الصلاة (٢/ ١٦١) وفى التفسير (٦٨٠) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) ابن خزيمة فى الصلاة (٥١٢) .

إنه أذنت ، والواو زائدة ، وكذلك ألقت . قال ابن الأنبارى : هذا غلط ، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله : ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧١] ومع لما كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] ولا تقحم مع غير هذين . وقيل : إن الجواب قوله : ﴿**فملاقيه** ﴾ أى فأنت ملاقيه ، وبه قال الأخفش. وقال المبرد : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا ، أى يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت . وقال المبرد أيضا : إن الجواب قوله : ﴿**فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾ وبه قال الكسائى ، والتقدير : إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا. وقيل : هو ﴿ **يأيها الإنسان** ﴾ على إضمار الفاء ، وقيل : إنه ﴿ **يأيها الإنسان** ﴾ على إضمار القول ، أى يقال له : يأيها الإنسان . وقيل : الجواب محذوف ، تقديره : بعثتم ، أو لاقى كل إنسان عمله . وقيل : هو ما صرّح به فى سورة التكوير ، أى علمت نفس هذا ، على تقدير أن إذا شرطية ، وقيل : ليست بشرطية وهى منصوبة بفعل محذوف ، أى اذكر ، أو هى مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة ، وتقديره : وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض، ومعنى ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ : أنها أطاعته فى الانشقاق من الإذن ، وهو الاستماع للشىء والإصغاء إليه ﴿ **وحقت** ﴾ أى وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع ، ومن استعمال الإذن فى الاستماع قول الشاعر :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر :

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا منى وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل : المعنى : وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق ، أى جعلها حقيقة بذلك . قال الضحاك : ﴿**حقت** ﴾: أطاعت ، وحقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال : فلان محقوق بكذا ، ومعنى طاعتها : أنها لا تمتنع مما أراده الله بها ، قال قتادة : حق لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا وحقت لها العتبى لدينا وقلت

﴿ **وإذا الأرض مدّت** ﴾ أى بسطت كما تبسط الأدم ، ودكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . قال مقاتل : سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها . وقيل : مدّت زيد فى سعتها ، من المدد ، وهو الزيادة . ﴿ **وألقت ما فيها**﴾ أى أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها ﴿ **وتخلت** ﴾ من ذلك. قال سعيد بن جبير : ألقت ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء ، ومثل هذا قوله : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] . ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ أى سمعت

وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلى ﴿**وحقت**﴾ أى وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له. وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ﴿**يأيـها الإنسان**﴾ المراد : جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر . وقيل : هو الإنسان الكافر . والأوّل أولى لما سيأتى من التفصيل ﴿**إنك كادح إلى ربك كدحا**﴾ الكدح فى كلام العرب: السعى فى الشىء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشىء خيرا أو شرا ، والمعنى : أنك ساع إلى ربك فى عملك ، أو إلى لقاء ربك . مأخوذ من كدح جلده : إذا خدشه ، قال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة والضحاك والكلبى : عامل لربك عملا ﴿**فملاقيه**﴾ أى فملاق عملك ، والمعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب . قال القتيبى : معنى الآية : ﴿**إنك كادح**﴾ أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك والملاقاة بمعنى اللقاء، أى تلقى ربك بعملك ، وقيل : فملاق كتاب عملك ، لأن العمل قد انقضى ﴿**فأما من أوتى كتابه بيمينه**﴾ وهم المؤمنون . ﴿**فسوف يحاسب حسابا يسيرا**﴾ لامناقشة فيه . قال مقاتل : لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب بها . وقال المفسرون : هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله ، فهو الحساب اليسير . ﴿**وينقلب إلى أهله مسرورا**﴾ أى وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من عشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة ، أو إلى من أعدّه الله له فى الجنة من الحور العين والولدان المخلدين . أو إلى جميع هؤلاء مسرورًا مبتهجا بما أوتى من الخير والكرامة .

﴿**وأما من أوتى كتابه وراء ظهره**﴾ قال الكلبى : لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلفه . وقال قتادة ومقاتل : تفك ألواح صدره وعظامه ، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿**فسوف يدعو ثبورًا**﴾ أى إذا قرأ كتابه قال : ياويلاه ياثبوراه ، والثبور: الهلاك . ﴿**ويصلى سعيرا**﴾ أى يدخلها ويقاسى حرّ نارها وشدتها . قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام . وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها ، وروى إسماعيل المكى عن ابن كثير وكذلك خارجة عن نافع وكذلك روى إسماعيل المكى عن ابن كثير أنهم قرؤوا بضم الياء وإسكان الصاد من أصلى يصلى . ﴿**إنه كان فى أهله مسرورا**﴾ أى كان بين أهله فى الدنيا مسرورا باتباع هواه وركوب شهوته بطرا أشرا لعدم خطور الآخرة بباله ، والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة : ﴿**إنه ظن أن لن يحور**﴾ تعليل لكونه كان فى الدنيا فى أهله مسرورا ، والمعنى : أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة ، و« أن » فى قوله : ﴿**أن لن يحور**﴾ هى المخففة من الثقيلة سادة مع ما فى حيزها مسدّ مفعولى ظنّ ، والحور فى اللغة : الرجوع ، يقال : حار يحور : إذا رجع . وقال الراغب : الحور: التردّد فى

الأمر ، ومنه : نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، أى من التردّد فى الأمر بعد المضىّ فيه ، ومحاورة الكلام : مراجعته ، والمحار المرجع والمصير . قال عكرمة وداود بن أبى هند : يحور كلمة بالحبشية ومعناها : يرجع . قال القرطبى [1] : الحور فى كلام العرب : الرجوع ، ومنه : قوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من الحور بعد الكور » [2] يعنى : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفى المثل : حور فى محار ، أى نقصان فى نقصان ، ومنه قول الشاعر :

والذم يبقى وزادُ القوم فى حُورِ

والحور أيضا : الهلكة ، ومنه قول الراجز :

فى بئر لا حُور سرى وما شعر

قال أبو عبيدة : أى فى بئر حور ، ولا زائدة . ﴿ **بلى إن ربه كان به بصيرا** ﴾ بلى إيجاب للمنفىّ بلن ، أى بلى ليحورنّ وليبعثن . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنّ ربه كان به بصيرا** ﴾ أى كان به وبأعماله عالمًا لا يخفى عليه منها خافية . قال الزجاج : كان به بصيرا قبل أن يخلقه عالمًا بأن مرجعه إليه . ﴿ **فلا أقسم بالشفق** ﴾« لا » زائدة كما تقدّم فى أمثال هذه العبارة ، وقد قدّمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه . والشفق : الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة . قال الواحدى : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعا. قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر ، وحكاه القرطبى عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء ، وقال أسد بن عمر وأبو حنيفة : فى إحدى الروايتين عنه إنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع. قال الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، قال فى الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أوّل الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا ، ومنه قول الشاعر :

قم ياغلام أعنى غـير مرتبك   على الزمان بكأس حشوها شفق

وقال آخر :

أحمر اللون كحمرة الشفق

وقال مجاهد : الشفق : النهار كله ألا تراه قال :﴿ **والليل وما وسق** ﴾ وقال عكرمة : هو ما بقى من النهار. وإنما قال هذا لقوله بعده : ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا ، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال : الشفق : الذى يكون بين المغرب والعشاء ، وروى عن أسد بن عمر : الرجوع . ﴿**والليل وما وسق** ﴾ الوسق عند أهل

---

(١) القرطبى ١٠/ ٧٠٦٤ .

(٢) مسلم فى الحج (١٣٤٣/٤٢٦) .

اللغة : ضم الشيء بعضه إلى بعض ، يقال : استوسقت الإبل : إذا اجتمعت وانضمت، والراعى يسقها ، أى يجمعها . قال الواحدى : المفسرون يقولون : وما جمع وضم وحوى ولف ، والمعنى : أنه جمع وضمّ ما كان منتشرا بالنهار في تصرّفه ، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه ، ومنه قول ضابئ بن الحرث البرجُمِى :

فإنى وإياكم وسوقا إليكم   كقابض شيئا لم تنله أنامله

وقال عكرمة : ﴿ وما وسق ﴾ أى وما ساق من شيء إلى حيث يأوى ، فجعله من السوق لا من الجمع ﴿وما وسق﴾ أى وما جُنَّ وستر . وقيل: ﴿ وما وسق ﴾ أى وما حمل ، وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول : لا أحمله ما وسقت عينى الماء ، أى حملته ، ووسقت الناقة تسق وسقا ، أى حملت . قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : ﴿ وما وسق ﴾ : وما حمل من الظلمة ، أو حمل من الكواكب . قال القشيرى : ومعنى حمل: ضمّ وجمع ، والليل يحمل بظلمته كل شيء . وقال سعيد بن جبير: ﴿ وما وسق ﴾ أى وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار ، والأوّل أولى. ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أى اجتمع وتكامل. قال الفراء: اتساقه: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلى ست عشرة ، وقد افتعل من الوسق الذى هو الجمع . قال الحسن: اتسق: امتلأ واجتمع . وقال قتادة : استدار، يقال : وسقته فاتسق ، كما يقال : وصلته فاتصل ، ويقال : أمر فلان متسق ، أى مجتمع منتظم ، ويقال : اتسق الشيء : إذا تتابع .

﴿ لتركبَن طبقا عن طبق ﴾ هذا جواب القسم . قرأ حمزة والكسائى وابن كثير وأبو عمرو: « لتركبَن » : بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، وهو النبّى ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى العالية ومسروق وأبى وائل ومجاهد والنخعى والشعبى وسعيد بن جبير ، وقرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع وهم الناس . قال الشعبى و مجاهد : لتركبنَّ يامحمد سماء بعد سماء . قال الكلبى : يعنى : تصعد فيها ، وهذا على القراءة الأولى . وقيل : درجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القرب من الله ورفعة المنزلة . وقيل : المعنى : لتركبنَّ حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها فى الشدّة . وقيل: المعنى : لتركبنَّ أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا ، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : ﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا﴾ واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية قالا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبىّ ﷺ. وقرأ عمر : « ليركبنَّ » بالتحتية وضم الموحدة على الإخبار ، وروى عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة ، أى ليركبن الإنسان، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهى لغة ، وقرئ بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس . وقيل : إن معنى الآية : ليركبنّ القمر أحوالا من سرار واستهلال ، وهو بعيد ، قال مقاتل : ﴿ طبقا عن طبق ﴾ يعنى : الموت والحياة . وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام

ثم شاب ثم شيخ ومحل ﴿ عن طبق ﴾ النصب على أنه صفة لـ﴿طبقا ﴾ أى طبقا مجاوزا لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن ، أى مجاوزين ، أو مجاوزا .

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى : أىّ شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك.

﴿ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ هذه الجملة الشرطية وجوابها فى محل نصب على الحال ، أى أىّ مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن . قال الحسن وعطاء والكلبى ومقاتل : مالهم لا يصلون . وقال أبو مسلم : المراد : الخضوع والاستكانة . وقيل : المراد : نفس السجود المعروف بسجود التلاوة ، وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا ؟ وقد تقدم فى فاتحة هذه السورة الدليل على السجود : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أى يكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب : ﴿والله أعلم بما يوعون ﴾ أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب . وقال مقاتل : يكتمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

ويقال : وعاه: حفظه ، ووعيت الحديث أعيه وعيا ، ومنه : ﴿ أذن واعية ﴾ [الحاقة : ١٢] .﴿ فبشرهم بعذاب أليم﴾ أى اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم ، لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم : المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم . ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ هذا الاستثناء منقطع ، أى لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون ، أى غير مقطوع ، يقال : مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الشاعر :

فترى خلفهنّ من سرعة الرجـ ... ـع منينا كأنه أهباء

قال المبرد : المنين : الغبار ، لأنه تقطعه وراءها ، وكل ضعيف منين وممنون . وقيل : معنى ﴿ غير ممنون ﴾ : أنه لا يمنّ عليهم به ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ قال: تنشق السماء من المجرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ قال : سمعت حين كلمها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿وأذنت لربها وحقت ﴾ قال : أطاعت وحقت بالطاعة . وأخرج الحاكم عنه وصححه قال : سمعت وأطاعت ﴿ وإذا الأرض مدّت ﴾

قال :يوم القيامة ﴿ **وألقت مافيها** ﴾ قال : أخرجت ما فيها من الموتى ﴿**وتخلت** ﴾ عنهم . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **وألقت ما فيها** ﴾ قال : سوارى الذهب . وأخرج الحاكم، قال السيوطى : بسند جيد ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **إنك كادح إلى ربك كدحا** ﴾ قال : عامل عملا . ﴿ **فملاقيه** ﴾ قال : فملاق عملك .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسب إلا هلك»، فقلت : أليس يقول الله : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا** ﴾ ؟ قال : «ليس ذلك بالحساب. ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك» (٢) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » ، فلما انصرف قلت : يارسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال: « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك » (٣) وفى بعض ألفاظ الحديث الأوّل وهذا الحديث الآخر : « من نوقش الحساب عذّب » . وأخرج البزار ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كنّ فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا ويدخله الجنة برحمته : تعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » (٤) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يدعو ثبوراً** ﴾ قال : الويل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **إنه ظنّ أن لن يحور** ﴾ قال : يبعث . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا ﴿ **أن لن يحور**﴾ قال : أن لن يرجع. وأخرج سمويه فى فوائده عن عمر ابن الخطاب قال : ﴿ **الشفق** ﴾ : الحمرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : ﴿ **الشفق** ﴾ : النهار كله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ قال : وما دخل فيه . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ **وما وسق** ﴾ قال: وما جمع . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**والقمر إذا اتسق** ﴾ قال : إذا استوى . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ قال : وما جمع ، أما سمعت قوله :

---

(١) هذا جزء من حديث طويل صححه الحاكم ٤/ ٥٧٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) أحمد ٦/٤٧ ، ٩١ والبخارى فى التفسير (٤٩٣٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٦ / ٧٩ ، ٨٠) .
(٣) أحمد ٦/٤٨ وابن جرير ٣٠/ ٧٤ وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٤) قال الهيثمى فى المجمع ٨/١٥٧ : « رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه سليمان بن داود اليمامى وهو متروك » وصححه الحاكم ٢/٥١٨ وقال الذهبى : « سليمان ضعيف » .

إن لنـا قلائـصا نقـانـقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ **والقمر إذا اتسق** ﴾ قال : ليلة ثلاثة عشر . وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب ﴿ **لتركبنّ طبقا عن طبق** ﴾ قال : حالا بعد حال . وأخرج البخارى عن ابن عباس ﴿ **لتركبنّ طبقا عن طبق**﴾ حالا بعد حال ، قال : هذا نبيكم ﷺ . وأخرج أبو عبيد فى القراءات ، وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « لتركبنّ طبقا عن طبق » يعنى : بفتح الباء من ﴿**تركبن**﴾ . وقال : يعنى : نبيكم ﷺ حالا بعد حال . وأخرج الطيالسى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى عنه قال : ﴿**لتركبنّ**﴾ يا محمد السماء ﴿ **طبقا عن طبق** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم فى الكنى ، والطبرانى وابن منده وابن مردويه عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ : « لتركبنّ » : يعنى : بفتح الباء . وقال : لتركبنّ يامحمد سماء بعد سماء . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عنه : ﴿ **لتركبنّ طبقا عن طبق** ﴾ يعنى : السماء تنفطر ، ثم تنشق ، ثم تحمرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عنه أيضا فى الآية قال : السماء تكون كالمهل ، وتكون وردة كالدّهان، وتكون واهية، وتشقق فتكون حالا بعد حال . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**والله أعلم بما يوعون** ﴾ قال : يسرّون .

تفسير سورة البروج

هى اثنتان وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت :﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾ بمكة . وأخرج أحمد قال : حدّثنا عبد الصمد حدثنا زريق بن أبى سلمى حدّثنا أبو المهزم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بـ ﴿ **السماء ذات البروج** ﴾ ، و﴿ السماء والطارق ﴾ [(١)] .

وأخرج الطيالسى وابن أبى شيبة فى المصنف ، وأحمد والدارمى وأبو داود ، والترمذى وحسنه، والنسائى وابن حبان والطبرانى ، والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة؛ أن النبىّ ﷺ كان يقرأ فى الظهر والعصر بـ ﴿ السماء والطارق ﴾ و﴿ **السماء ذات البروج**﴾ [(٢)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ⑭ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ⑯ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑰ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑱ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑲ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ㉒ ﴾ .

قوله : ﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾ قد تقدّم الكلام فى البروج عند تفسير قوله : ﴿جعل فى السماء بروجا ﴾ [الفرقان : ٦١] قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: هى النجوم، والمعنى : والسماء ذات النجوم ، وقال عكرمة ومجاهد أيضا : هى قصور فى السماء . وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن .وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هى المنازل للكواكب ، وهى اثنا عشر برجا لاثنى عشر كوكبا ، وهى الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ،

(١) أحمد ٢ / ٣٢٧ .

(٢) ابن أبى شيبة ١ / ٣٥٦ وأحمد ٥ / ١٠٦ والدارمى ١ / ٢٩٥ وأبو داود فى الصلاة (٨٠٥) والترمذى فى الصلاة (٣٠٧) والنسائى فى الصلاة ٢ / ١٦٦ وابن حبان (١٨٢٤) والطبرانى (١٩٦٦) والبيهقى٢ / ٣٩١ .

والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . والبروج فى كلام العرب : القصور ، ومنه قوله : ﴿ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها . وقيل : هى أبواب السماء . وقيل : هى منازل القمر . وأصل البرج : الظهور ، سميت بذلك لظهورها . ﴿ **واليوم الموعود** ﴾ أى الموعود به ، وهو يوم القيامة . قال الواحدى : فى قول جميع المفسرين .

﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ المراد بالشاهد : من يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق ، أى يحضر فيه، والمراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من العجائب وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد : يوم الجمعة ، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود : يوم عرفة ، لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج ، وتحضره الملائكة ، قال الواحدى : وهذا قول الأكثر ، وحكى القشيرى عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد : يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد : يوم التروية ، والمشهود : يوم عرفة ، وقال النخعى : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود : يوم النحر . وقيل : الشاهد : هو الله سبحانه ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، لقوله : ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ [النساء : ١٦٦] وقوله : ﴿ قل أىّ شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقيل : الشاهد : محمد ﷺ لقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] وقوله : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقيل : الشاهد : جميع الأنبياء لقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : ٤١] . وقيل : هو عيسى ابن مريم لقوله : ﴿وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ﴾ [المائدة : ١١٧] والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة : إما أمة محمد ، أو أمم الأنبياء ، أو أمة عيسى . وقيل : الشاهد : آدم ، والمشهود : ذريته ، وقال محمد بن كعب : الشاهد : الإنسان لقوله : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٤] وقال مقاتل : أعضاؤه لقوله:﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : ٢٤] وقال الحسين بن الفضل : الشاهد : هذه الأمة ، والمشهود : سائر الأمم لقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقيل : الشاهد : الحفظة والمشهود : بنو آدم . وقيل : الأيام والليالى . وقيل : الشاهد : الخلق ، يشهدون لله عزّ وجلّ بالوحدانية ، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه ، وسيأتى بيان ما ورد فى تفسير الشاهد والمشهود ــ وبيان ما هو الحقّ إن شاء الله .

﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ هذا جواب القسم ، واللام فيه مضمرة ، وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره . وقيل : تقديره : لقد قتل ، فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية ، والظاهر أنها دعائية ، لأن معنى ﴿ **قتل** ﴾ : لعن. قال الواحدى: فى قول الجميع ،

والدعائية لا تكون جوابا للقسم ، فقيل : الجواب قوله : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين** ﴾ . وقيل : قوله : ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ وبه قال المبرد : واعترض عليه بطول الفصل . وقيل : هو مقدّر يدل عليه قوله : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود . وقيل : تقدير الجواب: لتبعثنّ ، واختاره ابن الأنبارى ، وقال أبو حاتم السجستانى وابن الأنبارى أيضا : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج ، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال : والله قام زيد . والأخدود : الشقّ العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق ــ وجمعه أخاديد ، ومنه الخدّ لمجارى الدموع ، والمخدة لأن الخد يوضع عليها . ويقال : تخدد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من خراج ، ومنه قول طرفة :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقىّ اللون لم يتخدّد

وسيأتى بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله . قرأ الجمهور : ﴿ **النار ذات الوقود** ﴾ بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها ، ﴿ **وذات الوقود**﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة . والوقود : الحطب الذى توقد به . وقيل : هو بدل كل من كل ، لا بدل اشتمال . وقيل : إن النار مخفوضة على الجوار ، كذا حكى مكى عن الكوفيين . وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم بضمها ، وقرأ أشهب العقيلى وأبو حيوة وأبو السماك العدوى وابن السميفع وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هى النار ، أو على أنها فاعل فعل محذوف ، أى أحرقتهم النار . ﴿ **إذ هم عليها قعود** ﴾ العامل فى الظرف قتل ، أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ، ويقرب إليها . قال مقاتل : يعنى: عند النار قعود يعرضونهم على الكفر ، وقال مجاهد : كانوا قعودا على الكراسى عند الأخدود . ﴿ **وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾ أى الذين خدّوا الأخدود ، وهم الملك وأصحابه ، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود ، أى حضور ، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به . وقيل : يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .وقيل :«على» بمعنى مع ، والتقدير : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود . قال الزجاج : أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى الله . ﴿ **وما نقموا منهم** ﴾ أى ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ **إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ أى إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود فى كل حال . قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنبًا إلا إيمانهم ، وهذا كقوله : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة : ٥٩] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قوله :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر :

ولا عيب فيهم غير شكلة عينهـا كذاك عتاق الطير شكلا عيونها

قرأ الجمهور : ﴿ **نـقموا** ﴾ بفتح النون ، وقرأ أبو حيوة بكسرها ، والفصيح الفتح . ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم والفخامة فقال: ﴿ **الذى له ملك السموات والأرض** ﴾ ومن كان هذا شأنه ، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد. ﴿ **والله على كل شىء شهيد** ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منه خافية ، وفى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين . ثم بين سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ أى حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فـتـنـت الشىء ، أى أحرقته ، وفتنت الدرهم والدينار : إذا أدخلته النار لتنظر جودته . ويقال : دينار مفتون ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله : ﴿ **يوم هم على النار يفتنون** ﴾ [الذاريات : ١٣] أى يحرقون . وقيل : معنى ﴿ **فتنوا المؤمنين** ﴾ : محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه ﴿ **ثم لم يتوبوا** ﴾ من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ، ﴿ **فلهم عذاب جهنم** ﴾ أى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ، والجملة فى محل رفع على أنها خبر إن ، أو الخبر لهم ، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، ولا يضرّ نسخه بأنّ خلافا للأخفش ، ولهم عذاب الحريق ، أى ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذى وقع منهم للمؤمنين. وقيل : إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير . وقيل : إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق ، فالأوّل عذاب ببردها . والثانى عذاب بحرّها . وقال الربيع بن أنس : إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبى .

ثم ذكر سبحانه ما أعد للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ وظاهر الآية العموم ، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوّليا ،والمعنى: أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ **لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة . وقد تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه الله لهم ، أى ذلك المذكور ﴿ **الفوز الكبير** ﴾ الذى لا يعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز: الظفر بالمطلوب . وجملة: ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ مستأنفة لخطاب النبىّ ﷺ مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه ، أى أخذه للجبابرة والظلمة شديد .

والبطش : الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم ، ومثل هذا قوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود : ١٠٢] ﴿ **إنه هو يبدئ ويعيد** ﴾ أى يخلق الخلق أولاً فى الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت . كذا قال الجمهور. وقيل : يبدئ للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة ، واختار هذا ابن جرير ، والأوّل أولى. ﴿ **وهو الغفور الودود** ﴾ أى بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه . قال مجاهد : الوادّ لأوليائه ، فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : معنى الودود الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له وأنشد :

وأركب فى الروع عريانة ... ذلول الجناح لقاحًا ودودًا

أى لا ولد لها تحنّ إليه . وقيل : الودود بمعنى المودود ، أى يودّه عباده الصالحون ويحبونه ، كذا قال الأزهرى . قال: ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل ، أى يكون محبا لهم. قال : وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه . قرأ الجمهور : ﴿ **ذو العرش المجيد** ﴾ برفع المجيد على أنه نعت لـ ﴿ **ذو**﴾ ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم قالا : لأن المجد هو النهاية فى الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك ، وقرأ الكوفيون إلا عاصمًا بالجر على أنه نعت للعرش . وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون . وقيل : هو نعت لربك ، ولا يضرّ الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه ، وقال مكى : هو خبر بعد خبر ، والأول أولى ، ومعنى ﴿ **ذو العرش** ﴾: ذو الملك والسلطان كما يقال : فلان على سرير ملكه ، ومنه قول الشاعر :

رأوا عرشى تثلم جانباه ... فلما أن تثلم أفردونى

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل : المراد : خالق العرش . ﴿ **فعال لما يريد** ﴾ أى من الإبداء والإعادة . قال عطاء : لا يعجز عن شيء يريده ولا يمتنع منه شيء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ، لأنه نكرة محضة. قال ابن جرير: رفع فعال ، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور الودود ، وإنما قال : ﴿**فعال**﴾ لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة . ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال : ﴿ **هل أتاك حديث الجنود**﴾ والجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم من شدّة بطشه سبحانه وكونه فعالا لما يريده ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ ، أى هل أتاك يامحمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها . ثم بينهم فقال : ﴿ **فرعون وثمود** ﴾ وهو بدل من الجنود ، والمراد بفرعون : هو وقومه ، والمراد بثمود :

القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم: ما وقع منهم من الكفر والعناد وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكرّر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب وعند مشركي العرب ودلّ بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره ﷺ لمن تقدّم ذكره وبين أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال : ﴿ **بل الذين كفروا في تكذيب** ﴾ أي بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب شديد لك ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار ﴿ **والله من ورائهم محيط** ﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك ، والإحاطة بالشيء : الحصر له من جميع جوانبه ، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط . ثم ردّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال : ﴿ **بل هو قرآن مجيد** ﴾ أي متناه في الشرف والكرم والبركة لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا ، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر ﴿**في لوح محفوظ** ﴾ أي مكتوب في لوح ، وهو أمّ الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه . قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح ،وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن ، أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح ، واتفق القراء على فتح اللام من ﴿ **لوح** ﴾ إلا يحيى بن يعمر وابن السميفع فإنهما قرآ بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش . قيل : والمراد باللوح بضم اللام : الهواء الذي فوق السماء السابعة . قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام : الهواء ، وكذا قال ابن خالويه . قال في الصحاح : اللوح بالضم : الهواء بين السماء والأرض .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ **البروج** ﴾ : قصور في السماء [1] . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبيّ ﷺ سئل عن ﴿ **السماء ذات البروج** ﴾ فقال: «الكواكب » ، وسئل عن قوله : ﴿ الذي جعل في السماء بروجا ﴾ [الفرقان : ٦١] قال : «الكواكب » ، وعن قوله : ﴿ في بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] قال : «القصور » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ **واليوم الموعود . وشاهد ومشهود** ﴾ قال: اليوم الموعود : يوم القيامة ، والشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيدا لمحمد وأمته وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله ، وأحب الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه. وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة ، واليوم المشهود : يوم عرفة ، والشاهد : يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ

(١) ابن جرير ٣٠ / ٨١ .

من شيء إلا أعاذه منه »[١] . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة رفعه : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : « الشاهد : يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود : هو الموعود يوم القيامة »[٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : اليوم الموعود : يوم القيامة ، والمشهود : يوم النحر ، والشاهد: يوم الجمعة .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ: « اليوم الموعود : يوم القيامة ، والشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة »[٣] . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية « الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبى هريرة مثله موقوفا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب[٤] . وأخرج ابن ماجة والطبرانى وابن جرير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود ، تشهده الملائكة »[٥] .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية قال : الشاهد : يوم الجمعة والمشهود : يوم عرفة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علىّ أن رجلا سأله عن قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : هل سألت أحدا قبلى ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . قال : لا ولكن الشاهد : محمد ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] والمشهود : يوم القيامة ثم قرأ : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : ١٠٣]. وأخرج عبد بن حميد ، والطبرانى فى الأوسط والصغير ، وابن مردويه عن الحسن ابن علىّ فى الآية قال : الشاهد : جدّى رسول الله ﷺ .والمشهود :يوم القيامة ، ثم تلا : ﴿إنا أرسلناك شاهدا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى الدنيا والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : اليوم الموعود : يوم القيامة والشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم القيامة ،

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٣٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٣ / ٨٣ والبيهقى فى الجمعة ٣ /١٧٠ .

(٢) صحيح الحاكم ٢ / ٥١٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الجمعة ٣ / ١٧٠ .

(٣) ابن جرير ٣٠ / ٨٣ والطبرانى (٣٤٥٨) .

(٤) ابن جرير ٣٠ / ٨٣ .

(٥) ابن ماجة فى الجنائز (١٦٣٧) وفى الزوائد: «هذا الحديث صحيح إلا أنه منقطع فى موضعين ، لأن عبادة روايته عن أبى الدرداء مرسلة قاله العلاء ، وزيد بن أيمن عن عبادة مرسلة ، قاله البخارى » وابن جرير ٣٠ / ٨٤ .

ثم تلا : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾. وأخرج ابن جرير عنه قال : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة .وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الشاهد : الله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الشاهد: الله ، والمشهود : يوم القيامة .

قلت : وهذه التفاسير عن الصحابة رضى الله عنهم قد اختلفت كما ترى ، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم واستدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشىء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد والمشهود فى هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين فى هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذى ذكر فى آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل بذلك . فإن قلت : هل فى المرفوع الذى ذكرته من حديثى أبى هريرة ، وحديث أبى مالك ، وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود ؟ قلت:أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها ، بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم الجمعة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة ، وفى حديث جبير أنه يوم الجمعة ، وفى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة ، فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضرّ زيادة يوم عرفة عليه فى حديث أبى هريرة الثانى ، وأما المشهود ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم عرفة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم القيامة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم عرفة، وفى حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة ، وكذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهى أرجح من تلك الرواية التى صرح فيها بأنه يوم القيامة . فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدّمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى والطبرانى [(١)] عن صهيب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم كان لذلك الملك كاهن يكهن له ، فقال له ذلك الكاهن : انظروا لى غلاما فهما ــ أو قال : فطنا لقنا فأعلمه علمى ، فإنى أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه ــ قال ــ : فنظروا له على ما وصف ، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة ، فجعل الغلام يسأل

(١) عبد الرزاق (٩٧٥١) وأحمد ٦ / ١٥ ومسلم فى الزهد والرقائق (٣٠٠٥ / ٧٣) والترمذى فى التفسير (٣٣٤٠) والنسائى فى التفسير (٦٨١) والطبرانى (٧٣١٩) .

ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ويبطئ على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب: إذا قال لك : أين كنت ؟ فقل : عند أهلى ، وإذا قال لك أهلك : أين كنت ؟ فأخبرهم أنى كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة ــ يقال : إنها كانت أسدا ــ فأخذ الغلام حجرا فقال : اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتل هذه الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها ثم رمى فقتل الدابة ، فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا : الغلام ، ففزع الناس وقالوا : قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له : إن أنت رددت علىّ بصرى فلك كذا وكذا ، فقال الغلام : لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذى ردّه عليك ؟ قال : نعم ، فدعا الله فردّ عليه بصره فآمن الأعمى ، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذى كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله ، وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه ، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذى أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردّون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك : إنك لن تقتلنى حتى تصلبنى وترمينى وتقول إذا رميتنى : بسم الله ربّ الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال: بسم الله ربّ الغلام ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد ، فإنا نؤمن بربّ هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال : فخد أخدودا ثم ألقى فيه الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه فى هذه النار ، فجعل يلقيهم فى تلك الأخدود ــ فقال : يقول الله : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود** ﴾ ــ حتى بلغ ــ ﴿ **العزيز الحميد** ﴾ . فأما الغلام فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل » .

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف ، وقد رواها مسلم فى أواخر الصحيح عن هدبة ابن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب . وأخرج أحمد من طريق عفان عن حماد به . وأخرجها النسائى عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذى عن محمود بن غيلان ، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به.

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: ﴿ **أصحاب الأخدود** ﴾ قال : هم الحبشة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدودا فى الأرض أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعرضوا عليها. وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ قال : هذا قسم على ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ إلى آخرها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنه هو يبدئ ويعيد** ﴾ قال : يبدئ العذاب ويعيده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **الودود** ﴾ قال : الحبيب ، وفى قوله : ﴿ **ذو العرش المجيد** ﴾ قال : الكريم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فى لوح محفوظ** ﴾ قال : أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر ، وإن ذلك اللوح من نور ، وإنه مسيرة ثلاثمائة سنة . وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله فى قوله : ﴿ **بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ** ﴾ فى جبهة إسرافيل . وأخرج أبو الشيخ ، قال السيوطى: بسند جيد ، عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق : اكتب علمى فى خلقى ، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة .

تفسير سورة الطارق

هى سبع عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والسماء والطارق ﴾ بمكة . وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والطبرانى وابن مردويه عن خالد العدوانى ؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ فى سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصى حين أتاهم يبتغى النصر عندهم ، فسمعه يقرأ: ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها ، قال : فوعيتها فى الجاهلية ، ثم قرأتها فى الإسلام ، قال : فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ، فقرأتها ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ .

أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، وهو النجم الثاقب كما صرّح به التنزيل. قال الواحدى : قال المفسرون : أقسم الله بالسماء والطارق ، يعنى : الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار ، قال الفرّاء : الطارق : النجم ؛ لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلا فهو طارق . وكذا قال الزجاج والمبرد ، ومنه قول امرئ القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محـول

وقوله أيضا :

ألم تريانى كلما جـئت طارقـا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ؟ فقيل : هو زحل . وقيل :

(١) أحمد ٤ / ٣٣٥ والطبرانى (٤١٢٦ ، ٤١٢٧) .

الثريا. وقيل : هو الذى ترمى به الشياطين . وقيل : هو جنس النجم . قال فى الصحاح: ﴿ والطارق﴾ : النجم الذى يقال له . كوكب الصبح ، ومنه قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء ، وأصل الطروق : الدقّ ، فسمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق. وقال قوم: إن الطروق قد يكون نهارا ، والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين ، أى مرتين ، ومنه قوله ﷺ: « أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير » [1] ثم يبن سبحانه ما هو الطارق ، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال : ﴿ **وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب** ﴾ الثاقب : المضىء ، ومنه يقال : ثقب النجم ثقوبا وثقابة : إذا أضاء ، وثقابه ضوؤه ، ومنه قول الشاعر :

أذاع به فى الناس حتى كأنه   بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى : الطارق يقع على كل ما طرق ليلا ، ولم يكن النبى ﷺ يدرى ما المراد به لو لم يبينه بقوله : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ قال مجاهد : الثاقب : المتوهج . قال سفيان : كل ما فى القرآن ﴿ **وما أدراك** ﴾ فقد أخبره ، وكل شىء قال :﴿ وما يدريك ﴾ لم يخبره به ، وارتفاع قوله : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله كأنه قيل : ماهو ؟ فقيل : هو النجم الثاقب . ﴿ **إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض ، وقد تقدّم فى سورة هود اختلاف القراء فى «لما » فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة ، وما مزيدة ، أى إن الشأن كل نفس لعليها حافظ ، ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا ، أى ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر ، وعاصم وحمزة وقرأ الباقون بالتخفيف . قيل : والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ . وقيل : الحافظ : هو الله عزّ وجلّ . وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح ، ويكفهم عن المفاسد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] وقوله: ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ [الأنعام :٦١] وقوله : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ [الرعد : ١١] والحافظ على الحقيقة هو الله عزّ وجلّ كما فى قوله : ﴿ فالله خير حافظا ﴾ [يوسف : ٦٥] وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره .

﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق** ﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على

---

(١) أحمد ٣ / ٤١٩ . وهو جزء من حديث طويل عن عبد الرحمن بن خنبش .

الإنسان أن يتفكر فى مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل : يعنى : المكذب بالبعث ﴿ممّ خلق﴾ من أى شىء خلقه الله ، والمعنى : فلينظر نظر التفكر والاستدلال حتى يعرف أن الذى ابتدأه من نطفة قادر على إعادته . ثم بين سبحانه ذلك فقال : ﴿خلق من ماء دافق﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والماء : هو المنىّ ، والدفق : الصبّ . يقال : دفقت الماء ، أى صببته ، يقال : ماء دافق ، أى مدفوق ، مثل ﴿عيشة راضية﴾ [القارعة : ٧] أى مرضية . قال الفرّاء والأخفش : ﴿ماء دافق﴾ أى مصبوب فى الرحم . قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم كقولهم : سرّ كاتم أى مكتوم ، وهمّ ناصب أى منصوب ، وليل نائم ونحو ذلك . قال الزجاج : من ماء ذى اندفاق ، يقال : دارع وقايس ونابل ، أى ذو درع وقوس ونبل ، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما .

ثم وصف هذا الماء فقال : ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أى صلب الرجل ، وترائب المرأة ، والترائب جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من الماءين. قرأ الجمهور: ﴿يخرج﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ بن أبى عبلة وابن مقسم مبنيا للمفعول ، وفى الصلب ، وهو الظهر ، لغات : قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام . وقرأ اليمانى بفتحهما . ويقال : صالب على وزن قالب ، ومنه قول العباس بن عبد المطلب :

تنقل من صلب إلى رحم

فى أبياته المشهورة فى مدح النبى ﷺ ، وقد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله : ﴿الذين من أصلابكم﴾ [النساء : ٢٣] وقيل : الترائب : ما بين الثديين . وقال الضحاك: ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين . وقال سعيد بن جبير : هى الجيد . وقال مجاهد : ما بين المنكبين والصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى الصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى التراقى ، وحكى الزجاج : أن الترائب عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور فى اللغة أنها عظام الصدر والنحر ، ومنه قول دريد بن الصمة :

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم فى الترائب

قال عكرمة : الترائب الصدر ، وأنشد :

نظامُ درّ على ترائبها

قال فى الصحاح : التريبة واحدة الترائب . وهى عظام الصدر ــ قال أبو عبيدة : جمع التريبة تريب ، ومنه قول المثقب العبدى :

ومن ذهب يبين على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقول امرئ القيس :

ترائبها مصقولة كالسجنجل (١)

وحكى الزجاج:أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر ،وأربعة أضلاع من يسرة الصدر، قال قتادة والحسن : المعنى : ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفرّاء أن مثل هذا يأتى عن العرب يكون معنى ﴿ من بين الصلب ﴾ : من الصلب . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ،ولا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من الصلب والترائب. وقيل : إن المعنى : يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما فى الآية ، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها . ﴿ إنه على رجعه لقادر﴾ الضمير فى ﴿ إنه ﴾ يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله : ﴿ خلق ﴾ عليه ، فإن الذى خلقه هو الله سبحانه ، والضمير فى ﴿ رجعه ﴾ عائد إلى الإنسان . والمعنى : أن الله سبحانه على رجع الإنسان ، أى إعادته بالبعث بعد الموت ﴿ لقادر ﴾ هكذا قال جماعة من المفسرين : وقال مجاهد : على أن يردّ الماء فى الإحليل . وقال عكرمة والضحاك : على أن يرّد الماء فى الصلب . وقال مقاتل بن حيان: يقول : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر . والأوّل أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبى والقرطبى . ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ العامل فى الظرف على التفسير الأوّل هو ﴿ رجعه ﴾ .وقيل: ﴿ لقادر﴾ . واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم . وقيل : العامل فيه مقدّر ، أى يرجعه يوم تبلى السرائر.وقيل : العامل فيه مقدّر ، وهو اذكر ، فيكون مفعولا به ، وأما على قول من قال : إن المراد رجع الماء ، فالعامل فى الظرف مقدّر ، وهو اذكر ، ومعنى ﴿ تبلى السرائر ﴾ : تختبر وتعرف ، ومنه قول الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدرينى   فـاليوم أبـلـوك وتبتلينى

أى أختبرك وتختبرنى ، وأمتحنك وتمتحننى ، والسرائر : ما يسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، والمراد هنا : عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغثّ من السمين ﴿ فماله من قوة ولا ناصر ﴾ أى فما للإنسان من قوّة فى نفسه يمتنع بها من عذاب الله ، ولا ناصر ينصره مما نزل به ، وقال عكرمة : هؤلاء الملوك مالهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر . قال سفيان : القوة: العشيرة ، والناصر : الحليف ، والأوّل أولى . ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ الرجع : المطر . قال الزجاج : الرجع : المطر ؛ لأنه يجىء ويرجع ويتكرر ، قال الخليل : الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع . قال أهل اللغة :

---

(١) السجنجل : المرآة أو سبيكة الفضة أو ماء الذهب .

الرجع : المطر ، قال المتنخِّل يصف سيفًا له :

أبيض كالرجع رسوب إذا ماباح فى محتفل يختلى

قال الواحدى : الرجع : المطر فى قول جميع المفسرين ، وفى هذا الذى حكاه عن جميع المفسرين نظر ، فإن ابن زيد قال : الرجع : الشمس والقمر والنجوم يرجعن فى السماء تطلع من ناحية وتغيب فى أخرى . وقال بعض المفسرين : ﴿ **ذات الرجع** ﴾ : ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وقال بعضهم : معنى ﴿ **ذات الرجع** ﴾ : ذات النفع ، ووجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته ، وكذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمى رجعا . وقيل : إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض . وقيل : سمته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم . وقيل : لأن الله يرجعه وقتا بعد وقت . ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر. والصدع : الشقّ لأنه يصدع الأرض فتنصدع له . قال أبو عبيدة والفرّاء : تتصدّع بالنبات . قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التى تصدعها المياه . وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها . وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث . والحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال : والأرض ذات النبات ، وإن كان المراد به الشق فكأنه قال : والأرض ذات الشق الذى يخرج منه النبات ونحوه ، وجواب القسم قوله : ﴿**إنه لقول فصل** ﴾ أى إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿**وما هو بالهزل** ﴾ أى لم ينزل باللعب ، فهو جدّ ليس بالهزل ، والهزل ضدّ الجدّ . قال الكميت :

تجدّبنا فى كل يوم وتهزل

﴿ **إنهم يكيدون كيدا** ﴾ أى يمكرون فى إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من العرين الحق. قال الزجاج : يخاتلون النبى ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه . ﴿ **وأكيد كيدا** ﴾ أى أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم .قيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿ **فمهل الكافرين** ﴾ أى أخرهم ،ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وارض بما يدبره لك فى أمورهم ، وقوله : ﴿ **أمهلهم** ﴾ بدل من مهل ، ومهل وأمهل بمعنى ، مثل نزل وأنزل ، والإمهال : الإنظار ، وتمهل فى الأمر : اتأد ، وانتصاب ﴿ **رويدا** ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور ، أو نعت لمصدر محذوف ، أى أمهلهم إمهالا رويدا ، أى قريبا أو قليلا . قال أبو عبيدة : والرويد فى كلام العرب تصغير الرود ، وأنشد :

كأنها [ثملٌ] [١] تمشى على رود

أى مهل [٢] . وقيل : تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم ، ويأتى اسم فعل نحو رويد زيدا ، أى أمهله ، ويأتى حالا نحو سار القوم رويدا ، أى متمهلين ، ذكر معنى هذا الجوهرىّ ، والبحث مستوفى فى علم النحو .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ قال : أقسم ربك بالطارق : وكل شىء طرقك بالليل فهو طارق . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ قال : النجم المضىء ﴿ **إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ قال : إلا عليها حافظ. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ قال: ما بين الجلد والنحر. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : تريبة المرأة وهى موضع القلادة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الترائب بين ثديى المرأة . وأخرج الحاكم وصححه أيضا قال : الترائب أربعة أضلاع من كلّ جانب من أسفل الأضلاع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا ﴿ **إنه على رجعه لقادر** ﴾ قال : على أن يجعل الشيخ شابا والشابّ شيخا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ قال : المطر بعد المطر ﴿**والأرض ذات الصدع** ﴾ قال : صدعها عن النبات . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾ تصدّع الأودية . وأخرج ابن منده والديلمى عن معاذ بن أنس مرفوعا : ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾ قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنه لقول فصل** ﴾ قال :حقّ ،﴿ **وما هو بالهزل** ﴾ قال : بالباطل ، وفى قوله : ﴿ **أمهلهم رويدا** ﴾ قال : قريبا .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والمخطوطة وقد أثبتناه من القرطبى ١٠ / ٧١٠٢ .
(٢) فى المطبوعة : « على مهل » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تفسير سورة الأعلى

ويقال : سورة سبح . هى تسع عشرة آية . وهى مكية فى قول الجمهور .وقال الضحاك : هى مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج البخارى وغيره عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرآننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، ثم جاء النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فى سور مثلها [1] . وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن على قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[2] . أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن ثوير بن أبى فاختة عن أبيه عن على .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأهل السنن عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ ، وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعًا . وفى لفظ : وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما . وفى الباب أحاديث [3] . وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الظهر بسبح اسم ربك الأعلى [4] . وأخرج أبو داود والنسائى وابن ماجة والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [5] . وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يقرأ فى الوتر فى الركعة الأولى بـ ﴿ سبح ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ وفى الثالثة :﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين [6] . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ » [7] .

---

(١) أحمد ٤ / ٢٨٤ والبخارى فى التفسير (٤٩٤١) . (٢) أحمد ١ / ٩٦ .

(٣) أحمد ٤ / ٢٧١ ومسلم فى الجمعة (٨٧٨ / ٦٢) . (٤) مسلم فى الصلاة (٤٦٠ / ١٧١) .

(٥) أبو داود فى الصلاة (١٤٢٣) والنسائى فى الصلاة ٣ / ٢٤٤ وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١١٧١) والدارقطنى ٢ / ٣١ وصححه الحاكم ٢ / ٢٥٧ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصلاة ٣ / ٣٨ .

(٦) أبو داود فى الصلاة (١٤٢٤) والترمذى فى الصلاة (٤٦٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١١٧٣) وصححه الحاكم ٢ / ٥٢٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصلاة ٣ / ٣٧ .

(٧) البخارى فى الأدب (٦١٠٦) ومسلم فى الصلاة (٤٦٥ / ١٧٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ أى نزهه عن كل مالا يليق به: قال السدى : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ أى عظمه ، قيل : والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، كما فى قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

والمعنى : سبح ربك الأعلى . قال ابن جرير : المعنى : نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون على هذا مقحمة . وقيل : المعنى : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم . وقال الحسن : معنى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ : صل له . وقيل: المعنى: صل بأسماء الله ، لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية . وقيل: المعنى : ارفع صوتك بذكر ربك . ومنه قول جرير :

قبح الإلـه وجوه تغلب كلما ... سبح الحجيج وكبروا تكبيرا

والأعلى صفه للرب . وقيل : للاسم . والأول أولى . وقوله : ﴿ **الذى خلق فسوى** ﴾ صفة أخرى للرب . قال الزجاج : خلق الإنسان مستويًا . ومعنى سوى : عدل قامته . قال الضحاك : خلقه فسوى خلقه. وقيل : خلق الأجساد فسوى الأفهام . وقيل : خلق الإنسان وهيأه للتكليف . ﴿ **والذى قدر فهدى** ﴾ صفة أخرى للرب ، أو معطوف على الموصول الذى قبله . قرأ على بن أبى طالب ، والكسائى والسلمى: « قدر » مخففًا . وقرأ الباقون بالتشديد . قال الواحدى : قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب ، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها . وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر ، والسعادة والشقاوة . وروى عنه أيضًا أنه قال فى معنى الآية : قدر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيل : قدر أرزاقهم وأقواتهم ، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا ، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : خلق المنافع فى

الأشياء ، وهدى الإنسان أوجه استخراجها منها . وقال السدى : قدر مدة الجنين فى الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم . قال الفراء : أى قدر فهدى ، وأضل، فاكتفى بأحدهما . وفى تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا . والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى ، إلا بدليل يدل عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين ،إما على البدل أو على الشمول .والمعنى: قدر أجناس الأشياء ، وأنواعها ، وصفاتها، وأفعالها ، وأقوالها ، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له ، ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه . ﴿ **والذى أخرج المرعى** ﴾ صفة أخرى للرب، أى: أنبت العشب وما ترعاه النعم من النبات الأخضر . ﴿ **فجعله غثاء أحوى** ﴾ أى فجعله بعد أن كان أخضر غثاء ، أى : هشيمًا جافًا كالغثاء الذى يكون فوق السيل .﴿**أحوى**﴾ أى أسود بعد اخضراره . وذلك أن الكلأ إذا يبس اسود قال قتادة : الغثاء : الشىء اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس : غثاء وهشيم ، قال امرؤ القيس :

كأن ذرى رأس المجيمر وغدوه   من السَّيل والأغثَاءِ فلْكَة مَغْزَلِ

وانتصاب ﴿ **غثاء** ﴾ على أنه المفعول الثانى ، أو على الحال ، و ﴿ **أحوى** ﴾ صفة له . وقال الكسائى : هو حال من المرعى ، أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى .﴿ **فجعله غثاء**﴾ بعد ذلك . والأحوى مأخوذ من الحوة ، وهى سواد يضرب إلى الخضرة . قال فى الصحاح : والحوة سمرة الشفة ، ومنه قول ذى الرمة :

لميـاء فى شفتيهـا حـوة لعس   وفى اللثات وفى أنيابها شنب

﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ أى سنجعلك قارئًا بأن نلهمك القراءة . فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته ﷺ الخاصة به بعد بيان الهداية العامة . وهى هدايته ﷺ لحفظ القرآن . قال مجاهد والكلبى : كان النبى ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبى ﷺ بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت : ﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ . وقوله : ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى لا تنسى مما تقرؤه شيئًا من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه . قال الفراء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ شيئًا كقوله : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : ٧] . وقيل : إلا ما شاء الله أن تنسى ، ثم تذكر بعد ذلك ، فإذن قد نسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئًا نسيانًا كليًا . وقيل : بمعنى النسخ ، أى إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته . وقيل : معنى ﴿ **فلا تنسى** ﴾ : فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه . وقيل : المعنى : إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل : « لا » فى قوله : ﴿ **فلا تنسى** ﴾ للنهى . والألف مزيدة لرعاية الفاصلة كما فى قوله : ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ [الأحزاب : ٦٧] يعنى

فلا تغفل قراءته وتذكره . ﴿ **إنه يعلم الجهر وما يخفى** ﴾ الجملة تعليل لما قبلها ، أى يعلم ما ظهر وما بطن ، والإعلان والإسرار . وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل : إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن . وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضًا ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة ، وما يخفى هو إخفاؤها ، ويدخل تحته أيضًا ما قيل : إن الجهر جهره ﷺ بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما فى نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

﴿ **ونيسرك لليسرى** ﴾ معطوف على ﴿ **سنقرئك** ﴾ ، وما بينهما اعتراض . قال مقاتل : أى نهون عليك عمل الجنة . وقيل : نوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل . وقيل : للشريعة اليسرى . وهى الحنيفية السهلة . وقيل : نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعمل به . والأولى حمل الآية على العموم ، أى نوفقك للطريقة اليسرى فى الدين والدنيا ، فى كل أمر من أمورها التى تتوجه إليك . ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى** ﴾ أى عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير ، واهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر . قال الواحدى : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبى ﷺ بعث مبلغًا للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله : ﴿سرابيل تقيكم الحر ﴾ الآية [النحل : ٨١] . قال الجرجانى: التذكير واجب وإن لم ينفع . فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع . وقيل : إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم . وقيل : «إن » بمعنى « ما » ، أى فذكر ما نفعت الذكرى . لأن الذكرى نافعة بكل حال . وقيل : إنها بمعنى « قد » . وقيل : إنها بمعنى « إذ » . وما قال الواحدى والجرجانى أولى . وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس . قال الرازى : إن قوله : ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ للتنبيه على أشرف الحالين ، وهو وجود النفع الذى لأجله شرعت الذكرى ، والمعلق بإن على شىء لا يلزم أن يكون عدمًا عند عدم ذلك الشىء . ويدل عليه آيات منها الآية . ومنها قوله تعالى : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [البقرة : ١٧٢] . ومنها قوله : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ﴾ [النساء : ١٠١] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه . ومنها قوله : ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ [البقرة : ٢٣٠] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن . فهذا الشرط فيه فوائد . منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الرجل لمن يرشده : قد أوضحت لك إن كنت تعقل . وهو تنبيه للنبى ﷺ على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا فى تكرير الدعوة . فأما الدعاء الأول فعام . انتهى .

ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال : ﴿ **سيذكر من يخشى** ﴾

أى سيتعظ بوعظك من يخشى الله ، فيزداد بالتذكير خشية وصلاحًا . ﴿ **ويتجنبها الأشقى** ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه فى معاصيه . ثم وصف الأشقى فقال : ﴿ **الذى يصلى النار الكبرى** ﴾ أى العظيمة الفظيعة ، لأنها أشد حرًا من غيرها . قال الحسن : ﴿ **النار الكبرى** ﴾ : نار جهنم . والنار الصغرى : نار الدنيا . وقال الزجاج : هى السفلى من أطباق النار . ﴿ **ثم لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾ أى لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم

و « ثم » للتراخى فى مراتب الشدة ، لأن التردد بين الموت والحياة أفظع من صلى النار الكبرى . ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ أى من تطهر من الشرك فآمن بالله ووحده وعمل بشرائعه . قال عطاء ، والربيع : من كان عمله ذاكيًا ناميًا . وقال قتادة : تزكى بعمل صالح . قال قتادة وعطاء وأبو العالية : نزلت فى صدقة الفطر . قال عكرمة : كان الرجل يقول : أقدم زكاتى بين يدى صلاتى . وأصل الزكاة فى اللغة : النماء. وقيل : المراد بالآية : زكاة الأموال كلها . وقيل : المراد بها زكاة الأعمال ، لا زكاة الأموال ، لأن الأكثر أن يقال فى الأموال : زكى لا تزكى . ﴿ **وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ قيل : المعنى : ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له . وقيل : ذكر اسم ربه بلسانه فصلى ، أى فأقام الصلوات الخمس . وقيل : ذكر موقفه ومعاده فعبده . وهو كالقول الأول . وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير فى أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ، وهو قوله : الله أكبر . وقيل : ذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى . وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة . وقيل : المراد بالصلاة هنا : صلاة العيد . كما أن المراد بالتزكى فى الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بُعد هذا القول لأن السورة مكية ، ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة .

﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق ، أى لا تفعلون ذلك ، بل تؤثرون اللذات الفانية فى الدنيا . قرأ الجمهور: ﴿ **تؤثرون** ﴾ بالفوقية على الخطاب. ويؤيدها قراءة أبىّ : « بل أنتم تؤثرون » . وقرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة . وقيل : المراد بالآية : الكفرة . والمراد بإيثار الحياة الدنيا : هو الرضا بها والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخرة بالكلية . وقيل : المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر . والمراد بإيثارها : ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتمامًا زائدًا على اهتمامه بالطاعات . وجملة : ﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون، أى والحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل وأدوم من الدنيا . قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف

يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى ؟

والإشارة بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده . وقيل : إنه إشارة إلى جميع السورة . ومعنى ﴿ **لفى الصحف الأولى** ﴾ أى ثابت فيها . وقوله: ﴿ **صحف إبراهيم وموسى** ﴾ بدل من الصحف الأولى . قال قتادة وابن زيد : يريد بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ والآخرة خير وأبقى . وقالا : تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لفى الصحف الأولى ، وهو قوله : ﴿ **قد أفلح** ﴾ إلى آخر السورة قرأ الجمهور : ﴿ **لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم** ﴾ بضم الحاء فى الموضعين . وقرأ الأعمش ، وهارون ، وأبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما . وقرأ الجمهور ﴿ **إبراهيم** ﴾ بالألف بعد الراء ، وبالياء بعد الهاء . وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء . وقرأ أبو موسى وابن الزبير : « إبراهام » بألفين .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : ٧٤] ، قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ ، قال : « اجعلوها فى سجودكم » . ولا مطعن فى إسناده (١) . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال : « سبحان ربى الأعلى » (٢) . قال أبو داود : خولف فيه وكيع ، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفًا . وأخرجه موقوفًا أيضًا عبد الرزاق وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا قرأ :﴿ **سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: «سبحان ربى الأعلى». وفى لفظ لعبد بن حميد عنه قال: إذا قرأت: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ فقل : سبحان ربى الأعلى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن على بن أبى طالب أنه قرأ : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى ، وهو فى الصلاة ، فقيل له: أتزيد فى القرآن ؟ قال: لا ، إنما أمرنا بشىء فقلته. وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبى موسى الأشعرى ؛ أنه قرأ في الجمعة بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن

---

(١) أحمد ٤ / ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٧) .

(٢) أحمد ١ / ٢٣٢ وأبو داود فى الصلاة (٨٨٣) والطبرانى (١٢٣٣٥) والبيهقى ٢ / ٣١٠ .

سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى . وكذلك هى فى قراءة أبى بن كعب . وأخرج ابن أبى شيبة عن عمر أنه قال : إذا قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : سبحان ربى الأعلى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير ؛ أنه قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال: سبحان ربى الأعلى ، وهو فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فجعله غثاء ﴾ قال : هشيمًا ﴿ أحوى ﴾ ، قال : متغيرًا . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبى ﷺ يستذكر القرآن مخافة أن ينسى ، فقيل له : قد كفيناك ذلك ، ونزلت: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾. وأخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ يقول : إلا ما شئت أنا فأنسيك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ قال : للخير. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ قال: الجنة . وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : «من شهد أن لا إله الله ، وقطع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله» . ﴿وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال: « هى الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها ». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من الشرك ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ قال : وحد الله ﴿ فصلى ﴾ قال : الصلوات الخمس . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من قال : لا إله إلا الله . وأخرج البزار ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن كثير بن عبد الله ابن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ ؛ أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد ، ويتلو هذه الآية : ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ [1] . وفى لفظ قال : سئل النبى ﷺ عن زكاة الفطر فقال : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : « هى زكاة الفطر » . وكثير بن عبد الله ضعيف جدًا . قال فيه أبو داود : هو ركن من أركان الكذب . وقد صحح الترمذى حديثًا من طريقه ، وخطئ فى ذلك ، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر » . وليس فى هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول ، بل فيهما أنه ﷺ تلا الآية ، وقوله : «هى زكاة الفطر » يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكى ، وقد قدمنا أن السورة مكية ، ولم تكن فى مكة صلاة عيد ولا فطر. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى سعيد الخدرى :

(١) البزار (٩٠٥) والبيهقى فى الزكاة ٤ / ١٥٩ .

﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ ، قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد . ﴿ **وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ قال : خرج إلى العيد وصلى . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عمر قال : إنما أنزلت هذه الآية فى إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد [١] : ﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : قلت لابن عباس : أرأيت قوله : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ للفطر ؟ قال : لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها . ثم عاودته فقال لى : والصدقات كلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عرفجة الثقفى قال: استقرأت ابن مسعود : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فلما بلغ: ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنَّا رأينا زينتها ، ونساءها ، وطعامها ، وشرابها ،وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل ، وتركنا الآجل.وقال : « بل يؤثرون الحياة الدنيا » بالياء . وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هى كلها فى صحف إبراهيم وموسى » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية ، قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى . وفى لفظ : هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم أنزل الله من كتاب ؟ قال :« مائة كتاب وأربعة كتب . . . » الحديث.

---

(١) البيهقى فى الزكاة ٤ / ١٥٩ .

تفسير سورة الغاشية

هى ست وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦) ﴾.

قوله : **﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾** قال جماعة من المفسرين : هل هنا بمعنى قد . وبه قال قطرب ، أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، وهى القيامة ؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها . وقيل : إن بقاء « هل » هنا على معناها الاستفهامى المتضمن للتعجيب بما فى خبره، والتشويق إلى استماعه أولى . وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا : القيامة أكثرُ المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : الغاشية : النار . تغشى وجوه الكفار كما فى قوله : ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم : ٥٠] وقيل : الغاشية : أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها . والأول أولى . قال الكلبى : المعنى : إن لم يكن أتاك حديث الغاشية ، فقد أتاك . ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل: ما هو ؟ أو مستأنفة استئنافًا نحويًا لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة. ووجوه مرتفع على الابتداء ، وإن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل . وقد تقدم

---

(١) سبق تخريجه .

مثل هذا فى سورة القيامة ، وفى سورة النازعات . والتنوين فى ﴿يومئذ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أى يوم غشيان الغاشية . والخاشعة : الذليلة الخاضعة . وكل متضائل ساكن يقال له:خاشع . يقال : خشع الصوت : إذا خفى ، وخشع فى صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه ، والمراد بالوجوه هنا : أصحابها . قال مقاتل : يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله . قال قتادة وابن زيد : خاشعة فى النار . وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص . والأول أولى .

قوله : ﴿**عاملة ناصبة**﴾ : معنى ﴿**عاملة**﴾ : أنها تعمل عملاً شاقًا . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : عمل يعمل عملاً . ويقال للسحاب إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملاً . قيل : وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار . ﴿ **ناصبة** ﴾أى تعبة . يقال : نصب بالكسر ينصب نصبًا إذا تعب . والمعنى : أنها فى الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله . وقيل : إن قوله: ﴿**عاملة**﴾ فى الدنيا ، إذ لا عمل فى الآخرة ، أى تعمل فى الدنيا بالكفر والمعاصى وتنصب فى ذلك . وقيل : إنها عاملة فى الدنيا ، ناصبة فى الآخرة. والأول أولى . قال قتادة : ﴿ **عاملة ناصبة** ﴾ : تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله ، وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة فى العرصات ﴿فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج : ٤] قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب ، فأعملها وأنصبها فى جهنم . قال الكلبى : يجرون على وجوههم فى النار . وقال أيضًا : يكلفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل. قرأ الجمهور : ﴿ **عاملة ناصبة**﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ ، أو على تقدير مبتدأ ، وهما خبران له . وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد وابن كثير فى رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم . وقوله : ﴿**تصلى نارا حامية**﴾ خبر آخر للمبتدأ ، أى تدخل نارًا متناهية فى الحر . يقال : حمى النهار ، وحمى التنور ، أى اشتد حرهما . قال الكسائى : يقال : اشتد حمى النهار وحموه بمعنى . قرأ الجمهور : « تصلى » بفتح التاء مبنيًا للفاعل . وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمها مبنيًا للمفعول . وقرأ أبو رجاء بضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام . والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات . والمراد أصحابها كما تقدم . وهكذا الضمير ﴿ **تسقى من عين آنية** ﴾ والمراد بالعين الآنية : المتناهية فى الحر . والآنى الذى قد انتهى حره ، من الإيناء بمعنى التأخر يقال: آناه يؤنيه إيناء ، أى أخره وحبسه كما فى قوله: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن : ٤٤] قال الواحدى : قال المفسرون : لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا ، لذابت .

ولما ذكر سبحانه شرابهم ، عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع**﴾،

هو نوع من الشوك يقال له: الشبرق فى لسان قريش إذا كان رطبًا ، فإذا يبس ، فهو الضريع كذا قال مجاهد وقتادة، وغيرهما من المفسرين . قيل : وهو سم قاتل . وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه . وقيل : هو شيء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس ، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع وهلكت هزالاً . قال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح ، يرمى به البحر ، وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول . ومنه قول أبى ذؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعًا بان عنه التحايص

وقال الهذلى ، يذكر إبلاً وسوء مرعاها :

وحبسن فى هَزْم الضريع وكلها قرناء دامية اليدين جرود

وقال سعيد بن جبير : الضريع : الحجارة . وقيل : هو شجرة فى نار جهنم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمى بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله فى أن يعض عنه لكراهته وخشونته . قال النحاس : قد يكون مشتقًا من الضارع وهو الذليل ، أى من شربه يلحقه ضراعة وذلة . وقال الحسن أيضًا : هو الزقوم . وقيل : هو واد فى جهنم . وقد تقدم فى سورة الحاقة : ﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين ﴾ [الحاقة : ٣٥، ٣٦] : والغسلين غير الضريع كما تقدم . وجمع بين الآيتين بأن النار دركات . فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين . ثم وصف سبحانه الضريع فقال: **﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾** أى لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع . قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية ، قال المشركون: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت : **﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾** وكذبوا فى قولهم هذا ، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع .

ثم شرع سبحانه فى بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار ، فقال : **﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾** أى ذات نعمة وبهجة . وهى وجوه المؤمنين : صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم ، وما أعده الله لهم من الخير الذى يفوق الوصف . ومثله قوله : ﴿تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين : ٢٤] ثم قال : **﴿لسعيها راضية﴾** أى لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها . والمراد بالوجوه هنا : أصحابها ، كما تقدم . **﴿فى جنة عالية﴾** أى عالية المكان ، مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، أو عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . **﴿لا تسمع فيها لاغية﴾** قرأ الجمهور : **﴿لا تسمع﴾** بفتح الفوقية ونصب **﴿لاغية﴾** أى لا تسمع أنت أيها المخاطب ، أو لا تسمع تلك الوجوه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية مضمومة مبنيًا للمفعول ورفع **﴿لاغية﴾** وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنيًا للمفعول ، ورفع **﴿لاغية﴾** ، وقرأ الفضل والجحدرى

بفتح التحتية مبنًيا للفاعل ، ونصب ﴿لاغية﴾. واللغو: الكلام الساقط . قال الفراء والأخفش: أي لا تسمع فيها كلمة لغو . قيل : المراد بذلك : الكذب ، والبهتان ، والكفر . قاله قتادة . وقال مجاهد : أي الشتم . وقال الفراء : لا تسمع فيها حالفًا يحلف بكذب . وقال الكلبي : لا تسمع في الجنة حالفًا بيمين برة ولا فاجرة . وقال الفراء أيضًا : لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم . وهذا أرجح الأقوال ؛ لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم . ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص . و﴿ **لاغية** ﴾ إما صفة موصوف محذوف، أي كلمة لاغية أو نفس لاغية ، أو مصدر ، أي لا تسمع فيها لغوًا .

﴿ **فيها عين جارية** ﴾ قد تقدم في سورة الإنسان أن فيها عيونًا . والعين هنا بمعنى العيون كما في قوله ﴿علمت نفس﴾ [التكوير : ١٨] ومعنى ﴿ **جارية** ﴾ أنها تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة . قال الكلبي : لا أدري بماء أو بغيره . ﴿**فيها سرر مرفوعة**﴾ أي عالية مرتفعة السمك ، أو عالية القدر . ﴿**وأكواب موضوعة**﴾ قد تقدم أن الأكواب جمع كوب وأنه القدح الذي لا عروة له . ومعنى ﴿**موضوعة**﴾ : أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها . ﴿**ونمارق مصفوفة** ﴾ النمارق : الوسائد . قال الواحدي : في قول الجميع: واحدتها نُمرقة بضم النون . وزاد الفراء سماعًا عن العرب : نِمرقة بكسرها. قال الكلبي : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض ، ومنه قول الشاعر :

وإنا لنجري الكأس بين شروبنا　　　وبين أبي قابوس فوق النمارق

وقال الآخر :

كهول وشبان حسان وجوههم　　　على سرر مصفوفة ونمارق

قال في الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة ، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب . ﴿ **وزرابي مبثوثة** ﴾ يعني : البسط . واحدها زربي وزربية . قال أبو عبيدة والفراء: الزرابي : الطنافس التي لها خمل رقيق . واحدها زربية . والمبثوثة : المبسوطة ، قاله قتادة. وقال عكرمة : بعضها فوق بعض . قال الواحدي : ويجوز أن يكون المعنى : أنها مفرقة في المجالس . وبه قال القتيبي . وقال الفراء : معنى ﴿ **مبثوثة** ﴾ : كثيرة . والظاهر أن معنى البث : التفرق مع كثرة . ومنه : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره مما مر غير مرة . والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه. وكذا ما بعدها . و ﴿ **كيف** ﴾ منصوبة بما بعدها ، والجملة في محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل . والمعنى : أينكرون أمر البعث ، ويستبعدون وقوعه ؟! أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم، وأكثر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ **كيف خلقت** ﴾ على ما هي عليه من

الخلق البديع ، من عظم جثتها ، ومزيد قوتها ، وبديع أوصافها ؟ قال أبو عمرو بن العلاء : إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع ، تبرك فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم . قال الزجاج : نبههم على عظيم من خلقه ، قد ذلله للصغير يقوده ، وينيخه ، وينهضه ، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك فى شىء من الحوامل غيره. فأراهم عظيمًا من خلقه ليدل بذلك على توحيده . وسئل الحسن عن هذه الآية ، وقيل له : الفيل أعظم فى الأعجوبة؟ فقال : أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به . ثم هو خنزير لا يركب ظهره ، ولا يؤكل لحمه ، ولا يحلب دره . والإبل من أعز مال العرب وأنفسه ، تأكل النوى ، والقت، وتخرج اللبن . ويأخذ الصبى بزمامها ، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها. وقال المبرد : الإبل هنا : هى القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة . وروى عن الأصمعى أنه قال : من قرأ **﴿خلقت﴾** بالتخفيف ، عنى به البعير . ومن قرأ بالتشديد ، عنى به السحاب . **﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾** أى رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل . وقيل: رفعت فلا ينالها شىء . **﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾** على الأرض مرساة راسخة لا تميد، ولا تميل ، ولا تزول . **﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾** أى بسطت . والسطح : بسط الشىء. يقال لظهر البيت إذا كان مستويًا : سطح . قرأ الجمهور : **﴿ سطحت ﴾** مبنيًا للمفعول مخففًا . وقرأ الحسن بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب وابن السميفع ، وأبو العالية: «خلقت» و« رفعت » و« نصبت » و« سطحت » على البناء للفاعل ، وضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالتذكير فقال : **﴿ فذكر ﴾** . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى فعظهم يا محمد وخوفهم . ثم علل الأمر بالتذكير فقال : **﴿ إنما أنت مذكر﴾** أى ليس عليك إلا ذلك . و**﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾** المصيطر والمسيطر بالسين والصاد : المسلط على الشىء ليشرف عليه ويتعهد أحواله . كذا فى الصحاح ، أى لست عليهم بمصيطر حتى تكرههم على الإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . قرأ الجمهور: **﴿بمصيطر﴾** بالصاد . وقرأ هشام وقنبل فى رواية بالسين . وقرأ خلف بإشمام الصاد زايًا . وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول . **﴿ إلا من تولى وكفرّ﴾** هذا استثناء منقطع، أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . **﴿فيعذبه الله العذاب الأكبرّ ﴾** وهو عذاب جهنم الدائم. وقيل: هو استثناء متصل من قوله : **﴿فذكر﴾** أى فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه ، وتولى فاستحق العذاب الأكبر . والأول أولى . وإنما قال : **﴿ الأكبر﴾** لأنهم قد عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر . وقرأ ابن مسعود:« فإنه يعذبه الله » . وقرأ ابن عباس وقتادة : **﴿إلا من تولى وكفر﴾** على أنها « إلا » التى للتنبيه والاستفتاح . **﴿ إن إلينا إيابهم ﴾** أى رجوعهم بعد الموت . يقال : آب يؤوب: إذا رجع ، ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور : ﴿ **إيابهم** ﴾ بالتخفيف . وقرأ جعفر وشيبة بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . قال الواحدى: وأما « إيابهم » بتشديد الياء ، فإنه شاذ ، لم يجزه أحد غير الزجاج . ﴿ **ثم إن علينا حسابهم** ﴾ يعنى: جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث . و« ثم » للتراخى فى الرتبة لبعد منزلة الحساب فى الشدة عن منزلة الإياب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الغاشية من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ قال :الساعة . ﴿**وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة** ﴾ قال : تعمل وتنصب فى النار ﴿ **تسقى من عين آنية** ﴾ قال: هى التى قد طال أنيها . ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ قال : الشبرق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة** ﴾ قال : يعنى : اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها . ﴿ **تسقى من عين آنية** ﴾ قال: قد أنى غليانها . وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **تصلى نارا حامية** ﴾ قال : حارة . ﴿**تسقى من عين آنية** ﴾ قال: انتهى حرها ، ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ يقول : من شجر من نار. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضًا : ﴿ **إلا من ضريع** ﴾ قال: الشبرق اليابس .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ **لا تسمع فيها لاغية** ﴾ يقول: لا تسمع أذى ولا باطل. وفى قوله : ﴿**فيها سرر مرفوعة** ﴾ قال : بعضها فوق بعض . ﴿ **ونمارق** ﴾ قال : مجالس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **ونمارق** ﴾ قال: المرافق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **لست عليهم بمصيطر**﴾ قال : جبار . ﴿**إلا من تولى وكفر**﴾ قال : حسابه على الله . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضًا : ﴿**لست عليهم بمصيطر**﴾ ثم نسخ ذلك فقال : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة: ٥] وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **إن علينا إيابهم** ﴾ قال: مرجعهم .

تفسير سورة الفجر

هى ثلاثون آية . وقيل : تسع وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس ، والنحاس فى ناسخه ، وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والفجر﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله .وأخرج النسائى عن جابر قال: صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطول ، فصلى فى ناحية المسجد ، ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذ ، فقال : منافق. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى فطول علىّ ، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى ، فقال رسول اللّه ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ والفجر ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾» (١) .

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⑧ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭ ﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء ، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته . واختلف فى الفجر الذى أقسم الله به هنا ، فقيل : هو الوقت المعروف . وسمى فجرًا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم . وقال قتادة : إنه فجر أول يوم من شهر محرم ؛ لأن منه تتفجر السنة . وقال مجاهد : يريد يوم النحر . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة، لأن الله قرن الأيام به فقال: ﴿ وليال عشر ﴾ أى ليالى عشر من ذى الحجة . وبه قال السدى والكلبى. وقيل : المعنى : وصلاة الفجر ، أو رب الفجر . والأول أولى، وجواب هذا القسم وما بعده وهو قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ كذا قال ابن الأنبارى . وقيل : محذوف لدلالة السياق عليه ، أى ليجازين كل أحد بما عمل ، أو ليعذبن . وقدره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التى قبله ، أى ﴿ والفجر ... ﴾ إلخ لإيابهم علينا وحسابهم علينا . وهذا ضعيف جدًا . وأضعف منه قول من قال : إن الجواب قوله : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ . وأن هل بمعنى قد ؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسمًا عليه أبدًا . ﴿ وليال عشر ﴾ هى عشر ذى الحجة فى قول جمهور

(١) النسائى فى التفسير (٦٩٣) .

المفسرين . وقال الضحاك : إنها الأواخر من رمضان . وقيل : العشر الأول من محرم إلى عاشرها يوم عاشوراء . قرأ الجمهور : ﴿ **ليال** ﴾ بالتنوين و ﴿**عشر**﴾ صفة لها . وقرأ ابن عباس : « وليالى عشر » بالإضافة . قيل : والمراد : ليالى أيام عشر . وكان حقه على هذا أن يقال : عشرة لأن المعدود مذكر . وأجيب عنه : بأنه إذا حذف المعدود ، جاز الوجهان .

﴿ **والشفع والوتر**﴾ الشفع والوتر يعمان كل الأشياء شفعها ووترها . وقيل : شفع الليالى ووترها . وقال قتادة : الشفع والوتر : شفع الصلاة ووترها ؛ منها شفع ومنها وتر . وقيل : الشفع يوم عرفة ، ويوم النحر ، والوتر: ليلة يوم النحر. وقال مجاهد وعطية العوفى : الشفع: الخلق ، والوتر : الله الواحد الصمد . وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هى صلاة المغرب فيها ركعتان، والوتر الركعة. وقال الضحاك: الشفع عشر ذى الحجة ، والوتر: أيام منى الثلاثة. وبه قال عطاء . وقيل : هما آدم وحواء لأن آدم كان وتراً ، فشفع بحواء . وقيل : الشفع : درجات الجنة ، وهى ثمان ، والوتر : دركات النار ، وهى سبع . وبه قال الحسين بن الفضل. وقيل: الشفع : الصفا والمروة ، والوتر : الكعبة . وقال مقاتل : الشفع : الأيام والليالى ، والوتر: اليوم الذى لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضًا لقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . . ﴾ الآية [المجادلة : ٧] ، وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر: العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما . وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر : مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع حجج القرآن ، والوتر الإفراد . وقيل : الشفع : الحيوان لأنه ذكر وأنثى ، والوتر : الجماد . وقيل : الشفع : ما سمى ، والوتر : ما لا يسمى .

ولا يخفاك ما فى غالب هذه الأقوال من السقوط البين والضعف الظاهر ، والاتكال فى التعيين على مجرد الرأى الزائف ، والخاطر الخطأ . والذى ينبغى التعويل عليه ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر فى كلام العرب ، وهما معروفان واضحان . فالشفع عند العرب : الزوج ، والوتر: الفرد . فالمراد بالآية إما نفس العدد ، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. وإذا قام دليل على تعيين شىء من المعدودات فى تفسير هذه الآية ، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره ، فذاك . وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية ، لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره . قرأ الجمهور : ﴿ **والوتر** ﴾ بفتح الواو . وقرأ حمزة ، والكسائى ، وخلف بكسرها . وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وهما لغتان . والفتح لغة قريش وأهل الحجاز . والكسر لغة تميم . قال الأصمعى : كل فرد وتر. وأهل الحجاز يفتحون فيقولون : وتر فى الفرد . وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء . فيحتمل أن تكون لغة ثالثة . ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل

مجرى الوقف .

﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يسر** ﴾ بحذف الياء وصلاً ووافقا اتباعاً لرسم المصحف . وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها فى الوقف ، وإثباتها فى الوصل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها فى الوصل والوقف .

قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآى . قال الزجاج : والحذف أحب إلىَّ لأنها فاصلة ، والفواصل تحذف منها الياءات . قال الفراء : قد تحذف العرب الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كفاك كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَمًا جُودًا وأخرى تعط بالسَّيف دما

ما تليق : أى ما تمسك . قال المؤرج : سألت الأخفش عن العلة فى إسقاط الياء من ﴿ **يسر** ﴾ ، فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة . فبت على باب داره سنة ، فقال: الليل لا يسرى . وإنما يسرى فيه، فهو مصروف عن جهته ، وكل ما صرفته عن جهته ، بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ [مريم : ٢٨] ولم يقل : بغية ؛ لأنه صرفها من باغية . وفى كلام الأخفش هذا نظر . فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه . ولو صح ذلك للزم فى كل المجازات العقلية واللفظية ؛ واللازم باطل ، فالملزوم مثله . والأصل ههنا إثبات الياء ؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآى ، إجراء للفواصل مجرى القوافى . ومعنى﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ : إذا يمضى ، كقوله : ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ [المدثر : ٣٣] ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ [التكوير : ١٧] وقيل : معنى ﴿ **يسر** ﴾ : يسار فيه . كما يقال : ليل نائم ، ونهار صائم ،كما فى قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم

وبهذا قال الأخفش والقتيبى وغيرهما من أهل المعانى . وبالأول قال جمهور المفسرين . وقال قتادة وأبو العالية: ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ أى : جاء وأقبل . وقال النخعى : أى استوى . قال عكرمة وقتادة والكلبى ومحمد بن كعب : هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه . وقيل : ليلة القدر لسراية الرحمة فيها . والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون الأخرى . ﴿ **هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ ؟ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة . والإشارة بقوله :﴿ **ذلك** ﴾ إلى تلك الأمور ، والتذكير بتأويل المذكور ، أى هل فى ذلك المذكور من الأمور التى أقسمنا بها قسم ، أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار . ﴿ **لذى حجر** ﴾ أى عقل ولب . فمن كان ذا

عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به . ومثل هذا قوله: ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة : ٧٦] . قال الحسن : ﴿ **لذى حجر** ﴾ أى لذى حلم . وقال أبو مالك : لذى ستر من الناس . وقال الجمهور : الحجر : العقل . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد لذى عقل ، ولذى حلم ، ولذى ستر . والكل بمعنى العقل . وأصل الحجر : المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حجر . ومنه سمى الحجر لامتناعة بصلابته . ومنه : حجر الحاكم على فلان ، أى منعه . قال : والعرب تقول : « إنه لذو حجر » إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها .

ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل ، تحذيرا للكفار فى عصر نبينا ﷺ . وتخويفًا لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **عاد** ﴾ على أن يكون ﴿ **إرم** ﴾ عطف بيان لعاد . والمراد بعاد : اسم أبيهم . وإرم اسم القبيلة أو بدلاً منه. وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث .وقيل: المراد بعاد: أولاد عاد، وهم عاد الأولى . ويقال لمن بعدهم : عاد الأخرى . فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أوالبدل للدلالة على أنهم عاد الأولى ، لا عاد الأخرى . ولابد من تقدير مضاف على كلا القولين ، أى أهل إرم ، أوسبط إرم . فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح . وقرأ الحسن وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم . وقرأ الجمهور ﴿ **إرم** ﴾ بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ، وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : «أَرَم » بفتح الهمزة والراء . وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفًا . وقرأ بإضافة « إرم » إلى « ذات العماد » . قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة ، شبههم بالإرم التى هى الأعلام . وإحداها إرم . وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى والفجر ، وكذا وكذا ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .﴿ **ألم تر** ﴾ أى ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد . وهذه الرؤيا رؤية القلب . والخطاب للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له . وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون . وقال مجاهد أيضًا : إرم أمة من الأمم . وقال قتادة : هى قبيلة من عاد . وقيل : هما عادان . فالأولى هى إرم . ومنه قول قيس بن الرقيات :

مجدًا تليدًا بناه أولهم   أدرك عادا وقبله إرم

قال معمر : إرم إليه مجتمع عاد وثمود . وكان يقال : عاد إرم وعاد ثمود . وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم. قال أبو عبيدة : هما عادان . فالأولى إرم. ومعنى ﴿ **ذات العماد** ﴾ : ذات القوة والشدة ، مأخوذة من قوة الأعمدة ، كما قال الضحاك . وقال قتادة ومجاهد : إنهم كانوا أهل عمد سيارة فى الربيع . فإذا هاج النبت ، رجعوا إلى منازلهم . وقال مقاتل : ذات

العماد :يعنى طولهم .كان طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعًا . ويقال : رجل طويل العماد ، أى القامة .

قال أبو عبيدة : ذات العماد : ذات الطول . يقال : رجل معمد : إذا كان طويلاً . وقال مجاهد وقتادة أيضًا : كان عمادًا لقومهم . يقال : فلان عميد القوم وعمودهم ، أى سيدهم . وقال ابن زيد : ذات العماد : يعنى إحكام البنيان بالعمد . قال فى الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث ، قال عمرو بن كلثوم :

ونحنُ إِذَا عِمَادُ الحىِّ خَرَّت على الأحْفاض نمنعُ مَنْ يَلِينا

وقال عكرمة وسعيد المقبرى : هى دمشق . ورواه ابن وهب ، وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب : هى الإسكندرية . ﴿ **التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ هذه صفة لعاد ، أى لم يخلق مثل تلك القبيلة فى الطول والشدة والقوة ، وهم الذين قالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : ١٥] أو صفة للقرية على قول من قال : إن إرم اسم لقريتهم ، أو للأرض التى كانوا فيها ، والأول أولى ، ويدل عليه قراءة أبىٍّ: ﴿ **التى لم يخلق مثلهم فى البلاد** ﴾.وقيل : الإرم : الهلاك . قال الضحاك :﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ أى أهلكهم فجعلهم رميمًا . وبه قال شهر بن حوشب . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة ، قصورها ، ودورها، وبساتينها ، وأن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ، ولا فيها ساكن من بنى آدم ، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع ، فتارة تكون باليمن ، وتارة تكون بالشام ، وتارة تكون بالعراق ، وتارة تكون بسائر البلاد . وهذا كذب بحت لا يتفق على من له أدنى تميز . وزاد الثعلبى فى تفسيره فقال : إن عبد اللّه بن قلابة فى زمان معاوية دخل هذه المدينة . وهذا كذب على كذب ، وافتراء على افتراء . وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء ، وفاقرة عظمى ، ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذى يجترئون على الكذب ، تارة على بنى إسرائيل ، وتارة على الأنبياء ، وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين . وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز ، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة فى تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا . ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الذى سميته « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » .

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة ، وهى ثمود على قبيلة عاد فقال : ﴿ **وثمود الذين جابوا**

الصخر بالواد ﴾ وهم قوم صالح ، سموا باسم جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . ومعنى **﴿ جابوا الصخر ﴾** : قطعوه. والجواب القطع . ومنه جاب البلاد : إذا قطعها . ومنه سمي جيب القميص لأنه جيبَ ، أى قطع . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور ثمود ، فبنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . ومنه قوله سبحانه: ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين [(١)](#)﴾ [الشعراء : ١٤٩] ،وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ، ويجعلون تلك الأنقاب بيوتًا يسكنون فيها . وقوله : **﴿ بالواد ﴾** متعلق بـ **﴿ جابوا ﴾** ، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادى القرى . قرأ الجمهور: **﴿ ثمود ﴾** بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ، ففيه التأنيث والتعريف . وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها . وقرأ الجمهور أيضًا بالواد بحذف الياء وصلاً ووقفًا اتباعًا لرسم المصحف . وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما . وقرأ قنبل فى رواية بإثباتها فى الوصل دون الوقف .

﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ أى ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد . أو جعل الجنود أنفسهم أوتادًا لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام . وقيل : كان له أوتاد يعذب الناس بها ، ويشدهم إليها . وقد تقدم بيان هذا فى سورة ص . **﴿ الذين طغوا فى البلاد ﴾** الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون، أى طغت كل طائفة منهم فى بلادهم وتمردت وعتت . والطغيان : مجاوزة الحد . **﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾** بالكفر ومعاصى الله والجور على عباده . ويجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين طغوا ، أو فى محل نصب على الذم . **﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾** أى أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب ، وهو ما عذبهم به . قال الزجاج : جعل سوطه الذى ضربهم به العذاب . يقال : صب على فلان خلعة ، أى ألقاها عليه . ومنه قول النابغة :

فصب الله عليه أحسن صبغة ... وكان له بين البرية ناصر [(٢)](#)

ومنه قول الآخر :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصب على الكفار سوط عذاب

ومعنى **﴿ سوط عذاب ﴾**: نصيب عذاب . وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم فى الآخرة كالسوط ، إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وقيل : ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم، وكان السوط عندهم هو نهاية

---

(١) فى المخطوطة : « آمنين » وهو خطأ .

(٢) هكذا فى الأصل ، وصحتها : « ناصراً » ، والبيت من قصيدة للنابغة مطلعها :

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً ... وهمين .. هما مستكنا وظاهرا

ما يعذب به . قال الفراء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم من قولهم : ساطه يسوطه سوطًا ، أى خلطه . فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض . ومنه قول كعب بن زهير :

لكنها خلة قد سيط من دمها   فجع وولع وإخلاف وتبديل

وقال الآخر :

أحارث إنا لو تساط دماؤنا   تزايلن حتى لا يمس دم دما

وقال آخر :

فسطها ذميم الرأى غير موفق   فلست على تسويطها بمعان

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قد قدمنا قول من قال : إن هذا جواب القسم . والأولى أن الجواب محذوف ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها . وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه ﷺ سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار . ومعنى ﴿ بالمرصاد ﴾ : أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيرًا وبالشر شرًا . قال الحسن وعكرمة : أى عليه طريق العباد لا يفوته أحد . والرصد والمرصاد : الطريق . وقد تقدم بيانه فى سورة براءة ، وتقدم أيضًا عند قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصادًا ﴾ [النبأ : ٢١] .

وقد أخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : فجر النهار . وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقى فى الشعب ، وابن عساكر عنه أيضًا فى قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : هو المحرم فجر السنة . وقد ورد فى فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، لا مطابقة ولا تضامنًا ولا التزامًا . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن جابر؛أن النبى ﷺ قال : ﴿ والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر ﴾ قال:« إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » . وفى لفظ : « هى ليالى من ذى الحجة » [(١)] . وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله ؛ أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، فدعاهم ابن عمر إلى العشاء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالى العشر التى ذكرها الله فى القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك . قال : بلى فاشكك . وقد ورد فى فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما فى القرآن هنا بوجه من

(١) أحمد ٣ / ٣٢٧ والنسائى فى التفسير (٦٩١ ، ٦٩٢) وابن جرير٣٠/١٠٨ وصححه الحاكم ٤/ ٢٢٠ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٤٦٨) ورجاله موثقون .

الوجوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وليال عشر** ﴾ قال : هى العشر الأواخر من رمضان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وصححه ، وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن النبىّ ﷺ سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هى الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر» (١) . وفى إسناده رجل مجهول . وهو الراوى له عن عمران بن حصين . وقد روى عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول . وقال الترمذى بعد إخراجه بالإسناد الذى فيه الرجل المجهول : هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة . قال ابن كثير : وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه . والله أعلم. قال: ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر . وقد روى هذا الحديث موقوفًا على عمران بن حصين عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . فهذا يقوى ما قاله ابن كثير .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ فقال : كل شىء شفع ، فهو اثنان . والوتر واحد . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ـ قال السيوطى : بسند ضعيف ـ عن أبى أيوب عن النبى ﷺ ؛ أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : « يومان وليلة ، يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » . وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع : اليومان ، والوتر : اليوم الثالث » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد ابن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الزبير ؛ أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع : قول الله : ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ﴾ [البقرة : ٢٠٣] والوتر : اليوم الثالث. وفى لفظ : الوتر أوسط أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : الشفع : يوم النحر ، والوتر: يوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ ، قال: إذا ذهب. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿ **والفجر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إذا يسر** ﴾ ، قال : هذا قسم على ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قسم لذى حجر**﴾ قال : لذى حجى وعقل ونهى . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **بعاد . إرم** ﴾ ، يعنى بالإرم : الهالك . ألا ترى أنك تقول : أرم بنو فلان . ﴿ **ذات العماد** ﴾ يعنى: طولهم مثل العماد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معدى كرب عن النبىّ ﷺ ؛أنه ذكر ﴿ **إرم**

---

(١) أحمد ٤/٤٣٨ والترمذى فى التفسير (٣٣٤٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ١٠٩/٣٠ .
(٢) ابن جرير ١٠٨/٣٠ .

ذات العماد ﴾ فقال : « كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة فيحملها على كاهله ، فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم ». وفي إسناده رجل مجهول ؛ لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدثه عن المقدام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **جابوا الصخر بالواد**﴾ قال: خرقوها. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا . ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد** ﴾ قال : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **ذي الأوتاد** ﴾ قال : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد**﴾ قال : يسمع ويرى . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ قال : من وراء الصراط جسور ، جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرحم ، وجسر عليه الرب عز وجل .

﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ، ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وأن مطمع أنظارهم ، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه** ﴾ أي امتحنه واختبره بالنعم ﴿ **فأكرمه ونعمه** ﴾ أي أكرمه بالمال ، ووسع عليه رزقه ﴿ **فيقول ربي أكرمن** ﴾ فرحًا بما نال ، وسرورًا بما أعطى غير شاكر لله على ذلك ، ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله ، وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها . و « ما » في قوله : ﴿ **إذا ما** ﴾ زائدة . وقوله : ﴿ **فأكرمه ونعمه** ﴾ تفسير للابتلاء . ومعنى ﴿ **أكرمن** ﴾ أي فضلني بما أعطاني من المال ، وأسبغه عليَّ من النعم لمزيد استحقاقي لذلك ، وكوني موضعًا له ، والإنسان مبتدأ ،وخبره :﴿ **فيقول ربي أكرمن** ﴾. ودخلت الفاء فيه لتضمن إما معنى الشرط . والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر ، وإن تقدم

لفظًا ، فهو مؤخر فى المعنى. أى فأما الإنسان فيقول: ربى أكرمنى وقت ،ابتلائه بالإنعام. قال الكلبى : الإنسان هو الكافر أُبى بن خلف . وقال مقاتل : نزلت فى أمية بن خلف . وقيل : نزلت فى عتبة بن ربيعة وأبى حذيفة بن المغيرة .

﴿ **وأما إذا ما ابتلاه** ﴾ أى اختبره وعامله معاملة من يختبره ﴿ **فقدر عليه رزقه** ﴾ أى ضيقه ولم يوسعه له، ولا بسط له فيه . ﴿ **فيقول ربى أهانن** ﴾ أى أولانى هوانًا . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا ، والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة ، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير ، وما أصيب به من الشر فى الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء . قرأ نافع بإثبات الياء فى ﴿ **أكرمن** ﴾ و ﴿ **أهانن** ﴾ وصلاً ، وحذفهما وقفًا . وقرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه ، وابن محيصن ، ويعقوب بإثباتهما وصلاً ووقفًا . وقرأ الباقون بحذفهما فى الوصل والوقف اتباعًا لرسم المصحف ، ولموافقة رؤوس الآى . والأصل إثباتها ، لأنها اسم . ومن الحذف قول الشاعر :

ومن كاشح ظاهر غمره   إذا ما انتصبت له أنكرن

أى : أنكرنى . وقرأ الجمهور : ﴿ **فقدر** ﴾ بالتخفيف . وقرأ ابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان . وقرأ الحرميان، وأبو عمرو : « ربى » بفتح الياء فى الموضعين ، وأسكنها الباقون . وقوله : ﴿ **كلا** ﴾ ردع للإنسان القائل فى الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويبسط النعم للإنسان ، لا لكرامته ، ويضيقه عليه ، لا لإهانته ، بل للاختبار والامتحان كما تقدم . قال الفراء : كلا فى هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال : ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ ، والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحتية على الخبر . وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور ﴿ **تحاضون** ﴾ ، و ﴿ **تأكلون** ﴾ و ﴿ **تحبون** ﴾ بالفوقية على الخطاب فيها . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحتية فيها .والجمع فى هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان لأن المراد به الجنس، أى بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر ، وهى أنكم تتركون إكرام اليتيم ، فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم . قال مقاتل : نزلت فى قدامة بن مظعون ، وكان يتيمًا فى حجر أمية بن

خلف . ﴿ **ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ قرأ الجمهور « تحضون » من حضه على كذا ، أى أغراه به ، ومفعوله محذوف ، أى لا تحضون أنفسكم. أولا يحض بعضكم بعضًا على ذلك ، ولا يأمر به ، ولا يرشد إليه . وقرأ الكوفيون ﴿**تحاضون**﴾ بفتح التاء والحاء بعدها ألف ، وأصله تتحاضون ، فحذف إحدى التاءين . أى لا يحض بعضكم بعضًا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه ، والسلمى : « تحاضون » بضم التاء من الحض ، وهو الحث . وقوله : ﴿ **على طعام المسكين** ﴾ متعلق بـ ﴿ **تحاضون** ﴾ . وهو إما اسم مصدر ، أى على إطعام المسكين ، أو اسم للمطعوم ، ويكون على حذف مضاف ، أى على بذل طعام المسكين ، أو على إعطاء طعام المسكين ، ﴿ **وتأكلون التراث** ﴾ أصله الوراث ، فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما فى تجاه ووجاه . والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم . وكذلك أموال النساء . وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أموالهم أكلاً لما ، أى أكلاً شديدًا . وقيل : معنى ﴿ **لما** ﴾ جمعًا من قولهم: لممت الطعام: إذا أكلته جميعًا. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم . وكذا قال أبو عبيدة . وأصل اللم فى كلام العرب: الجمع. يقال لممت الشىء ألُمه لما جمعته . ومنه قولهم: لمَّ الله شعثه ، أى جمع ما تفرق من أموره . ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخًا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

قال الليث : اللم : الجمع الشديد . ومنه حجر ملموم ، وكتيبة ملومة . وللآكل يلم الثريد ، فيجمعه ثم يأكله . وقال مجاهد : يسفه سفًا . وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ، ألمّ بمال غيره فأكله ، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب . ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾ أى حبًا كثيرًا . والجم : الكثير ، يقال : جم الماء فى الحوض إذا كثر واجتمع . والجمة : المكان الذى يجتمع فيه الماء .

ثم كرر سبحانه الردع لهم ،والزجر فقال:﴿ **كلا** ﴾ أى ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم . ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿ **إذا دكت الأرض دكا دكا** ﴾، وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر . والدك: الكسر والدق . والمعنى هنا : إنها زلزلت وحركت تحريكًا بعد تحريك . قال ابن قتيبة: دكت جبالها حتى استوت. قال الزجاج : أى تزلزلت ، فدك بعضها بعضًا . قال المبرد: أى بسطت وذهب ارتفاعها . قال : والدك : حط المرتفع بالبسط . وقد تقدم الكلام على الدك فى سورة الأعراف ، وفى سورة الحاقة ، والمعنى : أنها دكت مرة بعد أخرى . وانتصاب ﴿**دكا**﴾ الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل . و﴿ **دكا** ﴾ الثانى تأكيد للأول . كذا قال ابن عصفور ، ويجوز أن يكون النصب على الحال ، أى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة كما يقال: علمته الحساب بابًا بابا ، وعلمته الخط حرفًا حرفا . والمعنى : أنه كرر الدك عليها حتى صارت هباء منبثًا .

﴿ **وجاء ربك** ﴾ أى جاء أمره وقضاؤه ، وظهرت آياته . وقيل : المعنى : أنها زالت الشُبَهُ فى ذلك اليوم ، وظهرت المعارف ، وصارت ضرورية ، كما يزول الشك عند مجىء الشىء الذى كان يشك فيه . وقيل : جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئًا من ذلك . ﴿ **والملك صفا صفا** ﴾ انتصاب ﴿ **صفًا صفا** ﴾ على الحال ، أى مصطفين ، أو ذوى صفوف . قال عطاء : يريد صفوف الملائكة . وأهل كل سماء صف على حدة . قال الضحاك : أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض ومن فيها ، فيكونون سبعة صفوف . ﴿ **وجىء يومئذ بجهنم** ﴾ ﴿ **يومئذ** ﴾ منصوب بـ ﴿**جىء** ﴾ والقائم مقام الفاعل ﴿ **بجهنم** ﴾.وجوز مكى أن يكون ﴿**يومئذ**﴾ هو القائم مقام الفاعل ، وليس بذاك . قال الواحدى : قال جماعة من المفسرين : جىء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا لركبتيه ، يقول : يارب ، نفسى نفسى . وسيأتى الذى هذا نَقْلُه عن جماعة المفسرين مرفوعًا إلى رسول الله إن شاء الله .

﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان** ﴾ : ﴿ **يومئذ** ﴾ هذا بدل من ﴿ **يومئذ** ﴾ الذى قبله، أى : يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان، أى: يتعظ . ويذكر ما فرط منه ، ويندم على ما قدمه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . وقيل : إن قوله يومئذ الثانى بدل من قوله : ﴿ **إذا دكت** ﴾ ، والعامل فيهما هو قوله : ﴿ **يتذكر الإنسان** ﴾ . ﴿ **وأنى له الذكرى** ﴾ أى ومن أين له التذكر والاتعاظ. وقيل : هو على حذف مضاف أى ومن أين له منفعة الذكرى . قال الزجاج : يظهر التوبة ، ومن أين له التوبة . ﴿ **يقول ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا يقول الإنسان ؟ ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله : ﴿ **يتذكر** ﴾ . والمعنى: يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح . واللام فى ﴿**لحياتى** ﴾ بمعنى : لأجل حياتى . والمراد : حياة الآخرة ، فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة . وقيل : إن اللام بمعنى « فى» . والمراد حياة الدنيا ، أى يا ليتنى قدمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا ،أنتفع بها هذا اليوم . والأول أولى . قال الحسن : علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد** ﴾ أى يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ، ﴿**ولا يوثق** ﴾ كـ ﴿ **وثاقه أحد** ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه ، إذ الأمر كله له . والضميران على التقديرين فى عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور ﴿ **يعذب** ﴾ و ﴿ **يوثق** ﴾ مبنيين للفاعل . وقرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما ، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أى لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد . والمراد بالإنسان الكافر ، أى لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر . وقيل : إبليس . وقيل : المراد به أبى بن خلف . قال الفراء : المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر

المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ، لتناهيه فى الكفر والعناد . وقيل : المعنى : أنه لا يعذب مكانه أحد ، ولا يوثق مكانه أحد ، فلا تؤخذ منه فدية . وهو كقوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ،والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى التوثيق . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسائى . قال : وتكون الهاء فى الموضعين ضمير الكافر ، لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . قال أبو على الفارسى : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ، أى لا يعذب أحد أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ، ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة** ﴾ المطمئنة هى : الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله ، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك ولا يعتريها ريب . قال الحسن هى المؤمنة الموقنة . وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله ، التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : هى الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان : المطمئنة بذكر الله . وقيل : المخلصة . قال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث . ﴿ **ارجعى إلى ربك**﴾ أى ارجعى إلى الله ﴿ **راضية** ﴾ بالثواب الذى أعطاك . ﴿ **مرضية** ﴾ عنده . وقيل : ارجعى إلى موعده ، وقيل : إلى أمره . وقال عكرمة وعطاء : معنى ﴿ **ارجعى إلى ربك** ﴾ : إلى جسدك الذى كنت فيه ، واختاره ابن جرير . ويدل على هذا قراءة ابن عباس : « فادخلى فى عبدى » بالإفراد . والأول أولى . ﴿ **فادخلى فى عبادى** ﴾ أى فى زمرة عبادى الصالحين ، وكونى من جملتهم ، وانتظمى فى سلكهم .﴿ **وادخلى جنتى** ﴾ معهم . قيل : إنه يقال لها : ارجعى إلى ربك عند خروجها من الدنيا . ويقال لها : ادخلى فى عبادى وادخلى جنتى يوم القيامة . والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم ، ولا ينافى ذلك نزولها فى نفس معينة . فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أكلاً لما** ﴾ قال : سفا . وفى قوله : ﴿ **حبا جما** ﴾ قال : شديدًا . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿**أكلا لما** ﴾ قال: شديدًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **إذا دكت الأرض دكا دكا** ﴾ ، قال : تحريكها . وأخرج مسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وأنى له الذكرى** ﴾ يقول : وكيف له . وأخرج ابن أبى حاتم فى

(١) مسلم فى الجنة (٢٩/٢٨٤٢) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٧٣) وابن جرير ٣٠/ ١٢٠ .

قوله :﴿فيومئذ لا يعذب ... ﴾ الآية قال : لا يعذب بعذاب الله أحد ، ولا يوثق بوثاقه الله أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضًا فى قوله : ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : المؤمنة ﴿ ارجعى إلى ربك ﴾ يقول : إلى جسدك . قال : نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا ، فقال :« أما أنه سيقال لك هذا » [١] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول نحوه عن أبى بكر الصديق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : هو النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : النفس المطمئنة : المصدقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا فى الآية قال : ترد الأرواح يوم القيامة فى الأجساد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ ارجعى إلى ربك راضية ﴾ قال: بما أعطيت من الثواب ﴿ مرضية ﴾ عنها بعملها . ﴿ فادخلى فى عبادى ﴾ المؤمنين . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه . فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندرى من تلاها : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى ﴾ . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عكرمة مثله .

---

(١) قال ابن كثير ٧/ ٢٩٠ : « حديث مرسل حسن » .

تفسير سورة البلد

ويقال :سورة ﴿ **لا أقسم** ﴾ . هى عشرون آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠)﴾ .

قوله : ﴿ **لا أقسم** ﴾ « لا » زائدة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد . وقد تقدم الكلام على هذا فى تفسير ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة : ١] ، ومن زيادة « لا » فى الكلام فى غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة   وكاد صميم القلب لا يتصدع

أى يتصدع . ومن ذلك قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] أى أن تسجد . قال الواحدى: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام ، وهو مكة . قرأ الجمهور : ﴿ **لا أقسم** ﴾ ، وقرأ الحسن والأعمش: « لأقسم » من غير ألف . وقيل : هو نفى للقسم . والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . وقال مجاهد : إن «لا » رد على من أنكر البعث ، ثم ابتدأ فقال : أقسم . والمعنى : ليس الأمر كما تحسبون . والأول أولى . والمعنى : أقسم بالبلد الحرام الذى أنت حل فيه . وقال الواسطى : إن المراد بالبلد : المدينة . وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية . وجملة قوله : ﴿ **وأنت حل بهذا البلد** ﴾ معترضة . والمعنى : أقسم بهذا البلد ﴿**ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ واعترض بينهما بهذه الجملة . والمعنى : ومن المكابد أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم .

وقال الواحدى : الحل والحلال والمحل واحد . وهو ضد المحرم . أحل اللّه لنبيه ﷺ مكة

يوم الفتح حتى قاتل . وقد قال ﷺ : « لم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » [(١)] . قال : والمعنى أن اللّه لما ذكر القسم بمكة ، دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً ، وعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها، ويفتحها على يده ، فهذا وعد من اللّه تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً . انتهى . فالمعنى : وأنت حل بهذا البلد فى المستقبل ، كما فى قوله:﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . قال مجاهد : المعنى : ما صنعت فيه من شىء فأنت حل . قال قتادة : أنت حل به لست بآثم ، يعنى : أنك غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصى . وقيل : المعنى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حال به ، ومقيم فيه وهو محلك . فعلى القول بأن « لا » نافية غير زائدة يكون المعنى : لا أقسم به وأنت حال به. فأنت أحق بالإقسام بك . وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الذى أنت مقيم به تشريفا لك وتعظيماً لقدرك ، لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم . ولكن هذا إذا تقرر فى لغة العرب أن لفظ « حل » يجىء بمعنى حال ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال .

﴿ **ووالد وما ولد** ﴾ عطف على البلد . قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح : ﴿ **ووالد** ﴾ أى آدم ﴿**وما ولد** ﴾ أى وما تناسل من ولده ، أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق اللّه على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون . وقال أبو عمران الجونى : الوالد : إبراهيم . وما ولد : ذريته . قال الفراء : إن « ما » عبارة عن الناس ، كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ [النساء : ٣] . وقيل : الوالد : إبراهيم ، والولد: إسماعيل ومحمد ﷺ . وقال عكرمة وسعيد بن جبير : ﴿ **ووالد** ﴾ يعنى : الذى يولد له ﴿**وما ولد** ﴾ يعنى : العاقر الذى لا يولد له . وكأنهما جعلا « ما » نافية . وهو بعيد . ولا يصح ذلك إلا بإضمار موصول ، أى ووالد والذى ما ولد . ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين. وقال عطية العوفى : هو عام فى كل والد ومولود من جميع الحيوانات . واختار هذا ابن جرير . ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ هذا جواب القسم . والإنسان هو هذا النوع الإنسانى. والكبد : الشدة والمشقة . يقال : كابدت الأمر : قاسيت شدته . والإنسان لا يزال فى مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت . وأصل الكبد : الشدة . ومنه تكبد اللبن : إذا غلظ واشتد . يقال : كبد الرجل : إذا وجعت كبده . ثم استعمل فى كل شدة ومشقة ، ومنه قول أبى الأصبغ :

لى ابن عم لو أن الناس فى كبد لظل محتجرا بالنبل يرمينى

قال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة ،وقال أيضا :يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء . لا يخلو عن أحدهما . قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح ، يقال له : أبوالأشدين . وكان يأخذ الأديم العكاظى ، ويجعله تحت رجليه

(١) البخارى فى المغازى (٤٣١٣) عن مجاهد .

ويقول : من أزالنى عنه فله كذا . فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبى ﷺ . وفيه نزل : ﴿ **أيحسب أن لن يقدر عليه أحد** ﴾ يعنى : لقوته . ويكون معنى ﴿**فى كبد** ﴾ على هذا فى شدة خلق . وقيل : معنى ﴿ **فى كبد** ﴾ : أنه جرىء القلب ، غليظ الكبد . ﴿ **أيحسب أن لن يقدر عليه أحد** ﴾ أى يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد ، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ **يقول أهلكت مالاً لبداً** ﴾ أى كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض . قال الليث : مال لبد : لا يخاف فناؤه من كثرته. قال الكلبى ومقاتل : يقول : أهلكت فى عداوة محمد مالاً كثيراً . وقال مقاتل: نزلت فى الحارث بن عامر ابن نوفل ، أذنب فاستفتى النبى ﷺ فأمره أن يكفِّر فقال : لقد ذهب مالى فى الكفارات والنفقات منذ دخلت فى دين محمد . قرأ الجمهور : ﴿ **لبدا** ﴾ بضم اللام وفتح الباء مخففا . وقرأ مجاهد وحميد بضم اللام والباء مخففا . وقرأ أبو جعفر بضم اللام وفتح الباء مشددا . قال أبو عبيدة: لبد فعل من التلبيد ، وهو المال الكثير بعضه على بعض . قال الزجاج : فعل للكثرة . يقال : رجل حطم : إذا كان كثير الحطم . قال الفراء : واحدته لبدة ، والجمع لبد . وقد تقدم بيان هذا فى سورة الجن . ﴿ **أيحسب أن لم يره أحد** ﴾ أى أيظن أنه لم يعاينه أحد . قال قتادة : أيظن أن اللّه سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟ وقال الكلبى : كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال اللّه : أيظن أن اللّه لم ير ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال : ﴿ **ألم نجعل له عينين** ﴾ يبصر بهما ﴿**ولسانا** ﴾ ينطق به ﴿**وشفتين**﴾ يستر بهما ثغره . قال الزجاج : المعنى : ألم نفعل به ما يدل على أن اللّه قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام ، وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة . ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ النجد : الطريق فى ارتفاع . قال المفسرون : بينا له طريق الخير ، وطريق الشر . قال الزجاج : المعنى : ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبين الطريقين العاليتين . وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك : النجدان : الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه . والأول أولى . وأصل النجد : المكان المرتفع ، وجمعه نجود . ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة . فالنجدان : الطريقان العاليان . ومنه قول امرئ القيس :

فريقان منهم قاطع بطن نخلة ... وآخر منهم قاطع نجد كبكب

﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾ الاقتحام :الرمى بالنفس فى شىء من غير روية ، يقال منه :قحم فى الأرض قحوما ، أى رمى بنفسه فيه من غير روية . وتقحيم النفس فى الشىء : إدخالها فيه من غير روية . والقحمة بالضم : المهلكة . والعقبة فى الأصل الطريق التى فى الجبل ، سميت

بذلك لصعوبة سلوكها . وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر ، فجعله كالذى يتكلف صعود العقبة . قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا « لا » مرة واحدة . والعرب لا تكاد تفرد « لا » مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدوها فى كلام آخر كقوله : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : ٣١] وإنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله : ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا** ﴾ قائماً مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن . قال المبرد وأبو على الفارسى : إن « لا » هنا بمعنى لم ، أى فلم يقتحم العقبة . وروى نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، ومنه قول زهير :

وكان طوى كشحاً على مستكنة　　　فلا هو أبداها ولم يتقدم

أى فلم يبدها ولم يتقدم . وقيل: هوجارى مجرى الدعاء كقولهم : لا نجاء . قال أبو زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذى بمعنى الإنكار . تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة . ثم بين سبحانه العقبة فقال : ﴿ **وما أدراك ما العقبة** ﴾ أى أىّ شىء أعلمك ما اقتحامها . ﴿ **فك رقبة** ﴾ أى هى إعتاق رقبة وتخليصها من أسار الرق. وكل شىء أطلقته ، فقد فككته . ومنه فك الرهن ، وفك الكتاب . فقد بين سبحانه أن العقبة هى هذه القرب المذكورة التى تكون بها النجاة من النار . قال الحسن وقتادة : هى عقبة شديدة فى النار ، دون الجسر ، فاقتحموها بطاعة اللّه .وقال مجاهد والضحاك والكلبى : هى الصراط الذى يضرب على جهنم كحد السيف . وقال كعب : هى نار دون الجسر . قيل : وفى الكلام حذف ، أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائى : « فكَّ رقبةً » على أنه فعل ماضى ، ونصب رقبة على المفعولية. وهكذا قرآ : « أو أطعم » على أنه فعل ماضى . وقرأ الباقون : « فك أو إطعام » على أنهما مصدران ، وجر رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل : فلا فك ولا أطعم . والفك فى الأصل : حل القيد ، سمى العتق فكاً لأن الرق كالقيد . وسمى المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته . ﴿ **أو إطعام فى يوم ذى مسغبة** ﴾ والمسغبة : المجاعة، والسغب : الجوع . والساغب : الجائع. قال الراغب : يقال منه : سغب الرجل سغباً وسغوباً ، فهو ساغب وسغبان . والمسغبة : مفعلة منه . وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت حراً يابن قيس بن عاصم　　　لما بت شبعاناً وجارك ساغباً

قال النخعى : ﴿ **فى يوم ذى مسغبة** ﴾ : أى عزيز فيه الطعام . ﴿ **يتيماً ذا مقربة** ﴾ أى قرابة. يقال : فلان ذو قرابتى وذو مقربتى . واليتيم فى الأصل : الضعيف . يقال : يتم الرجل : إذا ضعف . واليتيم عند أهل اللغة : من لا أب له. وقيل : هو من لا أب له ولا أم. ومنه قول قيس بن الملوح :

إلى اللّه أشكو فقد ليلى كما شكا　　　إلى اللّه فقد الوالدين يتيم

﴿ أو مسكيناً ذا متربة﴾أى لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره وليس له مأوى إلا التراب، يقال : ترب الرجل يترب ترباً ومتربة : إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضراً . قال مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة: هو ذو العيال . وقال عكرمة : هو المديون . وقال أبو سنان : هو ذو الزمانة . وقال ابن جبير: هو الذى ليس له أحد . وقال عكرمة : هو البعيد التربة ، الغريب عن وطنه . والأول أولى ، ومنه قول الهذلى:

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قرأ الجمهور : ﴿ ذى مسغبة ﴾ على أنه صفة ليوم . و « يتيماً » هو مفعول إطعام . وقرأ الحسن : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول إطعام ، أى يطعمون ذا مسغبة ويتيماً بدل منه. ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ عطف على المنفى بلا . وجاء بثم للدلالة على تراضى رتبة الإيمان، ورفعة محله . وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان . وقيل : المعنى : ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم . وقيل : المعنى : أنه أتى بهذه القرب لوجه الله . ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ أى أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أى بالرحمة على عباد الله ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها . والإشارة بقوله :﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة ﴿هم أصحاب الميمنة ﴾ أى أصحاب جهة اليمين ، أو أصحاب اليُمن . أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم . وقيل غير ذلك مما قد قدمنا ذكره فى سورة الواقعة . ﴿والذين كفروا بآياتنا ﴾ أى بالقرآن أو بما هو أعم منه ، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التى تدل على الصانع سبحانه ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أى أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم . أوالذين يعطون كتبهم بشمالهم ، أو غير ذلك مما تقدم . ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى مطبقة مغلقة ، يقال : أصدت الباب وأوصدته : إذا أغلقته وأطبقته ، ومنه قول الشاعر :

تحـن إلى أجبـال مكـة ناقـتى ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

قرأ الجمهور : « موصدة » بالواو . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وحفص بالهمزة مكان الواو. وهما لغتان . والمعنى واحد.

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال: مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ يعنى بذلك : النبى ﷺ : أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيى من شاء . فقتل له يومئذ ابن خَطَل صَبْراً ، وهو آخذ بأستار الكعبة ، فلم يحل لأحد من الناس بعد النبى ﷺ أن يفعل فيها حراماً حرمه الله ، فأحل الله له ما صنع بأهل مكة [1] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿لا أقسم بهذا

(١) ابن جرير ٣٠ / ١٢٤ .

البلد ﴾ قال : مكة . ﴿ **وأنت حل بهذا البلد** ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه . وأما غيرك فلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد** ﴾ فىَّ ، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل وهو معلق بأستار الكعبة ، فضربت عنقه بين الركن والمقام .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ ، قال : أحل له أن يصنع فيه ما شاء . ﴿**ووالد وما ولد** ﴾ ، قال : يعنى بالوالد : آدم . وما ولد : ولده . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : الوالد : الذى يلد ، ﴿ **وما ولد** ﴾ : العاقر لا يلد من الرجال والنساء . وأخرج ابن جرير والطبرانى عنه أيضاً : ﴿ **ووالد** ﴾ : قال : آدم . ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : فى اعتدال وانتصاب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ ، قال : فى نصب . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : فى شدة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : فى شدة خلق ولادته ، ونبت أسنانه ، ومعيشته ، وختانه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد**﴾ قال : خلق الله كل شىء يمشى على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ قال : منتصباً فى بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لغرق فى الدم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: ﴿**مالا لبدا** ﴾ قال : كثيرا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ قال : سبيل الخير والشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ قال : الهدى والضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : سبيل الخير والشر. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال : قال النبى ﷺ : « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» . تفرد به سنان بن سعد . ويقال : سعد بن سنان . وقد وثقه يحيى بن معين . وقال الإمام أحمد والنسائى والجوزجانى: منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه، قد روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث الحسن البصرى ، لا يشبه حديث أنس. وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ كان يقول . . . . .فذكره (١) . وهذا مرسل . وكذا رواه قتادة مرسلاً . أخرجه عنه ابن جرير ، ويشهد له ما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة ؛ أن النبى ﷺ قال :

---

(١) ابن جرير ١٢٨/٣٠ .

«يأيها الناس ، إنهما نجدان : نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » [١] . ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إنما هما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وهديناه النجدين**﴾ قال : الثديين .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **فلا اقتحم العقبة**﴾ قال : جبل زلال فى جهنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : العقبة : النار . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : عقبة بين الجنة والنار. وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما نزل ﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾ قيل : يارسول الله ، ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه ، فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لأن أمتع بسوط فى سبيل الله أحب إلىَّ من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد » [٢] . وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ : « لعلاقة سوط فى سبيل الله أعظم أجراً من هذا ». وقد ثبت الترغيب فى عتق الرقاب بأحاديث كثيرة ، منها فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار ، حتى الفرج بالفرج » [٣] .

وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **فى يوم ذى مسغبة** ﴾ قال: مجاعة . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **فى يوم ذى مسغبة**﴾ قال :جوع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **يتيماً ذا مقربة** ﴾ قال : ذا قرابة . وفى قوله : ﴿ **ذا متربة** ﴾ قال : بعيد التربة ، أى غريباً عن وطنه . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضاً : ﴿ **أو مسكيناً ذا متربة** ﴾ قال : هو المطروح الذى ليس له بيت . وفى لفظ للحاكم : هو الذى لا يقيه من التراب شىء . وفى لفظ : هو اللازق بالتراب من شدة الفقر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبى ﷺ : ﴿ **مسكيناً ذا متربة** ﴾ قال : « الذى مأواه المزابل » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **وتواصوا بالمرحمة** ﴾ يعنى بذلك: رحمة الناس كلهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **مؤصدة**﴾ قال : مغلقة الأبواب . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة ﴿ **مؤصدة** ﴾ قال : مطبقة .

---

(١) الطبرانى (٨٠٢٠) وهو جزء من حديث طويل .

(٢) صححه الحاكم ٢١٥/٢ على شرط مسلم ، وقال الذهبى : « وسلمة لم يحتج به وقد وثق وضعفه ابن راهويه » والبيهقى ٥٨/١٠ .

(٣) البخارى فى العتق (٢٥١٧) ومسلم فى العتق (١٥٠٩/ ٢٢ ، ٢٣) والبيهقى ١٠/ ٢٧٢ .

تفسير سورة الشمس

هى خمس عشرة آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى عن بريدة ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ فى صلاة العشاء : ﴿ **والشمس وضحاها**﴾ وأشباهها من السور[١] . وقد تقدم حديث جابر فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿**والشمس وضحاها** ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ »[٢] . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن النبى ﷺ أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بـ ﴿ الليل إذا يغشى ﴾ ﴿ **والشمس وضحاها**﴾[٣] . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : أمرنا رسول اللّه ﷺ أن نصلى ركعتى الضحى بسورتيهما بـ ﴿ **الشمس وضحاها** ﴾ و ﴿ **الضحى** ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . وقال قوم : إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتى هو على حذف مضاف ، أى ورب الشمس ورب القمر، وهكذا سائرها ، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له . وقوله : ﴿ **وضحاها** ﴾ هو قسم ثان . قال مجاهد : ﴿ **وضحاها** ﴾ أى ضوئها وإشراقها . وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبى . وقال قتادة : ﴿ **ضحاها** ﴾ : نهارها كله . قال الفراء: الضحى هو النهار. وقال المبرد : أصل الضحى : الصبح ، وهو نور الشمس . قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل . وهو نور الشمس على وجه الأرض . وأصله الضحى . فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً . قيل : والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد . قال المبرد : الضحى والضحوة مشتقان من الضح ،

---

(١) أحمد ٥/ ٣٥٤ والترمذى فى الصلاة (٣٠٩) والنسائى فى الصلاة ٢/ ١٧٣ .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) الطبرانى (١١٢٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢٢ : « فيه ابن لهيعة وفيه كلام » .

وهو النور ، فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف فى جواب القسم ماذا هو ؟ فقيل : هو قوله : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ . قاله الزجاج وغيره . قال الزجاج : وحذفت اللام لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها . وقيل : الجواب محذوف ، أى والشمس وكذا لتبعثن . وقيل : تقديره : ليدمدمن اللّه على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه ﷺ كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً . وأما ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شىء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها والشمس وضحاها . والأول أولى .

﴿ **والقمر إذا تلاها** ﴾ أى تبعها ، وذلك بأن طلع بعد غروبها . يقال : تلا يتلو تلوا : إذا تبع . قال المفسرون : وذلك فى النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس ، تلاها القمر فى الإضاءة ، وخلفها فى النور . قال الزجاج : تلاها حين استدار ، فكان يتلو الشمس فى الضياء والنور . يعنى : إذا كمل ضوؤه ، فصار تابعاً للشمس فى الإنارة ، يعنى : كان مثلها فى الإضاءة ، وذلك فى الليالى البيض . وقيل : إذا تلا طلوعه طلوعها . قال قتادة : إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت ، رؤى الهلال . قال ابن زيد : إذا غربت الشمس فى النصف الأول من الشهر ، تلاها القمر بالطلوع . وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب . وقال الفراء : تلاها : أخذ منها . يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس. ﴿ **والنهار إذا جلاها** ﴾ أى جلى الشمس . وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلى تمام الانجلاء ، فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه . وقيل : الضمير عائد إلى الظلمة ، أى جلى الظلمة ، وإن لم يجر للظلمة ذكر ، لأن المعنى معروف . قال الفراء : كما تقول : أصبحت باردة ، أى أصبحت غداتنا باردة . والأول أولى، ومنه قول قيس بن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل : المعنى : جلى ما فى الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة فى الليل. وقيل : جلى الدنيا . وقيل: جلى الأرض . ﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾ أى يغشى الشمس ، فيذهب بضوئها ، فتغيب وتظلم الآفاق . وقيل : يغشى الآفاق. وقيل : الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر ، لأن ذلك معروف . والأول أولى . ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية أى والسماء وبنيانها ويجوز أن تكون موصولة ، أى والذى بناها . وإيثار « ما » على « من » لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذى بناها . ورجح الأول الفراء والزجاج . ولا وجه لقول من قال : إن جعلها مصدرية مخل بالنظم . ورجح الثانى ابن جرير . ﴿ **والأرض وما طحاها** ﴾ الكلام فى « ما » هذه كالكلام فى التى قبلها. ومعنى ﴿ **طحاها** ﴾ بسطها . كذا قال عامة المفسرين ، كما فى قوله : ﴿ **دحاها** ﴾ قالوا : طحاها ودحاها واحد ، أى بسطها من كل جانب . والطحو : البسط . وقيل : معنى

﴿طحاها﴾ : قسمها . وقيل : خلقها ، ومنه قول الشاعر :

وما يدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

والأول أولى . والطحو أيضا الذهاب . قال أبوعمرو بن العلاء : طحا الرجل إذا ذهب فى الأرض . يقال : ما أدرى أين طحا ؟ ويقال : طحا به قلبه : إذا ذهب به ، ومنه قول الشاعر :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

﴿ونفس وما سواها﴾ ، والكلام فى « ما » هذه كما تقدم . ومعنى ﴿سواها﴾ : خلقها وأنشأها ، وسوى أعضاءها . قال عطاء : يرد جميع ما خلق من الجن والإنس . والتنكير للتفخيم . وقيل : المراد : نفس آدم . ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أى عرفها وأفهمها حالهما، وما فيهما من الحسن والقبح . قال مجاهد : عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية . قال الفراء : فألهمها : عرفها طريق الخير ، وطريق الشر ، كما قال : ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد : ١٠]. قال محمد بن كعب : إذا أراد اللّه بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به . وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به . قال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور . واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان. قال الواحدى : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام . فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع فى قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله فى قلب عبده شيئاً ، ألزمه ذلك الشيء. قال : وهذا صريح فى أن الله خلق فى المؤمن تقواه، وفى الكافر فجوره .

﴿قد أفلح من زكاها﴾ أى قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب ، وظفر بكل محبوب . وقد قدمنا أن هذا جواب القسم على الراجح . وأصل الزكاة النمو والزيادة، ومنه : زكا الزرع إذا كثر . ﴿وقد خاب من دساها﴾ أى خسر من أضلها وأغواها . قال أهل اللغة : دساها أصله دسسها من التدسيس وهو إخفاء الشىء فى الشىء . فمعنى ﴿دساها﴾ فى الآية : أخفاها وأخملها ، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح . وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها ، فيقصدها الضيوف . وكانت لئام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفض مكانها عن الوافدين . وقيل : معنى ﴿دساها﴾ : أغواها، ومنه قول الشاعر:

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيعا

وقال ابن الأعرابى : ﴿وقد خاب من دساها﴾ أى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم . ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ الطغوى : اسم من الطغيان ، كالدعوى من الدعاء . قال الواحدى : قال المفسرون : كذبت ثمود بطغيانها ، أى الطغيان حملتهم على التكذيب .

والطغيان : مجاوزة الحد فى المعاصى ، والباء للسببية . وقيل : ﴿**كذبت ثمود بطغواها**﴾ أى بعذابها الذى وعدت به . وسمى العذاب طغوى لأنه طغى عليهم ، فتكون الباء على هذا للتعدية . وقال محمد بن كعب: ﴿ **بطغواها** ﴾ أى بأجمعها . قرأ الجمهور: ﴿ **بطغواها** ﴾ بفتح الطاء . وقرأ الحسن والجحدرى ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء . فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان . وإنما قلبت الياء والواو للفرق بين الاسم والصفة؛ لأنهم يقلبون الياء فى الأسماء كثيراً ، نحو تقوى وسروى . وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ، ونحوهما . وقيل : هما لغتان . ﴿ **إذ انبعث أشقاها** ﴾ ، العامل فى الظرف ﴿ **كذبت** ﴾ ، أو ﴿ **بطغواها** ﴾ ، أى حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف ، فعقر الناقة . ومعنى ﴿**انبعث** ﴾ : انتدب لذلك وقام به . يقال : بعثته على الأمر فانبعث له . وقد تقدم بيان هذا فى الأعراف .

﴿ **فقال لهم رسول الله** ﴾ يعنى : صالحاً ﴿ **ناقة الله** ﴾ . قال الزجاج : ﴿ **ناقة الله** ﴾ منصوبة على معنى : ذروا ناقة الله . قال الفراء : حذرهم إياها . وكل تحذير فهو نصب . ﴿**وسقياها** ﴾ معطوف على ناقة ، وهو شربها من الماء . قال الكلبى ومقاتل : قال لهم صالح: ذروا ناقة الله ، فلا تعقروها ، وذروا سقياها ، وهو شربها من النهر فلا تعرضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم . ﴿ **فعقروها** ﴾ أى عقرها الأشقى . وإنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله . قال قتادة : إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . قال الفراء : عقرها اثنان . والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس. فلهذا لم يقل أشقياها .

﴿ **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها** ﴾ أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب . وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده . يقال : دمدمت على الشىء ، أى أطبقت عليه . ودمدم عليه القبر ، أى أطبقه . وناقة مدمومة : إذا لبسها الشحم ، والدمدمة : إهلاك باستئصال . كذا قال المؤرج . قاله فى الصحاح : دمدمت الشىء : إذا ألزقته بالأرض وطحطحته . ودمدم الله عليهم ، أى أهلكهم . وقال ابن الأعرابى : دمدم إذا عذب عذاباً تاماً . والضمير فى ﴿**فسواها** ﴾ يعود إلى الدمدمة ، أى فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت على صغيرهم وكبيرهم . وقيل : يعود إلى الأرض ، أى فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب . وقيل: يعود إلى الأمة ،أى ثمود . قال الفراء : سوى الأمة : أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها ، بمعنى سوى بينهم .قرأ الجمهور : فدمدم بميم بين الدالين . وقرأ ابن الزبير: فدهدم بهاء بين الدالين. قال القرطبى: وهما لغتان كما يقال : امتقع لونه ، واهتقع لونه. ﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾ أى فعل الله ذلك بهم غيرخائف من عاقبة ولا تبعة . والضمير فى ﴿ **عقباها** ﴾ يرجع إلى الفعلة أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم . وقال السدى والضحاك والكلبى : إن الكلام يرجع إلى العاقر ، لا إلى الله سبحانه ، أى لم يخف الذى عقرها عقبى ما صنع . وقيل : لا يخاف

رسول الله ﷺ عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم . والأول أولى .قرأ الجمهور : ﴿ **ولا يخاف** ﴾ بالواو . وقرأ نافع وابن عامر بالفاء .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ **وضحاها** ﴾ قال : ضوؤها . ﴿ **والقمر إذا تلاها** ﴾ قال : تبعها . ﴿**والنهار إذا جلاها** ﴾ قال : أضاءها . ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ قال : الله بنى السماء . ﴿ **والأرض وما طحاها** ﴾ قال : دحاها . ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال: علمها الطاعة والمعصية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿**والأرض وماطحاها** ﴾ يقول : قسمها . ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال : من الخير والشر . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿ **فألهمها** ﴾ قال : ألزمها فجورها وتقواها . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، شيء قد قضى عليهم ، ومضى فى قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم ، واتخذت عليهم به الحجة ، قال : « بل شيء قد قضى عليهم » . قال : فلم يعملون إذن ؟ قال : « من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ » [(١)] . وسيأتى فى السورة التى بعد هذه نحو هذا الحديث. وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والنسائى عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » [(٢)] . وأخرجه ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه من حديث ابن عباس. وزاد : كان إذا تلا هذه الآية : ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال : فذكره . وزاد أيضاً وهو فى الصلاة [(٣)] . وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا [(٤)] . وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة[(٥)] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ : يقول : قد أفلح من زكى الله نفسه . ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ يقول : قد خاب من دس الله نفسه فأضله . ﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾ قال : لا يخاف من أحد تبعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ يعنى : مكر بها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله : ﴿**قد أفلح من زكاها ...** ﴾ الآية : « أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير » . وجويبر ضعيف[(٦)] . وأخرج ابن جرير عنه أيضا

(١) أحمد ٤/٤٣٨ ومسلم فى القدر (٢٦٥٠/ ١٠) وابن جرير ٣٠/ ١٣٥ .
(٢) ابن أبى شيبة (٩١٧٣) وأحمد ٤/ ٣٧١ والنسائى فى الاستعاذة ٨/ ٢٦٠ .
(٣) الطبرانى (١١١٩١) .
(٤) مسلم فى الذكر (٢٧٢٢ / ٧٣) . (٥) أحمد ٦/ ٢٠٩ .
(٦) قال ابن كثير ٧/ ٣٠١ : « جويبرمتروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس ».

﴿بطغواها﴾ قال : اسم العذاب الذى جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعذابها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة ، قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ قال : « انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة » [١] . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والبغوى والطبرانى وابن مردويه والحاكم ، وأبو نعيم فى الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟» قال : بلى . قال : « رجلان : أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك على هذا ـ يعنى » قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ـ يعنى : لحيته » [٢] .

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٤٢) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٥/٤٩) والنسائى فى التفسير (٦٩٥) .
(٢) أحمد ٤ / ٢٦٣ ، وصححه الحاكم ٣ / ١٤٠ ، ١٤١ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩ / ١٣٩ : « رواه أحمد والطبرانى والبزار باختصار ورجال الجميع موثقون ، إلا أن التابعى لم يسمع من عمار » .

تفسير سورة الليل

هى إحدى وعشرون آية . وهى مكية عند الجمهور . وقيل : مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .وأخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر :﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ ونحوها (١) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، ﴿**والليل إذا يغشى**﴾ فقال له أبى بن كعب : يا رسول الله أمرت فى هذه الصلاة بشىء ؟ قال :« لا ، ولكن أردت أن أوقت لكم » (٢) . وقد تقدم حديث : « فهلا صليت بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ ؟» . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنى لأقول : إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل : ﴿**والليل إذا يغشى**﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾ .

قوله : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ أى يغطى بظلمته ما كان مضيئًا . قال الزجاج : يغشى الليل الأفق ، وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار ، وقيل: يغشى النهار. وقيل : يغشى الأرض . والأول أولى. ﴿ **والنهار إذا تجلى**﴾ أى ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل، وذلك بطلوع الشمس .﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ « ما » هنا هى الموصولة ، أى والذى خلق الذكر والأنثى ، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخيم ، أى والقادر العظيم الذى خلق صنفى الذكر والأنثى . قال الحسن والكلبى :

---

(١) البيهقى ٢ / ٣٩١ .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١١٩ : « وفيه أبو الرجال الأنصارى البصرى وهو منكر الحديث » .

معناه : والذى خلق الذكر والأنثى ، فيكون قد أقسم بنفسه . قال أبو عبيدة :﴿ **وما خلق** ﴾ أى ومن خلق . وقال مقاتل : يعنى: وخلق الذكر والأنثى ، فتكون « ما» على هذا مصدرية . قال الكلبى ومقاتل : يعنى : آدم وحواء ، والظاهر العموم . قرأ الجمهور : ﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ . وقرأ ابن مسعود : « والذكر والأنثى » بدون « ما خلق » . ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ هذا جواب القسم ، أى إن عملكم لمختلف ، فمنه عمل للجنة ، ومنه عمل النار . قال جمهور المفسرين : السعى : العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها . و﴿ **شتى** ﴾ جمع شتيت ، كمرض ومريض . وقيل للمختلف : شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض .

﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ أى بذل ماله فى وجوه الخير ،واتقى محارم الله التى نهى عنها. ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ أى بالخلف من الله . قال المفسرون : فأما من أعطى المعسرين . وقال قتادة : أعطى حق الله الذى عليه. وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه. ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ أى بلا إله إلا الله . وبه قال الضحاك والسلمى . وقال مجاهد : بالحسنى : بالجنة. وقال زيد ابن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم . والأول أولى . قال قتادة : ﴿ **بالحسنى** ﴾ أى بموعود الله الذى وعده أن يثيبه . قال الحسن : بالخلف من عطائه . واختار هذا ابن جرير . ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ أى فسنهيئه للخصلة الحسنى ، وهى عمل الخير . والمعنى : فسنيسر له الإنفاق فى سبيل الخير ، والعمل بالطاعة لله . قال الواحدى : قال المفسرون: نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفرمن المؤمنين كانوا فى أيدى أهل مكة يعذبونهم فى الله(١) .

﴿ **وأما من بخل واستغنى** ﴾ أى بخل بماله فلم يبذله فى سبل الخير ﴿ **واستغنى** ﴾ أى زهد فى الأجر والثواب ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة . ﴿ **وكذب بالحسنى** ﴾ أى بالخلف من الله عز وجل . وقال مجاهد : بالجنة ، وروى عنه أيضًا أنه قال: بلا إله إلا الله . ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ أى فسنهيئه للخصلة العسرى ونسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ، ويضعف عن فعلها ، فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيرا . قيل : العسرى : الشر . وذلك أن الشر يؤدى إلى العذاب . والعسرة فى العذاب . والمعنى : سنهيئة للشر بأن نجريه على يديه .وقال الفراء : سنيسره : سنهيئه. والعرب تقول : قد يسرت الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال الشاعر :

هما سيِّدانا يزعمان وإنَّما ... يَسُودانِنا إن يَسَّرت غَنَماهُمَا

﴿ **وما يغنى عنه ماله إذا تردى** ﴾ أى لايغنى عنه شيئًا ماله الذى بخل به، أو أى شىء يغنى عنه إذا تردى ، أى هلك. يقال : ردى الرجل يردى ردى . وتردى يتردى : إذا هلك .

---

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٥٥ .

وقال قتادة وأبو صالح وزيد بن أسلم : ﴿ **إذا تردى** ﴾ إذا سقط فى جهنم . يقال : ردى فى البئر وتردى : إذا سقط فيها . ويقال : ما أدرى أين ردى ، أى أين ذهب ؟ ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، أى إن علينا البيان . قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان ، بيان حرامه وطاعته ومعصيته . قال الفراء: من سلك الهدى ، فعلى الله سبيله لقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل : ٩] يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال الفراء أيضًا : المعنى : إن علينا للهدى والإضلال ، فحذف الإضلال كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل ٨١] وقيل : المعنى : إن علينا ثواب هداه الذى هديناه . ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ أى لنا كل ما فى الآخرة ، وكل ما فى الدنيا نتصرف به كيف نشاء . فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منا . وقيل : المعنى : إن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا .

﴿ **فأنذرتكم نارًا تلظى** ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم نارًا تتوقد وتتوهج . وأصله : تتلظى ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا .وقرأ على الأصل عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف. ﴿ **لا يصلاها إلا الأشقى** ﴾ أى يصلاها صليًا لازمًا على جهة الخلود إلا الأشقى ، وإن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه . والمراد بقوله :﴿ **يصلاها** ﴾ : يدخلها أو يجد صلاها ، وهو حرها . ثم وصف الأشقى فقال :﴿ **الذى كذب وتولى** ﴾ أى كذب بالحق الذى جاءت به الرسل ، وأعرض عن الطاعة والإيمان . قال الفراء : ﴿ **إلا الأشقى** ﴾ : إلا من كان شقيًا فى علم الله جل ثناؤه . قال أيضًا : لم يكن كذب برد ظاهر ، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة ؛ فجعل تكذيبًا كما تقول : لقى فلان العدو فكذب : إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال الزجاج : هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء . فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر. ولأهل النار منازل . فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به . وقد قال : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب ، لم يكن فى قوله : ﴿ ويغفرما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فائدة . وقال فى الكشاف : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين ، وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين، فقيل : الأشقى ، وجعل مختصا بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له . وقيل : الأتقى ، وجعل مختصا بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل : المراد بالأشقى : أبو جهل ، أو أمية بن خلف ، وبالأتقى : أبو بكر الصديق . ومعنى ﴿ **سيجنبها الأتقى** ﴾: سيباعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا . قال الواحدى : الأتقى : أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين [١] . انتهى . والأولى حمل الأشقى والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين . ويكون المعنى : أنه لا يصلاها صليا تاما لازمًا إلا الكامل

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٥٥ .

فى الشقاء وهو الكافر . ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيدًا كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى . فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدًا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله : ﴿ **لا يصلاها إلا الأشقى** ﴾ زاعما أن الأشقى الكافر ، لأنه الذى كذب وتولى . ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين . فيقال له : فما تقول فى قوله : ﴿ **وسيجنبها الأتقى** ﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل فى التقوى . فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين ، لم يكن ممن يجنب النار . فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل ، لزمك مثله فى الأشقى ، فخذ إليك هذه مع تلك ، وكن كما قال الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علىَّ ولا ليه

وقيل : أراد بالأشقى والأتقى : الشقى والتقى ، كما قال طرفة بن العبد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد . ولا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأشقى بالتكذيب . فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر . فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين . ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال : ﴿ **الذى يؤتى ماله** ﴾ أى يعطيه ويصرفه فى وجوه الخير . وقوله : ﴿ **يتزكى** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى ، أى حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة . ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتى داخلاً معه فى حكم الصلة . قرأ الجمهور: ﴿ **يتزكى** ﴾ مضارع « تزكى ». وقرأ على بن الحسين بن على: «تزكى» بإدغام التاء فى الزاى . ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى** ﴾ الجملة مستأنفة ، لتقرير ما قبلها من كون التزكى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص ، أى ليس ممن يتصدق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها . وإنما يبتغى بصدقته وجه الله تعالى . ومعنى الآية : أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتى من ماله مجازاتها . وإنما قال : ﴿ **تجزى** ﴾ مضارعًا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل . والأصل يجزيها إياه ، أو يجزيه إياها .

﴿ **إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **إلا ابتغاء** ﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة ، أى لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى . ويجوز أن يكون منصوبًا على أنه مفعول له على المعنى ، أى لا يؤتى إلا لابتغاء وجه ربه ، لا لمكافأة نعمة . قال الفراء : هو منصوب على التأويل ، أى ما أعطيتك ابتغاء جزائك ، بل ابتغاء وجه الله . وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة ؛ لأن محلها الرفع ، إما على الفاعلية ، وإما على الابتداء . و« من» مزيدة ، والرفع لغة تميم ، لأنهم يجوزون البدل فى المنقطع ،

ويجرونه مجرى المتصل . قال مكى : وأجاز الفراء الرفع فى «ابتغاء » على البدل من موضع نعمة ، وهو بعيد . قال شهاب الدين : كأنه لم يطلع عليها قراءة واستبعاده هو البعيد ، فإنها لغة فاشية . وقرأ الجمهور أيضًا : ﴿ **ابتغاء** ﴾ بالمد . وقرأ ابن أبى عبلة بالقصر ، و﴿**الأعلى**﴾ نعت للرب . ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، أى وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم . قرأ الجمهور : ﴿ **يرضى**﴾ مبنيًا للفاعل . وقرئ مبنيًا للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ قال : إذا أظلم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبى بن خلف ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله . فأنزل الله : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ سعى أبى بكر ، وأمية ، وأبى ، إلى قوله : ﴿**وكذب بالحسنى** ﴾ قال : لا إله إلا الله ، إلى قوله : ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ قال : النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله :﴿ **فأما من أعطى** ﴾ من الفضل : ﴿ **واتقى** ﴾ قال : اتقى ربه . ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ قال : صدق بالخلف من الله . ﴿**فسنيسره لليسرى** ﴾ قال : للخير من الله .﴿ **وأما من بخل واستغنى**﴾ قال : بخل بماله واستغنى عن ربه . ﴿**وكذب بالحسنى**﴾، قال بالخلف من الله . ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ قال : للشر من الله . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ قال : أيقن بالخلف . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا ﴿**وصدق بالحسنى** ﴾ يقول : صدق بلا إله إلا الله . ﴿ **وأما من بخل واستغنى** ﴾ يقول: من أغناه الله فبخل بالزكاة .

وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناسا ضعافًا ، فلو أنك تعتق رجالاً جلدًا يقومون معك ، ويمنعونك ويدفعون عنك . قال: أى أبت ، إنما أريد ما عند الله . قال: فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية نزلت فيه : ﴿**فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى** ﴾ (١).وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله :﴿ **فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى** ﴾ قال: أبو بكر الصديق .﴿ **وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى** ﴾ قال : أبو سفيان بن حرب . وأخرج البخارى ، ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن على بن أبى طالب قال : كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ قال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة .وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ». ثم قرأ : ﴿ **فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى** ﴾ إلى قوله: ﴿**للعسرى** ﴾ (٢). وأخرج أحمد

---

(١) ابن جرير ٣٠ / ١٤٢ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٤٥) ومسلم فى القدر (٢٦٤٧ / ٧) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٤) والترمذى فى القدر (٢١٣٦) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٩٨) وابن ماجة فى المقدمة (٧٨) وابن جرير ٣٠ / ١٤٣ .

ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن سراقة بن مالك قال : يا رسول الله فى أى شىء نعمل ؟ أفى شىء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام أم فى شىء يستقبل فيه العمل ؟ قال: «بل فى شىء ثبتت فيه المقادير، وجرت فيه الأقلام » . قال سراقة : ففيم العمل إذن يا رسول الله ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وقرأ رسول ﷺ هذه الآية : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ [(١)] . وقد تقدم حديث عمران بن حصين فى السورة التى قبل هذه . وفى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال : لتدخلن الجنة إلا من يأبى . قالوا : ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ فقرأ : ﴿ **الذى كذب وتولى** ﴾ [(٢)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أمامة قال : لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة ، إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله . فمن لم يصدقنى ، فإن الله يقول : ﴿**لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى** ﴾ كذب بما جاء به محمد ﷺ وتولى عنه . وأخرج أحمد والحاكم والضياء عن أبى أمامة الباهلى ؛ أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول اللّه ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » [(٣)] . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ :« لا يدخل النار إلا شقى» . قيل:ومن الشقى؟ قال: « الذى لا يعمل لله بطاعة ، ولا يترك لله معصية » [(٤)] .

وأخرج أحمد والبخارى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » [(٥)] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله: بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وأم عيسى وأمة بنى المؤمل.وفيه نزلت: ﴿**وسيجنبها الأتقى** ﴾ إلى آخر السورة . وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدمنا عنه ، وزاد فيه : فنزلت فيه هذه الآية : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى** ﴾. وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وسيجنبها الأتقى** ﴾ قال : هو أبو بكر الصديق .

---

(١) أحمد ٣ / ٣٠٤ ومسلم فى القدر (٢٦٤٨ / ٨) وابن ماجة فى المقدمة (٩١) .
(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٤٥ .
(٣) أحمد ٥ / ٢٥٨ وصححه الحاكم ١ / ٥٥ ووافقه الذهبى .
(٤) أحمد ٢ / ٣٤٩ وابن ماجة فى الزهد (٤٢٩٨) وفى الزوائد : « فى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف » .
(٥) أحمد ٢ / ٣٩١ والبخارى فى الاعتصام (٧٢٨٠) .

تفسير سورة الضحى

هي إحدى عشرة آية . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس : نزلت ﴿ والضحى ﴾ بمكة. وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقرى قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن قسطيطين ، فلما بلغت : ﴿ والضحى ﴾ قال : كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك . وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك . وأخبره أبي أن رسول الله ﷺ أمره بذلك ، وأبو الحسن المقرى المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرى . قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إمامًا في القراءات ، وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أخذت عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي، قال:هو منكر الحديث . قال ابن كثير : ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر الليل إذا يغشى . وقال آخرون : من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر . ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر .

وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ، وفتر تلك المدة ، ثم جاء الملك، فأوحى إليه ﴿ والضحى . والليل إذا سجى ﴾ السورة ، كبَّر فرحًا وسرورًا، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي، قال: اشتكى النبي ﷺ ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا ، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ،لم يقربك ليلتين أو ثلاثًا ، فأنزل الله: ﴿والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [(١)].وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن جندب قال:أبطأ جبريل عن النبي ﷺ ،فقال المشركون:قد ودع محمد. فنزلت:﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [(٢)].وأخرج الطبراني عن جندب قال: احتبس جبريل عن النبي ﷺ ، فقالت بعض بنات عمه:ما أرى صاحبك إلا قد قلاك.فنزلت :﴿ والضحى ﴾ [(٣)].وأخرجه الترمذي وصححه،وابن أبي حاتم عن جندب وفيه: فقالت امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت:﴿والضحى﴾ [(٤)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ

(١) أحمد ٤ / ٣١٢ والبخاري في التفسير (٤٩٥٠) ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٧ / ١١٤ ، ١١٥) .

(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٤٨ والطبراني (١٧١٢) . (٣) الطبراني (١٧١٠) .

(٤) الترمذي في التفسير (٣٣٤٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ .

والمراد بالضحى هنا : النهار كله ؛ لقوله : ﴿ **والليل إذا سجى** ﴾ . فلما قابل الضحى بالليل ، دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه . وهو فى الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم فى قوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : ١] . والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين . وقال قتادة ومقاتل ،وجعفر الصادق : إن المراد به الضحى الذى كلم الله فيه موسى . والمراد بقوله : ﴿ **والليل إذا سجى** ﴾ ليلة المعراج .وقيل: المراد بالضحى: هو الساعة التى خر فيها السحرة سجدًا ، كما فى قوله : ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : ٥٩] . وقيل : المقسم به مضاف مقدر كما تقدم فى نظائره، أى ورب الضحى . وقيل : تقديره : وضحاوة الضحى . ولا وجه لهذا ، فلله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه .وقيل: الضحى : نور الجنة . والليل: ظلمة النار . وقيل : الضحى : نور قلوب العارفين . والليل : سواد قلوب الكافرين . ﴿**والليل إذا سجى** ﴾ أى سكن . كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم . يقال : ليلة ساجية ، أى ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية.يقال: سجا الشىء يسجو سجوًا : إذا سكن . قال عطاء : سجا : إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابى : سجا : امتد ظلامه . وقال الأصمعى : سجو الليل : تغطيته النهار ، مثل ما يسجى الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظلامه . وقال سعيد بن جبير : أقبل . وقال مجاهد أيضا : استوى . والأول أولى. وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة . ومعنى سكونه : استقرار ظلامه واستواؤه ، فلا يزاد بعد ذلك . ﴿ **ما ودعك ربك** ﴾ هذا جواب القسم ، أى ما قطعك قطع المودع .قرأ الجمهور: ﴿ **ما ودعك** ﴾ بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق . وقرأ ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هاشم وابن أبى عبلة وأبوحيوة بتخفيفها من قولهم : ودعه أى تركه . ومنه قول الشاعر :

سل أميرى ما الذى غيره عن وصالى اليوم حتى ودعه ؟

والتوديع أبلغ فى الودع ؛ لأن من ودعك مفارقًا فقد بالغ فى تركك .قال المبرد: لا يكادون يقولون : ودع ولا وذر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك . قال أبو عبيدة : ودعك من التوديع كما يودع المفارق . وقال الزجاج: لم يقطع الوحى. وقد قدمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة . ﴿ **وما قلى** ﴾ القلى : البغض . يقال : قلاه يقليه قلاء قال الزجاج : وما أبغضك . وقال : ﴿ **وما قلى** ﴾ ولم يقل : وما قلاك ؛ لموافقة رؤوس الآى . والمعنى : وما أبغضك ومنه قول امرئ القيس :

ولست بمقلى الخلال ولا قالى

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ اللام جواب قسم محذوف، أى الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه ﷺ قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ، ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة فى الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار ، منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم ، أو كظل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئًا . ولما كانت طريقًا إلى الآخرة ، وسببًا لنيل ما أعده الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة ، كان فيها خير فى الجملة من هذه الحيثية . ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ هذه اللام قيل : هى لام الابتداء ، دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك . . . إلخ، وليست للقسم ؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة . وقيل: هى للقسم . قال أبو على الفارسى : ليست هذه اللام هى التى فى قولك : إن زيدًا لقائم . بل هى التى فى قولك : لأقومن ، ونابَت« سوف » عن إحدى نونى التأكيد ، فكأنه قال : وليعطينك . قيل : المعنى : ولسوف يعطيك ربك الفتح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة . وقيل : ألف قصر من لؤلؤ أبيض ، ترابه المسك . وقيل : غير ذلك . والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا والآخرة . ومن أهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته .

﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ هذا شروع فى تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم ، أى وجدك يتيمًا لا أب لك ﴿ فآوى ﴾ أى جعل لك مأوى تأوى إليه. قرأ الجمهور: ﴿ فآوى ﴾ بألف بعد الهمزة رباعيًا من آواه يؤويه . وقرأ أبو الأشهب : « فأوى » ثلاثيًا . وهى إما بمعنى الرباعى ، أو هو من أوى له إذا رحمه . وعن مجاهد معنى الآية : ألم يجدك واحدًا فى شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ، ويحوطونك ، فجعل يتيمًا من قولهم : درة يتيمة . وهو بعيد جدا . والهمزة لإنكار النفى ، وتقرير المنفى على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيمًا فآوى . والوجود بمعنى العلم. و﴿يتيمًا ﴾ مفعوله الثانى . وقيل : بمعنى المصادفة . و ﴿ يتيمًا ﴾ حال من مفعوله ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ معطوف على المضارع المنفى. وقيل : هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذى قبله كما ذكرنا ، أى قد وجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالا فهدى . والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كما فى قوله : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ [طه:٥٢] ،وكما فى قوله : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف : ٣] . والمعنى: أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة . واختار هذا الزجاج . وقيل: معنى ضالا : لم تكن تدرى القرآن ، ولا الشرائع ، فهداك لذلك . وقال الكلبى والسدى والفراء : وجدك فى قوم ضلال ، فهداهم الله لك . وقيل : وجدك طالبًا للقبلة، فهداك إليها كما فى قوله:﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ [البقرة : ١٤٤] . ويكون الضلال بمعنى: الطلب.وقيل : وجدك ضائعًا فى قومك فهداك إليه . ويكون الضلال بمعنى :

الضياع. وقيل: وجدك محبًا للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى: المحبة، ومنه قول الشاعر:

عجبًا لعزة فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل: وجدك ضالاً فى شعاب مكة فهداك. أى: ردك إلى جدك عبد المطلب. ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أى وجدك فقيرًا لا مال لك فأغناك. يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر. ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

أى يفتقر. قال الكلبى: ﴿فأغنى﴾ أى رضاك بما أعطاك من الرزق. واختار هذا الفراء. قال: لأنه لم يكن غنيًا من كثرة، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه. وذلك حقيقة الغنى. وقال الأخفش: ﴿عائلاً﴾: ذا عيال، ومنه قول جرير:

الله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقيل: فأغنى بما فتح لك من الفتوح. وفيه نظر؛ لأن السورة مكية. وقيل: بمال خديجة بنت خويلد، وقيل: وجدك فقيرًا من الحجج والبراهين فأغناك بها. قرأ الجمهور: ﴿عائلاً﴾. وقرأ محمد بن السميفع واليمانى: «عيلاً» بكسر الياء المشددة كسيد. ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أى لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيمًا. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك. قال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه. وكذا كانت العرب تفعل فى حق اليتامى تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم. وكان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم ويبره، ويوصى باليتامى قرأ الجمهور: ﴿فلا تقهر﴾ بالقاف. وقرأ ابن مسعود، والنخعى والشعبى والأشهب العقيلى: «تكهر» بالكاف، والعرب تعاقب بين القاف والكاف. قال النحاس: إنما يقال: كهره: إذا اشتد عليه وغلظ. وقيل: القهر: الغلبة. والكهر: الزجر. قال أبو حيان: هى لغة. يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور. و﴿اليتيم﴾ منصوب بـ﴿تقهر﴾. ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره. فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يرده بالجميل. قال الواحدى: قال المفسرون: يريد السائل على الباب. يقول: لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيرًا. فإما أن تطعمه، وإما أن ترده ردًا لينًا. قال قتادة: معناه: رد السائل برحمة ولين. وقيل: المراد بالسائل: الذى يسأل عن الدين. فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين. كذا قال سفيان. و﴿السائل﴾ منصوب بـ ﴿تنهر﴾. والتقدير: مهما يكن من شىء، فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل.

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس ، وإشهارها بينهم . والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها ، أو نوع من أنواعها . وقال مجاهد والكلبى : المراد بالنعمة هنا : القرآن. قال الكلبى : وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرأه . قال الفراء : وكان يقرؤه ويحدث به. وقال مجاهد أيضًا : المراد بالنعمة : النبوة التى أعطاه الله. واختار هذا الزجاج ، فقال : أى بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التى آتاك الله ، وهى أجل النعم . وقال مقاتل : يعنى : اشكر ما ذكر من النعمة عليك فى هذه السورة من الهدى بعد الضلالة ، وجبر اليتيم ، والإغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم ، والتحدث بنعمة الله شكر . والجار والمجرور متعلق بحدث . والفاء غير مانعة من تعلقه به . وهذه النواهى لرسول الله ﷺ هى نواه له ولأمته ، لأنهم أسوته . فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والليل إذا سجى ﴾ قال : إذا أقبل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ إذا سجى ﴾ ، قال : إذا ذهب . ﴿ما ودعك ربك ﴾ قال :ما تركك ﴿ وما قلى ﴾ ، قال : ما أبغضك . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « عرض علىَّ ما هو مفتوح لأمتى بعدى. فأنزل الله: ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ » [١]. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه،وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم عنه أيضًا ، قالا : عرض على رسول الله ﷺ ماهو مفتوح على أمته من بعده ، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ ، ترابه المسك ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم [٢].وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال:رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضًا فى الآية ، قال : من رضا محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار.وأخرج الخطيب فى التلخيص من وجه آخر عنه أيضًا فى الآية ، قال: لا يرضى محمد وأحد من أمته فى النار . ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو؛ أن النبى ﷺ تلا قول الله فى إبراهيم : ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ،وقول عيسى:﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى ، وبكى » . فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك [٣] .

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه معاوية بن العباس ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات ، وإسناد الكبير حسن » والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٦١ .

(٢) ابن أبى شيبة (١٥٨٢٧) وابن جرير ٣٠ / ١٤٩ والطبرانى (١٠٦٥٠) وصححه الحاكم (٢ / ٥٢٦) وقال الذهبى : « تفرد به عصام بن رواد عن أبيه وقد ضعف » وأبو نعيم ٣ / ٢١٢ وقال : « هذا حديث غريب من حديث على بن عبد الله بن العباس ، لم يروه عنه إلا إسماعيل ، ورواه سفيان الثورى عن الأوزاعى عن إسماعيل مثله » .

(٣) مسلم فى الإيمان (٢٠٢ / ٣٤٦) .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، وأبونعيم فى الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها أهل العراق أحق هى ؟ قال : إى والله ، حدثنى محمد بن الحنفية عن على ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى : أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت » . ثم أقبل علىّ فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق : إن أرجى آية فى كتاب الله : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] . قلت : إنا لنقول ذلك . قال : فكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ ، وهى الشفاعة .(١) . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ »(٢) . وأخرج العسكرى فى المواعظ ، وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من جلد الإبل . فلما نظر إليها ، قال : « يا فاطمة ، تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة » ، فأنزل الله : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ قال : « سألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته . قلت : قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فقال تعالى : يا محمد ، ألم أجدك يتيمًا فآويتك ؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى : يا رب » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **والضحى** ﴾ على رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ . « يمن علىّ ربى وأهل أن يمن ربى » . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ قال : وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن على فى قوله : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ قال : ما علمت من الخير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : إذا أصبت خيرًا فحدث إخوانك .

وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب فى المتفق ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة » (٤) . وأخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، وأبو يعلى

---

(١) أبو نعيم ٣ / ١٧٩ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من حديث حرب بن شريح ، ولا رواه عنه إلا عمرو بن عاصم وهو بصرى ثقة » .
(٢) ابن أبى شيبة (١٥٥٧٣) .
(٣) الطبرانى (١٢٢٨٩) وصححه الحاكم ٢ / ٥٢٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٦٣ .
(٤) البيهقى فى الشعب (٩١١٩) .

وابن حبان والبيهقى والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال: « من أبلى بلاء فذكره، فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » [(١)] .وأخرج البخارى فى الأدب ، وأبو داود والضياء عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط ، فإنه كلابس ثوبى زور» [(٢)]. وأخرج أحمد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «من أولى معروفًا فليكافئ به ، فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره»[(٣)] .

---

(١) أبو داود فى الأدب (٤٨١٤) والترمذى فى البر والصلة (٢٠٣٤) وقال : « حديث حسن غريب » وأبو يعلى (٢١٣٧) وقال : « إسناده ضعيف وفيه جهالة » ووصله البخارى فى الأدب المفرد (٢١٥) من طريق يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصار عن جابر ، وابن حبان فى صدقة التطوع (٣٤٠٦) والبيهقى ٦ / ١٨٢ .

(٢) أبو داود فى الأدب (٤٨١٣) .

(٣) أحمد ٦ / ٩٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ١٨٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه صالح بن أبى الأخضر ، وقد وثق على ضعفه ، وبقية رجال أحمد ثقات » .

تفسير سورة ألم نشرح

هي ثمان آيات . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ ألم نشرح ﴾ بمكة . وزاد بعضهم بعد الضحى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾ .

معنى شرح الصدر : فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك . والاستفهام إذا دخل على النفي قرره ، فصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك . وإنما خص الصدر ؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات . والمراد: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة ، وحفظ الوحي.وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ [الزمر : ٢٢]. **﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾** معطوف على معنى ما تقدم ، لا على لفظه ، أى قد شرحنا لك صدرك ، ووضعنا . . . إلخ . ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أى أنتم خير من ركب المطايا ، وأندى . . . إلخ . قرأ الجمهور : **﴿ نشرح ﴾** بسكون الحاء بالجزم . وقرأ أبو جعفر المنصور العباسي بفتحها . قال الزمخشري : قالوا : لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها ، فظن السامع أنه فتحها . وقال ابن عطية : إن الأصل : « ألم نشرحن » ، بالنون الخفيفة ، ثم إبدالها ألفًا . ثم حذفها تخفيفًا ، كما أنشد أبو زيد :

من أى يوميَّ من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

بفتح الراء من « لم يقدر » . ومثله قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب . وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بـ « لم » وهو قليل جدًا كقوله :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخًا على كرسيه معمما

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول ، كلها ضعيفة .الأول: توكيد المجزوم بـ « لم »، وهو ضعيف . الثانى : إبدالها ألفًا ، وهو خاص بالوقف ، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف . والثالث : حذف الألف، وهو ضعيف أيضًا ؛ لأنه خلاف الأصل. وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بـ « لم » ويجزمون بـ « لن » . ومنه قول الشاعر :

فى كل ما هم أمضى رأيه قدمًا ولم يشاورَ فى إقدامه أحدا

بنصب الراء من « يشاور » . وهذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح . وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة ، فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها . وعلى كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره ، ومزيد ظلمه ، وكثرة جبروته، وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها . والوزر : الذنب ، أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية . قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل : المعنى : حططنا عنك الذى سلف منك فى الجاهلية ، وهذا كقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] ثم وصف هذا الوزر فقال : ﴿**الذى أنقض ظهرك** ﴾ . قال المفسرون : أى أثقل ظهرك . قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض ، أى صوت . وهذا مثل معناه : أنه لو كان حملاً يحمل ، لسمع نقيض ظهره . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمع له صرير . ومنه قول جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت ثوانى زوره أن تحطما

وقول العباس بن مرداس :

وأنقض ظهرى ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقًا متحننًا

قال قتادة : كان للنبى ﷺ ذنوب قد أثقلته ، فغفرها الله له . وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها ، سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له . وكذا قال أبو عبيدة ، وغيره . وقرأ ابن مسعود :« وحللنا عنك وقرك » . ثم ذكرسبحانه منته عليه وكرامته فقال: ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ قال الحسن : وذلك أن الله لا يذكر فى موضع إلا ذكر معه ﷺ . قال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينادى فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . قال مجاهد : ورفعنا لك ذكرك ، يعنى : بالتأذين . وقيل : المعنى : ذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، وأمرناهم بالبشارة به . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء وعند المؤمنين فى الأرض . والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذى امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور . فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر . وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه وإخباره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً . وأمر الله بطاعته كقوله : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] ، وقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى

يحببكم الله ﴾ [آل عمران: ٣١] وغير ذلك. وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن ، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : ٢١] اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان فى كل زمان . وما أحسن قول حسان:

أغــر عليـــه للنبــوة خـــاتم	مـن الله مشهـــود يلـوح ويشهـد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه	إذا قال فى الخمس المؤذن أشهـد
وشـق لـه مــن اســمه ليجلـه	فـذو العرش محمود وهذا محمد

﴿ فإن مع العسر يسرا ﴾ أى إن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ، ومع الكرب فرج . وفى هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين . ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريرًا وتأكيدًا فقال مكررًا له بلفظ: ﴿ إن مع العسر يسرا ﴾ أى إن مع ذلك العسر المذكور سابقًا يسرًا آخر لما تقرر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثانى عين الأول ، سواء كان المراد به الجنس أو العهد ، بخلاف المنكر إذا أعيد ، فإنه يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول فى الغالب. ولهذا قال النبى ﷺ فى معنى هذه الآية : « لن يغلب عسر يسرين». قال الواحدى :وهذا قول النبى ﷺ والصحابة والمفسرين ، على أن العسر واحد ، واليسر اثنان. قال الزجاج: ذكر العسر مع الألف واللام ، ثم ثنى ذكره ، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين. قيل : والتنكير فى اليسر للتفخيم والتعظيم ، وهو فى مصحف ابن مسعود غير مكرر. قرأ الجمهور بسكون السين فى العسر واليسر فى الموضعين . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمها فى الجميع .

﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أى إذا فرغت من صلاتك أو من التبليغ، أو من الغزو فانصب، أى فاجتهد فى الدعاء ، واطلب مـن الله حاجتك ، أو فانصب فى العبادة .والنصب : التعب. يقال : نصب ينصب نصبًا ، أى تعب . قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبى : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك فى الدعاء ، وارغب إليه فى المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد . قال الشعبى : إذا فرغت من التشهد ، فادعو لدنياك وآخرتك. وكذا قال الزهرى. وقال الكلبى أيضًا : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب ، أى استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك . وقال مجاهد أيضًا: إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك ، ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الزجاج: أى اجعل رغبتك إلى الله وحده . قال عطاء : يريد أنه يضـرع إليه راهبًا من النـار ، راغبًا فى الجنة .والمعنى:أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائنًا من كان ، فلا يطلب حاجاته إلا منه، ولا يعول فى جميع أموره إلا عليه قرأ الجمهور:﴿ فارغب ﴾ وقرأ زيد بن على وابن أبى عبلة: « فرغب » بتشديد الغين ، أى فرغب الناس إلى الله ، وشوقهم إلى ماعنده من الخير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ ، قال : شرح الله صدره للإسلام . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « أتانى جبريل فقال : إن ربك يقول : تدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معى » . وإسناد ابن جرير هكذا : حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد ، وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**ورفعنا لك ذكرك** ﴾ الآية ، قال : لا يذكر الله إلا ذكر معه .

وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أنس ، قال : كان النبى ﷺ جالسًا وحياله جحر، فقال :« لو دخل العسر هذا الجحر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » . فأنزل الله : ﴿ **فإن** [(١)] **مع العسر يسرا** ﴾ ﴿**إن مع العسر يسرا** ﴾ [(٢)] .ولفظ الطبرانى : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسرا** ﴾ . وأخرج ابن النجار عنه مرفوعًا نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أيضًا مرفوعًا نحوه ، قال السيوطى : وسنده ضعيف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا فى الصبر ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود مرفوعًا : « لو كان العسر فى جحر ، لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين ، إن الله يقول: ﴿ **فإن** [(٣)] **مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا** ﴾ » [(٤)] قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح . قال فيه أبو حاتم الرازى : فى حديثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل . عن عبد الله بن مسعود . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقى عن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ يومًا فرحًا مسرورًا ، وهو يضحك ويقول :« لن يغلب عسر يسرين ،﴿ **فإن** [(٥)] **مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا**﴾ » [(٦)]. وهذا مرسل . وروى نحوه مرفوعًا مرسلا عن قتادة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن

---

(١) فى المخطوطة : « إن ».

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار بنحوه ، وفيه عائذ بن شريح وهو ضعيف » والحاكم ٢ / ٢٥٥ وقال : «هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح » وقال الذهبى : «انفرد به حميد بن حماد عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ » والبيهقى فى الشعب (١٠٠١٢) ط . دار الكتب العلمية .

(٣) فى المطبوعة : « إن» . (٤) البيهقى فى الشعب (١٠٠١١) ط . دار الكتب العلمية .

(٥) فى المطبوعة : « إن » . (٦) ابن جرير ٣٠ / ١٥١ وسكت عنه الحاكم ٢ / ٥٢٨ وقال الذهبى : « مرسل » .

ابن عباس فى قوله: ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ الآية ، قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، واسأل الله وارغب إليه . وأخرج ابن مردويه عنه قال :قال الله لرسوله: « إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك » . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن ابن مسعود : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ إلى الدعاء . ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ فى المسألة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ قال : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل .

تفسير سورة التين

هي ثمان آيات . وهي مكية في قول الجمهور . وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية . ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : أنزلت سورة التين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن ، وغيرهم عن البراء بن عازب ، قال: كان النبي ﷺ في سفر ، فصلى العشاء ، فقرأ في إحدى الركعتين : بـ ﴿ التين والزيتون ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً ولا قراءة منه [(١)] . وأخرج الخطيب عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ المغرب ، فقرأ: بـ ﴿ التين والزيتون ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد في مسنده، والطبراني عن عبد الله بن يزيد ؛ أن النبي ﷺ قرأ في المغرب : ﴿ والتين والزيتون﴾ [(٢)] . وأخرج ابن قانع وابن السكن ،والشيرازي في الألقاب عن زرعة بن خليفة قال: أتيت النبي ﷺ من اليمامة ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، فلما صلينا الغداة ، قرأ بـ ﴿ التين والزيتون ﴾ و﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾. [القدر : ١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ .

قال أكثر المفسرين : هو التين الذي يأكله الناس ، والزيتون الذي يعصرون منه الزيت . وإنما أقسم بالتين ؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك ، وجعلها على مقدار اللقمة . قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن ، وأكثرها غذاء . وذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات . وأما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم ، ويدخل في كثير من الأدوية. وقال الضحاك : التين : المسجد الحرام . والزيتون :المسجد الأقصى . وقال ابن زيد : التين : مسجد دمشق. والزيتون : مسجد بيت المقدس. وقال قتادة : التين: الجبل الذي عليه دمشق. والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقال عكرمة وكعب الأحبار : التين : دمشق . والزيتون :

---

(١) البخاري في التفسير (٤٩٥٢) ومسلم في الصلاة (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود في الصلاة (١٢٢١) والترمذي في الصلاة (٣١٠) والنسائي في التفسير (٧٠٢) وابن ماجة في الصلاة (٨٣٤ ، ٨٣٥) .
(٢) ابن أبي شيبة ١/ ٣٥٨ .

بيت المقدس .

وليت شعرى ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقى فى اللغة العربية ، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه فى علم الرواية والدراية . قال الفراء : سمعت رجلاً يقول : التين : جبال حلوان إلى همدان . والزيتون : جبال الشام. قلت : هب أنك سمعت هذا الرجل فكان ماذا ؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع . وقال محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف . والزيتون : مسجد إيلياء .وقيل : إنه على حذف مضاف ، أى ومنابت التين والزيتون . قال النحاس : لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه.

﴿ **وطور سينين** ﴾: هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، اسمه الطور. ومعنى ﴿**سينين**﴾: المبارك الحسن بلغة الحبشة ، قاله قتادة .وقال مجاهد : هو المبارك بالسريانية ، وقال مجاهد والكلبى : ﴿ **سينين** ﴾ : كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين ، وسيناء بلغة النبط . قال الأخفش : طور : جبل ، وسينين : شجر ، واحدته سينة . قال أبو على الفارسى : سينين : فعليل ، فكررت اللام التى هى نون فيه ، ولم ينصرف سنين ، كما لم ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً للبقعة . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام ، وهى الأرض المقدسة كما فى قوله : ﴿إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ [الإسراء: ١] . وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه . قرأ الجمهور: ﴿ **سينين** ﴾ بكسر السين. وقرأ ابن إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتحها ، وهى لغة بكر وتميم . وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة : « سيناء » بالكسر والمد . ﴿ **وهذا البلد الأمين** ﴾ يعنى : مكة . سماه أميناً لأنه آمن، كما قال : ﴿ أنَّا جعلنا حرماً آمناً ﴾ [العنكبوت: ٦٧] . يقال : أمن الرجل أمانة فهو أمين . قال الفراء وغيره : الأمين بمعنى الآمن . ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه ؛ لأنه مأمون الغوائل .

﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ هذا جواب القسم ، أى خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم وتعديل. قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله خلق كل ذى روح مكباً على وجهه إلا الإنسان ، خلقه مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده . ومعنى التقويم : التعديل . يقال : قومته فاستقام . قال القرطبى : هو اعتداله واستواء شأنه . كذا قال عامة المفسرين . قال ابن العربى : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيا ، عالما ، قادرا ، مريدا ، متكلما ، سميعا ، بصيرا ، مدبرا ، حكيما . وهذه صفات الرب سبحانه . وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته » [(١)] يعنى على صفاته التى

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٦١٢/ ١١٥) .

تقدم ذكـرها . قلت: وينبغى أن يضـم إلى كلامـه هـذا قوله سبحانه: ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ [الشورى : ١١] وقوله : ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ [طه : ١١٠] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع ، فلينظر فى كتاب : « العبر والاعتبار » للجاحظ . وفى الكتاب الذى عقده النيسابورى على قوله : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ٢١] وهو فى مجلدين ضخمين .

﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ أى رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم والضعف ، بعد الشباب والقوة ، حتى يصير كالصبى ، فيخرف وينقص عقله . كذا قال جماعة من المفسرين . قال الواحدى : والسافلون : هم الضعفاء ، والزمناء ، والأطفال . والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً . وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى : ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات ، بعضها أسفل من بعض . فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة . ولا ينافى هذا قوله تعالى : ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء : ٤٥] فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسفل . وقوله : ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ إما حال من المفعول ، أى رددناه حال كونه أسفل سافلين ، أو صفة لمقدر محذوف ، أى مكانا أسفل سافلين . ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، أى لكن الذين آمنوا . . . إلخ . ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر ، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى . وعلى القول الثانى يكون الاستثناء متصلا من ضمير ﴿ **رددناه** ﴾ ، فإنه فى معنى الجمع ، أى رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾ أى غير مقطوع ، أى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم . فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى القول الثانى مقررة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد . وقال: ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ على الجمع ؛ لأن الإنسان فى معنى الجمع . ولو قال : أسفل سافل لجاز ؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد . وقيل : معنى ﴿ **رددناه أسفل سافلين** ﴾ : رددناه إلى الضلال ، كما قال : ﴿ إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [العصر: ٢ ، ٣] أى إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك .

﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ الخطاب للإنسان الكافر . والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة ، أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك فى أحسن تقويم ، وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ؟ وقيل : الخطاب للنبى ﷺ ، أى أىّ شىء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة ، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين . قال الفراء والأخفش : المعنى : فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين . كأنه قال : من يقدر على ذلك ؟ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر . واختار هذا ابن جرير . والدين : الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

دنا تميماً كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم من سالف الزمن

وقال الآخر :

ولما صرح الشر فأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا ن دنَّاهم كما دانوا

﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ أى أليس الذى فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ؟ حتى تتوهم عدم الإعادة والجزاء . وفيه وعيد شديد للكفار . ومعنى ﴿ **أحكم الحاكمين** ﴾ : أتقن الحاكمين فى كل ما يخلق . وقيل: أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً . والاستفهام إذا دخل على النفى صار الكلام إيجاباً كما تقدم تفسير قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : ١] .

وقد أخرج الخطيب وابن عساكر ، قال السيوطى : بسند فيه مجهول ، عن الزهرى عن أنس قال : لما أنزلت سورة ﴿**التين والزيتون** ﴾ على رسول الله ﷺ ، فرح فرحا شديدا ، حتى تبين لنا شدة فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها، فقال : التين : بلاد الشام . والزيتون : بلاد فلسطين . وطور سيناء : الذى كلم الله عليه موسى . ﴿**وهذا البلد الأمين** ﴾ : مكة ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ : محمدا ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين**﴾: عبدة اللات والعزى . ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾ : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ﴿**فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ إذ بعثك فيهم نبياً ، وجمعك على التقوى يا محمد . ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون فى إسناده ذلك المجهول .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والتين والزيتون** ﴾ قال : مسجد نوح الذى بنى على الجودى ﴿ **والزيتون** ﴾ قال : بيت المقدس ﴿**وطور سينين** ﴾ قال : مسجد الطور . ﴿**وهذا البلد الأمين** ﴾ قال: مكة ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ يقول : يرد إلى أرذل العمر ، كبر حتى ذهب عقله . هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فسئل رسول الله ﷺ حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذى عملوا قبل أن تذهب عقولهم . ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ يقول : بحكم الله . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿ **والتين والزيتون** ﴾ قال : الفاكهة التى يأكلها الناس ﴿**وطور سينين** ﴾ قال : الطور : الجبل . السينين : المبارك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ﴿ **سينين** ﴾ : هو الحسن . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ قال : فى أعدل خلق ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ يقول : إلى أرذل العمر ﴿ **إلا الذين آمنوا**

وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ يعنى : غير منقوص . يقول : فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل فى شبابه عملاً صالحاً ، كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته وشبابه ، ولم يضره ما عمل فى كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التى يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن ، لم يرد إلى أرذل العمر ، وذلك قوله : **﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾** قال : لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : **﴿ثم رددناه أسفل سافلين ﴾** يقول : إلى الكبر وضعفه . فإذا كبر وضعف عن العمل ، كتب له مثل أجر ما كان يعمل فى شبيبته . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيماً»(١) . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا : « من قرأ : **﴿ التين والزيتون ﴾** فقرأ : **﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾** فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » (٢) . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا : « إذا قرأت: **﴿ التين والزيتون ﴾** فقرأت : **﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾** فقل : بلى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا قرأ: **﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾** قال : سبحانك اللهم فبلى . ا . هـ .

---

(١) أحمد ٤/ ٤١٠ والبخارى فى الجهاد (٢٩٩٦) . (٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٤٧) .

تفسير سورة اقرأ

ويقال : سورة العلق . وهى تسع عشرة آية . وقيل : عشرون آية . وهى مكية بلا خلاف. وهى أول ما نزل من القرآن. وأخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس ، قال : أول ما نزل من القرآن :﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة ،وابن الضريس وابن الأنبارى والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن أبى موسى الأشعرى قال :﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أول سورة أنزلت على محمد(١). وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى وصححه عن عائشة قالت : إن أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾(٢) ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل ، الحديث الطويل الثابت فى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه : «فجاءه الحق وهو فى غار حراء فقال له :﴿ اقرأ ﴾ . . . » الحديث (٣) . وفى الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩ ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ اقرأ ﴾ بسكون الهمزة أمرًا من القراءة ، وقرأ عاصم فى رواية عنه بفتح الراء ، وكأنه قلب الهمزة ألفا ، ثم حذفها للأمر . والأمر بالقراءة يقتضى مقروءًا فالتقدير : اقرأ ما يوحى إليك ، أوما نزل عليك ، أو ما أمرت بقراءته وقوله : ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أى اقرأ ملتبسًا باسم ربك ، أو مبتدئًا باسم ربك ، أو مفتتحًا . ويجوز أن تكون الباء زائدة ، والتقدير : اقرأ اسم ربك ، كقول الشاعر :

سود المحاجر لا يَقْرأن بالسور

---

(١) ابن أبي شيبة (١٠٢٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٢ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٥٦ .

(٢) ابن جرير ٣٠/ ١٦١ وصححه الحاكم ٢/ ٥٢٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٩/ ٦.

(٣) البخارى فى بدء الوحى (٣) ومسلم فى الإيمان (١٦٠/ ٢٥٢).

قاله أبو عبيدة . وقال أيضا : الاسم صلة ، أى اذكر ربك وقيل : الباء بمعنى على ، أى اقرأ على اسم ربك ، يقال: افعل كذا باسم اللّه ، وعلى اسم اللّه . قاله الأخفش . وقيل : الباء للاستعانة ، أى مستعينًا باسم ربك . ووصف الرب بقوله: ﴿ **الذى خلق** ﴾ لتذكير النعمة؛ لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه يترتب سائر النعم . قال الكلبى : يعنى الخلائق. ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ يعنى : بنى آدم . والعلقة : الدم الجامد . وإذا جرى فهو المسفوح. وقال : ﴿ **من علق** ﴾ بجمع علق ؛ لأن المراد بالإنسان الجنس . والمعنى : خلق جنس الإنسان؛ من جنس العلق . وإذا كان المراد بقوله : ﴿**الذى خلق** ﴾ كل المخلوقات ، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفًا له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع . وإذا كان المراد بالذى خلق : الذى خلق الإنسان ، فيكون الثانى تفسيرًا للأول . والنكتة ما فى الإبهام ثم التفسير ، من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولا ، ثم فسر ثانيًا . ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم**﴾ أى افعل ما أمرت به من القراءة وجملة : ﴿ **وربك الأكرم** ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله : « ما أنا بقارئ » يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ، وهو أمى . فقيل له: اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم . قال الكلبى: يعنى الحليم عن جهل العباد ، فلم يعجل بعقوبتهم . وقيل : إنه أمره بالقراءة أولا لنفسه ، ثم أمره بالقراءة ثانيًا للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد . والأول أولى.

﴿ **الذى علم بالقلم** ﴾ أى علم الإنسان الخط بالقلم . فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب . قال الزجاج : علم الإنسان الكتابة بالقلم . قال قتادة : القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلح عيش . فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ونبه على فضل علم الكتاب لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة ، إلا بالكتابة . ولولا هى ما استقامت أمور الدين ، ولا أمور الدنيا . وسمى قلمًا؛ لأنه يقلم ، أى يقطع .﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ هذه الجملة بدل اشتمال من التى قبلها ، أى علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها . قيل : المراد بالإنسان هنا : آدم كما فى قوله : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة:٣١] . وقيل : الإنسان هنا :رسول الله ﷺ . والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى : أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم ، فقد علمه ما لم يعلم.

وقوله : ﴿ **كلا** ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه . وإن لم يتقدم له ذكر. ومعنى ﴿ **إن الإنسان ليطغى** ﴾ : أنه يجاوز الحد ، ويستكبر على ربه . وقيل : المراد بالإنسان هنا : أبو جهل . وهو المراد بهذا وما بعده . . . إلى آخر السورة . وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة فى أول هذه السورة . وقيل :﴿ **كلا** ﴾ هنا بمعنى حقًا. قاله الجرجانى .وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون «كلا» ردا له . وقوله :

﴿ **أن رآه استغنى** ﴾ علة ليطغى ، أى ليطغى أن رأى نفسه مستغنيًا ، أو لأن رأى نفسه مستغنيًا. والرؤية هنا بمعنى العلم . ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين فى فعلها لشيء واحد ؛ لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه . قال الفراء : لم يقل رأى نفسه، كما قيل : قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد اسمًا وخبرًا نحو الظن والحسبان . فلا يقتصر فيه على مفعول واحد والعرب تطرح النفس من هذا الجنس ، تقول : رأيتنى وحسبتنى، ومتى تراك خارجًا ، ومتى تظنك خارجًا . قيل :والمراد هنا : أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال. قرأ الجمهور :﴿ **أن رآه** ﴾ بمد الهمزة . وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها . قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا ، زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه . وكذا قال الكلبى .

ثم هدد سبحانه وخوف ، فقال : ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ ، أى المرجع . والرجعى والمرجع والرجوع مصادر . يقال : رجع إليه مرجعًا ورجوعًا ورجعى . وتقدم الجار والمجرور للقصر ، أى الرجعى إليه سبحانه ، لا إلى غيره . ﴿**أرأيت الذى ينهى . عبدًا إذا صلى** ﴾ قال المفسرون : الذى ينهى : أبو جهل . والمراد بالعبد : محمد ﷺ . وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله ، حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية . ﴿ **أرأيت إن كان على الهدى** ﴾ يعنى: العبد المنهى إذا صلى ، وهو محمد ﷺ . ﴿ **أو أمر بالتقوى** ﴾ أى بالإخلاص والتوحيد، والعمل الصالح الذى تتقى به النار . ﴿ **أرأيت إن كذب وتولى** ﴾ يعنى أبا جهل . كذب بما جاء به رسول الله ﷺ ، وتولى عن الإيمان .

وقوله : ﴿ **أرأيت** ﴾ فى الثلاثة المواضع بمعنى أخبرنى ؛ لأن الرؤية كما كانت سببا للإخبار عن المرئى ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها . والخطاب لكل من يصلح له . وقد ذكر هنا :﴿ **أرأيت** ﴾ ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها . بجملة استفهامية ، فتكون فى موضع المفعول الثانى لها . ومفعولها الأول محذوف ، وهو ضمير يعود على﴿ **الذى ينهى** ﴾ الواقع مفعولا أول لـ﴿ **أرأيت** ﴾ الأولى ، ومفعول ﴿ **أرأيت**﴾ الأولى الثانى محذوف . وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد ﴿ **أرأيت** ﴾ الثانية . وأما ﴿**أرأيت**﴾ الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثانى ، حذف الأول لدلالة مفعول ﴿ **أرأيت** ﴾ الثالثة عليه ، فقد حذف الثانى من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية. وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع ؛ لأنه يستدعى إضمارًا ، والجمل لا تضمر ، إنما تضمر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة . وأما جواب الشرط المذكور مع ﴿**أرأيت** ﴾ فى الموضعين الآخرين فهو محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ ، وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى . ومعنى ﴿ **ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ أى يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟

والاستفهام للتقريع والتوبيخ . وقيل : ﴿ أرأيت ﴾ الأولى مفعولها الأول الموصول ، ومفعولها الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور . و﴿ أرأيت ﴾ فى الموضعين تكرير للتأكيد . وقيل :كل واحدة من ﴿ أرأيت ﴾ بدل من الأولى . و ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ الخبر .

قوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للناهى . واللام فى قوله : ﴿ لئن لم ينته ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ السفع : الجذب الشديد . والمعنى : لنأخذن بناصيته ، ولنجرنه إلى النار . وهذا قوله: ﴿ فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ [الرحمن : ٤١] ويقال : سفعت الشىء : إذا قبضته وجذبته. . ويقال :سفع بناصية فرسه. قال الراغب : السفع : الأخذ بسفعة الفرس ، أى بسواد ناصيته . وباعتبار السواد . وقيل : به سفعة غضب. اعتباراً بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتد به الغضب . . وقيل للصقر : أسفع . لما فيه من لمع السواد . وامرأة سفعاء اللون . انتهى . وقيل : هو مأخوذ من سفع النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى سواد ، ومنه قول الشاعر :

أثافى سفعًا فى معرس مرجل

وقوله : ﴿ ناصية ﴾ بدل من الناصية . وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله : ﴿كاذبة خاطئة ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين ، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة ، إلا بشرط وصفها ، وأما على مذهب البصريين فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط ، وأنشدوا:

فلا وأبيك خير منك إنى ليؤذينى التحمحم والصهيل

قرأ الجمهور بجر :﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ والوجه ما ذكرنا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ، أى هى ناصية . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة وزيد بن على بنصبها على الذم . قال مقاتل : أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ ، فقال : ناصية كاذبة خاطئة . تأويلها : صاحبها كاذب خاطئ . ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى أهل ناديه . والنادى : المجلس الذى يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة . والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، ومنه قول الشاعر :

واستب بعدك يا كليب المجلس

أى أهله . قيل : إنا أبا جهل قال لرسول الله ﷺ :أتهددنى وأنا أكثر الوادى ناديًا ؟ فنزلت : ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ أى الملائكة الغلاظ الشداد كذا قال الزجاج . قال الكسائى والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم : زابن. وقال أبو عبيدة : زبنية . وقيل : زبانى . وقيل : هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابيل . وقال قتادة: هم الشرط فى كلام العرب . وأصل الزبن : الدفع ، ومنه قول الشاعر :

ومستعــجب ممـا يــرى مــن أناتنــا ولــو زبنته الحرب لم يترمرم

والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه ، ومنه قول الشاعر :

مــطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى زبانيـة غلـب عظام حلومها

قرأ الجمهور: ﴿ سندع ﴾ بالنون ، ولم ترسم الواو كما فى قوله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ [القمر : ٦] . وقرأ ابن أبى عبلة:« سيدعى » على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة. ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿كلا لا تطعه ﴾ أى لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ أى صل لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه ﴿ واقترب ﴾ أى تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى : إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء . وقال زيد ابن أسلم : واسجد أنت يا محمد ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار . والأولى أولى . والسجود هذا ، الظاهر أن المراد به : الصلاة . وقيل : سجود التلاوة . ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية كما سيأتى إن شاء الله .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، وأبو نعيم فى الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : أتى جبريل محمداً ﷺ فقال : يا محمد ، اقرأ . فقال : « وما أقرأ ؟ » فضمه ثم قال : يا محمد ، اقرأ قال : « وما أقرأ ؟ » قال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ [(١)] . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة : فجاءه الملك فقال : اقرأ فقال:« قلت :ما أنا بقارئ » قال : « فأخذنى فغطنى، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى» فقال :اقرأ. فقلت: « ما أنا بقارئ ، فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى » ، فقال : اقرأ . فقلت : « ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد» ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ﴾ الآية.[(٢)]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه . فبلغ النبى ﷺ فقال : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا » [(٣)] . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد والترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : كان النبى ﷺ يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر ناديًا منى . فانزل الله: ﴿فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ فجاء النبى ﷺ يصلى ، فقيل : ما يمنعك؟ فقال : قد اسود ما بينى وبينه[(٤)]. قال ابن عباس :

---

(١) ابن أبى شيبة (١٨٤٠٢) وابن جرير ١٦٢/٣٠ .

(٢) البخارى فى بدء الوحى (٣) ومسلم فى الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٥٨) وابن جرير ٣٠ / ١٦٣ .

(٤) ابن أبى شيبة (١٨٤١١) وأحمد ١ / ٢٥٦ والترمذى فى التفسير (٣٣٤٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » وابن جرير ٣٠ / ١٣٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه موسى بن سهل وهو ضعيف » .

والله لو تحرك ، لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : واللات والعزى ، لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه فى التراب . فأتى رسول الله ﷺ ، وهو يصلى ليطأ على رقبته . قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيده . فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقًا من نار وهولا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا » . قال : وأنزل الله : ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى**﴾ إلى آخر السورة . يعنى أبا جهل [(١)] . ﴿**فليدع ناديه**﴾ يعنى : قومه . ﴿**سندع الزبانية**﴾ يعنى : الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**أرأيت الذى ينهى .عبدًا إذا صلى**﴾ قال : أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله ﷺ بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله: ﴿**لنسفعًا**﴾ قال : لنأخذن . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا : ﴿**فليدع ناديه**﴾ قال : ناصره . وقد قدمنا أن النبى ﷺ كان يسجد فى :﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفى ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ .

(١) أحمد ٢ / ٣٧٠ ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٧ / ٣٨) والنسائى فى التفسير (٧٠٣) وابن جرير ٣٠ / ١٦٥ .

تفسير سورة القدر

هى خمس آيات . وهى مكية عند أكثر المفسرين : كذا قال الماوردى . وقال الثعلبى : هى مدنية فى قول أكثر المفسرين . وذكر الواقدى أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة ؛ أنها نزلت بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ .

الضمير فى : ﴿ **أنزلناه** ﴾ للقرآن ، وإن لم يتقدم له ذكر . أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبى ﷺ نجومًا على حسب الحاجة. وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون سنة . وفى آية أخرى: ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ [الدخان : ٣] وهى ليلة القدر ، وفى آية أخرى : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : ١٨٥] وليلة القدر فى شهر رمضان . قال مجاهد: ﴿ **فى ليلة القدر** ﴾ ليلة الحكم . ﴿ **وما أدراك ما ليلة القدر** ﴾ : ليلة الحكم . قيل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة . وقيل : إنها سميت بذلك ؛ لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم: لفلان قدر ، أى شرف ومنزلة ، كذا قال الزهرى . وقيل : سميت بذلك ؛ لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا ، وثوابا جزيلا . وقال الخليل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه﴾ [الطلاق : ٧] أى ضيق . وقد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولا قد ذكرناها بأدلتها ، وبينا الراجح منها فى شرحنا للمنتقى .

﴿ **وما أدراك ما ليلة القدر** ﴾ هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق ، لا يدريها إلا الله سبحانه . قال سفيان : كل مافى القرآن من قوله : ﴿ **وما أدراك** ﴾ فقد أدراه . وكل ما فيه ﴿ وما يدريك ﴾ [عبس : ٣] فلم يدره وكذا قال الفراء . والمعنى : أى شىء تجعله داريا بها ؟ وقد قدمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة: ٣] ثم قال : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ ، قال كثير من المفسرين : أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . واختار هذا الفراء والزجاج ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع . فلما جعل الله الخير الكثير فى ليلة كانت خيرا من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما فى هذه الليلة . وقيل : أراد بقوله : ألف شهر : جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف فى كثير من

الأشياء على طريق المبالغة. وقيل : وجه ذكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر . وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها . وقيل : إن النبى ﷺ رأى أعمار أمته قصيرة ، فخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر . فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم . وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

وجملة : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم** ﴾ مستأنفة مبينة لوجه فضلها ، موضحة للعلة التى صارت بها خيرا من ألف شهر .

وقوله : ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ يتعلق بـ ﴿ **تنزل** ﴾ أو بمحذوف هو حال ، أى ملتبسين بإذن ربهم . والإذن : الأمر . ومعنى ﴿ **تنزل** ﴾ تهبط من السموات إلى الأرض . والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين ، أى : تنزل الملائكة ومعهم جبريل . ووجه ذكره بعد دخوله فى الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه . وقيل : الروح : صنف من الملائكة هم أشرافهم. وقيل: هم جند من جنود الله من غير الملائكة . وقيل : الروح : الرحمة . وقد تقدم الخلاف فى الروح عند قوله: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ [النبأ : ٣٨] . قرأ الجمهور : ﴿**تنزل** ﴾ بفتح التاء . وقرأ طلحة بن مصرف، وابن السميفع بضمها على البناء للمفعول . وقوله : ﴿ **من كل أمر** ﴾ أى من أجل كل أمر من الأمور التى قضى الله بها فى تلك السنة . وقيل : إن ﴿ **من** ﴾ بمعنى اللام ، أى لكل أمر . وقيل :هى بمعنى الباء ، أى بكل أمر . قرأ الجمهور: ﴿**أمر**﴾ وهو واحد الأمور . وقرأ على وابن عباس وعكرمة والكلبى ، « امرئ » مذكر امرأة ، أى من أجل كل إنسان . وتأولها الكلبى على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان فمن على هذا بمعنى على ، والأول أولى.

وقد تم الكلام عند قوله : ﴿ **من كل أمر** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **سلام هى** ﴾ أى ما هى إلا سلامة ، وخير كلها لا شر فيها . وقيل : هى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن أو مؤمنة . قال مجاهد : هى ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى . وقال الشعبى : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، يمرون على كل مؤمن ، ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقيل : يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض . قال عطاء : يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته ﴿**حتى مطلع الفجر** ﴾ أى حتى وقت طلوعه . قرأ الجمهور : ﴿ **مطلع** ﴾ بفتح اللام . وقرأ الكسائى وابن محيصن بكسرها . فقيل : هما لغتان فى المصدر ، والفتح أكثر نحو : المخرج والمقتل . وقيل : بالفتح اسم مكان ، وبالكسر المصدر . وقيل العكس . و « حتى » متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل، أى لمكثهم فى محل تنزلهم بألا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر . وقيل : متعلقة بـ ﴿ **سلام** ﴾ بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله

بالمبتدأ مغتفر .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم . وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل فى ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر . وأخرج الترمذى وضعفه وابن جرير والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ أن النبى ﷺ أرى بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك [1] . فنزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر: ١] يا محمد . يعنى : نهرا فى الجنة . ونزلت : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر .ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ يملكها بعدك بنو أمية [2] .

قال القاسم : فعددنا فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما . والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور فى إسناده . قال الترمذى :إن يوسف هذا مجهول ، يعنى يوسف بن سعد الذى رواه عن الحسن بن على . قال ابن كثير : فيه نظر ، فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ، ويونس بن عبيد، وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور . وفى رواية عن ابن معين قال : هو ثقة . ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن . قال ابن كثير : ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جدًا . قال المزى : هو حديث منكر . وقول القاسم بن الفضل : إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد ولا تنقص ، ليس بصحيح ، فإن جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية ، وهى سنة أربعين ، إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهى سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة .

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن على وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسلا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سلام** ﴾ قال : فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن ، وتفتح فيها أبواب السماء كلها ، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب . فلذا قال : ﴿**سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾ . قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر . والأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، وكذلك الأحاديث فى تعيينها ، والاختلاف فى ذلك .

---

(١) ابن جرير ٣٠/١٦٦ وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٣١ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٥٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل » وابن جرير ٣٠/١٦٧ والطبرانى (٢٥٧٤) وصححه الحاكم ٣/ ١٧٠ ، ١٧١ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٥٠٩ ، ٥١٠ .

تفسير سورة لم يكن

هى ثمان آيات . وهى مدنية فى قول الجمهور . وقيل : مكية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ لم يكن ﴾ بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة « لم يكن» بمكة . وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل بن أبى حكيم المزنى، حدثنى فضل ، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «إن اللّه يستمع قراءة :﴿ لم يكن الذين كفروا﴾ فيقول : أبشر عبدى ، وعزتى وجلالى لأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » قال ابن كثير : حديث غريب جدا . وأخرجه أبو موسى المدينى عن مطر المزنى ، أو المدنى بنحوه [١] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ، قال : قال رسول اللّه ﷺ لأبى بن كعب : « إن اللّه أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ » قال : وسمانى لك ؟ قال : « نعم » . فبكى [٢] . وأخرج أحمد وابن قانع فى معجم الصحابة والطبرانى وابن مردويه عن أبى حية البدرى قال : لما نزلت : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب. . .﴾ إلى آخرها قال جبريل : يا رسول اللّه ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا . فقال النبى ﷺ لأبى: « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة » فقال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول اللّه ؟ قال : « نعم » . فبكى [٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ④ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ⑤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ⑧ ﴾ .

المراد بـ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ : اليهود والنصارى . والمراد بـ ﴿ المشركين﴾: مشركو العرب، وهم عبدة الأوثان . و ﴿ منفكين ﴾ خبر كان . يقال فككت الشىء فانفك ،

---

(١) ابن كثير ٧/ ٣٤٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٥٩) ومسلم فى فضائل الصحابة (٧٩٩/ ١٢١ ، ١٢٢) والترمذى فى المناقب (٣٧٩٢) .

(٣) أحمد ٣/ ٤٨٩ والطبرانى ٢٢/ ٣٢٧ .

أى انفصل . والمعنى : أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عنه . ﴿ **حتى تأتيهم البينة**﴾ وقيل : الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية، أى لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة . وقيل : منفكين : زائلين ، أى لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة . يقال : ما انفك فلان قائما ، أى ما زال قائما . وأصل الفك : الفتح . ومنه فك الخلخال . وقيل : منفكين : بارحين . أى لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : المعنى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ حتى بعث . فلما بعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : ٨٩] وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ **والمشركين** ﴾ أنهم ما كانوا يسيؤون القول فى محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه «الأمين» فلما بعث ، عادوه ، وأساؤوا القول فيه . وقيل: منفكين : هالكين . من قولهم : انفك صلبه ، أى انفصل . فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم . وقيل : إن المشركين هم أهل الكتاب ، فيكون وصفا لهم ؛ لأنهم قالوا : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله .

قال الواحدى : ومعنى الآية : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان . وهذا بيان عن النعمة والإنقاذ به من الجهل والضلالة . والآية فيمن آمن من الفريقين. قال : وهذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما وتفسيرا ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، وسلكوا فى تفسيرها طرقا لا تفضى بهم إلى الصواب . والوجه ما أخبرتك ، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال . قال : ويدل على أن البينة محمد ﷺ أنه فسرها وأبدل منها ، فقال : ﴿ **رسول من الله يتلو صحفا مطهرة** ﴾ يعنى ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن . ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب انتهى كلامه . وقيل : إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون : أنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبى الموعود به. فلما بعث ، تفرقوا كما حكاه الله عنهم فى هذه السورة . والبينة على ما قاله الجمهور هو محمد ﷺ لأنه فى نفسه بينة وحجة . ولذلك سماه سراجا منيرا . وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله : ﴿ **رسول من الله**﴾ فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة . وقال قتادة وابن زيد : البينة هى القرآن كقوله : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ [طه : ١٣٣] وقال أبو مسلم : المراد بالبينة : مطلق الرسل ، والمعنى : حتى تأتيهم رسل من الله ، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة . والأولى أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين** ﴾ وقرأ ابن مسعود : «لم يكن المشركون وأهل الكتاب » . قال ابن العربى: وهى قراءة فى معرض البيان ، لا فى معرض التلاوة . وقرأ الأعمش، والنخعى :« والمشركون » بالرفع عطفا على الموصول . وقرأ أُبى : « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون » . قرأ الجمهور : ﴿ **رسول من**

الله﴾ برفع ﴿ **رسول** ﴾ على أنه بدل كل من كل مبالغة ، أو بدل اشتمال . قال الزجاج: رسول رفع على البدل من البينة . وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ،أى هى رسول، أو هو رسول . وقرأ أبى وابن مسعود : « رسولا » بالنصب على القطع وقوله : ﴿ **من الله**﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول ، أى كائن من الله ، ويجوز تعلقه بنفس رسول . وجوز أبو البقاء أن يكون حالا من « صحف » . والتقدير : يتلو صحفًا مطهرة منزلة من الله . وقوله : ﴿ **يتلو صحفا مطهرة** ﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول ، أو:حالا من متعلق الجار والمجرور قبله . ومعنى ﴿ **يتلو** ﴾ : يقرأ . يقال : تلا يتلو تلاوة . والصحف :جمع صحيفة. وهى ظرف المكتوب .ومعنى ﴿ **مطهرة** ﴾ أنها منزهة من الزور والضلال. قال قتادة من الباطل. وقيل : مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد . والمعنى : أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، لأنه كان ﷺ يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب كما تقدم.

وقوله :﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ صفة لـ﴿ **صحفا** ﴾، أو حال من ضميرها . والمراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة ، من قول العرب : قام الشىء : إذا استوى وصح . وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله :﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١] أى حكم . وقوله ﷺ فى قصة العسيف : « لأقضين بينكما بكتاب الله » . ثم قضى بالرجم ، وليس الرجم فى كتاب الله . فالمعنى : لأقضين بينكما بحكم الله. وبهذا يندفع ما قيل إن الصحف هى الكتب ، فكيف قال : ﴿ **صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة** ﴾ ؟ وقال الحسن : يعنى بالصحف المطهرة التى فى السماء ، يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢] .

﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمدًا . فلما بعث، تفرقوا فى أمره ، واختلفوا ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون . وخص أهل الكتاب وإن كان غيرهم مثلهم فى التفرق بعد مجىء البينة، لأنهم كانوا أهل علم. فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف . والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾ مفرغ من أعم الأوقات، أى وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة ، وهى بعثه رسول الله ﷺ بالشريعة الغراء والمحجة البيضاء . وقيل: البينة : البيان الذى فى كتبهم أنه نبى مرسل كقوله : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ [آل عمران : ١٩] قال القرطبى : قال العلماء : من أول السورة قوله : ﴿**كتب قيمة** ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : ﴿ **وما تفرق . .** ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وجملة : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا اللّه ﴾ فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة ، أى والحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا اللّه ويوحدوه حال كونهم ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أى جاعلين دينهم خالصا له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين . وقيل : إن اللام فى :﴿ ليعبدوا﴾ بمعنى « أن » أى ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله : ﴿ يريد اللّه ليبين لكم ﴾ [النساء : ٢٦] أى أن يبين و ﴿ يريدون ليطفئوا نور اللّه ﴾ [الصف : ٨] أى أن يطفئوا . قرأ الجمهور : ﴿مخلصين﴾ بكسر اللام . وقرأ الحسن بفتحها . وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات ، لأن الإخلاص من عمل القلب . وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال من ضمير ﴿ مخلصين ﴾ ، فتكون من باب التداخل . ويجوز أن تكون من فاعل « يعبدوا » . والمعنى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال أهل اللغة : أصله أن يحنف إلى دين الإسلام، أى يميل إليه . ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أى يفعلوا الصلوات فى أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند محلها . وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين . قيل : إن أريد بالصلاة والزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر . وإن أريد ما فى شريعتنا ، فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين : أمرهم باتباع شريعتنا . وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها . ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أى وذلك المذكور من عبادة اللّه وإخلاصها وإقام الصلاة والزكاة ﴿ دين القيمة ﴾ أى دين الملة المستقيمة . قال الزجاج : أى ذلك دين الملة المستقيمة . فالقيمة صفة لموصوف محذوف . قال الخليل : القيمة جمع القيم ، والقيم :القائم . قال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة . وهو نعته ، لاختلاف اللفظين . وقال أيضا : هو من إضافة الشيء إلى نفسه . ودخلت الهاء للمدح والمبالغة .

ثم بين سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا ، فقال : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم ﴾ . الموصول اسم « إن » و ﴿ المشركين ﴾ معطوف عليه . وخبرها ﴿ فى نار جهنم ﴾ و﴿خالدين فيها ﴾ حال من المستكن فى الخبر . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ والمشركين ﴾ مجرورًا عطفا على أهل الكتاب. ومعنى كونهم فى نار جهنم : أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . والإشارة بقوله : ﴿أولئك ﴾ إلى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون فى نار جهنم والخلود فيها ﴿ هم شر البرية ﴾ أى الخليقة . يقال : برأ ، أى خلق . والبارئ : الخالق . والبرية : الخليقة . قرأ الجمهور : ﴿البرية ﴾ بغير همز فى الموضعين . وقرأ نافع وابن ذكوان فيهما بالهمز. قال الفراء : إن أخذت البرية من : البراء ، وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ . وإن أخذتها من : بريت القلم ، أى قدّرته ، دخلت . وقيل : إن الهمز هو الأصل ، لأنه يقال : برأ اللّه الخلق بالهمز ، أى ابتدعه واخترعه . ومنه قوله : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد : ٢٢] ولكن خففت الهمزة ، والتزم تخفيفها عند عامة العرب .

ثم بين حال الفريق الآخر فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿**أولئك**﴾ المنعوتون بهذا ﴿ **هم خير البرية** ﴾ قال : والمراد : أن أولئك شر البرية فى عصره ﷺ . ولا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم . ﴿**جزاؤهم عند ربهم**﴾ أى ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . والمراد بجنات عدن : هى أوسط الجنات وأفضلها . يقال : عدن بالمكان يعدن عدنًا ، أى أقام . ومعدن الشىء :مركزه ومستقره . ومنه قول الأعشى :

وإن يستضافوا إلى علمه يضافوا إلى راجح قد عدن

وقد قدمنا فى غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر . وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر ، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر . ﴿ **خالدين فيها أبدا**﴾ لا يخرجون منها ، ولا يظعنون عنها ، بل هم دائمون فى نعيمها ، مستمرون فى لذاتها ، ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء . وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره ، وقبلوا شرائعه. ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ويجوز أن تكون الجملة خبرًا ثانيًا ، وأن تكون فى محل نصب على الحال بإضمار قد. ﴿**ذلك لمن خشى ربه**﴾ أى ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه فى الدنيا ، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التى وقعت له ، لا مجرد الخشية مع الانهماك فى معاصى الله سبحانه ، فإنها ليست بخشية على الحقيقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **منفكين** ﴾ قال : برحين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ؟ والذى نفسى بيده ، لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك . واقرؤوا إن شئتم : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريـة** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت : يا رسول الله ، من أكرم الخلق على الله؟ قال : « ياعائشة ، أما تقرئين : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** ﴾ » . وأخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله ، قال: كنا عند النبى ﷺ فأقبل علىّ ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » ونزلت: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾، فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل قالوا : قد جاء خير البرية . وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعا : « على خير البرية » [1] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾

(١) ابن عدى ١/ ١٧٠ .

قال رسول الله ﷺ لعلى : « هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » . وأخرج ابن مردويه عن على مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بشر البرية ؟» قالوا : بلى . قال : « الذى يسأل بالله ولا يعطى به » [1] . قال أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ .. فذكره .

(١) أحمد ٢/٣٩٦ .

تفسير سورة الزلزلة

هي ثمان آيات . وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ بالمدينة . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عَمْرو قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال :أقرئني يا رسول الله . قال : « اقرأ ثلاثًا من ذوات الراء » . فقال الرجل : كبر سني ، واشتد قلبي ، وغلظ لساني . قال : « اقرأ ثلاثًا من ذوات حم » . فقال مثل مقالته الأولى . فقال : « اقرأ ثلاثًا من المسبحات » . فقال مثل مقالته الأولى، وقال : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ حتى فرغ منها. قال الرجل : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » [(١)] . وأخرج الترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله : « من قرأ: ﴿ **إذا زلزلت الأرض** ﴾ عدلت له بنصف القرآن ، ومن قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عدلت له بثلث القرآن، ومن قرأ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عدلت له بربع القرآن » [(٢)] .

وأخرج الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ تعدل نصف القرآن ، و﴿ **قل هو الله أحد**﴾ تعدل ثلث القرآن . و﴿ **قل يأيها الكافرون**﴾ تعدل ربع القرآن » [(٣)] . قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجت يا فلان ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندي ما أتزوج به . قال : « أليس معك ﴿قل هو الله أحد ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : «ثلث القرآن ». قال: « أليس معك ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴿ **إذا زلزلت الأرضَ** ﴾ ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن . تزوج » . قال الترمذي : هذا حديث حسن [(٤)] . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ في

---

(١) أحمد ٢/ ١٦٩ وأبو داود في الصلاة (١٣٩٩) والنسائي في الكبرى في فضائل القرآن (٨٠٢٧) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٢٢٨٢) .

(٢) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٣) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سَلْم » والبيهقي في الشعب (٢٢٨٦) .

(٣) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٤) وصححه الحاكم ١/ ٥٦٦ وقال الذهبي : « بل يمان ضعفوه » والبيهقي في الشعب (٢٢٨٤) وإسناده ضعيف .

(٤) الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٥) .

ليلة : ﴿ إذا زلزلت ﴾ كان له عدل نصف القرآن » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ .

قوله : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ أى إذا حركت حركة شديدة . وجواب الشرط : ﴿ **تحدث** ﴾ . والمراد : تحركها عند قيام الساعة ، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها قال مجاهد : وهى النفخة الأولى لقوله تعالى : ﴿يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات : ٦ ، ٧] وذكر المصدر للتأكيد ، ثم أضافه إلى الأرض ، فهو مصدر مضاف إلى فاعله ، والمعنى : زلزالها المخصوص الذى يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها . قرأ الجمهور : ﴿**زلزالها** ﴾ بكسر الزاى . وقرأ الجحدرى وعيسى بفتحها . وهما مصدران بمعنى . وقيل : المكسور مصدر ، والمفتوح اسم . قال القرطبى : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال . ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها**﴾ أى ما فى جوفها من الأموات والدفائن . والأثقال: جمع ثقل . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها . وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها . قال مجاهد : أثقالها : موتاها تخرجهم فى النفخة الثانية . وقد قيل للإنسان والجن : الثقلان . وإظهار الأرض فى موضع الإضمار لزيادة التقرير .

﴿ **وقال الإنسان مالها** ﴾ أى قال كل فرد من أفراد الإنسان : ما لها زلزلت ؟ لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها . وقيل : المراد بالإنسان : الكافر . وقوله : ﴿ **مالها** ﴾ مبتدأ وخبر . وفيه معنى التعجيب ، أى أىّ شيء لها؟ أو لأى شيء زلزلت وأخرجت أثقالها ؟ وقوله : ﴿ **يومئذ** ﴾ بدل من « إذا » . والعامل فيهما قوله : ﴿ **تحدث أخبارها** ﴾ ويجوز أن يكون العامل فى « إذا » محذوفًا ، والعامل فى ﴿ **يومئذ** ﴾ تحدث . والمعنى : يوم إذا زلزلت وأخرجت ؛ تخبر بأخبارها ، وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر . وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة . أو بلسان المقال بأن ينطقها اللّه سبحانه . وقيل : هذا متصل بقوله : ﴿ **وقال الإنسان مالها** ﴾ أى قال : مالها تحدث أخبارها ؟ متعجبًا من ذلك. وقال يحيى بن سلام : تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها . وقيل : تحدث بقيام الساعة ، وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت . قال ابن جرير : تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة ، وإخراج الموتى . ومفعول تحدث الأول محذوف ، والثانى هو أخبارها . أى تحدث الخلق أخبارها . ﴿**بأن ربك أوحى لها** ﴾ متعلق بـ﴿**تحدث** ﴾ ، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها . وقيل : الباء زائدة . و« أن » وما فى حيزها بدل من ﴿ **أخبارها** ﴾ . وقيل : الباء سببية ، أى

بسبب إيحاء الله إليها . قال الفراء : تحدث أخبارها بوحى الله وإذنه لها . واللام فى ﴿ أوحى لها ﴾ بمعنى إلى . وإنما أثرت على « إلى » لموافقة الفواصل . والعرب تضع لام الصفة موضع إلى . كذا قال أبو عبيدة . وقيل : إن ﴿ أوحى ﴾ يتعدى باللام تارة ، وبـ« إلى » أخرى . وقيل : إن اللام على بابها من كونها للعلة . والموحى إليه محذوف ، وهو الملائكة. والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض ، أى لأجل ما يفعلون فيها . والأول أولى .

﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ﴾ الظرف إما بدل من ﴿ يومئذ ﴾ الذى قبله ، وإما منصوب بمقدر هو «اذكر» وإما منصوب بما بعده ، والمعنى : يومئذ يقع ما ذكر ، يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتًا ، أى متفرقين . والصدر : الرجوع . وهو ضد الورود . وقيل : يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار . وانتصاب ﴿ أشتاتا ﴾ على الحال . والمعنى : أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة ، وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد . وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين ، وبعضهم إلى جهة الشمال مع تفرقهم فى الأديان واختلافهم فى الأعمال . ﴿ليروا أعمالهم ﴾ متعلق بـ﴿يصدر﴾. وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم، ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ ليروا ﴾ مبنيًا للمفعول . وهو من رؤية البصر ، أى ليريهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن ، والأعرج ، وقتادة وحماد بن سلمة ونصر بن عاصم وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل. ورويت هذه القراءة عن نافع ، والمعنى : ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ﴾ أى وزن نملة . وهى أصغر ما يكون من النمل . قال مقاتل : فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرة خيرا ، يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به . وكذلك من يعمل فى الدنيا ﴿ مثقال ذرة شرا يره ﴾ يوم القيامة فيسوؤه . ومثل هذه الآية قوله : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء : ٤٠] . وقال بعض أهل اللغة : إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب ، فهو الذرة . وقيل : الذر ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء . والأول أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول   من الذر فـوق الإتب منها لأثـرا

و « من » الأولى عبارة عن السعداء . و« من » الثانية عبارة عن الأشقياء . وقال محمد بن كعب : فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ، يرى ثوابه فى الدنيا ، وفى نفسه ، وماله ، وأهله ، وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن ، يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله ، ونفسه ، وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر . والأول أولى . قال مقاتل : نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول : إنما أوعد الله

النار على الكافرين . قرأ الجمهور : ﴿ يرهُ ﴾ فى الموضعين بضم الهاء وصلا ، وسكونها وقفًا. وقرأ هشام بسكونها وصلا ووقفًا . ونقل أبو حيان عن هشام وأبى بكر سكونها . وعن أبى عمرو ضمها مشبعة . وباقى السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية . وفى هذا النقل نظر . والصواب ما ذكرنا . وقرأ الجمهور : ﴿ يره ﴾ مبنيًا للفاعل فى الموضعين . وقرأ ابن عباس وابن عمر والحسن والحسين ابنا على وزيد بن على وأبو حيوة وعاصم والكسائى ، فى رواية عنهما ، والجحدرى والسلمى وعيسى على البناء للمفعول فيهما ، أى يريه الله إياه . وقرأ عكرمة : يراه على توهم أن « من » موصولة ، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة فى الفعل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ قال : تحركت من أسفلها . ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال : الموتى . ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ قال : الكافر يقول : مالها . ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : قال لها ربك : قولى . ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال : أوحى لها : ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ﴾ ، قال : من كل من هاهنا وهاهنا . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال : الكنوز والموتى . وأخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت . ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رحمى، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدى . ثم يدعونه ، فلا يأخذون منه شيئًا » (١) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : «أتدرون ما أخبارها؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها . تقول : عمل كذا وكذا . فهذا أخبارها » (٢) .

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها » . وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى بلغ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها﴾ (٣) .

وأخرج الطبرانى عن ربيعة الجرشى أن رسول الله قال : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أوشرا إلا وهى مخبرة » (٤) .

---

(١) مسلم فى الزكاة (١٣ · ١/ ٦٢) والترمذى فى الفتن (٢٢٠٨) .

(٢) أحمد ٢/ ٣٧٤ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٧١٣) وصححه الحاكم ٢/ ٥٣٢ وقال الذهبى : « يحيى هذا منكر الحديث ، قاله البخارى » والبيهقى فى الشعب (٧٢٩٨) ط . الكتب العلمية .

(٣) البيهقى فى الشعب (٧٢٩٦) .

(٤) الطبرانى (٤٥٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٤٦ : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف ، وربيعة الجرشى مختلف فى صحبته » وقال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب ١/ ٢٤٧ : « وثقه الدارقطنى وغيره » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم فى تاريخه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى ﷺ ، إذ نزلت عليه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره**﴾. فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله إنى لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر . فقال: « يا أبا بكر ، أرأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك مثاقيل ذر الخيرحتى توفاه يوم القيامة ».(١) وأخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أبى أسماء قال : بينا أبو بكر يتغدى مع رسول الله ، إذ نزلت هذه الآية : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ فأمسك أبو بكر وقال : يا رسول الله ، ما عملنا من شىء رأيناه . فقال : « ما ترون مما تكرهون ، فذاك مما تجزون ، ويؤخر الخير لأهله فى الآخرة » (٢) . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أنزلت : ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ وأبو بكر الصديق قاعد ، فبكى . فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال : يبكينى هذه السورة . فقال : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم ، لخلق الله قومًا يخطئون ويذنبون ، فيغفر لهم » (٣) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر. . . » الحديث . وقال : وسئل عن الحمر فقال : « ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة، الفاذة : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ » (٤).

---

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٧٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٤ ، ١٤٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه موسى ابن سهل ، والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف » وقال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب ٢/ ٢٨٤ : « هو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (٩٨٠٨) .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٣٣ وقال الذهبى : « مرسل » .

(٣) ابن جرير ٣٠/ ١٧٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٤ : « رواه الطبرانى وفيه حيى بن عبد الله المعافرى ، وثقه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » والبيهقى فى الشعب (٧١٠٣) عن ابن عمر .

(٤) البخارى فى الجهاد (٢٨٦٠) ومسلم فى الزكاة (٩٨٧/ ٢٤) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٨٨) .

تفسير سورة العاديات

هى إحدى عشرة آية . وهى مكية فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية فى قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة :﴿ **والعاديات** ﴾ بمكة .وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال:قال رسول الله ﷺ: « ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ تعدل نصف القرآن ﴿**والعاديات** ﴾ تعدل نصف القرآن ». وهو مرسل. وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعًا مثله.وزاد:« و﴿**قل هو الله أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ تعدل ربع القرآن» .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾ .

العاديات : جمع عادية . وهى الجارية بسرعة من العدو ، وهو المشى بسرعة ، فأبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها ، كالغازيات من الغزو . والمراد بها : الخيل العادية فى الغزو نحو العدو . وقوله : ﴿ **ضبحًا** ﴾ مصدر مؤكد لاسم الفاعل. فإن الضبح نوع من السير ، ونوع من العدو . يقال : ضبح الفرس : إذا عدا بشدة، مأخوذ من الضبع، وهو الدفع ، وكأن الحاء بدل من العين . قال أبو عبيدة والمبرد : الضبح من إضباحها فى السير، ومنه قول عنترة :

والخيل تكدح فى حياض الموت ضبحا

ويجوز أن يكون مصدرًا فى موضع الحال ، أى ضابحات ، أو ذوات ضبح . ويجوز أن يكون مصدرًا لفعل محذوف، أى تضبح ضبحًا . وقيل : الضبح : صوت حوافرها إذا عدت . وقال الفراء : الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت . قيل : كانت تكعم لئلا تصهل ، فيعلم العدو بهم ، فكانت تتنفس فى هذه الحالة بقوة . وقيل : الضبح : صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ، ليس بصهيل . وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن ﴿**العاديات ضبحًا**﴾ : هى الخيل. وقال عبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدى : هى الإبل ، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع   بأيديها إذا سطع الغبار

ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب ، فاستعير للخيل ، ومنه قول الشاعر :

تضبح فى الكف ضباح الثعلب

﴿ فالموريات قدحًا ﴾ هى الخيل حين تورى النار بسنابكها . والإيراء : إخراج النار . والقدح : الصك . فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد . قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل ، وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران. والكلام فى انتصاب ﴿ قدحا ﴾ كالكلام فى انتصاب ﴿ ضبحًا ﴾ والخلاف فى كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذى تقدم فى العاديات . والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة فى هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتى ، فإنها فى الخيل أوضح منها فى الإبل ، وسيأتى ما فى ذلك من الخلاف بين الصحابة . ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ أى التى تغير على العدو وقت الصباح . يقال : أغار يغير إغارة : إذا باغت عدوه بقتل، أو أسر ، أو نهب . وأسند الإغارة إليها ، وهى لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم فى إغارتهم ، وانتصاب ﴿ صبحًا ﴾ على الظرفية .

﴿ فأثرن به نقعًا ﴾ معطوف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتى عدون فأثرن ، أو على اسم الفاعل نفسه ، لكونه فى تأويل الفعل ، لوقوعه صلة للموصول ، فإن الألف واللام فى الصفات أسماء موصولة. فالكلام فى قوة : واللاتى عدون فأورين ، فأغرن ، فأثرن . والنقع : الغبار الذى أثرته فى وجه العدو عند الغزو وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه وقت الإغارة ، ولكونه لا يظهر أثر النقع فى الليل الذى اتصل به الصبح . وقيل: المعنى: فأثرن بمكان عدوهن نقعًا . يقال : ثار النقع وأثرته ، أى هاج ، أو هيجته . قرأ الجمهور : ﴿فأثرن﴾ بتخفيف المثلثة . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالتشديد ، أى فأظهرن به غبارًا . وقال أبو عبيدة : النقع : رفع الصوت ، وأنشد قول لبيد :

فمتى ينقع صراخ صادق　　　يجلبوها ذات جرس وزجل

يقول : حين سمعوا صراخًا ، أجلبوا الحرب ، أى جمعوا لها . قال أبو عبيدة : وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم . انتهى . والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع: الغبار ، ومنه قول الشاعر :

يخرجن من مستطار النقع دامية　　　كأن أذنابها أطراف أقلام

وقول عبد الله بن رواحة :

عدمنا خيلنا إن لم تروها　　　تثير النقع من كنفى كداء

وقول الآخر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا　　　وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا هو المناسب لمعنى الآية ، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى . فإن قولك:

أغارت الخيل على بنى فلان صبحًا ، فأثرن به صوتًا ، قليل الجدوى ، مغسول المعنى ، بعيد من بلاغة القرآن المعجزة . وقيل : النقع : شق الجيوب. وقال محمد بن كعب : النقع ما بين مزدلفة إلى منى . وقيل : إنه طريق الوادى . قال فى الصحاح : النقع : الغبار. والجمع أنقاع. والنقع : محبس الماء . وكذلك ما اجتمع فى البئر منه . والنقع : الأرض الحرة الطين ينقع فيها الماء. ﴿ فوسطن به جمعًا ﴾ أى توسطن بذلك الوقت ، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعًا من جموع الأعداء ، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء . والباء إما للتعدية ، أو للحالية ، أو زائدة . يقال : وسطت المكان، أى صرت فى وسطه . وانتصاب ﴿ جمعًا ﴾ على أنه مفعول به . والفاءات فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتيب ما بعد كل واحـدة منها على ما قبلها . قـرأ الجمهور : ﴿فوسطن﴾ بتخفيف السين . وقرئ بالتشديد .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ هذا جواب القسم . والمراد بالإنسان : بعض أفراده ، وهو الكافر . والكنود : الكفور للنعمة . وقوله : ﴿ لربه ﴾ متعلق بكنود . قدم لرعاية الفواصل ، ومنه قول الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنـودًا لنعـمـاء الرجـال يبـعد

أى كفور لنعماء الرجال . وقيل : هو الجاحد للحق . قيل : إنها إنما سميت كندة ؛ لأنها جحدت أباها . وقيل : الكنود مأخوذ من الكند ، وهو القطع ، كأنه قطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر . يقال : كند الحبل : إذا قطعه ، ومنه قول الأعشى :

وصول حبال وكنادها

وقيل : الكنود : البخيل ، وأنشد أبو زيد :

إن نفسى لم تطب منك نفسا غير أنى أمسى بدين كنود

وقيل : الكنود : الحسود . وقيل : الجهول لقدره . وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام . والجاحد للنعمة كافر لها . ولا يناسب المقام سائر ما قيل . ﴿ وإنه على ذلك لشهيد﴾ أى وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه . وقيل : المعنى : وإن اللّه جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . وبه قال الجمهور . وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب . وهو أرجح من قول الجمهور لقوله : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان. والمعنى : إنه لحب المال قوى مجد فى طلبه وتحصيله ، متهالك عليه ، يقال : هو شديد لهذا الأمر ، وقوى له : إذا كان مطيقًا له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن ترك خيرًا ﴾ [البقرة : ١٨٠] ومنه قول عدى بن حاتم :

ماذا ترجى النفوس من طلب الـ ـخير وحب الحياة كاربها

وقيل : المعنى : وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل . والأول أولى . واللام فى

﴿الحب﴾ متعلقة بشديد . قال ابن زيد : سمى الله المال خيرًا ، وعسى أن يكون شرًا ؛ ولكن الناس يجدونه خيرًا ، فسماه خيرًا . قال الفراء : أصل نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير . فلما قدم الحب قال : لشديد . وحذف من آخره ذكر الحب ؛ لأنه قد جرى ذكره. ولرؤوس الآى كقوله : ﴿ فى يوم عاصف ﴾ [إبراهيم : ١٨] والعصوف للريح ، لا لليوم ، كأنه قال : فى يوم عاصف الريح .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ﴾ الاستفهام للإنكار . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى يفعل ما يفعل من القبائح ، فلا يعلم . و ﴿ بعثر ﴾ معناه : نثر وبحث ، أى نثر ما فى القبور من الموتى ، وبحث عنهم وأخرجوا . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع : جعلت أسفله أعلاه . قال الفراء : سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول : « بحثر » بالحاء مكان العين . وقد تقدم الكلام على هذا فى قوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ [الانفطار: ٤]. ﴿وحصل ما فى الصدور﴾ أى ميز وبين ما فيها من الخير والشر . والتحصيل : التمييز ، كذا قال المفسرون . وقيل: حصل :أبرز . قرأ الجمهور : ﴿حصل﴾ بضم الحاء ، وتشديد الصاد مكسورًا مبنيًا للمفعول . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم: « حصل » بفتح الحاء والصاد وتخفيفها مبنيًا للفاعل، أى ظهر . ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أى إن رب المبعوثين بهم لخبير ، لا تخفى عليه منهم خافية ، فيجازيهم بالخير خيرًا ، وبالشر شرًا . قال الزجاج : الله خبير بهم فى ذلك اليوم وفى غيره ، ولكن المعنى : إن الله يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم . ومثله قوله تعالى : ﴿أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ [النساء : ٦٣] معناه : أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم . قرأ الجمهور : ﴿إن ربهم ﴾ بكسر الهمزة وباللام فى ﴿ لخبير ﴾ . وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة ، وإسقاط اللام من ﴿لخبير ﴾ .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلا ، فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر ، فنزلت: ﴿والعاديات ضبحا ﴾: ضبحت بأرجلها. ولفظ ابن مردويه : ضبحت بمناخيرها .. ﴿فالموريات قدحا ﴾ : قدحت بحوافرها الحجارة ، فأورت نارًا . ﴿فالمغيرات صبحا﴾ : صبحت القوم بغارة . ﴿ فأثرن به نقعًا ﴾ : أثارت بحوافرها التراب . ﴿ فوسطن به جمعا ﴾ : صبحت القوم جميعًا . وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو ، فأبطأ خبرها ، فشق ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم ، وما كان من أمرهم ، فقال: ﴿والعاديات ضبحا﴾. قال : هى الخيل . والضبح : نخير الخيل حين تنخر . ﴿فالموريات قدحًا ﴾ ، قال : حين تجرى الخيل تورى نارًا أصابت بسنابكها الحجارة . ﴿فالمغيرات صبحا ﴾ قال : هى الخيل أغارت فصبحت العدو . ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ قال : هى الخيل أثرن بحوافرها ، يقول : تعدو الخيل ، والنقع : الغبار . ﴿ فوسطن به جمعًا ﴾ قال : الجمع : العدو .

وأخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال : تقاولت أنا وعكرمة فى شأن العاديات ، فقال : قال ابن عباس : هى الخيل فى القتال ، وضبحها : حين ترخى مشافرها إذا عدت . ﴿فالموريات قدحا﴾: أرت المشركين مكرهم . ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ قال : إذا صبحت العدو. ﴿ فوسطن به جمعًا ﴾ قال : إذا توسطت العدو . وقال أبو صالح : فقلت : قال على : هى الإبل فى الحج . ومولاى كان أعلم من مولاك .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : بينما أنا فى الحجر جالس ، إذ أتانى رجل يسأل عن ﴿ العاديات ضبحا ﴾ فقلت : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم ، فانفتل عنى ، فذهب إلى على بن أبى طالب ، وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن ﴿ العاديات ضبحًا ﴾ فقال : سألت عنها أحدًا قبلى ؟ قال: نعم ، سألت عنها ابن عباس ، فقال : هى الخيل حين تغير فى سبيل الله . فقال : اذهب ، فادعه لى . فلما وقفت على رأسه ، قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة فى الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير ، وفرس للمقداد ابن الأسود ، فكيف تكون العاديات ضبحًا ، إنما العاديات ضبحًا من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة ، أوقدوا النيران، والمغيرات صبحًا من المزدلفة إلى منى . فذلك جمع . وأما قوله : ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ فهى نقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها . قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ، ورجعت إلى الذى قال على . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ والعاديات ضبحا﴾ قال : الإبل . أخرجه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعى . قال إبراهيم : وقال على بن أبى طالب: هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل . فبلغ على قول ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كانت تلك فى سرية بعثت . وأخرج عبد بن حميد ، عن عامر الشعبى ، قال : تمارى على وابن عباس فى ﴿ العاديات ضبحًا ﴾ ، فقال ابن عباس : هى الخيل . وقال على : كذبت يابن فلانة . والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق . قال : وكان يقول : هى الإبل . فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعًا ، فما شىء تثيره إلا بحوافرها .

وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس : ﴿والعاديات ضبحًا ﴾ قال : الخيل. ﴿ فالموريات قدحا ﴾ قال : الرجل إذا أورى زنده . ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ قال : الخيل تصبح العدو . ﴿فأثرن به نقعًا﴾ قال : التراب . ﴿ فوسطن به جمعًا ﴾ قال : العدو . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : ﴿والعاديات ضبحًا﴾ قال : قال ابن عباس: القتال . وقال ابن مسعود : الحج . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس : ﴿ والعاديات ضبحًا﴾ ، قال: ليس شىء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس. ﴿ فالموريات قدحًا ﴾ قال : هو مكر

الرجل قدح فأورى. ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ قال : غارة الخيل صبحًا . ﴿ فأثرن به نقعًا ﴾ قال : غبار وقع سنابك الخيل . ﴿فوسطن به جمعًا ﴾ قال : جمع العدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والعاديات ضبحًا ﴾ قال : الخيل ضبحها زحيرها . ألم تر أن الفرس إذا عدا قال : أح أح . فذلك ضبحها . وأخرج ابن المنذر عن على قال: الضبح من الخيل : الحمحمة . ومن الإبل : النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود : ﴿والعاديات ضبحا﴾ قال : هى الإبل فى الحج . ﴿ فالموريات قدحًا ﴾ : إذا سفت الحصى بمناسمها ، فضرب الحصى بعضه بعضًا ، فيخرج منه النار . ﴿ فالمغيرات صبحًا ﴾ : حين يفيضون من جمع . ﴿ فأثرن به نقعا ﴾ قال : إذا سرن يثرن التراب .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد : الكفور . وأخرج ابن عساكر عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ قال : « لكفور » . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب ، والحكيم الترمذى وابن مردويه عن أبى أمامة قال : الكنود الذى يمنع رفده ، وينزل وحده ، ويضرب عبده . ورواه عنه ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والديلمى وابن عساكر مرفوعًا ، وضعف إسناده السيوطى . وفى إسناده جعفر بن الزبير . وهو متروك . والموقوف أصح لأنه لم يكن من طريقه (١) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال : الإنسان . ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ قال : المال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ إذا بعثر ما فى القبور ﴾ قال : بحث . ﴿وحصل ما فى الصدور ﴾ قال : أبرز .

---

(١) ابن جرير ٣٠/ ١٨٠ والطبرانى (٧٩٥٨) .

تفسير سورة القارعة

هى إحدى عشرة آية . وقيل : عشر آيات . وهى مكية بلا خلاف . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة القارعة بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١ ﴾ .

القارعة من أسماء القيامة ؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب . والعرب تقول : قرعتهم القارعة : إذا وقع بهم أمر فظيع ، قال ابن أحمر :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لراحت عنك حينا

وقال آخر :

متى نقرع بمروتكم نسؤكم ولما يوقد لنا فى القدر نار

و ﴿ القارعة ﴾ مبتدأ ، وخبرها قوله : ﴿ ما القارعة ﴾ . وبالرفع قرأ الجمهور . وقرأ عيسى بنصبها على تقدير : احذروا القارعة . والاستفهام للتعظيم والتفخيم لشأنها ، كما تقدم بيانه فى قوله : ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ١ــ٣] . وقيل : معنى الكلام على التحذير . قال الزجاج : والعرب تحذر وتغرى بالرفع كالنصب ، وأنشد قول الشاعر :

لجديرون بالوفاء إذا قال أخو النجدة السلاح السلاح

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير ، فإنه أدل على هذا المعنى . ويؤيده أيضا قوله : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ، ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تنالها دراية أحد منهم . و« ما » الاستفهامية مبتدأ ، و ﴿ أدراك ﴾ خبرها . و﴿ ما القارعة ﴾ مبتدأ وخبر . والجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى ، والمعنى : وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة ، فقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ . وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة ، أى تقرعهم يوم يكون الناس . . . إلخ . ويجوز

أن يكون منصوبًا بتقدير : اذكر . وقال ابن عطية ومكى وأبو البقاء : هو منصوب بنفس القارعة . وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف ، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل . فالفتحة فتحة بناء، لا فتحة إعراب ، أى هى يوم يكون . . . إلخ . وقيل : التقدير : ستأتيكم القارعة . يوم يكون . وقرأ زيد بن على برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر . و﴿الفراش ﴾ الطير الذى تراه يتساقط فى النار والسراج . والواحدة فراشة كذا قال أبو عبيدة وغيره. قال الفراء : الفراش هو الطائر من بعوض وغيره . ومنه الجراد . قال : وبه يضرب المثل فى الطيش والهوج . يقال: أطيش من فراشة ، وأنشد :

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن   يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقول آخر :

وقد كان أقوام رددت حلومهم   عليهم وكانوا كالفراش من الجهل

والمراد بالمبثوث : المتفرق المنتشر . يقال : بثه : إذا فرقه . ومثل هذا قوله سبحانه فى آية أخرى : ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر : ٧] وقال : ﴿ المبثوث ﴾ ولم يقل : المبثوثة ؛ لأن الكل جائز كما فى قوله : ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] و ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : ٧] وقد تقدم بيان وجه ذلك . ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذى نفش بالندف . والعهن عند أهل اللغة : الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة . وقد تقدم بيان هذا فى سورة ﴿ سأل سائل ﴾ وقد ورد فى الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة . وقد قدمنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية ﴾ . قد تقدم القول فى الميزان فى سورة الأعراف ، وسورة الكهف، وسورة الأنبياء . وقد اختلف فيها هنا . فقيل: هى جمع موزون ، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله . وبه قال الفراء وغيره . وقيل : هى جمع ميزان ، وهو الآلة التى توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع ، كما يقال : لكل حادثة ميزان. وقيل : المراد بالموازين : الحجج والدلائل ، كما فى قول الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة   عندى لكل مخاصم ميزانه

ومعنى ﴿ عيشة راضية ﴾ : مرضية يرضاها صاحبها . قال الزجاج : أى ذات رضى يرضاها صاحبها . وقيل: ﴿عيشة راضية ﴾ أى فاعلة للرضى . وهو اللين ، والانقياد لأهلها ، والعيشة كلمة تجمع النعم التى فى الجنة . ﴿وأما من خفت موازينه ﴾ أى رجحت سيئاته على حسناته ، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ﴿ فأمه هاوية ﴾ أى فمسكنه جهنم . وسماها أمه ، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه . والهاوية من أسماء جهنم . وسميت هاوية، لأنه يهوى

فيها مع بعد قعرها ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا   فيها مقابرنا وفيها نولد

وقول الآخر :

يا عمرو لو نالتك أرماحنا   كنت كمن تهوى به الهاويه

والمهوى والمهواة : ما بين الجبلين ، وتهاوى القوم فى المهواة : إذا سقط بعضهم فى إثر بعض . قال قتادة : معنى ﴿فأمه هاوية ﴾ : فمصيره إلى النار . قال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه . قال الأخفش : أمه : مستقره . ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ ؟ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدرى كنهها . ثم بينها سبحانه فقال : ﴿ نار حامية ﴾ أى قد انتهى حرها ، وبلغ فى الشدة إلى الغاية ، وارتفاع ﴿نار﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هى نار حامية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال : القارعة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ فأمه هاوية ﴾ قال : كقوله : هوت أمه. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿فأمه هاوية ﴾ قال : أم رأسه هاوية فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات المؤمن ، تلقته أرواح المؤمنين يسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا : خولف به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأم، وبئست المربية » . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى نحوه . وأخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضًا .

تفسير سورة التكاثر

هى ثمان آيات . وهى مكية عند الجميع ، وروى البخارى أنها مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزل بمكة : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ . وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ » قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قال : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر ﴾ ؟ » (١) .

وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق ، والديلمى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّه ﷺ: « من قرأ فى ليلة ألف آية ، لقى اللّه ، وهو ضاحك فى وجهه » . قيل : يا رسول اللّه، ومن يقوى على ألف آية ؟ فقرأ : بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية » .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عبد اللّه بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول اللّه ﷺ ، وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر ﴾ . وفى لفظ : وقد أنزلت عليه : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ . وهو يقول : « ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت»(٢). وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ، ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة، ولا نزولها بلفظ: « يقول العبد مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاثة ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأقنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »(٣) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبيهقى فى الشعب وضعفه عن جرير بن عبد اللّه ، قال : قال لنا رسول اللّه ﷺ : «إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر ، فمن بكى فله الجنة »، فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك . فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يارسول الله أن نبكى فلم نقدر عليه. فقال: «إنى قارئها عليكم الثانية، فمن بكى فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكى، فليتباكى»(٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)

---

(١) صححه الحاكم ١/٥٦٧ وقال : « رواة الحديث كلهم ثقات ، وعقبة هذا غير مشهور » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٨٧) ورجاله موثقون .

(٢) مسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٥٨/ ٣) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٧١٦) .

(٣) مسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٥٩/ ٤) وقال الحافظ ابن كثير ٧/ ٣٦٠ : « تفرد به مسلم » .

(٤) البيهقى فى الشعب (١٨٩٤) .

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ .

قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ أى شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بكثرتها ، والتغالب فيها . يقال : ألهاه عن كذا ، وألهاه : إذا شغله . ومنه قول امرئ القيس :

فألهيتها عن ذى تمائم محول

وقال الحسن : معنى ﴿ ألهاكم ﴾ : أنساكم . ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أى حتى أدرككم الموت ، وأنتم على تلك الحال . وقال قتادة : إن التكاثر : التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : ألهاكم التشاغل بالمعاش . وقال مقاتل وقتادة أيضًا وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا. وقال الكلبى : نزلت فى حيين من قريش : بنى عبد مناف ، وبنى سهم ، تعادوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف فى الإسلام . فقال كل حى منهم : نحن أكثر سيدًا ، وأعز عزيزًا ، وأعظم نفرًا ، وأكثر قائدًا . فكثر بنو عبد مناف بنى سهم. ثم تكاثروا بالأموات ، فكثرتهم بهم ، فنزلت : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فلم ترضوا ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ مفتخرين بالأموات . وقيل : نزلت فى حيين من الأنصار . والمقابر : جمع مقبرة بفتح الباء وضمها . وفى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا ، والمكاثرة بها ، والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة . وقال سبحانه : ﴿ألهاكم التكاثر ﴾ ، ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذم ، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام . ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم كما تقرر فى علم البيان . والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شيء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله والعمل للآخرة . وعبر عن موتهم بزيارة المقابر ؛ لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذى يزوره . هذا على قول من قال : إن معنى ﴿ زرتم المقابر ﴾: متم . وأما على قول من قال : إن معنى ﴿زرتم المقابر ﴾ : ذكرتم الموتى، وعددتموهم للمفاخرة والمكاثرة ، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم . وقيل : إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون: هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان ، يفتخرون بذلك .

﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر ، وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة . وفيه وعيد شديد . قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر . ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال : ﴿ثم كلا سوف تعلمون ﴾ و « ثم » للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول . وقيل : الأول عند الموت أو فى القبر . والثانى يوم القيامة . قال الفراء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد . قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد. وكذا قال الحسن ومجاهد . ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أى لو تعلمون الأمر الذى أنتم صائرون إليه علمًا يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا . وجواب « لو » محذوف ، أى لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير ، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم

فيه. و ﴿ كلا ﴾ فى هذا الموضع الثالث للزجر والردع ، كالموضعين الأولين . وقال الفراء : هى بمعنى « حقا » . وقيل : هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا . قال قتادة : اليقين هنا : الموت . وروى عنه أيضًا أنه قال : هو البعث . قال الأخفش : التقدير : لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم .

وقوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب قسم محذوف . وفيه زيادة وعيد وتهديد ، أى والله لترون الجحيم فى الآخرة. قال الرازى : وليس هذا جواب « لو » ؛ لأن جواب « لو » يكون منفيًا . وهذا مثبت . ولأنه عطف عليه ﴿ ثم لتسألن ﴾ وهو مستقبل لابد من وقوعه . قال : وحذف جواب « لو » كثير . والخطاب للكفار . وقيل : عام كقوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم : ٧١] ، قرأ الجمهور : ﴿ لترون ﴾ بفتح التاء مبنيًا للفاعل . وقرأ الكسائى وابن عامر بضمها مبنيًا للمفعول . ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال : ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى ثم لترون الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين ، وهى المشاهدة والمعاينة . وقيل : المعنى : لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم . ثم لترونها مشاهدة على القرب. وقيل : المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، والثانى رؤيتها حال دخولها . وقيل : هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار، أى هى رؤية دائمة متصلة . وقيل : المعنى : لوتعلمون اليوم علم اليقين ، وأنتم فى الدنيا ، لترون الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهـوالها.

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أى عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للآخرة . قال قتادة : يعنى كفار مكة ، كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به . قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه. وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ، لأن تعريفه للجنس ، أو الاستغراق ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التى يُسأل عنها . فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فيم صرفها ؟ وبم عمل فيها ؟ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر . وقيل : السؤال عن الأمن والصحة . وقيل: عن الصحة والفراغ . وقيل : عن الإدراك بالحواس . وقيل : عن ملاذ المأكول والمشروب . وقيل : عن الغداء والعشاء . وقيل: عن بارد الشراب وظلال المساكن . وقيل : عن اعتدال الخلق . وقيل: عن لذة النوم . والأولى العموم كما ذكرنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ، قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان . يشيرون إلى القبر، ومثل

فلان. وفعل الآخرون كذلك ، فأنزل الله : ﴿ **ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر** ﴾ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ قال : فى الأموال والأولاد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ : « ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ يعنى عن الطاعة . ﴿**حتى زرتم المقابر** ﴾ يقول: حتى يأتيكم الموت . ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ يعنى : لو قد دخلتم قبوركم . ﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ يقول : لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم . ﴿ **كلا لو تعلمون علم اليقين** ﴾ قال : لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدى ربكم . ﴿ **لترون الجحيم**﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكدوش فى نار جهنم . ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ يعنى : شبع البطون ، وبارد الشرب ؛ وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم » . وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعًا نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء : ٣٦] . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ : ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال : الأمن والصحة . وأخرج البيهقى عن على بن أبى طالب ، قال : النعيم : العافية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال : من أكل خبز البر ، وشرب ماء الفرات مبردا ، وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذى يُسأل عنه . وأخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية : « أكل خبز البر ، والنوم فى الظل ، وشرب ماء الفرات مبردا ». ولعل رفع هذا لا يصح ، فربما كان من قول أبى الدرداء . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن مردويه عن أبى قلابة عن النبى ﷺ فى الآية ، قال : « ناس من أمتى يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه » (١) . وهذا مرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية ، قال الصحابة: يا رسول الله ، أى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير . فأوحى الله إلى نبيه ﷺ أن قل لهم : « أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم » . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن محمود بن لبيد قال : لما نزلت : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ فقرأ حتى بلغ :﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قالوا: يا رسول الله ، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان ، الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال : « أما إن ذلك سيكون»(٢).

---

(١) أحمد فى الزهد (١٦٦) .

(٢) ابن أبى شيبة (١٦١٩٢) وأحمد ٤٢٩/٥ وابن جرير ١٨٦/٣٠ والبيهقى فى الشعب (٤٢٧٨) ورجاله موثقون .

وأخرجه عبد بن حميد والترمذى وابن مردويه من حديث أبى هريرة[١] . وأخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه، وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه من حديث الزبير بن العوام [٢] . وأخرج أحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير ,وابن حبان وابن مردويه والحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسدك ، ونروك من الماء البارد » [٣] .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويـه ، والبيهقى فى الشعب عـن جـابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، فأطعمناهم رطبًا ، وسقيناهم ماء . فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه »[٤] . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقى من حديث جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : خرج النبى ﷺ ، فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال : «ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ » قالا : الجوع يا رسول الله . قال : « والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، فقوما » . فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته . فلما رأته المرأة ، قالت : مرحبا. فقال النبى ﷺ : «أين فلان ؟ » قالت : انطلق يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى ، فنظر إلى النبى ﷺ وصاحبيه فقال : الحمد لله ماأحد اليوم أكرم أضيافًا منى . فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال : كلوا من هذا . وأخذ المدية ، فقال له رسول الله ﷺ : «إياك والحلوب » . فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا . فلما شبعوا ورووا ، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : « والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ». وفى الباب أحاديث [٥] .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٥٧) وفيه أبو بكر بن عياش ، قال الحافظ فى التقريب ٢/ ٣٩٩ : « ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح ».
(٢) أحمد ١/ ١٦٤ والترمذى فى التفسير (٣٣٥٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الزهد (٤١٥٨) .
(٣) أحمد فى الزهد (١٦٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٥٨) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ٣٠/ ١٨٦ وابن حبان (٧٣٢٠) وهو مروى عن عبد الرحمن الأشعرى ، وصححه الحاكم ٤/ ١٣٨ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٤٢٨٧) وإسناده ضعيف .
(٤) أحمد ٣/ ٣٣٨ والنسائى فى الوصايا (٦٤٦٦) وابن جرير ٣٠ ١٨٥ والبيهقى فى الشعب (٤٢٧٩) ورجاله ثقات .
(٥) مسلم فى الأشربة (٢٠٣٨/ ١٤٠) وابن جرير ٣٠/ ١٨٥ والبيهقى فى الشعب (٤٢٨٤) ورجاله موثقون .

تفسير سورة العصر

هى ثلاث آيات ، وهى مكية عند الجمهور . وقال قتادة : هى مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة العصر بمكة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب عن أبى مزينة الدارمى ، وكانت له صحبة، قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا ، لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۞ ﴾ .

أقسم سبحانه بالعصر ، وهو الدهر ، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار ، على تقدير الأدوار ، وتعاقب الظلام والضياء ، فإن فى ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده . ويقال لليل : عصر ، وللنهار : عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولم ينته العصران يوم وليلة   إذا طلبا أن يدركا ماتمنيا

ويقال للغداة والعشى : عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملنى   ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقال قتادة والحسن : المراد به فى الآية : العشى ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، ومنه قول الشاعر :

تروح بنا يا عمرو وقد قصر العصر   وفى الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وروى عن قتادة أيضًا : أنه آخر ساعة من ساعات النهار . وقال مقاتل : إن المراد به : صلاة العصر ، وهى الصلاة الوسطى التى أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها . وقيل : هو قسم[2] بعصر النبى ﷺ . قال الزجاج : قال بعضهم : معناه: ورب العصر . والأول أولى. ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ هذا جواب القسم . الخسر والخسران: النقصان وذهاب رأس المال . والمعنى : أن كل إنسان فى المتاجر والمساعى وصرف الأعمار فى أعمال الدنيا لفى نقص وضلال عن الحق حتى يموت . وقيل : المراد بالإنسان : الكافر . وقيل : جماعة من الكفار . وهم :

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٢٣٦/١٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح » والبيهقى فى الشعب (٩٠٥٧) . ط . دار الكتب العلمية.

(٢) فى المطبوعة : « قسما » بالنصب ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد . والأول أولى ، لما في لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه . قال الأخفش: ﴿ فى خسر ﴾ : فى هلكة. وقال الفراء : عقوبة . وقال ابن زيد : لفى شر . قـرأ الجمهـور : ﴿ والعصْر ﴾ بسكـون الصـاد. وقـرؤوا أيضا : ﴿ خُسْر ﴾ بضم الخاء وسكون السين . وقرأ يحيى بن سلام: « والعصر » بكسر الصاد. وقـرأ الأعـرج وطلحـة وعيسى : « خُسُر » بضـم الخاء والسين . ورويت هذه القراءة عن عاصم .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم فى ربح لا فى خسر ؛ لأنهم عملوا للآخرة ، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها . والاستثناء متصل . ومن قال : إن المراد بالإنسان : الكافر فقط ، فيكون منقطعًا ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة . ولا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح . ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ أى وصى بعضهم بعضًا بالحق الذى يحق القيام به ، وهو الإيمان باللّه والتوحيد ، والقيام بما شرعه اللّه ، واجتناب ما نهى عنه . قال قتادة : ﴿ بالحق ﴾ : أى بالقرآن . وقيل : بالتوحيد ، والحمل على العموم أولى . ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أى بالصبر عن معاصى اللّه سبحانه والصبر على فرائضه . وفى جعل التواصى بالصبر قرينًا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ﴿ إن اللّه مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦] . وأيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق . فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ، ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والعصر ﴾ قال : الدهر . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو ساعة من ساعات النهار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشى . وأخرج الفريابى ، وأبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن على بن أبى طالب ؛ أنه كان يقرأ: «والعصر ونوائب الدهر ، إن الإنسان لفى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر». وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر ، وإنه لفيه إلى آخر الدهر » .

تفسير سورة الهمزة

هى تسع آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت : ﴿ ويل لكل همزة لمزة﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨ ﴾ .

الويل : هو مرتفع على الابتداء . وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم . وخبره : ﴿ لكل همزة لمزة﴾ ، والمعنى : خزى ، أو عذاب ، أو هلكة ، أو واد فى جهنم . ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ : قال أبو عبيدة والزجاج : الهمزة اللمزة : الذى يغتاب الناس . وعلى هذا هما بمعنى . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة : الذى يغتاب الرجل فى وجهه. واللمزة : الذى يغتابه من خلفه . وقال قتادة عكس هذا . وروى عن قتادة ، ومجاهد أيضًا أن الهُمزة :الذى يغتاب الناس فى أنسابهم. وروى عن مجاهد أيضا أن الهمزة : الذى يهمز الناس بيده. واللمزة :الذى يلمزهم بلسانه. وقال سفيان الثورى : يهمزهم بلسانه ، ويلمزهم بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة : الذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذى يكسر عينه على جليسه ، ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، والأول أولى، ومنه قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا ... وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقول الآخر :

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنى ... وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وأصل الهمز: الكسر . يقال : همز رأسه : كسره، ومنه قول العجاج :

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل : أصل الهمز واللمز : الضرب والدفع . يقال : همزه يهمزه همزًا . ولمزه يلمزه لمزًا : إذا دفعه وضربه ، ومنه قول الشاعر :

ومن همزنا عزه تبركعا ... على استه زوبعة أو زوبعا

البركعة : القيام على أربع . يقال : بركعه فتبركع ، أى صرعه فوقع على استه. كذا فى

الصحاح . وبناء فعله يدل على الكثرة . ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيرًا ، وأنه قد صار ذلك عادة له ، ومثله ضحكة ولعنة . قرأ الجمهور: ﴿همزة لمزة﴾ بضم أولهما وفتح الميم فيهما. وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما . وقرأ أبو وائل والنخعى والأعمش: « ويل للهمزة اللمزة » . والآية تعم كل من كان متصفا بذلك . ولا ينافيه نزولها على سبب خاص . فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ﴿الذى جمع مالا وعدده﴾ الموصول بدل من كل ، أو فى محل نصب على الذم ، وهذا أرجح ؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه فى حكم الطرح ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب ، والعلة فى الهمز واللمز ، وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل ، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور: ﴿جمع﴾ مخففًا . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بالتشديد . وقرأ الجمهور: ﴿وعدده﴾ بالتشديد. وقرأ الحسن والكلبى ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف . والتشديد فى الكلمتين يدل على التكثير . وهو جمع الشىء بعد الشىء ، وتعديده مرة بعد أخرى . قال الفراء : معنى ﴿عدده﴾ : أحصاه . وقال الزجاج : وعدده لنوائب الدهور . يقال : أعددت الشىء وعددته : إذا أمسكته . قال السدى : أحصى عدده . وقال الضحاك : أعد ماله لمن يرثه. وقيل : المعنى : فاخر بكثرته وعدده . والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه ، وعدم إنفاقه فى سبيل الخير . وقيل : المعنى على قراءة التخفيف فى « عدده » : أنه جمع عشيرته وأقاربه . قال المهدوى : من خفف « وعدده » فهو معطوف على المال ، أى وجمع عدده .

وجملة : ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال ، أى يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حيا مخلدًا لا يموت . وقال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد فى عمره . والإظهار فى موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ . وقيل : هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذى يخلد صاحبه فى الحياة الأبدية لا المال. وقوله : ﴿كلا﴾ ردع له عن ذلك الحسبان ، أى ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذى جمع المال وعدده . واللام فى ﴿لينبذن فى الحطمة﴾ جواب قسم محذوف ، أى ليطرحن فى النار ، وليلقين فيها . قرأ الجمهور : ﴿لينبذن﴾ . وقرأ على والحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيصن : « لينبذان » بالتثنية ، أى لينبذ هو وماله فى النار . وقرأ الحسن أيضًا : ﴿لينبذن﴾ أى : لينبذن ماله فى النار . ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ ؟ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام . ثم بينها سبحانه فقال : ﴿نار الله الموقدة﴾ أى هى نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه .وفى إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك فى وصفها بالإيقاد . وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه ، ومنه :

إنا حطمنا بالقضيب مصعبا ... يوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل : هى الطبقة السادسة من طبقات جهنم . وقيل : الطبقة الثانية منها . وقيل : الطبقة

الرابعة . ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ أى يخلص حرها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها . وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم ؛ لأنها محل العقائد الزائفة ، أى لكون الألم إذا وصل إليها ، مات صاحبها ، أى أنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون . وقيل: معنى ﴿تطلع على الأفئدة ﴾ : أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بأمارات عرّفها الله بها . ﴿إنها عليهم مؤصدة ﴾ أى مطبقة مغلقة كما تقدم بيانه فى سورة البلد . يقال: أصدت الباب : إذا أغلقته ، ومنه قول عبيد الله بن قيس بن الرقيات :

إن فى القصر لو دخلنا غزالا مصفقًا موصدًا عليه الحجاب

﴿ فى عمد ممدة ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ عليهم ﴾ أى كائنين فى عمد ممدة ، موثقين فيها . أو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى عمد أو صفة لمؤصدة ، أى مؤصدة بعمد ممددة . قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولايدخل عليهم روح . ومعنى كون العمد ممددة : أنها مطولة . وهى أرسخ من القصيرة . وقيل : العمد : أغلال فى جهنم . وقيل : القيود . قال قتادة : المعنى : هم فى عمد يعذبون بها ، واختار هذا ابن جرير . قرأ الجمهور : ﴿ فى عمد﴾ بفتح العين والميم . وقيل : هو اسم جمع لعمود . وقيل : جمع له . قال الفراء : هى جمع لعمود ، كأديم وأدم . وقال أبو عبيدة : هى جمع عماد . وقرأ حمزة والكسائى وأبوبكر بضم العين والميم جمع عمود . قال الفراء : هما جمعان صحيحان لعمود . واختارأبوعبيد وأبوحاتم قراءة الجمهور . قال الجوهرى : العمود : عمود البيت . وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد. وقرئ بهما . قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال : هو المشاء بالنميمة ، المفرق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ ويل لكل همزة ﴾ قال : طعان . ﴿ لمزة ﴾ قال : مغتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا فى قوله : ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ قال : مطبقة . ﴿ فى عمد ممددة ﴾ قال : عمد من نار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : هى الأدهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأبواب هى الممددة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : أدخلهم فى عمد، فمدت عليهم فى أعناقهم ، فشدت بها الأبواب .

تفسير سورة الفيل

هى خمس آيات . وهى مكية بلا خلاف وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾ .

الاستفهام فى قوله : ﴿ ألم تر ﴾ لتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها . قال الفراء : المعنى : ألم تخبر . وقال الزجاج : ألم تعلم . وهو تعجيب له ﷺ . ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة . و ﴿ كيف ﴾ منصوبة بالفعل الذى بعدها ، ومعلقة لفعل الرؤية . والخطاب لرسول الله ﷺ . ويجوز أن يكون لكل من يصلح له ، والمعنى : قد علمت يا محمد ، أو علم الناس الموجودون فى عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله بهم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ والفيل هو الحيوان المعروف وجمعه أفيال.وفيول وفيلة . قال ابن السكيت : ولا تقول : أفيلة . وصاحبه فيال . وسيأتى ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله . ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ أى ألم يجعل مكرهم وسعيهم فى تخريب الكعبة ، واستباحة أهلها فى تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم . والهمزة للتقرير ، كأنه قيل : قد جعل كيدهم فى تضليل . والكيد هو إرادة المضرة بالغير . لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشًا بالقتل والسبى ، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

﴿ وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ﴾ أى أقاطيع يتبع بعضها بعضًا كالإبل المؤبلة . قال أبو عبيدة : ﴿ أبابيل ﴾ : جماعات فى تفرقة . يقال : جاءت الخيل أبابيل ، أى جماعات من ههنا وههنا . قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام . يقال : فلان توبل على فلان ، أى تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذى لا واحد له . وقال بعضهم: واحده « أبول » مثل « عجول » . وقال بعضهم أبيل . قال الواحدى : ولم نر أحدًا يجعل لها واحدًا ، قال الفراء لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسى ، وكان ثقة ، أنه سمع فى واحدها : «أبالة » مشددا . وحكى الفراء أيضا « أبالة » بالتخفيف . قال سعيد بن جبير : كانت طيرًا من السماء ، لم ير قبلها ولا بعدها . قال قتادة : هى طير سود جاءت من قبل البحر فوجًا

فوجًا ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره لا يصيب شيئًا إلا هشمه . وقيل : كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع . وقيل : كان لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب . وقيل فى صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل فى الطير ، كما فى قول الشاعر:

تراهم إلى الداعى سرعًا كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسجن

وتستعملها فى غير الطير كقول الآخر :

كانت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتى أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل

﴿ **ترميهم بحجارة من سجيل** ﴾ الجملة فى محل نصب صفة لطير قرأ الجمهور : ﴿**ترميهم**﴾ بالفوقية . وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحتية . واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل : الضمير فى القراءة الثانية لله عز وجل . قال الزجاج : ﴿ **من سجيل** ﴾ أى مما كتب عليهم العذاب به مشتقًا من السجل . قال فى الصحاح : قالوا : هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم ، مكتوب فيها أسماء القوم . قال عبد الرحمن بن أبزى : ﴿ **من سجيل** ﴾: من السماء ، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط . وقيل : من الجحيم التى هى سجين ، ثم أبدلت النون لامًا ، ومنه قول ابن مقبل:

ضربا تواصت به الأبطال سجيلا

وإنما هو سجينا . قال عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها . فإذا أصاب أحدهم حجر منها ، خرج به الجدرى . وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة . وقد قدمنا الكلام فى : ﴿**سجيل** ﴾ فى سورة هود . ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب ، فرمت به من أسفل . شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه . وقيل : المعنى : أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب ، وبقى منه بقايا ، أو أكلت حبه فبقى بدون حبه . والعصف جمع عصفة وعصافة وعصيفة .وقد قدمنا الكلام فى العصف فى سورة الرحمن ، فارجع إليه .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح ، فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت الله ، لم يسلط عليه أحدا . قالوا : لا نرجع حتى نهدمه . وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر ، فدعا الله الطير الأبابيل ، فأعطاها حجارة سودًا عليها الطين . فلما حاذتهم رمتهم ، فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكة ، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده ، إلا تساقط لحمه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة

استقبلهم عبد المطلب ، فقال لملكهم : ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شىء فقال : أخبرت بهذا البيت الذى لا يدخله أحد إلا أمن ، فجئت أخيف أهله . فقال : إنَّا نأتيك بكل شىء تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله . وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله . فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر ، حتى أظلتهم طير أبابيل التى قال اللّه : ﴿ **ترميهم بحجارة من سجيل** ﴾ فجعل الفيل يعج عجًا ﴿**فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ . وقصة أصحاب الفيل مبسوطة مطولة فى كتب التاريخ والسير فلا نطول بذكرها .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ترميهم بحجارة من سجيل** ﴾ قال : حجارة مثل البندق ، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه ، وحجر فى منقاره ، حلقت عليهم من السماء، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم . وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل اللّه عليهم طيرًا أبابيل ، يريد مجتمعة ، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها وحصاتين فى رجليها ، ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ، ويبقى عظامًا خاوية لا لحم عليها ، ولا جلد ، ولا دم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضًا : ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ ، يقول : كالتبن . وأخرج ابن إسحاق فى السيرة ، والواقدى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . وأخرج الواقدى نحوه عن أسماء بنت أبى بكر . وأخرج أبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : ولد النبى ﷺ عام الفيل . وأخرج ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقى عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول اللّه ﷺ عام الفيل .

تفسير سورة قريش

ويقال : سورة ﴿ لإيلاف ﴾ . وهى أربع آيات . وهى مكية عند الجمهور . وقال الضحاك والكلبى : هى مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿لإيلاف ﴾ بمكة. وأخرج البخارى فى تاريخه ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : فضل اللّه قريشًا بسبع خصال لم يعطها أحدًا قبلهم ، ولا يعطيها أحدًا بعدهم ، أنى فيهم . وفى لفظ : النبوة فيهم . والخلافة فيهم . والحجابة فيهم . والسقاية فيهم . ونصروا على الفيل . وعبدوا اللّه سبع سنين . وفى لفظ عشر سنين . لم يعبده أحد غيرهم . ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ [(١)] . قال ابن كثير : هو حديث غريب . ويشهد له ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال : قال رسول اللّه ﷺ : فضل اللّه قريشًا بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا اللّه عشر سنين لا يعبده إلا قريش، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم ، وهى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية [(٢)] . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعا نحوه . وهو مرسل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

اللام فى قوله : ﴿ لإيلاف ﴾ قيل : هي متعلقة بآخر السورة التى قبلها . كأنه قال سبحانه : أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش . قال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة . ثم قال : ﴿لإيلاف قريش ﴾ أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك أن قريشًا كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يغار عليها فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت اللّه عز وجل. حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتًا فى اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم اللّه عز وجل ، فذكرهم بنعمته ، أى فعل ذلك لإيلاف قريش ، أى ليألفوا الخروج

---

(١) الطبرانى ١٠/٤٠٩ (٩٩٤) والحاكم ٤/٥٤ وسكت عنه .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/٢٧، ٢٨ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه من ضُعّف ، ووثقهم ابن حبان » .

ولا يجترأ عليهم . وذكر نحو هذا ابن قتيبة . قال الزجاج : والمعنى : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، أى أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف . وقال فى الكشاف : إن اللام متعلق بقوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ .أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.ودخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى: أما لا فليعبدوه . وقد تقدم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد ، والمعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . وقال الكسائى والأخفش : اللام لام التعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل : هى بمعنى « إلى » . قرأ الجمهور : « لإيلاف» بالياء مهموزاً من ألفت أؤلف إئلافا . يقال : ألفت الشيء آلافا وألفا . وألفته إيلافا بمعنى ، ومنه قول الشاعر :

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

وقرأ ابن عامر : « لإلاف » بدون الياء . وقرأ أبو جعفر : « لإلف » . وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر ، فقال :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف .

وقرأ عكرمة : « ليألف قريش » بفتح اللام على أنها لام الأمر . وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود ، وفتح لام الأمر لغة معروفة . وقرأ بعض أهل مكة : « إلاف قريش » ، واستشهد بقول أبى طالب :

تذود الورى من عصبة هاشمية إلافهم فى الناس خير إلاف

وقريش هم بنو النضير بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشى . وقريش يأتى منصرفاً إن أريد به الحى ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ، ومنه قول الشاعر:

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقيل : إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر . والأول أصح . وقوله : ﴿ إيلافهم ﴾ بدل من إيلاف قريش . و﴿رحلة ﴾ مفعول به لإيلافهم ، وأفردها ولم يقل رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس . وقيل : إن ﴿ إيلافهم ﴾ تأكيد للأول لا بدل . والأول أولى . ورجحه أبو البقاء . وقيل : إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر ، أى ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف. وقيل : هى منصوبة على الظرفية . والرحلة : الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حارة . والرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة، وروى أنهم كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف . والأول أولى ، فإن ارتحال قريش للتجارة

معلوم معروف فى الجاهلية والإسلام . قال ابن قتيبة : إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان فى كل سنة ، رحلة فى الشتاء إلى اليمين ورحلة فى الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام . ولولا الأمن بجوارهم البيت ، لم يقدروا على التصرف .

﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت** ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكرلهم ما أنعم به عليهم ، أى إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة . والبيت : الكعبة . وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها . وقيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك تذكيرًا لنعمته . ﴿**الذى أطعمهم من جوع** ﴾ أى أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما . وقيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبى ﷺ ، دعا عليهم فقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاشتد القحط . فقالوا : يا محمد ، ادع اللّه لنا ، فإنَّا مؤمنون . فدعا ، فأخصبوا ، وزال عنهم الجوع ، وارتفع القحط (١) . ﴿ **وآمنهم من خوف** ﴾ أى من خوف شديد كانوا فيه قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها بعضًا فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل .

وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ﴿ **لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾ ويحكم يا قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف» (٢). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ قال : نعمتى على قريش . ﴿**إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾ كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف . ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت**﴾ قال : الكعبة . ﴿ **الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ قال : الجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ **لإيلاف قريش . إيلافهم** ﴾ قال : لزومهم . ﴿ **الذى أطعمهم من جوع** ﴾ يعنى : قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ [البقرة : ١٢٦] ﴿ **وآمنهم من خوف** ﴾ حيث قال إبراهيم: ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ [إبراهيم : ٣٥] وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **لإيلاف قريش . . .** ﴾ الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة ، وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة . وكانت رحلتهم فى الشتاء والصيف ، ولم يكن لهم

---

(١) مسلم فى المساجد (٦٧٥/ ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٢) أحمد ٦/ ٤٦٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٦/٧ : « فيه عبيد الله بن أبى زياد القداح وشهر بن حوشب وقد وثقا ، وفيهما ضعف ، وبقية رجال أحمد ثقات » .

راحة فى شتاء ولا صيف ، فأطعمهم اللّه بعد ذلك من جوع ، وآمنهم من خوف ، فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة اللّه عليهم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف . وقد وردت أحاديث فى فضل قريش، وأن الناس تبع لهم فى الخير والشر ، وأن هذا الأمر ، يعنى الخلافة ، لا يزال فيهم ما بقى منهم اثنان ، وهى فى دواوين الإسلام .

تفسير سورة أرأيت

ويقال : سورة الدين . ويقال : سورة الماعون . ويقال : سورة اليتيم . وهى سبع آيات. وهى مكية فى قول عطاء وجابر ، وأحد قولى ابن عباس ومدنية فى قول قتادة وآخرين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ .

الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له . والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين . والرؤية بمعنى : المعرفة . والدين : الجزاء والحساب فى الآخرة . قيل : وفى الكلام حذف ، والمعنى : أرأيت الذى يكذب بالدين ، أمصيب هو أم مخطئ ؟ قال مقاتل والكلبى : نزلت فى العاص بن وائل السهمى . وقال السدى : فى الوليد بن المغيرة . وقال الضحاك : فى عمرو بن عائذ . وقال ابن جريج : فى أبى سفيان . وقيل : فى رجل من المنافقين. قرأ الجمهور : ﴿أرأيت ﴾ بإثبات الهمزة الثانية . وقرأ الكسائى بإسقاطها . قال الزجاج : لا يقال فى « رأيت » : ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا . وقيل : الرؤية هى البصرية ، فيتعدى إلى مفعول واحد وهو الموصول ، أى أبصرت المكذب. وقيل : إنها بمعنى أخبرنى . فيتعدى إلى اثنين ، الثانى محذوف ، أى من هو ؟

﴿ فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أى إن تأملته أو طلبته فذلك الذى يدع اليتيم ، ويجوز أن تكون عاطفة على الذى يكذب إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة . فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبراً لمبتدأ محذوف ، أى فهو ذلك . والموصول صفته . وعلى الثانى يكون فى محل نصب لعطفه على الموصول الذى هو فى محل نصب . ومعنى ﴿ يدع ﴾ : يدفع دفعًا بعنف وجفوة ، أى يدفع اليتيم عن حقه دفعًا شديدًا . ومنه قوله سبحانه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ [الطور : ١٣] وقد قدمنا أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان . ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أى لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلا بالمال ، أو تكذيبا بالجزاء وهو مثل قوله فى سورة الحاقة : ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ [الحاقة : ٣٤] .

﴿ فويل ﴾ يومئذ ﴿ للمصلين ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل : إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أى عذاب لهم أو هلاك ، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل . ومعنى ﴿ ساهون ﴾ : غافلون غير مبالين بها . ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر . قال الواحدى: نزلت فى المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثوابًا إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها . وإذا كانوا مع المؤمنين ، صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم ، لم يصلوا . وهو معنى قوله : ﴿الذين هم يراؤون ﴾ أى يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم. قال النخعى : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ : هو الذى إذا سجد ، قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتًا . وقال قطرب : هو الذى لا يقرأ ولا يذكر الله . وقرأ ابن مسعود : الذين هم عن صلاتهم لاهون . ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال أكثر المفسرين : ﴿ الماعون﴾ : اسم لما يتعاوزه الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر . وما لا يمنع كالماء والملح . وقيل : هو الزكاة ، أى يمنعون زكاة أموالهم . وقال الزجاج وأبو عبيد والمبرد: الماعون فى الجاهلية : كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بـأجــود مـنـه بماعـونـه ... إذا ما ســماؤهـم لـم تغـم

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد أيضًا : والماعون فى الإسلام :الطاعة ، والزكاة ، وأنشدوا قول الراعى :

أخليفة الرحـمن إنـا معــشرٌ ... حُنَفَاء نسجدُ بُكرةً وأصيـلا
عـرب نرى لله مـن أمــوالنا ... حـَقَّ الـزكاةِ منـزّلا تَنْزيلاً
قـومٌ على الإسـلامِ لّما يَمْنَعُوا ... ماعـُونَهم ويُضيِّعُـوا التهليـلا

وقيل : ﴿ الماعون ﴾ : الماء. قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون : الماء. وأنشدنى :

يمـج صبيرة المـاعون صبًا

والصبيرة : السحاب . وقيل : ﴿ الماعون ﴾ : هو الحق على العبد على العموم . وقيل : هو المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من المعن وهو القليل . قال قطرب : أصل الماعون من القلة . والمعنى : الشىء القليل . فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعونا ؛ لأنه قليل من كثير . وقيل : هو ما لا يبخل به ، كالماء والملح والنار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ قال : يكذب بحكم الله . ﴿فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ قال : يدفعه عن حقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عنه : ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضًا لهم ، وهى الماعون .وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضًا : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يتركون الصلاة فى السر ، ويصلون فى العلانية . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبى: أرأيت قول الله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال : إنه ليس ذلك . إنه إضاعة الوقت .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال :« هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » (١) . قال الحاكم والبيهقى: الموقوف أصح . قال ابن كثير : وهذا يعنى الموقوف أصح إسنادا . قال : وقد ضعف البيهقى رفعه وصحح وقفه ، وكذلك الحاكم (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه قال السيوطى : بسند ضعيف، عن أبى برزة الأسلمى قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال رسول الله ﷺ : «الله أكبر ، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه.» وفى إسناده جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم (٣) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم ، فأنزل الله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ .

وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن عساكر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « ما تعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه » . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن قرة بن دعموص النميرى ؛ أنهم وفدوا إلى رسول ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ما تعهد إلينا ؟

---

(١) أبو يعلى (٨٢٢) وابن جرير ٣٠/ ٢٠٢ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٦ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عكرمة بن إبراهيم وهو ضعيف جدًا ».

(٢) ابن كثير ٧/ ٣٨٠. (٣) ابن جرير ٣٠/ ٢٠٢.

قال : « لا تمنعوا الماعون » . قالوا : وما الماعون ؟ قال : « فى الحجر والحديدة وفى الماء » .
قالوا : فأى الحديدة ؟ قال : « قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذى تمتهنون به » . قالوا :
وما الحجر ؟ قال: « قدوركم الحجارة » . قال ابن كثير : غريب جدًا ، ورفعه منكر ، وفى
إسناده من لا يعرف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب
النبى ﷺ : ﴿ الماعون ﴾ : الفأس والقدر والدلو (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى
شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى ، والضياء فى المختارة من طرق عن
ابن عباس فى الآية قال : عارية متاع البيت . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى
شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم ، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى
طالب قال : ﴿الماعون ﴾ : الزكاة المفروضة ﴿ يراؤون ﴾ بصلاتهم ﴿ويمنعون ﴾ زكاتهم .

---

(١) ابن أبى شيبة ٣/ ٢٠٣ وابن جرير ٣٠/ ٢٠٥.

تفسير سورة الكوثر

هي ثلاث آيات . وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة : أنها نزلت سورة الكوثر بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ .

قرأ الجمهور: ﴿ إنا أعطيناك ﴾ .وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني: « أنطيناك » بالنون . قيل: هي لغة العرب العاربة ، قال الأعشى :

حباؤك خير حبا الملوك يصان الحلال وتنطى الحلولا

والكوثر فوعل من الكثرة ، وصف به للمبالغة في الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر : كوثرا ، ومنه قول الشاعر :

وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا

فالمعنى على هذا : إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية . وذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة. وقيل: هو حوض النبي ﷺ في الموقف ، قاله عطاء . وقال عكرمة : الكوثر : النبوة. وقال الحسن : هو القرآن . وقال الحسن ابن الفضل : هو تفسير القرآن ، وتخفيف الشرائع . وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة . وقال ابن كيسان : هو الإيثار . وقيل: هو الإسلام . وقيل : رفعة الذكر . وقيل : نور القلب. وقيل : الشفاعة . وقيل : المعجزات . وقيل : إجابة الدعـوة . وقيل : لا إله إلا الله . وقيل : الفقه في الدين. وقيل : الصلوات الخمس. وسيأتي بيان ما هو الحق. ﴿ فصل لربك ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والمراد : الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة . ﴿ وانحر ﴾ البدن التي خيار أموال العرب . قال محمد بن كعب : إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له. وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد : صلاة العيد، ونحر الأضحية . وقال سعيد بن جبير : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن في منى . وقيل : النحر : وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب . وقيل : هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره . وقيل : هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : نتناحر ، أي نتقابل نحر

هذا إلى نحر هذا ، أى قبالته ، ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنتَ عمٌّ مُجالدٍ وسيدٌ أهلِ الأَبطحِ المُتَنَاحِرِ

أى المتقابل . وقال ابن الأعرابى : هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب . من قولهم : منازلهم تتناحر: تتقابل. وروى عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التيمى : المعنى : ارفع يديك بالدعاء إلى نحرك . وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلها لله عز وجل لا لغيره. وما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له. وسيأتى إن شاء الله . ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ أى إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم . فيعم خيرى الدنيا والآخرة ، أو الذى لا عقب له ، أوالذى لا يبقى ذكره بعد موته . وظاهر الآية العموم ، وأن هذا شأن كل من يبغض النبى ﷺ ، ولا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما مر غير مرة . قيل :كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل ، قالوا : قد بتر فلان . فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد [(١)] . فنزلت الآية . وقيل : القائل بذلك عقبة ابن أبى معيط . قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال : الذى لا ولد له . ومن الدواب : الذى لا ذنب له . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر . وأصل البتر : القطع . يقال : بترت الشىء بترا: قطعته .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أنس قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسمًا فقال : « إنه أنزل علىَّ آنفا سورة » فقرأ :﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها. قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير . ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته كعدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدث بعدك » [(٢)] .

وأخرج أيضًا مسلم فى صحيحه. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاكه الله» [(٣)] . وقد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة .

(١) هذا القول فيه نظر ، فقد ولد إبراهيم بعد الحديبية ومات أبو جهل فى غزوة بدر . ابن هشام ٢٧٨/٢.ط. الريان للتراث .

(٢) ابن أبى شيبة (١١٧٠١) وأحمد ١٠٢/٣ وأبو داود فى السنة (٤٧٤٧) والنسائى فى التفسير (٧٢٢) وابن جرير ٢٠٩/٣٠ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٦٤) ومسلم فى الصلاة (٥٣/٤٠٠) .

وأخرج ابن أبى شيبة والبخارى وابن جرير وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سئلت عن قوله: ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قالت : هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ فى بطنان الجنة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن حذيفة فى قولـه : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قال: نهر فى الجنة . وحسن السيوطى إسناده . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعا ؛ أنه قيل لرسول الله ﷺ : إنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر ؟ فقال : « أجل، وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ » (١) . وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما الكوثر ؟ قال : « هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله ». فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة ، فيتعين المصير إليها وعدم التعويل على غيرها. وإن كان معنى الكوثر هو الخير الكثير فى لغة العرب ، فمن فسره بما هو أعم مما ثبت عن النبى ﷺ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوى .

كما أخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والترمذى وصححه ، وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار: قال سعيد بن جبير فى الكوثر : قلت :حدثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير. فقال : صدق ، إنه للخير الكثير . ولكن حدثنا ابن عمر قال : نزلت ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : «الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك، وماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل » (٢) . وأخرج البخارى وابن جرير والحاكم من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناسًا يزعمون أنه نهر فى الجنة قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه . وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوى كما عرفناك ، ولكن رسول الله ﷺ قد فسره فيما صح عنه أنه النهر الذى فى الجنة . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبى ﷺ : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر** ﴾ قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى » ، فقال: إنها ليست بنحيرة ، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ،وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم فى السموات السبع ، وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة . قال النبى ﷺ : « رفع اليدين من الاستكانة التى قال الله : ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ » [المؤمنون : ٧٦] وهو طريق مقاتل بن

---

(١) ابن جرير ٣٠/ ٢١٠ .
(٢) ابن ماجة فى الزهد (٤٣٣٤) .

حيان عن الأصبغ بن نباته عن على[١] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر . وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على بن أبى طالب فى قوله: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ قال : وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ، ثم وضعهما على صدره فى الصلاة [٢] . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى سننه عن أنس عن النبى ﷺ مثله [٣].

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن شاهين فى سننه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ قال: إذا صليت فرفعت رأسك من الركوع ، فاستو قائما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : الصلاة المكتوبة ، والذبح يوم الأضحى . وأخرج البيهقى فى سننه عنه : ﴿ **وانحر** ﴾ قال : يقول : واذبح يوم النحر . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابئ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السدانة. قال: أنتم خير منه ، فنزلت: ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ونزلت : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ فلن تجد له نصيرًا ﴾ [النساء :٥١، ٥٢] [٤] . قال ابن كثير : وإسناده صحيح . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب قال : لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابئ قد بتر الليلة ، فأنزل الله: ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ إلى آخر السورة [٥] . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، فمات القاسم ، وهو أول ميت من أهله وولده بمكة . ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمى : قد انقطع نسله ، فهو أبتر ، فأنزل الله : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ . وفى إسناده الكلبى. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ قال : أبو جهل. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **إن شانئك** ﴾ يقول : عدوك [٦] .

---

(١) الحاكم ٢/٥٣٨ وسكت عنه ، وقال الذهبى : « فيه إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه ، وأصبغ شيعى متروك عند النسائى » والبيهقى ٢/ ٧٥.

(٢) ابن جرير ٣٠/ ٢١٠ والحاكم ٢/٥٣٧ وسكت عنه ، ولم يتكلم فيه الذهبى ، والبيهقى ٢/ ٣٠ .

(٣) البيهقى ٢/ ٣١ .

(٤) ابن جرير ٣٠/ ٢١٣ وصحح إسناده ابن كثير ٧/ ٣٨٩ .

(٥) الطبرانى (٤٠٧١) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٦ : « فيه واصل بن السائب ، وهو متروك » .

(٦) ابن جرير ٣٠/ ٢١٢ .

تفسير سورة « الكافرون »

هى ست آيات . وهى مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة ﴿ **يأيها الكافرون** ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزلت ﴿ **يأيها الكافرون** ﴾ بالمدينة. وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قل هو الله أحد ﴾ فى ركعتى الطواف [١] . وفى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر [٢] . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ و﴿ قل هو الله أحد ﴾[٣] . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى قال : كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿ سبح ﴾ و ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ و ﴿قل هو الله أحد ﴾ [٤].

وأخرج محمد بن نصر ، والطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن ، و ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ تعدل ربع القرآن » . وكان يقرأ بهما فى ركعتى الفجر . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ :﴿ **يأيها الكافرون**﴾ كانت له عدل ربع القرآن ». وأخرج الطبرانى فى الصغير، والبيهقى فى الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ **قل يأيها الكافرون**﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ :﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن » [٥] . وأخرج أحمد وابن الضريس والبغوى وحميد بن زنجويه فى ترغيبه عن شيخ أدرك النبى ﷺ قال : خرجت مع النبى ﷺ فى سفر فمر برجل يقرأ :﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ فقال:« أما هذا فقد برئ من الشرك » ، وإذا آخر يقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال النبى ﷺ: « بها وجبت له الجنة » [٦] . وفى رواية :« أما هذا فقد غُفر له » .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى ،وابن الأنبارى فى المصاحف، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعى عن أبيه ؛ أنه قال: يا رسول الله ، علمنى ما أقول إذا أويت إلى فراشى. قال:

---

(١) مسلم فى الحج (١٢١٨ / ١٤٧) . (٢) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٦/ ٩٨) .

(٣) أحمد ٢/ ٢٤ والترمذى فى الصلاة (٤١٧) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى ٢/ ١٧٠ وابن ماجة فى الصلاة (١١٤٩) وابن حبان (٢٤٥٠) .

(٤) صححه الحاكم ٢/٢٥٧ وقال الذهبى : « محمد رازى تفرد بأحاديث » .

(٥) الطبرانى فى الصغير ١/ ٦١ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/١٤٩ : « فيه من لم أعرفهم » والبيهقى فى الشعب (٢٢٩٧) وإسناده ضعيف .

(٦) أحمد ٤/ ٦٣ ، ٦٤.

« اقرأ: ﴿ قل يأيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك » [(١)] . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعى عن أبيه مرفوعا مثله. وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعى: « إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ : ﴿ قل يأيها الكافرون﴾ ، فإنك إذا قلتها، فقد برئت من الشرك » . وأخرج أحمد ، والطبرانى فى الأوسط عن الحارث بن جبلة ،وقال الطبرانى: عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة،قال: قلت:يا رسول الله ،علمنى شيئًا أقوله عند منامى ، قال: « إذا أخذت مضجعك من الليل ، فاقرأ: ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك ».وأخرج البيهقى فى الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ : « اقرأ :﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ عند منامك ، فإنها براءة من الشرك » [(٢)] .

وأخرج أبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرؤون ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ عند منامكم » . وأخرج البزار والطبرانى وابن مردويه عن خباب ؛ أن النبى ﷺ قال: « إذا أخذت مضجعك ، فاقرأ : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ وإن النبى ﷺ لم يأت فراشه قط ، إلا قرأ :﴿ قل يأيها الكافرون﴾ حتى يختم » [(٣)] . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقى الله بسورتين فلا حساب عليه: ﴿ قل يأيها الكافرون﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ » . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن الضريس عن أبى مسعود الأنصارى قال : من قرأ :﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فى ليلة فقد أكثر وأطاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ .

الألف واللام فى : ﴿ يأيها الكافرون ﴾ للجنس ، ولكنها لما كانت الآية خطابًا لمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره ، كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك ؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه . وسبب نزول هذه السورة : أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فأمره الله سبحانه أن يقول

---

(١) ابن أبى شيبة (٦٥٧٩) وأحمد ٤٥٦/٥ وأبو داود فى الأدب (٥٠٥٥) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٣) والنسائى فى التفسير (٧٢٩)، وصححه الحاكم ٥٣٨/٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٩٠) ورجاله ثقات .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢٩١) .

(٣) الطبرانى (٣٧٠٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٢٤/١٠ : « فيه جابر الجعفى وهو ضعيف » .

لهم: ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ (١) أى لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبدون من الأصنام. قيل : والمراد فيما يستقبل من الزمان ؛ لأن « لا » النافية لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع الذى فى معنى الاستقبال ، كما أن « ما » لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال. ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى. ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ أى ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه. والمعنى: أنه لم يعهد منى ذلك.

﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا قيل ، وهذا على قول من قال : إنه لا تكرار فى هذه الآيات ؛ لأن الجملة الأولى لنفى العبادة فى المستقبل ، لما قدمنا من أن « لا » لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال والدليل على ذلك أن « لن » : تأكيد لما تنفيه « لا » . قال الخليل فى « لن »: إن أصله « لا» فالمعنى : لا أعبد ما تعبدون فى المستقبل . ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى . ثم قال: ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ أى ولست فى الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم فى الحال بعابدين معبودى . وقيل بعكس هذا ، وهو أن الجملتين الأوليين للحال والجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ كما لو قال القائل : أنا ضارب زيدًا، وأنا قاتل عمرا ، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال . قال الأخفش والفراء : المعنى: لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ، ولا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه فى الحال وفيما يستقبل ونفى عنهم عبادة الله فى الحال وفيما يستقبل . وقيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال ، ولكنا نخص أحدهما بالحال ، والثانى بالاستقبال رفعًا للتكرار . وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لايخفى على منصف فإن جعل قوله : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ للاستقبال وإن كان صحيحًا على مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتم جعل قوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ للاستقبال ؛ لأن الجملة إسمية تفيد الدوام والثبات فى كل الأوقات . ولو كان حملها على الاستقبال صحيحًا ، للزم مثله فى قوله : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ ، وفى قوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس ؛ لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل إسمية مصدرة بالضمائر التى هى المبتدأ فى كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده ، منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ « لا » فى كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى الحال والاستقبال مختلفة؟ وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو إقرار منه بالتكرار ؛ لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذى لا يدل عليه دليل .

---

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٦١ .

وإذا تقرر لك هذا ، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التى لا تجحد ، واستعمالاتهم التى لاتنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا ، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا . هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه، وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ، ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل ، غير محتاج إلى تكثير القال والقيل . وقد وقع فى القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن . وربما يكثر فى بعض السور كما فى سورة الرحمن ، وسورة المرسلات ، وفى أشعار العرب من هذا ما لا يأتى عليه الحصر . ومن ذلك قول الشاعر :

يالبكر أنشروا لى كليبا   يا لبكر أين أين الفرار

وقول الآخر :

هلا سألت جموع كنـ   ـدة يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمةٌ يا علقمة   خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى   ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول آخر :

يا جعفر يا جعفر يا جعفر   إن أك دحداحًا فأنت أقصر

وقول الآخر :

أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس

وقد ثبت عن الصادق المصدوق ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة ، أعادها ثلاث مرات . وإذا عرفت هذا ، ففائدة ما وقع فى السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم . وإنما عبر سبحانه بـ « ما » التى لغير العقلاء فى المواضع الأربعة ؛ لأنه يجوز ذلك كما فى قوله : سبحان ما سخركن لنا ، ونحوه . والنكتة فى ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد ولا يختلف . وقيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . وقيل : إن « ما » فى المواضع الأربعة هى المصدرية لا الموصولة، أى لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى . . . إلخ ، وجملة : ﴿ لكم دينكم ﴾ مستأنفة لتقرير قوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ . كما أن قوله : ﴿ ولى دين ﴾ تقرير لقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

فى الموضعين ، أى إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بدينى ، كما فى قوله : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ [الشورى : ١٥] والمعنى: أن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لى كما تطمعون . ودينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم . وقيل : المعنى : لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدين الجزاء . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل ليست بمنسوخه لأنها أخبار ، والأخبار لا يدخلها النسخ . قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله : ﴿ ولى ﴾ . وقرأ نافع وهشام وحفص والبزى بفتحها. وقرأ الجمهور أيضًا بحذف الياء من « دينى » وقفًا ووصلا . وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلا ووقفًا . قالوا : لأنها اسم فلا تحذف . ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسمًا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس ؛ أن قريشًا دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : « ما هى ؟ » قالوا : تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة . قال: « حتى أنظر ما يأتينى من ربى ». فجاء الوحى من عند الله: ﴿ **قل يأيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون** ﴾ إلى آخر السورة . وأنزل الله : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى: ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [الزمر : ٦٤ ــ ٦٦] (١) .وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن سعيد بن مينا مولى أبى البحترى قال : لقى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ، قالوا : يامحمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فإن كان الذى نحن عليه أصح من الذى أنت عليه ، كنت قد أخذت منه حظا ، وإن كان الذى أنت عليه أصح من الذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظًا ، فأنزل الله: ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ إلى آخر السورة (٢). وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن قريشا قالت : لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنزل الله : ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ السورة كلها .

(١ ، ٢) ابن جرير ٣٠/ ٢١٤ .

تفسير سورة النصر

وتسمى سورة التوديع . هى ثلاث آيات . وهى مدنية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بالمدينة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى ، وهو فى حجة الوداع : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختمها ، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع [(١)] . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت :﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعيت إلىَّ نفسى»[(٢)] . وأخرج ابن مردويه عنه قال: لما نزلت : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعيت إلى نفسى ، وقرب إلىَّ أجلى » . وأخرج النسائى وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عنه أيضا قال: لما نزلت : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ نعيت لرسول الله نفسه حين أنزلت ، فأخذ فى أشد ما كان قط اجتهادا فى أمر الآخرة [(٣)] .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت : لما أنزل : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ: « إن الله لم يبعث نبيا إلا عمر فى أمته شطر ما عمر النبى الماضى قبله ، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة فى بنى إسرائيل، وهذه لى عشرون سنة ، وأنا ميت فى هذه السنة » . فبكت فاطمة ، فقال النبى ﷺ : «أنت أول أهلى بى لحوقا». فتبسمت . وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: « إنه قد نعيت إلىَّ نفسى » فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، فقال : «اصبرى فإنك أول أهلى لحاقا بى » فضحكت[(٤)] . وقد تقدم فى سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ .

النصر : العون ، مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض : إذا أعان على نباتها ، ومنع من قحطها ، ومنه قول الشاعر :

إذا انصرف الشهر الحرام فودعى ... بلاد تميم وانصرى أرض عامر

(١) البيهقى فى الدلائل ٥/٤٤٧ .
(٢) أحمد ١/٢١٧ وابن جرير ٣٠/٢١٦ .
(٣) النسائى فى التفسير (٧٣٢) والطبرانى (١١٩٠٣) .
(٤) البيهقى فى الدلائل ٧/١٦٧ .

يقال : نصره على عدوه ينصره نصرًا : إذا أعانه . والاسم النصرة . واستنصره على عدوه : إذا سأله أن ينصره عليه. قال الواحدى : قال المفسرون : إذا جاءك يا محمد نصر اللّه على من عاداك وهم قريش ﴿ والفتح ﴾ فتح مكة . وقيل : المراد : نصره ﷺ على قريش من غير تعيين . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار . وقيل : هو فتح سائر البلاد . وقيل هو ما فتحه اللّه عليه من العلوم . وعبر عن حصول النصر والفتح بالمجىء ؛ للإيذان بأنهما متوجهان إليه ﷺ . وقيل : «إذا» بمعنى « قد » . وقيل : بمعنى « إذ » . قال الرازى : الفرق بين النصر والفتح : أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذى كان منغلقًا، والنصر كالسبب للفتح . فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح . أو يقال : النصر : كمال الدين ، والفتح : إقبال الدنيا الذى هو تمام النعمة. أو يقال : النصر: الظفر، والفتح : الجنة . هذا معنى كلامه . ويقال : الأمر أوضح من هذا وأظهر ، فإن النصر هو التأييد الذى يكون به قهر الأعداء وغلبهم، والاستعلاء عليهم ، والفتح : هو فتح مساكن الأعداء ، ودخول منازلهم .

﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجًا ﴾ أى أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون فى دين اللّه الذى بعثك به جماعات فوجًا بعد فوج. قال الحسن:لما فتح رسول اللّه ﷺ مكة ،قال العرب:أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم اللّه من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون فى دين اللّه أفواجًا ، أى جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام . قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس : أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين . وانتصاب ﴿أفواجًا ﴾ على الحال من فاعل يدخلون . ومحل قوله : ﴿ يدخلون فى دين اللّه ﴾ النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، وإن كانت بمعنى العلم فهو فى محل نصب على أنه المفعول الثانى .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو العامل فيه ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر اللّه، وقال مكى : العامل فى : « إذا » هو ﴿ جاء ﴾ . ورجحه أبو حيان ، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها . وقوله : ﴿ بحمد ربك ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى فقل : سبحان اللّه ملتبسًا بحمده ، أو حامدًا له . وفيه الجمع بين تسبيح اللّه المؤذن بالتعجب مما يسره اللّه له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس . وبين الحمد له على جميل صنعه له ، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التى هى النصر والفتح لأم القرى التى كان أهلها قد بلغوا فى عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم : هو مجنون ، هو ساحر ، هو شاعر ، هو كاهن ، ونحو ذلك . ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار ، أى اطلب منه المغفرة لذنبك هضمًا لنفسك واستقصارًا لعملك ، واستدراكًا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق اللّه ، ويكثر من الاستغفار والتضرع ، وإن كان

قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقيل : إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به ، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم . وقيل : إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهًا لأمته وتعريضًا بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار . وقيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. وقيل : المراد بالتسبيح هنا : الصلاة . والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورًا بالنعمة ، وفرحًا بما هيأه الله من نصر الدين ، وكبت أعدائه ، ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم . قال الحسن : أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله ، فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول : «سبحانك اللهم وبحمدك ، اغفر لى إنك أنت التواب » . قال قتادة ومقاتل : وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين . وجملة : ﴿ إنه كان توابًا ﴾ تعليل لأمره ﷺ بالاستغفار، أى من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم . وتواب من صيغ المبالغة . ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين . وقد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعى رسول الله ﷺ .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن عمر سألهم عن قول الله :﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾، فقالوا : فتح المدائن والقصور . قال : فأنت يا ابن عباس ما تقول : قال: قلت مثل ضرب لمحمد ﷺ نعيت له نفسه . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال:لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم . فقال : ما تقولون فى قول الله عز وجل : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا . فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له . قال : ﴿ إذاجاء نصرالله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبى بكر ؛ أن سورة ﴿ إذا جاء نصرالله والفتح﴾ حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعيت إليه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، وأستغفره وأتوب إليه » . فقلت: يا رسول الله ، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده ، و أستغفر الله وأتوب إليه . فقال : « خبرنى ربى أنى سأرى علامة من أمتى . فإذا رأيتها ، أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه . فقد رأيتها: ﴿ إذا

جاء نصر اللّه والفتح ﴾ فتح مكة . **﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجًا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾** »[(١)] . وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة وغيرهم عن عائشة قالت : كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن . يعنى : **﴿ إذا جاء نصر اللّه والفتح﴾** . وفى الباب أحاديث [(٢)] .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت : **﴿ إذا جاء نصر اللّه والفتح ﴾** قال رسول اللّه ﷺ : « جاء أهل اليمن ، هم أرق قلوبا ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : بينما رسول اللّه ﷺ فى المدينة إذ قال : « اللّه أكبر ، قد جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ، قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية »[(٣)]. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا فى دين اللّه أفواجًا ، وسيخرجون منه أفواجًا» . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : تلا رسول اللّه ﷺ : **﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجا ﴾** قال : « ليخرجن منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا » [(٤)] .

---

(١) ابن جرير ٣٠/٢١٦ .
(٢) أحمد ٦/٤٣ والبخارى فى التفسير (٤٩٦٨) ومسلم فى الصلاة (٤٨٤/٢١٧) وأبو داود فى الصلاة (٨٧٧) والنسائى فى التفسير (٧٣٠) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٩) .
(٣) الطبرانى (١١٩٠٣).
(٤) صححه الحاكم ٤/٤٩٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

تفسير سورة تبت

هى خمس آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة قالوا : نزلت ﴿تبت يدا أبى لهب﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾ .

معنى ﴿ تبت ﴾ : هلكت . وقال مقاتل : خسرت . وقيل : خابت . وقال عطاء : ضلت . وقيل: صفرت من كل خير . وخص اليدين بالتباب ؛ لأن أكثر العمل يكون بهما . وقيل : المراد باليدين : نفسه . وقد يعبر باليد عن النفس، كما فى قوله: ﴿ بما قدمت يداك ﴾ [الحج : ١٠] أى نفسك . والعرب تعبر كثيرًا ببعض الشىء عن كله ، كقولهم : أصابته يد الدهر ، وأصابته يد المنايا ، كما فى قول الشاعر :

لما أكبت يد الرزايا عليه نادى ألا مخبر

وأبو لهب : اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم . وقوله: ﴿ وتب ﴾ أى هلك . قال الفراء : الأول دعاء عليه، والثانى خبر كما تقول : أهلكه اللّه ، وقد هلك . والمعنى : أنه قد وقع ما دعا به عليه ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : «وقد تب» . وقيل : كلاهما إخبار . أراد بالأول : هلاك عمله ، وبالثانى :هلاك نفسه . وقيل : كلاهما دعاء عليه . ويكون فى هذا شبه من مجىء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة . وذكره سبحانه بكنيته؛ لاشتهاره بها ، ولكون اسمه كما تقدم : عبد العزى . والعزى اسم صنم . ولكون فى هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار ؛ لأن اللهب هى لهب النار وإن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا ، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار . قرأ الجمهور : ﴿لهب﴾ بفتح اللام والهاء . وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء . واتفقوا على فتح الهاء فى قوله : ﴿ ذات لهب ﴾ . وروى صاحب الكشاف أنه قرئ :« تبت يدا أبو لهب » ، وذكر وجه ذلك . ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أى ما دفع عنه ما حل به من التباب ، وما نزل به من عذاب اللّه ما جمع من المال ولا ما كسب من الأرباح والجاه . أو المراد بقوله: ﴿ ماله ﴾ : ما ورثه من أبيه ، وبقوله : ﴿ وما كسب﴾ الذى كسبه بنفسه . قال مجاهد : ﴿ وما كسب ﴾ من ولد ، وولد الرجل من كسبه. ويجوز أن تكون « ما » فى قوله : ﴿ما أغنى ﴾ استفهامية ، أى أىّ شىء أغنى عنه ؟ وكذا يجوز فى قوله : ﴿ وما كسب ﴾ أن تكون استفهامية ، أى وأىّ شىء كسب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى وكسبه . والظاهر أن

« ما » الأولى نافية ، والثانية موصولة .

ثم أوعده سبحانه بالنار فقال : ﴿ سيصلى نارًا ذات لهب ﴾ . قرأ الجمهور: ﴿ سيصلى ﴾ بفتح الياء ، وإسكان الصاد ، وتخفيف اللام ، أى سيصلى هو بنفسه . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة وابن مقسم والأشهب العقيلى وأبو السماك والأعمش ومحمد بن السميفع بضم الياء ، وفتح الصاد ، وتشديد اللام . ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . والمعنى : سيصليه الله . ومعنى ﴿ ذات لهب ﴾ : ذات اشتعال وتوقد . وهى نار جهنم . ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ معطوف على الضمير فى « يصلى » . وجاز ذلك للفصل ، أى وتصلى امرأته نارًا ذات لهب . وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان . وكانت تحمل الغضى والشوك ، فتطرحه بالليل على طريق النبى ﷺ ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمدانى . وقال مجاهد وقتادة والسدى : إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس ، والعرب تقول : فلان يحطب على فلان : إذا نم به ، ومنه قول الشاعر :

إن بنى الأدرم حَمَّالُوا الحطب

هُمْ الوُشاةُ فى الرِّضَا والغَضَبْ

عليهم اللَّعنةُ تَتْرَى والحَرَبِ

وقال آخر :

من البيضِ لم يُصْطد على ظَهْرِ لامةٍ ولم يَمْشِ بينَ الناس بالحَطَب الرطِب

وجعل الحطب فى هذا البيت رطبًا ؛ لما فيه من التدخين الذى هو زيادة فى الشر ، ومن الموافقة للمشى بالنميمة . وقال سعيد بن جبير : معنى ﴿ حمالة الحطب ﴾ : أنها حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، كما فى قوله : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] . وقيل : المعنى : حمالة الحطب فى النار . قرأ الجمهور: « حمالة » بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب . وأما على ما قدمنا من عطف ﴿ وامرأته ﴾ على الضمير فى ﴿ تصلى ﴾ فيكون رفع « حمالة » على النعت لامرأته . والإضافة حقيقية ؛ لأنها بمعنى : المضى ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى حمالة . وقرأ عاصم بنصب : ﴿ حمالة ﴾ على الذم ، أو على أنه حال من ﴿ امرأته ﴾ . وقرأ أبو قلابة : « حاملة الحطب » . ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال من ﴿ امراته ﴾ . والجيد : العنق . والمسد : الليف الذى تفتل منه الحبال ، ومنه قول النابغة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها له صريفٌ صريفَ القَعْوِ بالمسدِ

وقول الآخر :

يامسد الخوص تعوذ منى إن كنت لدناً ليناً فإنى

وقال أبو عبيدة : المسد : هو الحبل يكون من صوف . وقال الحسن : هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد . وقد تكون الحبال من جلود الإبل ، أو من أوبارها . قال الضحاك وغيره : هذا فى الدنيا ، كانت تعير النبى ﷺ بالفقر ، وهى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها ، فخنقها الله به فأهلكها . وهو فى الآخرة حبل من نار . وقال مجاهد وعروة بن الزبير : هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها . وقال قتادة : هو قلادة من ودع كانت لها . قال الحسن : إنما كان خرزًا فى عنقها. وقال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللات والعزى لأنفقنها فى عداوة محمد . فيكون ذلك عذابًا فى جسدها يوم القيامة . والمسد : الفتل . يقال : مسد حبله يمسده مسدًا : أجاد فتله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ، قال : لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] خرج النبى ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : « ياصباحاه » . فاجتمعوا إليه فقال: « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ،أكنتم مصدقىّ ؟» قالوا : ما جربنا عليك كذبًا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» . فقال أبو لهب تبًا لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت هذه السورة : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ قال : خسرت . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ابنه من كسبه ، ثم قرأت : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ ، قالت: وما كسب: ولده . وأخرج عبد الرزاق والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله :﴿ وما كسب ﴾ قال: كسبه : ولده . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه على طريق النبى ﷺ ليعقره وأصحابه . وقال : ﴿ حمالة الحطب ﴾ : نقالة الحديث .﴿ حبل من مسد ﴾ قال: هى حبال تكون بمكة . ويقال : المسد : العصا التى تكون فى البكرة . ويقال: المسد: قلادة من ودع. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت: لما نزلت: ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال: يارسول الله ،

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٧٢) ومسلم فى الإيمان (٢٠٨ / ٣٥٥) والنسائى فى التفسير (٤٤٦) .

قد أقبلت ، وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن تراني » . وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ،ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني قال : لا ورب البيت ما هجاك ، فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها . وأخرجه البزار بمعناه ، وقال : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد .

تفسير سورة الإخلاص

هى أربع آيات . وهى مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى . وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وابن جرير وابن خزيمة ، وابن أبى عاصم فى السنة ، والبغوى فى معجمه ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى ابن كعب ؛ أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يامحمد ، انسب لنا ربك . فأنزل الله : ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد** ﴾ (١) إلخ ، ليس شىء يولد إلاسيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث (٢) . ﴿ **ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾ قال : لم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شىء . ورواه الترمذى من طريق أخرى عن أبى العالية مرسلا ، ولم يذكر أبيا ، ثم قال : وهذا أصح (٣). وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى عن جابر قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: انسب لنا ربك ،فأنزل اللّه:﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ إلى آخر السورة (٤). وحسن السيوطى إسناده . وأخرج الطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول اللهّ ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة : ﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن عدى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ؛ أن اليهود جاءت إلى النبىّ ﷺ ، منهم كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب ، فقالوا : يامحمد ، صف لنا ربك الذى بعثك ، فأنزل اللّه : ﴿ **قل هو اللّه أحد . اللّه الصمد . لم يلد** ﴾ فيخرج منه الولد ﴿ **ولم يولد** ﴾ فيخرج منه شىء (٥). وأخرج أبو عبيد فى فضائله، وأحمد، والنسائى فى اليوم والليلة وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ :﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»(٦). وأخرج ابن الضريس والبزار ، والبيهقى فى الشعب عن أنس عن النبىّ ﷺ : « من قرأ : ﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ مائتى مرة غفر له ذنب مائتى سنة » (٧). قال البزار :لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبى جعفر والأغلب بن تميم ، وهما يتقاربان فى سوء الحفظ .

---

(١) فى المخطوطة : ﴿ قل هو الله أحد . . . لم يلد ولم يولد ﴾ والصواب إثبات السورة كاملة .

(٢) أحمد ٥/ ١٣٤ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٤) وابن جرير ٣٠/ ٢٢١ ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٣٦٥) .

(٤) أبو يعلى (٢٠٤٤) وابن جرير ٣٠ / ٢٢١ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٩ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو يعلى إلا أنه قال:إن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : انسب الله ، وفيه مجالد بن سعيد . قال ابن عدى: له عن الشعبى عن جابر وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ١ / ٤١٩ .

(٦) أحمد ٥ / ١٤١ والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٢١ ، ١٠٥٢٢) .

(٧) البيهقى فى الشعب (٢٣١١).

وأخرج أحمد والترمذى وابن الضريس، والبيهقى فى سننه عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إنى أحبّ هذه السورة ﴿ **قل هو اللّه أحد**﴾ ، فقال رسول اللّه ﷺ : «حبك إياها أدخلك الجنة » (١). وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن أنس قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ :﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ ثلاث مرّات فى ليلة ؟ فإنها تعدل ثلث القرآن » وإسناده ضعيف .

وأخرج محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول اللّه ﷺ قال : « من قرأ : ﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ خمسين مرّة غفر له ذنوب خمسين سنة » وإسناده ضعيف . وأخرج الترمذى وابن عدّى ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ : ﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ مائتى مرة ، كتب اللّه له ألفا وخمسمائة حسنة ، ومحا عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين »(٢) ، وفى إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخارى وغيره ، ولفظ الترمذى : «من قرأ فى يوم مائتى مرة : ﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ محى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » ، وفى إسناده حاتم بن ميمون المذكور . وأخرج الترمذى ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عدّى والبيهقى عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : «من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه ، ثم قرأ : ﴿ **قل هو اللّه أحد** ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الربّ : ياعبدى ، ادخل على يمينك الجنة » (٣) وفى إسناده أيضا حاتم بن ميمون المذكور . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب من حديث ثابت ، وقد روى من غير هذا الوجه عنه . وأخرج ابن سعد وابن الضريس وأبو يعلى ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال: كان النبىّ ﷺ بالشام ، وفى لفظ : بتبوك ، فهبط جبريل فقال : يامحمد ، إن معاوية بن معاوية المزنى هلك ، أفتحبّ أن تصلى عليه ؟ قال : «نعم » ، فضرب بجناحه الأرض فتضعضع له كل شىء ولزق بالأرض ورفع له سريره فصلى عليه ، فقال النبىّ ﷺ : «من أىّ شىء أوتى معاوية هذا الفضل ، صلى عليه صفان من الملائكة فى كل صف ستة آلاف ملك ؟» قال : بقراءة : ﴿**قل هو اللّه أحد** ﴾ كان يقرؤها قائما وقاعدا وجائيا وذاهبا ونائما (٤) . وفى إسناده العلاء بن محمد الثقفى وهو متهم بالوضع . وروى عنه من وجه آخر بأطول من هذا ، وفى إسناده هذا المتهم . وفى الباب أحاديث فى هذا المعنى وغيره .

وقد روى من غير هذا الوجه أنها تعدل ثلث القرآن،وفيها ماهو صحيح وفيها ماهو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم ، والترمذى وصححه وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ: « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث

---

(١) أحمد ٣/ ١٥٠ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠١) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .

(٢) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٨) وقال : « حديث غريب » والبيهقى فى الشعب (٢٣١٦) .

(٣) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٨) والبيهقى فى الشعب (٢٣١٨) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦ وفى الشعب (٢٣٢٠ ، ٢٣٢١) وقال : مرسل .

القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » [١] . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » . يعنى: ﴿قل هو الله أحد﴾ [٢] . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » فشق ذلك عليهم، وقالوا : أينا يطيق ذلك ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » [٣] . وأخرج مسلم وغيره من حديث أبى الدرداء نحوه [٤] . وقد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة ، وحديث ابن مسعود ، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وروى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن ، وبعضها ضعيف .

ولو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى ومسلم وغيرهما أن النبى ﷺ بعث رجلا فى سرية ، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، فلما رجعوا ، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : «سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ » فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد [٥] . وأخرج البخارى أيضًا فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به ، افتتح بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يفرغ منها .ثم يقرأ سورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك فى كل ركعة . فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ،وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، قال : ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك ، فعلت ، وإن كرهتم ، تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، فكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : « يافلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟ » فقال : إنى أحبها . قال : « حبك إياها أدخلك الجنة » [٦] . وقد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى [٧] .

---

(١) مسلم فى صلا المسافرين وقصرها (٨١٢/ ٢٦١) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٠) وأحمد ٢/ ٤٢٩.

(٢) مالك ١/ ٢٠٨ . ط . دار الحديث ، وأحمد ٣/ ١٥ والبخارى فى التوحيد (٧٣٧٤) .

(٣) أحمد ٣/ ٨ والبخارى فى فضائل القرآن (٥ ١ ٠ ٥) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » .

(٤) مسلم فى صلاة المسافرين (٨١١ / ٢٥٩) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٦) .

(٥) البخارى فى التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٣ / ٢٦٣) .

(٦) البخارى فى الأذان (٧٧٤) .

(٧) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠١) وقال : «حسن غريب صحيح من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ .

قوله : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائدًا إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول ، وأن المشركين قالوا : يامحمد ، انسب لنا ربك . فيكون مبتدأ ، و﴿ **الله** ﴾ مبتدأ ثان . و ﴿ **أحد** ﴾ خبر المبتدأ الثانى ، والجملة خبر المبتدأ الأول . ويجوز أن يكون ﴿ **الله** ﴾ بدلا من ﴿ **هو** ﴾ والخبر ﴿ **أحد** ﴾. ويجوز أن يكون الله خبرًا أولاً، و﴿ **أحد**﴾ خبرًا ثانيًا ويجوز أن يكون ﴿ **أحد** ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف ، أى هو أحد . ويجوز أن يكون ﴿**هو**﴾ ضمير شأن لأنه موضع تعظيم . والجملة بعده مفسرة له، وخبر عنه . والأول أولى . قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله ، والمعنى : إن سألتم تبيين نسبته ،هو الله أحد . قيل : وهمزة ﴿ **أحد** ﴾ بدل من الواو . وأصله : واحد . وقال أبو البقاء: همزة ﴿ **أحد** ﴾ أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد . ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهرى : أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال : رجل أحد ، ولا درهم أحد . كما يقال : رجل واحد ، ودرهم واحد . قيل : والواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لا يدخل فيه ، فإذا قلت : لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان ، بخلاف قولك : لا يقاومه أحد . وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد : بأن الواحد يدخل فى العدد ، وأحد لا يدخل فيه . ورد عليه أبو حيان بأنه يقال : أحد وعشرون ، ونحوه ، فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى. ومن جملة القائلين بالقلب الخليل .قرأ الجمهور: ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ بإثبات ﴿ **قل** ﴾. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى : « الله أحد » بدون ﴿ **قل** ﴾ . وقرأ الأعمش : « قل هو الله الواحدى » . وقرأ الجمهور بتنوين ﴿ **أحد** ﴾ ، وهو الأصل . وقرأ زيد بن على وأبان بن عثمان وابن أبى إسحاق والحسن وأبو السماك وأبو عمرو فى رواية عنه بحذف التنوين للخفة، كما فى قول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقيل : إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف ، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين . ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر . ﴿ **الله الصمد** ﴾ الاسم الشريف مبتدأ ، و ﴿**الصمد**﴾ خبره . والصمد : هو الذى يصمد إليه فى الحاجات ، أى يقصد لكونه قادرًا على قضائها . فهو فعل بمعنى مفعول . كالقبض بمعنى المقبوض ؛ لأنه مصمود إليه ، أى مقصود إليه . قال الزجاج : الصمد : السند الذى انتهى إليه السؤدد . فلا سيد فوقه ، قال الشاعر :

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد | بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل : معنى الصمد : الدائم الباقى الذى لم يزل ، ولا يزول .وقيل : معنى الصمد : ما ذكر بعده من أنه الذى لم يلد ولم يولد . وقيل : هو المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وقيل : هو المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب . وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول . وقيل : هو الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . وقيل : هوالكامل الذى لا عيب فيه ، وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعطاء وعطية العوفى والسدى : الصمد : هو المصمت الذى لا جوف له ، ومنه قول الشاعر :

شهاب حروب لا تزال جياده | عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لا ينافى القول الأول ؛ لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ، ثم استعمل فى السيد المصمود إليه فى الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر :

علوته بحسام ثم قلت له | خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر :

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا | ولا رهينة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل ؛ للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة ؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى . وقيل : إن الصمد صفة للاسم الشريف ، والخبر هو ما بعده . والأول أولى ؛ لأن السياق يقتضى استقلال كل جملة . ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ أى لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شىء، لأنه لا يجانسه شىء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقًا ولا حقًا . قال قتادة : إن مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : ﴿ عزير ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] وقالت النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] فأكذبهم الله فقال : ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ . قال الرازى : قدم ذكر نفى الولد مع أن الولد مقدم؛ للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين : إن الملائكة بنات الله . واليهود : عزير ابن الله . والنصاري : المسيح ابن الله . ولم يدّع أحد له والدًا ، فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال : ﴿ **لم يلد** ﴾ ، ثم أشار إلى الحجة فقال : ﴿ **ولم يولد** ﴾ كأنه قيل : الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد فى الماضى ، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك فى المستقبل ؛ لأنه ورد جوابًا عن قولهم : ولد الله ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله ﴾ [الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] فلما كان المقصود

من هذه الآية تكذيب قولهم ، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفى فيما مضى ، وردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ : هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفًا بالصفات المتقدمة ، كان متصفًا بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله ولا يشاركه فى شيء . وأخر اسم كان لرعاية الفواصل . وقوله : ﴿ له ﴾ متعلق بقوله : ﴿ كفوا ﴾ قدم عليه لرعاية الاهتمام ؛ لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته . وقيل : إنه فى محل نصب على الحال . والأول أولى . وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدم الظرف ، كان هو الخبر، وها هنا لم يجعل خبراً مع تقدمه . وقد رد على المبرد بوجهين : أحدهما : أن سيبويه لم يجعل ذلك حتمًا ، بل جوزه . والثانى : أنّا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر ، بل يجوز أن يكون خبراً ، ويكون ﴿ كفواً ﴾ منتصبًا على الحال . وحكى فى الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقر ، واقتصر فى هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ، ولم ينظر إلى آخره . فإنه قال فى آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربى جيد كثير. انتهى . قرأ الجمهور :﴿ كفوا ﴾ بضم الكاف والفاء ، وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع فى رواية عنه بإسكان الفاء . وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلا ووقفًا . وقرأ نافع فى رواية عنه :« كفأ » بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد . وقرأ سليمان بن على بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد ، وأنشد قول النابغة :

لا تقذفنى بركن لا كفاء له

والكفء فى لغة العرب : النظير . يقول : هذا كفؤك ، أى نظيرك . والاسم : الكفاءة بالفتح .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والمحاملى فى أماليه ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن بريد ، لا أعلمه إلا رفعه ، قال : الصمد : الذى لا جوف له ، ولا يصح رفع هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الصمد : الذى لا جوف له . وفى لفظ : ليس له أحشاء . وأخرج ابن أبى عاصم وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عنه قال : الصمد : الذى لا يطعم ، وهو المصمت . وقال : أو ما سمعت النائحة وهى تقول :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لا يطعم عند القتال . وقد روى عنه أنه الذى يصمد إليه فى الحوائج ، وأنه أنشد البيت ، واستدل به على هذا المعنى ، وهو أظهر فى المدح ، وأدخل فى الشرف . وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،

وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : الصمد : السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد . وهو الله سبحانه . هذه صفة لا تنبغى إلا له ، ليس له كفو ، وليس كمثله شىء . وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود قال : الصمد : هو السيد الذى قد انتهى سؤدده فلا شىء أسود منه . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال : الصمد : الذى تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء . وأخرج ابن جرير من طرق عنه فى قوله : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ قال : ليس له كفو ولا مثل .

تفسير سورة الفلق

هى خمس آيات . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة .وأخرج أحمد والبزار والطبرانى وابن مردويه من طرق ، قال السيوطى: صحيحة ، عن ابن مسعود ؛ أنه كان يحك المعوذتين فى المصحف يقول : لا تخلطوا القرآن بما ليس منه ، إنهما ليستا من كتاب الله ، إنما أمر النبى ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما (١) . قال البزار : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة . وقد صح عن النبى ﷺ أنه قرأ بهما فى الصلاة ، وأثبتتا فى المصحف (٢) . وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن زر بن حبيش قال : أتيت المدينة فلقيت أبى بن كعب ، فقلت له : أبا المنذر إنى رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ، فقال : أما والذى بعث محمداً بالحق لقد سألت رسول الله ﷺ عنهما ، وما سألنى عنهما أحد منذ سألته (٣) غيرك . قال : « قيل لى : قل ، فقلت، فقولوا » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ(٤) .وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ سئل عن هاتين السورتين فقال : « قيل لى ، فقلت، فقولوا كما قلت » (٥) .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أنزلت على الليلة آيات لم أر مثلهن قط : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ »(٦) . وأخرج ابن الضريس وابن الأنبارى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ، أقرئنى سورة يوسف ، وسورة هود . قال: « يا عقبة اقرأ بـ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فإنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك ، فافعل » (٧) . وأخرج ابن سعد والنسائى والبغوى والبيهقى عن أبى حابس الجهنى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا حابس ، أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ هما المعوذتان » (٨) . وأخرج الترمذى وحسنه وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى، قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان ، ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورة المعوذتين ، أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك(٩) . وأخرج أبو داود والنسائى ، والحاكم

(١) أحمد ٥/ ١٢٩ ، ١٣٠ و الطبرانى (٩١٤٨ ، ٩١٥٢) .
(٢) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥١) عن عقبة بن عامر .
(٣) فى المطبوعة : « سأله » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٤) أحمد ٥/ ١٢٩ والبخارى فى التفسير (٧٩٧٦ / ٧٩٧٧) والنسائى فى التفسير (٧٦٤) وابن حبان (٧٩٤) .
(٥) الطبرانى (٩١٥١ ، ٩١٥٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٣ : « فيه إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف » .
(٦) أحمد ٤ / ١٤٤ ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٤ / ٢٦٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٧) والنسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥٥) .
(٧) صححه الحاكم ٢/ ٥٤٠ ووافقه الذهبى .
(٨) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٤١) والبيهقى فى الشعب (٢٣٣٩) ورجاله موثقون .
(٩) الترمذى فى الطب (٢٠٥٨) وقال : « حسن غريب » والبيهقى فى الشعب (٢٣٢٩) ورجاله ثقات .

وصححه عن ابن مسعود ؛ أن النبى ﷺ كان يكره عشرخصال، ومنها أنه كان يكره الرقى إلا بالمعوذتين .

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب السور إلى الله: ﴿ **قل أعوذ برب الفلق**﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ».وأخرج النسائى وابن الضريس ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن الأنبارى وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ، قال: أخذ بمنكبى رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اقرأ » . قلت : ما أقرأ بأبى أنت وأمى ؟ قال : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ . ثم قال : « اقرأ » . قلت : بأبى أنت وأمى ما أقرأ ؟ قال : «﴿قل أعوذ برب الناس ﴾ ولم تقرأ بمثلهما» [(١)] . وأخرج مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه ، كنت أقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتهما [(٢)] . وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور [(٣)] .

وأخرج عبد بن حميد فى مسنده عن زيد بن أرقم قال: سحر النبى ﷺ رجل من اليهود ، فاشتكى فأتاه جبريل ، فنزل عليه بالمعوذتين ، وقال : إن رجلاً من اليهود سحرك ، والسحر فى بئر فلان ، فأرسل عليا فجاء به ، فأمره أن يحل العقد ، ويقرأ آية ويحل ، حتى قام النبى ﷺ كأنما نشط من عقال . وأخرجه ابن مردويه والبيهقى من حديث عائشة مطولا. وكذلك أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس . وقد ورد فى فضل المعوذتين وفى قراءة رسول الله ﷺ لهما فى الصلاة وغيرهما أحاديث . وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج الطبرانى فى الصغير عن على بن أبى طالب قال : لدغت النبى ﷺ عقرب وهو يصلى . فلما فرغ قال : « لعن الله العقرب ، لا تدع مصلياً ولا غيره» ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ : ﴿قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾[(٤)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)** ﴾ .

الفلق : الصبح . يقال : هو أبين من فلق الصبح . وسمى فلقا ؛ لأنه يفلق عنه الليل . وهو فعل بمعنى مفعول . قال الزجاج : لأن الليل ينفلق عنه الصبح ، ويكون بمعنى مفعول .

---

(١) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥٤) وابن حبان (٧٩٣) .
(٢) مالك ٢/ ٩٤٣ . ط . دار الحديث .
(٣) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٦) ومسلم فى السلام (٢١٩٢ / ٥١) .
(٤) قال الهيثمى فى المجمع ٥/ ١١٤ : « رواه الطبرانى فى الصغير وإسناده حسن » .

يقال : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح . وهذا قول جمهور المفسرين ، ومنه قول ذي الرمة :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق　　　هادئة في أخريات الليل منتصب

وقول الآخر :

يا ليلة لم أنمها بت مرتفقا　　　أرعى النجوم إلى أن نور الفلق

وقيل : هو سجن في جهنم . وقيل : هو اسم من أسماء جهنم . وقيل : شجرة في النار . وقيل : هو الجبال والصخور؛ لأنها تفلق بالمياه ، أي تشقق . وقيل : هو التفليق بين الجبال ؛ لأنها تنشق من خوف الله . قال النحاس : يقال لكل ما اطمأن من الأرض : فلق ، ومنه قول زهير :

مازلت أرمقهم حتى إذا هبطت　　　أيدي الركاب بهم من راكس فلقا

والراكس : بطن الوادي ، ومثله قول النابغة :

أتاني ودوني راكس فالضواجع

وقيل : هو الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان ، والصبح ، والحب ، والنوى ، وكل شيء من نبات وغيره . قال الحسن والضحاك : قال القرطبي : هذا القول يشهد له الانشقاق ، فإن الفلق : الشق. فلقت الشيء فلقاً : شققته. والتفليق مثله . يقال : فلقته فانفلق وتفلق . فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق . قال الله سبحانه: ﴿ فالق الإصباح ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وقال: ﴿ فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام : ٩٥] . انتهى . والقول الأول أولى ؛ لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه ، لكنه المتبادر عند الإطلاق. وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه . وقيل : طلوع الصبح ، كالمثال لمجيء الفرح . فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح . وقيل : غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

﴿ من شر ما خلق ﴾ متعلق بـ ﴿ أعوذ ﴾ أي من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته ، فيعم جميع الشرور. وقيل : هو إبليس وذريته . وقيل : جهنم . ولا وجه لهذا التخصيص ، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية . وقد حرّف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرؤوا بتنوين : «شرٍ» على أن « ما » نافية ، والمعنى : من شر لم يخلقه . ومنهم عمرو بن عبيد ، وعمرو بن عائذ . ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الغاسق: الليل . والغسق : الظلمة. يقال : غسق الليل يغسق : إذا

أظلم . قال الفراء : يقال : غسق الليل وأغسق : إذا أظلم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

وقال الزجاج : قيل : ليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغسق : البرد . ولأن فى الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد،كذا قال .وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين . ووقوبه : دخول ظلامه ، ومنه قول الشاعر :

وقب العذاب عليهم فكأنهم لحقتهم نار السموم فأخمدوا

أى دخل العذاب عليهم . ويقال : وقبت الشمس : إذا غابت . وقيل: الغاسق : الثريا. وذلك أنها إذا سقطت ، كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد. وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق . وقال الزهرى : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ، ولم يلاحظ معنى الغسوق . وقيل: هو القمر إذا خسف . وقيل : إذا غاب . وبهذا قال قتادة وغيره . واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لما طلع فقال : « يا عائشة ، استعيذى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » (١) . قال الترمذى بعد إخراجه : حسن صحيح . وهذا لا ينافى قول الجمهور ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه . وهكذا يقال فى جواب من قال : إنه الثريا . قال ابن الأعرابى فى تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر . وقيل : الغاسق : الحية إذا لدغت . وقيل : الغاسق : كل هاجم يضر كائناً ما كان ، من قولهم : غسقت القرحة : إذا جرى صديدها. وقيل : الغاسق : هو السائل. وقد عرفناك أن الراجح فى تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول. ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر ، والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم : الليل أخفى للويل . ﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾ النفاثات : هن السواحر ، أى ومن شر النفوس النفاثات ، أو النساء النفاثات . والنفث: النفخ .كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر. قيل : مع ريق .وقيل بدون ريق . والعقد : جمع عقدة . وذلك أنهن لن ينفثن فى عقد الخيوط حين يسحرن بها ، ومنه قول عنترة :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يعقد فحق له العقود

وقول متمم بن نويرة :

---

(١) أحمد ٦/ ٢٣٧ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٦) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٣٠/ ٢٢٧ ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٠ ، ٥٤١ ووافقه الذهبى .

نفث فى الخيط شبيه الرقى　　　من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة : النفاثات : هن بنات لبيد الأعصم اليهودى ، سحرن النبى ﷺ . قرأ الجمهور : ﴿ النفاثات ﴾ جمع نفاثة على المبالغة . وقرأ يعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر : « النافثات » جمع نافثة . وقرأ الحسن : «النُفاثات » بضم النون . وقرأ أبو الربيع : « النفثات » بدون ألف . ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد﴾ الحسد : تمنى زوال النعمة التى أنعم الله بها على المحسود . ومعنى ﴿ إذا حسد ﴾ : إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه ، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود . قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد . وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة　　　يا ظالماً وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه فى هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شركل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره ، ومزيد ضره ، وهو الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ؛ فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال: «يا ابن عبسة ، أتدرى ما الفلق ؟ » قلت: الله ورسوله أعلم. قال : « بئر فى جهنم » . وأخرجه ابن أبى حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع . وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ :﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ هل تدرى ما الفلق ؟ باب فى النار إذا فتحت ، سعرت جهنم » . وأخرج ابن مردويه والديلمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال:« هو سجن فى جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتتعوذ بالله منه » . وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « الفلق : جب فى جهنم » [(١)] . وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، لكان المصير إليها واجباً ، والقول بها متعيناً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفلق : سجن فى جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : الفلق : الصبح .وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الفلق :الخلق . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ومن شر

---

(١) ابن جرير ٣٠/٢٢٧.

غاسق إذا وقب﴾ قال [(١)] : « النجم هو الغاسق ، وهو الثريا » [(٢)] . وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع . وقد قدمنا تأويل هذا ، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا ارتفعت النجوم ، رفعت كل عاهة عن كل بلد » . وهذا لو صح ، لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : **﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾** قال : الليل إذا أقبل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : **﴿ ومن شر النفاثات فى العقد﴾** قال : الساحرات . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو ما خالط السحر من الرقى . وأخرج النسائى وابن مردويه عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها ، فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً ،وكل إليه» [(٣)] . وأخرج ابن سعد وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن أبى هريرة قال :جاء النبى ﷺ يعودنى فقال : « ألا أرقيك برقية رقانى بها جبريل ؟ » فقلت : بلى بأبى أنت وأمى. قال : « بسم الله أرقيك ،والله يشفيك من كل داء فيك، من شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد » . فرقى بها ثلاث مرات [(٤)] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : **﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾** قال : نفس ابن آدم وعينه .

---

(١) فى المطبوعة : « وقال » والصحيح حذف الواو كما بالمخطوطة .

(٢) ابن جرير ٣٠/ ٢٢٧ .

(٣) النسائى فى الكبرى فى المحاربة (٣٥٤٢) .

(٤) ابن ماجة فى الطب (٣٥٢٤) والحاكم ٢/ ٥٤١ .

تفسير سورة الناس

هى ست آيات . والخلاف فى كونها مكية أو مدنية كالخلاف الذى تقدم فى سورة الفلق . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : انزل بمكة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزل بالمدينة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . وقد قدمنا فى سورة الفلق ما ورد فى سبب نزول هذه السورة ، وما ورد فى فضلها فارجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ قل أعوذ ﴾ بالهمزة . وقرئ بحذفها ونقل حركتها إلى اللام . وقرأ الجمهور بترك الإمالة فى الناس. وقرأ الكسائى بالإمالة . ومعنى ﴿ رب الناس ﴾ : مالك أمرهم ، ومصلح أحوالهم . وإنما قال : ﴿رب الناس﴾ مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ، ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس فى صدورهم . وقوله : ﴿ملك الناس﴾ عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل ، والسلطان القاهر . ﴿ إله الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان كالذى قبله ، لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى بالاتحاد والإعدام . وأيضا الرب قد يكون ملكاً ، وقد لا يكون ملكاً ، كما يقال : رب الدار ، ورب المتاع ، ومنه قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة : ٣١] فبين أنه ملك الناس، ثم الملك قد يكون إلهاً ، وقد لا يكون، فبين أنه إله ؛ لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد . وأيضا بدأ باسم الرب ، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك ، فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إله معبود ، بين سبحانه أنه إله الناس ، وكرر لفظ الناس فى الثلاثة المواضع ؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار ، ولأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس.

﴿ من شر الوسواس ﴾ قال الفراء : هو بفتح الواو ، بمعنى الاسم ، أى الموسوس ، وبكسرها المصدر ، أى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة . وقيل : هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة . والوسوسة : هى حديث النفس . يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة ، أى حدثته حديثاً ، وأصلها الصوت الخفى . ومنه قيل لأصوات الحلى : وسواس ، ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت

قال الزجاج : الوسواس : هو الشيطان ، أي ذي الوسواس . ويقال : إن الوسواس :ابن لإبليس . وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ [الأعراف : ٢٠] ﴿ **الخناس** ﴾ : كثير الخنس ، وهو التأخر . يقال : خنس يخنس : إذا تأخر ، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله ﷺ :

فإن دخسوا بالشر فاعف تكرماً ... وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد : إذا ذكر الله ، خنس وانقبض . وإذا لم يذكر ، انبسط على القلب . ووصف بالخناس ؛ لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ [التكوير: ١٥] يعني : النجوم ؛ لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم. وقيل : الخناس : اسم لابن إبليس كما تقدم في الوسواس . ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾ الموصول يجوز أن يكون في محل جر نعتاً للوسواس ، ويجوز أن يكون منصوبا على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ . وقد تقدم معنى الوسوسة . قال قتادة : إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له . وإذا ذكر العبد ربه ، خنس . قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه، سلطه الله على ذلك . ووسوسته : هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان : جني ، وإنسي ، فقال : ﴿ **من الجنة والناس**﴾ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه : ﴿شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام: ١١٢] ويجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ **يوسوس** ﴾ أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ، ومن جهة الناس . ويجوز أن يكون بياناً للناس . قال الرازي : وقال قوم : ﴿ **من الجنة والناس**﴾ قسمان مندرجان تحت قوله : ﴿ **في صدور الناس** ﴾؛ لأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنسانا . والإنسان أيضاً يسمى إنسانا ، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس والنوع بالاشتراك . والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روى أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم : من أنتم ؟ قالوا : ناس من الجن . وأيضا قد سماهم الله رجالاً في قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ [الجن : ٦] . وقيل : يجوز أن يكون المراد : أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس . وقيل : المراد بالناس : الناسي ، وسقطت الباء كسقوطها في قوله : ﴿ يوم يدع الداع﴾ [القمر : ٦] ثم بين بالجنة والناس ؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى

بالنسيان . وأحسن من هذا أن يكون قوله : ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس ، أى من شر الوسواس ، ومن شر الناس ، كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس . قال الحسن : أما شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتى علانية . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فتعوذ بالله من شياطين الجن والإنس . وقيل : إن إبليس يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الإنس ، وواحد الجنة جنى ، كما أن واحد الإنس إنسى . والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال . وإن كان وسوسة الإنس فى صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذى قدمنا . ويكون هذا البيان تذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ، ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وقد أخرج ابن أبى داود عن معاوية [١] فى قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس ، وإن سكت عاد إليه ، فهو الوسواس الخناس . وأخرج ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان ، وأبو يعلى وابن شاهين ، والبيهقى فى الشعب عن أنس عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسيه التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس» [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿الوسواس الخناس ﴾ قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة ، والبيهقى عنه قال : ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله : ﴿ الوسواس الخناس﴾ . وقد ورد فى معنى هذا غيره ، وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان ، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة. ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن على بن محمد الشوكانى ، غفر الله له ذنوبه . وكان الفراغ منه فى ضحوة يوم السبت ، لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين ، بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية .

اللهم كما مننت على بإكمال هذا التفسير ، وأعنتنى على تحصيله ، وتفضلت على بالفراغ منه ، فامنن على بقبوله، واجعله لى ذخيرة خير عندك ، وأجزل لى المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب فى تحريره وتقريره ، وانفع به من شئت من عبادك ليدوم لى الانتفاع به بعد موتى ، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف ، واجعله خالصاً لك ، وتجاوز عنى إذا خطر لى من

---

(١) فى المخطوطة : « ابن عباس » وفى الدر المنثور ٦/ ٤٢٠ : « معاوية » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٥٢ : « رواه أبو يعلى ، وفيه عدى بن عمارة وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (٥٣٦) وإسناده ضعيف .

خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص ، واغفر لى ما لا يطابق مرادك ، فإنى لم أقصد فى جميع أبحاثى فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه ، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات ، ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، ياباريئ البريات ، وأحمدك لا أحصى حمداً لك ، وأشكرك لا أحصى شكرك، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأصلى وأسلم على رسولك وآله . ا هـ .

تم سماعاً على مؤلفه ، حفظ الله عزته يوم الإثنين صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٤١ هـ .

كتبه

يحيى بن على الشوكانى

غفـرالله لهما

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد

تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

تفسير سورة الحشر

تفسير سورة الممتحنة

تفسير سورة الصف

تفسير سورة الجمعة

تفسير سورة المنافقون

تفسير سورة التغابن

تفسير سورة الطلاق

تفسير سورة التحريم

تفسير سورة تبارك

تفسير سورة القلم

تفسير سورة الحاقة

تفسير سورة المعارج

تفسير سورة نوح

تفسير سورة الجن

تفسير سورة المزمل

تفسير سورة المدثر

تفسير سورة القيامة

تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

تفسير سورة النبأ

تفسير سورة النازعات

تفسير سورة عبس

تفسير سورة التكوير

تفسير سورة الانفطار

تفسير سورة المطففين

تفسير سورة الانشقاق

تفسير سورة البروج

تفسير سورة الطارق

تفسير سورة الأعلى

تفسير سورة الغاشية

تفسير سورة الفجر

تفسير سورة البلد

تفسير سورة الشمس

تفسير سورة الليل

تفسير سورة الضحى

تفسير سورة ألم نشرح

تفسير سورة التين

تفسير سورة العلق

تفسير سورة القدر

تفسير سورة البينة

تفسير سورة الزلزلة

تفسير سورة العاديات

تفسير سورة القارعة

تفسير سورة التكاثر

تفسير سورة العصر

تفسير سورة الهمزة

تفسير سورة الفيل

تفسير سورة قريش

تفسير سورة الماعون

تفسير سورة الكوثر

تفسير سورة الكافرون

تفسير سورة النصر

تفسير سورة تبت

تفسير سورة الإخلاص

تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

رقم الإيداع : ٥٩٦٧ / ١٩٩٤ م
I.S.B.N:977-15-0122-4